رسالة ماجستير

بعنوان

صورة الصليبيين في الأدب العربي

إعداد

عبد القادر شريف عبد الله أبو شريفة

١٩٧٧ / ١٩٧٨

بإشراف

الأستاذ الدكتور محمود إبراهيم

قدمت هذه الرسالة استكمالا لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها بكلية الآداب في الجامعة الأردنية.

(بسم الله الرحمن الرحيم)

(مقدمة)

قسّم الأدب العربي تقسيما تاريخيا الى عصور مختلفة ، كل قسم يُدْرَسُ من خلاله فترة قائمة بنفسها ، لها ميزاتها وخصائصها الفنية ، بدءا بالعصر الجاهلي وانتهاء بالعصر الحديث .

وقد كان لهذا التقسيم أثر غير محمود في فهم الأدب العربي ، إذ جُمِّد في أطر تاريخية منفصلة ، تبدأ بسنة كذا وتنتهي بسنة كذا ...

وفي اطار هذا التقسيم التاريخي للادب ، وصفت بعض العصور بالقوة والازدهار ، ووصفت عصور أخرى بالجمود والانحطاط ، ولو حاولنا معرفة السبب في هذه الاحكام ، لكان في تصور من قالوا بها – مرتبطا في الغالب بالاوضاع السياسية للدولة الاسلامية .

هذا الربط بين السياسة والأدب هو الذي كان من وراء بعض التصورات الخاطئة وهو الذى أبعد أدب الحروب الصليبية عن منطقة الضوء ، علما بأن أدب هذه الفترة أدب خصب ، ذو أهمية خاصة نظرا لما يرتبط به من صراع طويل مرير بين أمتين وحضارتين .

وهنا نتساءل ، حتى لو سلمنا بأن هذا العصر عصر تمزق سياسي ، هل كل ضعف سياسي ينتج عنه ضعف في الانتاج الادبي ؟ والجواب – بالطبع – لا ، ويمكن تقديم الشواهد على ذلك من أدب الشرق وأدب الغرب على السواء .

والحقيقة ، أن الذين وصفوا هذا العصر بالجمود ، انما أطلقوا أحكامهم بناء على تصور نظري ، ولم يعنوا أنفسهم باحتمال مشاق البحث والتثبت ، حتى كأن الظاهرة أشهر من أن تعلل أو يبين لها سبب ، ولو رجعوا الى ما وصلنا من أدب هذه الفترة لتبينوا ما في أحكامهم من خطأ ، وذلك لأنهم أصدروا حكما دون التثبت من صحته ، مخالفين أصول المنهج العلمي السليم ، مما نتج عنه تصور بقي مقبولا حتى وقت قريب .

وقد كان للجامعة الأردنية الفضل في طرح مساقات يُدَرَّس فيها أدب هذه الفترة وذلك منذ عام ١٩٧٣ ، حين أعتمد قسم اللغة العربية تدريس مادة : أدب الحروب الصليبية " ضمن المواد الادبية التي يدرسها . وقد لاقت هذه المادة اقبالا جيدا من الطلاب وذلك لأنها مادة جديدة ، ومرتبطة بأوضاع قائمة في زماننا هذا . وتبين من دراسة هذه المادة خصب الانتاج الادبي في هذه الفترة ما جعل الطلاب يتمنون أن تضاء جوانب الحياة فيها ، لتنال من العناية ما نالته الفترات الاخرى .

وبعد دراسة تاريخ القرنين السادس والسابع الهجريين ، وما دار فيهما من صراع مرير ، وجدت رغبة ملحة في نفسي – لا سيما بعد نصيحة أستاذي :

الدكتور عبدالكريم خليفة ، والدكتور محمود ابراهيم — بأن استقصي صور هذا الصراع ، وصورة المحتلين ، فكانت هذه الدراسة بعنوان : " صورة الصليبيين في الادب العربي " .

ومما قوى هذه الرغبة في نفسي ، هذا التشابه بين الاوضاع القاسية التي مرت بها أمتنا ، والاوضاع التي تمر بها حاليا ، فقد تعرضت الامة فيما مضى لغزو استعماري استيطاني استهدف الارض والانسان ، وحاول بكل ما أوتي من قوة وجبروت ، أن يخلع جذور هذه الامة من الارض المقدسة ، وقد أحرز فعلا نجاحا كبيرا فيما حاوله ، فاحتل أجزاء كبيرة من أرض المشرق الاسلامي ، وبقي خطره يتفاقم الى أن بدأت ردة الفعل الاسلامية للغزو ، التي انتهت بخروج الصليبيين نهائيا من ديار الاسلام .

وفي الزمن الحاضر ، غرس في مشرقنا الاسلامي ، كذلك ، جسم غريب ، ابتلع أرض فلسطين ، ثم تجاوزها الى أرض عربية أخرى ، وما زالت أطماعه التوسعية تبدو في كل تصرف من تصرفاته .

على أن عاملا آخر قد شجعني على دراسة هذه الفترة أيضا ، ذلك هو أنها لم تحظ بدراسات كافية شاملة في وقتنا الحاضر ، وقد يكون من المفيد أن أقدم استعراضا سريعا لهذه الدراسات لكي يتبين موقع هذه الدراسة منها :

الدراسة الأولى ، هي دراسة الدكتور عبداللطيف حمزة بعنوان "أدب الحروب الصليبية " وقد بين المؤلف في مقدمته أن الكتاب جاء استجابة لرغبة المجمع الملكي للغة العربية في مصر سنة ١٩٤٨ " إذ دعا الكتاب والمؤرخين الى الكتابة في هذا الموضوع الجليل " ، وقد احتوى هذا الكتاب عرضا تاريخيا لمراحل الحروب الصليبية ، ثم ركز على دور مصر في هذه الحروب ، وقد أثبت المؤلف عددا من القصائد قيلت في المعارك المشهورة ، وهذا يعني أن المؤلف قد سار على النهج التقليدي في كتابة التاريخ الأدبي ، وقد قام المؤلف نفسه ، كذلك ، بدراسة أخرى أسماها " الادب المصري من قيام الدولة الايوبية الى مجيء الحملة الفرنسية " (٢) وجاء هذا الكتاب ملخصا للكتاب الأول ، ولكنه تجاوز الفترة الى ما بعد الحروب الصليبية حتى الحملة الفرنسية على مصر .

والدراسة الثانية ، هي : كتاب محمد سيد كيلاني " الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام " (٣) ، وقد احتوى الكتاب عرضا تاريخيا موجزا ، ودراسة بسيطة عن الحالة الاجتماعية المتولدة عن هذه الحروب في مصر والشام ، ثم تعريفا موجزا بأشهر شعراء هذه الفترة وكتابها .

---

(١) د . عبداللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، مطبعة الاعتماد ، نشر دار الفكر العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

(٢) د . عبداللطيف حمزة ، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية الى مجيء الحملة الفرنسية ، مكتبة نهضة مصر ، مصر ، ؟

(٣) محمد سيد كيلاني ، الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي في مصر والشام دار الكتاب العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

وفي هذا الكتاب أستنتاجات لا تستند الى دليل ، ومنها ما هو مغالطات تحتاج الى برهان (١) ، ولكنه مع هذا ينقل مادة أدبية غزيرة ولو أنه لا يذكر مصادرها .

والدراسة الثالثة ، قدمها د . محمد كامل حسين ضمن كتابه " أدب مصر الفاطمية " (٢) وقد أشار أشارة سريعة الى دور الفاطميين في هذه الحروب .

والدراسة الرابعة ، قدمها ، د . أحمد أحمد بدوى بعنوان : " الحياة الادبية بمصر والشام " (٣) وفيها عرض للحياة الادبية والسياسية والاجتماعية في مصر والشام ، وإلمامة بسيطة بحياة الصليبيين جاءت تحت عنوان : " تصوير الفرنج " وقد أعتمد على كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ ، فذكر الصفات التي أوردها أسامة بأختصار شديد .

والدراسة الخامسة ، قام بها ، ايضا د . محمد كامل حسين بعنوان " دراسات في الشعر في عصر الايوبيين " (٤) وفيها تركيز على الأدب في مصر زمن الايوبيين ، ودور مصر في الحروب ، مع أثبات نصوص شعرية ونثرية عن المعارك التي جرت مع الصليبيين .

والدراسة السادسة قام بها ، د . عبد العزيز الأهواني بعنوان " أبن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر " (٥) ، وقد وصف هذا العصر بالجمود ، معللا أياه بأسباب عامه قد لا تنطبق كلها على العصر ، ومنها ما لا ينطبق حتى على شعر ابن سناء الملك نفسه .

والدراسة السابعة ، قام بها ، محمود مصطفى ، بعنوان " الأدب العربي في مصر من الفتح الإسلامي الى نهاية العصر الأيوبي " (٦) وفيها ميل عاطفي يتمثل بالإعجاب المفرط بالأدب في هذه الفترة ، وإبراز دور مصر فيه .

---

(١) الحروب الصليبية في الأدب العربي في مصر والشام ٩ ، ٢١ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٧ ، ٥٢ ، ١٠١ ، ١٠٤ ...

(٢) د . محمد كامل حسين ، أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي ، مصر ، ١٩٥٠

(٣) د . أحمد أحمد بدوي ، الحياة الأدبية بمصر والشام ، مكتبة نهضة مصر ، مصر ١٩٥٤

(٤) د . محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الايوبيين ، دار الكتاب المصري مصر سنة ١٩٥٧

(٥) د . عبد العزيز الأهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ، سنة ١٩٦٢

(٦) محمود مصطفى ، الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الأيوبي ، المؤسسة المصرية للتأليف والنشر ، مصر ، سنة ١٩٦٧

والدراستان الثامنة والتاسعة قام بهما د • محمد زغلول سلام ، بعنوان " الأدب في العصر الأيوبي "(١) و " الأدب في العصر المملوكي "(٢) وقد تحدث فيها عن النواحي السياسية والإجتماعية ، وحالة الأدب والأدباء ، وأورد تعريفات سريعة ببعض الادباء والشعراء •

والدراسة العاشرة قام بها د • عمر موسى باشا ، بعنوان " الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والأيوبيين والمماليك "(٣) وهي دراسة مسطحة شاملة لفترة الحروب الصليبية وما واكبها من شعر أو نثر من تقويم فني لهذا الأدب •

والدراسة الحادية عشرة قام بها فاروق جرار ، بعنوان " محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره " (٤) وفيها ترجمة للشاعر ودراسة لقصائده •

والدراسة الثانية عشرة قام بها د • محمود ابراهيم ، بعنوان : " صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني "(٥) وفيها تحليل لشعره ، ونظر مستقص في فنه الادبي •

والدراسة الثالثة عشرة قام بها هادي نهر ، بعنوان : " معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية " (٦) وهي رسالة ماجستير لم تطبع بعد ، وفيها دراسة للشعر الذي مجد نور الدين محمود في حروبه مع الفرنج من نظر سريع في السمات الفنيه لهذا الشعر •

مما مضى يتبين أن مجموع الدراسات التي تناولت الفترة بلغ ، فيما أعلم ، ثلاث عشرة دراسة ،كان معظمها يركز على دور مصر في الأحداث ، في حين عرض بعضها للمادة الادبية في أطار الاحداث التاريخية • وقد ركزت هذه الدراسات على تصوير الجانب الاسلامي ، أما الفرنج فلم تفرد لهم دراسات خاصه ، بأستثناء اشارات غير مستقصية •

وقد يتبادر الى الذهن أن أدب هذه الفترة قد رسم صورة قاتمة للصليبيين ، لأن العلاقات التي كانت قائمة بين المجتمعين هي علاقات دموية ، يسودها الحقد والكره والالم •

---

(١)　د • محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الايوبي ،دار المعارف،مصر ١٩٦٧ •

(٢)　د • محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي ،دار المعارف ،مصر سنة ١٩٧٠ •

(٣)　د • عمر موسى باشا ، الأدب في بلاد الشام ،عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك دار الفكر الحديث ، دمشق ، سنة ١٩٦٧ •

(٤)　فاروق جرار ، محمد بن نصر القيسراني حياته وشعره ، المطبعة التعاونية عمان سنة ١٩٧٤ •

(٥)　د • محمود ابراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ،المكتب الاسلامي ومكتبة الاقصى ، دمشق ، عمان سنة ١٩٧١ •

(٦)　هادي نهر ، معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية ، جامعة القاهرة،رقم ٩٠٣ سنة ١٩٧٥

ولكن ، بعد دراسة المادة ، ظهر لي أن هذا الصراع الدموي ، الذي صوره أدب هذه الفترة قد قدّم في صور متعددة ، منها ما يتعلق بمظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية للغزاة ، ومنها ما يتعلق بالعلاقات بينهم وبين المسلمين خلال فترات الهدن المؤقتة التي كانت تعقد بين الطرفين .

وبعد جمع المادة الشعرية والنثرية من المصادر الأساسية قمت بدراستها وتحليلها ثم تصنيفها الى فروع تشكل الاطار الكلي لصورة الصليبيين في الادب العربي .

ولما كانت المادة واسعة ، والشواهد كثيرة ، فقد أوردت بعض الشواهد وأحلت القارئ الى مصادر الشواهد الاخرى خشية الاطالة .

وقد قسمت الرسالة الى ثلاثة أبواب وخاتمة ، أما الباب الاول فقد تحدثت فيه عن الشرق الاسلامي قبيل الغزو الصليبي وأوضحت فيه الحالة السياسية في العراق وبلاد الشام ومصر ... ودور كل منها في الحروب الصليبية ، كما أوجزت أوضاع الغرب الأوربي قبيل الغزو ، والاسباب التي دفعتهم الى مهاجمة الشرق الاسلامي ... وحددت في هذا الفصل المناطق التي تعرضت للغزو ، وما نتج عن هذا الغزو من آثار . وأما الباب الثاني فقد بينت فيما النظرة الاسلامية للصراع ، ووجدت أنها نظرة دينية لصراع حربي ، أسهب الأدب في توضيح عناصره ، فوصف الجيش الصليبي وقوته وأمداداته ، وأسلحته ومعداته ، وقلاعه وتحصيناته ، ومعاركه وخططه ... كما أوضح خطر هؤلاء الغزاة على الاسلام والمسلمين والبلاد الاسلامية جميعها .

وقد صور الادب كذلك ، حياة الصليبيين الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وكانت صورة الحياة الاجتماعية فيه أوضح من صورة الحياتين السياسية والاقتصادية .

وأما الباب الثالث فقد أشتمل على دراسة فنية للشعر والنثر ، وما أحتوياه من خصائص ثم مقارنة بين أسلوبي الشعر والنثر في تقديم صورة الغزاة . وأما الخاتمة فقد لخصت فيها نتائج البحث وما توصلت اليه من حقائق ، ثم أتبعتها بعدة ملاحق :

١ . ملحق شعري : وقد رتبته حسب وفيات الشعراء ما أمكن ، وإن تعذرت معرفة سنة الوفاة كنت أدون الشعر حسب السنة التي قيلت فيها القصيدة أو القصائد . وفي أطار هذا النظام أوردت القصائد مرتبة حسب القوافي ترتيبا أبجديا .

٢ . ملحق بمعاني المصطلحات الحربية المستعملة آنذاك .

٣ . قوائم بحكام المسلمين والصليبيين في فترة الصراع .

٤ . جدول بتحويل السنوات الهجرية الى ميلادية .

٥ . الخرائط وهي أربع : توضح الاولى منها الحروب الصليبية بشكل عام ، وتوضح الثانية الإمارات الصليبية الاربع ، وتوضح الثالثة ممتلكات الصليبيين بعد معركة حطين ، وتوضح الرابعة أسماء الاماكن التي جرت فيها المعارك أو التي ورد ذكرها في الشعر أو النثر .

أما المصادر التي اعتمدت عليها في هذه الرسالة فهي كثيرة ، بسبب طول الفترة واتساع ميدان الصراع ، ... ولذلك سأقتصر على المهم منها ، والباقي يجده القارئ في فهرس المصادر والمراجع :

أ . الدواوين الشعرية :

١ . ديـــوان ابن الخياط : ـ ٥١٧ هـ وفيه قصيدة تسجل الاحداث الاولى للحروب الصليبية .

٢ . ديـــوان ابن القيسراني : ـ ٥٤٨ وفيه عدد من القصائد التي تصف الحياة الاجتماعية وما زال الديوان مخطوطا .

٣ . ديـــوان طلائع بن رزيك ـ ٥٥٦ ، وفيه قصائد عن حروبه مع الفرنج ، واستحثاث لنور الدين محمود على تعاون مصر والشام في الصراع القائم ضد الغزاة .

٤ . ديـــوان أسامة بن منقذ ـ ٥٨٤ هـ وفيه مراسلات بينه وبين طلائع بن رزيك حول الحروب ، والحث على التضامن بين مصر والشام .

٥ . ديـــوان ابن الساعاتي ـ ٦٠٤ وفيه قصائد عن الفتوح الكبرى زمن صلاح الدين

٦ . ديـــوان ابن سناء الملك ـ ٦٠٨ هـ وفيه قصائد عن الفتوح الكبرى زمن صلاح الديـــن .

٧ . ديـــوان فتيان الشاغوري ـ ٦١٥ هـ وفيه قصائد عن الفتوح الكبرى زمن صلاح الديـــن .

٨ . ديـــوان ابن النبيه ـ ٦٢٠ هـ وفيه قصائد عن معركة دمياط زمن الملك الكامل ابن العـــادل .

٩ . ديـــوان ابن مطروح ـ ٦٤٩ هـ وفيه قصيدة عن حصار دمياط سنة ٦٤٧

١٠ . ديـــوان ابن دنينير ـ ٦٥٠ هـ وفيه عدة قصائد عن حصار دمياط سنة ٦١٤ وما زال الديوان مخطوطا في المكتبة الظاهرية بدمشق .

١١ . ديـــوان البهاء زهير ـ ٦٥٦ هـ .

١٢ . ديـــوان البوصيري ـ ٦٩٦ هـ وفيه قصائد طويلة تحمل طابعا دينيا وآخيا هذا بالاضافة الى ثمانية دواوين أخرى أشير اليها في قائمة المصادر والمراجع .

ب. المصادر الأدبية والتاريخية مرتبة حسب وفيات أصحابها :

١. الاعتبار لأسامة بن منقذ – ٥٨٤ وقد صور فيه بعض النواحي الاجتماعية في حياة الصليبيين بالمسلمين في عصره ، وتمتاز كتابته بالصدق والواقعية ، نظرا لمباشرته للفرنج مدة طويلة .

٢. الفتح القسي في الفتح القدسي للعماد الأصفهاني – ٥٩٧ ، وقد حوى تاريخ سبعة أعوام ابتداء من عام ٥٨٣ وفيه وصف دقيق لبعض عادات الفرنج بلغة بديعية مزخرفة .

٣. خريدة القصر وجريدة العصر للعماد الأصفهاني – ٥٩٧ وتقع في عدة مجلدات مقسمة على بيئات مختلفة منها الشام ، ومصر والعراق ، وتحتوى هذه المجلدات تراجم أدباء القرن السادس ممن عاصروا المؤلف ، ومنتخبات من أنتاجهم .

٤. رحلة ابن جبير – ٦١٤ وقد وصف فيها حال بعض بلدان الشام زمن صلاح الدين ، ما كان منها في حكم المسلمين ، وما كان منها تحت الاحتلال الصليبي وأورد وصفا حيا لبعض عادات الصليبيين كما شهدها في الأرض المحتلة .

٥. الكامل لابن الاثير – ٦٣٠ ويحتوى تاريخا لأحداث الحروب الصليبية ، وبعض القصائد التي قيلت في الحروب .

٦. النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، لبهاء الدين بن شداد – ٦٣٢ هـ وقد ألفه عن صلاح الدين ، وقسمه الى قسمين : الاول : في مولده ومنشئه وخصائصه والثاني : في تقلبات الاحوال به ووقائعه ، وفيه وصف للصليبيين وأدواتهم القتالية وخططهم الحربية .

٧. زبدة الحلب من تاريخ حلب لابن العديم – ٦٦٠ هـ ويحتوى تاريخا لاحداث الحروب الصليبية .

٨. كتاب الروضتين في أخبار الدولتين وكتاب الذيل على الروضتين لابي شامة المقدسي – ٦٦٥ هـ ويحتويان مادة شعرية ونثرية خصبة جدا ... ويعتمد المؤلف في أخباره على المؤرخين الذين سبقوه وعلى دواوين الشعراء ، وقد حفظ كثيرا من النصوص من الضياع .

٩. الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية للملك الامجد الحسن بن داوود – ٦٧٠هـ وهو مخطوط في دار الكتب المصرية ، ويحتوى عدة رسائل لوالده ، ومنها تلك التي بعثها الى الملك الصالح أيوب يحرضه على قتال الفرنج .

١٠ • تشريف الايام والعصور لابن عبد الظاهر ـ ٦٩٢ ، وهو في سيرة الملك المنصور وفيه توضيح للسنوات الاخيرة من الحروب الصليبية .

١١ • مفرج الكروب في أخبار بني أيوب لابن واصل ـ ٦٩٧ هـ ويقع في أربعة مجلدات ،يتحدث فيها عن الملوك من بني أيوب ، وفيه شعر مرتبط بالاحداث الهامة .

١٢ • نهاية الارب للنويري ـ ٧٣٢ هـ وهو في ثلاثين مجلدا وقد أعتمدت على الاجزاء التالية : الخامس ، والسابع ، والثامن ،وهي مطبوعة والجزء السابع والعشرين وهو مخطوط ، وفي هذه الاجزاء بعض الرسائل والمعاهدات المرتبطة بالحروب الصليبية .

١٣ • تاريخ ابن الفرات ـ ٨٠٧ هـ وهو في عدة مجلدات ،وفيه تاريخ للحوادث وذكر للاشعار التي ترتبط ببعض هذه الحوادث .

١٤ • عقد الجمان للعيني ـ ٨٥٥ هـ وهي أجزاء كثيرة ما زالت مخطوطة بدار الكتب وفيها ، بعض القصائد التي لا توجد في المؤلفات الاخرى

هذه بعض المصادر الاساسية التي أعتمدت عليها ، ويجد القارئ مجموعة كبيرة في قائمة المراجع والمصادر ، وهناك مصدران فرنجيان معاصران للحروب الصليبية ، لا بد من الاشارة اليهما وهما كتاب مؤرخ مجهول حققه د . حسن حبشي وفيه وصف لبعض الاحداث والكتاب الثاني هو مذكرات كتبها جوانفيل أحد مرافقي الملك لويس التاسع الفرنسي في حملته على مصر .

ومما يجدر ذكره أن المصادر العربية تتميز بصدقها ودقتها وقد نوه كل من هاملتون جب وقلهب حتي بدقة هذه المصادر .

هذا ،وقد أعترضتني بعض الصعوبات في هذه الدراسة ، أهمها : أنها تشتمل الشعر والنثر معا ، وتستغرق فترة الحروب الصليبية كلها في بلاد الشام ومصر مع أن الزمن المحدد يضيق عن الوفاء بما تتطلبه دراسة واسعة كهذه ، لا سيما أن بعض المخطوطات لم يتيسر لي الحصول عليها في الأردن ، مما أضطرني الى السفر الى سوريا ولبنان ومصر ، وكان من فضل الله علي أن اقترن السعي بالتوفيق فلله الحمد على ذلك .

ولا يفوتني أن أشكر أستاذى الفاضل د . محمود ابراهيم الذى أشرف على هذه الرسالة ، فأبدى توجيهاته وأرشاداته وأمنني العثار والزلل ، وقدم لي بعض المصادر التي تعذر الحصول عليها لولاه .

وأخيرا ، أقول ما قال العماد : " إني رأيت أنه لا يكتب انسان كتابا في يومه إلا قال في غده ، لو غُيِّر هذا لكان أحسن ، ولو زيد لكان يُستحسن ، ولو قدم هذا لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذه أعظم العبر ، وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر " .

فأحمد الله إن أصبت ، وأعتذر للقارئ ان أخطأت ، وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ...

عبد القادر أبو شريفة

الجامعة الاردنية

١٩٧٧ / ١٩٧٨ م

الباب الاول

توطئة تاريخية

الفصل الأول : الشرق الإسلامي قبيل الغزو الصليبي

الفصل الثاني : الغرب الأوروبي قبيل الغزو الصليبي

الفصل الثالث : الصراع : ميدانه وزمانه

الفصـــــل الأول

الشرق الاسلامي قبيل الغــــزو الصليبـــــي

شهد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي ، صراعا عنيفا بين الروم والمسلمـــين تمكن الروم خلاله من السيطرة على أجزاء من بلاد الشام ، ولـو لم تقف الدولة الفاطمية في وجـــه الغزو البيزنطي لاحتلوا بلاد الشام حتى القدس (١) ، وقد ساعد على وقف هذا الغزو كذلـــك انشغال الامبراطور البيزنطي باسل الثاني بشؤون أرمينية ، إذ كانت تمر بمرحلة ضعف أغــرى الامبراطور بها ، فضمها الى ممتلكاته ، وأقام فيها الحاميات وأنفق عليها الاموال الطائلـــة ليجنبها مخاطر القوى الاسلاميـــة ، ولكن مساحتها الشاسعة ، وضعفها الذي ساعد علـــى تمكن الروم من احتلالها جعلا هذه الخطوة غير محمودة العواقب بالنسبة الى الدولة البيزنطية ، فقد ظهرت مخاطر تهدد كيان الدولة البيزنطية من الشمال بسبب الغارات المتكررة التي تقـــام بها الهلغار ، مما سبب هجرة المواطنين في البلقان ، وترك الاراضي الزراعية ، فجـــرد الامبراطور عدة حملات ليوقف هجمات تلك القبائل (١) . وفي الوقت نفسه ظهرت قوة أخرى فـــي المشرق من أخلاط القبائل التركية ، كانت تعتمد في معيشتها على الاغارة والنهب ، حتى دخلت ديار الاسلام فأسلم زعيمهم سلجوق بن دقاق * ، وأقام بنواحي بخارى حتى مات ، فخلفه أبنـــه ميكائيل ** ، وبعد موته تولى الأمر أبنه طغرلبك (٢) .

انتهز طغرلبك تصارع القوى في فارس والعراق ، فمال نحو الغزنويين لقربهم إليه ، ضد البويهيين ، وقد حقق الغزنويون أنتصارات وسعت مملكتهم ، لكن طغرلبك لم ينله منها شيء ، فعمد الى استمالة التركمان في نواحي خراسان مما زاد من قوته ، وحدثته نفسه بالانفصال عــن الغزنويـين ، فأحس السلطان مسعود الغزنوي ـ خليفة السلطان محمود الغزنوي ـ هـــذه النوايا ، وجهز جيشا لايقاف الاعتداءات السلجوقية على مملكته ، فالتقى مع السلاجقة فـــي داندانقان (٤٣١ هـ/١٠٤٠ م) ، وكانت الدائرة عليه ، فاستولى السلاجقة على معظـــــم أملاكهم (٤) ، وأنحصر نفوذ الغزنويين في أفغانستـــان (٥) .

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، ... ط ٢ مكتبة الأنجلو مصريـــة القاهرة سنة ١٩٧٥ ، ج ١ ص ٦٥ .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٦٨ ، ص ١١٦

* كان له من الابناء : أرسلان ، وميكائيل ، وموسى ، أنظر السلوك لمعرفة دول الملـــوك ج ١ ق ١ ص ٣٠

** كان له من الابناء : بيغو ، طغرل ، ينال ، جغري بيك داود ، أنظر المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٣٠

(٣) ابن طباطبا ، الفخري في الاداب السلطانية ، دار صادر ، دار بيروت ١٩٦٦ ص ٢٩٣

(٤) الحسيني ، أخبار الدولة السلجوقية تحقيق محمد أقبال ، لاهور سنة ١٩٣٣ ص ١٩٤

(٥) سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ١ ص ٧٦

اندفع السلاجقة حينئذ بزعامة طغرلبك يتوسعون على حساب دولتي المسلمين والبيزنطيين ، اللتين كانتا تعيشان مرحلة تفكك وصراع داخلي ، بينما أجتمع للسلاجقة عدة محركات ،منها القيادة الطموح ، والقوة الضاربة ونشوة الانتصارات المتتالية .

وحدث أن تجبر البويهيون وأرغموا أهل السنة على الاشتراك في أعياد الشيعة مما أدى الى الفتن في العراق (١) ، فأسرع طغرل الى بغداد وأزال دولة بني بويه ، وقدم الولاء الرمزي للخليفة الذي أنعم عليه بلقب أمير المسلمين ونائب وصي أمير المؤمنين (٢)

وبعد أن أستقر الأمر في بغداد توجه الى نصيبين " وديار بكر " ، فضمها الى ملكه ،واستولى على الموصل وولى عليها أخاه (ينال أبراهيم) (٣) ، وكان قد سيطر على أجزاء واسعة من فارس وشمال العراق ،وأتخذ أصبهان عاصمة له (٤) .

لكن أنصار بني بويه في بغداد لم يقفوا مكتوفي الأيدي بعد تدمير دولتهم ،إذ قام أحد قادتهم ويدعى " البساسيري " بتكوين جماعة تدعو الى الثورة على الخليفة العباسي وأتصل مع الخليفة الفاطمي كي يساعده في اعلان الحكم الفاطمي في بغداد .. وحين أنس في نفسه القدرة عزل الخليفة العباسي ودعا للخليفة الفاطمي ، فسادت الفتنة الى بغداد (٥) .

وحين علم طغرلبك بفتنة البساسيري ، قدم ثانية الى بغداد وقضى عليه سنة ٤٤٧ هـ / ١٠٥٥ م وأعاد الخليفة العباسي الى كرسي الخلافة ، مما جعل الخليفة ينعم عليه بلقب ملك الشرق والغرب ، كما دعاه بالسلطان مكافأة له على ما أسداه من معروف (٦) لكن طغرلبك كان بعيد النظر ،فأراد أن يسبغ على حكمه شرعية أكثر ، فطلب من الخليفة أن يزوجه ابنته ، وما كان الخليفة ليستطيع أن يرد طلب الحاكم الفعلي لبغداد حتى في المسائل الشخصية ولكن موت طغرل أنهى أحراج الخليفة وتادت ابنته من " الري " بعد وفاة طغرل سنة ٤٥٥هـ (٧) .

وبعد موت طغرلبك بالري خلفه ابن أخيه ـ عضد الدولة أبو شجاع محمد ألب أرسلان* وقد سار على نهج عمه طغرلبك في التنظيم الداخلي والفتوحات الخارجية .

---

(١) ابن الاثير ،الكامل ،دار صادر ،ودار بيروت سنة ١٩٦٦ جـ٩ ص ٥٩٣
(٢) عبد القادر اليوسف ،علاقات بين الشرق والغرب ، بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، المكتبة العصرية ، صيدا سنة ١٩٦٩ ص ١٧
(٣) المقريزي ،السلوك لمعرفة دول الملوك ، ت محمد مصطفى زيادة ،دار الكتب المصرية القاهرة سنة ١٩٣٤ جـ ١ ق ١ ص ٣٢
(٤) المصدر السابق ص ٣٢ (٥) الكامل ١٠/ ٦٤٠ ــ ٦٤٢
(٦) علاقات بين الشرق والغرب ص ١٨
(٧) السلوك جـ ١ ق ١ ص ٣٣ ، وانظر ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، نقله السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت سنة ١٩٦٧ جـ ١ ص ١١٥ وما بعدها
* ألب أرسلان هو ابن جغرى بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ،وسبب توليته هو أنجاب طغرل وريثا .

مستفيدا من قوته التي ازدادت بسبب الفتوحات السابقة وضعف البلدان المجاورة • كمـا تابع فتوحاته في أرض أرمينية فأحتل "آني" و"قارس" وهما العاصمتان القديمتـان لأرمينية مما جعل الطريق مفتوحة الى الأناضول ، كل ذلك وأمبراطور بيزنطة قسطنطين العاشر دوقاس لا يحاول صد الهجمات (١) مما أتاح الفرصة للسلطان ألب أرسلان لأن يوطد قدميه في المناطق التي يحتلها مخالفا بذلك ما كان يحدث في عهد سلفه من الأباطرة •

وفي سنة ٤٦٠ هـ/١٠٦٧ م تولى العرش البيزنطي أمبراطور جديد عمل على تقوية الجيش وإمداده بالمرتزقة من التركمان والنورمان أملا في أن يستطيع درء الخطر السلجوقي الذى أضحى يهدد عاصمة بلاده ، وقد تمكن الأمبراطور رومانوس ديوجين الرابع من ذلك فصد الهجمات السلجوقية ، بل وتمكن من استرجاع بعض المدن (٢) مما شجعه على الاستمرار والمضي قدما لاسترجاع أرمينية ، فخرج بجيش قوامه مئة ألف مقاتل (٣) وفي تلك الاثناء كان الامير ألب أرسلان منهمكا في مواصلة ضم الاراضي في بلاد الشام حيث أخضع حلب ، وأمّر عليها صاحبها محمود بن نصر المرداسي ، ثم بعث جيوشه بقيادة " اتسز " فأستولت على القدس والرملة وأنتزعتهما من أيدى الفاطميين (٤) ، كما واصلت زحفها لتستولي على مكة والمدينة بينما قام بمحاصرة دمشق بنفسه (٥) ، وفرض عليها معيشة أقتصادية سيئة ، فقطع عنها الميرة ورعى الزرع وازداد غلاء الاسعار فيها ونزح أكثر سكانها عنها (٦) ، ولكنه حينما سمع بتحركات الامبراطور البيزنطي كرّ راجعا الى أرمينية ، والتقى الجيشان السلجوقـي والبيزنطي في " ملاذكرد " ، وكان أن انسحبت الفرق التركمانية من الجيش البيزنطي ، مما نتج عنه ضعف روح البيزنطيين المعنوية ، لكن ذلك لم يوهن من عزيمة الامبراطور بل بقـي مصمما على القتال الى أن دارت الدائرة عليه ، وقتل معظم جنده وتمكن أرسلان من القبض عليه أسيرا (٧) •

وقد كان لهذه الموقعة آثار متعددة : منها تردّي الروح المعنوية عند الروم ممـا اضطرهم الى الاستنجاد باللاتينيين (الفرنج) رغم ما بينهما من عداء ، وهذا كانت سببهمـا مباشرا من أسباب الحروب الصليبية (٨) ، ومنها ، تدخل السلاجقة في شؤون الدولـة البيزنطية ، ومنها ، ازدهار دولة السلاجقة واتساعها ، وقد نتج عن هذا الاتساع فيما بعد انقسامها الى ثلاث دول هي : دولة سلاجقة الروم ، ودولة سلاجقة الشام ، ودولة سلاجقة فارس

---

(١) الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٢ (٢) الكامل ج ١ ص ٦٠

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١١٥

(٤) الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ت بدوى عبداللطيف ، بولاق ، القاهرة ١٩٥٩ ص ٢٧٣ وانظر أبو الفداء ، مختصر في تاريخ البشر ، المطبعة الحسينية مصر ، ؟ ج ٢ ص ١٨٧

(٥) تمارا تالبوت رايس ، السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ، ترجمة لطفي الخورى وابراهيم الداقوقي ، مطبعة الارشاد ، بغداد ١٩٦٨ ص ٢٣

(٦) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، مطبعة الاباء اليسوعيين ، بيروت ١٩٠٨ ص ٩٨ ــ ٩٩

(٧) الكامل ١٠/٦٦

(٨) The Ency. of Islam, Malazgerd

وقد أزدهرت الدولة السلجوقية في عهد ملكشاه بن ألب أرسلان حتى بلغت الـذروة بفضل هذا الملك وبفضل وزيره نظام الملك الذي عرف بحسن إدارته وسعة أفقه ، فعمل علـى أيجاد نهضة علمية وعمرانية لم تشهدها المنطقة منذ مدة طويلة .

أما ملكشاه فقد نذر نفسه لاستكمال الفتوحات ، حتى بلغ به الطموح أن يفكر بتقسيم أقاليم الدنيا (١) ، ولذلك أعتمد على قادة أقوياء أوكل لكل منهم منطقة معينة ، فجعل الأمير برسق لمنطقة الروم ، فغايقها وأقرّ على قسطنطينية جزية بلغت " ثلاثمئة ألف دينار للسلطـان وثلاثين ألف دينار يؤديها الرومي بالصغار والهوان " (٢) كما جعل أخاه تاج الدولة تتـش مسؤولا عن أقاليم الشام يساعده في ذلك أمير الرها " بوزان " ، وأمير حلب " آق سنقر " حتى اذا استكملوا أقاليم الشام توجهوا نحو ديار مصر ثم بلاد المغرب (٣) .

ولعله فعل ذلك بناء على تصور لماضي العالم الاسلامي زمن هرون الرشيد ، فأراد ان يعيد مجد الدولة الاسلامية من الناحية السياسية على يد قادته العظام ، ومن الناحية العمرانية على يد وزيره نظام الملك (٤) .

أما عن توسعات السلاجقة في الجهات الغربية من أرض الروم (٥) ، فقد تولاهـا " سليمان بن قتلمش بن أسرائيل بن سلجوق " أحد أقاربه بحيث أصبحت الدولة السلجوقية تضم ما يقرب من ثلاثة أرباع آسيا الصغرى وأمتدت دولة السلاجقة بذلك في منطقة تقع ما بين حدود الصين شرقا الى بحر مرمرة غربا (٦) .

وأتخذ سليمان بن قتلمش مدينة نيقيه مركزا له ، وضم اليها ولاية نيتوميديا ، ومنها راح يهاجم أرض الروم ، يساعده في ذلك أمير أزمير ، وقد أستطاع بعد أن انشأ أسطولا أن يهدد القسطنطينية وأن يحتل بعض الجزر القريبة من شواطئ آسيا الصغرى ، ومما سهل على سليمان هذا التوسع التمزق السياسي الذي كانت تمر به الدولة البيزنطية ، حتى بلغ الامر ببعـض الاباطرة ان يستنجدوا بالسلاجقة مقابل السكوت عن ضم بعض الأراضي البيزنطية (٧) .

---

(١) البنداري ، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، مطبعة الموسوعات ، مصر ١٩٠٠ ص ٦٥
(٢) المصدر السابق ص ٦٥ ، ٦٦
(٣) المصدر السابق ص ٦٦
(٤) رشيد الجميلي ، دولة الاتابكه في الموصل بعد عماد الدين زنكي ، دار النهضة / بيروت ١٩٧٠ (ص ٣١٢)
(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٧
(٦) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول لهيه أنطون صالحاني ، المطبعة الكاثوليكية / بيروت ١٩٥٨ ص ١٨٦ ، انظر حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية مكتبة الشباب القاهره ١٩٧١ ، ج ١ ص ٩٥
(٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ٨٦ ، ٩٠

إلا أن هذا التوسع حمل معه بذور التمزق السياسي ، فقد تشكل من البيت السلجوقي ثلاث دول هي : دولة سلاجقة الروم بقيادة سليمان بن قتلمش ، ودولة سلاجقة الشام بقيادة تتش بن الب أرسلان ، ودولة سلاجقة فارس بقيادة ملكشاه بن الب أرسلان .

وفضلا عن هذا الانقسام فقد دب الخلاف بين أمراء السلاجقة ، اذ أتجه سليمان بن قتلمش الى التوسع على حساب أبناء عمومته في الشام ، فاصطدم مع تتش قرب حلب ، حين أراد سليمان ضمها الى ممتلكاته ، فاستنجد صاحبها بتتش ، فانجده وتمكن من قتل سليمان سنة ٤٧٩ هـ/١٠٨٦ م (١) ، وقد كان مقتل سليمان بداية أضمحلال لسلاجقة الروم ، إذ إنه ترك طفلا صغيرا أسمه قلج أرسلان ، لا يقدر على أعباء الحكم ، وحين تقدم ملكشاه ليتسلم حلب من أهلها أخذ معه هذا الطفل وعاد الى فارس ، ليبقى تحت رقابته ، مما أتاح الفرصة لبعض أمراء التركمان للظهور (١) .

ومن الامارات التي ظهرت : أمارة نيقيه ، وأمارة أزمير ، وأمارة كبادوكيا وقد حاول أمير نيقية التوسع على حساب سلاجقة فارس ، فجهز له ملكشاه حملة تأديبية فاستنجد بأمبراطور الروم " ألكسيوس كومنين " الذي أغتنم الفرصة ليزيد الفتنه أشتعالا وبالتالي يخلو له الجو لينتقم منهم جميعا ويستعيد بلاده ، حتى بلغ به الأمر أن رفض عرضا من سلاجقة فارس يقضي بأن ترد له بعض الاراضي على أن يتخلى عن مساعدة أبي القاسم أمير نيقية (٣) ، وما لبث النزاع أن نشب بين سلاجقة فارس والشام ؛ وسبب ذلك أن أهل حلب أمتنعوا عن تسليم بلدهم لتتش بعد أنتصاره على سليمان بن قتلمش ، وانما أرسلوا الى ملكشاه ، فتسلمها منهم ، ومنحها لحاجبه قسيم الدولة آقسنقر ، ثم تابع سيره الى أنطاكية وتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قتلمش ، وولى عليها مؤيد الدولة ياغيسيان وبقيت الرها تحت أمرة تابعه القائد بوزان ، وبذلك لم يبق لتتش سوى دمشق وفلسطين التي كان يحكمها الأمير أرتق ، ثم أبنه سكمان الاول (٤)

ولما أدرك تتش أن الصدام المسلح لن يجدي ، ذهب الى أخيه ملكشاه في بغداد سنة ٤٨٤هـ/١٠٩١ م ، وسأله التوسع في بلاد الشام على حساب الفاطميين فامده بأمراء حلب وأنطاكية والرها (٤) ولم يتوقف الخلافات عند هذا الحد ، اذ ان وجود السلطان ملكشاه خفف من حدتها ليس إلا ، اذ أنه عمل على أرضاء أخيه تتش ، كما عمل على أستقطاب أبناء عمومته في الاناضول ، ولكن تفكك الدولة السلجوقية تجدد ثانيا بعد وفاة ملكشاه سنة ٤٨٥ هـ/١٠٩٢ م

---

(١) أبو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ج ١ ص ٩٨ ، ٥٠٠

(٢) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ١٠٣

(٣) المصدر السابق ص ١١٥

(٤) المصدر السابق ج ١ ص ١٠٤ ، ١٠٥

وخلف ملكشاه أربعة أبناء هم محمود وبركياروق ومحمد وسنجر ، وقد تمكن بركياروق من الاستيلاء على معظم أجزاء الدولة(١) .

وعندما علم تتش بموت أخيه ملكشاه طمع في أن يكون له نصيب في تركته ، فتجهز نحو حلب ، وفيها الامير آقسنقر ، فسلمها اليه وحذا حذوه كل من أمير أنطاكية ياغيسيان وأمير الرها بوزان ، ثم جهز جيشا وسار به شرقا يريد أرض فارس التي يحكمها ابن أخيه ، وفي طريقه أخضع بعض المدن ، ثم دخل أرض فارس ، وهناك تعرض له بركياروق ، وكان ان انحاز كل بن أمير حلب والرها الى جيش بركياروق مما أضطر تتش الى العودة الى الشام لمعاقبة الأميرين ، وحاول بركياروق أن ينجد الاميرين بجيش كان على رأسه كربوغا ، لكن تتش تمكن من ايقاع الهزيمة بهم (٢) .

وبعد أن أخمد تتش هذه الحركة الانفصالية ، أعاد الكرة الى فارس ، واستولى في طريقه على الجزيرة ، وديار بكر وخلاط ، وطلب الخطبة في بغداد (٢) ، ثم تابع زحفه الى فارس فاحتل همذان والري ، فتصدى له بركياروق ، وقد انضم اليه جيش أخيه محمود ، واستطاع أن ينزل بجيش تتش هزيمة ساحقة تمكن من قتله هو وخواصه(٣) ، وبعد موت تتش تردت الأحوال في الشام وسبب ذلك أن تتش خلف ولدين هما رضوان ودقاق ، فأخذ الاول حلب (٤٨٨/١٠٩٥ ـ ٥٠٧/١١١٣) وأخذ الثاني دمشق (٤٨٨/١٠٩٥ ـ ٥٠٨/١١١٤) لكن رضوان حاول أخذ دمشق أيضا فعمل على تكوين حلف يستطيع بمساعدته حربه ونتيجة لهذه المنازعات انقسم الشام الى ست دويلات هي : حلب وأميرها رضوان ، دمشق وأميرها دقاق ، القدس وأميرها سكمان بن الارتق ، وأنطاكيا وأميرها ياغيسيان وهذه الامارات سلجوقية ، وطرابلس وأميرها القاضي ابن عمار الذي استقل عن الفاطميين ، وشيزر وأميرها علي بن منقذ وقد أسسها سنة ٤٧٤ /١٠٨١ م .

وتَشكَّل من هذه الامارات نتيجة الصراع بين الاخوين حلفان متصارعان ، تزعم الحلف الاول حلب بقيادة رضوان ، والتف حوله أراتقة وبار بكر وقبائل بني كلاب ، وامارة شيزر ، وتزعم الحلف الثاني دمشق بقيادة دقاق ، والتف حوله أراتقة القدس ، وياغيسيان أمير أنطاكية وبينما هم على وشك الالتقاء عند شيزر كانت طلائع الحملة الصليبية الاولى قد شارفت الشام ، فانسحب رضوان الى حلب وياغيسيان الى أنطاكيه ليشرف على العمليات العسكرية ، أما دقاق فلم يكترث للقوات الغازية ، بل راح يهاجم ديار بكر كما انتهز الفاطميون انشغال السلاجقة بعضهم ببعض فاحتلوا القدس ، وقد خطب رضوان للمستعلي بأمر الله الفاطمي أربع جمع ، ثم خشي عاقبة ذلك فقطعها وأعاد الخطبة العباسية (٤) .

---

(١) الكامل جـ ١٠ سنة ٤٨٥ ص ٢١٤
(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٢٧ وأنظر الحسيني أخبار الدولة السلجوقية ص ٧٥ ، أبو الفداء ، المختصر جـ ٢ ص ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ابن الوردي جـ ٢ ص ٨ ، ٩
(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٠ أبو الفداء المختصر في أخبار البشر جـ ٢ ص ١٠
(٤) ابن الوردي ، تاريخ ابن الوردي ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ١٨٦٨ ، جـ ٢ ص ٦

وهكذا نجد أن السلاجقة أمدوا الدولة العباسية بفترة نشاط بلغت نصف قرن تقريبـــا ، لكن تقسيم الدولة على الورثة وما تبعه من منازعات أغتنمها الامبراطور ألكسيوس كومنين جعـــل الاوضاع تتردى ، وتهيء الظروف المواتية للغزو الخارجي •

ولم يكن التمزق الذى أصاب بلاد الشام بأقل من التمزق الذى أصاب الدولة العباسيـة والدولة الفاطمية ••

أوضاع الدولة العباسيــــــة :

خضعت الدولة العباسية للبويهيين مدة قرن تقريبا (١)، عملوا خلالها على أضعــــاف سيطرة الخليفة حتى أصبح أسما لامضمون له ، ولم يتوقفوا عند هذا الحد بل تهجوا المذهــــب الشيعي ، وقهروا الرعية ، وبذلك عمت المصيبة ، فلا قيمة للخليفة ولا للرعية، مما أدى الـــى أشعال نار الفتنة ، فجرت أحداث جسام كان ابتداؤها أواخر سنة ٤٤٤، فلما كانت سنة ٤٤٥ هـ عظم الشـــر (٢)، وكان قد ظهر في فارس قوة تركية ، تمكن زعيمها محمود الغزنوى (٤١١ / ١٠٣٠) من أحتلال أقليم خراسان كما أنتزع من البويهيين جزءا من عراق العجم ، حتى شملـت رقعة مملكته المساحات الممتده من آسيا الوسطى شرقا حتى العراق غربا ومن بلاد فارس شمـــالا حتى الهند جنوبا (٣)•

لكن السلاجقة تمكنوا بقيادة طغرلبك من السيطرة على معظم مملكة الغزنويين ونظـــروا الى الاحداث الدائرة في العراق ، اذ كان أمير الامراء البويهي الملك الرحيم خسرو فـيروز (٤٤٠ /١٠٤٨ ــ٤٤٧ /١٠٥٥) قد أرخى القادته العنان ، فجاسوا خلال الديار ، حـــتى فكر البساسيرى بأن يقضي على الخلافة العباسية ويعلن الخلافة الفاطمية في بغداد لتكــــون تابعة للفاطميين في مصر (٤)، كما سبق أن أوردنا ، وحينئذ ، تدخل طغرلبك رسميـــا ، وقضى على ثورة البساسيرى ، وأعاد الخليفة ثانية الى كرسي خلافته ، فأغدق عليه الخليفـــة الالقاب التي لا يملك غيرها ، مما أتاح الفرصة لطغرل أن يمكن جذوره في بغداد لا سيمــــا بعد ما أحرزه من نصر معنوى ، إذ أزدادت ثقة الرعيه به لاعادته الخليفة لما للخليفة من أحترام ديني ، فأعلن أسمه في الخطبة ، وتقدم لابنة أخيه الب ارسلان زوجة للخليفة ثم طلب يد أبنـــة الخليفة لتكون زوجة له(٥)، لكن موته أوقف نفوذه وخططه فأكملها ألب أرسلان (٤٥٥ /١٠٦٣ــ ٤٦٥ /١٠٧١) الذى سار على نهج أخيه فعمل على ترسيخ السلطة في يده بحيث لم يعــد للخليفة حكـــم (٦) •

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية جـ ١ ص ٧٧

(٢) ابن الاثير ، الكامل جـ ١٠ سنة ٤٥٥ ص ٥٩٣

(٣) تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة ص ٣٣

(٤) ابن طباطبا ، الفخرى في الاداب السلطانية ص ٢٩٣

(٥) ابن الاثير ، الكامل ، جـ ١٠ ص (٢١ ، ٢٦

(٦) الفارقي ، تاريخ الفارقي ص ١٥٥ وانظر ابن الاثير جـ ١٠ ص (٢١ ، ٢٦

وفي عهد ملكشاه قوى سلطان السلاجقة وتنفذوا في بغداد وغيرها ، حتى أن الخليفة شكا عميد العراق الى السلطان ملكشاه(١) ، وقد أتخذ السلطان المذكور بغداد مقرا شتويا له ، بينما جعل مقره الصيفي في أصفهان ، ومن خلال هاتين العاصمتين أدار ملكه ، وأتصل باتباعه وقواده في الشمال والغرب ، حتى أتسعت دولته وقويت شوكتها وعرفت مملكتها وأستولت في الواقع على الخلافة(٢)، ويلاحظ هنا أن ملكشاه قد طور نفوذ السلاجقة ، فلم يعهد عن سلطان من قبل أنه أتخذ عاصمة له ، بل فعل ملكشاه أكثر من ذلك ، اذ حاول نقل الخلافة الى واحد من نسله(٣).

وبموت ملكشاه تفككت الدولة السلجوقيه - كما بينا - وظهرت مخاطر ، جديدة ، وقوى قبلية ، نخرت جسم الدولة العباسية ، وحالت دون أضطلاعها بدورها في الحياة الاسلامية . أما المخاطر الجديدة ، فهي ما حصل بين السلطان بركياروق، وأخيه السلطان محمد ، فبعد أن هدأت الفتنة بموت تتش في الري ، سيطر بركياروق على فارس والعراق ثانية ، لكن أخاه محمدا لم يعجبه ما ناله من أرض اذربيجان وأرمينية وديار بكر والموصل(٤)، فثار على أخيه وتمكن من الانتصار عليه في سنة ٤٩٣ هـ/١٠٩٩ م ولكن بركياروق ، جمع جموعا عظيمة وأوقع بأخيه محمد هزيمة قاسية ، مما أضطره الى الصلح سنة ٤٩٨/١١٠٤ .

وكان العراق وفارس مسرحا لهذه العمليات ، مما أدى الى أنتشار الفساد والأوبئة والخراب ، وزاد في فقر الناس وعدم تحملهم للمطالب التي جابهتهم مع قدوم الحملة الصليبية الاولى التي وصلت الى الرها . وأما القوى القبلية ، فقد ظهرت منها قوتان ، أولاهما قوة بني مزيد وهي قبيلة عربية عاشت على الضفة الغربية لنهر الفرات ، وقد تزعمها صدقة بن منصور ابن دبيس بن مزيد الأسدي ، وأتخذ من منزلة الحلة التي بناها سنة ٤٩٥ هـ /١١٠١ م مقراً له ، وفيها أعلن انفصاله عن الدولة السلجوقية التابعة لبركياروق وأخذ يتوسع في غمرة الأحداث على حساب الدولة العباسية والدولة السلجوقية ، حتى أمتدت دولته من هيت الى الكوفه وواسط(٥) .

وكثيرا ما وقعت الفتن في العراق حتى وصل بهم الأمر فيما بعد الى أن استنجدوا بالصليبيين للمحافظة على كيانهم .

---

(١) ابو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ، ج ٢ ص ١٩٤
(٢) ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٢
(٣) ابن طباطبا ، الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٩٦
(٤) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ١٩٧
(٥) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ١١٢

والقوة الثانية هي قوة الاسماعيلية* ، وزعيمها الحسن بن صباح ، وقد تفاقم خطرها في عهد المستظهر فاستولت على الحصون والمعاقل بخراسان وأتصل زعيمها بالفاطميين في مصر ، وعملت على تهيئة الناس للثورة في بغداد ، وقد أستفاد الاسماعيليون من حالة الفوضى التي تمر بها الدولة العباسية والدولة السلجوقية وأخذوا يهاجمون الضياع ويبثون الخوف في نفوس الناس ، يقول الحنبلي (١) في أحداث سنة ٤٩٤ " كثرت الباطنية بالعراق والجبل ، وملكوا القلاع وقطعوا السبيل وأهمّ الناس من شأنهم وأستفحل أمرهم لاشتغال أولاد ملكشاه بنفوسهم " ، ويقول في موضع آخر (١) " وعظم الخطب بهؤلاء الملاعين ، وخافهم كل عالم وأمير لهجومهم على الناس " ، وهذا يدل على أنهم لم يختصوا بأعمالهم الإجرامية الحكام فحسب بل هددوا كل من خالف دعوتهم ، ولذلك كانوا عونا لم يكن مثله للصليبين في تهيئة الاوضاع وهذا ما عبر عنه ، ستيفن رنسيمان ، بقوله(٣) : " أنهم أسهموا عاملا في السياسة الإسلامية لهيء المسيحيين أنفسهم الا تقديره " ويبين أنهم تصدوا لكل محاولة إسلامية من شأنها جمع شتات الامة ، وذلك بعدة طرق أهمها أغتيال القادة وهو من أهم أسلحتهم .

هذا مجمل لما كان عليه الوضع في العراق والشام ، خلاف مستمر ، وحروب وفساد ، وخوف الولاة بعضهم من بعض ، مما نتج عنه أهمال الرعية ، وزيادة تجزؤ بلاد الشام حتى ليخيل للمسافر أن كل بلدة منها تشكل دولة .

وفي هذه الاوضاع المتردية قدمت الحملة الصليبية الأولى ، ولكن كيف كانت الحالة في مصر ؟ ، وما هو دورها في التصدي للحملة الاولى ؟ ، هذا ما سنحاول الاجابة عنه في الصفحات القادمة .

(*) الاسماعيلية : فرقة تدين بمبادئ الشيعة المتطرفة ، وتنتسب الى مؤسسها الحسن بن صباح ، وكانت تنادي بأمامة أسماعيل بن جعفر الصادق ، فعرفوا بالإسماعيلية ، وكذلك أطلق عليهم أسم الحشيشية لاستعمالهم بالحشيشة في حوادث القتل ونشر مذهبهم ، أستولوا على قلعة ألموت وهي من أحصن قلاعهم ثم ظهروا في مناطق مختلفة من بلاد الشام مثل حلب ، دمشق ، طرابلس ، بانياس ، ، وقد تعرضوا لعدة عمليات أبادة لسوء أفعالهم (أنظر : المختصر في تاريخ البشر ج٤ ص ١٢٠ ، ودولة الاتابكة في الموصل لرشيد الجميلي ص ٤٣ ، ابن الاثير ، الكامل ج ١٠ ص ٤٢٢ و ٢٧٥

(١) الحنبلي ، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري ، بيروت ؟ ٣/ ٤٠٠

(٢) المصدر السابق ج ٤ ص ٤

(٣) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١١٤

(٤) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ١٤٠

(٥) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ١١٠

أوضاع الدولة الفاطميـــــــــة :

بسط الفاطميون نفوذهم في أواخر القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي علـــى مناطق واسعة من بلاد الشام ، تمتد من دمشق الى جنوب فلسطين ، وحاولوا احتلال حلب التي كانت تحت أسرة الحمدانيين فاتصل أميرها سعد الدولة بالدولة البيزنطية وبين لهـــم خطر الفاطميين عليهم اذا احتلوا حلب ، مما جعلهم يتحمسون لمساعدته ضد أية محاولة مـــن جانب الفاطميين لاحتلال حلب (١)، وقد كان لسعة الدولة الفاطمية وضعف السلطـــة المركزية وظهور قوة جديدة في الشرق الاسلامي ، أثر كبير في توجيه الاحداث واضعاف الدولة الفاطمية ، إذ من المعروف أن السلاجقة قد سيطروا على فارس والعراق ثم تحركوا نحو بـــلاد الشام وأملكوا معظمها ، وقد خضعت حلب بعد الحمدانيين لسيطرة بني مرداس الذيـــن حافظوا على استقلالهم مدة نصف قرن ، وبعد أن استولى عليها السلاجقة أستطاع صاحبهـــا " اتسز بن أوق " أن يستولي على الرملة والقدس ومعظم فلسطين وما جاء عام ٤٦٧/١٠٧٥ حتى استولى على دمشق (١) ، لكن الفاطميين لم يسكتوا عن أعماله ، لأنها أقلقت الحكم الفاطمي من فلسطين وهددت كيانهم في مصر ، فوقف بدر الجمالي أمير الجيوش في وجه هذه القـــوة الجديدة ،وقد نجح فعلا في أقصاء صاحب حلب عن فلسطين ، كما حاول ضربه في دمشـــق ، لكن صاحب حلب ، وقد كان من أتباع السلطان ألب أرسلان ، استنجد بالحاكم السلجوقي تتش فقدم الى دمشق في الوقت الذي كان بدر الجمالي يحاصرها ، فآثر بدر الرجوع عنهــــا ، وتسلمها تتش من صاحب حلب ، ثم ما لبثت حلب نفسها أن وقعت في يد الامير مسلـــم ابن قريش صاحب الموصل وأنطاكية ، وحين حاول سليمان بن قتلمش احتلال أنطاكيه ، هـــب الامير مسلم ابن قريش لانجادها لانها له ، فوقع صدام بينهما ٤٧٨/١٠٨٤ كانت نتيجتـــه مقتل الامير مسلم وسقوط أنطاكية بيد سليمان ، ومنها تابع سيره نحو حلب التي كان فيها نائـب الامير مسلم الشريف حسن بن هبة الله الهاشمي المعروف بالحتيتي(٣) ، فاستنجد بتتـــش فأنجده وقضى على محاولة سليمان ، وبذا قويت شوكة تتش وتوسع على حساب الفاطميـــين في الجنوب ، وولى على القدس أرتق التركماني وبقيت بيد الاراتقة حتى سنة ٤٩١/ ١٠٩٨م حيث قام الفاطميون بانتزاعها منهم ، بعد أن أقتتل السلاجقة فيما بينهم .

---

(١) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ ١ ص ٦٥
(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٩٨ ، ٩٦ وأنظر ،
Stanley Lane-Poole, A History of Egypt in the Middle Ages: Frank Cass and Co. LTD. 1968. P. 161
(٣) ابن العديم ، زبدة الحلب ، من تاريخ حلب ت. سامي الدهان ،المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٥ ، جـ ٢ ص ٩١

ولم يكن الخليفة الفاطمي بأحسن حالا من الخليفة العباسي ، فكلاهما لا كان حول له ولا قوة ، وكلاهما انحصر نفوذه ، فلا يستطيع التصرف حتى في الشؤون البسيطة ، وسبب ذلك تنفذ الوزراء ، ومما يدل على ذلك أن الخليفة الفاطمي المستنصر أوصى لابنه نزار ، لكن الأفضل بن بدر الجمالي لم يعجبه ذلك فأوصى للمستعلي بالله بدل أخيه ، مما أدى بالتالي الى فتنة عامة سنة ٤٨٨/١٠٩٥ انتهت بمصرع نزار (١)

وقد عمد الوزراء الى تولية الخلفاء الأحداث ، حتى تكون السيطرة لهم تامة ، وقد ظهرت آثار هذه السياسة على الديار المصرية والشامية معا : أما بالنسبة الى الديار الشامية فقد انقطعت دعوتهم فيها ، وتعددت اماراتها حتى بلغت ستا ، فضلا عن القوى الاخرى ، وأما بالنسبة الى الديار المصرية ، فقد اختلت دولتهم وضعف أمرهم (٢) .

وبعد ما تبين من الحال الذي كانوا عليه ، ليس من الغريب أن يكون دورهم بسيطا في التصدي للحملة الصليبية الأولى ، وان تكون عملياتهم تجريدة - كما يسميها ابن تغري بردي " لا يتجاوز عدد رجالها ثلاثمائة الى أربعمائة "(٣) .

وليس هذا فحسب ، بل تذكر بعض المصادر أن الفاطميين في مصر أرسلوا الى الصليبيين يدعونهم الى الخروج الى الشام ليملكوه ، ويكونوا بينهم وبين المسلمين ، ويذكر رنسيمان أنهم أرسلوا سفارة اليهم بتقسيم أملاك الدولة السلجوقية فيما بينهم (٤) .

ومن هنا لا نستغرب الحملة الشعواء التي شنها بعض الشعراء على الفاطميين(٥) .

---

(١) الكامل ، ج ١ ص ٢٣٧

(٢) مجير الدين الحنبلي ، الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، دار الجيل بيروت ١٩٧٣، ج ١ ص ٣٠٢

(٣) النجوم الزاهرة ، ج ٥ ص ١٤٤

(٤) ابن الاثير ، الكامل ، ج ١٠ ص ٢٧٢ ، وانظر الحروب الصليبية ، ج ١ ص ٢١٦

(٥) ابو شامة المقدسي ، الروضتين في أخبار الدولتين النوريه والصلاحية ت ، محمد حلمي أحمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٥٦ ج ١ ق ٢ ص ٤٦٦

الفصــــل الثانـــي

الغرب الأوروبي قبـل الغزو الصليبـــــــي

تبين لنا فيما مضى ،كيف أنّ معركة مانذكرد قـد دفعت أباطرة الدولة البيزنطية الى التوجه نحو أوروبا رغم العداء المذهبي والتاريخي بين الجانبين(١) ، اذ جرت مفاوضات فـي عهد الامبراطور البيزنطي ميخائيل السابع(٤٦٤/١٠٧١ ـ ٤٧٢/١٠٧٩) مع البابـــا جريجوري السابع والامبراطور هنري الرابع أمبراطور الأمبراطورية المقدسة ، وكادت المفاوضات تنجح لولا أختلاف البيزنطيين واللاتينيين حول أتحاد الكنيستين الشرقية والغربية(٢) ، إلا أن البابا نبه الرأى العام الاوروبي الى ضرورة أنجاد الامبراطورية البيزنطية التي تقف وحيدة أمام خطر السلاجقـــة .

بقي الخلاف مستحكما زمـن ميخائيل السابع وخليفته الامبراطور نقفور الثالث ولكـــن بعد أن خلع الاخير ، وتولى العرش الكسيوس كومنين " ٤٧٤/١٠٨١ ـ ٥١٢/١١١٨ " ، أتخذت المفاوضات طابعا حماسيا ، لما عرف عن ألكسيوس من حنكة سياسية حاز بسببها علـى رفع قرار الحرمان الذى كان البابا ، أوربان " قد أصدره بحقه ، مما أدى الى تقارب بيـــن الكنيستين ، تبعه مفاوضات بين الطرفين ، كان أهمها سفارة أرسلها الكسيوس ٤٨٩/١٠٩٥ الى البابا أوربان يحثه فيها على أنجاد الدولة البيزنطية ضد أعداء المسيحية ، الذين باتوا يهددون روما فضلا عن القسطنطينية(٣) ، فأستجاب البابا الى طلبه وحث على العمل لانجاده .

وقد جاءت هذه الدعوة أنقاذا لما تعانية أوروبا من مشاكل وتحقيقا لما ترجوه من آمال أما المشاكل التي كانت تعانيها أوروبا فمنها أنها كانت تعيش وفق نظام أقطاعي * دمر الحياة الاجتماعية والسياسية معا ، فعندما نجح الامراء الاقطاعيون في حماية رعاياهم من الهجمات الخارجية ، تحكم هؤلاء الامراء بالناس فجعلوهم خدما وأقنانا ..

---

(١) فيشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطـى ، نقله محمد مصطفى زيادة والباز العرينـــي ط ٥ دار المعارف ، مصر ١٩٦٩ ، جـ١ ص ٧٩.

(٢) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٢٥

(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ١٢٨

(*) خدم نظام الاقطاع أوروبا خدمة جليلة في أول عهده ، اذ لم يستطع نظام الاباطـــرة الوقوف أمام غارات المغاربين الذين أوغلوا في وسط القارة حتى شرق المانيـــا ، فكان نظام الاقطاع الوسيلة الوحيدة للقضاء على هذه الغارات ، إذ أعطى كبــــار الفرسان أقطاعا يدافعون عنه .. وكان الرجل العادي إما أن يصبح جنديا يدافع مع غيره عن الاقطاع ، وأما أن يصبح قنـــا يعمل في الارض .
أنظر سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ، جـ١ ص ١٦٠ وسعيد عاشور ، حضارة ونظـــم أوروبا ، دار النهضة العربية ، بيروت سنة ١٩٧٤ ص ٣٨١

ولم يلبث رجال الدين أن انجرفوا مع التيار الاقطاعي ، فاعتمدوا على الفرسان وجعلوا لهم قدرا عظيما يظهر في طقوس تأهيل الفارس ، اذ يجرى تطهيره في الكنيسة بماء مبارك ، ثم يتناول العشاء الرباني ، ويترك ليحيي ليلته بالصلاة ، فما ينتهي منها حتى تغفر له ذنوبه (١).

وقد انقسم المجتمع في ظل هذا النظام الى ثلاث طبقات : طبقة رجال الدين ، وطبقة النبلاء الفرسان ، وطبقة الفلاحين ، وعلى الطبقة الأخيرة كانت تقع أعباء هذا النظام . أما طبقة رجال الدين ، فقد انغمس أفرادها في ملاذ الحياة ، وانخرطوا فيها ، مما نتج عنه مشكلات جديدة ، اتخذت مظهرين : مظهر صراع داخلي في الكنيسة بين رجال الدين أنفسهم ، ومظهر صراع خارجي بين الكنيسة والسلطة الزمنية ، وأما طبقة الفرسان والنبلاء فقد دفعتهم حياة الترف والهدوء الى البحث عن مصادر للدخل تضمن المعيشة التي يتوقون اليها ، مما أدى الى الصدام بين الاقطاعيات ، فاهتم الامراء ببناء الحصون والقلاع ، وحشدوا فيها العبيد والأتباع ، تحسبا لأي هجوم أو استعدادا للهجوم .

وقد استنزفت هذه الحروب الداخلية طاقة الامراء والاباطرة ، وكذلك طاقة رجال الكنيسة مما جعل غوستاف لوبون يصف هذه الفترة بأنها أشد أدوار تاريخ أوروبا ظلاما (٢)، وخشية الكنيسة أن تتفاقم الامور وتخرج من يدها ، ولذا حرمت الحروب الداخلية في أوقات معينة أطلقت عليها اسم " هدنة الله "(٣) ، لكن ذلك لم يكن ليحل المشكلة ، فاغتنم البابا أوربان الثاني دعوة الدولة البيزنطية لحرب المسلمين ، وراح يخطط لتشكيل حملة واسعة تستهدف القضاء على المسلمين في المشرق ، وتنهي كما اعتقد ، مشكلات أوروبا ، ولذا فقد سلك كل الطرق لانجاحها أما الطرق التي سلكها فهي : أنه استغل الدعايات التي نشرها الحجاج المسيحيون الغربيون عن معاملة المسلمين القاسية لهم ، إذ قيل إن الفاطميين منعوا قسما منهم من الدخول الى كنيسة القيامة ، وطردوا عددا آخر من البيت المقدس ، فاتخذ البابا من هذه الاقوال ذريعة لبث روح العداء والانتقام ، ووعد بالمغفرة كل من سافر الى فلسطين ليقاتل المسلمين ، علما بأن قوانين التوبة كانت صارمة وثقيلة ، وقد خاطبهم بقوله " ... إن القدس تناشدكم الآن المساعدة ، فاقصدوها بكل شوق تغفر لكم ذنوبكم وجزاؤكم دار الخلود (٤) " ، كما استغل حماس الفرسان وراح يحرضهم على الثأر ، ويسود قلوبهم بالحقد ، يقول " ... يا أمة الفرنج ، يا أبناء السلالة التي أحبها الله واصطفاها ، وصلتنا من جهات القدس والقسطنطينية أنباء مفجعة ، مفادها أن أمة من الأمم اشتطت عن السبيل فعاثت في الديار المسيحية سلبا وحرقا وقتلا ... على من تقع مهمة الثأر واستعادة الديار ؟ ألا تنهضوا أنتم بهذا الامر(٥)؟ " .

---

(١) فيشر : تاريخ أوروبا ، ج١ ص ١٨١

(٢) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، نقل عادل زعيتر ط ٣ دار احياء الكتب العربية ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٢

(٣) سعيد عاشور حضارة ونظم أوروبا ص ٢٦٦

(٤) مكسيموس مونرند ، من تاريخ الحروب المقدسة ، ترجمة مكسيموس مظلوم ، مطبعة دير الرهبان الفرنسيسكان ، القدس ، ١٨٦٥ ج١ ص ١٧ وانظر علاقات بين الشرق والغرب ص ٤٥ وانظر معاملة المسلمين لهم في كتاب احمد عبد المجيد الدومي ، صلاح الدين الايوبي ط ٢ ، المكتبة العصرية ، بيروت / صيدا ؟ ص ٨٦

(٥) علاقات بين الشرق والغرب ص ٤٥

إلا أن المنطق الذى أقنع به عامة الناس لم يكن ليفلح كثيراً في أقناع الخاصة ، لذلك طلب منهم ببلاغته وقوة ألفاظه أن يوجهوا السلاح ضد المسلمين ، فذلك خير من أستخدام بعضهم السلاح ضد بعض وقال لهم : " أربأوا بأنفسكم عن الضغائن ، وأنتزعوا الحقد من قلوبكم وأسلكوا سبيل الله(١) " .

وإذا كان قد أستولى على عقول العامة والفرسان ، فلا بد أن يقنع النبلاء ليكونوا قادة لهذه الحملة ، وما يتبعها من حملات ، فأستغل الظروف الاقتصادية السيئة التي تمر بها أوروبا (٢) ، ووعدهم بالارض التي تفيض لبنا وعسلا ، قال : " خلصوا الاراضي المقدسة من أيادى المغتصبين ، وأتمتلكوها لذواتكم ، فهذه الارض حسب الفاظ التوراة ، تفيض لبنا وعسلا ، فإذا أنتم انتصرتم على أعدائكم فالملك الشرقي يكون لكم قسطا وميراثا (٣) " .

ومن الآمال الكبار التي كانت تراود الكنيسة الغربية ، أخضاع الكنيسة الشرقية ، فلا بد أن كان من ذلك في نفس البابا رأيه كثيرا ، يحقق فيه رسالته ، ويرضي حب التعالي المغروز في نفوس اللاتينيين تجاه البيزنطيين (٤) ، لذلك تحرك رجال الدين ، بل حرضوا أبناء ملتهم في أنحاء أوروبا على المشاركة وقد أفلح البابا في تكوين رأى عام ، أشترك فيه الامراء والنبلاء والفرسان ورجال الدين ، وعامة الناس من العبيد والاتباع الذين راحوا يهتفون " ... إنها إرادة الرب ...(٥) " وبذا خُيّل للعبيد أنهم سيتخلصون من ظلم الاشراف ، في حين طمع الاشراف في أراض جديدة يمتلكونها ، وأمل البابا أن يحقق هدفه في ضم الكنيسة الشرقية الى الكنيسة الغربية .

ولكن المسافة بين الشرق والغرب بعيدة ، وتفصل ما بينهما مياه البحار ، فلا بد للغزاة من سفن تقلهم ، ولذا أقترح أمير تولوز على البابا أن يستعين بسفن مدينة جنوا ، فلبى الجنويون الدعوة مسرعين ، آملين أن تفتح لهم أسواق الشرق فتنشط حركتهم التجاريه .. ثم شاركهم في حماسهم وآمالهم تجار مدينتي بيزا والبندقية .

وبذلك تهيأت الظروف المادية والمعنوية ، لانطلاق الحملة الصليبية الأولى ...

---

(١) عبدالقادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ، ص ٤٥
(٢) من تاريخ الحروب المقدسه ج ١ ص ١٨
(٣) المصدر السابق ، ج١ ص ١٣ ، ١٤ ، ٢١
(٤) فيشر ، تاريخ أوروبا ص ١٧٩
(٥) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ج ١ ص ١٢١

الفصل الثالث

الصراع : ميدانه وزمانه

لم يعالج المؤرخون القدماء من المسلمين ظاهرة الحروب الصليبية معالجة شمولية تتناول جميع عناصرها ، ولم يربطوها بالأحداث في الشرق الإسلامي ، وانما جعلها ابن الاثير ، امتدادا للحروب بين المسلمين والفرنج في الاندلس (١) ، ولكنه لا يجيب عن سبب تركيهم للمغرب القريب على أسبانيا ، وهو الذي شكل الخطر على دولتهم هناك بعد انهاء الحكم الاسلامي لها ، وقد ظهر هذا الخطر غير مرة ، زمن المرابطين والموحدين ، لذا فان من المفيد أن نورد هنا أسباب أعمق من الاسباب التي أوردها ابن الاثير للحروب الصليبية ؛ فالخطر الذي هدد الدولة البيزنطية هو السبب الاول ، ورغبة البابا في السيطرة على الاراضي المقدسة وتوحيد الكنيستين الشرقية والغربية هو السبب الثاني ، يضاف الى ذلك الاطماع الاقتصادية وأشباع النفسية الاقطاعية في أوروبا ..

وإذ كانت الحروب نابعة من أوروبا النصرانية ، واذ أتخذ الصليب شعارا لها فقد سميت بالحروب الصليبية * ، بينما لم يطلق على حروب الاندلس مثل هذه التسمية رغم أنها مقدمة لهذه الحروب ** .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ١٠ / ١٤٢ ، وانظر صفحات ١٥١ ، ١٥١ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٦ ، ٢٧ يهزأ محمد سيد كيلاني برأي ابن الاثير في كتابة الحروب الصليبية ص ٨ ، مع أنه رأي له ما يبرره ، أنظر الحركة الصليبية ، سعيد عاشور (١ / ٦٩ ـ ٧٣ .

* لم تكن هذه التسمية معروفه عند المؤرخين المسلمين آنذاك ، وأنما هي ترجمة لكلمة Crusades الانجليزيه (حامد غنيم أبو سعيد ، الجبهة الاسلاميه / ١١٥)

** أختلف المحدثون في تحديد الحروب الصليبية ، فقد أعتبرها بعضهم حلقة من حلقات الصراع بين الاسلام والمسيحية (سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ص ٨ وانظر حامد غنيم الجبهة الاسلاميه ص ١١٢ ـ ١١٧ وانظر سعيد عاشور ـ الحركة الصليبية (١ / ٢٢ ـ ٢٦) وأعتبرها كمال توفيق ، وزكي المحاسني استمرارا لأعمال الامبراطورية البيزنطية قبل مائة عام (عمر كمال ، مقدمات العدوان الصليبي ، زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ٢٦٥،٦٦٨) بينما غالى زكي النقاش (العلاقات الاجتماعيه ص ٨ فأرجعها الى العلاقات بين الشرق والغرب منذ أيام التاريخ الاولى أي في الالف الاولى قبل الميلاد واعتبرها شاكر أحمد أبو بدر (الحروب الصليبية والاسرة الزنكيه ص ١٤ ـ ١٦) حربا دينية لأنهم وضعوا شارة صليب على أمتعتهم وتصدوا للمسلمين بالذات واعتبرها بارتو (أنظر كتاب عبد عهنا الهايف حمزه ، ادب الحروب الصليبية ص ٢٥) بمثابة حج كبير يحميه السلاح .

ذكرنا فيما مضى أن نداء الكسيوس قد أحدث صدى واسعا في أوروبا ، خاصة بعد أن تبنى البابا " أربان " مشروع إنجاد الدولة البيزنطية ، فعقد عدة اجتماعات كان آخرها مجمع كليرمنت في أواخر صيف ١٠٩٥ / ٤٩٠ هـ وقد حضره ثلاثمائة من رجال الدين ، وجموع حاشدة من عامة الناس ، وقد بين البابا المخاطر التي تعترض سبيل الحجاج ، كما بين ضعف أخوانهم في الشرق أمام السلاجقة الأقوياء (١) فالتهبت حماسة الجماهير ، ودوى النفير " هكذا أراد الله " وقد كانت البساطة مسيطرة على عقول العامة فصدقت أقوال المحرضين وراحت تحتشد من كل أصقاع أوروبا (١) يقودها النوطائي بطرس الناسك ، ثم أتجهت هذه الجموع في فورة حماس ، متقدمة الى الشرق عن طريق قسطنطينية ، والاراضي البيزنطية ، وعندما دخلت أرض السلاجقة ، واجهها السلطان قلج أرسلان وكانت قد أشرفت على مدينة نيقية بعد مسير أيام ، فقضى على رجالها قضاء ظن معه أن لن تقوم لهم بعده قائمة ، إذ لم يستطع الهرب الا ثلاثة آلاف من أصل خمسة وعشرين ألفا (٣) ، ولكن ما لبثت الحملة المنظمة (حملة الامراء) أن وصلت بعد ذلك الى نيقيه ، بعد أن تخلصت من مصاعب جمة في القسطنطينية ، وفي الطريق (٤) ، ثم حاصرت الجيوش الصليبية نيقيه حصارا شديدا ، فصمدت في وجوههم ولكن هذا الصمود أصبح متعذرا بعد أن حاصرها الكسيوس من البحر والجيوش الصليبية من البر فاستسلمت المدينة ، وسيقت زوجة السلطان وبناته أسيرات الى القسطنطينية .

أحدث سقوط نيقية أصداء واسعة في أوروبا بما قام به العائدون من دعايات أعلامية فذكروا "أن الشرق بحاجة الى محاربين ومستعمرين ليواصلوا عمل الله ، وأن في الشرق من الثروة والضياع الكثيرة ما ينتظر قدوم المغامرين " وفعلا جاءت حملة مكونة من الفرنسيين والالمان يرأسها ريموند (٥) .

وقد تابع الصليبيون سيرهم بمشقة بالغة ، بسبب تعرضهم لهجمات السلاجقة ، ولكنهم نجحوا في السيطرة على منطقة واسعة من الاناضول وأرمينية ، كما نجح بلدوين ، أحد قادتهم في تأسيس أول أمارة للصليبيين في الجزيرة الفراتيه سنة ٤٩٢ / ١٠٩٨ ، وهي أمارة الرها ، وبعد ذلك ، أتجهت الجيوش الصليبية الى أنطاكية ، وطال حصارهم لها وقد حاول صاحبها باغي سيان أغتنام الفرصة ليدفعهم عنها ، ولكنه لم ينجح ، وبعد حصار سبعة أشهر دخلها الفرنسج سنة ٤٩١ / ١٠٩٨ وفعلوا بالمسلمين الاعاجيب (٦) ، "اذ هجموا على البيوت والازقة يقتلون المسلمين خلوا من أستثناء " (٧) .

---

(١) رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية جـ ١ / ١٦٦

(٢) مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة جـ ١ ٣٥ ، ٦٥

(٣) سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ١ / ١٣٦

(٤) ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٢٧٤ (٥) رنسيمان ، الحروب الصليبية جـ ٢ / ٣٧

(٦) ابن العديم ، زبدة الحلب ، جـ ٢ / ١٣٥ وانظر ابو الفداء المختصر ٢ / ٢١٠

وتاريخ ابن الوردي ٢ / ١٠

(٧) مكسيموس مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة جـ ١ / ١٢

وسقوط أنطاكية لنفتح الطريق أمام الصليبين الى بلاد الشام ، فاتجهوا الى معرة النعمان ، فاستنجد أهلها بالملك رضوان وجناح الدولة صاحب حمص فلم ينجداهم فدخلها الفرنج وأعملوا فيها السيف فقتلوا ما يزيد على مائة ألف (١) ، أحدثت هذه الاعمال الوحشية حالة ذعر عند المسلمين ، ولكن هذا الذعر لم ينتج عنه أتحاد ومقاومة ، ولذلك لم يكن من الصعب على الغزاة متابعة سيرهم الى أن وصلوا شمال طرابلس ، وفيها جاءتهم رسل صاحب طرابلس ، ثم أحتلوا طرطوس (٢) ، مما سهل عليهم مهمة الامدادات الخارجية من أوروبا ، بالاضافة الى ما تحويه المنطقة من خيرات (٣) ، وعلى أثر ذلك ، تدهر موقف المدن الإسلامية وأسرعت كل مدينة تعلن أستسلامها ، ومن تخلفت عن ذلك أتلفت مزارعها ، وقتلت أنعامها ، ومن وجدوه من أهلها فتكوا به كما حدث من صور ، وهكذا تابع الصليبيون سيرهم الى قيسارية ثم أرسوف والرملة واللد وأحتلوا بيت لحم (٤) .

وأحاطت الجيوش الصليبية بالقدس ، وجاءتهم أمدادات من أوروبا عن طريق ميناء يافا فاصبحت القدس منقطعة عن أمدادات الدولة الفاطمية التي كانت قد سيطرت عليها سنة ٤٩٨، ونصب الفرنج عليها برجين ، وتمكنوا منها ، ولو لم ينشب خلاف بينهم حول ملكية القدس لاحتلوها في مدة تقل كثيرا عن المدة التي أستغرقها الحصار وهي (٤٠) أثنان وأربعون يوما (٥) ، وبعد الاستيلاء عليها قام الغزاة بمذبحة رهيبة لم تفرق بين زاهد وعالم ، فقد قتلوا ما يزيد على سبعين ألف نفس ، منهم جماعة كبيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم (٦) ، كما قاموا بعملية سطو على الصخرة فأخذوا نيفا وأربعين قنديلا فضة ، ونيفا وعشرين قنديلا من ذهب (٧) .

ويذكر مونرو نقلا عن تقرير رايموند ده أجيلاس ، أحد المرافقين للحملة ، أن الجامع قد طاف بالدماء حتى أختفى الدم تحت القناطر عند بابه ، وعلا الى حد الركب بل الى حد لُجُم الخيل (٨) .

---

(١) تاريخ ابن الوردي ٢ / ١١ ، ابن الاثير ١٠ / ٢٧٨ ، الأنس الجليل ١ / ٣٠٧
(٢) المختصر ٢ / ٢١٦
(٣) مرآة الجنان ٣ / ١٧٢ ، ابن الاثير ١٠ / ٤٧٥ ، النجوم الزاهرة ٥ / ٧٩
(٤) ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٣٦٥ ، المختصر ٢ / ٢١٤ ، رنسيمان ، الحروب الصليبية ١ / ٣٦١
(٥) ذيل تاريخ دمشق ٢٣٦ ، تاريخ مختصر الدول ١٩٧
(٦) الكامل ١٠ / ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، الانس الجليل ١ / ٣٠٧
(٧) الشذرات ٣ / ٣٩٧
(٨) من تاريخ الحروب المقدسة ، ص ١٧١

ويقول غوستاف لوبون " ولم يبد سلوك الصليبيين في الحملة الثانية بأحسن من سلوك رجال الحملة الصليبية الاولى ، ويؤكد قوله بما يرويه عن الكاهن " انكتيل " " فلما يوجد صليبي يسير بوحي ديني ، فلم يترك أولئك الصليبيون جرائم وحشية وضروبا من قطع الطرق ، وفضائح مزرية الا أقترفوها "(١) .

وهام المسلمون على وجوههم يبكون ويبكون ، ويستصرخون الخلافة في بغداد ، فأجتمع أهلها في الجوامع ، وبكوا ، حتى أنهم أفطروا من عظم ما جرى لهم ، وقال ابو المظفر الابيوردي* :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
وكيف تنام العين ملء جفونها ... على هفوات أيقظت كل نائم(٢)

وفي هذا الجو المكفهر أستقرت أمور الغزاة في بيت المقدس ، وأقيمت الصلوات والايدي ملطخة بالدماء البريئة ... وأنتخب جودفري حاكما للقدس ، بعد أن حاز على ثقة الكنيسة والامراء معا لما يتصف به من ميول دينية ، ولم يرض أن يسمى ملكا وأنما أسمى نفسه حامي القبر المقدس(٣) ، ولكن أنتخاب جودفري وفشل البطارقة كان يعني أنتصار السلطانية على الكنيسة ، وقد كان هذا لصالح المملكة الجديدة ، ولو كان الامر غير ذلك لما أستطاعت الكنيسة حماية هذه المملكة من الهجمات الاسلامية (٤) .

وبدأت الدولة الجديدة — وهي الامارة الصليبية الثالثة — تمارس حياتها السياسية فتكون في القدس فرقتان دينيتان عسكريتان أسموها *Templars* أي فرسان الهيكل وعرفت عند المسلمين بالداوية ، وأخرى أسموها *Hospitalers* أي فرسان المستشفى وعرفت عند المسلمين بالاسبتارية (٥) ، ثم أخذت هذه الدولة بالتوسع حتى أستطاعت في سنوات قليلة أن تضم معظم أجزاء فلسطين(٦) ، وكان بأمكانها السيطرة على فلسطين جميعها لولا المنافسة بين ريموند الصنجيلي وجودفري .(٧)

---

(١) حضارة العرب ، ص ٣٢٩ ، وأنظر رنسيمان ، الحروب الصليبية ١ / ٤٠٤

* أخذناه عبد القادر اليوسف في أسم الشاعر ، أنظر علاقات بين الشرق والغرب ص ٧٢

(٢) المختصر ٢ / ٢١١ تاريخ ابن الوردي ٢ / ١١ ، النجوم الزاهرة ٥ / ١٥٢ ، الكامل ، سنة ٤٩٢ ، ١٠ / ٢٨٥

(٣) رنسيمان ، الحروب الصليبية ١ / ٤١٧

(٤) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ص ٧٢ ، والحياة السياسية الاجتماعية عند الصليبيين ، رسالة ماجستير ، أعداد عبد الحفيظ محمد علي سنة ٩٧٥ ، ص ١٠٨ ، ١٠٦

(٥) عارف العارف ، تاريخ القدس ، دار المعارف ، مصر ١٩٥١ ص ٧٥

(٦) ابن الاثير ، الكامل ، ١٠ / ٣٦٥

(٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ١ / ٢٤٩

وبعد أن توفي جودفري ، تولى أخوه بلدوين حاكم الرها القدس ، وقد استطاع أن يتغلب على كثير من المشكلات والصعاب ، كما فرض احترامه على أمراء الحملة الصليبية ، وأخذ يواصل عملية ضم المناطق الساحلية ، حتى إذا علم أن الافضل يعد حملة لاسترجاع القدس ، التقى معه في الرملة ، وهزمه هزيمة منكرة، واستولى على غنائم كثيرة وقتل ما يزيد على عشرة آلاف نفس(١) وقد مدحه أحد الشعراء بقوله(٢) :

نصرت بسيفك دين المسيـــــــــح	فلله دراك من صنجـــــــــــل
وما سمع الناس فيمــــــــــا روي	بأقبح من كسرة الأفضـــــــــل

ولم يلبث الافضل أن تمكن من هذا الشاعر الخائن وقتله ، وفي سنة ٥١٤ قصد الفرنج الديار المصرية بقيادة بلدوين (بردويل) ووصلوا الى غزة وخربوها وأحرقوا مساجدهـــــا ، لكن موت ملكهم في الطريق ثناهم عن قصدهم (٣) .

أما ردود الفعل الاسلامية فلم تزد عن البكاء والتحريض ، وتجريد الحملات الـــتي كان يسيطر عليها الخلاف ، فترجع مهزومة أو فاشلة ، وبامكاننا أن نتصور الاوضاع في العالـــم الاسلامي كما يلي :

حاول الافضل الانتقام من الفرنج ، فجهز جيشا كبيرا ، وأرسله الى الرملة مرة ثانيـــة حيث استطاع أنزال الهزيمة ببلدوين ، واستولى على الرملة وحاصر يافا ، ولكن بلدوين أعـــاد ترتيب الجيش واستغل فرصة مرور الحجاج القادمين من أوروبا ، والتقى مع الجيش الفاطمـــي وكسره ، وحين علم الافضل بذلك أرسل نجدتين : أحداهما بحرية والاخرى برية وأمرهمـــا بالتعاون ، ولكنهما تنازعا فعادتا فاشلتين (٤) ، وهذا ما دعا ابن تغري بردي لأن يستغرب من سلوك الفاطميين وتقاعسهم فيقول عن الافضل " وما أدري ما كان السبب في عدم خروجــه مع قدرته على المال والرجال "(٥) ويقول عن الخليفة الآمر بأحكام الله : وكان فيه تهاون عــن أمر الغزو والجهاد حتى استولت الفرنج على غالب السواحل وحصونها في أيامه (٦)" .

أما في بغداد فقد عمت الثورة فيها وكسر الناس منبر مسجد السلطان ، فرأى الخليفة استرضاء الثائرين ، فأوعز الى السلطان محمد أن يعمل على دفع الفرنج ، فأرسل السلطـــان الى تابعه أمير الموصل أن يخرج لقتالهم (٧) .

---

(١) ذيل تاريخ دمشق ، ص ١٣٧
(٢) الانس الجليل ، ج ١ / ٣٠٨
(٣) الانس الجليل ج١ / ٣٠٩
(٤) الكامل ، أحداث سنة ٤٩٦ وانظر ذيل تاريخ دمشق ص ١٣٨
(٥) النجوم الزاهرة ، ٥ / ١٤٧
(٦) النجوم الزاهرة ٥ / ١٨٨
(٧) اليافعي ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، مطبعة المعارف النظامية ، حيدر أباد ١٣٣٨هـ ١٧٢/٣

وأما حلب فقد حكمها بعد وفاة صاحبها رضوان أبنه ألب أرسلان حتى تتسلل سنة ٥٠٨/١١١٤ ، وعندئذ تولاها بدر الدين لؤلؤ (٥٠٨ هـ/١١١٤ ـ ٥١١هـ/١١١٧) وقد تعرضت خلالها لهجوم من الفرنج ، فضايقوها وقاسموها على أملاكها ولكنهم لم يحتلوها كما وهم ابن كثير (١) .

وازاء هذه التحديات قام أيلغازي صاحب ماردين بهجوم على الفرنج ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وقد مدحه الشعراء ومنهم العظيمي في قصيدته ، منها :

قل ما تشاء فقولك المقبول وعليك بعد الخالق التعويل(٢)

وقد انقسمت الدولة الأرتقية بعد وفاة أيلغازي،فأخذ ابنه الأكبر الجزء الشمالي من ديار بكر وميافارقين ، وأخذ أبنه الثاني الجزء الجنوبي منها وماردين ، وبقيت حلب تحت أمرة سليمان بن عبد الجبار .

وحاول الفرنج اغتنام الفرصة ، فقام بلدوين الثاني بهجوم على الأراتقة في الجزيرة الفراتية لينقذ جوسلين ولكنه هزم وأسر .

وقد تعرضت حلب فيما بعد لهجوم مشترك من الصليبيين وبعض المنشقين من المسلمين ولكنها صمدت لهذا الهجوم والحصار الذى رافقه،بعد أن تلقت نجدة من صاحب الموصل(٣) .

وكان خطر الباطنية تدازداد في حلب بسبب أعتماد الملك رضوان بن تتش عليهم، فتنفذوا في البلاد ، فسخط عليهم أبنه الذى تولى الحكم بعده،وحاول القضاء عليهم فتوجه من نجا منهم الى دمشق حيث أقطعهم وزير طغتكين المزدغاني حصن بانياس، ولكنهم قاموا بأعمال تخريبية هناك (٤) .

ومن أبرز أعمالهم التخريبية،ما قاموا به في شيزر سنة ٥٠٢ هـ/١١٠٩ م إذ تملكوا الحصن وأخرجوا أهله منه (٥) ، وفي سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م قتلوا صاحب حمص جناح الدولة (٦)، وفي سنة ٥٠٤ /١١١١ حاولوا قتل طغتكين ، وفي سنة ٥٠٦/١١١٣ قتلوا مودود أتابك الموصل ،(٧) كما قتلوا آقسنقر سنة ٥٢٠/١١٣٠ ،وراسلوا الفرنج بتسليم دمشق على أن يأخذوا صور بدلها ، وقد كان من المتوقع أن يبدأ تنفيذ المؤامرة وقت صلاة الجمعة ،فلما علم تاج الدولة بوري بن طغتكين المؤامرة قتل الوزير وعددا كبيرا من أصحابه ، ولكن الباطنية أغتالته في النهاية سنة ٥٢٦ /١١٣٢ (٧) .

---

(١) ابن كثير ،البداية والنهاية ،مطبعة السعادة ،مصر ١٣٤٨ هـ ، جـ١٢ ص١٨٤

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢ /٢٥

(٣) الكامل ١٠ /٦٢٤

(٤) عبد القادر اليوسف ،علاقات بين الشرق والغرب ، ٩٤

(٥) اسامة بن منقذ ،الاعتبار ،حرره فليب حتي ،مطبعة جامعة برنستون ،الولايات المتحدة ١٩٣٠ ص ٧٧

(٦) المختصر ٢ /٢١٦

(٧) ذيل تاريخ دمشق ١٨٧ ، ٢٢٢

ويصور ابن الاثير قوة الفرنج حين تولى عماد الدين زنكي البلاد فيقول " وكانت مملكة الفرنج حينئذ قد امتدت من ناحية ماردين وسجستان الى عريش مصر ، ولم يتخلله من ولاية المسلمين غير حلب وحمص وحماة ودمشق ، وكانت سراياهم تبلغ ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، ثم يصف البلاد الاسلامية فيقول " وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار واستضعاف وانتسار ثم يبين خطورة توثبهم " .. وانقطعت الطرق إلا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفاوزة تعبا ونصبا ... وأما حلب فانهم أخذوا مناصفة أعمالهم حتى في الرحى التي على بابها الجنان وبينها وبين المدينة عشرون خطوة ، وأما باقي بلاد الشام فكان حالها أشد من هذين البلدين (١) .

إلا أن هذا الظلام انبثق منه الفجر ، منذ أن ظهر على مسرح الأحداث عماد الدين زنكي صاحب الموصل ، وهو حاكم اجتمعت له صفات حميدة ، فقد عرف عنه حبه للجهاد(٢) واخلاصه وشجاعته ، فبدأ عملية توحيد القوى الاسلامية ، فانتزع جزيرة ابن عمر من مماليك البرسقي ، ثم استولى على مدينة اربل سنة ٥٢١ ، ثم سار الى نصيبين فتسلمها من صاحبها حسام الدين تمرتاش ابن ايلغازي واستولى على الخابور وسنجار وحران ثم استولى على الاثارب ثم على حلب (٣) ، فاصبح الطريق مفتوحا أمامه الى الشام (٤) .

لقي هذا السعي اعجابا من السلطان السلجوقي محمود فمنحه تفويضا بحكم الموصل والجزيرة والشام (٥) ، مما شجعه على الاستمرار في عملية ضم البلاد الإسلامية وتوحيدها فبعد أن استولى على حلب سنة ٥٢٢ (٦) ، أعلن أمير شيزر سلطان بن منقذ وأمير حمص تبعيتها له ، وفي سنة ٥٢٣ ضم حماة الى ملكه (٧) وبذلك تم له ملك الشام تقريبا ، ولم يبق أمامه الا دمشق التي كان يحكمها بوري بن طغتكين (٨) ، فاتصل معه بشأن الغزو للجهاد .

وقد أثارت انتصارات زنكي الروم فتحالفوا لكسر شوكته ، وأرادوا الاستيلاء على حلب سنة ٥٣٣ هـ/١١٣٨ ، فساروا اليها ولكنهم انشغلوا بحصن بزاعه ، بين حلب ومنبج (٩) مما جعل زنكي يأخذ الحيطة ويفشل حصار الروم والفرنج فتوجه الى شيزر (١٠) ، فانجدها زنكي بقواته القليلة ، وبعث السلطان مسعود السلجوقي وفدا يحثه على ارسال المدد

---

(١) ابن الاثير ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية بالموصل ت . عبد القادر طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ١٩٦٣ ص ٢٩ — ٣٤ ، وانظر ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ، مخطوط دار الكتب المصرية رقم ١٢٢٧ تاريخ ورقة ٦١
(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني ايوب ت . جمال الدين الشيال ، الاسكندرية ١٩٥٣ ، ١ / ٢٦٦ ، ٢٣٩ ، زبدة الحلب ٢ / ٢٨٣
(٣) مفرج الكروب ١ / ٢٦٩ ، ٢٧٩ ، زبدة الحلب ٢ / ٢٨٣ ، الباهر ٣٩ ، الكامل ١٠ / ٦٥٨
(٤) ابن الاثير ، الباهر ٣٦ ، المختصر في أخبار البشر ٢ / ٢٣٨ ، الكامل ١٠ / ٦٥٨
(٥) ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢ / ٢٤٤
(٦) المقريزي السلوك جـ ١ ق ١ ص ٣٦ ، الباهر ٣٧ — ٣٨
(٧) المختصر في أخبار البشر جـ ٣ ص ٤ (٨) المختصر ٢ / ١٤٠ (فيه توري بدل بوري)
(٩) ذيل تاريخ دمشق ٢٦٠ (١٠) الاعتبار ١١٣ — ١١٤

ولكنه تقاعس عن ذلك ، فاغتنم الوفد وقت اجتماع الناس لصلاة الجمعة واستغاثوا " واستنطاه وا دين محمداه " ، فتعهد السلطان بارسال حملة عاجلة ، كما أرسل الامير داود الأرتقي خمسين ألفا من التركمان (١)، ثم نجح زنكي في التفريق بين الروم والفرنج ، بأن شكك كل فريق بنوايا الآخر (٢) ، فانسحب الفرنج وتركوا ملك الروم وحده ، واستغل زنكي النزاع بين الروم والفرنج فهان عليه أمر الفرنج ، إذ صاروا يتمنون أن يحفظوا ما بأيديهم بعد أن كانوا قد طمحوا في البلاد (٣) ، فاستولى على عدد من الحصون المهمة مثل حصن بارين ، كما استولى على معرة النعمان وكفر طاب وأعمالها ، وهي بلاد كبيرة وقرى عظيمة (٤) ، وفي ذلك يقول ابن القيسراني (٥):

حذارِ منّا وأنّى ينفعُ الحَذَرْ — وهي الصوارمُ لا تُبقي ولا تَذَرُ

وبعد أن قويت شوكة زنكي حاول مرة أخرى أن يستولي على دمشق ، ويسطو حاكمها جمال الدين محمد بن بوري حمص وبعلبك فرفض (٦) ، وبذا لم يبقَ أمام زنكي سوى استخدام القوة ، فحاصر دمشق لكن معين الدين أنر الذي زاد نفوذه بعد وفاة جمال الدين استنجد بالفرنج في القدس (٧) ، مبينا لهم خطورة الموقف اذا سقطت دمشق بيد زنكي " فإن ملكها لم يبق لهم معه بالشام مقام (٨) " ، ثم أغراهم بأن يقدم لهم نفقات الجيش الصليبي (٩)

وتقدم الجيش الصليبي بين القدس وطبرية وأشرف على دمشق ، فانسحب زنكي ، بينما قام الفرنج باحتلال بانياس التابعة لزنكي وأحدثوا فيها مذبحة شنيعة (١٠) ، ولم يكتف معين الدين بهذا العمل بل ذهب الى القدس ومعه أسامة بن منقذ (١١) ليقدم الشكر للفرنج ويقوي أواصر الصداقة بينه وبينهم ، وبذلك يقضي على نشاط زنكي في المنطقة بل سمح لهم ببناء قلعة صفد ، وغيرها من المعاقل في جنوب فلسطين مثل الكرك والشوبك (١٢)

---

(١) المفرج ١ / ٧٩ ـ ٨٠
(٢) ابن الاثير ، الكامل ١١ / ٥٧
(٣) ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٦٦٣
(٤) ابو شامة ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨
(٥) ابو شامه ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨
(٦) ابن الاثير ، الباهر ٥٩
(٧) اسامه بن منقذ ، الاعتبار ١٣٩
(٨) ابن الاثير ، الكامل ١١ / ٧٤
(٩) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٢٧٢
(١٠) المصدر السابق ٢٧١
(١١) الاعتبار ١٣٥
(١٢) الحركة الصليبية ١ / ٦٠١

لكن ملك بيت المقدس توفي سنة ٥٣٨ هـ / ١١٤٣ م بعد أن ثبت أقدام الفرنج في فلسطين فانفسح المجال لزنكي كي يسترد الرها ، وقد استولى عليها فعلا سنة ٥٣٩/١١٤٤م دون أن يستخدم الاسلوب التخريبي الذى استخدمه الفرنج بل أعاد ما غنمه الجيش ،ولم يفقد الا الشاذ النادر(١).

وتابع زنكي فتوحاته في شمال الرها ... ثم اتجه الى قلعة جعبر التي يحكمها بنو عقيل ليصفي الجزيرة من هذه الامارات المتناثرة ويتجه نحو دمشق ويجاهد الفرنج (٢) ولكنه وقع فريسة الاغتيال عام ٥٤١ هـ وبعد مقتله ، اتصل الارمن من أهل الرها بجوسلين الثاني ،وطلبوا منه القدوم لتسليمه المدينة ، إذ أن الحامية السلجوقية فيها قليلة ، وعماد الدين زنكي قتل ، فأسرع جوسلين اليهم وتسلم المدينة ، وبقي يحاول الحامية المستحكمة في القلعة ،ولكن نور الدين تمكن من الوصول اليها قبل أن تيأس حامية المدينة ، فأصبح جيش جوسلين محاصرا من الداخل والخارج ،ففضل الانسحاب بجيشه على البقاء في الخطر، فدخلها نور الدين ، وطارد جيش جوسلين وقتل معظمه ومنهم حاكم مرعش ، أما جوسلين نفسه فقد جرح (٣) .

من ذلك يتبين لنا قدرة نور الدين المطابقة على الاضطلاع بالحكم ، اذ يعتبر عمله استمرارا طيبا لمسيرة والده ،فاذا كان عماد الدين زنكي " جبارا عسوفا ينكباء النكبات عصوفا نمرى الخلق ، أسدى الحنق ، لا ينكر المعرف ولا يعرف المعرف(٤)" فان نور الدين أخذ الجانب الضيء من صفاته * ،واستبدل بالجانب الخشن التقوى فهو كما وصفه الشاعر :

جمع الشجاعة والخشوع لربـــــه ما أحسن المحراب في المحـــراب

وقد عمل نور الدين على أرضاء أخيه سيف الدين غازى حاكم الموصل(٥) ، كما عقد أتفاقا مع معين الدين أنر وتزوج بابنته (٦)، وتفرغ لمهاجمة امارة انطاكية ، واستطاع أن يحرر معظم الاراضي الواقعة شرقي نهر العاصي (٧) .

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ١١/٤٠
(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٢٨٧
(٣) مفرج الكروب ١/١١١ ،ابن القلانسي ٢٨٨ ، ابن الاثير ، الباهر ٨٧
(٤) الاصفهاني ، تاريخ دولة آل سلجوق ،القاهره ١٣١٨هـ ص١٨٦
(٥) النويري ، نهاية الارب في فنون الأدب مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٥٤٩ ، معارف عامه جـ٢٥ ورقة ٨٠ ، مفرج الكروب ١/١١١-١١٢ ، الروضتين جـ١ق١ص١٢٢
(٦) حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون القاهره ١٩٤٨ ص٤٣
* أنظر صفاته في تاريخ الحروب المقدسة ، ١/٦٥
(٧) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٢/٦١٤

ومما يدل على عظمته ، تصديه للحملة الصليبية الثانية التي جاءت لتستعيد الرها ، ولكنها أنحرفت عن هدفها الى دمشق ، " فتوجه نور الدين نحو سرخد ولم يشاهد أحسن من عسكره وهيئته ووفور عدته (١) " ثم سار الى بصرى فأنهزم الفرنج ، وحين عادت الجيوش الفرنجية ومعها الامدادات الكثيرة ، أستنجد صاحبها معين الدين بنوابه ، كما أرسل الى سيف الدين غازي وأخيه نور الدين ، في حين ظل يتصدى للقوات الصليبية التي أحتلت المزة والربوة (٢) ، متخذا كثرة الاشجار فأوقع فيهم خسائر كبيرة ، مما جعلهم ينتقلون الى الجهة الشرقية (٣) ، فصادفوا الماء مقطوعا (٤) ، في حين وصلت النجدات الاسلامية من الموصل وحلب ، فآثروا الانسحاب على البقاء ، لا سيما بعد أن أغراهم معين الدين بحصن بانياس (٥) .

وهكذا فشلت الحملة الصليبية الثانية ولم تحقق لها أي هدف ، وأنما رفعت معنويات المسلمين الذين كانوا يخشون قدوم مثل هذه الحملة ، وأستغل نور الدين حالة الضعف التي تمر بها الامارات الصليبية ، على أن يعود في وقت مناسب ، فأوقع بالفرنج كسرة قبيحة في يغرى (شمال شرق بحيرة العمق) ، وأرسل الى الخليفة العباسي والى أخيه بعض الغنائم ، ثم أغار سنة ٥٤٤ / ١١٤٩ على حصن حارم وحاصر قلعة " أنب " وقتل ريموند ، ثم تفرغ نور الدين لدمشق ، وحكامها الذين لم يجاهدوا ، ولم يسمحوا لنيورهم بالجهاد ، وقد كان حرص نور الدين على الاستيلاء على دمشق ناشئا عن كونها تقع بين أراضيه وبين الفرنج ، فكان كلما حاول التصدي للفرنج وجد من الصعب السيطرة على الموقف لتعاون معين الدين أنر مع الفرنج ، وقد بقي الامر كذلك حتى توفي أنر سنة ٥٤٤ ، وخلفه مجير الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين ، وكان أن ملك الفرنج عسقلان سنة ٥٤٨ هـ وهي مدينة فلسطين حصنا ومنعة .. ولما كانوا يحاصرونها ، كان يتلهف على أنجادها ولا يقدر على أزعاجهم لأن دمشق في طريقه (٦) .

ولم يرتدع أبق عن أعماله المشينة فملك الفرنج في دمشق وتابعوا الغارات عليها ، وأكثروا القتل والنهب والسبي ، وجعلوا على أهلها ضريبة سنوية ، يأخذونها بأنفسهم فخلع الناس طاعته وأتصلوا مع نور الدين (٧) .

---

(١) أبو شامة الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٠
(٢) ولاة دمشق في العهد السلجوقي ، نصوص مستخرجة من تاريخ دمشق ، حققها د . صلاح الدين المنجد ص ١١ وأنظر الباهر ٦٧
(٣) الحركة الصليبية ٦٣٢/١
(٤) الحركة الصليبية ٦٣٤/٢
(٥) زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢٧٢/٢
(٦) العيني ، عقد الجمان من تاريخ أهل الزمان ، مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ، ج ١٢ ق ١ ورقه ٢٥٠
(٧) المصدر السابق ج ٢٢ ق ١ ورقه ١٨٠ ، ١٩٦

وقد عمد نور الدين الى الايقاع بين أبق وأمرائه (١) ، ثم فرض حصاراً اقتصادياً على دمشق واستمال حرسها في حين استنجد أبق بالفرنج ، ولكن سرعة نور الدين فوتت الفرصة عليه (٢) ، وفي تلك الفتن يقول المرقلة :

ذروة الأتراك والعرب	وكن في حزب من غلب
ملك أضحت فتن	تجر الويل والوصب
لئن تمت لها أسف	ولم تخضب لها عجب (٣)

وقد أشرفت دمشق على الخراب ، ولكن نور الدين جنبها ذلك حين ملكها سنة ٥٤٩ هـ (٤) فصفت الممالك بالشام له (٥) ، وامتد ملكه من الرها شمالاً حتى حوران جنوباً ، من حد النوبة الى باب همذان لا يتخللها سوى بلاد الفرنج (٦) ، وبعد أن استقر ملكه عمر الشام ، وبنى الاسوار والمدارس حتى أصبحت مقراً للعلماء والفقهاء والصوفية ، وبنى الجوامع والابراج على الطرق وجعل فيها من يحفظها وصنع الحمام الهوادي (٧) وأحسن الى الجند والرعية فأحبه الناس لتواضعه وحسن سيرته (٨) .

بعد هذا الاستقرار توجهت أنظاره الى الفرنج ، وحدث أن غدر بلدوين الثالث بالتركمان الذين يعيشون في منطقة بانياس بعد أن أمنهم فقتل بعضهم وأسر آخرين واستاق خيلهم (٩) ، وفي هذا يقول باركر " فالن صبر المسلمون على قيام دولة من المشركين فانهم لا يطيقون قيام دولة من اللصوص في أراضيهم " (١٠) ، فجهز نور الدين جيشاً ، وأخذ بانياس ، مما جعل الفرنج يجتمعون من القدس وطرابلس وأنطاكية لاحتلال حلب بينما كان نور الدين مريضاً (١١) ، ولكن المدينة صمدت أمامهم ، فاتجهوا نحو شيزر واحتلوها (١٢) .

---

(١) عقد الجمان ج ١١ ق ١ ورقه ١٨٠ ، ١٦٦
(٢) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٣٢٥ ـ ٣٢٦
(٣) عقد الجمان ، ق ١ ج ١١ ورقة ١٦٦
(٤) ابو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ج ٣ ص ٦٦ الباهر ١٠٦
(٥) ابن واصل ، مفرج الكروب ١ / ١٢٨
(٦) الباهر ١٥٩
(٧) ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ، مخطوط ورقة ١٩ ، ٢١ الباهر ١٥٩
(٨) الدر الثمين ١٧ ، ٦٨ ، عقد الجمان ق ٣ ج ١٢ ص ٥٤٥
(٩) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٣٢٧ ، ٣٢٨
(١٠) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٦٦٧ نقلاً عن باركر في الحروب الصليبية ص ٨٩
(١١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٢ ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ٣٤٩
(١٢) ذيل تاريخ دمشق ٣٥٠

وحين أبل نور الدين من مرضه هاجم منطقة صيدا والجليل ، فوقعت معركة بين الطرفين قرب بحيرة طبرية ربحها الفرنج ، فتقدموا نحو دمشق ، فتصدى لهم نور الدين وقتل منهم خلقا كثيرا وأسر منهم جماعة قيل فيهم :

ما راينا فيما تقدم يومـــــــا ... كامل الحسن غاية في البهـــــاء
مثل يوم الفرنج حين علتهــــم ... ذلة الاسر والبلى والفنـــــاء (١)

وحين لم يفلح الفرنج في حروبهم مع نور الدين اتجهوا نحو الدولة الفاطمية التي أصبحت تعاني الضعف والتمزق بعد مقتل وزيرها طلائع بن رزيك * ثم ابنه العادل ، اذ تولى الامر شاور سنة ٥٥٩ / ١١٦٣ لكن ضرغام نافسه وانتصر عليه (٢) .

وفي هذه الاثناء قام عموري (عموري) بغزو مصر سنة ٥٥٩ / ١١٦٣ ، فوصل الى بلبيس وحاصرها ولكن فيضان النيل لم يمكنه من احتلال مصر ، فعاد ليجهز حملة كبيرة ، يحتل بها مصر بعد ان رأى كثرة خيراتها (٣) .

وتوجه شاور الى الشام مستنجدا بنور الدين بان له ثلث اموال مصر ان مكنه منها ، فارسل معه أسد الدين شيركوه وصلاح الدين سنة ٥٦٠ / ١١٦٤ فقضى على ضرغام الذي استنجد بالفرنج ، وسيطر على الموقف قبل وصول الفرنج ، ولكن ما لبث شاور أن تنكر لأسد الدين ، فاحتل أسد الدين بلبيس والشرقية ، فاستنجد شاور بالفرنج ، فتقدم جيش عموري واشترك مع جيش شاور في محاصرة أسد الدين في بلبيس ، واذ ذاك قام نور الدين بهجوم على ممتلكات الصليبيين في الشام (٤) ، فآثر عموري الرجوع عن مصر ، حيث جهز جيشا عظيما من الفرنج والروم والأرمن لقتال نور الدين ، ولكن نور الدين أوقع بالصليبيين هزيمة ساحقة سنة ٥٦٠ / ١١٦٤ (٥) ، وأسر عدة من أمرائهم واستولى على حارم وبانياس ثم على شقيف تيرون وحصن المنيطرة فمدحه الشعراء ومنهم ابن القيسراني بقصيدة مطلعها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضـــب ... وذي المكارم لا ما قالت الكتـــب (٦)

---

(١) عقد الجمان ق ٢ ج ١٢ ص ٢٨٣
(٢) ابو الفداء ، المختصر في تاريخ البشر ٣ / ٤١
* ساءت أحوال الدولة الفاطمية في حين سيطر الوزير عباس الصنهاجي على دار الخلافة وقتل الخليفة الظافر وأخويه ، فحدثت فتنة عظيمة بالقاهرة ، ثم أتاها طلائع بن رزيك وقام جيشه بعدة غارات ظافرة كما طلب من نور الدين ان يغزو الفرنج ، لكن اختلاف مذهبيهما لكون الاول شيعيا والثاني سنيا حال دون اتفاقهما على ذلك .
(الديوان جمع بدوي ص ٦٥ ، وديوان أسامه بن منقذ ص ١٧٧)
(٣) سعيد عاشور ، الحركة الصليبية ٦٨٢
(٤) تاريخ ابن الوردي ٢ / ٦٧
(٥) مفرج الكروب ١ / ١٤٤ ، عقد الجمان ق ٢ ج ١٢ ص ٣٦٦ وانظر ابن الاثير ، الكامل ١١ / ٢٠٨
(٦) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٢
والباهر ١٠٩

لم يندر نور الدين مصر وطمع الفرنج فيها وضعف شاور ، ولكنه تحين الفرص ، فحين دعاه العاضد ليخلصه من استبداد شاور لم يتأخر في تلبية دعوته ، فأرسل شيركوه وصلاح الدين للمرة الثانيه (١) ، فاستنجد شاور بالفرنج ثانية ، فلبوا دعوته وعقدوا معه اتفاقا يخولهم الدخول الى القاهرة ويضمن لهم الاموال الكافية ، ثم سار الجيشان الفرنجي والمصري لمهاجمة شيركوه ، فانسحب الى جهة الصعيد في الصحراء ، وهناك تمكن من هزيمة الفرنج وشاور (٢) ، فعاد الفرنج الى الفسطاط بينما سار شيركوه وصلاح الدين الى الاسكندرية ، فرحب بهما أهلها (٣) ، وأبقى شيركوه فيها صلاح الدين ، ثم عاد الى الصعيد (٤) .

اتحد كل من شاور والفرنج بقيادة عموري لمهاجمة الاسكندرية ، فصبر أهلها وذاق صلاح الدين الأمرين في هذا الحصار (٥) ، فاستنجد بعمه سنة ٥٦٢/١١٦٧ ، بينما قام نور الدين بمهاجمة مملكة طرابلس وبيت المقدس (٦) ، ولما علم الفرنج ذلك خافوا على ممتلكاتهم في بلاد الشام ، وآثروا المهادنة بعد أن عقد شاور معهم اتفاقا معينا يدفع بموجبه مالا سنويا لهم ، لكن شاور تثاقل عن دفع المال وكان نتيجة ذلك ان طمع الفرنج في ملك مصر ، وقد وجدوا الفرصة ملائمة لتحقيق أهدافهم ، فهم يعرفون ضعف مصر ، من جهة وأنشغال نور الدين في حلب من جهة أخرى ، وعلموا أن تأخر ذلك يعني وقوع مصر في يد نور الدين وقائده أسد الدين شيركوه ، وإن صار فيها مثل أسد الدين فهو هلاك الفرنج ونهايتهم من أراضي الشام (٧) ، فقدم الفرنج سنة ٥٦٤ بأعداد هائلة وأحتلوا مدينة بلبيس ، وجاؤوا القاهرة من باب الشرقية ، بينما قام بعض الاعراب بالهجوم على البر الغربي وساقوا المواشي والابقار وحاصروا البلاد أشد حصار ، وكما جاء في كتاب القاضي الفاضل " فلا نهضتم الى النصرة ولاقصدتم عن المضرة " (٨) ، فأمر شاور بحرق مدينة بلبيس ، ثم سار الى القاهرة (٩) ، فأرسل العاضد يستنجد بنور الدين وضمن الكتاب شعر نسائه ، فأنجده على وجه السرعة خوفا على مصر (١٠) ، فعاد الفرنج الى بلادهم فاشلين (١١) .

---

(١) ابن تغري بردي ، النجوم الزاهرة ٥ / ٣٤٨

(٢) ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين ١٣٠

(٣) الروضتين جا ق ٢ ص ٣٦٦ ، النجوم الزاهرة ٥ / ٣٤٩

(٤) السيوطي ، حسن المحاضره في أخبار مصر والقاهره ط. ادارة الوطن مصر ١٢٩٩ هـ جا / ٢٣

(٥) ابن الاثير ، الكامل سنة ٥٦٤

(٦) الروضتين جا ق ٢ ص ٣٧٤ والنوادر السلطانية ٣٨

(٧) تاريخ ابن الفرات ، ت حسن الشماع مطبعة حداد البصرة ، ١٩٦٧ مج٤ جا ص ١٩ - ٢٠

(٨) محي الدين بن عبد الظاهر ، الدر النظيم ، ت . أحمد بدوي مطبعة الرسالة ، مصر ١٩٥٩ ص ٣٤

(٩) تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٢٤

(١٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ١٣٩ ، خطط المقريزي ج ١ ط ١ بولاق ص ٦٣

(١١) تاريخ ابن الفرات ج ١ ص ٢٣

وقد أثار تلاعب شاور بأسد الدين شيركوه وصلاح الدين الجند فأتفق صلاح الدين مع الجند على قتله ، وكان ذلك سنة ٥٦٤/ ١١٦٨ ، فخلع العاضد على شيركوه خلع الوزارة ولقبه بالمنصور . وبضم مصر عمليا الى دولة نور الدين ، أصبح أمل المسلمين كبيرا بفتح القدس (١) ، وما لبث شيركوه أن توفي بعد شهرين من وزارته تخلفه صلاح الدين (٢) ، وقد عظم مركز نور الدين بفتوحاته ، وعمله للوحدة (٣) ، حتى كان ذلك بداية انهيار للامارات الصليبية ، وقد طلب من صلاح الدين أن يعلن عودة مصر الى الخلافة العباسية ، لكن صلاح الدين رأى أن ينظم الأمور في مصر أولا ، فقضى على ثورة الجند السودان سنة ٥٦٧ هـ/ ١١٧١ (٤) ، وبسط نظامه على مصر ، فأقض هذا العمل مضجع الفرنج في بيت المقدس ، وعلموا أن وحدة مصر والشام تعني القضاء عليهم ، فاستنجدوا بقومهم في أوروبا وعرفوهم ما تجدد من ملك مصر وأنهم خائفون على البيت المقدس" (٥) ، ثم طلبوا العون من الدولة البيزنطية ، فاجتمع الجيش الفرنجي والبيزنطي وحاصروا دمياط ، لكن صلاح الدين شحنها بالسلاح والمال والذخائر ، فعاد البيزنطيون وتبعهم الفرنج دون أن يحققوا نجاحا (٦)

وبعدها أعاد نور الدين الطلب من صلاح الدين اعلان الخلافة العباسية" وألزمه بذلك الزاما لا فسحة فيه (٧) " فأعلنها سنة ٥٦٧ هـ ، وكان العاضد على فراش الموت ولم يعارضه أحد " ولم ينتطح فيه عنزان " (٨) .

وبذلك أصبحت مملكة نور الدين تشكل "تكي كماشة" على الفرنج ، وما لبث نور الدين أن توفي ، فأغتنم الفرنج موت نور الدين وحاولوا احتلال بانياس ، لكن ابن المقدم وصي الملك أسماعيل بن نور الدين خرج اليهم وراسلهم ولاطفهم وقدم لهم عروضا مغرية ، وبين لهم خطورة أستعانته بصلاح الدين فتركوها (٩) ، وعندما علم صلاح الدين بهذا العمل ساءه سلوك ابن المقدم وأرسل الى الملك الصالح وأمرائه يقبح لهم ما فعلوه (١٠) .

ثم قدم الاسطول الصقلي الى الاسكندرية في ستمائة قطعة ما بين شيني وطرادة وبطسة وغير ذلك ، وكانوا في ثلاثين الفا (١١) ، وضايقوا الثغر وأتلفوا السفن التجارية ولكن أهلها قاوموا النازين ، حتى جاء المدد صلاح الدين ، فانسحب الفرنج وخرج أهل البلد يحرقون خيامهم ويقتلون من ظفروا به فعادوا خائبين (١١) .

---

(١) الروضتين جـ١ ق١ص ٤٠٢ ــ ٤٠٤
(٢) ابن الاثير ، الباهر ١٤١ ، الأنس الجليل ١/ ٣١٢ (٣) الباهر ، ١٦٠
(٤) الروضتين جـ١ ق٢ص٤٩٢ ، المفرج ١/ ١٧٦ ــ ١٧٧ (٥) ابن الاثير ، الباهر ١٤٣
(٦) ابن الاثير ، الكامل ١١/ ٣٥١ (٧) مفرج الكروب ١/ ٢٠٠
(٨) ابن الاثير ، الباهر ص ١٥٦ ، الأنس الجليل ١/ ٣١٣
(٩) مفرج الكروب ٢/ ٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ٣ ص ١٢
(١٠) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٥٨٩
(١١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، تح جمال الدين الشيال ، مطبعة الدار المصرية للترجمة والتأليف والنشر ، ١٩٦٤ ص ٤٨ـ٤٩ ، مفرج الكروب ٢/ ١٢ ، النويري ، كتاب الالمام بالاعلام ، ت ، د ، آتين كومب وعزيز عطية ، دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد ، ١٩٦٨ جـ١ ص ٢٦٣

وبعد ذلك تفرغ السلطان لأمور الشام ، فحين حدث نزاع بين الاوصياء على الملك الصالح ، اتصل أحدهم وهو ابن المقدم بصلاح الدين ، حتى يقضي على الطامعين من الفرنج فرصة ضعف الشام (١) ، فلبى صلاح الدين الدعوة ، ورحبت به دمشق أجمل ترحيب ، قال وحيش الاسدي :

رأيت جلق ثغرا لا نظير له ... فجئتها طامرا منها الذي طرسا
نادتك بالذل لما قل ناصرها ... وأزمع الخلق من أوطانها هربا (٢)

أزال صلاح الدين ما كان فيها من البدع والمنكرات ، والضرائب التي ظهرت بعد موت نور الدين كما أصلح من أحوالها ، وأعاد الحقوق الى أصحابها (٣) ، ثم اتجه الى حلب ، فاستنجد المتنفذون فيها بالفرنج ، فأنجدهم صاحب طرابلس (ريموند الثالث) ، وهاجم حمص وحماه فاضطر صلاح الدين الى الرحيل (٤) ، ثم وقع مصاف بينه وبين الزنكيين من الموصل وحلب ، عند قرون حماة سنة ٥٧١/١١٧٥ ، انتصر فيه صلاح الدين وضم بعض بلادهم (٥) ، وقد حاولت الباطنية قتله أكثر من مرة ، كانت أولاها أثناء حصار حلب سنة ٥٧١/١١٧٥ والثانية أثناء حصار حصن عزاز التابع لحلب سنة ٥٧٢/١١٧٦ ، والثالثة أثناء حملته على ديارهم في الشام نفسه (٦) لكنه نجا فخرب ديارهم وأحرق بلدهم (٧) . ووجه صلاح الدين بصره الى الجناح الثاني من دولته ليقوم بالتحصينات اللازمة ، فبنى حول القاهرة ومصر سورا عظيما (٨) ، وكذلك اهتم بالاسكندرية (٩) ، ثم قام بأعمال حربية هجومية على جنوب مملكة بيت المقدس وتمكن من حصار ملكها بلدوين الرابع وجيشه في غزة ، ثم انتشر في رقعة واسعة من فلسطين ، هاجم خلالها الرملة واللد ، ووصل الى جهات نابلس ، ثم اتجه صوب الساحل ، فاعترضه نهر عليه تل الصافية ، فلم يتمكن من اجتيازه الا بصعوبة لتزاحم الجنود ، وأثناء ذلك فوجئ بجيش مجهز من الفرنج (١٠) ، تمكنوا به من المسلمين فقتلوا منهم جماعة كبيرة ، ثم عاد الى القاهرة وقد حاول الشعراء أن يهونوا أمر هذه الكسرة عليه .

---

(١) انظر الخريدة ، قسم الشام ص ١٢ مرآة الجنان وعبرة اليقظان ج ٣ ص ٣٩٢ ، الشذرات ٤/٢٣٦ ، أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك في مصر والشام ٨٣-٨٥
(٢) عقد الجمان ج ١٢ ق ٣ ورقة ٥٧٠
(٣) العماد الاصفهاني ، الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام والامراء من بني أيوب ص ١٣
(٤) ابن الوردي ، تاريخه ٢/٨٣ ، الكامل ١١/٤١٧
(٥) تاريخ ابن الوردي ١٠/٨٦
(٦) عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ١٢٨
(٧) تاريخ ابن الوردي : ٢/٨٧
(٨) تاريخ ابن الوردي ١٠/٨٧ ، مرآة الجنان ٣٦/٣٦٧ ، الشذرات ٤٠/٢٤١
(٩) أبو شامة ، الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٨٧
(١٠) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٧٠٠

اغتم الفرنج هذا النصر ، فقاموا ببناء قلعة عظيمة قرب بانياس تعرف ببيت الاحزان * ، لتراقب التحركات الاسلامية وتعقبها ، فعاد السلطان الى الشام لتدارك أمر الاسلام ، ثم قام بهجوم على بانياس وكان يضرب به المثل في الشجاعة والرأي في الحرب (١) فقتل عددا من الفرنج ومنهم صاحب بانياس (٢) ، ثم هاجم حصن بيت الاحزان سنة ٥٧٥ ، وغنم جميع ما فيه اذ كان فيه مقدار كبير من السلاح بلغ مائة الف قطعة ، كما كان فيه مؤن كثيرة ، وأسر سبعمائة مقاتل ، فأثنى الشعراء والكتاب عليه لما قام به من حفظ الديار الشامية (٣) ، كما كتب اليه الخليفة تقليدا بالبلاد المصرية واليمنية ، سهلا وجبلا ، مع ما تحتويه من جند ورعية ، وأضاف اليها بلاد الشام باستثناء ما كان بيد ابن نور الدين اسماعيل (ـ٥٧٧) الذي كان يحكم حلب وأعمالها (٤) ، وقد كتب ابن التعاويذي اليه قصيدة أرسلها من بغداد مطلعها :

إن كان دينك في الصبابة ديني ... فقف المطيّ برملتي يبرين **

ومنهـا :

أضحت دمشق وقد حللت بجوهـا ... مأوى الطريد وموئل المسكين

---

* جاء في معجم البلدان ، مادة بيت " بلد بين دمشق والساحل .. وكان الافرنج عمروها ، وبنوا به حصنا حصينا، قال النشوبن نقادة فيه :

هلاك الفرنج أتى عاجلا ... وقد آن تكسير صلبانهـا
ولو لم يكن قد أتى حينهـا ... لما عمرت بيت أحزانهـا

(١) محمد بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه الايوبي ، مضمار الحقائق وسر الخلائق دار الهناء ، القاهرة ، سنة ١٩٦٨ ، ت حسن حبشي ، ص

(٢) الروضتين ٢ / ١١ ، ٢ / ٢ ، ٢ / ١٠

(٣) الروضتين ٢ / ١١ــ١٣ ، ابن الوردي ٢ / ٨٩ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ١٢ / ٣٠٣

(٤) السيوطي ، حسن المحاضرة ٢ / ٢٧

(٥) الروضتين ٢ / ١٠ ، مضمار الحقائق ٢٢

** في الروضتين (٢ / ١٠) بيرين ولم يذكر هذا الموضع في معجم البلدان ، وفي الضمار (بيرين) ولعل الصحيح (يبرين) لان الشاعر قصد الارض الكثيرة الرمل وهذا المكان هو يبرين وليس بيرين ، وهو من أصقاع البحرين ، (معجم البلدان مادة بيرين ، يبرين)

وأزاء هذه الانتصارات المتتالية ، طلب بلدوين الرابع عقد هدنة ، فوافق صلاح الدين سنة ٥٧٦ / ١١٨٠ وبذلك تفرغ لمهاجمة طرابلس ، فاضطر صاحبها (ريموند الثالث) الى عقد هدنة في العام نفسه ، مما أتاح له فرصة طيبة لتوحيد العالم الاسلامي ، إذ بدأ أستطاعته وأضحا بحلب لأنها مركز الحكم وقاعدته (١) ، لكن خطرا جديدا أخذ يهدد قلب مملكته ، اذ أتخذ أرناط (رينودي شاتيون) حصني الكرك والشوبك مركزين لمهاجمة قوافل الحجاج والتجار بين مصر والشام والحجاز ، وكان أرناط قد تولى الاردن بعد فكاكه من أسر مكث فيه مدة طويلة تغيرت فيها أحوال المسلمين نحو الافضل ، ولكنه بقي على لؤمه وغدره ، فخرق هدنة صلاح الدين مع ملك بيت المقدس ، وقام بالهجوم على قافلة ذاهبة الى مكة سنة ٥٧٧ / ١١٨١ ، فارسل صلاح الدين الى ملك بيت المقدس يطلب منه أعادة ما نهب ولكن أرناط تمادى في غيه ولم يذعن لأحد (٢) ، وقد حاول صلاح الدين أن يضغط عليه بالاسرى الحجاج الذين تذفهم البحر عند دمياط - رغم كثرتهم - فلم يرتدع (٣) ، وفي هذه الاثناء شاع الخبر بغارة فرنج أنطاكية على حارم ، اذ نهبوا وسبوا عددا كبيرا ، بينما رسول حلب يقوم بالتفاوض مع الفرنج ويستنجد بهم ويغريهم (٤) ، وما كان "المواصلة" بأحسن حالا منهم ، وأما الخليفة فمشغول بأن لا تكون السفينة المعروفة (بالزبزب) بدجلة أزاء التاج الشريف لترقب من يموت ... لأنه كلما رآها تكدرت عليه الحياة (٥) .

وأستغل صلاح الدين الهدنة المعقودة بينه وبين الفرنج في أستكمال الوحدة الاسلامية ، فعاد لمحاصرة حلب ، ولكنه لم يستطع السيطرة عليها ، فذهب الى الموصل ، وحاصرها أياما ، لكن لم يفلح في فتحها ، اذ كانت محصنة ومحاطة بقلاع لا سبيل اليها إلا بأخذ هذه القلاع وما حولها من البلاد (٦) ، فعاد الى حلب حيث أرسل الخليفة يأمره بترك أمر الموصل وحلب ، فرد عليه صلاح الدين بأنه لا يمكنه الجهاد والتفرغ للعدو دون حماية وطمأنينة وإلا فالأولى أن يتنازل عن أملاكه لهؤلاء على أن يقوموا بواجب الجهاد، ثم حاول أن يقنعه ويغريه بأن حكام حلب والموصل أعاقوا متابعته للجهاد ، وبين له أن الهدنة ما عقدها مع الفرنج إلا بسببهم (٧) .

---

(١) ابن العديم ، زبدة الحلب ٢/٢٠ - ٢٥ ، الكامل ١١/٤٩٦

(٢) Stanley Lane Pool. A History of Egypt in the Middle Ages p. 207

(٣) ابن واصل ، مفرج الكروب ٢/١٤٥ ويذكر ان عددهم ألف وستمائة وتسعون .

(٤) الروضتين ٢/٢٢

(٥) الايوبي ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ت حسن حبشي ، دار الهنا ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص٥٩

(٦) ابن شداد ، النوادر السلطانية ٥٧

(٧) الروضتين ٢/٢٢

وعاد السلطان الى الجزيرة الفراتية ، وعمل على ضم كثير من البلاد اليه (١) ثم عبر الفرات سنة ٥٧٩ وسير العسكر الى حلب ، فناجزها وحين علم صاحبها (عماد الدين زنكي) أن لا قبل له به ، اتصل به على أن يسلمه البلد مقابل أعطائه سنجار وبذلك قضى على معظم الممالك الضعيفة والملوك الذين يقول فيهم ابن اسعد الموصلي :

ملوك جلهم مغرى بظلم ومشغول بلهو أو مزاح

أو ما قاله فيهم ابن سناء الملك :

ممالك لم يدبرها مدبرها الا برأي خصي أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت من الفساد كما صحت من الوصب (٢)

وبذلك أيضا ضمن قوة كبيرة يقف بها أمام الفرنج ، فكان فتح حلب بداية فتح القدس كما أشار الى ذلك ابن الزكي قاضي دمشق قبل فتح القدس :

وفتحكم حلبا بالسيف في صفر مبشر بفتوح القدس في رجب (٣)

* * *

وكان أن اقدم أرناط على مشروع خطير — دون أن يفكر بالعواقب — وهو أنه جهز اسطولا وأوكل له مهمتين : الاولى : نهب السفن الاسلامية التجارية ، والثانية : أحتلال المدينة المنورة ونقل جسد الرسول الكريم الى بلادهم ليدفنوه عندهم ، ولا يمكنوا المسلمين من زيارته الا بجعل (٤) .

ولذا عمر العادل أخو صلاح الدين أسطولا ارسله مع حسام الدين لؤلؤ ، وأوقع بمحاصري أيلة هزيمة نكراء ، ثم طلب الفرقة الثانية وقد عزموا على دخول المدينة ومكة ، فأدركهم بساحل حوراء ، فقتل أكثرهم وأسر الباقين (٥) ، ولم يكتف أرناط بهذا بل غدر بالمسلمين بعد ان أمنهم ، فهاجم قافلة قادمة من مصر الى الشام ، وحين ذكره صلاح الدين بالعهد ، وطلب منه اطلاق الاسرى والقافلة رد بقوله " قولوا لمحمد يخلصكم " (٦)

زالت العوائق التي أعترضت صلاح الدين في تأديبه لارناط على أعماله ، وبالاضافة الى ذلك تدهورت أوضاع مملكة بيت المقدس ، اذ توفي بلدوين الرابع ، وخلفه " جاى لوزجنان " فراسل صلاح الدين وطلب منه المساعدة على أهل ملته (٧) .

---

(١) أنظر مضمار الحقائق ص ١٠٤ — ١٠٥ ، ١١٠ — ١١٥ والكامل ١١ / ٤٨٢ — ٤٨٨ ، وزبدة الحلب ٣ / ٢٠ — ٢٥
(٢) الروضتين ٢ / ص ١٧ ، ٤٣ ، ٤٤
(٣) الانس الجليل ٣١٧ ، وأنظر مضمار الحقائق ٩٢ ، تاريخ ابن الوردي ٢ / ٩٣
(٤) ابن الاثير ، الكامل ١١ / ٤٩١ ، ٤٩٠ ، الانس الجليل ٣١٦
(٥) تاريخ ابن الوردي ٢ / ٩٢
(٦) مفرج الكروب ٢ / ١٩٤ ، ابن شداد ٧٨
(٧) الروضتين ٢ / ٧٤

وهنا أمر صلاح الدين بتعبئة العساكر من حلب ومصر والجزيرة ، ووكل ابنه الافضل باستقبالها في منطقة تجمع بدمشق ، بينما قام بغارة على الكرك والشوبك دمر خلالها أرباضها وقطع أشجارها (١) ثم عاد الى الشام فوجد أمورها مهيأة ومنظمة فجهز الجيوش وسيرها يريد دخول الساحل ، وعندما سمع الفرنج باجتماع كلمة المسلمين ، أجتمعوا وتصالحوا ثم أقاموا في صفورية بجيش قوامه خمسون ألفا ، فاستهدف صلاح الدين أزاحتهم عن مراكزهم حتى يصلوا اليه متعبين ، فضلا عن أنه بهذا العمل يحرمهم من الماء بأحاطته ببحيرة طبرية ، ولكنهم بقوا حيث هم ، فاحتل طبرية لعلمه أنهم لن يهدأوا لذلك ، فلما وصلهم الخبر ثارت ثائرتهم ، فسر السلطان ، وقال : "جاءنا ما نريد ، ونحن لهم بالمرصاد ، فلا قبل لهم بنا ، فاذا هزمناهم فما أخذ طبرية وجميع الساحل" (٢) ،

عسكر الفرنج على سطح جبل طبرية بعيدين عن الماء ، فاشتد بهم العطش وأندفعوا الى ماء طبرية غير مرة ، ولكن المسلمين كانوا يردونهم ، ولم تزل الحرب تستعر ويشتد أوارها حتى دارت الدائرة على أهل الشرك ، إذ ان المسلمين قد أشعلوا النيران في الاعشاب فازدادت عليهم الحرارة اللاهبة ، حرارة النور وحرارة النار والحديد الذي به يتخوفون ويدرعون إضافة الى العطش الشديد ، فكانت الغلبة للمسلمين بفضل الخطة الحكيمة لقائدهم صلاح الدين . ولما رأى صاحب طرابلس أمارات الخذلان قد نزلت بأهل دينه بادر الى الهرب ثم أصابته ذات الجنب ، فكانت سببا في هلاكه بمشيئة الله (٣) .

أما بقية الجيش فقد أشتد قتالهم حين أيقنوا بالهلاك ، لكنهم لم يستطيعوا الاستمرار فقتل منهم عدد كبيرا ، كما أسر الكثير ، وقد عامل المسلمون الاسرى معاملة كريمة ، وأحضر السلطان الماء المثلج لملكهم ، أما أرناط فقد تم قتله وفاء بنذر السلطان (٤) .

تابع صلاح الدين فتوحاته ، فتوجه نحو عكا ، بغية القضاء على قواعدهم البحرية بينما قامت بعض الفرق باحتلال الناصرة ، وقيسارية وحيفا وصفورية ... وغيرها كما أحتل بيروت وجبيل ، ثم سار نحو عسقلان ، وفي طريقه الى القدس تسلم مواضع كثيرة كالرملة ، ويبنا والداروم ، كما تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال (٥) ، ثم أتجه الى بيت المقدس ولم يلبث من فيها أن استسلموا ، وسمح لهم بمغادرة القدس بسلام مقابل فدية بسيطة (٦) وهنا نلاحظ الفرق الشاسع بين معاملة المسلمين ومعاملة الفرنج .

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٧٤ ، ٧٥ ، الروضتين ٢ / ٧٥
(٢) المصدر السابق ٧٦ ، ٧٧ ، وابن الاثير ، الكامل ١١ / ٣٥
(٣) النوادر السلطانية ٧٨
(٤) مفرج الكروب ٢٠٢/١ ، حسن المحاضرة ٣٤/١ ، النوادر السلطانية ٨٠
(٥) ابن شداد ، النوادر السلطانية ص ٨٠ ، الكامل ١١ / ٥٤٠ ، ٥٤١
(٦) ابن الاثير ، رسائل ابن الاثير ، ت أنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت سنة ١٩٥٩ ص ١٥٤

بهذا الفتح العظيم تحسنت أحوال المسلمين ، بينما انحسر ظل الصليبيين، وقد مجد الشعراء والكتاب هذه الفتوحات ، وطالبوا باستكمال الفتح ، كما عملوا على تحريك الهمم لطرد الغزاة ، ولم يبق أمام المسلمين الا صور ، وطرابلس، وأنطاكية ، وميناء السويدية ، وبعض المراتب ، وقد حاول صلاح الدين احتلال صور ولكنها امتنعت عليه لحصانتها الطبيعية ، وكثرة من فيها من الفرنج الذين جاءوا من المناطق التي احتلها المسلمون (١) .

* * *

أحدث سقوط القدس صدى هائلا في أوروبا ، لا سيما بعد أن وصل بعض الرهبان يحملون صورا للمسيح وقد أدماه العرب ، فهرع الفرنج الى فلسطين بأعداد هائلة ، اذ خرج ملك الالمان بمائتي ألف وقيل مائتين وستين ألفا (٢) ، وقد وصلت هذه الجموع الغفيرة الى القسطنطينية ، تريد البلاد الاسلامية ، بالاضافة ممن جاء عن طريق تبرص، أو من صور .

واذ ذاك أرسل صلاح الدين ابن شداد الى الخليفة ببغداد ، وصاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب اربل، يطلب منهم الخروج الى الجهاد (٣) ، فوعده كل منهم خيرا ، كما قام بطلب الجند من مصر والشام للوقوف في وجه الهجوم الاتي .

وقد كان لتحسن العلاقات بين المسلمين والروم أثر مهم في وقوف صلاح الدين على أخبار الحملة الالمانية ، فقد بعث ملك القسطنطينية له برسالة أخبره فيها عن اقترابهم من القسطنطينية ووعده بأن لا يمكنهم من العبور (٤) ، وحين وصلت الحملة أرض القسطنطينية وضع العراقيل أمامها ، لكن كثرتهم أرغمته على أخلاء سبيلهم أمام قد رسم المجهول عبر الاناضول ، كما ارسل الى صلاح الدين يخبره عن خسائرهم (٥) ، وقد تابع الالمان زحفهم عبر آسيا الصغرى يخربون ويفعلون الرعب ، فخافهم السلطان السلجوقي (قلج أرسلان) ، فقدم لهم الادلاء حتى وصلوا أرض الارمن ، فاستقبلهم ابن لاون (لاون) وزودهم بالمؤن والادلاء حتى وصلوا الى طرسوس ، فأقاموا على نهر ، أصيب ملكهم عنده بمرض بعد أن سبح فيه فكانت نهايته (٦) .

ضاق الخناق على المسلمين ، اذ أصبحت الحملة الالمانية على مشارف الشام ، والحملة الفرنسية والانجليزية ترابط في صقلية تنتظر هدوء البحر ، تحفزا للهجوم ، وفرنج صور يهاجمون عكا والمسلمون يقتلون منهم العدد الكثير ، لكن ما إن يقضى على مجموعة حتى تظهر مجموعات آتية من البحر (٧) .

---

(١) الاعلاق الخطيرة ٢٤٠ ، المرآة السليمة ٢/٨٣٧ ، الكامل ١١/٢١

(٢) ابن شداد ، النوادر السلطانية ١١٥

(٣) لاحظ قول د . بدري محمد فهد ، أنه لم يطلب العون من الخليفة ، وانظر ابن شداد ١١٥

(٤) الروضتين ٢/١٥١

(٥) النوادر السلطانية ١٢٢

(٦) النوادر السلطانية ١٢٤ ـ ابن العديم ٢/١١٤

(٧) الروضتين ٢/١٥٧

لكن الاخبار وصلت بموت ملك الالمان ومعظم جيشه بسبب الامراض التي فتكت بهم (١) ولذلك طالب السلطان من أمراء الجند منعهم من وصول عكا ، ولم ينتظر وصول أمدادات القوات الاسلاميه ، وانما قام بهجوم على الجيش الصليبي قتل فيه عددا كبيرا منه ، فانتشر الوباء بينهم مما أضطر صلاح الدين الى الرحيل عنهم ، بينما اتيح لهم المجال لمزيد من الاستمدادات ، وفي هذه الاثناء وصلت الحملة الفرنسية والانجليزية ، وأحكم الفرنج الحصار على عكا ولم تفلح محاولات صلاح الدين لامدادهم بالميرة والسلاح (٢) ، فخرج حامي المدينة الى الفرنج ، وتفاوض معهم بالتسليم ، ولكن الفرنج ـ كعادتهم ـ غدروا بالمسلمين ، وقتلوا الاسرى البالغ عددهم زهاء ثلاثة آلاف مسلم ، صبرا ، ثم احتلوا حيفا وقيسارية بعد أن أخلتهما الحامية الاسلامية ، ثم ساروا نحو أرسوف ، وهزموا المسلمين فيها ، فأسرع صلاح الدين الى عسقلان وخربها وسط جو غامر بالحزن والبكاء (٣) .

لكن الفرنج توقفوا بسبب ما نشب بينهم من نزاع على ملكية الاراضي المفتوحه والقصد من بعد احتلالها ، مما أتاح لصلاح الدين ان يحصن القدس ، وان يسمم الابار على الطرقات وحين وصلت الحملة مشارف القدس ، ورأت ما فعله صلاح الدين فضل ريشارد التوقف عن مهاجمة القدس ، والدخول معه في مفاوضات ، لا سيما بعد ما علمه من ثورة أخيه ضده في أنجلترا (٤) فاقترح على صلاح الدين تزويج أخته بالعادل أخي صلاح الدين ، وقد دامت المحادثات طويلا ولكن دون جدوى ، وأخيرا عقد صلح الرملة سنة ٥٨٧ / ١١٩١ ، ونودى في الناس : " ان الصلح قد أنتظم ، من يشاء (هكذا) من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ومن شاء من بلادنا يدخل بلادهم فليفعل (٥) .

وتوفي المجاهد الكبير صلاح الدين سنة ٥٨٩/١١٩٣ تاركا مملكة واسعة وأمانة ثقيلة تحملها أبناؤه من بعده ، بالاضافة الى أخيه " العادل " ، وقد تولى أبنه الافضل على " دمشق والساحل وبيت المقدس .. وأخذ " العزيز عثمان " مصر ثم أخذ " الظاهر غازي " حلب أما أخوه العادل فقد تولى أمارة الاردن والكرك ، ولم يلبث الخلاف أن دب بين ورثة صلاح الدين الايوبي وأستمر فترة من الزمن (٦) .

---

(١) مفرج الكروب ٢ / ٣٢٢ ، النوادر السلطانية ١١٨
(٢) النوادر السلطانية ١٥٦ ـ ١٥٧ ، ١٦١
(٣) الروضتين ٢ / ١٩٢
(٤) مفرج الكروب ٢ / ٣٧٥ ، الروضتين ١ / ١٩٦ ، وأنظر سعيد عاشور الحركة الصليبية ٢ / ٨٨٥ .
(٥) تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٤ ج ٢ / ٣٢ ـ ٣٣ ، ٨٦ ، الروضتين ٢ / ٢٠٤
(٦) ابو الفداء ، المختصر في أخبار البشر ، ٣ / ٨٧ ، الروضتين ٢ / ٢٢٨

وبعد أن هدأت الأمور في البيت الأيوبي وانتهت مدة الهدنة ، أرسل الفرنج حملة جديدة ، فانتشروا في الساحل وكثروا فيه واعتدوا على بعض المسلمين في منطقة القدس وأسروا وغنموا (١) ، فتصدى لهم العادل من أمراء بني أيوب وكسرهم بمرج عكا ثم احتل يافا بالسيف ، لكن الفرنج احتلوا بيروت بعد أن هرب عنها واليها عز الدين أسامه ، ثم عقد صلح بين الطرفين لمدة ثلاث سنوات ، عمل العادل خلالها على توحيد الدولة الأيوبية تحت زعامته ، وقد تمكن من بسط سيطرته على مصر فاصبح سلطان المسلمين في مصر والشام ، واعتمد في تصريف أمور الولايات على أبنائه بينما يتنقل هو بين هذه الولايات (٢) .

* * *

وبعد أن فشلت الحملة الصليبية السابعة في استرداد بيت المقدس رأت البابوية أن تضرب مصر أولا ، باعتبارها السبب الاكبر في سقوط مملكة بيت المقدس (٣) ، وقد تقرر ذلك فعلا ، وبقي أمر نقل الجند اليها ، فتعاقد الفرنج مع أسطول البندقية لنقلهم ، ولكن استنجاد الكسيوس الثاني البيزنطي بهم لاخماد الثورة الداخلية ، أطمعهم في السيطرة على الطريق الذي عانى منه الفرنج قديما ، كما أطمعهم في اخضاع الكنيسة الشرقية للبابوية (٤) . ولذا فقد استولى الفرنج على القسطنطينية سنة ٦٠٠ / ١٢٠٤ ، وأعملوا السيف في أهلها ثلاثة أيام ، وقتلوا الاساقفة والرهبان الذين خرجوا اليهم وبأيديهم الأناجيل والصلبان ، يتوسلون بها ليُبقوا على حياتهم ، فلم يلتفتوا اليهم وقتلوهم أجمعين ونهبوا الكنيسة (٥) .

ثم وصلت بعض جموع الفرنج الى الشام ، وقاموا بعدة عمليات لم تكن حاسمة كان منها هجومهم على حماة ، وقد هزموا فيها ، يقول بهاء الدين أسعد بن يحيى النجاري في ذلك (٦) .

عاجلتَهم بالمنايا والحتوف فلم	تترك لهم أجلاً يُبقي الى أجل
فاكسر صليبهمُ عن صلب حصنهم	وارقِ لمجدك أعلى كل مجتعل

---

(١) مفرج الكروب ٣ / ٧٤

(٢) لمزيد من التفاصيل أنظر مفرج الكروب ٣ / ٧٨ ، واورنشتين ٢ / ٢٢٥ ، ٢٣٣ وتاريخ ابن الوردي ٢ / ١١٣ وابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ٢٢٥ ، وسعيد عاشور الحركة الصليبية ١ / ٩٢٦ .

(٣) Stanley Lane Poole, A History of Egypt in the Middle Ages p. 213, 241

(٤) فشر ، تاريخ أوروبا العصور الوسطى ق ١ ص ٢٤١

(٥) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ٢٢٨ ، ابن الساعي ، الجامع المختصر نشر مصطفى جواد ، المطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد سنة ١٩٣٤ ص ٤٧ – ٥٠

(٦) تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٥٢ وانظر ص ٢٥٥ – ٢٥٧ ومجلد ٥ ج ١ ص ١٢٤

وازاء هذا الفشل ، اجتمع عقلاؤهم واشاروا بقصد مصر أيضا ، وهكذا وصلت الحملة الى عكا ، وانتشر افرادها في الساحل يقتلون وينهبون حتى اذا استراحوا ، انطلقوا الى مصر مخلفين وراءهم الرعب والتدمير (١).

واخيرا وصلت الحملة الى دمياط سنة ٦١٤ بعد مشقة بالغة بسبب ما اتخذ الكامل من احتياطات في مدخل النيل ولكنهم حطموا تلك السلاسل ، وصنعوا مركبا عظيما شحنوه بالرجال والسلاح وأجروه في البحر ، ومنه وثبوا الى سور دمياط (٢)، وتوفي العادل ، وبقي ابنه الكامل يرقب الموقف ، ولكن أحد قادته حاول الثورة وأحدث الفوضى ، مما أضطر الكامل أن يتراجع عن المدينة ، وبذا انفتحت أمامهم (٣) ، وأرسل الملك الكامل الى أخيه يحثه على سرعة الحضور ، وصدّر الكتاب بقوله :

يا مسعدي إنْ كنت حقا مسعفي	فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا	بتجشم في سيرها وتعسف

وقبل أن ينجده أحد من أخوته تمكن الفرنج من الاستيلاء على دمياط ، وارتكبوا فيها الجرائم، إذ غدروا بأهلها بعد أن أمنوا من بقي منهم (٤) ، ثم اتجهوا مع النيل داخل مصر ، والمسلمون لا يلوون على شيء ، فاتخذ الكامل المنصورة مركزا للدفاع ، وعرض عليهم كل ما فتحه صلاح الدين بما في ذلك القدس ، على أن يغادروا الاراضي المصرية ، فلم يقبلوا بذلك وطلبوا أموالا طائلة لبناء أسوار القدس .

ثم تجمع لدى الكامل جيش عظيم ، واخذت الأمدادات تصله تباعا من أخوته الاشرف موسى والمعظم عيسى ، وتمكنت البحرية الاسلامية من قطع النيل عنهم ، وأغرقت سفنا فرنجية محملة بالسلاح والميرة ، وكان أن فاض النيل ، ففتح المسلمون السدود والقنوات ، وأصبح الفرنج محاصرين ، يقيّد الطين حركتهم ، بالاضافه الى محاصرة الجند المسلمين لهم .. فوقعوا بين أسير وقتيل بعد أن وصلوا الى المنصورة (٥) .

واجتمع الكامل محمد وأخواه بعد هزيمة الفرنج في ليلة سمر ، قال فيها الشعراء شعرا وغنوا فيما لحملة وأعمالها ثم هزيمتها ومن جميل شعرهم قول الشاعر راجح الحلبي :

أعاد عيسى أن عيسى وحزبه	وموسى جميعا ينصران محمدا *

---

(١) الشذرات ٦٥/٥ - ٦٦

(٢) القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، دار بيروت سنة ١٩٦٠ ، ص ١٩٤

(٣) تاريخ ابن الفرات ، مجلد ٥ ج ١ ص ١٤٦ - ٢٤٩ ، المختصر في أخبار البشر ١١٧/٣

(٤) الشذرات ٦٦/٥

(٥) المختصر في أخبار البشر ١٢٥/٣ ، ابن الفرات مجلد ٥ ج١ ص ٢٤٩ تاريخ ابن الوردي ١٤٢/٢

* في البيت تورية باسم عيسى وهو المعظم أخو المليء الكامل وموسى هو الاشرف ومحمد هو الكامل، للمزيد من التفاصيل انظر الذيل على الروضتين ١١٩ - ١٢٠

ونشب النزاع ثانية بين الأخوة من البيت الأيوبي ، بل وصلت الأمور الى حد استنجاد بعضهم بأعداء المسلمين حد بعد ، اذ استنجد بعضهم بالخوارزميين وبعضهم الآخر بالملك فردريك ملك صقلية (١) وقد قدم الجيش الفرنجي بالتوالي الى عكا سنة ٦٢٥ / ١١٢٨ ، وأخذ يبني التحصينات في عكا وغيرها ، استعدادا للهجوم ، ريثما يصل الامبراطور ، وكان أن مات الملك المعظم فاحتل الكامل القدس ونابلس ، واتفق مع أخيه الاشرف على أخذ دمشق من الناصر داود بن المعظم الذى كان مقيما بنابلس ثم رحل الى دمشق سنة ٦٢٦ / ١١٢٩ (٢)

ووصل فردريك الى الشام في وقت لم يعد فيها الكامل الذى كان قد استنجد به في حاجة اليه ، فطلب الامبراطور من الكامل أن يسلمه ما كان وعده به من التنازل عن كل ما احتله صلاح الدين مقابل القضاء على المعظم ، فراسله الكامل ولاطفه ، فلجأ فردريك الى الحكمة والدهاء ، وانتهى الامر بتسلمه القدس وبيت لحم ، والناصرة ، وغيرها على أن تضع الحرب أوزارها مدة عشر سنين ابتداء من ٦٢٦ / ١١٢٩ (٣) .

وقد أستاء المسلمون لهذه الهدنة ، فاشتد البكاء وعظم الصراخ والعويل ، وكان نتيجة ذلك ان ازداد تمزق البيت الايوبي ، اذ اتجه الكامل والاشرف الى دمشق لاخذها من الناصر ، فكرههما الناس وأوغرت عليهما الصدور ، وقد تولى الكامل حصار دمشق ، وقطع عنها الانهار ونهب البساتين (٤) ، ثم أخذها صلحا .

وحين أوشكت الهدنة التي عقدت بين الكامل وفردريك على الانتهاء خشيت البابوية على بيت المقدس ، فدعت الى حملة صليبية جديدة ، هدفها حماية القدس ، وترميم الاسوار ، وبذلك تكون قد خرقت الهدنة التي تقضي بعدم تجديد البناء ، فاستغل الناصر داود الفرصة وهجم على الفرنج وطردهم منها ، وردا على ذلك ، نظم الفرنج حملة أخرى بقيادة ملك فرنسا (لويس التاسع) الذى أرسى بعكا وانبث أصحابه في بلاد الساحل، فقتلوا الذكر وسبوا النساء، على القدس والاماكن الاخرى ، وقد قال الناصر داود في ذلك * :

أيا ليت أمي أيّم طول عمرها	فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت	تشدّ الى الشد قمهات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم	ولم أر في الاسلام ما فيه من خبل (٥)

---

(١) للمزيد من التفاصيل أنظر الحركة الصليبية ١ / ٦٩٨

(٢) تاريخ ابن الوردى ٢ / ١٥٠ ، مفرج الكروب ٤ / ٢٢١ ، الشذرات ٥ / ١١٨

(٣) السلوك ق ١ جـ١ ص ٢٢٨ تاريخ ابن الوردى ٢ / ١٥٠

(٤) ابن الاثير ١٢ / ٤٨٢ وأنظر الذيل على الروضتين ١٥٤
ومفرج الكروب ٤ / ٢٥٩ ، ٢٦٤

* ذكر ابن الوردى في تاريخه أن هذه الابيات للمعز بن عبد السلام ، وهي للملك الناصر داود وقد رواها ابنه الملك الامجد في كتابه " الفوائد الجليلة في الفرائد الناصرية (أو رسائل الملك الناصر ورقة ٢٠٤ ، ٢٠٥) .

(٥) الملك الامجد ، الفوائد الجليله في الفرائد الناصرية مخط ، ورقة ٢٠٤ ـ ٢٠٥

الا أن الحملة أتجهت الى مصر ، لانها القاعدة الحربية الهامة للمسلمين ، فأرسل لويس التاسع الى ملك مصر يتهدده بكثرة جيشه وقوة فتكه ، فرد عليه الملك الصالح نجم الدين ملك مصر بأنه لا يخاف الكثرة ولا القوة ، لان المسلمين هم أرباب السيوف ، وهم أصحاب الارض وليسوا طارئين وقد أخذ يتوعده بقوله" ... فلو رأت عيناك أيها المغرور حد سيوفنا وعظم حروبنا .. لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ولا بد أن تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسوء الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون(١) " .

واشرف الملك الصالح رغم مرضه على تحصين دمياط ، وعززها بالمقاتلين من قبيلة كنانة لكن الحملة كانت في غاية القوة والاستعداد فحطمت العوائق التي تعرقل مرور السفن في نهر النيل ، مما أثار الخوف في نفوس بعض أمراء دمياط ، فولوا الادبار وتبعهم كثير من الناس ، فقبض الصالح عليهم ، وأعدم منهم خمسين أميرا شنقا (٢) ، ولكنه توفي ، فقامت زوجته " شجرة الدر " مقامه ، وأرسلت الى ولده تورانشاه ليتولى أمر مصر ، في حين وقع الفرنج في الخطأ الذى وقع فيه أسلافهم ، وقد استطاع تورانشاه أن يأسر الملك الفرنسي وأخاه ، كما استولى على عساكر الفرنج ، وقتل منهم ما يزيد على عشرة آلاف فارس ، وأسر من الخيالة والرجالة ما يناهز مائة ألف ثم جيء بالملك الفرنسي وأخيه الى المنصورة واعتقلا في دار فخر الدين بن لقمان(٣) ، وقد قال الشاعر بن الصرصري من بغداد يصف كثرة قتلاهم :

تركنا من الأعلاج بالسيف مطعمنا	ثلاثين ألفا للقشاعم والأسد
ومنهم ألوفا آرسون بأسرنا	فكم ملك في قبضنا صار كالعبد(٤)

وقد أطلق سراح ملكهم وباقي الجند على شرط أن لا يعودوا الى مصر ، وأن يدفعوا فدية كبيرة وحين عزم لويس على مهاجمة مصر مرة ثانية ، قال ابن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئته	مقال صدق عن قؤول نصيح
آجرك الله على ما جرى	من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها	تحسبت أن الزمر يا طبل ريح

وآخرها :

دار ابن لقمان على حالها	والقيد باق والطواشي صبيح

---

(١) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٨ ، المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ق ٢ ص ٣٤٧

(٢) نهاية الأرب ج ٢٢ ورقه ١٠٠

(٣) تاريخ ابن الوردي ١٠٧٨١ ، القديس لويس جوانفيل ، ترجمة حسن حبشي ١٤٠–١٤٢ نهاية الارب ج ٢٢ ، ١٠١ ، ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ٢٥٩ ، رنسيمان ٣/٤٦٥

(٤) حسن المحاضرة ٢/٣٩

* في البيت الاول " مطعنا " لعلها " مطعما " والثاني ورد مكسورا " قبضتنا "

(٥) النويري ، الالمام بالاعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية ج١ ص ١٢٤

وهكذا فشلت جميع محاولات الفرنج للاستيلاء على مصر ، فوجهوا أنظارهم نحو التتار ، لعلهم يجدون فيهم سندا لهم في تحقيق أهدافهم ، وقد كان من الممكن لهم ضرب المسلمين لولا التنافر فيما بينهم بحروب داخلية كان أشدها ما حدث بين البنادقة والجنوية (١) واستغل المسلمون فرصة هذا النزاع الموقوف أمام الغزو المغولي الذي أكتسح العراق ومعظم بلاد الشام وهدد مصر (٢) ، اذ أرسل هولاكو الى قطز يطلب منه الاستسلام ، فجمع قطز جيشا قويا ، والتقى مع المغول في عين جالوت وهزمهم سنة ٦٥٨/١٢٥٩م* ثم تبع الظاهر بيبرس فلولهم بينما سار قطز الى دمشق ، فاستقبله أهلها أستقبال المخلص من أعمال التتار الوحشية .

* * *

وبعد ذلك تولى بيبرس حكم مصر والشام ، فهيأ الأمة للجهاد ، ثم أنتقل من مصر الى الشام ، وقام بهجوم على أنطاكية لمحالفة حكامها للمغول ، ثم هاجم مملكة بيت المقدس ، فاستولى على قيسارية وأرسوف ، وقلعة صفد قاعدة الفرسان الداوية ، مما أضعف من شوكتهم وحطم معنوياتهم ، فعقدوا معه هدنة (٤) ، وفي سنة ٦٦٦/١٢٦٧ أستولى على يافا ، وحصن الاكراد ، ونازل حصن عكا وملكه بالامان ، وقد حث الشعراء على القضاء على عاصمة الصليبيين (عكا) ، فقال أحدهم (٥) :

يا مليك الارض بشـــرا ... لك قد نلـــت الارادة
إن عكـــار يقينـــا ... هو عكا وزيـــادة

وبعد وفاة بيبرس تابع قلاوون عمله في القضاء على المغول والفرنج ، فبعد أن أنزل بالمغول هزيمة حاسمة رغم كثرتهم في حمص سنة ٦٨٠/١٢٨١ ، بدأ يوجه أهتمامه نحو الفرنج فاحتل حصن المرقب سنة ٦٨٤/١٢٨٥ ، وهو حصين منيع ، ولم يبق للفرنج سوى عكا وطرابلس وصيدا وصور وعثليث وما حولها (٦) .

---

(١) الحركة الصليبية ١٠٧/٢-١٠٨ ، رنسيمان ٤٨٧/٢ ، أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ١١٠ ، عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب ٦٦

(٢) المختصر في أخبار البشر ١٠٦/٣ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، وتاريخ ابن الوردي ٢٠٧/٢

* يزعم رنسيمان (الحروب الصليبية ٥٧٨/٢) ان قطز تحالف مع الفرنج لمقاتلة العدو المشترك ، والحقيقة أنهم عرضوا عليه المساعدة ، فرفضها لأنه لا يستعين بكافر على كافر وسبب الرفض هو أن المغول قربوا النصارى الشرقيين ، وعاملوهم بخلاف معاملة الفرنج الغربيين مما أثار تخوفهم (الحركة الصليبية ١١١٣/٢) .

(٣) بدائع الزهور ١٠٥/١

(٤) شذرات الذهب ٣١١/٥ ، وأنظر أحمد مختار العبادى ، قيام دولة المماليك ١٦٣

(٥) تاريخ ابن الوردي ٢١٥/٢

(٦) عقد الجمان ج٢٠ ق ٤ ص ٦٧٧ ، ٧١١ تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ص ١٧ ، تشريف الايام والعصور ص ٤٣

في سنة ٦٨٨ / ١١٨٩ ، احتل قلاوون طرابلس ، وبذلك انحصر وجود الفرنج في الساحل فاستنجدوا بأوروبا ، فجاءت حملة أيطالية ، أنتهت بالفشل وانقلبت عليهم بالوبال ، فقد هاجم رجالها المسلمين ، التجار منهم والمزارعين في منطقة عكا ، دون أن يقيموا للهدنة المعقودة بين قومهم وبين المسلمين وزنا ، فطالب السلطان قلاوون بتسليمه المجرمين ، فاعتذروا له عن أعمالهم وأنهم ليسوا من رعايا المملكة ، فلم يجد عذرهم قبولا ، وجهز جيشا لمهاجمة عكا (١) ، ولم يكد السلطان يفرغ من أعداد الجيش حتى وافته المنية ، فتولى الامر من بعده أبنه الأشرف خليل ، وأمر أن يستمد المقاتلون في دمشق ليلتقوا من أخوانهم من مصر للتوجه نحو عكا ، فخرج أهل دمشق يمدون الجيش بما يستطيعون ، وقد أشترك في ذلك كل فئات الاهالي اذ خرج الناس من فقهاء ومدرسين وعلماء وصلحاء يحملون ويجرون الالات والمجانيق ... وحاصر السلطان عكا ، ورغم تفاني الفرنج الذين بلغوا ما بين ثلاثين وأربعين ألفا في الدفاع عنها إلا أن الاشرف خليل تمكن من أحتلال المدينة ، ففر الفرنج وقتل منهم خلق كثير ، والسعيد منهم من أتيحت له فرصة الوصول الى المراكب للهرب (٢) .

وقد جاء سقوط عكا زلزالا دمّر الكيان الصليبي في بلاد الشام ، فاستسلمت معاقلهم الواحدة بعد الاخرى صور ، وصيدا ، وأنطرطوس ، وعثليث (٣) ، وبذلك تكاملت فتوحات جميع البلدان الساحلية للاسلام ، وقد وصف الشعراء هذا الفتح العظيم ، وقال القاضي شهاب الدين محمود (٤) :

الحمد لله زالت دولة الصلب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت ... رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هدت قواعدها ... في البحر للشرك عند البر من أرب

* * * *

وهكذا أنتهى الوجود الصليبي في ديار الاسلام بعد صراع مرير دام قرابة قرنين من الزمان ، أحرزت في بدايته جيوش الفرنج نصرا مؤقتا ، في ظروف مواتية لها ولكن تبدل الظروف في بلاد الاسلام ، ثم نضوب الامدادات التي كانت تأتي من أوروبا للإبقاء على الجسم الغريب في المنطقة ألا يهدا الجسم الغريب الى الموت المقدر المحتوم (٥) .

---

(١) تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ص ١١٠ ، رنسيمان ٣ / ٦٩١ ، تشريف الايام والعصور ١٦٧
(٢) محمد ابراهيم الجزري ، جواهر السلوك في الخلفاء والملوك ، ورقه ٤٠ ، ٤٢ ، مخطوط وأنظر وصفهم في حسن التوسل الى صناعة الترسل ص ٤٦ وانظر الحركة الصليبية ٢ / ١١٨١
(٣) المختصر في أخبار البشر ٤ / ٥ ، تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ ، ١٢٥ ، تاريخ ابن الوردي ٢ / ١٣٦
(٤) المختصر في أخبار البشر ٤ / ٥ ، تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٥ ، البداية والنهاية ١٣ / ٣١٣ ، السلوك ج١ ق٣ ص ٧٦٧
(٥) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ٣١٩ - ٣٢٠

الباب الثاني

الفصل الاول : النظرة الاسلامية للصراع

القسم الاول : صراع بين عقيدتين

القسم الثاني : صراع بين حضارتين

القسم الثالث : الصراع العسكري

أولا : الجيش الصليبي

ثانيا : الاسلحة والمعدات العسكرية

ثالثا : التحصينات

رابعا : التخطيط العسكري

خامسا : الحرب النفسية

سادسا : المعارك البرية والبحرية

القسم الرابع : الخطر الصليبي

أولا : على الارض الإسلامية

ثانيا : على المسلمين

ثالثا : على الاسلام والتراث الاسلامي

الفصل الثاني : أضواء على حياة الصليبيين

أولا : الحياة الاجتماعية

ثانيا : الحياة الاقتصادية

ثالثا : الحياة السياسية

الفصــــل الاول

النظرة الاسلامية للصراع في الأدب العربــــي

القسم الأول : صراع بين عقيدتين :

اتخذ الصراع بين المسلمين والصليبين طيلة القرنين اللذين دارت خلالهما الحــروب الصليبية أشكالا مختلفة ، منها الصراع العسكري ، وذلك أمر طبيعي منتظر ، لان أحد الجانبين كان غازيا ، في حين كان الجانب الآخر مغزوا في بلاده ، مهددا في كيانه ، ومنها صراع العقائد الذي يعتبر المحرك المعلن للصراع كله ، ولذا فانه يستحق من الباحث اهتماما خاصا ، ويستوجب القاء الاضواء عليه ، والجدير بالذكر أن صراع العقائد بين دولة الاسلام والدول النصرانية قـد ابتدأ منذ معركة مؤته ، ثم بعد أن افتتح المسلمون بلاد الشام ، وقد مرت فترات كان الصراع فيها على نطاق واسع ،ولكنه كان أحيانا يتخذ طابعا محليا ، كما كانت الحال زمن الحمدانييـــين ، فالحمدانيون يهاجمون الثغور البيزنطية ،والبيزنطيون يردون على الهجوم ، ويهاجمون الثغـــور الاسلامية وبلاد الشام من ورائها .

أما في هذه الفترة ، فقد اختلفت طبيعة الصراع وحدته ، إذ اشترك فيه من جانــب مجموعة من الدول الاوروبية بالاضافة الى الدولة البيزنطية ، ومن جانب آخر مجموعة من الامارات الاسلامية قبل أن تتوحد هذه الامارات زمن نور الدين ثم زمن صلاح الدين .

وقد هـدفت الجموع الفرنجية والبيزنطية الى احتلال القدس وطرد المسلمين من المنطقة وهذا ما أدركه ابن الاثير في معرض حديثه عن دعاية الفرنج لحرب المسلمين في أفريقيا ، اذ قال لهم ملك صقلية " اذا عزمتم على جهاد المسلمين ، فأفضل ذلك فتح بيت المقدس ، تخلصونه من أيديهم ، ويكون لكم الفخر " (١) .

وهذا ما أشار اليه الادباء في شعرهم ونثرهم ، فهم كانوا يرون أن الحرب دينية هدفها احتلال الارض المقدسة وما حولها من بلاد ، ولذلك نبهوا الى خطورة الوضع وحثوا على الوقوف في وجه المحتلين ،وتمثلوا الرسول يستصرخ كل مسلم وعربي لكي يدافع عن الدين لانه بسقوط الارض المقدسة ، اصبح الدين واهي الدعائم ، يقول ابو المظفر الابيوردي في ذلك :

يكاد لهن المستجن بطيبــة * ينادي باعلى الصوت يا ل هاشــــم
أرى أمتي لا يشرعون الى العدى رماحهم ، والدين واهي الدعائــــم (٢)

---

(١) الكامل ١٠/١٤٧

(٢) نهاية الارب ٥/٢٢٦ ، ابن الاثير ،الكامل ١٠/٥٨٥ ، النجوم الزاهره ٥/١٥١

* المستجن بطيبة : أي المدفون في المدينة ، وهو الرسول محمد عليه الصلاة والسلام

وقال شاعر آخر (١) ، يصف ما أحدثه التتار (الفرنج) بالاسلام والمسلمين من قتل وتشريد وهتك للأعراض :

أحل الكفر بالاسلام ضيما — يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح — وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا — ومسلمة لها حرم سليب

ويقول ابن الخياط (٢) محذرا ومنذرا :

الى م وقد زخر المشركون — بسيل يهال له السيل مدا
تراخون من يجتري شدة — وتنسون من يجعل الحرب نقدا *
أنوما على مثل حد الظباة — ونزلا وقد أصبح الامر جدا **

وقد تجاوزت أطماع الغزاة بلاد الشام ، فاحتاوا الرها ، وتطلعوا الى غيرها من ديار الاسلام فيما وراء بلاد الشام ، من أجل الاحتلال والاستيطان ، وتغيير صبغة البلاد الحضارية والدينية ، وما دام هذا هو هدفهم ، فمن الطبيعي أن يغضبوا اذا سمعوا الأذان ، وأن يضربوا الناقوس غيظا ، حتى عندما يكونون في أحرج الاوقات ، فحين استولى صلاح الدين على القدس جمعهم ليخلي سبيلهم بعد دفع الفدية ، فحان وقت صلاة الجمعة ، فلما سمعوا الأذان ازدادوا غيظا الى غيظهم (٣) ، وبعد أن تم نقلهم الى صور ، وشهدت البلاد منهم ، وأتتهم الأذان ، ثارت ثائرتهم ، وأوفدوا الى الغرب من يحرضهم على القتال (٤) .

وقد أعتبر المسلمون غزو الفرنج لديارهم حربا دينية منذ البداية ، فطالبوا بالوحدة والجهاد ، وظهرت ردة الفعل هذه في الأدب العربي ، فهذا عرقلة الكلبي يمدح حاكم دمشق (مجير الدين ابق بن محمد بن بوري من طغتكين) ويعتبره المقاتل الوحيد عن الدين ضد الفرنج الغزاة (٥) ، :

من قاتل الافرنج دينا غيره — والخيل مثل السيل عند المشهد

فقتال المسلمين للفرنج أتخذ طابعا اسلاميا شاملا ولم يعد قتالا محليا ، وقد اشترك فيه مسلمون من البلاد المختلفة ، وها هو طلائع بن رزيك الوزير الفاطمي يفتخر من مصر بقتال الفرنج فيقول (٦) ، :

وما نحن بالاسلام للمشرك هازم — ولكننا الايمان للكفر هادم

---

(١) النجوم الزاهرة ٥/ ١٥١ - ١٥٢ ، لم يذكر المصادر اسمه

(٢) ابن الخياط ، ديوانه ص ١٨٤

(*) تنسون : من نسا بمعنى أجل ، النقد : الغنم الضعيفة .

** قال خليل مردم في هذه القصيدة لعلها أول قصيدة قيلت في الحروب الصليبية ، وقد قيلت سنة ٥٠١ كما جاء في الديوان ص ١٨٢ وأرى أن قصيدة الابيوردي وقصيدة الشاعر المجهول قد قيلتا قبلها : اذ قيلتا بعد سقوط القدس ٤٩٢ هـ .

(٣) الروضتين ج ٢ ق ١ ص ٩٧ (٤) رسائل ابن الاثير ، جمع أنيس المقدسي ص ٥٤

(٥) صبح الاعشى ٦/ ٥٢٨ (٦) ديوان عرقلة الكلبي ص ٣٦

كما وقف ابن منير في دمشق يمدح نور الدين ويفخر بأعماله ضد الفرنج مرات كثيرة ، ومن هذه المواقف قوله :

أخلى ديار الشرك من أوثانهـــــا … حتى غدا ثالوثهن كسيـــــرا

وفي بغداد امتدح ابن التعاويذي صلاح الدين الذي هب ينافح عن الدين حتى غادر الاعداء ما بين قتيل وجريح وخائف يترقب الموت يقول :

وغضبت للدين الحنيف ولم تـــزل … في الله ترضى منذ كنت وتغضـــب
غادرت أهل البغي بين مجـــدل … لقى الحمام وخائف يترقـــب (٣)

وترددت هذه الاصوات على مر السنين معلنة ان الشام للاسلام ، ومهما ظهر للباطل من سطوة وغلبة فان الحق يدفعهما ، يقول ابن سناء الملك :

الشام للاسلام دار القـــرار … وكان من قبل طريق الفـــرار
فيا أمان الكفر لا تأمنـــوا … بالدار يا الشام لكفر بعـــد دار (٤)

وفي الفترة الاخيرة من قتال الفرنج حين تم النصر المؤزر للمسلمين ، يقول شمس الدين محمد بن الحسن الغزاري مخاطبا الاشرف خليل بن قلاوون في فتح عكا :

واعدتها للمسلمين ولم يكـــن … منهم ترى التطهير الا بالـــدم (٥)

وفي طرد آخر جندي صليبي من ديار الشام يقول شهاب الدين محمود :

الحمد لله زالت دولة الصلـــب … وعز بالترك دين المصطفى العربي (٦)

هذه مجرد أمثلة توضيحية ، تدل على أن الصراع كان دينيا لدى الطرفين ، وان تشكك بعض الادباء والمؤرخين في ادعاءات الفرنج فيما يتعلق باهدافهم الدينية في المنطقة ، لانهم باسم المسيح دمروا البلاد وخربوها ، وباسم الصليب ذبحوا الالاف في كل بلدة دخلوها ، مما أثار الشكوك حول تمثلهم لمبادئ دينهم ، يقول ابن القيسراني :

سروا لينتهبوا الاعمار فانتُهِبـــوا … قتلا ، ويغتنموا الاموال فاغتُنمـــوا (٧)

ويذكر ابن الاثير (٨) انهم اجتمعوا لقصد مدينة حماة طمعا في النهب والغارة ، فخربوا القرى ونهبوها وأحرقوا وأسروا ..

---

(١) ديوان طلائع بن رزيك ص ١٤١ (٢) الروضتين ج١ ق ١ ص ٢٠٦
(٣) ديوان سبط بن التعاويذي ص ٢٤ (٤) ديوان ابن سناء الملك ص ٣٨٢
(٥) جواهر السلوك في الخلفاء والملوك ، ورقة ٤٨ مخطوط
(٦) المصدر السابق ورقة ٥٩
(٧) الروضتين ج١ ق ١ ص ١٤١
(٨) ابن الاثير ، الكامل ١٠ / ٤٥٠

هذه الاعمال وغيرها لو قدّر للمسيح عليه السلام أن يراها لما رضي عنها ، كما يقول طلائع بن رزيك في أعمالهم في المسجد الاقصى :

نزلت وسطه الخنازير والخمـ ـر (م) ويبارى الناقوس فيها الصليب
لو رآه المسيح لم يرض فعلا زعموا أنه له منسوب (١)

ويقول جوانفيل أحد مرافقي الملك لويس التاسع الذى غزا مصر سنة ٦٤٧ عن بعض رجاله بأنهم ذهبوا الى أرمينية للمشاركة في الاسلاب والاسهام في القتال (٢)

الا ان ذلك كله ، لا يعني غياب الروح الدينية بين الصليبيين وقد أبرز الادباء معتقدات هؤلاء الغزاة ، وأحاطوا بها لطول الفترة التي استغرقتها الحروب وما تخللها من مهادنات أتاحت للمسلمين فرصة التعرف على أحوالهم ومعارساتهم (٣) ، يقول الملك الامجد : " ورفع الكفار الصليب على رؤوس الاشهاد والمشاهد ، وأعلنوا بما يفترونه من التثليث الذى تنزه عنه الله الاحد الواحد (٤) " .

وقد تعرض الادباء لفكرة الاقانيم الثلاثة لاسيما الاقنوم الثاني وهو الابن ، لأنه سبب الخلاف ، فالمسلمون يعتقدون أن المسيح عبد لله ، بينما يعتقد النصارى أنه ابن لله ، ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ حين كان من الامير معين الدين أنر (وصي دمشق) عند الصخرة فجاءه فرنجي وسأله : " تريد تبصر الله صغيرا " (هكذا) ؟ قال نعم ، فمشى بين أيدينا حتى أرانا صورة مريم والمسيح عليه السلام صغير في حجرها ، فقال : " هذا الله صغير (هكذا) " (٥) .

ويقول العماد في معرض حديثه عن صفد : " وطالما مكث فيها المشركون ، وقالوا " اتخذ الرحمن ولدا ، لقد جئتم شيئا إدّا ، تكاد السموات يتفطرن وتنشق الارض وتخر الجبال هدا " (٦) .

وهم يعتقدون أن عيسى عليه السلام - قد صلب في كنيسة القيامة ، ودفن بعد الصلب ، ثم قام بعد ثلاث من القبر ، وصعد الى السماء ، وقد مثلوه على خشبة مصلبة ، وأخذوا يعبدونه ويتقربون به الى الله ، يقول ابن الاثير في رسائله " ولطالما أبتهلوا عنده أيام الحصار ، واستنصروه فلم يحظوا منه في معرفة الانتصار (٧) " وفي معركة حطين ، وقع الصليب الذى كان الفرنج

---

(١) ديوان طلائع بن رزيك ٦٣
(٢) جوانفيل ، القديس لويس ، حياته وحملاته على مصر والشام ص ٨٩ ، ترجمة حسن حبشي
(٣) صبح الاعشى ١٣ / ٣١٣ ، وابن الفرات ٧ / ٢٢١
(٤) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ٩١ مخطوط
(٥) اسامه بن منقذ ، الاعتبار ص ١٣٥
(٦) العماد ، الفتح القدسي ص ٢٦٩ ، وأنظر المغني ٢ / ٢١١ ، العماد في الفتح ١١٨-١١٩ وعقد الجمان ق ١ ج ١٧ ص ٩٣
(٧) ابن الاثير ، رسائله ص ١٥٢

يرون أنه الصليب الحقيقي ، في أيدى المسلمين وفي ذلك يقول ابن سناء الملك :

ظل معبود هم لديك أسيرا | مستضاما ، فأجعل له النار سجنا
صلبوا ربهم فلم يغن عنهم | مَن رئي بعد صلبه قط أغنى (١)

بل لقد تحداهم ابن مطروح بان يعودوا الى مصر ، فيلقوا مصيرهم المحتوم ، ومصير قائدهم لويس التاسع ، واذ ذاك سيسر عيسى عليه السلام :

فرداك الله الى مثلها | لعل عيسى منكم يستريح
ان كان باباكم بذا راضيا | فرب غبن قد أتى من نصيح (٢)

وقد ذكر ابن منير (٣) ، قبل ذلك أن عيسى عليه السلام يستنجد بنور الدين ليخلصه من شرور الغزاة :

حتى نرى عيسى من القدس قد | لجا الى سيفك مستنصرا

وكثيرا ما يعرض الشعراء المسلمون لموقف الصليبيين من السيد المسيح وعقيدتهم منه ، ومن ذلك قول طلائع بن رزيك : ابعد الناس عن عبادة رب الناس قوم إلههم مصلوب (٤)

ويقول راجح الحلي في تسميتهم بعباد عيسى :

أعباد عيسى ، ان عيسى وحزبه | وموسى جميعا يخدمون محمدا (٦)

والجدير بالذكر ، أن عيسى وموسى المشار اليهما هما أخوا الملك الكامل محمد ، المذكور في نهاية البيت ، ويقول ابن مطروح مخاطبا الملك الفرنسي لويس التاسع :

آجرك الله على ما مضى | من قتل عباد يسوع المسيح

ويقول الشهاب محمود (٧) :

أغضبت عباد عيسى اذ أبدتهم | لله أي رضى في ذلك الغضب

وأما تسميتهم بعبدة الصليب ، فقد جاءت عند العماد في معرض كنيسة اللاذقية يقول " : " وزينت لاخوان الشيطان ، وعينت لعبدة الصلبان (٨) " ، كما جاء في عقد الجمان في معرض حديثه عن ملك فرنسا ، حيث وصل الى عكا في ست بطس ملعونة ، بعبدة الصلب مشحونة (٩) " وجاءت في كتاب فاضلي الى صلاح الدين يحثه على قتالهم " والى أن يعرضهم على الجذوع صلبا فيكونوا عبدة صلبان كالصلبان والى أن يعرقهم في دمائهم في طوفان (١٠) " .

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ص ٨١٦ (٢) ديوان ابن مطروح ص ١٨١
(٣) مفرج الكروب ٢ / ٢١١ ، الكامل ١١ / ٢٠٦ (٤) ديوان طلائع بن رزيك ٦٢
(٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ١٣ / ٩٥ ، وفي السلوك ج ١ ق ١ ص ٢٠٦
(٦) ديوان ابن مطروح ص ١٨١
(٧) جواهر السلوك ورقة ٦٠ مخطوط ابن الفرات ٨ / ١١٦
(٨) الفتح القسي ص ٢٢٨ ، وانظر الروضتين ٢ / ١٨٣ ، ٢١٥
(٩) العيني ، عقد الجمان ق ٨ ج ١٧ ، ق ١ ورقه ١٠٦ مخطوط
(١٠) ابن نباته ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقه ٦٦ مخطوط

وقد وردت هذه التسمية في الشعر ـ أيضا ، يقول فتيان الشاغوري في مدح صلاح الدين :

لله يوسف كم أغاث وغاثـــــــــا وأباد من عبدا لصليب وعاثـــــــا (١)

وقد سموهم أيضا عباد الأصنام ، ومن ذلك ما جاء في تقليد العادل أخي صلاح الدين حكم مصر والشام وحثه على قتال المشركين " إذ في ذلك حسم لمادة الأطماع في بلاد الاسلام ، ورد لكيد المعاندين من عبدة الاصنام (١) .

وقد أبرز الادباء المسلمون تعظيم الفرنج لكل ما يتعلق بالسيد المسيح كما يعتقدون فيه حسب رأيهم ، وكذلك تعظيمهم للصليب ، والاماكن التي ترتبط بعقيدتهم .

أما تعظيم الصليب ، فقد أطال الأدباء الوقوف عنده ، لأنه مرتبط بعقيدة النصارى عامة ، فهو رمز الخشبة التي صلب عليها السيد المسيح ، كما يرون ، وله عندهم قيمة كبيرة فاذا كانوا في معركة ، التجأوا اليه يستنزلون النصر من عنده ويرجون منه الفوز .

يقول الفاضل في معرض حديثه عن أسر ملك القدس " .. وبيده أوثق وثائقه ، وآكد وصلة بالدين وعلاقته ، وهو صليب الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت (٢) " ، ثم يذكر أهميته لديهم في المعركة فيقول " .. فيقاتلون تحت ذلك الصليب أصلب قتال وأصدقه ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ، ويعدونه سورا تحفر حوافر الخيل خندقة " (٣) .

وقد أورد العماد هذا المعنى في معرض حديثه عن معركة حطين وذلك حين يقول " وأصبح الفرنج ... وقد رفعوا الصلبان ، وزحف أسود هم في غاب المران ، وداروا حولها عقبانا على عقبان " فيقون عن الصليب " .. ويقف لون دونه المنهي ، ويطلبون به الفوز " (٤) ولذا فلا غرابة في اعتنائهم به ، واطاعتهم لحامله ، وأنه الملك ، بل إن مصابهم به أعظم ، يقول العماد : " وهو الذي اذا نصب وأقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع ، وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبودهم ومسجودهم ، وقد غلفوه بالذهب الأحمر ، وكللوه بالدر والجوهر ... فاذا أخرجته القسوس ، وحملته الرؤوس ، تبادروا اليه وأنثالوا عليه ، ولا يسع لاحدهم عنه التخلف ، ولا يسوغ للمتخلف عن أتباعه في نفسه التصرف ، وأخذه أعظم عندهم من أسر الملك ، وهو أشد مصاب لهم في ذلك المعترك (٥) .

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري ٦٦

(١) صبح الاعشى ١٠/١١١

(٣) صبح الاعشى ٦/٤٩٩ ـ ٥٠٠ و ٨/٢٨٤ وانظر الروضتين ٢/٧٩ ، ٨٩ ، ١٨٦ وانظر الانس الجليل ١/٣٤٦

(٤) الفتح القسي ، ٢٠٨ ، ٢١٣ ، ٨٤

(٥) الفتح القسي ، ٢٨٨ ، ٣٩٧ ، ٨٤ ، وانظر حملهم للصليب في الروضتين ج١ ق ١ ، ١٥١ وانظر الكامل ١١/٥٣٥

وأما رفعه على الأماكن ، فقد كانوا يختارون المكان المشرف ليشاهد فيه ، وفي هذا تعظيم له ، وقد ذكر ابن شداد في فتح القدس أنهم وجدوا الصليب على قبة الصخرة وكان شكله عاليا (١) ، وهذا ما حدث فعلا حين دخلوا مدينة الجسر ، فصلّم كل واحد منهم صليبه على دار ، وركز عليها رايته ، والراية عندهم قطعة قماش بيضاء ملمعة بالصلبان الحمراء ، ومن دلائل تعظيمهم للصليب ، أيضا ، أنهم يحلفون به بعد الله والمسيح ، ثم يكررون الحلفة بعد الاقانيم الثلاثة ، وقد جاء ما يثبت ذلك في نسخة يمين حلف عليها الفرنج وهي " والله ، والله والله ، وبالله ، وبالله ، وبالله — وتالله ، وتالله وحق المسيح ... وحق الصليب وحق الصليب ، وحق الصليب ، وحق الاقانيم الثلاثة من جوهر واحد ، (٢) ، المكني بها عن الاب والابن والروح القدس ، اله واحد ، وحق الصليب المكرم الحال في الناسوت ... "

وقد أشار الشعراء الى هذا التعظيم ، ومنهم ابن القيسراني الذي عاش بينهم فترة من الزمن ، خبرهم خلالها ، وتبين بعض عاداتهم ، ومنها تعظيم الصليب ، يقول (٤) :

أمخطة الصليب وددتُ أنّي	ودين الله عندكمُ صليب
إذا أقبلتُ تقبلني حبيب	أسرّه وعانقني حبيب

وقد عظموا كذلك المكان الذي أعتقدوا أنه صلب فيه ، وهو كنيسة القيامة ، لأنهم يعتقدون ان المسيح صلب فيها ، وحل اللاهوت بالناسوت فيها أيضا ، يقول العماد نقلا لما كانوا يعتقدونه في تلك الكنيسة " وفيها صلب المسيح ، وقرب الذبيح ، وتجسد اللاهوت ، وتأله الناسوت ، وأستقام التركيب ، وقام الصليب ، ونزل النور ، وزال الديجور ، وأزدوجت الطبيعة بالأقنوم ، وأمتزج الموجود بالمعدوم (٥)

ومن الأسباب التي جعلتهم يعظمونها ، أعتقادهم بان النور ينزل من السماء فيها ، وقد روى ابن واصل أنه شاهد هذه " الضلالة " في كنيسة القيامة بعد يوم الفصح ، ويقول " ويزعمون أنها تقع في كل سنة في هذا المكان ، وفي كل سنة في اليوم الذي يليه يوم فصحهم (٦) " وكذلك أعتقادهم أنها مكان القبر ، يقول العماد على ألسنتهم " ... فهذه قمامتنا فيها قامتنا ، ومنها تقوم قيامتنا ، وتصح دامتنا ... "(٧)

---

(١) ابن شداد ، النوادر السلطانية ٨٢
(٢) الاعتبار ص ١٨٤
(٣) صبح الاعشى ١٣ / ٣١٢ ، وأنظر الفتح ٥٥٦
(٤) ديوان ابن القيسراني ، ورقه ٦٤ مخطوط
(٥) الفتح القسي ١١٨
(٦) مفرج الكروب ٢ / ٢٣١
(٧) الفتح القسي ١١٨

ومما جعلهم يعظمونها أيضا ، احتواؤها على مجموعة من الصور الدينية " ففيها صور الحواريين في حوارهم ، والأحبار في أخبارهم ، والرهابين في صوامعهم ، والأقساء في مجامعهم"(١) ، وقد أضافوا اليها بعض التماثيل ، وملؤوها بصور ومنها صور الرخام الموسومة في الرخام ،

لذا لم يكن مستغربا أن يبذل الأفرنج ما بذلوه للمحافظة عليها ، والدفاع عنهــا ، لأنهم يعتقدون أن كرامتهم من كرامتها ، وسلامتهم من سلامتها ، واذا ما تخلوا عنها " لزمت لآمتنا ، ووجبت ملامتنا "(٢) بل لم تطب نفوسهم بفراقها حين استعادها صلاح الدين وقالـــوا " دون مقبرة ربنا نموت وعلى خوف فوتها منا تفوت (٣) " .

ومن الطبيعي بعد هذا التعظيم أن يقدسوا ترابها ، ويستنصروه في أوقات المحــن ، يقول ابن الأثير ، " فعلى حب ذلك التراب تتوقى قيامتهم ، وتشيل نعامتهم ، ولطالما ابتهلــوا عنده أيام الحصار ، واستنصروه فلم يحظوا منه بمعونة الانتصار (٤) "

وقد أضفى الفرنج هذه القدسية على بيت المقدس عامة ، لأنه " بيت معبود لهم ، ومحل تجسد ناموسهم كما زعموا بلاهوتهم (٥) " وفيه كنيسة القيامة التي يعتقدون ان المسيح دفن فيها بعد صلبه ..

ولم يكن تقديس الفرنج للقدس وقفا على من تقدم منهم ، بل لقد عظمها الفرنج في صقلية وفي أوروبا ، واشتروا قطعا من صخرتها بوزنها ذهبا كما قيل (٦) .

وقد استنصر الفرنج بالقدس وكنيسة القيامة ، واستغاثوا بها بعد أن كسرهم صلاح الدين في موقعة حطين ، فالتجئوا اليها " كل شريد منهم وطريد ، واعتصم بمنعتها كل قريب منهم وبعيد وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها من الله شافعتهم (٧) " .

وهم لهذا يفدونها بأنفسهم ، بل يرون أن الموت أيسر عليهم من أن تقع في قبضـــة المسلمين ، مما جعل صلاح الدين يدور حول المدينة خمسة أيام لاختياره المكان المناســب للهجوم ، ولكنه لم يجد ثغرة يدخل من خلالها ، وأخيرا جاءه وفد من الفرنج يطلب منـــه السماح لهم بمغادرتها بسلام ، وهددوه ان لم يجب دعوتهم ، وقالوا كل واحد منا بعشرين ، وكل عشرة بمئتين "(٨) .

---

(١) الفتح القسي ١١٩
(٢) الفتح القسي ١١٨ ، الروضتين ٢ / ٩٢
(٣) الفتح القسي ١١٩
(٤) ابن الاثير ، رسائله جمعها أنيس المقدسي ، ١٥٦
(٥) مفرج الكروب ٢ / ٢١١ ، الكامل ١١ / ٥٤٧
(٦) الانس الجليل ١ / ٣٣٩ ، الروضتين ٢ / ١١٣
(٧) صبح الاعشى ٦ / ٥١٥ ، ٨ / ٢٨٤ ، وأنظر الانس الجليل ١ / ٣٤٢
(٨) الروضتين ٢ / ٩٤ ، وأنظر مفرج الكروب ٢ / ٢١١ ، الكامل ١١ / ٥٤٧ ، الانس الجليل ١ / ٣٣٩

وقد عظّم الفرنج بعض المدن الاخرى مثل : عكا والرها ، يقول القاضي الفاضل عن عكا " وهي قسطنطينية الفرنج ، ودار كفرهم ، أبدلها الله أسلاما ، وخلع عنها الشرك البالي، وخلع عليها من التوحيد أعلاما (١) " ووصفها العماد بأنها مركز ملكهم ، ومحور تجمعهم من البر ومن البحر .

وأما الرها فهي من أشرف المدن عند النصارى ، وأحدى المراكز الهامة عندهم ، وقد قاتلوا فيها قتالا شديدا وما أستطاع عماد الدين فتحها الا بنارين الحرب والخدعة كما يقول ابن القيسراني :

فأضرمها نارين : حربا وخدعة فما راع إلا سورها وأنهداده (١)

وحين سقطت بيد عماد الدين ثم بيد أبنه من بعده ، كانت مفتاحا لفتح البلاد الأخرى يقول أبن القيسراني :

وقل لملوك الكفر تسلم بعدها ممالكها إن البلاد بلاده (٢)

ويقول الشهرزوري :

فتح الفتوح مبشرا بتمامه كالفجر في صدر النهار الأيسر (٣)

ويقول ابن منير :

وغدا يلقي على القدس لها كلكل يدرسها درس الدرين (٤)

وما يتصل بمعتقداتهم تعظيمهم لرجال الدين : البابا ، والبطرك ، والقس ، والرهبان وقد بين الادب أهمية بعضهم ، فالبابا يخطط لغزو البلاد الاسلامية في الشرق ولو أزهقت الارواح وأنفقت الاموال .. ر

ورام باباهم أمورا فما خلقت لمه المقادر (٥)

وأما البطرك فله شأن خاص لأنه مرافق للجيوش ، ومطبق للدين ، فهو معلم أيامهم قيد تهم ، كما يروي ابن واصل (٦) ، فقد ذكر أنه شاهد مجموعة من الفرنج تعكف على القبة الصغيرة التي فيها القبر .. حتى كان وقت الظهر أو بعده ، فوصل البطرك القبة وأخرج شمعة موقدة ، وزعم أنها من القنديل الذى أشتعل بالنور المنزل من السماء ، وقام الموجودون بأشعال الشموع المهارة من تلك الشمعة ، دون أن يسمحوا لانفسهم بالتفكير في النور النازل من السماء ، دون أن يروه وكيف يسمحون لانفسهم بذلك وهو عندهم بمنزلة تفوق منزلة الملك (٧) .

---

(١) الروضتين ٢ / ١٤
(٢) الروضتين ج١ ق ١ ص ٩٧
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٨
(٤) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٠٢
(٥) فوات الوفيات ١ / ٨٤
(٦) مفرج الكروب ٢ / ٢٣١
(٧) المصدر السابق ٢ / ٢١١ ، الكامل ١١ / ٥٤٧

ويلتقي دور البطاركة مع دور القساوسة في التحريض على القتال والسير أمام المسلمين ، وقد ظهر هذا الدور بجلاء في حصار عكا سنة ٥٨٦ ، اذ قام المصورون برسم صورة قبر المسيح وعليه فارس مسلم يطؤه ، وعمد رجال الدين الى اظهار هذه الصورة " وراء المحرفي الاسواق والجامع ورؤوسهم مكشوفة وعليهم المسوح " (١) وقد أثرت هذه الصورة في نفوس النـــاس تأثيرا كبيرا ، فهاج بذلك خلائق كثيرة ،وتجهزوا في جميع مناطقهم بالمراكب والكتائـــب ، وخرج الاساقفة طاعة لقسيسهم ، وأمثالا لأمر مركيسهم ، وغيرة لمتعبدهم ، وحمية لمعتقدهم وتهالكا على مقبرتهم وتحرقا على قمامتهم" (٢) " .

ومما قدمه رجال الدين للحركة الصليبية ، ما قام به أحدهم في أنطاكية سنة ٤٩٢ هـ والمسلمون محدقون بهم ، اذ اخفى حربة وأخبرهم ان الحربة المقدسة مدفونة قرب أنطاكية وأنهم ان وجدوها فسيكون النصر لهم ،وحين وجدوا تلك الحربة ، عادت اليهم ثقتهـــم ، وحاربوا المسلمين وهزموهم . (٣) .

وحين أسر صاحب شقيف أرنون مع من أسر من الملوك في معركة حطين ، قام صـــلاح الدين بمحاصرة بلده ، وأصطحبه معه ليأمر من بها فيسلمها الى صلاح الدين مقابل اطـلاق سراحه " فخرج اليه قس قامه باسر عن باس ، فحادثه بلغته ، وناقشه في كارثه بخلتــه وتحاورا في السر ، وتشاوروا في الشر ، وكأنما أمره بالتجلد ، وصبّره على التشدد (٤)

وأما الرهبان فقد قام بعضهم بدور عسكري ،وانقطع آخرون الى الرهبنة ، ويصـــف ابن الاثير في رسائله جماعة منهم فيقول " ومنهم طائفة استشعرت حبس نفوسها ، وخصصت الشعر عن أوساط رؤوسها ، وتوحشت بالرهبانية حتى أرتاعت من أشكالها ولبوسها (٥)

هكذا وصف الأدب العربي معتقداتهم ، فهم يعتقدون بالأقانيم الثلاثـــــة ويعظمون ما يتصل بها من أشياء وأماكن وأشخاص ، ولهذا وصفهم الادباء العرب بالشرك في مواطن كثيرة جدا حتى لا يكاد يوجد ديوان يخلو من هذا الوصف تصريحا أو تلميحا ، يقول ابن الخياط في معرض مدحه أحد مقدمي دمشق

الى م وقد زخر المشركـــــــون	بسيل يهال له السيل مـــــدّا(٦)

ويقول ظافر الحداد في مدح الامام الآمر (٤٩٥ ـ ٥٢٤ هـ)

لا بد للشرك من يوم تعيد لـه	فيه سيوفك فعل الريح في عاد (٧)

---

(١) الروضتين ١٧٢/٢ (٢) المصدر السابق ١٦١/٢

(٣) الكامل ٢٧٧/١٠ ، من تاريخ الحروب المقدسة ١٢٢/١

(٤) الفتح القسي ٢٨٨

(٥) رسائل ابن الاثير ، جمع انيس المقدسي ص ١٥٤

(٦) ديوان ابن الخياط ١٨٤ وانظر ٢٢٩

(٧) ديوان ظافر الحداد ١١٣

يقول ابن القيسراني :

حتى اذا ما احاط المشركون بنـا … كالليل يلتهم الدنيا له ظلـم
وأقبلوا لا من الأقهال في عـدد … يوءد د حاسبه الاعياء والسأم (١)

ويطول المقام لو توقفنا عند كل مثل *، وكما وصفوهم بالشرك وصفوهم بالكفر، وقد جاء هذا الوصف في مواطن كثيرة أيضا ، منها قول ابن دنينير :

بدد ت جمع الكفر وهو مؤثـل … منهم بحزم في الأمور رشيد (٢)

وقوله :

وأمحق الكفر حتى ذل جانبـه … والأرض قد آذنت منه بإلحـاد (٣)

وقول ابن سناء الملك مادحا صلاح الدين :

أقام بدار الكفر تجبى له الجـزا … وتودى له القتلى وتسبى له الجنى (٤)

وقوله :

لقد أصبح الاسلام والكفر كلمـا … بنيت لذا ركنا هدمت لذا ركنـا (٥)

ويقول أسامة مخاطبا طلائع على لسان نور الدين ، ذاكرا فتوحاته ، وانتصاراته على الفرنج :

فلما استمدناها من الكفر عنوة … ولم يبق في أقطارها لهم أثـر
رددنا على أهل الشآم رباعهم … وأملاكهم فانزاح عنهم بها الفقر (٦)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١

* وانظر ما يلي عقد الجمان ج ٢٢، ق ١ ، ص ١١٦ ، وديوان ابن القيسراني، ورقة ٧١ مخطوط ، والروضتين ٢/ ١١٦ ، والخريدة قسم مصر ج٢ ، ١٧١ وديوان ابن دنينير ص ٢٠ ، ١٥، ١٧٤ وانظر ديوان ابن التعاويذي ٢٤ ، وديوان علم الدين ايدمر المحيوي ، ١٥، وديوان الصاحب شرف الدين الانصارى ، ص ٣٩٦ وديوان ابن فتيان الشاغوري ٦٩ ، ٢١٨ ، ٤٢٨ ، وديوان ابن الدهان ٢٢ ، وانظر الروضتين ج١ ق ١ ص ١٤١ ، ١٨٠ ، ٢١٦، ج١ ق ٢: ٣٥٧ ، ٣٧٢ ، ٤٠٤، ٥٢٩ ، ٦٤٣ ، ٦٩١ ، ٧٠٣ ، ١١٠ ، ١١٦ ، ١٢٢ وانظر الخريدة قسم شعراء دمشق ٢٨: ٤٠ ، ٩٦، ٥ ، شعراء الشام ج١ ، ١٧٩، ٢٧٧ ، ج ٢ / ٢٨٣ وانظر قسم مصر ٢/ ٢٣٢ ، وانظر ابن الفرات ، مجلد ٤ ج ١ ، ٣٩٢، ٤٥ ، مجلد ٤ ج ٢ ، ٢٥٧ وانظر الفتح ٢٥٣ ، ٢٦٩ ، ابن الاثير ١١/ ٤٥٥

(٢) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٠ (٣) المصدر السابق ورقة ٨ وأنظر ١٧٦٥

(٤) ديوان ابن سناء الملك ٧٥٨

(٥) المصدر السابق ص ٧٥٩ ، انظر ٢٨٣،٢٥ ، ٥٤٦

(٦) ديوان اسامة بن منقذ ٢٠٥ وانظر ٢٠٣

وتقول طلائع من رسالة شعرية بعثها الى أسامة طالبا منه حث نور الدين على الجهـــاد :

وأهم الأمور أمر جهـــاد الكفـــر فاسمع فعندنا التحقيـــــق
واصلتهم منا السرايا فاشجاهم بكور منا لهم وطـــــروق (١)

وتقول ابن عنين في رثاء الملك المعظم عيســى :

أجليت ليل الكفر عنها فانطــوى وأنرت في عرصاتها فجر الهـــدى
ولقد شهدتك يوم فيها ريّـــة والشمس قد نسج القتام لها ردا
والكفر معتصم بسور مشــرف الأبـــرا ج أحكم بالصفيح وشيّـــدا
فجعلت عاليها مكان أساسهـــا والنت للأخشاب فيها الجلمـدا (٢)

ويقول بهاء الدين زهـــير :

بلغ اهتز عطف الدين في حلل النصـــر وردت على أعقابها ملة الكفـــر (٣)

ويقول شهاب الدين محمود في فتح آخر معقل لهم وهو عكا :

لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب (٤)

ويقول البوصيري في المنصور قلاوون :

لقد جهلت داوية الكفر بأســـه وغيرهم بالمسلمين غـــرور (٥)

وقولـــه :

قد أخذ المسلمون عكـــــا وأشبعوا الكافرين صكّـــا (٦)

ويقول شرف الدين الأنصاري :

من بعد ما جاد أملاك الطوائف عـــن حفظ البلاد وألقوا بالمقاليـــد
رجا بنو الأحد الكفار عودهـــم بالفوز عن رب إشراك وتوحيـــد (٧)

وأما في النثر فثمة أمثلة كثيرة أيضا ، ومنها قول العماد " وبات الاسلام للكفر محاربا ، والتوحيد للتثليث مقاتلا ، والهدى للضلال مراقبا ، والايمان للشرك محاربا " وقوله أيضا عن رتشارد " ولما حضر الكافر عقر وكفر ، وتروى ساعة وتفكر " ، " وقوله في غرنع جبلة ، وتحصن الكفرة من الحين ، ولجأوا في الحين الى التحصين .. " (٨) ، والأمثلة كثيرة يصعب احصاؤها (٩) .

(١) ديوان طلائع ١٠٣ ، وأنظر ١١٦ ، ١٣٥ ، ١٤٥

(٢) ديوان ابن عنين ص ٦١
(٣) ديوان بهاء الدين زهير ص ١٢١
(٤) جواهر السلوك ص ٩٥ ، ٢٢١
(٥) ديوان البوصيري ص ٦٦
(٦) ديوانه ص ٢٢١
(٧) مفرج الكروب ٤ / ٣٠٥
(٨) الفتح القسي ٧٨ ، ٢٣٩ ، ٢٢٣
(٩) انظر على سبيل المثال المصادر التاليه : ديوان ابن النبيه ٦٦ وديوان ابن مطروح ١٨٢ وديوان ظافر الحداد ٣٦ ، ١١٧ ، ديوان الصاحب شرف الدين الانصاري ٥٠ ، ٢٨٣

وما دام شأنهم كذلك ، فقد تبرأ الادب من عقيدتهم هذه بألفاظ التنزيه لله عز وجل (١) ، واستخف آراءهم ، وبين أخطاءهم بالحجة الدامغة والأدلة المقنعة ، وطالبهم بأثبات الأدلة على أقوالهم ، لأنه بأمكان كل فرد أن يقول ما يشاء ، ولكن هذا القول لا يصدق إلا بدليل مقنع،يقول البوصيري :

والدعاوى ما لم تقيموا عليها ... بيّنات أبناؤها أدعياء
ليت شعري ذكر الثلاثة والوا ... حد نقص في عدكم أم نماء
كيف وحدتم إلٰها نفى التوحيد عنه الآباء والابناء
أ إلهٌ مركب ما سمعنا ... بإله لذاته أجزاء (٢)

فهو يستند الى تاريخ عقيدتهم حيث كان آباؤهم يؤمنون بأن الله تعالى مكوّن من أجزاء بينما هم يوحّدون هذه الاجزاء ، ثم يستند الى دليل منطقي في أثبات خطئهم ، وهو أن الله لا يجزأ ، ولا يجوز عليها النقص ، وبذلك لا يكون إلٰها ، ثم يجادلهم في قولهم ، ليرى الى أي حد ينتهون ، فيسألهم بأسلوب شعري سهل ، عن توزيع المُلك بين أصحابه ، ان كانوا صادقين ، يقول :

ألكلٌّ منهم نصيب من الملك ... فهلّا تميّز الأنصباء
أم هم حللوا بها شركة الأبدان ... أم لبعضهم كفلاء
أتراهم لحاجة واضطرار ... خلطوها وما بغى الخلطاء
أم هو ابن لله ما شاركته ... في معاني النبوة الانبياء

ثم يبين تناقضهم بين أمرين ، فهم يقولون إن السيد المسيح إله ويقولون في الوقت نفسه إنه قتل ، فكيف يجوز هذا ؟ .

قتلته اليهود فيما زعمتم ... ولأمواتكم به أحياء

← وأنظر ديوان ابن الساعاتي ١/١٤٥ ، وعقد الجمان ج٢٠ ق ٤ ،ورقة ٧١١ مختصر الخريدة : (شعراء دمشق ٤١٤ ، ٩٥ ، شعراء الشام ٢٣٥ ، ٤٩٥ ، شعراء مصر ١/٦٩ ، ١٠٥ ، ٢٤٣ ،شعراء العراق ٢/١٤٧) ، الروضتين ج١ ق ١/١٥١ ،١٨٦ ، ٢٧٢ ، وج١ ق ٢ ، ٣٦٩ ، ٤٠٤ ، ٤٤٤ ، ٤٦٩ ، ٤٦٦ ، ٥١٩ ، ٥٧٩ ، ٦٦٥

مفرج الكروب ١/٥٧ ، ٣/٧٧ ، ٤/٢٢١

الكامل ١٠/٦٣ ، ١١/١٣٤ ، ١٨٦ ، ٤٧٠ ، ٥٣٢

الباهر ٢ ،تاريخ ابن الفرات مج٨/١١٤ ، ١١٨ ، النوادر السلطانية ٢٢

السلوك ج١ ق ٣ ، ٣ ، ٧٦٦ ، الاعتبار : ٣٦ ، ١٢٥

النكت العصرية ٢٦٩ ، ٣٠٠ ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ٦٧

تاريخ ابن القلانسي ،٣٤٣٥ ، الصاد ، الفتح القسي ، ٥١ ،٧٨ ،١٠٩ ، ١٧٨ ، ٢٤١ ، ٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٥٣ ، ٢٥٥ ، ٢٦٩ ، ٣٠٨ ، ٣٧١

(١) الاعتبار ١٢٥

(٢) ديوان البوصيري ١٥ ، ١٢١ ، ١٢٢

ويتابع البوصيري حجاجهم فيسأل إن كان المسيح قد قتل حقا ، فمن ذا الذي يدبر الوجود ؟

يا ليت شعري حين مات بزعمهـــم   من كان بالتدبير عنه كفيـــلا

هل كان هذا الكون دبر نفســـه   من بعده أم آثر التعطيـــلا ؟

والملاحظ أن البوصيري قد استند الى أدلة عقلية وتاريخية ودينية في جدله ومحاوراته . وفي المقابل أتهم الفرنجُ المسلمين بأنهم وثنيون ، ويلاحظ ذلك من قصة التاجر نور الدين علي ومريم الزنارية (١) ومع ذلك فقد وردت أوصاف لهم بأنهم يتسترون بالدين بل يتلاعبـــون بالنصرانية ،ومن ذلك ما يورده العيني عن الملك غردريك بأنه كان دهريا يتلاعـــب بالنصرانية (٢) ،ويؤكد هذا القول وصف فيشر له بأنه شخصية ملؤها التقلب والحيلة ،اذ كان يصطنع المسلم واليهودي وكان يظهر بمظهر الرجل الشرقي ، علما بأنه ألف كتابـــا أسمه الأدعياء الثلاثة (٣) ، وقصد بهم الانبياء موسى وعيسى ومحمدا صلوات الله عليهم .

ولم يتوقف أدب هذه الفترة الخاص بصراع العقائد عن الوصف المجرد ، بل تعدى ذلك الى السخرية والاستهزاء ، لا سيما بعد أن توالت الهزائم على الفرنج ، كما وصفهـــم الادباء بالحمق والكذب في تعاملهم مع الناس في شؤون العقيدة ، وقد عقب ابن واصـــل على اعتقادهم بنزول النور من السماء بقوله " ولقد كذبوا وافتروا ، وإنما هو تدليس وتلبيس مع بطركهم ، يغوي به ضعاف العقول ،ويستدرجهم الى ضلالتهم وغيهم " (٤) * ،ومـــن هذا القبيل تعليل العماد لاستجابتهم للرهبان والقساوسة الذين يحملون صورة قبـــر المسيح عليه فارس عربي يقول " وللصور عمل في قلوبهم ، فانها أصل دينهم (٥) .

على أن النظرة الى معتقد اتهم تبرز بشكل واضح حين تقارن مع العقيدة الاسلامية ، وهذا ما حرص عليه الادباء في شعرهم ونثرهم ، فقد علل العماد سبب فظاظتهم وشناعتهم بأن الشيطان تولاهم " فلا ينزع الحديد لوضوء ولا مسح ،واستشعروا لبوس البوس ، فلـــم يلبسوا وجها الا مزوود الشفاه على القطوب بلا بشر ولا فرح .. قد نزع الله الرقة مـــن قلوبهم ونقلها الى غروبهم (٦) .

---

(١) ألف ليلة وليلة ج ٦ ، ص ٢٣٣ ، والقصة في ج ٦ / ١٩٩ ـ ٢٥٣ ، ج٧ ص١ ـ ٣٠
(٢) عقد الجمان ج ١٨ ق ١ ورقه ٨٣ (٣) فيشر ، تاريخ اوربا ج ١ ص ٢٥٠
(٤) مفرج الكروب ٢ / ٢٣١ ، ٢١١
* لمزيد من الامثلة أنظر الخريدة (شعراء مصر) ٢ / ١٧١ ، ديوان ابن سناء الملك ٢٥ الكامل ١١ / ٤٤٧ ، ١٢ / ٣٣٠ ، الروضتين ٢ / ٧٢ ، ١٠٣ ، ١١١ ، ١١٦ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٥١ ، ١٦٠ ، ١٧٢ ، ١٩٤ ، ج١ ق ١ / ١٤١ ، ١٩٢ ، ٢٠٦ ، ٢٢٩ ، الفتـــح ٣٧١ ، ٤٠٥ ، ٥٨٠ ، مفرج الكروب ٤ / ٩٧
(٥) الروضتين ٢ / ١٦٠
(٦) الفتح القسي ٥١

ومن المقارنات بين العقيدتين قول العماد في بشرى الى الديوان العزيز ببغداد " فالحمد لله الذي أعاد القدس الى القدس، وأعاده من الرجس، وحقق من فتحه ما كان في النفس، وبدل وحشة الكفر فيه من الاسلام بالأنس، وجعل عز يومه ماحيًا ذل أمس، وأسكنه الفقهاء والعلماء بعد الجهال والضلال ...(١) " *. ومن ضلالهم وجهلهم اتخاذ المسجد الاقصى اسطبلا للخنازير ، ومأوى للخنا والقذارة، يقول العماد في ذلك " وكان الاقصى لا سيما محرابه مشغولا بالخنازير والخنا ، مملوءا بما أحدثوا من البناء "(٢) في حين إنه لم ينقل عن المسلمين أعمال مقابلة بالنسبة الى اماكن المسيحيين المقدسة بعد أن استعادوا القدس ، فلا غرابة اذن في أن يصف الادباء العرب الفرنج بالأمم الطاغية ، وأن يتبينوا علاقات مشابهة كثيرة بينهم وبين الامم الطاغية القديمة ، مثل قوم فرعون وقوم ثمود ، وقد جاءت المقارنة بين الفرنج وهذه الامم من ناحية الطغيان والتعدي على الآخرين ، وعدم الاتعاظ بما سبق من أحوال الماضيين ، وكذلك في النتيجة ، فكما أن أتباع فرعون وثمود كانت نتيجتهم التدمير فان الفرنج كانت نتيجة أعمالهم الدمار ، وكما أن نتيجة الانبياء النصر فان نتيجة أعمال القادة المسلمين مثل نور الدين وصلاح الدين وغيرهما هي النصر أيضا .

ومن أمثلة تشبيههم بفرعون قول ابن دنينير ، وقد انتصر المسلمون في دمياط:

فرعون كفرهمُ طغى فأتاهمُ ... موسى لاغراقٍ ببحر بنـود (٣)*

وقول ست الفخر مغنية الاشرف ، تمدحه وتذكر كسرة الفرنج :

ولما طغى فرعون عكا وقومه ... وجاء الى مصر ليفسد في الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصا ... فغرقهم في اليمّ بعضا على بعض (٤)

---

(١) الروضتين ١/٩٧ (٢) الروضتين ١/٩٦

* لمزيد من الأمثلة أنظر : ديوان ابن دنينير : ورقه ١٠ ، ١١ ، ٤٠ ، ٤١ ديوان ظافر الحداد ص ١٢٦ ، ديوان ابن الخياط ٢٥٩ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤٣ ، ١٤٧، ١٥١ ، ديوان ابن عنين ٦١ ، الخريدة (قسم الشام ١/١٥٥ ، ١٨٧ ، ٤٢٢. الفتح القسي : ٥١ ، ٦٦ ، ١٠٨ ، ٢١٣ ، ٣١٤ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ قسم شعراء دمشق ١٩/ ٥٩ ، قسم مصر ١٠٦ ، الروضتين ١/١٠٠ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١١١ عقد الجمان ج ٢١ ، ق ١ ورقه ١١٦ ، الذيل على الروضتين ١٢٩ ، ١٣٠ الروضتين ج ١ ق ١ ، ٤٥١ ، ج١ ق ٢ ، ٧٠٣ تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج١ ص ١٢٩

(٣) ديوان ابن دنينير ورقه ٢٠

(٤) مفرج الكروب ٤/١٠٥ ـ المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٠٩

وهنا نلاحظ علاقة مشابهة أخرى وهي المكان ، فالمعروف أن فرعون هو حاكم مصر الذي بغى على قومه وأذلهم ، وحارب نبي الله موسى عليه السلام ، فجعله الله عبرة للناس،إذ أغرقه وتوسعه ثم قذفه البحر وحده .

وتشير الأبيات السابقة الى هذا المعنى تقريبا ، فقد شن الفرنج من عكا الى دمياط وقاتلوا المسلمين وحولوا المساجد كنائس، ثم عرض عليهم الكامل تنازلات كثيرة فأبى فرعونهم قبول تلك التنازلات فكانت نتيجته الهزيمة الساحقة .

وهناك علاقة أخرى وهي التشابه في الاسماء ، فالمنتصر زمن فرعون هو النبي موسى عليه السلام ، والمنتصر زمن فرعون عكا هو الملك الاشرف موسى ، ولعل هذا التشابه سوغ للشعراء المصريين ذكر كلمة فرعون ، في حين لم أجد في شعر الشام من يشير الى فرعون ، وانما شبهوا الفرنج بثمود ، وشبهوا قائدهم بالرجل الذي عقر الناقة * ومن ذلك قول ابن منير في مدح نور الدين بعد انتصاره على جوسلين :

ما زلت تنصم وهو يكفر عاتيـــــــا والله يهدم ما بنى الكفـــــــار
حتى أتاح لقومه ما جـــــــره لثمود من عقر الفصيـــل قــدار (١)**

وبعد أن وصف الادباء الفرنج بالشر وبالكفر وشبهوهم بالأمم الطاغية ، بينوا جزاءهم في الآخرة ، فهم مطرودون من رحمة الله ، مستحقون لعذابه ، ويصفهم العماد بأنهم ملاعين، يقول : " وهؤلاء — يشير الى الفرنج الذين احتلوا عكا سنة ٥٨٧ ثم ساروا الى القدس — الملاعين قد أنفذوا القصده ، وأعدّوا لورود ورده (٢) واللعنة تعني الطرد من رحمة الله ،والمطرود من رحمة الله مصيرها النار . وقد تحدث الشعراء والكتاب عن مصير الفرنج الى النار ، ومن ذلك قول العماد فيما فعله نور الدين بالفرنج :

وملأت بالنيران أربع أهلهـــــا فتعجلوا الاحراق بالنــــيران (٣)

---

* ورد في شعر ابن منير تشبيه نور الدين بموسى عليه السلام ، وذلك في معرض مدحه سنة ٥٤٧ حيث فتح انطرطوس،يقول :

ان الالى أمنوا وتاعسه بعدها غروا وقد ركبوا الاغر غـــرورا
الق العصا فيمن أدال ومن عصى منهم وقد مر أرضهم تدميــــرا
لا يلمهم ان قد مننت وشنّهــــا شعواء تصلي الكافرين سعيــرا

فالمقصود هنا القاء موسى عصاه على حيات السحرة ، ودلالة ذلك أن الفرنج على باطل كما ان السحرة على باطل ويشتركون في الهزيمة (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٦١٧) .

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ / ١٩٠

** لمزيد من الأمثلة أنظر الروضتين جـ١ ق ١ ص ١٨٦ ، ٢١٧ جـ٢ / ١٦١ ،الخريدة ٤٩

(٢) الفتح القسي ٥٧٨ وأنظر ايضا ص ٢٩٠ ، ٥٢٨

(٣) الخريدة (شعراء الشام) ٥٩

وقوله أيضا في وصف ملك الالمان " فأنه عام في الماء البارد ، وتورط منه في أصعب الموارد ، وخرج وبقي مريضا الى أن خرج من ثوب البقاء ، وتحول الى فناء الفناء ، وتلقاه مالك بالزبانية ، وحملوه الى نار الله الحامية " (١) . ويقول في ابنه " وأدرك أباه في الدرك الأسفل من النار ، وابصر في جهنم مصاير أمثاله من الكفار (٢) " .

ومنه أيضا قول علاء الدين علي بن القاضي محي الدين الزكي في فتح صفد سنة ٦٦٤ هـ على يد الظاهر بيبرس " وواتاها والحصن وقد تزعزعت أركانه ، والكفر قد انهدم بنيانه ، وشمر عن ساق الهزيمة شيطانه .. والمجانيق تزور حماهم ، وتلك الزيارة لشقائهم ، وتدمر بحجارتهما عليهم تدميرا ، وتريهم من بأسها يوما عبوسا قمطريرا ، وتصير بهم الى الهلاك ، وتعد لهم جهنم وساءت مصيرا " (٣) .

كما وصفوهم بالرجس لأنهم مشركون ، والمشرك نجس ، كما جاء في قوله تعالـــــــى : " إنما المشركون نجس " (٤) .

وقد جاءت هذه الصفة في الشعر والنثر * ومن ذلك ما وجد مكتوبا على عضادة محراب في مسجد بعد فتح الرها :

أصبحت صفرا من بني الأصفــــــر . أختال بالاعلام والمنبــــــــر
دان من المعروف حان بعـــــــده . ناء عن الفحشاء والمنكــــــــر
مطهر الرحب على أنـــــــــــني . لولا جمال الدين لم أطهـــــر (٥)

وجمال الدين هذا هو رئيس حران ، وقد حث عماد الدين زنكي على فتح الرها وتم له ذلك سنة ٥٣٩ هـ ومنه أيضا وصف ابن جبير لعكا بأنها " تستعر كفرا وطغيانا ، وتفور خنازير وصلبانا ، زفرة قذرة ، مملوءة كلها رجسا وعذرة " (٦)

وكذلك وصف العماد للفرنج القادمين من أوروبا عن طريق البحر .. " وألقى على تياره بسط البطش ، وحملوا على البحر أوزار النجس ، وتبا لهم وتعسا ، فأنهم زادوا على رجسهم رجسا " (٧) .

---

(١) الفتح القسي ، ٢٩٠   (٢) الفتح القسي ، ٤٦
(٣) ابن جبير ، رحلة ٢٧٦   (٤) سورة التوبة ٢٨٠

* لمزيد من الامثلة أنظر تاريخ ابن الوردي ٢/١٧٠ ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل مخطوط ورقة ٣٦ ـ صبح الأعشى ٦٦/٧ ـ الفتح القسي ٥١ ، ١٥٤ ، ٢٦٠ ، ٤٠٣ ، ٤٦٠ ، ٥٠٠ ، ٥٨٩ ، ٦٠٨ ـ الروضتين ٨٧/١ ـ نهاية الارب ١٥١/٥ ومن ان جهنم مصير الكفار والمشركين كما جاء في آيات كثيرة ومنها " إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها " ، إلا أنهم دعوا الله ان يجعل عظامهم وقودا لها ، يقول القاضي الفاضل " وكان الكفر مفقودا والاسلام مولودا وجعل الله ضلوع الكافرين لنار جهنم وقودا " . صبح الأعشى ٢٤٩/٦

(٥) زبدة الحلب ج ٢ /٢٧٥   (٦) رحلة ابن جبير ، ٢٧٦
(٧) الفتح القسي ٢٦٨ ، وأنظر ٥٨٠

من أجل ذلك طالب الادباء بتطهير المناطق من رجس المحتلين ، منذ أن بدأت ردة الفعل الاسلامية ، يقول ابن منير محرضا نور الدين على تطهير القدس :

آثارهم نجس أذ آل المسجد الأ . (م) قصى فضمن ما دنسوه وطهر (١)

وقال الحافظ ابن عساكر مهنئا نور الدين سنة ٥٦٤ ومحرضا أياه على فتح القدس :

فطهر المسجد الأقصى وحوزته … من النجاسات والاشراك والصلب (٢)

وقد رأى بعض الشعراء أن تطهير القدس من رجس الغزاة لا يكون الا بدماء الاعداء أنفسهم يقول العماد :

فسروا فتح القدس واسفك به … دماً متى تجرها ينظف (٣)

وبعد أن تم ذلك فعلا تنفس المسلمون الصعداء ، وكأنه حلم تحقق ، يقول الشريف النسابة الجواني :

أترى مناما ما بعيني أبصر … القدس يفتح والفرنجة تكسر
وتمامة تمت من الرجس الذي … بزواله وزوالها يتطهر (٤)

ويقول القاضي الفاضل " وأضحت الارض المقدسة الطاهرة ، وكانت الطامث والرب المعبود الواحد ، وكان الثالث (٥) ، ويقول ابن النبيه في مدح صلاح الدين :

طهرت بيت القدس من رجسهم … وكان مأوى للخنازير (٦)

وفي فتح دمياط يقول ابن عنين مادحا المعظم عيسى :

وطهرها من رجسهم بحسامه … همام يرى كسب الثنا المغنم الاسنى (٧)

ولما أخذ الملك الناصر داود القدس من الفرنج قال ابن مطروح :

فناصر طهره أولا … وناصر طهره آخرا (٨)

وفي طرد آخر جندي صليبي من عكا قال شمس الدين النزاري :

وأعدتها للمسلمين ولم يكن … منهم ترى التطهير الا بالمدى (٩) *

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ، ١٩٦ وانظر ج ١ ق ١ ، ١٥١ ، ١٥٣ ، ١٥٤
(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٠٥ ، الخريدة / قسم شعراء الشام ١ / ٢٧٧ ولمزيد من الامثلة أنظر الروضتين ج ١ ق ٢ ، ٤٤٤ ، ٤٥٣ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤١ مفرج الكروب ٢ / ٢٢٢
(٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ، ١٩١ (٤) مفرج الكروب ٢ / ٢٢٣
(٥) صبح الاعشى ٦ / ٤٤٩
(٦) تاريخ ابن الفرات مج ٥ ج ١ ، ١٢٥ مفرج الكروب ٢ / ٢١٧ وانظر ديوان ابن النبيه ٦٦
(٧) ديوان ابن عنين ٣١
(٨) ديوان ابن مطروح ٤٨ (٩) جواهر السلوك ، ورقة ٤٨
* لمزيد من الامثلة أنظر ديوان ابن سناء الملك ٣٥٨ ، ٥٦٧ ، جواهر السلوك ٦١ ديوان البهاء زهير ١٢١ ، الروضتين ج ٢ ، ٤٩ ، ٧٦ ، ٨٣ ، ٩٤ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١١٤ ، ١١٨ ، ١٥٠

القسم الثاني : صراع بين حضارتـــين :

أدى الاختلاف بين الحضارتين : الاسلامية والاوروبية الى تناقض ظاهر بين السلوكيين الاسلامي والفرنجي ، وسنسلط فيما يلي أضواء الادب العربي في هذه الفترة على الغزاة القادمين من أوروبا ، لنرى تصويره لاخلاقهم وعقليتهم وسلوكهم .

أما أخلاقهم فقد كانت تختلف عن أخلاق المسلمين في طبيعتها ، لاختلاف الثقافة والتنشئة في كل من المجتمعين ، ومما استرعى أنظار الادباء المسلمين في هذه الفترة ، المرأة الفرنجية ، باعتبارها عنصرا مهما في حياة المجتمع .

فالمرأة الفرنجية كانت سافرة فاتنة ، بخلاف المرأة المسلمة المتنقبة التي تخفي محاسنها إلا ما ظهر منها ، والتي تبتعد عن مواطن الفتنة ، بينما كانت المرأة الفرنجية تبرز محاسنها للرجال سواء أكانوا من قومها أم من غيرهم ، يقول ابن القيسراني ، وقد خالطهم وعرف طباعهم :

سمحن بمن سكنّ بيوت شعـــر ... فأبرزن المحاسن في الشعـــور
وأرخين النواظر في وجـــوه ... منزهة الخدود عن الشـــدور
تريك الحسن غير مرقعـــات ... ألا ما في البراقع من غـــرور (١)

فهو يقارن في النظر عن أعجابه بالفرنجيات يسجل انطلاق المرأة الفرنجية وعدم تحرزها في أظهار محاسنها ، فان كانت العربية تسكن بيت الشعر ، وتحتجب عن الرجال متنقبة بالبرقـــع ، فالفرنجية تفتخر باظهار شعرها وجمال وجهها ، وتمشي الى حيث الرجال ، بل تتعمد أن تخرج اليهم ، دون أن تخفي شيئا من جمالها ، مما جعل الشاعر يفتتن بها ويظهر أعجابه بهذا الجمال ، وحين تبرز الفرنجية الجميلة متعطرة ، يقول ابن القيسراني فيها :

لقد فتنتني فرنجيــــــة ... نسيم العبير بها يعبــــق
ففي ثوبها غصن ناعـــم ... وفي تاجها قمر مشـــرق (٢)

ومثل هذه المعاني وردت في النثر ، ففي حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية ، وصف الفرنجيات بأن من عادتهن الخروج والمشي في الاسواق بلا نقاب (٣) ، وأما العماد فقد أفرد للمرأة الفرنجية فصلا تحدث فيه عن جوانب متعددة فيها ، ومنها تبرجها ، يقول " وترافدن على الارفاد والارقاد وتلهين على ... من كل ... متغنية متغنجة ، متبرزة متبرجة ، نارية ملتهبة ، منقشة متخضبة ، تائقة شائقة فائقة رائقة .." (٤) ، ويقول مبينا لباسها وتأنقها " تسحب غضارتها وتسحر بنضارتها نظارتها ، وتنثني كأنها غصن وتتجلى كأنها حصن ، وتهتز كأنها قضيب .." (٥)

---

(١) ديوان ابن القيسراني ، مخط ورقه ٦٦
(٢) ديوان ابن القيسراني ، مخط ورقه ٦٦
(٣) ألف ليلة وليلة جـ ٧ ص ٤ وأنظر رحلة ابن جبير ص ١٧٨
(٤) الفتح القسي ، الباب ... ص ٣٤٧ ـ ٣٤٩ ، والاقتباس من ص ٣٤٧
(٥) الفتح القسي ص ٣٤٧ ، وأنظر ابتهاج الطيبات حـ ٢ ص ٥٩

وإذا كانت الفتاة الفرنجية تخرج سافرة فاتنة من بلاد الى بلاد دون أذن واستئذان ، فأن نظام الاسرة سيختل وينحل ويؤذن بالنهاية .. كما يتضح من حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية(١) وإذا كان هذا السلوك غريبا ، فان الاغرب منه أن تخرج المرأة الفرنجية من بلادها الى الشرق الاسلامي لتقدم نفسها للفرنج ، معتقدة أن هذا العمل هو عبادة لله ، يقول العماد " وتسامع أهل عسكرنا بهذه القضية ، وعجبوا كيف تَعَبّدوا بترك النخوة والحمية"(٢) .

ومثل هذا السلوك ، جعل أسامة بن منقذ (من قبل) يحكم أن ليس للفرنج غيرة جنسية، يقول " يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته ، يلقاه رجل آخر ، يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها ، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث"(٣) ، ثم يروى مشاهدات عديدة عن مثل هذا السلوك (٤)، ولم يكن هذا الوضع إلا لاختلاف أنماط الحياة بين المجتمعين: الاسلامي والفرنجي ، وقد كان التحلل في العلاقات الأسرية في المجتمع الفرنجي من أسباب ضياع مملكة الفرنج في الشرق الاسلامي ، وهذا ما تررة أحد الكتاب المحدثين حين قال " ان رذائل المسيحيين(يقصد الفرنج) في الأراضي المقدسة لها أثر كبير في ضياع مملكتهم في فلسطين إن لم يكن السبب بعينه (٥) ، وهذا ما لاحظه أبان الحروب الصليبية نفسها أحد مرافقي الحملة الفرنسية على دمياط وهو جوانفيل في مذكراته عن القديس لويس التاسع يقول: " أما العامة فراحوا يراقصون النسوة الخليعات حتى لقد حدث بعد عودتنا من الاسر ان عزل الملك الكثير من رجاله(٦) .

ويعضد هذا الرأي ما ذكره أمبرواز (Ambroise) ، عن المرأة الفرنجية "وهن يجررن أذيال الفجور في تصرفهن الشائن ، ثم يقول " رحماك اللهم ، أبمثل هذا السلاح يسترد ميراث الرب (٧) .

وأما تصوير الادب لعقليتهم ، فقد أبرز تخلفهم الحضاري عن المسلمين وذلك بالحديث عن سذاجتهم الى الامور ، او عن غبائهم وحمقهم ، او عن خشونتهم وفظاظة سلوكهم .

فمن مظاهر سذاجتهم إحراقهم كنيسة أتخذوها من خيش حين عسكروا على بانياس، وفرشوها بالحلفاء والحشيش ، فلما كثرت فيها البراغيث ، فكر القسّ بحرق الحشيش ليتخلص من البراغيث ، فأرتفعت السنة اللهب ، وعلقت بالخيمة فتركتها رمادا (٨) .

---

(١) ألف ليلة وليلة ج ٧ ص ٤

(٢) الفتح القسي ص ٣٤٨

(٣) الاعتبار ص ١٣٥

(٤) لمزيد من التفاصيل أنظر الاعتبار ص ١٣٦

(٥) أحمد بيلي المصري ، حياة صلاح الدين ص ٦١ ،

(٦) جوانفيل ، القديس لويس التاسع ص ٦٩ وانظر ٤٤ ٢

(٧) انظر زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية ص ١٥٢

(٨) الاعتبار ٨٦ .

ومنها ما حدث من أسامة حين طلب فرنجي منه أن يأخذ ابنه معه الى أوروبا ، وهو ابن أربع عشرة سنة ، كي يتعلم " العقل والفروسية" ويعقب أسامة على ذلك بقوله " ما يخرج (أي ذلك الكلام) من رأس عاقل ، إذ لو أسر ما بلغ بها الأمر أكثر من أن يذهب الى بلاد الفرنج (١)" .

واما غباؤهم وحمقهم فيتمثلان في تأخر طبهم ، وعدم الاقتناع بطب العرب من أنه كان يستند على التشخيص والعلاج ، ودليل ذلك ما يذكره أسامه من أن صاحب المنيطرة الفرنجي طلب من صاحب شيزر طبيبا يداوي مرضى من أصحابه ، .. فلما غاب الطبيب العربي عنهم عشرة أيام ثم عاد ، فسأله أهلها عن سبب عودته مبكرا ، فقال : " أحضروا فارسا قد طلعت في رجله دملة ، وامرأة قد لحقها نشاف ، فعملت للفارس لبيخة ، ففتحت الدملة وصلحت ، وحميت المرأة ورطبت مزاجها ... " ، ولكن طبيبهم الفرنجي خيّر صاحب الدملة بين أن يموت برجلين أو يشفى على أن تقطع رجله ، ففضل المريض أن يشفى ويعيش برجل واحدة .... فأحضره وأحضر فارسا وحط ساقه على قرمة خشب ، وقال للفارس اضرب رجله بالفأس ضربة واحدة ، فضربها فما انقطعت ، فضربها ثانية فسال مخ الساق ، ومات من ساعته ، واما المرأة فقال إن في رأسها شيطانا قد عشقها، ثم أمر بحلق شعرها ، وسمح لها ان تأكل ما تشاء كالثوم والخردل ، فزاد بها المرض ، فأحضر موسى ، وشق رأسها صليبا ، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس ، وحكّه بالملح ، فماتت في وقتها (٢) .

ويعقب الطبيب العربي على هذه الزيارة بقوله "وقد تعلمت من طبهم ما لم أكن أعرفه " ومن ذلك ما رواه أسامة عن صاحب طبرية ، أن قسا كبيرا أحضر ليداوي فارسا كبير القدر ، فلما رآه طلب شمعا ثم أذابه وصنع منه مثل عقد الإصبع ، ووضعها في جيوب أنفه ، فمات الفارس ، فقال له الحضور ، قد مات ، قال : نعم ، كان يتعذب ، سددت أنفه حتى يموت ويستريح (٣) .

واما خشونتهم وجفاء خلقهم ، فيبدوان في كثير من أعمالهم ، منذ أن دخلوا أرض الشام وفعلوا بأهلها ما فعلوه من ذبح وتشريد ، وانتهاك للحرمات ، وتدنيس لدور العبادة فمن ذلك ما أقدم عليه الفرنج الذين هاجموا حلب سنة ٥١٨ هـ ، إذ نبشوا قبور موتى المسلمين ، وسلبوهم أكفانهم ، وعمدوا الى الموتى الذين لم تنقطع أوصالهم بعد ، وربطوها بالحبال وجعلوا يصيحون " هذا نبيكم محمد ، وهذا عليكم " ، وأخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر المدينة وقالوا ، وقد جعلوه ثفرا للبرذون : " يا مسلم أبصر كتابكم " ثم جعلوا يتضاحكون (٤) .

---

(١) الاعتبار ١٣٢
(٢) الاعتبار ١٣٧
(٣) الاعتبار ١٣٧
(٤) زبدة الحلب ٢/ ٢١٤ وانظر تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٥ وابن كثير البداية والنهاية ١٨٤/١٢

ومن مظاهر خشونتهم وتعسفهم وسذاجتهم ، تلك المحاكم التي كانت تتكون من عدة أشخاص ، لكن أحدا منهم لم يكن يهتدى الى أبسط قواعد القضاء ، إذ اعتمدوا في إدانة المتهم على اشياء لا تمت بصلة الى التهمة ، ومن ذلك ما حاكموا به متهما بقتل الفرنج غربي القدس ، فاحضروا بقينة عظيمة وملأوها ماء ، وعرضوا عليها دفة خشب وربطوه على الخشبة ورموه في القينة لأثبات الجرم عليه ، فإن كان بريئا غاص في الماء ، وإلا فلن يغوص فيه ، وقد حاول المتهم أن يغوص في الماء فما قدر ، فوجب عليه حكمهم، وفقأوا عينيه (١)

ومن هذه المحاكمات تلك المبارزة بين الشيخ المتهم والشاب الحداد ، وقد اعتقدوا ان الشيخ سينتصر على الشاب إن كان بريئا ، وإلا فسيلقى جزاءه ، وهو الموت ، ومات الشيخ في هذه المبارزة فعلا[1].

وقد سجل الادب هذا السلوك الفظ لا سيما عند الذين خرجوا حديثا من بلادهم كما يقول أسامة " فهم أجفى أخلاقا من الذين قد تبلدوا (صاروا بلديين) وعاشروا المسلمين"(٢) .

وقد جاء ما يثبت ذلك في تسجيل التاريخ لسلوكهم ، ومن ذلك ما جاء في الكامل والأنس الجليل ، وزبدة الحلب ، وذيل تاريخ دمشق ، وزبدة كشف الممالك وغيرها .. عن الإجرام الدموي في إنطاكية ومعرة النعمان والقدس وعكا وعسقلان (٣) .

ويؤكد ذلك أيضا، ما رواه مؤرخ مجهول عن أعمال الفرنج في القدس يقول " واشتد سرور رجالنا حتى بكوا من فرحتهم ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع ... وفي اليوم التالي ، تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على الشرقيين رجالا ونساءً ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ... وطرحت جثثهم أمام الابواب وتعالت أكوامهم حتى حاذت البيوت ارتفاعا (٤) " .

كما أكد ذلك بعض المؤرخين الاوروبيين بما أعتمدوه من أخبار المؤرخين الفرنسيين أنفسهم ومنهم غوستاف لوبون ، الذى يقول " ويدل سلوك الصليبيين في جميع المعارك على أنهم من أشد الوحوش حماقة ، فقد كانوا لا يفرقون بين الحلفاء والاعداء والأهلين العزل والمحاربين والنساء والشيوخ والاطفال (٥) ، ثم يستند في حكمه هذا على أقوال المؤرخين المعاصرين للحروب الصليبية مثل الراهب روبرت الذى يقول " كان قومنا يجوبون الشوارع والميادين وسطوح البيوت ليرووا غليلهم من التقتيل ، وذلك كاللبوات التي خطفت صغارها ، وكانوا يذبحون الأولاد والشبان والشيوخ ، ويقطعونهم إرْبا إرْبا ، وكانوا لا يستبقون أنسانا ، ويشنقون اناسا كثيرين بحبل واحد بغية السرعة ... وكان قومنا يقبضون على كل شئ يجدونه فيبقرون بطون الموتى ليخرجوا منها قطعا ذهبية "ثم يعقب على ذلك بقوله: "فيا للعجب ويا للغرابة ... فيا للشره وحب الذهب (٥) " .

---

(١) الاعتبار : ١٣٩ ، ١٣٨ (٢) الاعتبار ١٣٤

(٣) أنظر الكامل ١٠ / ٢٧٣ ، الانس الجليل ١ / ٣٠٧ ، زبدة كشف الممالك ١٩٠ ذيل تاريخ دمشق ١٣٧ ، ابن العديم ، زبدة الحلب ١ / ٣٠ ، تاريخ مختصر الدول ١٦٧

(٤) أعمال الفرنجة ١١٩ (٥) حضارة العرب ٣٢٥ وانظر ٣٢٧

ولم تبعد هذه الاقوال عما تورده الأدباء العرب في شعرهم ونثرهم ، ونذكر فيما يلي ما كتبه الملك الأمجد عن أبيه الملك الناصر حين هاجم الفرنج مدينة نابلس " تتلت فيها المشايخ والشبان ، وسبيت الحلائل والصبيان ، واستولت يد الكفار على ما كان مدخرا من الاموال والغلال وما جمعه المسلمون لأزمنتهم في السنين الطوال "(١).

وما يرتبط بذلك معاملة الاسرى من المسلمين ، والسكان الذين كانوا يقعون تحت قهر الاحتلال ، وقد لاحظ هذه المعاملة الخشنة ابن جبير في رحلته وهو في عكا ، يقـــــول :
" ومن الفجائع التي يعانيها من حلّ بلادهم ، اسرى المسلمين يرسفون في القيود ، ويصرّفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد ، والأسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيـــــل الحديد "(٢) .

ويوضح الادب جانبا آخر من هذه الفجائع التي يعانيها الاسير ، وهو ان الفرنج يقيدون الأسير ثم يرمونه في غياهب السجون التي تكون إما منارة او جُبًّا عميقا ، فهذا أسامه ابن منقـذ يستعطف ابن عمه الامير تاج الدوله ليفدي ابن عمّه أخا اسامة ، فيبين تلك الحالة المهينة الـتي يعيشها في الأسر ، يقول :

هذا ابن عمك في أسر الفرنج لـــــه حول تجرّم في الاغلال والظُلَــــــم"(٣)

وقد تفنن الفرنج في ايقاع العذاب بالاسرى ، ومن ذلك ما يذكره أسامةَ بن منقذ عن أحد الأسرى المسلمين يقول " وعذبوه أنواع العذاب ، وأرادوا قلع عينه اليسرى ، فقال لهم دكوين لعنه الله - أقلعوا عينه اليمنى ، حتى إذا حمل الترس ، استترت عينه اليســار ، فلا يبقى يبصر شيئا ، فقلعوها (٤) " .

ومن أنواع التعذيب عندهم ما فعلوه مع ابن والي الطور الذي خرج للصيد حيث حبسوه في جب وحده ، وطالبوه بألفيْ دينار فدية ، دون أن يسمحوا له بالاتصال مع أحد حتى مر عليه عام كامل ، يقول " فأنا في بعض الأيام في الجب ، واذا قد رفع عنه (الجب) الغطاء ، ودُلّي اليّ رجل بدوي ، فقلت من أين أخذوك ، قال : من الطريق ، فعلما بان للمسلمين والتجار حقـا متسارقا عليه آنذاك ، ومن ذلك أسر البدوي مع ابن والي الطور ، وقد طلب الاكثر من الفرنج ان يخلوا سبيل البدوي ليخبر أهله فيدفعوا فدية للفرنج (٥)

هذا وقد تميزت معاملة الأسرى المغاربة بشدة أكثر من أسرى المشارقة لانهم تركوا أوطانهم وجاءوا يحاربون مع المسلمين في الشرق كما يبين ذلك ابن جبير (٦) .

وأما معاملة السكان المسلمين ، فقد تمثلت بها الشدة والإهانة ، ويقول ابن جبير عـن معاملة الفرنج لأهل عكا " إنّ المسلمين يعانون أهوالا ومشقات منها الذلة والمسكنة ، ومنهـا سماع ما يفجع الافئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خطره ، لا سيما من أراذلهم وأسافلهم ، ومنها عدم الطهارة ، والتصرف بين الخنازير (٦) .

(١) الفوائد الجلية في الفوائد الناصرية ورقة ٩٥
(٢) رحلة ابن جبير ٢٨٠ . (٣) ديوان اسامه بن منقذ ١٤٩
(٤) الاعتبار ٦٦ (٥) الاعتبار ٨٠ ، ٨١ .
(٦) رحلة ابن جبير ٢٨٠ ، ٢٧٤

ويتضح الفرق في المعاملة ، حين نقف على معاملة المسلمين للفرنج سواء الأسرى منهم أو السكان في المدن التي أستعيدت ، ولا يسع المرء حين يرى سلوك المسلمين وترفعهم عن القتل او الثأر ، او ضبطهم لأنفسهم في جو نشوة النصر ، إلا أن يعجب بمسلكهم ، ويتبدى هذا الامر في كثير من المواقف ، منها يوم فتح الرها ، إذ أمر زنكي العساكر برد ما غنموه من أمتعة ومن وقع في أيديهم من نساء وأطفال ، فردوها عن آخرها (١) ، ومنها يوم فتح القدس ، اذ أطلق صلاح الدين على أنفسهم ، وخيرهم بين الاقامة والظعن (٢) ، أما معاملة المسلمين للأسرى ، فقد كانت تدل على رقي حضاري ، فابن شداد يذكر أن مجموعة من الفرسان المسلمين أسرت مجموعة من الفرنج ، وكان منهم مقدم العسكر ، فخلع عليه صلاح الدين فروة خاصة ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، لان البرد كان شديدا ، وأحضر لهم طعاما أكلوه ، وأمر لهم بخيمة نصبت قريبا من خيمته ... واذن لهم ان يراسلوا أصحابهم ، وان يحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون اليه .(٣)

ومن هذه المعاملة ، معاملة أسير فرنجي طاعن في السن لم يبق في فمه ضرس ... فرق له السلطان وأطلقه الى معسكره (٣)

وقد شعر الفرنج أنفسهم بهذه المعاملة ، فأستاً من خلق عظيم منهم بسبب الجوع زمن حصار عكا ، فأمنهم وأعانهم[*] كما شعروا برحمة صلاح الدين ، فنصحوا المرأة التي فقدت أبنتها ان تذهب اليه في معسكر المسلمين ، فرق لها وأمر برد أبنتها[*] وعيناه تدمعان (٣) ، ويعقب ابن شداد على القصة بقوله " فانظر الى شهادة الاعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة " :

ومليحة شهدت لها ضراتهـــــــا والحسن ما شهدت به الأعـــــداء (٤)

هذا الفرق الواضح بين المعاملة الانسانية والمعاملة الوحشية لم يكن خافيا على الفرنج ، كما أسلفنا ، ولم يكن أيضا خافيا على المسلمين ولا على أدباء المسلمين ، يقول الشاعر ابن عنين :

لقوا الموتَ من زرق الأسنّة أحمــــــرا فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنـــــــا

وما برح الاحسان منا سجيـــــــــة نورثها عن صيد آبائنا الأبنــــــا

---

(١) الكامل ١٠/٩٩ ، النجوم الزاهرة ، سنة ٥٣٩
(٢) الكامل ١١/٥٣٩ ، وأنظر ١١/٥٥٠ ـ ٥٥١
(٣) ابن شداد ١٥١ ، ١٥٦ ، ١٥٤ ، ٣٦ على الترتيب
* ورد في النوادر ص ١٥٩ أن المفقود طفل ذكر بينما ورد في صفحة ٣٦ منه أنهــــا طفلة(بنت)
(٤) النوادر ١٥٩ ، ١٥٦

منحنا بقاياهم حياة جديــــــدة — فعاشوا بأعناق مقلدة منّـــــا
ولو ملكوا لم يأتاوا في دمائنـــــا — ولوغا ، ولكنا ملكنا فأسجحنــــا (١)

هذا وقد لجأ الفرنج الى المكر والغدر ليشفوا غليلهم من الدماء البريئة ، ويرووا حقدهم بالدم المسفوح ، ولهذا أكثر الادباء عن التحدث عن غدر الفرنج ، وبينوا أنهم مفطورون عليه ، قال الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي في انتصار صلاح الدين سنة ٥٧٥ هـ وتحطيم حصن بيت الاحزان :

فلا ترض منهم بعدها بذل طاعــة — فما خلقوا إلا على شيمة الغـــدر (٢)

وقال ابن منير في مدح نور الدين سنة ٥٤٧ ، حين فتح أنطرطوس وهزم جوسلين :

ما زال يغدر ثم يغدر قــــادرا — حتى أتاه بجامع أصحابــــه (٣)

وقد لاحظ العماد ذلك بقوله " ... فان الغدر في طباعهم مركوز ، والسوء في غرائزهم مغروز " (٤) ، ووصفهم بأنهم أناس لا يفون بعهدهم ولا يبرون بوعدهم .

وحين حاول صلاح الدين اقتحام القدس هدد بقتل الأسرى ، وكان العرف يقضي بالمحافظة على الأسير ، فاضطر صلاح الدين الى الدخول في مفاوضات معهم انتهت بتسليم المدينة ، وخروجهم منها ، وفي هذا الوقت يقول العماد " وعرف أن جهلهم يحملهم على كل مكر شنيع ، وأنهم تدعوهم فظاظتهم الى كل أمر فظيع (٥) " ، كما يتحدث عن أعمالهم في موضع آخر فيقول " فرعوا بقتل أسارى المسلمين وهم الالوف ، وعرفنا أنهم لا يقصرون في الشرغان جهلهم معروف " (٤) .

ولم تكن ملاحظات العماد هذه من باب التزيد ، وتعظيم الصغائر ، اذ ان الحديث عن غدرهم حديث متواتر ، ردده كتّاب المسلمين وشعراؤهم على السواء ومن ذلك قول طلائع بن رزيك :

فقولوا لنور الدين : ليس لجائف الجراحات إلا الكي في الطب والبسـط
تأمل فكم شرط شرطنا عليهم — قديما وكم غدر به نقض الشــرط (٦)

وقول العماد في ملك الالمان " ولما وصل الى بلاد الارمن غدر بالرهائن وساقهم محولين مع الظعائن (٧) ، وفي حصار عكا سنة ٥٨٦ ، ضعفت البلد ، وضمن أهلها للتفاوض مع الفرنج فأمنوهم ، ولكنهم حين تسلموها لم يلتزموا بما تعبدوا به من شروط ، بل احتاطوا عليهم وعلى أموالهم وحبسوهم في المعتقلات ، ولم يكتفوا بذلك الغدر وانما أوثقوا أسرى المسلمين بالحبال وتلوهم بأجمعهم (٨)

---

(١) ديوان ابن عنين ، ٣٠ ـ ٣١
(٢) الروضتين ١ / ١٢
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢١٩
(٤) الفتح القسي ٦٠٨
(٥) الروضتين ٢ / ٩٧ ، ٩٨
(٦) ديوان اسامة بن منقذ ١٧٧
(٧) الفتح القسي ٣٩٠
(٨) الروضتين ٢ / ١٨٨

وقد غدر الفرنج بالمصريين في بلبيس ودمياط ، وتكرر هذا الغدر مرات ومرات * مما أوحى الى أذهان الشعراء تشبيههم بالذئاب لا سيما في شعر ابن القيسراني ، فمن ذلك قوله مخاطبا عماد الدين زنكي :

فلا تحفلن بعول الذئـــــاب   وقد زأر الأسد الباســـــل (١)

ويقول في جوسلين أحد أمرائهم :

أخو الليث لولا غدرة نزعت بــــه   الى الذئب ، إن الذئب شيمته الغدر (٢)

وهناك فرق بين الغدر والخدعة ، إذ إن الاول نكث بالعهد ، وفي هذا المعنى يقول العماد في وصف الحال بعد موت صلاح الدين " وقد استمرت الحال الى الان على الهدنة ، وهم لا يؤمنون اذا أحسوا بالكنة (٣) " .

ويقول أسامه بن منقذ في وصف جوسلين :

دعته الى نكث اليمين وغـــــدره   بذمته النفس الخسيسة والمكـــر (٤)

وأما الخدعة فهي مفاجاة العدو دون ان يكون عهد بين الطرفين ، ولذلك فقد امتدح الاسلام الخدعة الحربية ، بل جعل قوام الحرب الخدعة ، كما جاء في قول الرسول صلى الله عليه وسلم " الحرب خدعة " .

هذا وقد امتدح الادب تخطيط الفرنج الحربي وأمثلة ذلك كثيرة * ، وأما الغدر فهو مذموم ينحرف بصاحبه الى الخيانة والكذب والنفاق كما ذكر الشعراء ، ومنهم أسامة بن منقذ الذي رد على طلائع بن رزيك على لسان نور الدين زنكي بقوله :

ونحن كسرنا " البغدوين " وما لـــــن   كسرناه أيام يُرَجَّى ولا يُجبـــر
غسله اللعين الحائن الخائن الــــذي   له الغدر دين : ما به عنه الغـــدر
وقد ضاقت الدنيا عليه برحبهـــــا   فلم ينجه برٌّ ، ولم يحمه بحـــــر
أفي غدره بالخيل بعد يمينـــــه   بإنجيله بين الانام له عـــــذر
دعته الى نكث اليمين وغـــــدره   بذمته ، النفس الخسيسة والمكــــر (٤)

---

* أنظر الروضتين ج ١ ق ١ : ١٥٣ــ١٧٦ــ١٩٠ــ٢١٧ ، الروضتين ج ٢ : ١٠٢ ــ ١٨٨ ــ ١٨٩ــ٢٠٥ ، الذيل على الروضتين ١١٧ ، النوادر السلطانية ٣٨ ، ١٢٤ ، الاعتبار ٣٤ ، ٣٥ ــ٦٦ــ٨١ ، ديوان أسامه : ١٧٩ــ١٨٠ــ١٨١ــ١٨٣ــ١٨٧ــ١٩٢ــ١٦٩ وأنظر ابن الاثير ١٠ / ٣٧٢ ، الكامل ١١ / ٢٧٣ــ٢٦٦ــ٤٩٠ــ٤٩٠ ، ٥٠٨ ، الكامل ١١ ــ ٦٧ــ٦٨ ، ابن القلانسي ١٣٦ وأنظر الف ليلة وليله ج ٦ + ج٧ حكاية نور الدين على ومريم الزنارية .

(١) الخريدة ، قسم الشام ١ / ١٠٨

(٢) الروضتين ج١ ق ١ ، ١٨٦ وانظر ١ / ٦٨ وانظر ٢ / ١٠٢

(٣) الفتح ٦٠٨   (٤) ديوان اسامة ٢٠٣

* أنظر لمزيد من الامثلة الاعتبار ٦٤ ، الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ١٩ وأنظر عقد الجمان ج ٢ ق ١ ورقة ١٩٩ ، الكامل ١٠ / ٤٦٠ ، ١١ / ١٥٤ ، ٥٥٥

وبالرغم عن المواثيق التي قدمها ملك القدس (بلدوين ـ بغدوين) إلا أنه غدر، مثلما غدر أمير أنطاكية الذي تنكر للصنيع، على حد قول ابن القيسراني :

خان الصنيعة غير محقون بهــــا ... والخير يهدم ما بقي الشعار
ذئب اذا ما غبت أقدم عاتيــــا ... إقدام من لم يدن منه قرار
أضحى السائح على عدواه بغيه ... بالغدر يطعن في الوغى الغدار (١)

ويلاحظ اقتران الوصف بالاستهزاء في الابيات السابقة ، لكن شعراء العرب بينوا في معرض الاستهزاء ما يلاقيه الفرنج من عقاب رادع جزاء غدرهم ، يقول الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان السراقي في صلاح الدين :

فما تبدت منهم يد الغدر قطعت ... أناملها الا على صفقة الخسر
فلا ترض منهم بعدها بذل طاعة ... فما خلقوا إلا على شيمة الغدر (١)

ويقول أسامة بن منقذ :

فتى ينصر على الكفار إنهم ... يرديهم المهلكان : الغدر والأشر (٢)

ويقول فتيان الشاغوري :

حشدوا وكان الغدر بذرهم فقد ... درسوا وذروا بأوشم بيدر
ما إن ترى الا مساكنهم ومن ... صرعى الصوارم بالهباب المقفر (٤)

والشواهد على ذلك كثيرة * .

ونلاحظ من خلال الشعر ان رد المسلمين على غدر الفرنج كان يأتي قويا ، كما في قول ابن قسيم الحموي :

أيلتمس الفرنج لديك عفـوا ... وأنت بقطع دابرها زعيم
وكم جرعتها غصص المنايا ... بيوم فيه يكتهل الفطيم (٥)

أما قائدهم فلا يستطيع المواجهة فيولي هاربا :

أراد بقاء مهجته فولى ... وليس سوى الحمام له حميم (٥)

وهذا القائد كأي قائد آخر خاتمته إما الموت أو الذلة جزاء غدره ، يقول ابن منير في مدح نور الدين يوم أنب سنة ٥٤٤ (٦) :

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٧٦ (٣) الخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٥٤٦
(١) الروضتين ٢ / ١٢ (٤) ديوان فتيان الشاغوري ١٤٥
* لمزيد من الأمثلة أنظر الخريدة شعراء الشام ٢٨ والروضتين ٢ / ٨٢ ، ديوان الصاحب شرف الدين الانصاري ٤٠١ والروضتين ج ١ ق ١ / ١٥١ وعقد الجمان ج ١١ ق ١ ص ١٩٩
(٥) الخريدة / الشام ١ / ٤٧٠
(٦) أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢ / ١٨ ـ ١٩

وسقى البرنس وقد تبرنس ذلـــــــة | بالروح مما قد جنت غدراتــــــــه
وطأت أطراف السنابك هامــــــه | تفتاق تت بسنوفها قذفاتــــــه

ويقول العماد في مدح نور الدين وقد هزم الفرنج في حوران سنة ٥٦٨ :

تمّت توجّهم رداء مــــــن ردى | وقرنت رأس برنسهم بسنـــــــان
وملكت رق ملوكهم وتركتهـــــم | بالذل في الاتياد والاسجـــــان
وجعلت في أعناقهم اغلالهـــــم | وكببتهم خونا على الاذقـــــان (١)

ثم يسخر منهم ، ويبين ان ظنهم قد باء بالفشل لانهم واجهوا قائدا متيقظا (١) ، يقول :

يا خيبة الافرنج حين تجمعـــــوا | في حيرة وأتوا الى حـــــوران
جاءوا وظنهم يعجل ربحهـــــم | فأعدتهم بالخزي والخســـــران
وظنونهم وقلوبهم قد أيقنـــــت | للرعب بالاخفاق والخفقـــــان
وجلوت نور الدين ظلمة كفرهـــم | لما صرعت بسواضح البرهـــــان
وعزمتهم بالرأي قبل لقائهـــــم | والرأي قبل شجاعة الشجعـــــان
راحوا ثباتوا تحت كل مذلـــــة | وضربت منهم فوق كل بنـــــان *

*　　*　　*　　*

ومن المعالم التي سجلها الادب عن الصليبيين طرائق تحريضهم للقتال ، وغالبا ما يكون ذلك في وقت الملمات كسقوط مدينة ، أو التعرض لهزيمة ساحقة ، ويمكن حصر طرق التحريض عندهم بأربع طرق .

١ . الصور : فقد رسموا صورة القدس في ورقة عظيمة ، وأظهروا فيها صورة القيامة وقبر المسيح بزعمهم ، وصوروا فارسا مسلما يطأ قبر المسيح بفرسه وقد بال الفرس على القبر (٢) كما صوروا المسيح عليه السلام ، وجعلوا معه صورة عربي يضربه بالعصا ، والدماء تنزف منه (٣) وقد كان لهذه الصور أثر بالغ في نفوس الفرنج لان الصور مرتبطة بدينهم ، ويبين ابن شداد انه هاج لذلك خلائق لاتحصى ، وأرسلوا الامدادات المتواليه الى عكا ... (٤) .

٢ . الرؤى والاحلام : وكان لها أثر في نفوسهم ، كما حصل خلال محاصرتهم أنطاكية بعد أن أشرفوا على الهلاك المحقق جوعا وقتالا بسبب حصار المسلمين لهم ، كما كان لهما أثرها في تسيير الحملة الاولى ، فمن المعروف ان بطرس الناسك كان عاملا أساسيا في تحريض الفرنج ، وكان هذا العمل من بطرس ، بناء على رؤيا أدعى أنه سمع خلالها صوتا سماويــــا

(١) الخريدة ، شعراء دمشق والشعراء الامراء من بني أيوب ص ٥٥
* لمزيد من الأمثلة أنظر الروضتين ج ١ ق ١ ، ٢٠٦ ، ٢٥٥ ، ٢٧٢ ، ٨٨ ، ١٨ ، ٩٩ ، ١٥٤ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٨٦ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، الكامل ١١ / ٣٣٠ ، رسائل ابن الاثير ١٥٤
(٢) النوادر السلطانية ١٢٦ ، الروضتين ٢ / ١٦٠ ، مفرج الكروب ٢ / ٣٣٦
(٣) مفرج الكروب ٢ / ٨٨ ، الكامل ١٢ / ٣٢
(٤) النوادر السلطانية ١٢٦

يخاطبه بقوله " أنهض يا بطرس، وأسرع منذرا عن شقاء شعبي ، فقد آن الحين الذي فيه خدامي يحصلون على الاماكن المقدسة(١)٠

وأما أثرها في معركة أنطاكية سنة ٤٩١ هـ ، فقد أدعى بعضهم أنه رأى كتيبة من السماء وعليها هالات قدسية من النور تقدمت صفوفهم، وتسلقت السلالم والاسوار المحيطة بمدينة أنطاكية ورمت المسلمين(٢)٠

ولئن كان لهذه الرؤيا المدعاة أثر في تقوية معنويات الجند ، فإن الحربة المقدسة التي أدعاها أحد الرهبان ، كان لها هي الاخرى أثر كبير في تحقيق النصر لهم يومئذ ، وتفصيلها أن راهبا داهية مطاعا رأى حصار المسلمين الشديد لأنطاكية ، وما نتج عنه من انعدام الاقوات وتحطم قوتهم المعنوية ، فلجأ الى حيلة دينية ، إذ بشرهم بأن المسيح لن يتخلى عنهم ان وجدوا الحربة المقدسة المدفونة بالقيسان (وهو بناء ديني عظيم) ، ثم أمرهم أن يصوموا ويكون بذلك قد جمل الجوع الذي يتضورون منه صوما يؤجرون عليه ، بينما قام بعضهم بالبحث عن الحربة ، فوجدوها فعلا ، لانه كان قد دفن حربة صدئة في المبنى المذكور (٣) وتصادف أنه في هذا الوقت ، دب النزاع بين الفرق الاسلامية ، التي تواعدت للقتال ، بينما قام الفرنج بهجوم يائس أنتصروا فيه على المسلمين٠

٢ ٠ قرارات الحرمان وصكوك الغفران : وقد لجأ اليها البابا في روما بعد سقوط القدس رغم كل الامدادات التي تدفقها أوروبا للمحافظة على ممتلكات الصليبيين ، وقد قصد البابا بهذه القرارات أمرين : الاول أخذ الاموال لتمويل الجيش الصليبي والثاني ، دعم الجيش الصليبي بالمقاتلين ، يقول القاضي الفاضل : " وقد حرم بابا هم كل مباح ، واستخرج منهم كل مذخور واغلق دونهم الكنائس ، ولبسوا لبسهم الحداد ، وحكم عليهم أن لا يزالوا كذلك أو يستخلصوا المقبرة(٤) " ويقول العماد من كتاب الى بغداد : ان البابا الذي برومية قد حرم عليهم مطاعمهم ومشاربهم ، وقال " من لا يتوجه الى القدس مستخلصا فهو عندي محرم لا منكح له ولا مطعم " ٠

والحرمان عندهم كاللعنة عند المسلمين — يعني الطرد من مغفرة الله وكل عمل يعمله المحرم لا يقبل منه ، ولذلك فهم يتهافتون على الورود ويتهالكون على يومهم الموعود (٥)٠

---

(١) مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة ١ /٣

(٢) حسن حبشي ، الحرب الصليبية الاولى ٥٠ ١

(٣) الكامل ١٠ /٢٧٧ ومونروند ١ /١٢٢

(٤) الروضتين ، ٢ /١٥٧ ، صبح الأعشى ٧ /١١٨

(٥) الروضتين ٢ /١٦٢

وأما الغفران فهو دافع مهم للحروب ، لأنه بمقتضاه تُغفر الذنوب مهما كانت ، وقد أعتمدت عليه البابوية في إرسال الحملة الأولى ، وما تبعها من حملات ، وحين شعد هذا الدافع في نفوس الفرنج ، وعرفوا أن صكوك الغفران لا تسمن ولا تغني من جوع ، فشلت الحملات لقلة المشتركين فيها ، رغم النداء المستمر الذي كان يرسله أهالي عكا ، يقول العماد عن تحريض الأمانة ، بأنهم "نادوا في نواديهم أنه من شخص من بيته مهاجرا لحرب الإسلام ، وُهِبَتْ له ذنوبه وقد نبت عنه عيوبه ، ومن عجز عن السفر ، سفر بعدته وثروته إن قدر ، فجاؤوا لابسين الحديد بعد أن كانوا لابسين الحداد"(١) ، وجاء منهم المدد للحرب ، وهذا المدد أنما كان بعد سقوط القدس ، وأما بعد أن سيطر المسلمون على معظم الساحل وقضوا على الجموع الوافدة ، ولم تفلح البابوية في مد الفرنج الذين بعكا بجموع كبيرة فقد سقطت في أيدي المسلمين .

٤ . الاثارة العاطفية : لجأت البابوية الى كل الوسائل التي من شأنها أن تلهب حماس الحكام والناس لمد الكيان الفرنجي في الشرق الاسلامي بما يحفظه من الذوبان في المجتمع المسلم ، فأثارت عاطفة الابوة عند الابناء ، كما أثارت غريزة حب المال والطمع ، ويتجلى ذلك مما حدث مع ملك الالمان حين أنحصر الوجود الصليبي في صور ، فكاتبه أهلها بأن عظام أبيه التي الآن في صور في تابوت مكلل بالديباج ، وكأنه أسير ينتظر أن يفرج عنه ، فأنه لا يقبر إلا بالبيت المقدس اذا استخلص ، والآن ما كان قلا منه أسترخص ، فان المسلمين قد أشتغل بعضهم ببعض ، والتهوا عن كل واجب (٢) ، وفي هذا اشارة الى أنفراط عقد الدولة الايوبية بعد وفاة صلاح الدين ، وفيه أنّ الطمع حركهم للاستيلاء على البلاد المقدسة مرة أخرى .

كما أثاروا عواطف الجماهير بلبس الحداد حزنا على سقوط القدس ، يقول القاضي الفاضل عن البابا بأنه قد لبس الحداد وطلب منهم لبس الحداد وحكم عليهم ان يستمروا كذلك أو يستخلصوا المقبرة (٣) .

ومن وسائل أثارة الجماهير أيضا ، خروج القسس والرهبان يحملون صورة قبر المسيح ورؤوسهم مكشفة ، وعليهم المسوح ، وينادون بالويل والثبور .

ويقول العماد بأنهم قد "نادوا في نواديهم بأن البلاد قد بلادهم ، وأن اخوانهم بالقدس أبادوهم الاسلام وأبادهم"(٥) ، وفعلوا ذلك في غير بلد أوروبي .

---

(١) الروضتين ٢/١٤٩ والفتح القسي ٣٢٨
(٢) الروضتين ٢/٢٣٣ وانظر ص١٦٠
(٣) المصدر السابق وصبح الاعشى ٧/١٢٨
(٤) الروضتين ٢/١٦٠ وابن شداد ١٢٦ والظن ١/٢٢٦
(٥) الكامل ١١/٣٧ مفرج الكروب ٢/٢٨٨

ومن وسائل أثارة المقاتلين عندهم رفع الصليب الذي يرمز عندهم الى التضحية ويظهر ذلك في مواقف عديدة منها حين نزلوا على دمشق سنة ٥٤٣ ، اذ خرج أمامهم قسيس كبير طويل اللحية ، يعتقدون به ، فركب حماره ، وجعل في يده صليبين وفي عنقه ثالث ، وعلق في عنق حماره صليبا رابعا ، وحمل الاناجيل والصلبان ، فلم يتخلف عنه أحد (١) ، كما ان العجائز تمر يدور التحريض في المعركة بما كنّ ينشدنه من أشعار ، وبما كن ينخين بها الرجال (٢) .

هذه طرق التحريض عندهم ، وهي تختلف عن طرق التحريض عند المسلمين في معظمها لأن التحريض مرتبط بنوع العقيدة ، فبينما كان الفرنج يعتقدون بالمسيح والصليب ، أعتقد المسلمون بالله إلها واحدا طالبهم بالجهاد والدفاع عن الارض والنساء والاطفال ، ومن هنا نجد معظم الادباء على وضع الاستنهاض في قالب ديني ، فمن ذلك قول الامير جمال الدين الكناني مخاطبا الملك الكامل حين حاصر الفرنج دمياط :

وأذخر ليوم البعث فعلا صالحـــــا   الله ضامن أجره وكفيلـــــــــه (٣)

ويقول طلائع مخاطبا نور الدين :

فاغتنم الجهاد أجرك كســـي تلـــــــــقى رفيقا له ونعم الرفيــــــــق (٤)

ويقول ابن سناء الملك في مدح الملك العزيز :

أرضيت ربك في حراسة دينـــــــه   وسررت عيسى إذ نصرت محمـــــدا (٥)

وقد بين الشعراء أنّ الله يمدّ المجاهدين بعونه ونصرته ، إذ ان النصر من عند الله يؤتيه من يشاء ، يقول طلائع بن رزيك ، مخاطبا نور الدين قلج ارسلان صاحب الروم :

أما فيكم من يتقي الله وحــــــــده   أما في رعاياكم من الناس مسلـــــــم ؟
تعالوا لعل الله ينصر دينـــــــه   إذا ما نصرنا الدين نحن وأنتـــــم
وننهض نحو الكافرين بعزمــــــة   بأمثالها تحوى البلاد وتقســـــم (٦)

ويقول ابن دنينير في حث الامراء والاجناد على القتال حين نزل الفرنج على دمياط سنة ٦١٥ :

أتيوا عمود الدين لله تعمــــدوا   فقد جاءكم عيسى وهذا محمـــــد *
فريق الهدى ، والله يظهر دينــــه   على دين من قد أشركوا وتمردوا (٧)

ونلاحظ أن هذه المعاني قد وردت في القرآن الكريم " وإذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا " (٨) .

---

(١) تاريخ ابن القلانسي (ذيل تاريخ دمشق) ٣٠٠
(٢) الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ١ / ٣٦٢
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ، ١٩٦
(٤) ديوان طلائع بن رزيك ١٠٣
(٥) ديوان ابن سناء الملك ١٥٦ وانظر عقد الجمان ج ١١ ق ١ ورقه ٥٨ مخط
جواهر السلوك ورقه ٦٠ مخط
(٦) ديوان طلائع بن رزيك ١٢٣ وانظر المزيد من الأمثلة الروضتين ٢ / ١٩٠ ، ٢٢٣
* المقصود بعيسى ومحمد أبناء الملك العادل أخي صلاح الدين
(٧) ديوان ابن دنينير ورقة ٤ .   (٨) سورة الانفال ١٢٠

ومن طرق التحريض عند المسلمين تهوين أمر الفرنج ، وبيان ضعفهم ، وقد كان ذلك بعد بدء الانتصارات عليهم ، وبعد الاتجاه نحو الوحدة الاسلامية ، يقول ابن القيسراني محرضا نور الدين زنكي :

فسر وأملأ الدنيا ضياء وبهجة ... فبالأفق الداعي الى ذا السنا فقر
كأني بهذا العزم لا فل حده ... وأقصاه بالاقصى وقد قضي الأمر
وقد أصبح البيت المقدس طاهرا ... وليس سوى جاري الدماء له طهر (١)

ويقول ابن منير محرضا نور الدين أيضا :

رد الكنائس كنسا للهدى فخبت ... نار الضلال ، وورثها أثافيها (٢)

ومنها ما كتبه القاضي الفاضل الى صلاح الدين " فشمّر عن ساق من القنا ، وخض فيه بحرا من الظبا ، واحلل عقدة كلمات الله سبحانه وثيقات الحبى ، واسل الوهاد بدماء العدا (٣) .

ومنه قول ابن التعاويذي محرضا صلاح الدين سنة ٥٨٠ :

ورح الهدى منها بأدهم رائع ... يعنو لسرته الصباح الاشهب
وبراية سودا فقلب الشرك من ... عقدت لملكك مستطار مرعب (٤)

وقول القاضي رشيد الدين بن النابلسي محرضا صلاح الدين بعد فتح القدس :

يا ملك الارض مهدها فما أحد ... سواك من قائم للهدي ينتظر
أضحى بنو الاصفر الانكاس موعظة ... فيها لأعدائك الآيات والنذر (٥)

وقول شهاب الدين محمود في فتح عكا وطرد آخر صليبي :

ما بعد عكا وقد لانت عريكتها ... لديك شيء تلاقيه على تعب
فانهض الى الارض فالدنيا بأجمعها ... مدت اليك نواصيها بلا نصب (٦)

وهكذا استمر الأدب محرضا على قتال الغزاة ، منذ أن وطئت أقدامهم أرض المسلمين في المشرق الاسلامي حتى طرد آخر جندي صليبي ، لا كما يقول محمد سيد كيلاني من أن التحريض كان مرتبطا بالقدس فقط ، حتى اذا ما فتحت القدس فتر التحريض (٧) ، والصحيح أن أدباء العرب قد نظروا الى الفرنج على أنهم طارئون مغتصبون يجب طردهم واستئصالهم حتى تم ذلك فعلا .

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ، ٢٦٤ (٢) الروضتين ج ١ ق ١ ، ٢٣٠
(٣) صبح الاعشى ١٠ / ٩٧ وانظر ١٠ / ١٤٩ ونهاية الارب ٨ / ٤
(٤) ديوان ابن التعاويذي ٢٤
(٥) الروضتين ٢ / ١٠٢ ، عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقة ١٨٠ مخط
(٦) جواهر السلوك ، ورقة ٦١ ، ابن الفرات مجلد ٨ ص ١١٧ – ١١٨
(٧) الحروب الصليبية وأثرها في الأدب العربي ص ٢٠٥ ، ٢١٦ وانظر صبح الأعشى ج ٨ ص ٢٥٠

وفي كل خطوة نحو الوحدة الاسلامية كان الادباء يحرضون على طرد الفرنج ، يقول العماد في تهنئة أسد الدين شيركوه :

فتحت مصر وارجو أن تصير بها … سهلاً فتح بيت المقدس عن كثب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من … فتح البلاد فبادر نحوها وثب
أنت الذي هو فرد في بسالته … والدين من عزمه في جحفل لجب (١)

ويقول ابن الزكي محرضا صلاح الدين على فتح القدس حين فتح حلب :

وفتحكم حلباً بالسيف في صفر … مبشر بفتوح القدس في رجب (٢)

ونلاحظ ان كل فتح قبل استعادة القدس كان يذكّر الشعراء بفتح القدس ، سواء كان الفتح في صورة توحيد للبلاد الاسلامية ، كما يظهر مما سبق ، أم في صورة استعادة المدن التي وقعت تحت الاحتلال الصليبي ، يقول القيسراني :

فان يك فتح الرها لجة … فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديار … رأن المقيم بها راحل * (٣)

وقد استغل الادباء المناسبات الخاصة والعامة أفضل استغلال ، فنفذوا الى قلوب الحكام ، وحرضوهم على تحرير الارض وتطهيرها من دنس الغزاة ، ومن ذلك قول طلائع بن رزيك في رسائله التي بعثها الى الشاعر أسامه بن منقذ ، ومنها يطلب منه أن يحث نور الدين على قتال الفرنج :

ألق منا رسالة عند نور الد … ين ما في إلقائها ما يريب
قل له دام ملكه وعليه … من لباس الاقبال برد قشيب
أيها العادل الذي هو للد … ين شهاب وللحروب شبيب (٤)
والذي لم يزل قديما عن الا … سلام بالعزم منه تجلى الكروب
وغدا منه للفرنج اذا لا … قوه يوم من الزمان عصيب
إن يوم نزلت حقد هم فلا شك … ن قناه في كل قلب قليب (٥)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ، ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ، ابن الفرات ، تاريخه مجلد ٤ ج ١ ، ٤٥
(٢) الروضتين ٢ / ٤٦ ، وانظر الروضتين ٢ / ١٧٠ ، وديوان عرقلة الكلبي ٣٠ وديوان طلائع ١٢٣
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٧
* لمزيد من الامثلة انظر الروضتين ج ١ ، ٢٤٧ ، ٢٥٧
(٤) ديوان طلائع ٦٤ ـ ٦٥
(٥) ديوان طلائع بن رزيك ٦٤ ـ ٦٥

ومنه قول العماد في تهنئة نور الدين بالعيد وظهور ابنه محرضا اياه على تقليم أظافر الفرنج :

يا أعظم الناس قدرا ... وقل لنظيرك تقدر
ما أعقبت الاوفياء ... وعادة القوم غدر
وفعلك الدهر غزو ... للمشركين وقهر
وفعل غيرك ظلم ... للمسلمين وقسر
يفتر من كل ثغر ... الى ابتسامك ثغر
روم بمصر وفرنج ... في شغلهم لك وتر
حرب عوان وفتح ... على مرادك بكر
بنو الاصيفر من خشية انتقامك صفر
لم يبق للكفر ظفر ... لا كان للكفر ظفر (١)

وقول الحافظ أبي القاسم ابن عساكر حين أعفى نور الدين أهل دمشق من المطالبة بالخشب :

لما سمحت لأهل الشام بالخشب ... عوضت مصر بما فيها من الذهب
وان بذلت لفتح القدس محتسبا ... للأجر ، جوزيت أجرا غير محتسب
والاجر في ذاك عند الله مرتقب ... فيما يثيب عليه خير مرتقب
فالجد والجد مقرونان في قرن ... والحزم في العزم والإدراك بالطلب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد ... أصبحت تملك من مصر الى حلب
فطهر المسجد الأقصى وحوزته ... من النجاسات والأشراك والصلب (٢)

ونلاحظ أن الادباء قد استغلوا المدح الشخصية بالاضافة الى المناسبات للمطالبة بتطهير المقدسات من دنس الغزاة ، كما شخصوا الاماكن المحتلة وأنطقوها وبثوا فيها الحياة في مثل قول أحد الشعراء على لسان المسجد الاقصى :

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكس
جاءت اليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي مدنس (٣)

ومن ذلك قول عمارة اليمني محرضا على فتح القدس :

وهيجت للبيت المقدس لوعة ... يطول بها منه اليك التشوق
وغزوك هذا سلم نحو فتحه ... قريبا والا رائد ومطرق
هو البيت أن تفتحه والله فاعل ... فما بعده باب من الشام مغلق (٤)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٥٧٨
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٠٥
(٣) الانس الجليل ١ / ٣١٨ ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ٢٩
(٤) الروضتين جـ ١ ، ق ٢ ، ٤٦٩

وقول ابن النبيه محرضا الأشرف موسى :

عثا وسور الى رؤياك عاطشة … فانهض فقد أمكنت منهن غلوات

واستخبر الريح عنها اذ تسيره … إليك فهو سلام أو تحيات (١)

وقول الأمير جمال الدين الكناني في حصار دمياط :

والثغر ناظره اليك محدق … ما إن يمل من الدموع هموله

والثغر قعدت عن القيام بنصره … بعقت نضارته وبان ذبوله (٢)

ومن مظاهر التحريض والاستغاثات ، وصف الصراع بين المسلمين والفرنج في جوهره الحقيقي وبيان أن حسمه لا يكون إلا بالقوة ٠

يقول ابن النبيه محرضا السلطان الاشرف موسى على قتال الفرنج حين اتحدوا مع الروم وهاجموا المسلمين في حلب ومصر :

الق العصا تتلقف كلما صنعوا … ولا تخف ما حبال القوم حيات

فأنت بجيشك لا تحفل بكثرتهم … فانهم ابناث الطير أقوات

أنت الشباب فمزق ليل كفرهم … واصبر ورابط فالأعداء نيات

زلزل بغارتك الشعواء دارهم … شديدة النجب النفر الاغارات

بواد رودنوا من مرصد تقهسا … فكيف لو قد أتت منها النهايات

فيا أبا الفتح بالفتح المبين فلهم … تنسب لغير أبيهن الفتوحات (٣)

ويقول ابن دنينير مخاطبا الجند والامراء في حصار دمياط :

فلا تجزعوا من حادث جاء قاصدا … فذا الدين للرحمن في نصره يد

فصنوا لدين الكفر نارات مضمر … لهم في الهدى فرع زكي ومحتد

وشبوا لهم نار الجهاد فانكم … متى تتركوها آن للنار تخمد

فذا الدين ما أرسى قواعد عتمه … لدى الناس الا ذابل ومهند

فحزبكم حزب الإله وأنهم … هم الغالبون الشراة والعود أحمد (٤)

---

(١) ديوان ابن النبيه ٦٧

(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ / ٢٠٦ وأنظر الروضتين ٢ /٨٥ ، ج ١ ق ١ /٢٢٦

(٣) ديوان ابن النبيه ص ٦٦

(٤) ديوان ابن دنينير ورقه ٤

وقد تراوحت دعوات الاستثارة هذه بين الشدة والشعور بالثقة حين يكون المسلمون في مركز القوة • وبين التضجر والتألم حين يكونون في حالة ضعف ، ولكن الادباء حتى في الحالة الاخيرة ، لم تضعف ثقتهم وأيمانهم بان النصر النهائي سيكون للمسلمين ، وبامكاننا ملاحظة نوعي الاستثارة في كثير من الادلة الشعرية السالفة ولا بأس من أن نذكر مثلا واحدا هنا على كل منهما ، يقول ابن دنينير في مدح الملك قلج أرسلان بن الملك المنصور بن شاهنشاه أيوب

فانهض الى نصر دين الله في جذل في جحفل شرق بالخيل ذي زجل
جيش يجيش بأبطال اذا برزوا قال الردى للعدى موتوا على عجل
من كل أغلب في عرنينة شمم يغشى الدسيعة مرد غير متفشل (١)

ويقول جمال الدين الكناني في حصار الفرنج دمياط مخاطبا الكامل :

ولئن قعدت عن القيام بنصرة جفت نضارته وبان ذبوله
ووهت قوى القرآن فيه ورفعت صلبانه وتلي به أنجيله
وعلا صدى الناقوس في أرجائه وخفى على سمع الورى تهليله (٢)

وقد تبين بوضوح مما سبق أن التحريض عند المسلمين أتخذ طابعا مرتبطا بعقيدتهم مثلما كان للتحريض الفرنجي طابع مرتبط بعقيدتهم •

ومن الصور التي قدمها الادب العربي للوجود الفرنجي في المشرق الاسلامي • صورة المدن المدمرة بعد الاحتلال • يقول ذحية بن عبدالله بن نصر في المعرة حين خربها الفرنج :

هذه صاح بلدة قد قضى اللـ ـه عليها كما ترى بالخراب
فقف العيس وأبك من كان بها من شيوخها والشباب
واعتبر إن دخلت يوما اليها فهي كانت منازل الاحباب (٣)

ويؤكد قول ذحية هذا قول أبي بشر بن الحوارى ، وقد وقف على داره بالمعرّة بعد هجوم الفرنج عليها فقال :

أهذه بين أنكاري وعرفاني مسارب الوحش أم داري وأوطاني
جهلتها ولقد أبدت ملامحها عهدَ الصبا بين إخواني وخلاني
فجئت أسألها والدمع منسكب والقلب في لوعة من وجده عان
يا دار مالي أرى الايام قد حكمت فينا وفيك بحكم الجائر الجاني (٤)

ومثله قول أبي سلامة محمود بن علوي :

أنا من بلدة قضى اللـه يا صا ح عليها ، كما ترى بالخراب
قتلوا أهلها وبادوا جميعا من شيوخ وصبية وشباب (٥)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٣ (٢) السلوك جـ ١ ق١ص١٦٢

(٤) الخريدة ، قسم الشام ٢/٨٧ (٥) الخريدة ،قسم الشام ٢/١٠١

ولم تكن المعرة بالطبع البلد الوحيد الذى تعرض لهذا التخريب والإفساد بل إن بلدانا أخرى في الشام قد تعرضت لما تعرضت له المعرة ، يقول العماد في تدمير الفرنج للاذقيـــة " ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت ، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت" (١)

ويقول ابو المعالي بن المهذب في وصف العدو والوباء الذى انتشر في الشام نتيجة التلـــى وانصراف الناس عن شؤونهم الخاصة :

ولقد حللت من الشام بقعـــــــــة — أعذر بساكن ربعها المسكـــــــين
وبُثّت وجاوزها العدو فأهلهـــــا — شهداء بـــين الطعن والطاعـــون (٢)

وكيف بعد ذلك ينصرف الناس الى أعمالهم بطمأنينة ، والفرنج يهددونهم في معيشتهم وممتلكاتهم يقول ابو الحكم الجلياني :

أتانا مصائب الســــف — تديـــداً أو يـــزيد ونــــــا
فبعضهـــمُ من أنذلـــــد — وبعض من فلسطينــــا
ومـــن عكا ومن صــــور — ومن صيــــدا وتبنينــــا
اذا أبصرتهـــم أبصــــر — ت أتوامــــا مجانينـــــا
ولكن حرقوا غيظـــي عــــا — جل الحال البساتينـــا (٣)

وبعد وفاة صلاح الدين عاد النزاع بين الحكام المسلمين من جديد ، وعادت بعض السيطرة للأعداء ، فعاثوا في الديار وخربوا القدس بعد أصلاحها (٤) ، وخربوا بعض المناطق الاخرى القريبة من حصونهم ، إذ قام الاسبناريون من حصن المرقب بإفساد المناطق المجـاورة وتهديد أصحابها ، حتى ضاقت على أهلها فأصبحوا كأنهم يعيشون داخل قبور أو سجـــون ، كما يقول صاحب تشريف الايام والعصور (٥) .

ولو قارنا بين المدن قبل أن دخلها الفرنج وبينها بعد أن خرجوا منها ، لوقفنا على حقيقة أفسادهم ، فهذا الرحالة الفارسي (ناصر خسرو) زار بلاد الشام قبل نصف قرن من الغزو الصليبي ، ووصف عدة مدن زارها ، منها طرابلس ، وقد قال في وصفها " .. وحول المدينة المزارع والبساتين ، وكثير من قصب السكر وأشجار النارنج والترنج ، والموز والليمون .... وشوارعها وأسواقها جميلة ، ونظيفة حتى لتظن كل سوق قصر مزين ، وفي وسط المدينة جامـــع عظيم نظيف جميل النقش حصين ، وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام في وسطه نافورة من النحاس الاصفر" (٦) وقد أحدث الفرنج في هذه المدن تدميرا غيّر معالمها ، كما غيّر معالم غيرها من المدن ، فأصبحت الآثار تنبئ عما كانت عليه من عمران (٧) .

---

(١) الروضتين ١/١٢٨
(٢) الخريدة ، قسم الشام ٢/١٢٦
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ /١٣٩ ، عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقة ١٨٠
(٤) الشذرات ٥/٦٥
(٥) ابن عبد الظاهر ، تشريف الأيام والعصور ٦٧
(٦) سفرنامة ، ترجمة يحيى الخشاب ص ١٣
(٧) أحمد بدوى ، الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ص ٩١ نقلا عن : Barker, The Crusades p. 28.

وقد فرض الفرنج إبان سيطرتهم الخراج على البلدان المجاورة ، فضاقت أحوال الناس حتى أعتبر القاضي الفاضل أن من شهد في هذه الايام فما واسى المؤمنين ، ومن نام ملء عينيه فما هو من أخوة المؤمنين(١) .

ويقول الملك الناصر داود من كتاب الى عز الدين بن عبد السلام حين هاجم الفرنسج مدينة نابلس واستولوا على ما كان مدخرا من الاموال والغلال فيها ، وما جمعه المسلمون لازمنتهم في السنين الطوال " فيا لها من فجيعة أبكت العيون وأبكت الجفون وسجعت على القلوب من أسماعها ، فودت لو أنها سبقت بالمنون ، فيا ليتني نبذت قبل سماعها مكانا قصيا ... أو ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢) " .

وقد ران على المسلمين حزن عميق بعد سقوط القدس ثانية في أيدي الفرنسج ، لأن سقوطه في المرة الاولى كان في وقت عصيب حين كانت الأمة الإسلامية مجزأة ضعيفة ، أما في المرة الثانية فان العالم الاسلامي كان في وضع أفضل ، فكيف تسلم المدينة المقدسة بهذه السهولة ؟ ، ولهذا أمتزجت الدموع بالنقمة على الذين فرطوا في القدس ، يقول قاضي الطور الشيخ مجد الدين :

مررت على القدس الشريف مسلما ... على ما تبقى من ربوع وأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة ... على ما مضى من عصره المتقدم
وقد رام علج أن يعفي رسومه ... وشمر عن كفي لئيم مذمم *
فقلت له شلت يمينك خلها ... لمعتبر او سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته ... بنفسي وهذا الظن في كل مسلم(٣)

ويقول ابن المجاور :

أعيني لاترقي من العبرات ... صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضها ... توقد ما في القلب من جمرات
لتبك على القدس البلاد بأسرها ... وتعلن بالأحزان والترحات
لتبك عليها مكة فهي أختها ... وتشكو الذي لاقت الى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة ... وتشرحه في أكرم الحجرات (٤)

* * * *

هذه صورة عن الصراع الحضاري بين الوافدين من الغرب ، وأهل هذه المنطقة من الشرق الاسلامي .

---

(١) الدر الثمين ، لابن قاضي شهبة ورقه ٦١ مخط وأنظر الروضتين ٢/١٦٦
(٢) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ، ورقة ٩٥ مخط
* المقصود بالعلج الملك المعظم عيسى بن العادل
(٣) الشذرات ٥/ ٦٦ ، ذيل الروضتين ١١٦
(٤) الروضتين ٢/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦

القسم الثالث : الصراع العسكري :

تحت ظل الدويلات الاسلامية بالحروب الصليبية ، فأستيقظت من سباتها العميق علـــى تهاوي المدن الواحدة تلو الأخرى بيد الفرنج ، وقد صور الأدب حزن المسلمين وتفجعهم ... ولكنهم ـ كما قلنا ـ لم ييأسوا وانما تقبلوا التحدي منذ أول لحظة وحرضوا القادة على صد الغزاة وطردهم ، وعلى الرغم من الانتصارات الكبيرة التي أحرزها الصليبيون الا ان الشعراء بينوا ان النصر ممكن اذا اتحدت الأمة ، فهذا ابن الخياط يستهزئ بالفرنج ويجعل أنتصارهم نتيجـــة غفلة من الزمان ويبين أن غضب الدولة أمير دمشق سيوقفهم عند حدهم فيقول :

أغركم أن الزمان أجزكـــــم — طولا بنيلكم الوخيم المرتـــــع
لا تأمنن صريمـــة عضبيـــة — من أن تقيم الحـــق عند المقطـــع
بيتنا لنير رداكـــم لم تمتقـــل — وظبى لنير بواركـــم لم تلمـــع (١)

وقد بقي التحدي قائما بسبب استمرار الغزو الصليبي ، وبقي معه الصراع الحربي مستمرا لـــم يتوقف حتى في وقت الهدن ، لأن الهدنة كانت تعني ترك الحرب مؤقتا مما يتيح المجال أمام الفريقين لان يعملا على تعزيز الجهود للجولات المقبلة ، وقد ظهر هذا التحدي حتى بعـــد المعارك التي هزم فيها المسلمون ، كما ظهر بطبيعة الحال بعد المعارك التي هزم فيهـــا الفرنج ، وقد أتاح هذا الصراع الطويل للشعراء أن يعطوا صورة واضحة عن التجهيـــزات العسكرية عند الفرنج ، وهي صورة تناولت الجيش وأسلحته وقادته وحصونه وتخطيطه ومعاركه ، وعقد مقارنة بينه وبين الجيش الاسلامي ، وسنتابع فيما يلي أجزاء هذه الصورة كما رسمها الادباء

أولا : الجيش الصليبـــي :

كان هدف الفرنج احتلال أراض واسعة في بلاد الشام منها القدس ، ولذلك تحركـــت الجيوش الهائلة لتغطي عملية المد الواسعة ، كما تغطي عملية الانتشار في الاراضي المحتلـــة ، وقد شاركت فيها دول أوروبا وأهمها فرنسا وألمانيا وانجلترا كما شارك فيها الرجال والنساء حتى الاطفال (١) ، يقول ابن عنين :

فكـــم أمرد خط الحســـام عـــــذاره — وكم أشيب كان النجيع خضابـــــه (٢)

وبعد أن استقرت لهم الامور في مملكة بيت المقدس ، وجه الفرنج أنظارهم الى البلاد المجـــاورة مما دعاهم الى طلب المزيد من النجدات وأنشاء فرق دينية عسكرية كان لها أثر فعال في الحروب الصليبية وأشهرها كما أسلفنا ، الاستبارية Hospitalers وهم فرسان المستشفـــى ، والداوية Templars فرسان المعبد *

(١) ديوان ابن الخياط ص ٢١٨
(١) النوادر ١٠٨ ، الفتح القسي ٣٠٦ ، الحركة الصليبية ١/ ٤٥٦
(٢) أحمد بدوي ، طامون بني أيوب المعظم عيسى ص ٧٦
* أنظر رفيق التميمي ، الحروب الصليبية ٧٨ ، عارف العارف ، تاريخ القدس ص ٧٥

وقد قام فرسان المعبد بأعمال كثيرة أقضت مضاجع المسلمين، حتى أصبح الظفر بهم من الأعمال العظيمة التي يفتخر بها ، وقد كان لاعتداءاتها على المسلمين أثر في أثارة حفيظة السلطان الرحيم صلاح الدين إذ جعل جائزة قيمة لكل من يسلمه فارسا من هؤلاء ليقتله من أنه تحفظ كثيرا في قتل الاسرى ، ولذلك علل سلوكه هذا بقوله على لسان ابن شداد "... لما جرت عادتهما بالمفادات ولا يقلعان عن المعاداة ، ولا يخدمان في الأسر ، وهما أنجب أهل الكفر "(١).

وقد كثرت الفرق المحاربة بسبب طول فترة الحروب وبسبب كثرة المشتركين فيها ، ومنها فرق البيازنة والجنوية وفرق أخرى ألمانية وفرنسية ، والفرقتان الاوليان فرقتان تجاريتان أتخذتا المظهر الحربي لحماية القوافل ، ثم ما لبثتا أن اشتركتا مع الفرنج في قتالهم من المسلمين ، يقول العماد في وصف سفن صلاح الدين التي هاجمت صور : " فأنشقت مرائر الفرنج ، وأزاحت سفنها عن النهج ، وقرنصت بزاة البيزانية ، وتقلصت جفاة الجنوية ، وكرثت أدواء الداوية ، وكثرت أسواء الاستبارية ، وزادت آلام الالمانية ، وعادت أسقام الافرنسيسية ..." (٢)

وقد أنضاف اليهم عدد آخر في حصار عكا سنة ٥٨٧ هـ حيث جاءت الامدادات الكثيرة من أوروبا " في كل ذئب أمعط ، وسيد قد تورط ... وبارونى طالب للبوار ، وأستبارى راغب في التبار وداوى معضل الداء ، وتركبولي غير تارك للبلاء ، وسرجندي كرار ، وفريري غير فرار ، وفارس يفرس الرجال ، وراجل يرجل الفرسان الابطال ..." (٣) ، ولكن كثرة هذه الفرق وتوقعهما على نفسها ، وخروجها عن العهود المعقودة مع المسلمين ، جعلها وبالا على الفرنج أنفسهم بعد أن كانت جمرة لهم ، ولم يفت مؤرخي هذا العصر ذلك ، فهذا ابن عبد الظاهر يصف الاستبارية وأعمالهم التخريبية من حصن المرقب فيقول : " وكان بيت الاستبار الذين فيه قد زاد بغيهم وعدوانهم وكثر فسادهم ، حتى بقيت أهل القلاع المجاورة لهم كأنهم في حبس بل في رمس " (٤) ، ولم يعد بوسع المسلمين السكوت عن هذا التعدى ، لا سيما أن المماليك تمدد سيطروا على المراكز المهمة للفرنج ، فقام المنصور قلاوون بتحطيم هذه الحصون وقاتلهم لنكثهم وأعتدائهم ثم تلاه ابنه في طردهم نهائيا من بلاد الشام (٥) .

هذا وقد دخلت المرأة الفرنجية المعركة ، فشجعت المقاتلين ، وقاتلت معهم ، وقد لاحظ الادباء ثلاثة أنواع من النساء هي : المرأة الحاكمة ، والمرأة المقاتلة ، والعجائز ، وقد قام كل نوع منهن بدور في الحرب .

أما المرأة الحاكمة فقد أصطحبت معها الفرسان وأمدتهم بالسلاح والمال ، وقاتلت معهم في الميدان ، يقول العماد الاصفهاني : " ووصلت في البحر أمرأة كبيرة القدر ، وافرة الوفر وهي في بلدها مالكة الامر ، وفي جملتها خمسمائة فارس بخيولهم وأتباعهم وغلمانهم وأشياعهم وهي كافلة بكل ما يحتاجون اليه من المؤونة ، زائدة بما تنفقه فيهم على المعونة وهم يركبون بركباتها ويحملون بحملاتها ، ويثبون اوثباتها وتثبت ثباتها لثباتهم ... (٦)

---

(١) الروضتين ٢/ ٧٦ (٢) الفتح القسي ١٦١
(٣) الفتح القسي ٤٠٣ (٤) تشريف الايام والعصور ٧٧
(٥) أنظر القديس لويس ، ترجمة حسن حبشي ٢١٦ ـ ٢٢٧
(٦) الفتح القسي ٣٤٩ ، وأنظر الروضتين ٢/ ١٦٦ ، ١/ ١٨٣

وأما المرأة المادية المقاتلة فقد لفتت أنظار المسلمين بشجاعتها وقوة بأسها ، وكأنها ربة في هيئتها ولباسها ، يقول العماد في وصف هذا النوع " وفي الفرنج نساء فوارس، لهن دروع وتوانس ، ولكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات حجال ... " (١) ، ويصف مجموعة أخرى منهن تمكن المسلمون من تملكهن في حصار عكا فيقول : وفي يوم الوقعة قلعت منهن نسوة لهن بالفرسان أسوة ، وفيهن من لينهن قسوة ، وليس لهن سوى السوابغ كسوة "(٢)، ويقدم العماد وصفا آخر لهيئة المرأة المقاتلة وهي صورة لا تختلف عن صورة المقاتل الفرنجي يقول : وذوات القتال من الفرنج مقنعات مدارعات يحملن الى الطعان الطوارق والقنطاريات " (٣)،

ويوضح ابن شداد هذه الصورة فيقول : " ورؤيت امرأة عليها ملوطة خضراء ، فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ثم قتلت وحملت الى السلطان فعجب من ذلك(٤)، ويؤكد ابن الاثير ما ورد عند العماد وابن شداد فيقول : فانهم(الفرنج) كان معهم على عكا عدة من النساء يبارزن الأقران "(٥)، أما العجائز فقد كن يدور يناسب وضعهن ، فهن لا يقوين على القتال الا اذا استدعى الأمر ذلك ، وغالبا ما كن يحرضن الفرسان على القتال ، يقول العماد : وأما العجائز فقد امتلأت بهن المراكز ، وهن يشددن تارة ويرخين ويحرضن وينخين ...(٦).

تلك هي أهم الجماعات الصليبية التي تحدث عنها الادباء وكان الغرض منها أظهار اندفاع جميع قطاعات المجتمع الفرنجي للمشاركة في الحروب ، وفيما يلي صور قدمها الأدب العربي عن الجيش الصليبي :

أ . وصف الامدادات الكبيرة :

قاد بطرس الناسك أعدادا ضخمة من المتحمسين في أول عملية للاستيلاء على بلاد الشام ، ولكن السلاجقة حطموا حملته وأفشلوا مخططاتها ، ولم تكد فلول العائدين تصل الى القسطنطينية ، حتى التقت بحملة الامراء التي تميزت بالنظام ، فانضم هؤلاء الفارون الى الحملة الجديدة ، وساروا جميعا الى بلاد الشام ليؤسسوا مملكة بيت المقدس ، وقد تهيأ لهم ذلك كما تهيأ لهم تأسيس امارات أخرى .

وما أن نجح الفرنج في تأسيس هذه الامارات حتى عاد بعض الحجاج مشوبين أهلهم وقومهم بالفتوح العظيمة التي حققتها الجيوش الفرنجية ، فتوالت الامدادات بدافع المشاركة في الغنائم والمشاركة في اعلاء راية الصليب على البلاد المقدسة ، على أن ما يلفت النظر في أمر هذه الامدادات ارتباطها بأوضاع الصليبيين ، فاذا ما تعرض هؤلاء لضغط قوي من المسلمين فان الامدادات كانت تتوافد عليهم من كل جانب .

---

(١) الفتح القسي ٣٤٩ (٢) الفتح القسي ٣٤٩ وأنظر الروضتين ٢ / ١٦٦
(٣) الروضتين ٢ / ١٦٦ (٤) الروضتين ٢ / ١٨٦ (٥) الكامل ١٢ / ٣٥
(٦) الفتح القسي ٣٤٩ ، وأنظر الفتح القسي ص ٣٢٩ ، ٤٠٦ ، والأنس الجليل ص ٣٦٢ والروضتين ٢ / ١٥٨

أما وصف الادباء لهذه الامدادات فيظهر جليا في عدد من الاحداث التاريخية الهامة : ففي سنة ٥٦٩ هـ أجتمع عدد من دعاة الدولة الفاطمية وكاتبوا الفرنج بالقدوم للقضاء على صلاح الدين ، فجاءوا بأسطول يحمل المدد العظيم للمتآمرين ، فـ "كانت خيلهم ألفا وخمسمائة رأس وكانت عدتهم ألف مقاتل ما بين فارس وراجل ، وكان عدد الطرايد * ستا وثلاثين طريدة تحمل الخيل ، وكان معهم مائتا شيني * وفي كل شيني مائة وخمسون راجلا ، وكان عدة السفن التي تحمل آلات الحرب والحصار من الاخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكان عدة المراكب برسم حمل الازواد والرجال أربعين مركبا ، وفيها من الرجال المتفرقة وغلمان الخيالة وصناع المراكب وأبراج الزحف ودباباته ما يتم خمسين ألف راجل ..." (١) ، وقد توقع المسلمون حين هزموا الفرنج في صقلية قدوم الامدادات الكثيرة ، فهذا القاضي الفاضل يخبر سيف الاسلام أخا صلاح الدين في اليمن بالفتوحات وتوقعها عند صور فيقول : ولهمهم في هذا الجانب الا صور ولولا أن البحر ينجدها والمراكب ترددها لكان قيادها قد أمكن وجماحها قد أذعن ... ثم يقول : " وأنهم - لعنهم الله - أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى ... وقد كتب المستخدمون بالاسكندرية وصاحب قسطنطينية والثغور المغربية ينذرون بأن العدو قد أجمع أمرا وحاول نذرا ... " (٢) ، وقد صدقت توقعات قادة المسلمين ، فقد جاءت أمم لا تحصى من كل حدب وصوب :

فكم مليك لهم شق البحار سرى ... ليمنع القبر والأقدار تخذله
وكم ترحل منهم فيلق بمنى ... الى الصوامع القاه ترحله
أستصرخوا الأهل والعدوى تمزقهم ... واستكثروا المال والهيجا تقلله
كم قد أمدوا ، وكم قد فل جمعهم ... من غير ضرب ولا طعن يزلزله
وانما أسم صلاح الدين يذكر في ... جيش العدو فيسبيهم تخيله (٣)

ومن ذلك فقد تدفقوا الى عكا بأعداد وصفها العماد الاصفهاني والقاضي الفاضل أبلغ وصف ، يقول العماد في وصف تدفقهم على عكا بالرغم عن خسائرهم : " فما أثر ذلك في نقصهم، ولا أرث إلا نار حرصهم ، وليس هذا العدو بواحد فينجح فيه التدبير ويأتي عليه التدمير ، وانما هو كل من وراء البحر وجميع من ديار الكفر ... " (٤) ، ويقول القاضي الفاضل مصورا وصف تكالبهم على عكا : " ومن خبر الكفار أنهم الى الآن على عكا ، يمدهم البحر بمراكب أكثر عدة من أمواجه ، ويخرج للمسلمين منهم أمر من أجاجه ، وقد تعاضدت ملوك الكفر على أن ينهضوا اليهم من كل فرقة طائفة ، ويقلدوا لهم من كل قرن يعجز بالكرتواصفه ، فاذا قتل المسلمون واحدا في البر بعث البحر عوضه ألفا ، واذا ذهب بالقتل صنف منهم أخلف بدله صنفا ، فالزرع أكثر من الجراد ، والثمرة أنمى من الحصاد ..." (٥) .

---

* الطريدة هي سفينة برسم حمل الخيل * الشيني : السفينة الحربية الكبيرة

(١) طرق الحروب ١٢/١ (٢) صبح الأعشى ٢٥/٧ ، الروضتين ٢ / ١٣٦
(٣) الروضتين ٢ / ١٥١ (٤) الروضتين ٢ / ١٤٩
(٥) صبح الأعشى ٢ / ١٢٧ ــ ١٢٨

ثم يقول في وصف الاجناس المختلفة التي أجتمعت في جيشهم "وأجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغريبة والالسنة الاعجمية من لا يحصر معدوده ولا يصور في الدنيا وجوده فما أحقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمـــة فما يفهم الحداث الا التراجم

حتى انه اذا أسر الاسير واستأمن المستأمن أحتيج في فهم لغته الى عدة تراجم ينقل أحد عن آخر ويقول ثان ما يقول أول وثالث ما يقول ثان ... (١) وفي وصف الامدادات البحرية يقول القاضي : " فلم يبق طاغية من طواغيتهم ولا أثفية من أثافيهم الا الجم وأسرج وأجلب وأرهج وخرج وأشرج وجاد بنفسه أو بولده ومدده ومدده وبذات صدره وبذات يده ومكاتبه برا ومراكبه بحرا ... كل خرج متطوعا وأهطع مسرعا وأتى متبرعا ودعا نفسه قبل أن يستدعى وسعى الى حتفها قبل أن تستسعى حتى ظننا أن في البحر طريقا يبسا وحتى تيقنا أن البحر قد غلا وعسا ... " (٢) ويقول : فابرى ملكا افرنسيس وانجليتره وملوك آخرون في مراكب بحرية وحمالة حملوا فيها الخيول والخيالة والمقاتلة والالة ووصلت كل سفينة تحمل كل مدينة ... " (٣) هذه أمثلة قليلة من شواهد كثيرة* نلحظ من خلالها اعجاب الادباء بحماس الفرنج وجلدهم رغم باطلهم ومن هنا اتخذوا مواقفهم هذه أداة تحريض للمسلمين : القادة منهم والرعية يقول العماد : "فأين حمية المسلمين ونخوة أهل الدين وغيرة أهل اليقين ؟ وما ينقضي عجبنا من تضافر المشرك على شركه وتظاهره في اتساع ملكه واتساق سلكه وقعود المسلمين عن المسلمين وتقاعدهم وتمتضلهم في تعاضدهم وأنحلال عقود تعاقدهم فلا ملبي فيهم لمناد ولا مثقف لمناد ولا موري ملهم في اجابة داع لزناد فانظروا الى الفرنج أى مورد وردوا وأى حشد حشدوا وأية ضالة نشدوا وأية جدة أنجدوا وأية أموال هزموها وأنفقوها وجدات جمعوها وتوزعوها فيما بينهم وفرقوها ... " (٤) ولا يتبادر الى الذهن ان هذه دعوات يائسة وتسليم بالواقع وانما هو نوع من الاثارة فعبارات العماد تعني أن الفرنج مجتمعون بالرغم عن كونهم على باطل وأن المسلمين متفرقون بالرغم عن كونهم أصحاب حق وكان الاجدر بهم أن يجتمعوا وهذا ما ذكره القاضي الفاضل بعد كسرة المسلمين في عكا : يقول : "وما وهنا لما أصابنا في سبيل الله وما ضعفنا ولا رجعنا وراءنا ولا انصرفنا بل نحن بمكاننا ننتظر أن يبرزوا فنبارزهم ويخرجون فنناجزهم ... " (٥) .

---

(١) الروضتين ٢ / ١٨٥ وانظر النوادر السلطانية ١٢٦

(٢) صبح الاعشى ٦ / ٥٢٨ (٣) الروضتين ٢ / ١٨٨ ـ ١٨٩

* للمزيد من الامثلة أنظر : الفتح القسي ٩٨ ، ٢٠٧ ، ٢٧٨ ، ٣٦٤ ، ٥٩٣ ، صبح الاعشى ٧ / ٣٦٨ ، ١٣ / ٨٨ ، ١٤ / ٦٠ ، النوادر السلطانية ١١٤ ، ١١٨ ، الانس الجليل ١ / ٣٥٩ ، الروضتين ١ / ٢٣٤ ، ٢ / ١١٧ ، ١٤٣ ، ١٤٧ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، مفرج الكروب ٢ / ٢٨٨ ، ٣ / ٢٤٥ ، زبدة الحلب ٣ / ١١٣ ، ١٣٠ ، الكامل ١٠ / ٧٩ ، ١٢ / ٧ ، ٥٢ ، ابن القلانسي ذيل تاريخ دمشق ١٧١ ، الاعتبار ٣٣ ، ابن الفرات ٤ / ٨٣ ، النويري الالمام بالاعلام ١٦٣ ، موزون تاريخ الحروب المقدسة ٦٧ ، مذكرات جوانفيل ٨٣ ، ١٤٢

(٤) الفتح القسي ٣١٦ (٥) الروضتين ١ / ١٨٩

ب. وصف المتعاونين من العدو :

من الطبيعي أن يفكر الفرنج في طريقة تضمن بقاءهم في منطقة غريبة عنهم ، فاستغلوا الظروف السائدة في الدويلات الإسلامية وتحالفوا مع بعض قادتها ، ومنهم أتابك دمشق معين الدين أنر ووزير مصر شاور السعدي ، يضاف اليها بعض القبائل البدوية التي كانت تعيش في منطقة الحدود ، كما أنهم اعتمدوا على الأرمن والتتار والروم من سكان المنطقة .

ومن الغريب أنّ أحد الشعراء وقف موقف المادح لهؤلاء الغزاة وأتباعهم ، بالرغم عن كل الافعال الوحشية التي ارتكبوها ، فقد قال هذا الشاعر في مدح القائد الصليبي حين كسر الافضل بن بدر الجمالي : نصرت بسيفك دين المسيح فلله درك من صنجيل
وما سمع الناس فيما روي بأقبح من كسرة الأفضل (١)

ويأتي المرقلة الكلبي بعده بخمسة عقود تقريبا فيمدح الفرنج حين استعان بهم الامير معين الدين أنر ضد صلاح الدين الياغيسياني صاحب حماة بقوله :

غدا تطلع الشام الفرنج بخيلها مسوّدة أبطاله المصائب
رجال اذا قام الصليب تصابت رماحهم في كل طاغ وراكب
لها الليل نقع والأسنة أنجم فما غير أبطال وغير جنائب (٢)

وفي مصر مدح عمارة اليمني شاور ويذكر الفرنج حين اتحدوا مع جيشه ضد أسد الدين شيركوه ، فيقول :

تولوا عن الافرنج فادح ثقلها ودارت رحاها منهم بهضاب
أقامت دروع الجند تحمين ليلة ثيابا لهم ما بدّلت بثياب (٣)

على أنه لم يمدح الفرنج الا قبل وحدة مصر مع الشام تحت حكم نور الدين ، هذا وقد لقي الشاعر الذي شمت بهزيمة الافضل جزاءه المحقّ إذ توصل الافضل الى قتله ، وأما المرقلة فقد مدح أمير دمشق المتخاذل في زمن كانت الأمّة فيه مفككة ، ولكن ما لبث ان عاد الى الصف حين توحدت الامة ويشهد على ذلك مواقفه الكثيرة التي يشيد فيها بأعمال القادة المسلمين وجهادهم ضد الفرنج (٤) وأما عمارة اليمني فانه لم يمدح الفرنج في شعره بل وجه مدحه للجيش الفاطمي وعرج على تعاون الفرنج مع الفاطميين (٥)، وقد عقد الشعراء مقارنة بين الحكام المخلصين الذين يتصدون للغزاة واولئك الذين انصرفوا الى اللهو ، يقول المهذب بن اسعد الموصلي في مدح صلاح الدين وقد ضم حلب سنة ٥٧٦ :

ملوك جلهم مغرىً بظلم ومشغول بلهو أو مزاج
اذا ما جالت الابطال ولى ويقدم نحو جائلة الوشاح (٦)

---

(١) الانس الجليل ١ / ٣٠٨ (٢) ديوان عرقلة الكلبي ص ٥ ، الروضتين ١ / ٩٥
(٣) الروضتين ١ / ١٣٢ ط دار الجيل (٤) أنظر ديوان المرقلة ص ٢٦ ، ص ٣٠
(٥) الروضتين ١ / ١٣٢ (٦) مضمار الحقائق ٤٧

ويقول ابن سناء الملك في هذا المعنى :

مالك لم يدبرها مدبرهـــا — الا برأي خصي أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت — من الفساد كما صحت من الوصب (١)

ويقول العماد مادحا صلاح الدين يوم حطين :

قرع النبي بالظبى في الحروب يطربه — لا قينة صنجها باللحن مطربه (٢)

وقد مدح بهاء الدين اسعد بن يحي البخاري صاحب حماة بهذا المعنى فقال : *

جاهدت في الله طوعا والملوك غدوا — يستهترون بذات الحلي والحلل (٣)

هذا وقد تعاون الفرنج مع بعض الاشخاص الاعراب الذين اتخذوهم أدوات يستخدمونها للقيام بأعمال النهب والتخريب ، ومن ذلك مساعدتهم لعمارة اليمني حين حاول اعادة الحكم الفاطمي في مصر ، يقول القاضي الفاضل في وصف جماعة عمارة : " ... وكان أكثر ما يتصلون به ويستريحون اليه المكاتبات المتواترة ، والدراسات المتقاطرة الى الفرنج – خذلهم الله – التي يوسعون لهم فيها سبل المطامع ويحملونهم فيها على العظائم والفظائع ، ويزينون لهم الاقدام والقدوم ، ويخلعون فيها ربقة الاسلام خلع المرتد المخصوم ، ويد الفرنج بحمد الله قصيرة عن اجابتهم ، الا انهم لا يقطعون حبل طمعهم على عادتهم ..." (٤) ، وقد لقي عمارة جزاءه وفي ذلك يقول تاج الدين الكندي :

عمارة في الاسلام أبدى جناية — وبايع فيها بيعة وصليبا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد — فأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى ان عجمته — تجد منه عودا في النفاق صليبا
سيلقى غدا ما كان يسعى لاجله — ويسقى صديداً في لظى وصليبا (٥)

وقد استمال الفرنج بدو الاتراك لأهمية المنطقة التي يعيشون فيها اذ تقع في طريق المواصلات بين مصر والشام ، وكذلك بين الديار المقدسة والشام ومصر ، ولذا فقد طالب القاضي الفاضل صلاح الدين بترحيلهم ، وجعل ذلك من وسائل قص اجنحة الأعداء فيقول : " علم المملوك بما يؤثره المولى بان يقصد الكفار بما يقص أجنحتهم ويفلل أسلحتهم ويقطع موادهم ويخرب بلادهم ، وأكبر الاسباب المبنية على ما يرومه من هذه المصلحة أن لا يبقى في بلادهم احدا من العربان .. وأن ينقلوا من ذل الكفر الى عز الايمان ، وما أجتهد فيه غاية لاجتهاده وعده

---

(١) الروضتين ١ / ٤٤ — (٢) الروضتين ٢ / ١٠٢
(٣) مفرج الكروب ٣ / ١٤٤
* للمزيد من الامثلة أنظر : ديوان أسامة بن منقذ (١٠ ، ومفرج الكروب ٤ / ٣٠٢ ، الروضتين ٢ / ٤٤ ، ١٠٢ ، ١٠٥ ، عقد الجمان ج ١٨ ق ١ ورقه ١١٦ ، ديوان ابن عنين ص ٣٣
(٤) الروضتين ١ / ٢٠٢ – ٢٢١ — (٥) الروضتين ١ / ٢٢١

من أعظم أسباب الجهاد ترحيل كثير من أنفارهم ، والحرص في تبديل دارهم ، الى أن صار العدو اليوم اذا نهض لا يجد بين يديه دليلا ولا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلا ...(١)

هذا فيما يتعلق بتعاون الفرنج مع المنحرفين من المسلمين ، أما تعاونهم مع سكان المنطقة من غير العرب ، فقد أشرأبت نفوسهم للتعامل أولا مع الأرمن ، ثم فيما بعد مع التتار حين غزا هؤلاء بلاد المسلمين ، وقد كاد الفرنج يوقعون المسلمين بين فكي (كماشة) بأتحادهم مع التتار ، ولكن الوقفة الشجاعة التي وقفها قطز هدمت هذه الامال ، وقربت نهاية الطرفين ،

ومن الادلة على تعاون الارمن مع الفرنج ضد المسلمين ، ما أورده العماد بشأن ملك الالمان الذي جاء بجيش عرمرم لانقاذ القدس وغيرها ، فما كان من الارمن الا أن أتصلوا بصلاح الدين يخبرونه بالجيش الجرار ، وكان قصدهم من ذلك اثارة الفزع في نفوس المسلمين ، يقول العماد : " ولا شك أنه الى جنسه النجس مائل وبملاءة أهل ملته قائل ..."(٢) وهذا ما جعل الشاعر الجمال الواسطي بن الخطاب المقرى يهاجم في شعره ملك الارمن " ابن لاون " وذلك اذ يقول :

أزرت ابـــــن لاون لاواءه فأضحى به خبرا من عيــــان
ودان من الــذل لا يرعــوى حذارا من الراعفات الدان
فلا قدم عنده للثبـــــــا ت وليس له بسطاكم يــــدان(٣)

وقد تعاون التتار مع الارمن لنصرة الفرنج في النصف الثاني من القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، وأجتمعت قوات هذه الاحلاف بأعداد هائلة وهاجموا حمص ، ويصف ابن عبد الظاهر تعاون تلك الاحلاف فيقول عن ملك الارمن أنه " كان يحمي سرحهم ويمرد صرخهم ، ويستنطق هتف التتار ويسترجع مدحهم ، وتمتز طرابلس الشام بأنه خال ابرنسها الثائر ، ولسان مشورته السفير ، ووجه تدبيره السافر ، وطالما غر وأغرى ، وجر وأجرى ، وضر وأضرى ..." (٤)

وقد عبر عن ذلك شعرا بقوله :

وأستجمع المغل والتكفور وأتفقوا مع الفرنج ، ومن أردى به الكفر
جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم لأرض حمص فكان البحث والنشر(٥)

ولكن أتحاد مصر والشام ثانية زمن المماليك مكن المنصور قلاوون من ايقاع الهزيمة بهم ، فكانت بداية لطردهم من الشام كما يقول أحد شعراء دمشق ،

هلك الكفر في الشام جميعـــا وأستجد الاسلام بعد دحوضه
بالمليك المظفر الملـــك الار وع سيف الاسلام عند نهوضه (٦)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٢٦ ــ ٥٢٧ (٢) الروضتين ٢ / ١٥٠
(٣) الروضتين ٢ / ١٦
(٤) نهاية الارب جـ٥ / ١٥٧ ، وللمزيد من الامثلة أنظر الروضتين ١ ق ٢ ، ٦٢١ وأحمد بدوي في صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه ص ١٥
(٥) عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ورقه ٦٧٨ مخط ، وانظر عقد الجمان ٢٠ / ٣ ورقه ٤٨٥ ، ٤٩٢ والقديس لويس ص ١١٢
(٦) الروضتين ١ / ١ / ١٢٩

جـ. وصف قوتهـــــم :

أبرز الادباء تكالب الفرنج على احتلال الشام واعادة الوسائل لذلك ، ومن هذه الوسائل ضخامة الجيوش ، اذ لم يدخلوا معركة كبيرة في عدد يسير قط منذ ان دخلوا بلاد المشـــرق الاسلامي ، يقول ابن الخياط ، وقد عاصر الاحداث الاولى للحروب الصليبية :

إلام وقد زخر المشركـــــون ... بسيل يهال لها السيل حـــــدّا
وقد جاش من أرض افرنجـــــة ... جيوش كمثل جبال تـــــردّى (١)

وحين هاجموا دمشق زمن مجير الدين ابق كانت الخيل مثل السيل كما يصفها العرقلة الكلبي :

من قاتل الافرنج دينا غـــــيره ... والخيل مثل السيل عند المشهـــــر (٢)

ويقول أبو الحكم الاندلسي في ذلك :

أتانا مائتـــــا ألـــــف ... عديـــــدا او يزيدونـــــا
فبعضهمُ من أندلـــــس ... وبعض من فلسطينـــــا (٣)

وحين حاصروا دمياط سنة ٥٦٥ جاءوا بألوف مؤلفة لم يعرف للبحر ساحل لكثرتها ، ويقـــول فتيان الشاغوري في ذلك :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميـــــا ... وليس له من كثرة القوم ساحـــــل
يزيد عن الإحصاء والعد جمعهـــم ... ألوف ألوف خيلهم والرواجـــــل
رأوا دونها أسدا بأيديهم القنـــــا ... وبيضا رقاقا أحكمتها الصياقـــــل (٤)

وفي وقعة حطين الفاصلة ، زمن صلاح الدين يقول العماد : " وخرجوا عن العدد والاحصاء وكانوا عدد الرمل والحصا ، وصاروا في زهاء خمسين ألفا أو يزيدون ، ويكيدون وما يكيدون ، قد توافوا على صعيد ووافوا من قريب وبعيد ، وهم هناك مقيمون ، لا يريمون ..." (٥)

وفيهم يقول ابن سناء الملك :

جمعوا كيدهمْ وجاءوك أركـــــا ... نا فمن قدّ فارسا شدّ ركنـــــا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنـــــ ... ـك لاقيتهم بلادا ومدنـــــا
كل من يجعل الحديد له ثوبـــــا ... وتاجــــا وطيلسانا وردنـــــا (٦)

---

(١) ديوان ابن الخياط ١٨٤
(٢) الروضتين ١/١/١٣٦ عقد الجمان ١٢ ق ١ ورقة ١٨١
(٣) الروضتين ١/١/١٣٩
(٤) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٨
(٥) الروضتين ٢/٧٦
(٦) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤

وحين فتح صلاح الدين القدس بعد ذلك " رأى بلداً كبلاد وجمعاً كيوم التناد ، وعزائم تد تألفت وتألبت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليها مورد السيف وأن تموت بمنصته ... " (١) وفي حصار عكا سنة ٥٨٦ هـ جاءت الجيوش الفرنجية من كل صوب " فدبوا بواغي راجل كرجل الدبا وخيل أغثت الوهاد والربى ... " (٢) ويقول القاضي في وصفهم : " فإنهم ـ خذلهم الله ـ أمم لا تحصى وجيوش لا تستقصى ، وراءهم من ملوك البحر من يأخذ كل سفينة غصباً ، ويطمع في كل مدينة كسبا ... " (٣) ، وحين هاجموا دمياط زمن الملك الكامل بن العادل جاءوا بأعداد لا تقل عن الاعداد التي جاءوا بها في المرة الاولى ، يقول قاضي غزة هبة الله بن محاسن في ذلك :

ولما طغى البحر الخضم بأهله الطـ ـغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه صقيلاً كما سل الحسام مجردا (٤)

ويقول ابن دنينير في ذلك :

إلا م التمادي والفرنج بجمعهم على جيد دمياط كما انتظم العقد (٥)

ويقول ابن عنين في وصف الجموع الفرنجية :

قد اتفقوا رأياً وعزماً وهمة ودينا وإن كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذي كل مفاضة دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنا (٦)

وحين هاجموا مصر في المرة الثالثة سنة ٦٤٧ زمن الملك الصالح نجم الدين أيوب وابنه المعظم توران شاه كانوا في عدد عظيم ، يئس معه أهلها وظنوا أنهم قد أحيط بهم ، ولكن توران شاه استغل فيضان النيل وهاجمهم هجوماً شل قدرتهم وأوقف تقدمهم ، بل جعلهم يتراجعون ثم يستسلمون ، تقول رسالة صدرت عن المعظم توران شاه الى نائبه في دمشق : " فإن كان قد استفل أمره (أمر لويس التاسع) واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والأهل والاولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله ... " (٧) ، وفي معركة حمص زمن المنصور قلاوون اتحد الفرنج والارمن والتتار فكونوا جيشاً جراراً يذكر عدده ابن عبد الظاهر فيقول :

جاءت ثمانون ألفاً من بعوثهم لأرضنا فكان البحث والنشر (٨)

---

(١) صبح الأعشى ٦ / ٥٠١
(٢) الروضتين ٢ / ١٦١
(٣) صبح الأعشى ٧ / ٢٤
(٤) المقريزي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ١ / ٢٠٩
(٥) ديوان ابن دنينير ورقة ٤
(٦) ديوان ابن عنين ص ٣٠
(٧) نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١٠١ مخطوط
(٨) عقد الجمان جـ ٢٠ ق ٤ ورقة ٦٧٨

واخيرا في معركة عكا سنة ٦٩٠ تجمع الفرنج من جميع المناطق ودافعوا الملك الاشرف عنها ولولا تحفه لها وحصاره المستمر لما أستطاع استعادتها (١) .

هذه أمثلة سريعة * تلمح من خلالها بيان الادب لاستعدادهم وتشددهم واحتمالهم المشقات من أجل الوصول الى الهدف ، واذا كان أدباء الحرب قد نوهوا بصبر الفرنج وشجاعتهم ** فانما أرادوا بذلك استنهاض همم المسلمين ، وكان الادباء أرادوا المقارنة بين موقف الصليبيين الذي يثير الاعجاب وموقف المسلمين الذين لم يتذرعوا بقوتهم كلها في الميدان ، وليستنفذوا الطاقة في دفع العدو عن بلادهم ، على أن لتعظيم العدو شر لا يخلو من هدف آخر وهو تعظيم نصر المسلمين ، فكلما كان العدو قويا .. كانت قيمة النصر أعظم ، وهذا مما أشار اليه الشاعر عمارة اليمني حين خاطب شاور السعدي بقوله :

وما قصدت بتعظيمي عداك سوى   تعظيم شأنك ، فاعذرني ولا تلم (٢)

صورة الجيش الصليبي وحركته :

استرعى الجيش الصليبي المنظم أنظار الادباء ، فوصفوه كلا متكاملا في حالة الثبات والحركة والهجوم ، وهو في هذه الحالات كلها لا يخرج بعضه عن بعض ولا يتأخر فريق عن فريق ، وبذلك يحمون أنفسهم من أي هجوم اسلامي على جزء منفصل منه .

---

(١) أنظر جواهر السلوك ورقة ٤٠ وما بعدها

* لمزيد من الأمثلة أنظر : الروضتين ١ / ١ / ٥٣ ، ٢ / ١١٧ ـ ١١٨ ، ديوان أسامة بن منقذ ٢٠١ ديوان البهاء زهير ١٢٣ ، عقد الجمان ج١٢ ق ٣ ورقة ٤٦ ، ٤٥٧ ، ج١٧ ق ١ ورقة ١٨٠ ، الباهر ٣٣ ، ٥٦ ، الفتح القسي ٢٩٦ ، ٣٢٧ ، ٣٩٠ ، ٤٣٩ ، ٥١١ ـ ٥٢٢ ، ٥٧٨ ، الكامل ١١ / ٥٩ ، ٤٥٦ ، ١٢ / ٢٩ ، مفرج الكروب ٢ / ١٤٨ ، ٣٠٠ ، ٣ / ١٤٥

** أنظر الروضتين ١ / ١ / ٣٩ ، ٢ / ١٤٩ ، ١٥١ ، ١٥٤ ، ١٦١ ، ١٩٠ ، الاعتبار ٤٨ ، صبح الاعشى ٧ / ١٢٨ ، النوادر السلطانية ٩٧ ، ١٦٤ ، ١٩٩ ، مفرج الكروب ٢ / ٢٨٣ ، الكامل ١٠ / ٦٢٢

(٢) الروضتين ١ / ٢ / ٥٧٧ ، وفيات الاعيان ٢ / ١٥٩

ونجد هذه الظاهرة عندهم منذ بداية الحروب الصليبية حتى منتهاها ، فحين حاصر عماد الدين زنكي حصن الاثارب " اهتموا بجمع الفرسان والاجناد واحضروا من أطراف البلاد وجمعوا الداني والقاصي ، والمطيع والعاصي ، وأقبلوا في جموعهم المحشورة وعساكرهم المجرورة وأعلامهم المنشورة ، وصلبانهم وبنودهم وكنودهم ، وجاء اليه وقد غص بهم من الارض جنوبها وأخذ منهم شمالها وجنوبها ...." (١) ونشاهد مثل هذا التحرك الجماعي زمن نور الدين ، يقول ابن منير :

أجاؤا الارماء لهم شهوبـــــا بصيدَ النُّور ملتطم العبـــاب
مشوا متساندين الى صليــــب يبرقع شهوة الصم الصـــلاب (٢)

وقد ظهرت هذه الصورة بشكل أوضح في معارك عكا لأنّ الفترة التي استغرقتها دامت سنتين ، تعرف المسلمون الفرنج عن كثب ، يقول العماد في وصف هجوم فرنجي على المسلمين : " خرجوا يوما قبل العصر ، في عدة كالليل خارجة عن الحصر ، قد التأموا واستلأموا وانتظموا وانتظموا ، وتقدموا وأقدموا للطوارق حاملين وللسيوف مجردين ، .... " (٣) ، ويصف وصول جيشهم الى أرض المعركة في " جمع شاك ، وجمر ذاك ، وقنطاريات طائرات ، وسابريات سابغات ... " (٤) .

هكذا ركز الأدب على اظهار حركتهم بشكل جماعي إذْ يخرج فارسهم وراجلهم بشكل جماعي ، اذ يخرج فارسهم وراجلهم وملوكهم وتماثيلهم وكنودهم ، ويشكلون في أرض المعركة مقدمة وميمنة وميسرة وقلبا ، وفي هذا الاطار تجد التنسيق الدقيق ، فالرجالة محدقون بالفرسان والفرسان يحيطون بالعلم المرتفع ، فان كانوا في حالة انتقال من مكان الى مكان ، سار الجيش دون أن يستجيب لاستفزازات المسلمين الا حين الضرورة ، بل إنه يتحمل السهام النزيرة ولا يقدم على معركة لا تناسبه ، حتى اذا ما أحس جانب من الجيش بالارهاق جاء جنود من الجانب الآخر وحلوا محلّ الجند المحاذين للمسلمين ، حتى يصلوا المكانَ المقصود ، يقول ابن شداد : "وثم قسم آخر من الرجالة مستريح ، يمشون على جانب البحر ولا قتال عليهم ، فاذا تعب هؤلاء المقاتلة أو أثخنتهم الجراح ، قام مقامهم القسم المستريح واستراح القسم المقاتل هذا والخيالة في وسطهم لا يخرجون عن الرجالة الا في وقت الحملة لا غير ... وفي وسط القوم برج على عجلة ، وعلمهم يسير أيضا في وسطهم كالمنارة العظيمة ، وساروا على هذا المثال .. "(٥)

---

(١) الباهر ٤٠ وأنظر الكامل ١١ / ٣٠١
(٢) الروضتين ١ / ١ / ٢٢٩
(٣) الفتح القسي ١٦٤
(٤) نفسه ٦٢
(٥) الروضتين ٢ / ١٩٠

وان كانوا في حالة هجوم فإنهم يهجمون بشكل منظم وبأقصى قوة مستطاعة ، يقول العماد :
" وللداوي دوي وللاستباري هوى ، والهاروني يقدم على البوار ، والتركبوني يلقي نفسه على النار (١)
وأما إن كانوا في حالة سكون فمن الصعب استثارتهم ، بل يبقى تركيبهم كما هو : الرجالة تحمي الخيالة ، والخيالة تحيط بالعلم ، يقول العماد : " ووقفوا على صهوات الخيول الى ضحوة النهار والراجل محدق بهم كالاسوار ، وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ... وهم ثابتون ثابتون ، وعلى مواطئهم نابتون ، كالبنيان المرصوص ما فيه خلل والحلقة المفرغة ما اليها مدخل وكالسور المحيط ما عليه متسلق ، وكالجبل الاشم ما فيه متعلق ..." (٢) ، ويقول أيضا فإنهم إذا نزلوا صعب نزالهم ، وأصعب قتالهم ، وإذا انبثوا تعذر حصدهم ، وإذا اثبتوا تعسر تصدهم ، وإذا التصقوا ببطن الارض صاروا كالقراد ، وإذا حلقوا في جو الدو طاروا كالجراد ، فعند الانتشار يمكن التقاطهم ، وعند الانحصار يمكن احتياطهم ... " (٣) .

هذه أمثلة عن صورة الجيش المتكامل* ، أما الفارس الصليبي ، فهو يتصف بالشجاعة والإقدام ، ويضحي بنفسه ليكون سورا للآخرين ، ومما يدل على ذلك ما يرويه ابن شداد عن شاهد عيان " أن فارسا وقع فيه زهاء خمسين سهما وحجرا وهو يتلقاها ولا يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب والقتال " (٤) وما يقوله العماد في وصفهم بأنهم "قد التأموا واستلأموا وأنفسوا وأنتظموا وتقدموا وأقدموا ... " (٥) وما يقوله في وصف أفرنجي " كأنه جني مستشيط ، للشيطان نجي ، وهو يداني ويمانع ويكافح عن تلك الثغرة ويقارع ... " (٦) .

ولم تقل شجاعة نسائهم عن شجاعتهم ، فقد وجد تحت عدة نساء مقتولات وكأنها فوارس في هيئتها وشجاعتها ، ولم يكن بالامكان المسلمين تبين هويتها الا بعد تعريتها من الدروع ، مما جعل العماد يقول : "وفي الفرنج فوارس لهن دروع وقوانس ، وكن في زي الرجال ، ويبرزن في حومة القتال ، ويعملن عمل أرباب الحجا وهن ربات حجال ... " (٧)** .

ويظهر من الادلة السابقة صفة أخرى هي الصبر وتحمل المصاعب ، يقول ابن عنين :

لقد صبروا صبرا جميلا ودافعوا طويلا فما أجدى دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الاسنة أحمرا فألقوا بأيديهم الينا فأحسنا
أسود وغى لولا قراع سيوفنا لما ركبوا قيدا ولا سكنوا سجنا (٨)

---

(١) الفتح القسي ٦٢ (٢) نفسه ٢٦٩ (٣) نفسه ٢٩٦
* للمزيد من الامثلة أنظر : الفتح القسي ٢٩٥،٢٩٨، ٢٩٥ الخريدة قسم الشام ١/ ٢٣٥ ، ديوان ظافر الحداد ٣٧٥ ، الروضتين ٢/ ١٧٩ ، ١٩٠ ، النوادر ١٠٧ ، ١٠٩ ، ١٠٦ ، الكامل ١١/ ٥١ ، ٥٣ ، ٥٤٨ ، ٦٥٠ ، ٢٥٠ ، ٢٣/ ٣٣ ، ٣٧
(٤) النوادر السلطانية ١٦٧ ، وأنظر ١٦٦ ، والفتح القسي ٢١٢
(٥) الفتح القسي ١٦٤ (٦) نفسه ٥٠٤ (٧) نفسه ٣٤٩
** لمزيد من الامثلة عن الشجاعة انظر : الاعتبار ٦٤ ، النوادر السلطانية ٢٢٣ ، عقد الجمان جـ ١٢ ق ١ ورقة ١٩٩ ، الكامل ١١/ ٣٥٤ ، ٥٥٥ ، الباهر ٤١
(٨) ديوان ابن عنين ٢٠٥

ومن الصفات الاخرى التي وصف بها الجيش الفرنجي أغتنام الفرص ، سواء باستغلال التمزق السياسي عند المسلمين أو باستغلال الظروف الطارئة ، فحين أستنجد بهم شاور من مصر ضد أسد الدين شيركوه ، أتوه على الصعب والذلول طمعا في ملكها (١) ويظهر هذا الطمع في قول مري لاصحابه " ان نور الدين بحلب ، وعساكره متفرقة ، ومتى وصلنا الى مصر لم يكن لنا من يصدنا عنها فاجابوه الى مراده " (٢) ، ويبدو من قوله هذا أهتمام الفرنج بمصر، مصر عصب العالم الاسلامي لاهميتها في تقديم الاموال والرجال ، ولانها تشكل مع الشام فكي (كماشة) تحبط تطلعاتهم التوسعية .

هذا وقد وصف الادب لباسهم في المعركة وأشكالهم ، فهذا العماد يصف لباس فارس بقوله : " قد أتخذ طارقته لجسمه صدفا ، وصار لسهام المنية هدفا ، وهو كانه مما نشب فيه من النشاب القنفذ ، وتلك السهام من لبس الحديد لا تنفذ (٣) ، وقد أتكأ الشاعر المصري ابن سارة الاشبيلي على هذه الصورة في معرض وصفه لبركة فيها سلاحف ، اذ شبهها بالجيش الفرنجي على رؤوس جنده الخوذ وعلى أكتافهم الطوارق يقول :

لله مسجورة في شكل ناظرة	من الأزاهير أهداب لها وطف
فيها سلاحف ألهانى تقاسمها	في مائها ، ولها من عرمض لحف
تنافر الشط الا حين يحضرها	برد الشتي فتستدني وتنصرف
كانها حين يبديها تصرفها	جيش النصارى على أكتافها الجحف

ويعقب الرشيد بن الزبير على قوله هذا بقوله : هذا معنى بديع لا يفطن لحسنه الا من رأى فرسان الفرنج في طوارقها ورؤوسهم أشبه الاشياء برؤوس السلاحف لما عليها من التشانيق (٤)

ويصفهم ابن شداد بقوله : " وعليهم الكبورة اللثخينة والزرديات السابغة المحكمة بحيث يقع فيها النشاب ولا يتأثرون ...."(٥) ، ثم يقول : " ولقد شاهدتهم وينشرز في ظهر الواحد منهم النشابة والعشرة وهو يسير على هيئته من غير أنزعاج ...." (٦) .

هذه هي هيئة المقاتل الفرنجي ، الراجل منهم أو الفارس ، وقد وصف ابن شداد صورة الفرس التي يركبها الفارس ومقدار تأنقهم في تزيينها بالزرد حتى الحوافر يقول : " وكان عليه لبس لم ير مثله (٧) .

---

(١) الكامل ١١/٢١٤   (٢) ابن الفرات مج٤ ج١ ص١٩

(٣) الفتح القسي ٥٠٤

(٤) الخريدة / قسم شعراء مصر ج ٢ ق ٤ ص ٢٧٨ وأنظر ابن القلانسي ص ٣٢٨

(٥) النوادر ١٧٩ ، ذيل تاريخ دمشق ٣٤٣

(٦) النوادر ١٧٩

(٧) نفسه ١٥٠

ومع أن تلك الصفات استأثرت بإعجاب الأدباء بهم إلا أنها كانت تنطمس أو تكاد لانتصار الفرنج على النزعة الانسانية إذ إن الشجاعة العظيمة ترتبط عادة بسمات انسان كريم ، كالتسامح ونبل الاخلاق والتواضع عند النصر ، ولكن الفرنج لم يتحلّوا بهذه الصفات ، مما جعل أسامة بن منقذ يقول فيهم : " اذا خبر الانسان أمور الفرنج سبّح الله تعالى وقدّسه ، ورأى بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير ، كما في البهائم فضيلة القوة والحمل " (١)، فلا عجب إذن أن يُصْدِرَ أدباء العرب أحكاما قاسية عليهم ، حتى وان أشادوا بشجاعتهم وشماسهم وصبرهم ، ومما وسم به الفرنج على ألسنة أدباء العرب ، الغرور والغدر، والوحشية والحقد والجهل والتحدي على الآخرين ... وقد ذكرنا أدلة كثيرة مضت في معرض الحديث عن الصراع الحضاري ، لكن لا بأس أن نذكر مثلا جامعا للصفات في وصف المركيس صاحب صور يقول : " وكان المركيس من أكبر طواغيت الكفر ، وأغوى شياطينه وأضرى سراحينه ، وأخبث ذئابه ، وأنجس كلابه ، وأعوى أعوانه ، وأخون اخوانه ، وأبغض بغاته ، وأجفى جفاته ، وأرعى حماته ، وأحمى رعاته ، وشر شراره ، وأنكر نكاره ، وأفجر فجاره ، وأروغ ثعالبه ، وأصعب عقاربه ، وأحنث معاهديه ، وأنكث معاقديه ... " (٢) *

وقد قدم الأدباء في مقابل ذلك صورة للبطل المسلم بعيدا عن الطيش والغرور شجاعا تقيا عادلا متواضعا ، يقظا كريما ، مرعبا للظالمين ، قريبا الى قلوب الناس الذين يحكمهم ** .

---

(١) الاعتبار ٦٤ ، ٩٧
(٢) الفتح القسي ١٠٦
* لمزيد من الامثلة : النوادر ١٦٩ ، الروضتين ١/١/١٨٣ ، ١١٧/٢ ، الفتح ١٠٦ ، ١١٠ ، ديوان أسامة ٢٠٣ ، الكامل ١١/١٢٦
** انظر أمثلة على هذه الصفات : الروضتين ١/ق/٤٣ ، ٥٠ ، ١٠٥ ، جـ ٢/١٣، ٥٢٦ ، ٥٣٠ .

ثانيا : الأسلحة والمعدات العسكرية :

ميز الادب بين نوعين من الاسلحة التي أستعملها الصليبيون ، وهما الاسلحة الخفيفة ، وهي غالبا ما تكون أسلحة فردية يحملها الجندي الصليبي ، والأسلحة الثقيلة وهي التي يعتمد عليها الجيش الصليبي في مجموعه ، وتستعمل في الهجوم والدفاع .

أما الاسلحة الخفيفة فهي الاسلحة الضرورية لكل مقاتل كالترس والدرع والسيف والقوس، والسهام والرماح ، يقول ابن سناء الملك واصفا الجندي الصليبي (المدرع) :

حملوا كالجبال عظما ولكـن ... جعلتها حمائد خيلك عهنـا
جمعوا كيدهم وجاءوك أركا ... نا فمن هدّ فارسا هدّ ركنا
لم تلاق الجيوش منهم ولكن ... ـك لاقيتهم جبالا ومدنا
كل مَنْ يجعل الحديد له ثو ... با وتلجا وطيلسانا وردنا (١)

وقد ذكر المرقلة صورة طريفة لأتراس الفرنج وطوارقهم ، فشبه الطلطاج المصنوع من العجين (نوع من الحلوى يصنع من طبقات رقيقة جدا من العجين) وفيها السيخات بالطوارق (الاتراس) الفرنجية التي علقت فيها السهام التركية يقول :

الارب طاه جاءنا بعد غترة ... بأطباق طلطاج أشفه من الثلج
وقد غارت السيخات فيها كأنها ... يغالق ترك في طوارق أفرنج (٢)

وقد جاء ذكر الطوارق عند ابن القيسراني قبل ذلك في معرض حديثه عن أنتصار نور الدين على الفرنج في موقعة أنب ، وقد وهم محقق الروضتين اذ ظنها رماحا (٣) ، والمعنى بها لا يستقيم ، فابن القيسراني يصف انقلاب السلاح الذى بأيديهم من سلاح قتال بالمسلمين الى سلاح فتاك بهم ، حتى إن الاتراس (الطوارق) التي كانت تقيهم الرماح والسهام أصبحت تثور تحتها المصائب وذلك بأن تسمح للسهام والرماح بأن تنفذ منها حاملة الموت للأعداء فيقول :

كانت سيوفهم أوحى حتوفهم ... يا رب جائنة منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم ... ثارت عليهم بها من تحتها النوب (٤)

وجاء في ذيل تاريخ دمشق أن نور الدين زين قلعة دمشق بالطوارق الفرنجية وأنواع الاسلحة (٥) كما جاء في الخريدة (قسم شعراء مصر) أن الشاعر ابن سارة الاشبيلي وصف بركة ماء وفيها سلاحف بصورة الجيش الصليبي الذى يلبس أفراده الخوذ ويضع كل منهم الترس على كتفه (٦) .

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤

(٢) الخريدة / شعراء الشام ١ / ١٩٠

(٣) أنظر الروضتين ١ / ١ / ١٥٣ ـ ١٥٤ وقد ذكرت الطوارق بمعنى الترس في هامش رقم (٥) من كتاب النوادر السلطانية ص ١٢٧

(٤) الروضتين ١ / ١ / ١٥٣ ـ ١٥٤

(٥) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ص ٣٢٨

(٦) الخريدة / قسم شعراء مصر / ٢ ق ٤ / ٣٧٨

وبالاضافة الى الترس والسيف فقد أستعملوا الدروع الحديدية الواقية لهم ولخيلهم ، يقول ابن شداد عن ابن ملك الالمان إنه " عرض عسكره في أثنين وأربعين مجفجفا ٠٠٠"(١) وجاء في المعجم الوسيط أن التجفاف آلة للحرب من حديد وغيره يلبسه الفرس أو الانسان ليقيه في الحرب ، كما أستعملوا النشاب والجروخ * وقد ذكر ذلك أبن الوردي الذي شارك في معركة عكا الأخيرة سنة ٦٩٠ هـ (٢) ٠

وأما الآلات الثقيلة ، فقد أظهر الادب أنواعها وصورها بشكل مفصل ، وذلك لتصوير قوة الجيش الفرنجي وكثرة عدده ، وقد كان بعض هذه الآلات يصنعها الفرنج في أرض المعركة مثل الأبراج والدبابات والمجانيق والجسور ، وكان بعضها يأتي مصنوعا من بلادهم ، وأخصها القطع البحرية ٠

وقد أستخدمت القطع البحرية ، في نقل الجنود والسلاح والميرة من أوربا الى المشرق الاسلامي ، كما كانت تستعمل أيضا في عمليات الهجوم ضد المدن الساحلية ، يقول ابن الفرات في تاريخه " إن الفرنج نزلوا على دمياط سنة ٥٦٥ هـ في عالم عظيم ٠٠ وكان وصولهم في ألف ومئة مركب ما بين شيني ومسطح وطريدة " (٣) ، ويقول العماد في حديثه عن ملك الانجليز " وكان معه من الشواني خمس وعشرون قطعة كل واحدة منها تشاهي تلعة وتوازي قلعة ، واحدث في القلوب روعة وأرث في النفوس لوعة " (٤) ، وفي حصار دمياط سنة ٦١٥ هـ ، وصل للفرنج مركب عظيم " يسمى " مرمة وحوله عدة حراقات يحمونه ، والجميع مملوء من الميرة والسلاح وما يحتاجون اليه" (٥) ، ولكن ذلك لا يعني أنهم لم يصنعوا مراكب في الأرض التي أحتلوها ، فقد ذكر ابن الأثير ان البرنس أرناط عمل أسطولا فأنزله في بحر أيله ، وأفترقوا فرقتين الاولى على حصن ايله وهو للمسلمين، والثانيه على عيذاب" (٦) ٠

والأمثلة على استعمال السفن في الهجوم على المدن المحصنة كثيرة ، ومنها ما ذكره ابن الفرات أيضا من " ان الفرنج أتخذوا مركبا يعلو سور دمياط وشحنوه من الرجال والسلاح وأجروه في البحر الى أن وصل سور دمياط فوثبوا منه الى السور وفتحوها (٧) ٠

---

(١) النوادر ١٢٦ ، وأنظر الكامل ١٢/ ٤٦

* الجروخ - نوع من الاقواس الرامية التي يرمى عنها النشاب أو النفط .

(٢) تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٣٥ ،ابو الفداء / المختصر في تاريخ البشر ٤/ ٢٥

(٣) تاريخ ابن الفرات مج٤،ج ١،ص ٨٣ ،وانظر المراكب في ابن القلانسي ١٧١

(٤) الفتح القسي، ٤٨ .

(٥) مفرج الكروب ٤/ ٩٥ .

(٦) الكامل ١١/ ٤٩٠ .

(٧) تاريخ ابن الفرات مج٤،ج ١/ ٨٢ وانظر آثار البلاد للقزويني ١٩٤ ، ٢٢٢ وتاريخ ابن الفرات مج ٥،ج ١،ص ٢٢٠

ومن المدن الساحلية التي تعرضت لهجوم بالمراكب مدينة عكا ، فقد ذكر ابن شداد أن الفرنج " أعدوا في البحر بطسة هائلة وضعوا فيها برجا بخرطوم اذا أرادوا قلبه على السور أنقلب بالحركات ، ويبقى طريقا الى المكان الذى ينقلب عليه فتمشي عليه المقاتلة " (١) ، كما وصف العماد أحد المراكب التي هاجمت عكا فقال : " وأخذ تلك المراكب قد ركب بن على رأس صارية لا يطاوله طود ولا يباريه ، وقد حشي بالنفط والحطب وضيق عطنه لسعة المعطب "(٢)، وقد أعتمد الفرنج على مثل هذه المراكب في حربهم للمسلمين في عكا سنة ٦٩٠ ، فيروى ابن الوردى وقد أشترك في المعركة ، أنه شاهد "مراكب مقبية بالخشب الملبس بجلود الجواميس ، ويرمي الفرنج منها بالنشاب والجروخ والقتال من قدامهم من جهة المدينة ومن يمينهم من البحر ، وأحضروا بطسة فيها منجنيق يرمي على الحمويين ... " (٣) .

ومن الآلات الثقيلة التي صنعوها ، الابراج ، ونلاحظ أنهم أعتمدوا عليها في وقت مبكر من الحروب الصليبية ، اذ أستخدموها في حصار صيدا سنة ٥٠٤ هـ ، فعملوا برجا وزحفوا به على سورها ، ويذكر ابن القلانسي هيئته بأنه " ملبس بحطب الكرم والبسط وجلود البقر الطرية ليمنع من الحجارة والنفط ، وكانوا اذا أحكموه على هذه الصورة نقلوه على بكر تركب تحته في عدة أيام متفرقة " (٤) . وقد زاد أعتمادهم على الابراج في حصار عكا ، وذلك حتى يصلوا الى سورها فينقبوه أو يرتقوه ، ولما أحتاجوا الى المواد الاولية أستوردوها من أوروبا ، وتحملوا في نقلها المصاعب الكثيرة ، يروى أبن واصل أن " الفرنج قد شرعوا في بناء ثلاثة أبراج عالية عظام ونقلوا في البحر آلاتها ، وأخشابها الجافية وقطع الحديد ، وتمموا فيها سبعة أشهر ، فصلت كأنها أطواد ، ونصبت في ثلاثة مواضع من أقطار البلد ، وملئت طبقاتها بالعدة والعدد وكل برج منها في أركانه أربع أسطوانات عاليا استقلاله ، طول كل واحدة خمسون ذراعا لتشرف على ارتفاع سور البلد وبسطوها على دوائر العجل ، ثم كسوها بجلود البقر ، وسقوها بالخل والخمر "(٥) ، ويصف ابن شداد مساحتها وسعتها فيقول : يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر على ما قيل ويتسع سطحها لأن ينصب عليه منجنيق "(٦).

ويلخص العماد بلغته المؤنقة ما ذكره ابن شداد وغيره مبينا أن البرج يتكون من عدة طبقات فيقول : " ...وركّبوها من الاخشاب الطوال الأطوال ، والعُمُد الثقال ، ونوّضوها وقذفوها ، ونصبوها وأحكموها ، وسقفوها طباقا ، وسمّروها بالحديد وجعلوا لها منه أطواقا ، ووثقوها شدا وشدوها وثاقا ، ولبّسوها بالسلوخ وملأوها بالجروخ ، وزحفوا بها الى السور وكشفوا بالرمي منها بعض سقوف الدور" (٧).

---

(١) النوادر ١٤١ (٢) الفتح القسي ٤٦٧
(٣) تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٣٥ ، ابو الفداء تاريخ مختصر البشر ٤/ ٢٥
(٤) ذيل تاريخ دمشق ١٧١ ، وأنظر زبدة الحلب ١/ ١٤٦
(٥) مفرج الكروب ٢/ ٣١٥ (٦) النوادر السلطانية ١٢٠
(٧) الفتح القسي ٣٦٧ ، وأنظر ص ٣٧٠ ، لوصف الدبابات ، أنظر تحقيق الشيال للنوادر السلطانية هامش ص ٤٢

والآلات الثقيلة التي استخدمها الفرنج هي الدبابة ، وقد جعلها القاضي الفاضل شبيهة بالبرج ، مع أن هناك فروقا بين الآلتين يقول أنها " تشبه الابراج في جفاء أخشابها وارتفاعها ، وكثرة مقاتليها واتساعها " (١) ، والحقيقة أنها أقصر منها لان من أعمالها هدم الاسوار عن طريق دفعها بالكبش ولذلك يجب أن تكون أقصر من السور أو أعلى منه قليلا ، بينما يكون البرج كما ظهر من الادلة السابقة أعلى من السور . أما أنها تشبه البرج في الضخامة ، فربما كان ذلك صحيحا ، لان البرج يتكون من طبقات يعلو بعضها بعضا ، وأما الدبابة فهي متسعة ولا تتكون من طبقات مرتفعة ، على أن هناك فرقين آخرين بين الدبابة والبرج هما :

أولا : - أن الدبابة تتكون من عدة طبقات متداخلة مما يجعلها أقوى من البـــرج (٢) ،
ثانيا : - أن البرج يختلف عن الدبابة في الشكل وفي المحتويات كما سيتضح من وصف الدبابة فيما يلي ، وقد تفنن الفرنج في صنع هذه الدبابات مع مرور الايام لا سيما حين تمكن المسلمون من حرق بعضها في عكا ، فجعلوها " بأربع طبقات : الاولى من الخشب والثانية من الرصاص والثالثة من الحديد والرابعة من النحاس وكانت تعلو على السور* ، وتركب فيها المقاتلة "(٣) ويصفها العماد بقوله : وكان الفرنج قد اتخذوا دبابة عظيمة هائلة ، قد أظهرت لها في الشر غائلة ، ولها أربع طباق ، شدها على الارتباط باق ، ولها من الاحكام بالزوليا ... ، وهي خشب ورصاص وحديد ونحاس " (٤) ثم يصف أثرها في إثارة الرعب لدى المسلمين يقول : " وبلي البلد منها بكل بلية ، ورزئ بكل رزية ، وكانت هذه الدبابة على العجل ، ليقربوا بتقريبها أسباب الاجل ، فباتت القلوب منها على الوجل ، وكاد أصحابنا يطلبون الأمان ، وخضع كل أبي واستكان ، فقارعوا عندها أشد قراع وما صحوا أشد صاح "(٥) .

ولما كان سور عكا مانعا ، والدفاع الاسلامي عنها شديدا ، فقد أضاف الفرنج الى الدبابات اضافات أخرى ، مما جعل شاهد العيان ابن شداد يسميها " بالالات العجيبة والصنائع الغريبة " (٦) ، ومن هذه الاضافات رأس عظيم طويل مدبب لهدم الاسوار ، يقول ابن شداد في ذلك : فاتخذ الفرنج من الالات العجيبة والصنائع الغريبة ما أهال الناظر اليه من شدة الخوف على البلد (عكا) .. فمما أحدثوه آلة عظيمة تسمى دبابة ، ويدخل تحتها من المقاتلة خلق عظيم ، ملبسة بصفائح الحديد ، ولها من تحتها عجل تحرك بها من داخل ، وفيها المقاتلة حتى ينطح بها السور ولها رأس عظيم ، برقبة شديدة من حديد ، وهي تسمى كبشا ينطح بها السور بشدة عظيمة ، لأنه يجرها خلق عظيم فتهدمه بتكرار نطحها " (٦) .

---

(١) الالمام بالاعلام ، ١٦٥   (٢) أنظر الكامل ١٢ / ٤٥
* يعني هذا القول أن الأصل فيها أدنى من السور ولكن هذه الدبابة ركب عليها برج خشبي جعلوها تعلو السور ، أنظر النوادر السلطانية ص ٤٥ هامش رقم (١)
(٣) النوادر السلطانية ص ١١٢   (٤) الفتح القسي ٤٨٧
(٥) نفسه ٤٨٧   (٦) النوادر السلطانية ١٤٠

ويصف العماد هذا الكبش وعمله فيقول : " واستأنف الفرنج عمل دبابة هائلة ، وآلة للغوائل غائلة ، في هكلها رأس عظيم يقال له الكبش ، وله قرنان في طول رمحين كالعمود يهدمن الشليثين ، أثقال الاسوار بها تفرى ، فكم سور اذا نطحته طحنته ، وكم معقل حصنه الدهر حصنه ومحنته ..." (١) ، وحتى تمنع هذه الدبابة في أعطاف هم المسلمين من جهة وتقاوم القدور النفطية التي كانت تقذف عليها أخذوا بنائها ، وألبسوا كبشها الحديد والنحاس، يقول العماد : " ... وقد سقفوها وكبشها بأعمدة الحديد ، وكملوا لها أسباب الاحكام الشديد ، ولبسوا رأس الكبش بحد الحديد النحاس ، وكسوها حذرا عليها من النار سائر لباس البأس ، فلم يبق للنار اليها سبيل ولا للمطلب عليها دليل (٢) .

وقد أحدث الفرنج آلة أخرى تشبه الدبابة أو القبو سماها ابن شداد بالسنور ، إلا أن رأسها محدد على شكل السكة التي يحرث بها ، ورأس الكبش مدور وهذا يهدم بثقله ، وتلك تهدم بحدتها وثقلها ..." (٣) .

والالة الرابعة الثقيلة هي المنجنيق* ، وهو آلة من الآت الحصار والهجوم في قلعة الحصر ، وقذائفه من الحجارة جلبها الفرنج معهم مرة من صقلية وقذفوا بها الاسكندرية ، يقول القاضي الفاضل : ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها وثلاثة مجانيق كبار المقادير ، تضرب بحجارة استصحبوها من صقلية ، وتعجب الناس من أثرها وعظم حجرها ... " (٤) .

ومما يلفت النظر في هذا الجانب أن الادباء أمعنوا في وصف الدبابات والأبراج ولكنهم لم يقدموا صورة دقيقة للمجانيق الفرنجية ، وإنما وصفوا المجانيق الاسلامية ، يقول شهاب الدين محمود : ونصبت المجانيق (الاسلامية) فلم ترح حتى جنحها (الفرنجية) وسلطت عليها ، فأصبح عدوها في التحامل أبعد من أمسها ، واستنهضتها الصدا فأعلمتهم أنها لا تطيق الدفاع عن غيرها بعد أن عجزت عن نفسها ، وسلطت أنفسها امارة على الاذعان ورنت أصابعها : إما إجابة ان تذل للتشهد وإما إنابة الى طلب الامان "(٥)

ويقول أيضا :

كأن المجانيق التي قمن حولها رواعد سخط وبلها النار والصخر (٦)

---

(١) الفتح القسي ٤٣٢

(٢) المصدر السابق ٤٣١

(٣) النوادر السلطانية ١٤١

* عن المنجنيق أنظر النوادر السلطانية هامش ٤ ص ٦٦ وصبح الأعشى ٢ / ١٤٤

(٤) الإلمام بالأعلام ١٦٥ ، وأنظر تفاصيل الحصار في الكامل ١١ / ٤١٣ ، ابن شداد النوادر السلطانية ٤١ ـ ٤٦

(٥) صبح الاعشى ٨ / ٣٦٦ ، حسن التوسل ١٤٥

(٦) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٩ .

وما يرتبط بالاسلحة الثقيلة بعض الادوات المساعدة في الحروب في الجيشين الفرنجي والاسلامي مثل أدوات اطفاء الحريق، او اتقاء النفط ، فقد كانوا يستعملون الستائر التي يتخذونها من الجلود واللبود المبلولة بالخل والخمر ، يقول العماد في وصف عملية اطفاء الحريق " وجاء الفرنج تلك الليلة فباتوا بالقربات (براميل صغيرة) يطفئون بالخل والخمر تلك الشعل المستوليات " (١)،

ومن هذه الادوات السلالم والجسور ، ففي حصار عكا سنة ٥٨٦ هـ استعملوا السلالم الكبيرة الهائلة ، كما استعملوها في التسلق على قلعة الطور ، لولا أن رماهم المسلمون بالنفط (٢)، وأما الجسور فقد ذكرها عمارة اليمني في معرض مدحه لأسد الدين شيركوه :

لئن نصبوا في البر جسرا فأنكم عبرتم ببحر من حديد على الجسر (٣)

وفي سنة ٦٠٥ هـ أغار الفرنج على باب تدمر من حمص بعد أن مدوا على نهر العاصي جسرا خشبيا (٤) ، صنعوه من الاخشاب القوية التي تتحمل مرور جيش كبير عليه ، وقد أشار الادباء الى طول المدة التي يقضيها الفرنج في عمل هذه الالات ، كما ذكروا تكاليفها الباهظة ، يقول العماد : " ولهم منذ تسعة أشهر يجمعون هذه الالات ويستسهلون عليها الغرامات ، حتى أقاموا أبراجا أعلى من أبراج السور بضعف سمكها ، وتربوها ناكية في الثغر المحروس بفتكها " (٥)، كما يذكر أن الكندهرى أنفق على أحد المنجنيقات ألفا وخمسمائة دينار (٦).

---

(١) الفتح القسي ٤٣٣ ، وانظر النوادر ١٤١ ، ومفرج الكروب ٢/٣٠٣ ، ٣١٥
(٢) الذيل على الروضتين ١٠٧
(٣) الكامل ١١/٢٠٠
(٤) الذيل على الروضتين ٦٧
(٥) الفتح القسي ٢٧٣ ، وانظر ٢٧٧، وابن القلانسي ١٧٩
(٦) الفتح القسي ٤١٦ .

ثالثا : التحصينـــــــات :

اتخذ الصليبيون التحصينات الدفاعية ، تحسبا لأى هجوم اسلامي عليهم لأنهم يعلمون أنهم طارئون على أرض المسلمين ، ولذلك أعتمدوا في حياتهم على عاملين أساسين : الأول الأمدادات الخارجية ، وقد مر ذكرها : والثاني : التحصينات.

وقد صور الادب ، ولا سيما النثر ، أنواع هذه التحصينات ، فذكر أربعة أنواع لها :
(١) الحصون (٢) القلاع (٣) المغاور (٤) الاســوار .

أما الحصون فهي كثيرة ومنتشرة في الأماكن ذات التجمع السكاني أو ذات الموقع " الاستراتيجي " ولذلك ذكر الادباء نوعين من الحصون : برية وبحرية ، ومن الحصون البرية حصن كوكب وبيت الأحزان والكرك والشوبك والمرقب وبرزية ، وأما الحصون البحرية فمنها : مرقية واللاذقيـــة ، ومما يدخل في ذلك أيضا ، المدن الحصينة كالرها والقدس وعكا وصور .

وتشترك هذه الحصون سواء في ذلك البرية منها أو البحرية ،أو المدن المحصنة في صفات القوة والمنعة ، يقول العماد في وصف كوكب : " وجئنا الى كوكب فوجدناها في مناط الكوكب ، كأنها وكر العنقاء ، ومنزل العواء ، وقد نزلتها كلاب عاوية ، ونزعت بها ذئـــاب غاوية " (١).

وفي بيت الأحزان تجمع الفرنج لمراقبة تحركات صلاح الدين ، فجهز جيشا لمحاربتهم فاحتموا فيه لاعتقادهم أنه يحميهم ، لكن صلاح الدين خيّب ظنهم ، ودمّر حصنهم ، وفي ذلك يقول سعادة الضرير الحمصي :

غناهيك من جيش نهضت بجيشـــــه ... فأقصدتَ ، لمّا أنْ نهضتَ به ، القصــد
وزرتَ بما الحصن الذى لو تحصّنـــت ... فوارسه بالنجم أوردته الـــــــورد
تحصنت به سلب الصليب ورهطـــــه ... وشيّدته لما غدا فتشيّـــــدا
هبتْ اليه هبة يوسفيـــــــــة ... تعيد هباء كل ما كان جلدا (٢)

وقد أتخذ الفرنج حصني الكرك والشوبك مركزا مهما لمهاجمة القوافل الاسلامية ،ولمنع أي اتصال بين الشام ومصر ، فضلا عن تهديد الاماكن المقدسة ، ولذلك وصفه القاضي الفاضـل بأنه "شجا في الحناجر ، وقذًى في المحاجر ، قد أخذ الأمال بمخنقها ،وقعد بارصـــاد العزائم وطرقها ،ورصد الطرقات المسلوكة ،وخير في السبل المسلوكة ،وصار ذئبا للدهر في ذلك الفج ، وعذرا لتارك فريضة الله من الحج ... وجعل من هام الاسلام فكان عاصمــه ، وجثم على أنفاس الحجاز فلم يدع نفسا يصعد من تهايقه ، فواديه من مسائل المعاقل بمعصمها وظله من نجوم الأسنة بمطلعها ، وهو والشوبك ،يسّر الله الآخر (فتحه) كبيت الواصـــف للأسدين :

ما مرّ يوم إلاّ وعندهمــــــا ... لحم رجال أو يولغـــان دما (٣)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٣٦ (٢) الروضتين ٢ / ١٢
(٣) ابن بناتة المصرى : الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقه ٢٥ هـ

وكفى إشارة إلى أنه مكان الغزاة ومقرّها ومستودع الفريضة ومستقرها ... "
وقد قصد القاضي بهذا الوصف تحريض صلاح الدين ، وبالفعل حرك صلاح الدين جيشه لتأديب صاحبه ، وقد تراءى له أن من اليسير عليه امتلاكه ، لبعده عن أمدادات الفرنج ، ولكن موقعه الحصين جعل صلاح الدين يتريث ويحتال لامتلاكه ، يقول العماد : " ولولا الخندق المانع من الإرادة ، وأنه ليس من الخنادق المعتادة ، بل هو واد من الأودية ، وأس الأبنية ، لسهل المشرع وهجم الموضع ، فلم يبق إلا تدبير طم الخندق ، والأخذ بعد ذلك من العدو بالمخنق " (١) ، وينقل القاضي الفاضل صورة امتلاكه ، ومن خلالها نلمح منعة هذا الحصن وقوته ، يقول : " وأما الكرك فكفات المنجنيقات عليه متظاهرة ، وحجارتها على من فيه متاجرة ، وقد جدعت أنوف الأبرجة ، وأسلبت قناع الستائر ووجوهها المتبرجة ... " (٢) ، ونتيجة لهذا القصف العنيف انهدم الجزء المقابل للمنجنيقات مما سهل السيطرة عليه ، يقول العماد : " فالسور المقابل للمنجنيقات قد انهدمت أبراجه وأبدانه ، وانهدت قواعده وأركانه ... (٣)
إلا أن هذا الحصن لا يقارن بحصن المرقب ، وقد قدم شهاب الدين محمود صورتين طريفتين له إحداهما شعرية والأخرى نثرية ، يقول في الأولى مادحا المنصور قلاوون :

أوردتها المرقب العالي وليس سوى ... ماء المجرة في أرجائها نهر
كأنه وكأن الجو يكنفه ... وشم تمثله في طيها الفكر
يختال كالغادة العذراء قد نظمت ... منه مكان اللآلي الأنجم الزهر
لها الهلال سوار والسها شنف ... والقلب قلب وسود الدجى طرر
تعلو الرياح إليه كي تحيط به ... خبرا وقد نوها في غضها خبر
وليس يروى بماء السحب معتمدة ... إليه من فيه إلا وهو منحدر
وأضرمت حوله نار لها لهب ... من السيوف ومن نبل الوغى شرر
وللنقوب دبيب في مفاصله ... تثير سقما ولا يبدو له أثر
أضحى به مثل صب لا تبين به ... نار الهوى وهي في الأحشاء تستعر (٤)

ويقول في الثانية : " وحوله من الجبال الشم كل شامخ ، تتهيب عقاب الجو قطع عقابه ، وتقف السرح خدما دون التوقل في هضابه ... قد تفرط بالنجوم ، وتقرطق بالغيوم ، وسما فرعه الى السماء ، ورسا أصله في التخوم ، تخال الشمس اذا علت أنها تنتقل في أبراجه ،

---

(١) الروضتين ٢ / ٥٦
(٢) المصدر السابق ٢ / ٥٥
(٣) المصدر السابق ٢ / ٥٥
(٤) النجوم الزاهرة ٧ / ٣١٧ ، ٣١٩

وظن من سما الى السمها أنه ذبالة في سراجه ، فكم من ذي جيوش تدمات بنصته ، وذي سطوات أعمل الحيل فلم يفز من نظره على البعد بفرصته ، لا يعلوه من معمس الطير سوى نسر الفلك وبرزمه ، ولا يرتق متبرجات أبراجه غير عين شمسه والدقل التي تدارك من أنجمه ... " (١)

ولئن كان في هذا الوصف مبالغة ، فان ابن عبد الظاهر يصفه وصفا واقعيا بسيطا فيقول :

حصن عظيم القدر في سيرة	لمن مضى قبلك لم يكتسب
اذ بدا والنجم من حوله	تقول : نجم لاح في غيهب
وان تلح للعين أبراجه	يقال هذا موكب الكوكب (٢)

ويطول بنا المقام لو استعرضنا بقية الحصون البرية * ، ولذلك ننتقل الى النوع الثاني منها وهو الحصون البحرية :

تفنن الصليبيون في صنع هذه الحصون ، كما تفننوا في صنع الابراج والدبابات ، فأقاموها في البحر ، دون أن ينظروا للصعوبات التي تواجههم ، مما يدل على تقدمهم في فن الحروب ، يقول ابن عبد الظاهر في وصف حصن مرقية : " ... عرضه قريب من طوله ، كل جانب منه خمسة وعشرون ذراعا ونصف بالعمل ، وعرض سوره سبعة أذرع ، وهو سبع طباق ، وبني على مراكب غرقت في وسط البحر ، فيها أحمال كثيرة من الحجارة تحت كل قطر منه مخرق تسعمائة مركب فيها حجارة ، وبين كل حجرين في أسوارها قضيبان من الحديد متصلان (في الأصل قضيبين من الحديد متصلين) وعليها شبك الرصاص ، وداخله صهريج عظيم ، وفوق الصهريج قبو ، وفوق القبو أخشاب ، وفوق الاخشاب حصى صغار ، وفوق الحصى خيش ، وفوق الخيش حبال قنب مشددة ، حتى اذا نصب المنجنيق من البر ورمي به لا يبلى ما يرمى فيه ، ويقع الحجر من أعلاه في الماء ، وفيه مائة مقاتل ، ولا يؤخذ هذا الحصن بحصار ولا بمضايقة ... " (٣)

ويظهر مما مضى مقدار المهارة وحسن التأني في صنعه ليكون حاميا لهم في الملمات ومركزا دفاعيا اذا ما هاجمهم المسلمون ، ولكن الرعب خرب هذا الحصن كما خرب الزلزال حصنا آخر هو برج اللاذقية ، ويصف ابن عبد الظاهر هذا البرج البحري لا من حيث طريقة البناء ، وانما يسلط الاضواء على أثره في المسلمين ، وأهميته للفرنج ، يقول : " وهذا البرج شمم في أنف تلك الجهات ، وآفة عليها من أكبر الآفات ، طالما أصبح وأمسى حسرة في قلوب المسلمين ، وذخيرة لاعداء الدين ، وذلك أنه في وسط البحر لا تسلك اليه طريق من بر ، ولا ينقب له سور وكيف وخندقه البحر وكان يتحصن به للفرنج مال كثير من ميناء اللاذقية التي هي مثل مينا الاسكندرية " (٤) .

---

(١) حسن التوسل ١٤٥ ، صبح الاعشى ٢٦٤/٨ ــ ٢٦٥

(٢) تشريف الايام والعصور ٨٦ ، تاريخ ابن الفرات مج ٨ ، ١٧٦

* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ٥٦/٢ ، ٨٧ ، ١٢٤ ، ١٢١ ، ١٢٥ ، صبح الاعشى ٢٨/٧ ، ابن جبير ٢٧٦ ، الفتح ٢٢٣ ، البداية والنهاية ٢٠٣/١٢ ، تاريخ ابن الوردي ١٧/١ ، ٤٣ ، الكامل ٣٤/١١ ، ٣٠٨ ، ٢٢٨ ، ٤٥٣

(٣) تشريف الايام والعصور ٨٨ (٤) المصدر السابق ١٥١

هذا ما بناه الصليبيون ليحافظوا على أنفسهم ، ولكنهم حين احتلوا بعض المدن الاسلامية أضافوا اليها التحصينات الكثيرة ، وأضافوا الى حصانتها السابقة مزيدا من الحصانة ، فها هو ذا ابن القيسراني يصف مدينة الرها بأنها مدينة ظلت تعجز السيوف عن افتتاحها كما عجز الملوك عن افتتاحها ، حتى جاء عماد الدين زنكي، يقول :

لقد كان في فتح الرهاء دلالة ... على غير ما عند الملوك اعتقاده
مدينة إفك منذ خمسين حجة ... يفل حديد الهند عنها حداده
تفوت مدى الابصار حتى لو أنها ... ترقت إليه خان طرفا سواده
وجامحة عز الملوك قيادها ... الى أن ثناها من يعز قياده (١)

ويؤكد ابن منير الطرابلسي مناعة المدينة وإباءها ، ويشبهها بالنجم البعيد الذي لا يناله انسان ، ولكنها من ذلك هي نجم دان لعماد الدين زنكي ، كما ان النجم يبصره المبصرون بسهولة يقول :

ولكم من ملك حاولها ... فتحلى العين وشمساً في الجبين
هي أخت النجم إلا انها ... منه كالنجم لرأى المبصرين (٢)

ومن هذه المدن أيضا طبرية ، التي بقيت بيد الفرنج حوالي تسعين عاما ، تتمنع على كل من يريد استرجاعها ، حتى جاء صلاح الدين فلانت من بعد قسوة ، يقول ابن الساعاتي :

وما طبرية الا هدي ... ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء ... وسل عنها الليالي والسنينا
تسمت حتى رأت كفؤا فلانت ... وغاية كل قاس أن يلينا (٣)

وقد أضاف الفرنج الى المدن الساحلية تحصينات عظيمة ، بالاضافة الى موقعها الطبيعي المحصن يقول شهاب الدين محمود في عكا :

كانت تخيلها آمالنا فترى ... أن التفكر فيها أعجب العجب
سوران : بر وبحر حول ساحتها ... دارا وأدناهما أنأى من القطب (٤)

ويقول بدر الدين محمد بن أحمد المنبجي مادحا الملك الاشرف :

وكم فتحت حصونا طالما رجعت ... لبأس عنها الملوك الصيد في خجل
حررت من مكة الفرات ما عجزت ... عنه الملوك بعزم غير منتقل
عقيلة المدن أمست من حصانتها ... وصونها من ليالي الدهر في عقل (٥)

---

(١) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٩٧
(٢) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٩٨
(٣) الروضتين ٢ / ٨٤
(٤) جواهر السلوك ورقة ٥٩
(٥) تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٤

ومن هذه المدن البحرية مدينة صور ، ويقول العماد في وصفها " هذا بلد حصين ، ومكانه في الارض مكين ، في البحر ثلاثة أرباعه ، وفي السماء ارتفاع بقاعه ، والطريق المسلوك يسلك من البر اليه ، قد أحاط بها البحر من جانبيه ، وقد قطعوه بخندق في عرضه ، وعمقوه ونزلوا في أرضه " (١)

ومنها طرابلس التي يصفها ابن عبد الظاهر بقوله : " لها خطار وليس لها من البر الا بمقدار ساحة الباب من الدار ، كأنها في سيف ذلك البحر جبل قد انحط ، أو ميل استواء قد شق عن الخط ... " (٢)،

ويلاحظ أن الادباء قد عمدوا الى اظهار مصير هذه الحصون بعد المبالغة في وصفها أحيانا ، وغالبا ما يصفون سيطرة المسلمين عليها ، أو هروب الفرنج منها ، أو تهدمها بسبب الزلازل التي كانت تضرب المنطقة ، يقول سبط بن التعاويذي مهنئا صلاح الدين بانتصاره على الفرنج في موقعة من عيون سنة ٥٧٥ هـ :

قذفت أهلها الحصون الى البا ... ساء حتى عوّضتهم بالسجون

وأراهم رب السماء بأسيا ... فك ما لم يخل لهم في الظنون (٣)

ويقول الامير نجم الدين محمود بن نبهان العراقي :

ظنوا بناء الحصن صونا لملكهم ... فأصبح بالشمّاء منتهك الستر (٤)

وحين فتح الاشرف خليل قلعة الروم مدحه شهاب الدين محمود بقوله :

فان رمت حصنا سابقتك كتائب ... من الرعب أو جيش تقدمه النصر

ففي كل قطر للعدا وحصونهم ... من الخوف أسياف تجرد أو حصر

فلا حصن الا وهو حصن لأهله ... ولا سُحُب الا لأرواحهم قبر (٥)*

---

(١) الفتح القسي ١٥٧
(٢) الاعشى ٧/٣٦٨ ، نهاية الارب ٥/١٥٨ ـ ١٥٩
(٣) الروضتين ٢/٩
(٤) المصدر السابق ٢/١٢
(٥) البداية والنهاية ١٣/٣٢٢
* لمزيد من الامثلة انظر : الروضتين ١/١/١٠٠ ، ٢/١٢ ، ١٣١ ، ١٢٦ ، ١٥٧ ، صبح الاعشى ٧/١١٢ ، الكامل ١١/٤٥٥ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٥٧ ، ١٢/٣٣١ النوادر ٩٠ ، ديوان أسامة ابن منقذ ١٠٣ ، ابن حبيب ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ١/١٢٥ مخطوط ، عقد الجمان ج ٢٠ ق ص ٧٢٢ ، ج ١٢ ق ١ ، ١٨٠ مذكرات جوانفيل ١/١٠٦ ، ١١١ ، ١١٢

وهكذا يصور الأدب العربي هذه الحصون وقد تحولت الى سجون ، ويصور الخنادق وقد تحولت الى قبور ، يقول البوصيري في مدح المنصور قلاوون :

لقد جهلت داوية الكفر بأسه — وغرهم بالمسلمين غرور
فلا يركنوا من الخوة فإن أمهم — وإن كثرت فيها البنون نزور
يظنون خيل المسلمين بعدها — عن الصد وفي أرض العدو دحور
أما زلزلت بالعاديات وجاءها — من الترك جم لا يعد غفير
فذاقوا به مر الحصار فأصبحوا — لهم دون ذا الحصن الحصين حصير
يصيحون أعلى السور خوفا كأنما — نفى عنه نوم المقلتين صفير
وماذا يرد السور عنهم وخلفه — من الخيل سور والصوارم سور (١)

وفي فتح عكا يقول شهاب الدين محمود :

ظنوا بروج البيوت الشم تعقلهم — فاستعقلتهم ولم تطلق ولم تهب (٢)

ويقول فتيان الشاغوري مخاطبا صلاح الدين :

ليحفروا تلك الخنادق حولهم — إلا لتجعلها لهم أجداثا (٣)

هذه هي حصونهم . أما قلاعهم ، فهي أبنية عالية قد تكون داخل الحصن ، لتشرف على تحركات أعدائهم ، وقد بالغ ابن عبد الظاهر في وصف قلعة حصن المرقب ، فجعلها تستظل بسدرة المنتهى لعلوها ، فيقول : " وهذه القلعة لها بالنجم مناط ، وبالسحاب ارتباط ، ولها على الدهر اشتراط ، ولأبروجها ببروج السماء اختلاط واختلاط ، كم يسمو اليها السهى ، ولولا المغالاة — واستغفر الله — لقلت تكاد تستظل بسدرة المنتهى ، كأنما الرياح لجيدها منطقة والنجوم لخصرها منطقة ، .... " (٤) ، وليست هذه القلعة هي القلعة الوحيدة التي تتصف بهذه الصفات ، فهذا العماد يصف قلعة الشقر بأنها مرتفعة لا تصل اليها المشاة ولا يستطيع الذر أن يتسلقها لوعورتها ، فكأنها قطعت من الجبل ، يقول : " وهي قلعة شاهقة ، حصن أعلى القلاع ، على صخرة منقطعة ، عالية مرتفعة ، ومن نواحيها واد ، شائف من العمق غير باد ، في أغوار ووهاد ، وقد قطعت من الجبل حتى اتصل بالوادي خندقها ، وأخذ من السواد موقعها ، فما اليها طريق ، ولا عليها طروق ، ولا فيها للطامع علوق ، ولا للسهم اليها مروق ولا للزحف فيها مطمع ، ولا الذر نحوها مسالك ... " (٥) ، وقد رماها صلاح الدين بالمنجنيقات فلم يؤثر فيها ، لولا أن دب الرعب في قلوب أهلها فجاءوه يطلبون الأمان . ومثل هذه القلعة قلعة غزة ، التي هي كرسي " الداوية " ، ومهبط رؤوسهم ، ومحط نفوسهم .

---

(١) ديوان البوصيري ٩٧ ، وأنظر القصيدة من ص ٩٦ — ٩٨
(٢) جواهر السلوك ١٦١
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٦٩
(٤) تشريف الأيام والعصور ٨٥
(٥) الفتح القسي ٢٤٥

وقد جاء في وصفها أنها " قلعة أنفها شامخ في الهواء ، وعطفها جامح عن عطفة اللواء ، قد أوغلت في الجو مرتفعة ، وأومضت في الليل ملتمعة ، وبرداء السحاب ملتفعة ، قد صافحتها أيدي الانام بالسلامة من قوارعها ، وصادتها حوادث الايام من روائعها ، الى ان أتيح لهما من أتاح لها الحَيْن ، وقيض لها من أقتضى منها الدين" (١) * .

وأما النوع الثالث من التحصينات فهو الاسوار والابراج ، فقد اعتمد الصليبيون عليها أشد اعتماد ، لانها تحميهم من الهجوم المباغت ، وأما الابراج المنتشرة في جهات معينة من الاسوار فهي تكشف تحركات أعدائهم ، ولذلك فقد اهتموا ببنائها ، وأنفقوا عليها الاموال الطائلة ، يقول القاضي الفاضل في وصف سور حصن بيت الاحزان " وقد عرض حائطه الى أن زاد على عشرة أذرع ، وقطعت له عظام الحجارة ، كل فص منها من سبع أذرع الى ما فوقها وما دونها ، وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر ، لا يستقر الحجر في مكانه ، ولا يستقل في بنيانه ، الا بأربعة دنانير فما فوقها ، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الصم ، المرغم بها أنوف الجبال الشم وقد جعلت سقيته بالكلس ، الذي اذا أحاطت قبضته بالحجر مازجه بمثل جسمه ، وصار جسمه وصاحبه بأوثق وأصلب من جرمه ، وأوعز الى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه" (٢)

وقد أستخدم الفرنج هذه الخبرات في بناء الاسوار حول المدن المهمة ، رغم حصانتها الطبيعية مثل عكا ، فأنشأوا سورا من الحجارة والصخر ، بالاضافة الى السور البحري الذي كانت تنعم به مدينة عكا ، ولذلك بقيت آخر معقل للفرنج في فلسطين ، ولم يستطع قلاوون ولا من قبله أن يفتتحوها ، حتى جاء الاشرف خليل بن قلاوون وجمع الجنود من مصر والشام وحاصرها حصارا شديدا وقصفها بالمجانيق قصفا حطم بعض الاسوار ، فأستسلمت المدينة ، وأستسلم على أثرها مدينتا صور وصيدا ، وبذلك أنتهى الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي ، يقول شهاب الدين محمود :

ما بعد عكا وقد هُدت قواعدها … في البحر للشرك عند البر من أرب
لم يبق من بعدها للكفر اذ خربت … في البر والبحر ما ينجي سوى الهرب (٣)

وقد وصف شهاب الدين في قصيدته هذه سور عكا وصفا دقيقا مبينا مادة بنائه ، وعلوه وأرتفاعه ، وقوته وثقة أصحابه فيقول :

---

(١) صبح الاعشى ٢٣/٧
* لمزيد من الامثلة عن القلاع أنظر ابن شداد ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٥ ، صبح الاعشى ٤٠١/٨ ، ٤٠٢ ، الروضتين ١٦٨/٢
(٢) الروضتين ١٣/١
(٣) ابن الفرات مج ١١٦/٨ ، جواهر السلوك ورقة ٥٩ ، فوات الوفيات ١٥٣/١

كانت تخيلنا آمالنا غزى ... أن التفكر فيهما أعجب العجب
سوران : بر وبحر طول ساحتها ... دارا وأدناهما أنأى من القطب
خرقاء أمنع سوريها وأحصنه ... غلب الكماة وأقواه على النوب
منفع بصفيح حولها أكم ... من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمامة تهدى من صواعقها ... بالنبل أضعاف ما تهدى من السحب
كأنما كل برج حوله فلك ... من المجانيق ، يرمي الارض بالشهب
فناجأتها جنود الله يقدمها ... غضبان لله ، لا للملك والنشب
كم رامها ورماها قبله ملك ... جم الجيوش فلم يظفر ولم يصب (١)

ومما ساعد في أهمية الاسوار وسور عكا خاصة ، تلك الابراج التي أشار اليها شهاب الدين محمود والتي أضطلعت بمهمتين : الاولى قصف الجيش الاسلامي ، والثانية الاشراف من خلالها على تحركات جند المسلمين ، وفي المهمة الثالثة للابراج يقول ابن عنين في معرض رثائه للمعظم عيسى بن الملك العادل :

ولقد شهدتك يوم تيسارية ... والشمس قد نسج القتام لها ردا
والكفر معتصم بسور مشرف الا ... بران أحكم بالصفيح وشيدا (٢)

وأما النوع الرابع والاخير من هذه التحصينات فهو الخنادق ، وقد استفاد الفرنج من طبيعة المنطقة فحصنوها بالمباني العالية ثم حفروا حولها الخنادق وعمقوا الاودية ان كانت محاطة بأودية .

وقد احتوى النثر الادبي على وصف هذين النوعين من الخنادق : الصناعية المحفورة والطبيعية المعمقة ، يقول العماد : " وشرع الفرنج في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر الى البحر ، وأخرجوا ما كان في مراكبهم من آلات الحصر ، وكان من قضاء الله أنا أغفلناهم ، وأمهلناهم بل أهملناهم ، حتى عمقوا الحفور ، ووثقوا من ترابها السور ، وملأوه بالستائر ، ومنعوه من الطير الطائر ، وبنوا أسسه ، وستروه وترسوه ، ورتبوا عليه رجالا ، ولم يتركوا اليه لمو أمل مجالا ، وتركوا فيه أبوابا وفروجا ، ليظهروا منها اذا أرادوا خروجا ... " (٣) ، ويقول شهاب الدين محمود في وصف الخندق المحيط بحصن المرقب : وحوله خنادق لا تعلم منها الشهور الا بأسمائها ، ولا تعرف فيها الأهلة الا بأوصافها ... " (٤) ، ونلاحظ أهتمامهم بالخنادق في الفترة المتأخرة أكثر من أهتمامهم بها في الفترة الاولى موجودهم في المشرق الاسلامي ، ويلحظ ذلك من وصف شهاب الدين محمود السابق لسور عكا * .

---

(١) جواهر السلوك ص ٥٩ ، ابن الفرات ٨/١١٦ ، فوات الوفيات ١/١٥٣
(٢) ديوان ابن عنين ٦١
(٣) الفتح القسي ٣٦٥
(٤) صبح الاعشى ٨/٣٩٤ ، حسن التوسل ١٤٥
* لمزيد من الامثلة أنظر : الفتح القسي ١٥٧ ، الروضتين ٢/٥٥ ، ١٤٤ ، ١٧٠ ، زبدة الحلب ١/١٣٢ ، صبح الاعشى ٦/٥٢٦ ، مفرج الكروب ٤/١٨

رابعا : التخطيط العسكري :

والمقصود بالتخطيط العسكري ، وضع الخطط المدروسة قبل وقوع المشكلات ، ومواجهة المشكلات لدى وقوعها ، وقد صور الادب تخطيط الفرنج من الناحية الحربية في حالتي الضعف والقوة عندهم ، والوسائل التي أعتمدوها في التخطيط .

أما مواجهتهم للمواقف القتالية في حالة ضعفهم فهي تتسم بالحذر والتحرز من جهة ، والمكر والمخادعة من جهة أخرى ، فها هو ذا أسامة بن منقذ يصفهم وصف مشاهر لهم بأنهم " أكبر الناس احترازا في الحرب " (١) ، وقد ذكر العماد ما يؤكد هذا المعنى حين قال : " وعرف الفرنج مشاق خوضهم ، واشفاق سعيهم ، فاحترزوا من الهلكة ، وما عادوا الى مثل تلك الحركة ... " (٢) ، ويقول : " وأصحابنا قد قربوا منهم حتى كادوا يخالطونهم ، وأرادوا يباسطونهم ... وهم ثابتون ثابتون ، ساكنون ساكتون ، ونحن نقول لعلهم يحملون ، ويغضبون فيجهلون ، فنتمكن من تفصيل جملتهم بحملتهم ، وتفريق جماعتهم ... " (٣) ، ولم يبتعد ابن شداد عن هذا المعنى حين قال : " وكانوا قد جعلوا راجلهم سورا لهم ، يضرب النشاب بالزنبورك * والنشاب حتى لا يترك أحدا يصل اليهم ... فانه كان يطير عليهم كالجراد ، وخيالتهم يسيرون في وسطهم ولم يظهر منهم أحد ... " (٤) .

ومن المواقف التي تسترعي الانتباه ، موقف الملك فردريك الذي طلب الملك الكامل مساعدته ضد أخيه صاحب دمشق ، وحين جاء الى الشرق وجد الواقع قد تغير اذ كان صاحب دمشق قد توفي ، فلجأ الملك فردريك الى الحيلة والدهاء ، وأقنع الكامل بأن يفي بوعده ويعطيه القدس ، وكان من جملة ما كاتبه به قوله : " أنا عتيقك ، وتعلم أني أكبر ملوك الفرنج ، وأنت كاتبتني بالمجيء ، وقد علم البابا والملوك بانتقالي ، فان رجعت خائبا انكسرت حرمتي ... " (٥) فتنازل له عنها .

هذه أمثلة تدل على تخطيطهم ومواجهتهم المشاكل ، وكانوا دائما يختلسون الفرصة للايقاع بالمسلمين ، لا سيما اذا علموا بتفرق المسلمين أو ضعفهم ، فهذا ابن شداد يقول : " علم عدو الله أن العساكر قد تفرقت في أطراف البلاد وأن الميمنة قد خفت لأن معظم من كان بها بحكم قرب بلادهم من طريق العدو ، فأجمعوا رأيهم ، واتفقت كلمتهم على أنهم يخرجون بغتة ، ويهجمون على طرف الميمنة فجأة ، فخرجوا ... " (٦) ، ومن هذا الجانب تقربهم للجياع حين حصلت المجاعة سنة ٥٩٧ هـ ، يقول العماد : " ومراكب الفرنج على ساحل البحر على القسم تسترق الجياع باللقم " (٧) .

---

(١) الاعتبار ١٧ ، وأنظر ٥٨ ، ٦٧ ، ١٥١ (٢) الروضتين ٢ / ١٧٩

(٣) المصدر السابق ٢ / ١٧٩

* الزنبورك هو : نوع من القسي ترمى عنها السهام

(٤) نفسه ١ / ١٧٩ ، ١٩٠ (٥) الشذرات ٥ / ١١٨

(٦) الروضتين ٢ / ١٥٨ ، النوادر ١٤٨

(٧) الروضتين ٢ / ٢٤٤ ، ولمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ٢ / ١٢٨ ، ١٤٤ ، ١٩٠ ، الفتح القسي ٤٤٣ ، عقد الجمان جـ ١٨ ق ١ ، ٢٢٨ ، ابن الفرات مجـ ٤ جـ ٢ / ٢٥٥

وحين يكون المسلمون أقوياء ، كان الفرنج يسلكون طرائق الحيطة والحذر ، فحين اجتمع لديهم عدد ضخم سنة ٥٨٦ في عكا " أقاموا في وسط خيامهم حائطا مستطيلا يشبه السور من التراب ، وتلالا تشبه الأبرجة مدورة ورفعوها بالأخشاب ، وقالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ، ورموه قدامها ، وهم يتقدمون أول أول ، وترتفع حالا بعد حال ، حتى صارت منه كنصف علوة سهم ... " (١).

ومن مظاهر تخطيطهم البارع للقتال ما اتخذوه من آلات تناسب ظروف المعركة ، كما فعلوا وهم محاصرون لعكا اذ " عمدوا الى أكبر بطسة واتخذوا فيها مقاتلا كأنه سلم ، وهو غير متقدمها مركب مقدم ، وقد جعلوها بحيث اذا قرب الى البرج ركب رأس السلم على شراريفه ، وصعد الرجال اليه في تجاويفه ، وتعبوا في ذلك أياما ، وأشبعوه توثيقا واحكاما ، حتى اذا التصق بالبرج ألصقت به قوارير النفط ، وتوالت أمطار البلايا من الجروخ والمنجنيقات على أولئك الرهط ثم عمل الفرنج برجا عاليا في أكبر مركب ، وحشوه بالحطب ، وعملوا على رأس صاريه مكانا يقصد فيه الزراق ، وقدموه الى برج الذبان ، وسلطوا على جوانبه النيران ، فأصاب الله من صهب لهبه نكباء نكبت الناس عن البرج المحروس ، وكتب الفرنج على الوجوه والرؤوس ... " (٢) ، وقد عمدوا الى الهجوم المفاجيء على المسلمين ما وسعهم ذلك ، فقد أنشأ البرنس أرناط اسطولا في بحر أيلة ، ونهبوا ما وجدوه من المراكب ، ومن فيها من التجار ، وبغتوا الناس ، لانهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجيا قط ... " (٣) ، وحين مروا بنابلس زمن الناصر داود بن المعظم عيسى " وجدوا فيها فرصة فانتهزوها ، وجهزوا اليها خيلهم ورجلهم من كل أوب فاجتازوها ... " (٤).

ومن المعروف أن الحرب لا تنتظر الفرص العارضة ، ولذلك هيأوا هم الظروف المواتية لانجاح أعمالهم العسكرية ، اما بالكمائن التي تعترض جيشا صغيرا للمسلمين ، واما بايهام المسلمين بابتعادهم عن الميدان ، واما بكبسهم في ساعة غفلة ونوم ، والامثلة على ذلك كثيرة ، اما عن الكمائن فيروي أسامة أن عددا من الفرنج جاء على شيزر وسألوا البواب من خلال الباب " ما اسم هذا البلد ؟ " فأخبرهم عنه ، فعادوا .. وأراد أسامة اللحاق بهم فنهاه عمه وقال : " هذه مكيدة " وأثبت له وجود كمين لهم .. " (٥)

---

(١) الروضتين ٢/١٨٥
(٢) الروضتين ٢/١٦٣ ، وانظر الفتح ٤٧٧ ، والنوادر ١٢٩
(٣) الكامل ١١/٤٩٠ .
(٤) الفوائد الجليةفي الفرائد الناصرية ورقة ٦٢
(٥) الاعتبار ٥٦ ــ ٥٧ .

ويصف سبط بن التعاويذي مكائد الفرنج في محاولتهم ايقاع صلاح الدين وجيشه في كمين ، ولكنهم فشلوا وخسروا حصنهم الذي كان مركز انطلاقهم ، يقول :

كاد الاعادي أن يصيبك كيدهـا ... لو لم تكدهم برأيها المأمون
كمنوا ، وكم لك من كمين سعادة ... في الغيب يظهر من وراء كمين
فهوت نجوم سعودهم وتثنى لهم ... بالنحس طائر جدك الميمون (١)

وقد ذكر العماد أن الفرنج أوهموا المسلمين أنهم بعيدون عن طريقهم ، بل أشاعوا أنهم تحركوا الى منطقة بعيدة ، فركن الجيش الاسلامي الى الراحة ، ولما كان وقت الغروب هاجموهم ونالوا منهم ، يقول : رحل الفرنج على سمت عسقلان ، وأشاعوا أنهم يعيدون بها الى عمران ، وهم نازلون بظاهرها ، جائلون في مواردها ومصادرها ، فرأى الانكليتيرى دخانا على بعد فقصده ، وكان ثم جماعة من الاسدية ... وهم غارون عن قصدهم ، فوصل اللعين اليهم وقصت المضرب فوق عليهم ..." (١) ، وفي صور ، كبس الفرنج سفن المسلمين القادمة من عكا ، وكان الفرنج يرقبونهم ، حتى اذا ناموا هاجموهم وهزموهم ، يقول العماد : " وأمن أصحابنا بعلو الامر وخلو البحر ، وأمنوا من الخوف ، وأدمنوا على الطوف ، ... وسهروا الى أن شارفوا الساحل ، وكل منهم لما أستأنس نعس ، وقاس في النوم ما تنفس ، فما انتبهوا الا وسفن الفرنج بهم محدقة ، ونيرانهم محرقة ..." (٢) .

وقد استقى الفرنج المعلومات عن المسلمين بعدة طرق : منها عن طريق البدو والجواسيس المندسين في المعسكر الاسلامي * ، وقد سبق بيان ذلك ، أو عن طريق الرسل الذين كانوا يرسلونهم للتفاوض مع المسلمين بشأن الصلح أو غيره ، يقول ابن شداد : " وكان غرضهم بتكرار الرسائل تعرف قوة النفس وضعفها ، وكان غرضنا بقبول الرسائل تعرف ما عندهم من ذلك أيضا ..." (٤) ، ويقول القاضي الفاضل عن قدومهم من الرسائل : " وتعدوا نظرة من شدة ، وأنتظارا لنجدة " (٥) ** ، وهذا يدل على خبرتهم في شؤون الحرب ، وحسن رأيهم فيها ولا عجب بعد ذلك أن نجد الادب يثني عليهم بهذه الصفة ، فيصف الهنفرى بأنه " يضرب المثل به في الشجاعة والرأي في الحرب " (٦) ، وكذلك جوسلين (٧) وغيرهما .

---

(١) ديوان سبط بن التعاويذي ٤٢٢ (٢) الروضتين ٢ / ١٩٦
(٣) الفتح ١٦١ ، وأنظر الفتح ١٧٨ ، والنوادر ٢١٤
* أنظر جوانفيل في مذكرات عن القديس لويس ١١٣ ، ١٢٩ ، وتاريخ مختصر الدول ٢٠٢ ـ ٢٠٣
(٤) النوادر السلطانية ١٦٦ ، ١٨٨ ، ١٩٩
(٥) صبح الاعشى ٦ / ٥٠٢
** المزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ٢ / ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ابن الفرات مج ٤ ج ٢ / ٢٥٥
(٦) الكامل ١١ / ٤٥٣
(٧) عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقه ٢٠٦ ـ ٢٠٧

ومما يدل على حسن رأيهم في الحرب ، أيضا ، تلك الخطط التي قصدوا منها فتح عدة جبهات عسكرية لتشتيت عساكر المسلمين ، ومن ذلك ما ذكره العماد عن " الانكتير الذي تعذر عليه أخذ القدس ، ففكر في حصار بيروت " لان أخذ هذا البلد هين ، وقصده متعين ، واذا حاصرناه جذبنا السلطان وعساكره الى جانبه ، وخلا القدس من جمة كتائبه وجمرة مضاربه " (١) ، ومنها أيضا ، ذلك القصف المستمر للمدن التي يريدون فتحها ، وقد عمدوا - لتحقيق ذلك - الى تقسيم الجيش الى فرق تعمل بالتناوب ، يقول ابن شداد : " ولما أحس العدو في نفسه بقوة بسبب توالي النجد عليهم ، أشتد طمعهم ، وسلطوا عليه " المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لا يتعطل ليلا ولا نهارا " (٢) ويقول : " وأنقسموا أقساما وتناوبوا فرقا ، كلما تعب قسم أستراح ، وأقام غيره مقامه " (٣) ، ومن هذا القصف المركز المستمر ، لجأوا الى خطة أخرى ، وهي أنهم أطبقوا الحصار على البلد اطباق الشفاه على الثغور ، فمنعوا الداخل اليها والخارج ، حتى تسنى لهم السيطرة عليها . وهناك أدلة تشير الى أن الفرنج لجأوا الى هذه الخطة منذ وقت مبكر ، ومنها ما جاء في وصف فتيان الشاغوري للفرنج الذين أحاطوا بدمياط سنة ٥٦٥ :

داروا بها في البحر من كل جانـــــب ومن دونها ستر من الموت حايـــل (٤)

ويؤكد ابن شداد هذا المعنى في حصار الفرنج لعكا سنة ٥٨٦ اذ يقول : أدار الفرنج مراكبهم حول عكا حراسة لها عن أن يدخلها مركب للمسلمين ، وكانت قد أشتدت حاجة من فيها الى ... " (٥) ، ويسوق العماد هذا القول بألفاظ مؤنقة فيقول : " وأستدارت الفرنج بعكا كالدائرة بالمركز ، وزادوا من جانبنا في التمرس والتحرز ، ومنعوا من الدخول والخروج ولج أولئك العلوج في ضبط طريق الولوج " (٦) ، وبعد هذا التخطيط ، وهذا العمل الدؤوب ، أستخدموا خطة مناسبة للهجوم ، فطموا الخنادق المحيطة بالبلد ، وأستعملوا من أجل ذلك جثث موتاهم مع أنهم يحرصون على دفنهم ، بالاضافة الى جثث الحيوانات ، يقول العماد في حصارهم لعكا : " وداموا يرمون فيه جثث الاموات وجيف الخنازير والدواب التالفات ، حتى صاروا يلقون فيه قتلاهم ويحملون اليه موتاهم " (٧) .

---

(١) الفتح ٥٦٧ ، ٦٠١ ، الكامل ١١ / ١٨٥ ، ومضمار الحقائق ٢٤
(٢) النوادر السلطانية ١٣٤ ، ١٣٦
(٣) المصدر السابق ١٦٧ وينظر ١٧٩
(٤) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٨ ، عقد الجمان ١٢ ق ٢ / ٤٥٧
(٥) النوادر السلطانية ١٣٤
(٦) الفتح القسي ٢٦٩ ، وينظر المثل السائر ١ / ٤٠٧
(٧) الفتح القسي ٤٨٣ ، وانظر للمزيد ابن الوردي ٢ / ٢٥ ، ابن الفرات مج ٤ ج ١ / ٢٧٨

خامسا : الحرب النفسية :

أعتمد الصليبيون في حربهم للمسلمين على الجيش والحصون ، كما أعتمدوا على الحرب النفسية التي من شأنها اضعاف عزيمة المسلمين ، وتشكيكهم بقوتهم بأنفسهم وبقادتهم ، وقد اتبعوا في ذلك سبلا عدة منها :

١ . التهديد بالكثرة : ويتضح ذلك بعد الانتصارات العظيمة التي حققها صلاح الدين في أرض فلسطين ، اذ توجه الى اللاذقية وأحتلها ، فجاءتها نجدات من عقليه ، فطالب مقدمهم من صلاح الدين ارجاع هذه المنطقة للفرنج ، ثم هدده قائلا ما مؤداه : " والا جاءك من وراء البحار في عدد الامواج أمواج بعد أمواج ، وسار اليك ملوك ذوي الاقاليم من سائر الاقاليم ، وهؤلاء أدون منهم ، فاتركهم واصفح عنهم ..." (١) ويقول العماد في ذلك على لسان قائد الفرنج : " وان أبيت غير الغيرة والاباء ، ودمت على ارهاق الدهماء ، واهراق الدماء ، جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق ، وأفاق للتناصر على دفع هذا الخطب نصارى الافاق ..." (٢) وعلى أثر استعادة صلاح الدين للقدس هب الغرب الاوروبي لنجدة قومهم في فلسطين ، وجاء ملك الالمان بأعداد هائلة ، وبعث مقدم الارمن يخبر صلاح الدين بهم ، ولم يكن دافعه في ذلك الحرص على مصلحة المسلمين ، وانما اضعاف نفوس المسلمين ، ويقرر العماد هذا المعنى فيقول : "ولا شك أنه الى جنسه النصرانية مائل ، وبمساءة أهل ملته قائل ، ولما وصل هذا النبأ ، وقيل انه عظيم ، وورد هذا الخبر ، وقيل انه أليم ، كاد الناس يضطربون ، على انهم يمدتون ويكذبون ، ومن طرف كل ذي من الرأي يجذبون ..." (٣) وأستمر هذا الاسلوب في الحروب بعد وفاة صلاح الدين ، ومع صاحب حلب الملك المنصور ، اذ جاءه رسول الداوية ، وأخبره بكثرة الفرنج المتجهين الى اللاذقية وجبلة ، ويعقب الراوي على هذه الحادثة بقوله : " وانما قصدت الداوية بهذه الاخبار الارهاب ليصالح الملك المنصور بيت الاستبار ، فانهم سألوا الداوية التوسط بينه وبينهم ..." (٤) وقد تكرر هذا السلوك زمن الكامل بن العادل (٥) ثم زمن الصالح نجم الدين أيوب (٦) ، ولكن ما مدى نجاح الفرنج في هذه الحرب؟ وهل أدت الى اضعاف همم المسلمين ؟ ، ان تلك الروايات نفسها تحمل الجواب ، فبعد كل حادثة يعقب الكاتب موضحا نفسية المسلمين ، وهي في جميع الحالات نفسية مؤمنة بالنصر قوية لا تخشى الكثرة ، ولا تخاف الهزيمة ، فها هو ذا صلاح الدين يرد على

---

(١) الروضتين ٢ / ١٦٩
(٢) الفتح القسي ٢٤٠ ، وانظر الحادثة في الكامل ١٢ / ١٠
(٣) الفتح القسي ٣٢١ والروضتين ٢ / ١٥٠
(٤) مفرج الكروب ٤ / ١٤٦ ، ابن الفرات مج٤ ج٢ / ٢٥٥
(٥) مفرج الكروب ٤ / ٩٨ ـ ٩٩
(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ٢ ، ٣٤٧

مقدم جيش الفرنج بقوله : " قد أمرنا الله بتمهيد الأرض ، ونحن قائمون في طاعته بالفرض ، وعلينا الاجتهاد في الجهاد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولو اجتمع علينا أهل الأرض ، ذات الطول والعرض ، لتوكلنا على الله في اللقاء ، ولم نبال بأعداد الاعداء " (١) .

أما جواب الملك المنصور الايوبي لرسول الداوية فهو " انا لا نجزع بما تقول ولا نكترث ، ولو أنهم أضعاف ذلك لناجزتهم " (٢) ، وأما جواب الكامل فكان رفض تهديدات الملك فردريك ، رغم ضعف الدولة الايوبية حينئذ ، وانقسامها ... " (٣) .

١ . أثارة الفتن : وقصد الفرنج بذلك اختلاق الشائعات ، واظهار ضعف القائد المسلم ، يقول العماد في مدح صلاح الدين ، وقد هزم الفرنج في الاسكندرية :

ولكم أرجف الأعادي فقلنـــــا ما لما تذكرونــــــه تأثيــــر
ورقبنا كالعيد عودا اليـــــو م به الأنام عيد كبيـــــر (٤)

وقد قال ابن القلانسي قبل هذا حين مرض نور الدين وأرجف بموته :

تروعت القلوب من البرايـــــا وصار شجاعها مثل الجبـــــان
وثارت فتنة يخشى أذاهــــا على الاسلام في قاص ودان (٥)

٢ . التهديد بالقتل وسفك الدماء ، واظهار القوة والآلات : ويتجلى ذلك في رسالة الملك لويس التاسع للصالح نجم الدين أيوب التي يقول فيها ما معناه : أما بعد ، فانه لم يخف أني أمير الامة العيسوية ، كما اني أقول انك أمير الامة المحمدية ، وانه غير خاف عنك أن أهل جزائر الاندلس يحملون الينا الاموال والهدايا ، ونحن نسوقهم سوق البقر ، ونقتل منهم الرجال ، ونرمل النساء والبنات ، ونخلي منهم الديار .... وقد عرفتك وحذرتك من عساكر قد حضرت في طاعتي تملأ السهل والجبل ، وعددهم كعدد الحصى ، وهم مرسلون اليك ... " (٦) وقد كان جواب الملك الصالح على الرسالة يتضح بالثقة بالنفس اذ قال : " أما بعد ، فانه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك ، فنحن أرباب السيوف ، وما قتل منا قرن الا جددناه ، ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ، فلو رأت عيناك ، أيها المغرور ، حد سيوفنا وعظم حروبنا ... لكان لك أن تعض على أناملك بالندم ، ولا بد أن تزل بك القدم في يوم أوله لنا ، وآخره عليك فهنالك تسوء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون " (٧) .

٤ . اخفاء المشاعر : ومن مظاهر الحرب النفسية اخفاء الفرنج قتلاهم عن المسلمين ، حتى اذا رأى المسلمون ما قتله الفرنج منهم استكثروا ذلك ، ولم يجدوا ما يعزون به أنفسهم من قتلى الفرنج ، يقول العماد : " وكلما مرض منهم قتيل حملوه وشدوه ، وطموا مدفنه وطمروه ، حتى يخفى أمرهم ، ولا يصح لدينا كسرهم ... " (٨)

---

(١) الروضتين ١/٢٦ (٢) ابن الفرات مج ٤ ج٢ ، ٢٥٥ ، وأنظر مفرج الكروب ٤/١٤٦
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ١/١/٢٢٨ (٤) الروضتين ج١ ق ٢/ ٣٦٢
(٥) ذيل تاريخ دمشق ٣٥٠ ، الروضتين ١/٤٦١ ط دار الجيل وأنظر مثلا آخر الباهر ١٦
(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ٢/ ٣٤٧ وانظر أدب الحروب الصليبية لعبد اللطيف حمزة ١٥٤
(٧) السلوك ج١ ق ٢ ص ٣٤٧ (٨) الفتح القسي ص ٤٤٤ وأنظر النوادر السلطانية ٢٥

سادسا : المعارك البرية والبحرية :

تجلى الصراع واضحا بين المسلمين والفرنج منذ أن احتل الصليبيون الاراضي الاسلامية ، ولئن كانت ردود الفعل من جانب المسلمين ضعيفة أول الامر ، الا أنهم لم ييأسوا من استرداد البلاد المحتلة في يوم من الايام ، وهذا يعني امتداد الحرب بين الفريقين ، اذ انه كلما استعاد المسلمون مدينة ، كان الغرب الاوربي يمد الفرنج بالمال والرجال حتى كانت وقعة حطين ، حين استعاد المسلمون معظم البلدان المحتلة ، وهددوا ما تبقى منها .

وقد تعرض الادب لوصف المعارك المتطاولة بين الطرفين ، وأظهر قوة الفرنج في حالتي النصر والهزيمة ، ولكنه هون غرورهم حين ينتصرون ، واستهزأ بهم حين تكون الغلبة للمسلمين ولهذا نجد الادب يركز على نتيجة المعركة لا على تفاصيل الاحداث الجارية فيها ، وان أراد التفصيل ، فلا يكون في الاحداث ، وانما في قوة الجيش أو كثرته ، أو وصف الآلات أو وصف القتلى والنصوص المرتبطة بالمعارك في هذه الفترة كثيرة ، وان كان ينقص معظمها دقة الوصف والواقعية ، ومن هذه النصوص ، وصف العماد لوقائع معركة حطين نثرا كما يلي :

" وسهر السلطان تلك الليلة ، حتى عين الجاليشية * (١) من كل طلب ، وملأ جعابها وكنائنها بالنبال ، .. حتى اذا اسفر الصباح خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار ورنت القسي وغنت الاوتار ، ... واليوم قائظ ، والجيش شائظ ، وللقيظ عليهم فيض ، وما للغيظ منهم غيض ، وقد وقد الحر ، واستشرى الشر ووقع الكر والفر ، والسراب طافح والظمأ لافح ، والجو محرق ، والجوى مقلق ، ولاولئك الكلاب من اللهث لهث ، وبالخبيث عيث ، وظن ظنهم أنهم يردون الماء ، فاستقبلتهم جهنم بشرارها ، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها ... وقد قطعت على الفرنج طريق الورود ، وصلوا من المصطلى بالنار ذات الوقود ، فوقفوا صابرين صابرين ، كافرين مضاربين ، فغلبوا على ضرواتهم ، وشربوا ما في أدواتهم ، وشفهوا ما حولهم من موارد المصانع ، واسترفهوا حتى ماء المدامع ، وأشرفوا على المصير المسمى المصارع ، ودخل الليل وسكن السيل ، وباتوا حيارى ، ومن العطش سكارى ، وهم على شفا البحيرة بحيرة ، وقووا أنفسهم على الشدة ، واستعدوا بالعزائم المحتدة ، وقالوا غدا نصب عليهم ماء المواضي ، ونقاضيهم الى القواضب التواضي ، فأجدوا عزم البلاء وطلبوا البقاء بالتورط في الفناء ، وأما عساكرنا فانها اجترأت ، ومن كل ما يصوتها برئت ، فهذا لعنانه شاحذ ، وهذا لعنانه آخذ ، وهذا سهم مفوق ، وهذا شهم موفق ، وهذا مكثر للتكبير ، وهذا تاج للسعادة ، وهذا راج للشهادة ، فيالله تلك من ليلة حراسها الملائكة ، ومن سحر أنفاسها ألطاف الله المتداركة ، والسلطان قد وثق بنصر الله فهو يمضي بنفسه على الصفوف ويحضهم ويعدهم من الله بنصره المألوف ، ويغري المئين بالالوف ... وكان للسلطان مملوك اسمه منكورس ، حمل في أول الناس ، وكان حصانه قوي الراس ، فأبعد عن اخوانه ، ولم يتابعه أحد من أقرانه ، فانفرد به الفرنج ، فاثبت في مستنقع الموت رجله ، وقاتل الى أن بلغوا قتله ، فلما أخذوا رأسه ظنوا انه أحد أولاد السلطان ، وانتقل الشهيد الى جوار

---

* الجاليش : مقدمة القلب في الجيش أو الطليعة منه

(١) ديوان فتيان الشاغوري

الرحمن ، ولما شاهد المسلمون آستشهاده وتجلده وجلاده ، حميت حميتهم ، وخلصت للمسلمين نيتهم ، وأسرع الجيش على تعبئته ، والنصر على تلبيته … وبرز بالفرنج المصاف ، وأبيت عثرتها أن تنتعش ، وكان النسيم من أمامها ، والحشيش تحت أقدامها ، فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش ، فتأجج عليهم استعارها ، وتوهج أوارها ، فبليوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام في الاصطلاء والاصطلام في نار الضرام ونار الاوام ونار السهام …"(١).

وقد عرض ضياء الدين بن الاثير وصف هذه المعركة بصورة موجزة فقال : " وبرزت خيل القوم ولها زي فرسانها ، وهي مشتاقة الى طرادها ، كاشتياقها الى ميدانها ، وما منهم الا تناود القناة من يده لهذيون ، وتشتعل الروح منه ومن جواده بين ملهبين ، فجرت المغاوير الى المغاوير ، وتلاقت الرياح بالأعاصير ، وكان الطعن منهم عناقا واللهب وثاقا ، وسبق السم الموت ألم الجراح ، ونفذت منتدبة لسرعتها أسنة الرماح …(٢).

ومن المعارك الاخرى التي وصفها الادب معركة دمياط سنة ٦١٩ ، حين رأى الفرنج ان خير سبيل لاسترجاع القدس هو فصل مصر عن بلاد الشام ، فوجهوا قواتهم الى دمياط واحتلوها ، ثم جاءت الامدادات الاسلامية فاسترجعتها ، يقول ابن عنين في ذلك :

تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت	جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذي كل مفاضة	دلاص كقرن الشمس قد أحكمت وضنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا	الينا سراعا بالجياد فأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم	بأطرافها حتى استجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى	وكيف ينام الليل من عدم الأمنا
لقد صبروا صبرا جميلا وداغسوا	طويلا فما أجدت دفاع ولا أغنى
لقوا الموت من زرق الاسنة أحمرا	فألقوا بأيديهم الينا فأحسنّا(٣)

ومنها في وصف معركة زمن السلطان قلاوون ، كانت نتيجتها فتح حصن صافيتا ، يقول ابن عبد الظاهر : " وأشتد الامر على الكفار ، فقاتلوا قتالا ألقى مفاتيح الاسلحة ، وأطار حجارة مجانيقهم بغير أجنحة ، وأضحى يشجو النصول المترنمة على غصون السهام المترنحة … هذا وأهل الايمان يتلقون ذلك كله بصبر يستطعمون منه شهدا ، وأقدام يتلقى الحديد بأكبار ما زالت الى موارده تمدا … والبلاد الفرنجية قد غضت منها الابصار ، وشخصت القلوب واعتقد كل منها في نفسه أنه بعد هذا الحصن المطلوب ، فهذه تود لو أكنتها البحار تحت جناح أمواجها ، وهذه لو أسبلت الريح العواصف عليها ذيول عجاجها …"(٤).

---

(١) الروضتين ج ٢ / ص ٧٦ ــ ٧٧ وأنظر الكامل ١١ / ٥٢٨ ــ ٥٣٥

(٢) محمد زغلول سلام ، ضياء الدين بن الاثير ص ٧٥

(٣) ديوان ابن عنين ص ٢٠

(٤) صبح الاعشى ٧/ ٣٥٥

ويصف ابن عبد الظاهر معركة حمص، شعرا ، فيقول :

جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم ... لاترتضي غير حقان البحث والنفر
وأتى الشهيان في يوم الشهيد ضحى ... وأمدت الحرب حتى أذن العصر
والسيف يركعوا لاعلام رافعة ... والرؤوس تسجد لا عجب ولا كبر
والخيل لا تبتدي الا على جثث ... والسهل من أرؤس القتلى به وعر
والبيض تشهد في الاجفان من مهج ... والسمر ، نا هيك ، يا ما يفعل السمر (١)

ولدى الوقوف عند هذه النصوص يلحظ المرء أنها تصف المعارك البرية وصفا سريعا تظهر من خلاله الحركة ، اما سريعة فتسجل نتيجة المعركة ، واما بطيئة مثقلة بالزخرف اللفظي فتطفيء حرارة الجو وقد تمثلت هذه الحركة في اشكال مختلفة : اما بحركة الجيش في الكر والفر ، أو باظهار حركات الخيل ، أو بالتمثيل والتشبيه والمقارنة ، كتشبيه انطلاق الرمح بومض النجوم أو تمثيل حركة الجيش بحركة موج البحر .. وحدد بعض الادباء ، كابن عبد الظاهر مكان المعركة وزمانها بشكل تقريري ، وانتهى الى وصف القتلى ، فجعل السهل وعرا من رؤوسهم .

ذلك وصف الادب للمعركة البرية ، أما وصفه للمعارك البحرية ، فلا يختلف كثيرا في الاطار العام من حيث الاهتمام بالنتائج ... ولكن أدوات المعركة تختلف باختلاف ساحة المعركة وظروفها ، يقول العماد في وصف معركة بحرية بين الاسطول المصري والفرنجي ، " وصدمت شوانية شواني الضلالة ، فبادت مراكبهم وهي نواكص ، وطارت غربانا بين أجنحة الكفر أعداء الاسلام ناعبة ، واطردت على طرائد الفرنج فطردتها غالبة لاغبة ، وظفرت أول يوم الورود بسفن للعدو مصرة ، والهبت في الماء على أهل النار كل نار للنكال مستعرة ، وانقطعت طرق الافرنج البحرية ، فاستطالت اساطيلنا فذهبت وجاءت ، وعملت ما شاءت ، وبهتتهم مرارا وبالغنائم فاءت ، فضاقت بها العداة ذرعا ، ولم تجد من بعدها مطعما ولا مرعى ... " (٢) .

وبعد أن خلا الجو للمسلمين بعد الانتصارات التي حققها صلاح الدين ، انحصر الفرنج في صور ، فتحركت السفن المصرية لامداد بيروت بعد أخذها من الفرنج ، فقامت سفن الفرنج بالتصدي للمصريين ، ونشبت معركة بحرية بين الطرفين ، يقول العماد في وصفها : فابصر ملاحوها شواني الفرنج لمبارزتها مبرزة ، وللاجهاز وراءها مجهزة ، وكانوا رجالا من بحرية مصر مجمعة ، واصبحت قلوبهم بما جرى على أنظارهم مروعة ، فتواقعوا الى المساء ، وخافوا على دمائهم في الدأماء ، وخرجوا الى البر على وجوههم ، وخافوا مكرهم في مكروههم ، وخروا وغاروا وطاروا وثاروا ... هذا والمنجنيقات ترميهم ، والمفوقات تصميهم وتصمهم ، والقتال قائم ، والنزال دائم ، والصخور تغلق ، والصدور تقلق ، والاحجار تقلقل ، والاسوار تخلخل ، والاوداج شاخبة كالعيون البواكي ، والابشار دامية من الزنبوركات والنوكات النواكي .. " (٣) .

---

(١) عقد الجمان جـ٢٠ ق ٤ ورقه ٦٧٨ (٢) الفتح القسي ١٨١ ـ ١٨٢

(٣) . المصدر السابق ١٦١ ـ ١٦٦

ومن وصف الشعراء لمعركة بحرية ما قدمه أسامة بن منقذ في وصف لمعركة بين المصريين بقيادة طلائع بن رزيك والفرنج ، يقول :

غزوتهم في البحر حتى كأنما الا | ساطيل فيه موجه المتلاطم
بفرسان بحر ، فوق دهم كأنها | على الماء طير ما لهن قوادم
يصرفها فرسانها بأعنة | جرت ، حيث لم توصل بهن الشكائم
اذا دفعوها قلت : فرسان غارة | سروا بجياد ما لهن قوائم
يسوق أساطيل الفرنج اليهم | حمام ، وطير للفرنج أشائم
دماؤهم في البحر حمر سوائم | وهامهم في البر سحم جواثم
فلم ينج في نجو من الارض هارب | ولم ينج نجي لج من الماء عائم
وعاد الاسارى مردفين وسفنهم | تقاد ، كما قاد المهارى الخزائم (١)

هذه الصور الكثيرة من نصوص كثيرة لتكون شاهدا على وصف المعركة ، ولكن معظمها مختارة مما لم نجد فيها الوصف الدقيق للمعركة ، من حيث تطور الاحداث وتفصيلها ، ولو اتخذنا نصوصا أخرى اوجدنا اشتراك كثير من الادباء في نقل جو المعركة . بل قد يجمع بعضهم فيقدم المعركة في صور لا ترتبط عادة بالجو القتالي ، وذلك سعيا منهم وراء الزخرف البياني ، يقول ابن الساعاتي مثلا :

اذا ما تغنى السيف في الهام والطلى | خفينا تثنى رمحه وهو نشوان
تثنى القوام بعضه راقصا له بلا ثمه | وكم مر دهر دونه وهو غضبان (٢)

ويقول العماد : " ورقصت قدود السمر على غناء الصواهل ، وحركت رياح السوابق ذوائب الذوابل " (٣) ، ويقول شهاب الدين محمود :

وغنت البيض في الاعناق فارتقصت | أبراجها اسفا منهن بالقصب (٤)

وقد يقال أن بين الاعراس والمعارك بعض مشابهة بما في كليهما من حركة واضطراب ، وبما ... ولكن وصف الحرب يتطلب كل ما يوحي بالقوة والشدة والعنف ، يستوي في ذلك الالفاظ والاصوات والاخيلة والصور . وقد حد من دقة وصف الادباء للمعارك ، واعطاء صورة واقعية عنها ، بما اسرفوا اليه من زخرف لفظي ولغوي قد يصل الى حد الحذلقة ، ومثال ذلك قول النسابة المصري الجواني :

نثر ونظم طعنة وضرابه | فالرمح ينظم والمهند ينثر (٥)

---

(١) ديوان أسامة ٢١٦ وأنظر أيضا ص ٢١٧
(٢) ديوان ابن الساعاتي ١ / ١٢٩
(٣) الفتح القسي ٥٠٨
(٤) تاريخ ابن الفرات جـ ٨ / ١١٧ ـ ١١٨ ، وأنظر جواهر السلوك ورقه ٦٠
(٥) الروضتين ١ / ١٠٥

وقول العماد :

تنثر الهام كالحروف فما أشبه هذى السيوف بالأقلام
في محاريب حرية البيض صلت وركوع الظبى سجود الهام (١)

وقول شهاب الدين محمود في فتح عكا :

وحطتها بالمجانيق التي وقفت ازاء جدرانها في جحفل لجب
دروعهم نسبوا أضعافها غضبا للكسر والحطم منها كل منتصب (٢)

ومن النثر قول شهاب الدين محمود يصف مجانيق الفرنج التي عجزت عن الصمود أمام مجانيق المسلمين : " فاعلمتهم أنها لا تطيق الدفاع عن غيرها بعد أن عجزت عن نفسها ، بسطت أنفها امارة على الاذعان ، ورفعت أصابعها اما ابابة أن تذل للتشهد ، واما انابة الى طلب الامان " (٣) ، فهذه الاخيلة تصرف عن الجو الواقعي للقتال ، وان احتوت على أنماط جديدة غير مألوفة من التشبيهات والاستعارات ، ومن عوامل الافتقار الى الوصف الواقعي الدقيق للمعركة ، التركيز كما أسلفنا على النتائج ، دون تتبع مجريات الاحداث ، ففي حديث القاضي الفاضل عن حصار الفرنج لعكا ، يركز على انتصار المسلمين في مرحلة من مراحل الحصار ، على النحو التالي : " فنازلت الفرنج تغر عكا في اسطول ملك بحره ، وبحر سلك بره ، فنهضنا اليه ، ونزلنا عليهم وعليه ، فضرب معنا مصاف ، تقلت فيه فرسانه وشجعانه ، وتقلت صلبانه (٤)

وقد يتبادر الى الذهن أن الادباء الذين تحدثوا عن المعارك كانوا بعيدين عن ساحة القتال ، ولكن هذا الامر لا يمكن تعميمه على أدباء العصر جميعهم ، لان بعضهم شاهد المعارك غير مرة ، ومن هؤلاء العماد الذى شاهد هجوم الفرنج على المسلمين في عكا ، وانهزام بعض الجيش ، يقول : " وكنت في جماعة من أهل الفضل ، وقد ركبنا في ذلك الهجوم ، ووقفنا على التل نشاهد الوقعة ، وننتظر ما يكون من القوم ، وما ظننا أن القوة تهي ، وأن الوقعة الينا تنتهي ، فلما خالطونا في المخيم ، وباسطونا في المجثم ، وكنا على بغال بغير أهبة قتال ، أخذ كنا أمرنا وأخذنا حذرنا ، ورأينا العسكر موليا والمنهزم عما تركه من ثيابه ورحله متخليا ، فوافقنا في الاندفاع وألفينا الاستضرار في المال عين الانتفاع " (٥) ، على أنه يظن أن ان رواية العماد هذه ، على أنها دليل على أن الادباء ، أو معظمهم على الاقل ، لم يمارسوا المعاناة الحقيقية التي مارسها المقاتل ، ولذلك وصفوا المعركة وصفا جزئيا ، وهذا ما يفهم من قول العماد " وكنا على بغال بغير أهبة قتال " فهم كالصحفيين الذين يراقبون المعركة ويصفونها وصفا ظاهريا ، ولكنهم يعجزون عن وصف دقائقها ومعاناة المقاتلين فيها ،

---

(١) الروضتين ٢/١٦١
(٢) جواهر السلوك ورقه ١٦٠ وأنظر تاريخ ابن الفرات ١١٧/٨
(٣) صبح الاعشى ٣٩٦/٨ ، وأنظر حسن التوسل ١٤٥
(٤) صبح الاعشى ٥٢٩/٦
(٥) الفتح القسي ٢٠٩ وأنظر ص ٧٨ ـ ٨٣ ، ١٦٥

وبذلك يتغلب الوعي والعقل على الشعور والاحساس، فيكون وصف المعركة من الخارج ، لا من الداخل .

وقد يعود انصراف الادباء عن وصف تسلسل الاحداث الى أنهم اهتموا باعلان أنباء المعركة على الملأ في وقت قلت فيه وسائل الاعلام . ويضيف الدكتور محمود ابراهيم سببا آخر في مجال حديثه عن ابن القيسراني ، يمكن تعميمه على أدب هذه الفترة وهو اتكاء الشعراء في وصف معاركهم على التراث الشعري السابق (١) ، وخاصة قصائد أبي تمام وقصائد المتنبي الحربية .

ومع ذلك ، فان الادباء لم يغفلوا وصف المعركة كلية ، بل تناولوا أجزاء منها ، كوصف قوة الاعداء ، وقوة المسلمين ، وأدوات المعركة ، والجو العام لها ، ثم التركيز على النتيجة ... ، وفيما يلي تفصيل ذلك ..

١ . وصف قوة الاعداء : اهتم الادباء باظهار قوة العدو ، وكثرة عدته ، قبل الدخول في المعركة ، لكي يفسحوا لخيال السامع حتى يكون صورة مضخمة عن قوة العدو ، وكثرة عدده ، وبالتالي عن عظمة الانتصار عليه ، يقول القاضي الفاضل في حصار دمياط زمن صلاح الدين : " فانهم نازلوها بحرا في ألف مركب مقاتل وحامل ، وبرا في مائتي ألف فارس وراجل ، وحاصروها شهرين يباكرونها ويراوحونها ، ويماسونها ويصابحونها القتال الذي يصليه الصليب ، والقراع الذي ينادى به من مكان قريب .. (٢) ، وفي ذلك يقول فتيان الشاغوري :

ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا ... وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم ... ألوف ألوف خيلهم والرواحل (٣)

وفي زمن الكامل بن العادل ، حاصر الفرنج دمياط بقوات هائلة ، فقال علم الدين أيدمر المحيوي في ذلك :

وأتى بما ملأ البسيطة كثرة ... والله ربك خادم ما شيدوا
جيش اذا مسحت يداه بقمة ... جف المياه بها وذاب الجلمد
كالسيل الا أنه لا ينقضي ... والليل الا انه يتوقد (٤)

---

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ١٢٧
(٢) صبح الاعشى ١٢ / ٨٣
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٩
(٤) ديوان علم الدين أيدمر المحيوي ص ١٥

وفي وصف قوتهم البحرية يقول العماد : " فسمّر الفرنج اسطولا ، وصفّ شوانيه على البحر عرضا وطولا ، وقدّر أنه يلاقي الاسطول المنصور ، ويحظر بسد الطرق عليه وصدها ، العبور ... (١) ، ويقول ابن دنينير في وصف قوات الفرنج البحرية التي حاصرت دمياط :

فالبحر من تحتهم آذيه وعلى	رؤوسهم منه نار الحرب تستعر
وزعتهم بين بيض الهند مصلتة	وبين سمر القنا ، والموت منكسر
فللرماح قلوب منهم أبدا	وللسيوف الطلى والهام والقصر
أموا العبور الى دمياط تحملهم	وما دروا أنه عبر به العبر (٢) *

٢ • وصف قوة المسلمين : وقد قصد الادباء من ذلك اظهار قوة المسلمين أمام قوة الفرنج للدلالة على شدة المعركة ، ولرفع معنويات المقاتلين ، فان كان النصر لهم أظهروهم بمظهر القوي الذي تغلب على ند قوي ، وان كان النصر عليهم قدموا بين أيديهم عذرا مقبولا وهو أنهم أعدوا ما استطاعوا ، فان خسروا معركة فما خسروا المعارك ، ولا خسروا الأمل بالنصر ، وأدلة ذلك كثيرة ** ، فمن أمثلة انتصار المسلمين الاقوياء على الفرنج الأنداد لهم ما جاء في الروضتين تحت باب القدسيات (٣) ومنها قول ابن دنينير في مدح الاشرف موسى يوم دمياط :

أتيت دمياط إذ أعيت رياضتها	كل الورى وتنائى البدو والحضر
فكنت إذ رمتها مفتاح مقفلها	فالحق منتصر والشرك منذعر
صدمته بخميس لو صدمت به	وجه البسيطة كادت منه تنفطر
من بعد ما كان في آمالهم طول	يوم الكفاح وفي أعطارهم قصر
أوردت أنفسهم خوض الردى غدا	وورد هم بارتواء ما له صدر (٤)

---

(١) الفتح القسي ٣٨٥ (٢) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥

* لمزيد من الأمثلة أنظر : ديوان أسامة بن منقذ ٢٠٣ ، ٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٦ ، الروضتين ج١ ق١ ص٥٣ ، ٧٢ ، ٢٧١ ، البداية والنهاية ١٢ / ٣٢٨ - ٣٢٩ ، تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٢ ، ومجلد ٥ ج١ ص ٢٣٠ ، تشريف الايام والعصور ٢٨ ، عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ورقة ٦٧٨ ، ٧١١ ، ج ١٨ ق ١ ورقة ٥٨ ، ج ٢١ ق ١ ورقة ١٨٢ ، الفتح القسي ١٢٤ ، ٢٨٩ ، ٢١١ ، ٣١٤

** لمزيد من الأمثلة أنظر : ديوان أسامة بن منقذ ١٧٦ ، ٢٠١ ، تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٦ ، الفتح القسي ٢٧١ ، الروضتين ١ / ١٢٨ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ١٦١ ، خريدة القصر/قسم شعراء الشام ١ / ١٥٥ ، ٤١٤ ، ٤٢٢ ، ٤٧٠ ، ٢ / ٢٨٩ ، قسم شعراء العراق ١٤٧ ، مفرج الكروب ٢ / ٢١١ ، عبد اللطيف حمزة ، الادب المصري ٦٨ .

(٣) الروضتين ٢ / ١٠٣ - ١٠٧ ، ١١٥ - ١١٩

(٤) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٢

ويقول ابن النبيه في مدح الاشرف موسى يوم دمياط :

لله من ثغر دمياط وبرزخهـــا · فتح له تفتح السبع السمـــوات
يوم على الروم نشى ريحه سحبـا · أمطارهن مصيبات مصيبـات
رأوا جيوش بني أيوب يقدمهـا · ليث له في جيوش الشرك هجمـات
فللرماح كلاهم أوصدورهـم · وللصوارم أعناق وهامـات (١)

ويقول الرشيد النابلسي ، في فتح العادل لحصن كوكب سنة ٦٠٩ هـ :

لقد رأى كوكب في نفسه عجبـا · وكاد كوكبه الدري ينكـدر
أضرمت جذوة بأسيي جوانبـه · أنفاسهـا في نفوس الشرك تزدفـر
طوقته بمجانيق يلين لهـا · قلب الحديد ولا يستمسك الحجـر
(هوت) عليه بمثل الشهب قاذفة · فشده بصعيد الارض منفطـر (٢)

ومن النثر قول العماد في وصف المصاف يوم عكا : " ... ووافى الانجاد عسكرُ الشرق ماشي الشرب ، وصرنا محاصرين للمحاصرين ، مكابرين للمكابرين ، قد أحطنا بالعدو وهو بالبلد محيط ، واستشطنا منه وهو مستشيط ، وأحدقنا بأولئك الكفرة احاطة النار بأهلهـا ، ومنعنا الطرق من ورائهم في وعرها وسهلها ... وحملنا عليهم فأخذوا الضربة ولم يحملوها ، وأنخنا لهم مطايا المنايا فهان عليهم أن يمتطوها ... " (٣) ،

والأمثلة على انتصار الفرنج على المسلمين أقل من أمثلة انتصار المسلمين على الفرنج ، وذلك لأن الادب كان يصمت منتظرا النصر ، وإن كان لا بد من القول ، فالتعزيـة والتهديد بالثار وغرس الأمل في النفوس ، مع الاستعانة بالنصوص الدينية ، وأحـداث التاريخ الاسلامي ، هذا العماد يعزي صلاح الدين بسقوط عكا فيقول له : " هـذه بلدة ما فتحه الله ، قد استعادها أعداءه ... وان ذهبت مدينة فما ذهب الديـن ، ولا ضعف في نصر الطالبين "(٤) ، ويقول القاضي الفاضل : " فلا تعظم هـذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره ، فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتـم الاعلون والله معكـم ، وهذا الدين ما غلب بكثرة ولا نصر بثروة ، انما اختار اللـه تعالى له أرباب النيات ، وذوي قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلـف لذلك السلف ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، واشتدي أزمة تنفرجـي ، والغمرات تذهب ثم لا تجي ... " (٥)

---

(١) ديوان ابن النبيه ص ٦٦
(٢) عقد الجمان ج ١٧ ق ٢ ورقة ٣٢٨
(٣) الفتح القسي ٢٩٩
(٤) الروضتين ٢ / ١٨٨
(٥) المصدر السابق ٢ / ١٦٧

ويقول ابن دنينير عقيب هزيمة دمياط ، وقد وصل المعظم عيسى لنجدة أخيه الكامل محمد :

أقيموا عمود الدين لله تسعدوا ... فقد جاءكم عيسى وهذا محمد
أرى الآية الكبرى من النصر قد جرى ... بها الفأل فالافراح فيها تجدد
عسى الله أن يأتي بموسى فإنني ... أرى كبدي شوقا اليه توقّد
ليظهر أن الحق حق محمد ... وكل نبي بالذي قلت يشهد
فلا تجزعوا من حادث جاء قادحا ... فذا الدين للرحمن في نصره يد
فمنوا لدين الكفر غارات محشر ... لهم في الهدى فرع زكي ومحتد
وشبوا لهم نار الجهاد فإنكم ... متى تتركوها آن للنار تخمد
فذا الدين ما أرسى قواعد حقه ... لدى الناس إلا ذابل ومهند
هل الدين مليوثا بجهل وشبهة ... ينيلكموها اليومُ أو يسعف الغد ؟ (١) *

٣ ـ وصف الجو العام للمعركة وذكر النتيجة : وقد أعتمد الأدب في اظهار الجو العام للمعركة على تقديم صور خاطفة لالتقاء الجيشين ، ثم ما تلبث المعركة أن تنتهي باعلان هزيمة الفرنجة ، يقول عمارة اليمني في مدح الملك الناصر بن الصالح :

نهدت الى الافرنج تزجي كتائبا ... تغلّ بها أعناقهم وتضال
تولوا وقد أبقت عليهم نفوسهم ... سباسبُ حالت دونهم ورمال
وأتبعتهم ركضا على كل سابح ... اذا الريح كلّتْ لم يصبه كلال (٢)

ويقول في مدح صلاح الدين يوم دمياط :

لئن نصبوا في البر جسرا فإنكم ... عبرتم ببحر من حديد على الجسر
طريق تقارعتم عليها مع العدا ... ففزتم بها والصبر يقرع بالصبر
أخذتم على الافرنج كل ثنية ... وقلتم لأيدي الخيل مري على (مُرّي) **
وأزعجه من مصرَ خوف يلزه ... كما لزّ مهزوم من الليل بالفجر (٣)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ٤

* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ١ / ٥٨ ، ٢ / ١٥٧ ، ١٦٢ ، ١٦٨ ، ١٧٢ ، ١٨٨ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ، ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦ ، صبح الاعشى ٧ / ٣٥٥ ، ديوان علم الدين آيدمر ص ١٥ ، وانظر محمد كامل حسين في أدب مصر الفاطمية ص ٢٢٠ الخريدة قسم الشام ٢ / ٢٩١ ، ديوان ابن الخياط ١٨٤ .

(٢) النكت العصرية ٣٠٧

** مري هو ملك القدس الافرنجي

(٣) المصدر السابق ٢٦٩ ، الروضتين ١ / ١ / ١٢ ٤

وثمة أمثلة كثيرة تصور لقاء الجيشين بأعداد كثيرة وعدد متنوعة ، وقد اتكأ الادباء لاظهار هذا الجو على الجرس الموسيقي القوي المرتبط بجو الحروب ، فكثرت الألفاظ التي تشير الى الضرب والحركة ، واستعملت البحور الطويلة التي تتناسب مع جدية الموقف .

ومما يتعلق بوصف الجو العام وصف نتائج القصف ، وقد قدم القاضي الفاضل وصفا دقيقا لتهديم سور القدس بعد قصفه بالمنجنيقات يقول : فأخلى السور من السيارة ، والحرب من النظارة ، وأمكن النقاب أن يسفر للحرب النقاب ، وأن يعيد الحجر الى سيرته من التراب ، فتقدم الى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربة الاحراق الدال على لطافة أنمله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الارض ... " (١) ، كما وصف ابن دنينير نهار المعركة فلا يرى من خلالها سوى وجه الممدوح (المعظم عيسى) أو لمع الأسنة والسيوف ، يقول :

عاد النهار لهم ليلا بقسطلــــة دجت ، ووجهك في ظلمائها قمـــر (٢)

وصور الأدب في معرض وصف الجو العام للمعركة حالة الفرنج النفسية في موقفي الضعف والقوة ، وقد سبقت الاشارات الى مواطن القوة عندهم حين تصلهم الامدادات أو يحسن النصر ، وأما ضعف نفوسهم فيكون بعد الفرق من هزيمة أو حين يشعرون بقسوة المعادين ، وأمثلة ذلك وافرة ، منها ما حدث زمن عماد الدين زنكي حين حاصر حصن الأثارب ، فاجتمع الفرنج من كل مكان ، ولكنهم من كثرة عددهم أحسوا بقوة عماد الدين ، فلم يقدروا على الهجوم بل زهقت نفوسهم وظلوا ينظرون ، يقول ابن الاثير : " هذا ، والرعب قد ألقاه الله في قلوبهم فهم منه وجلون ، والخوف قدعم رئيسهم ومرؤوسهم فهم منه خائفون ، ويقدمون في سيرهم رجلا ويؤخرون أخرى ، ويعتقدون أن القاءهم أولى وأحرى ، ولكن آجالهم تسوقهم الى مصارعهم ، فهم نحوها يبرزون ، وكأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ... " (٣) ، ويصف أسامة بن منقذ حالة الفرنج لا سيما بغدوين وقد انتصر عليهم نور الدين :

وقد ضاقت الدنيا عليهم برحبهــــا فلم ينجه بر ولم يحمه بحـــــر (٤)

وينفي المهذب بن الزبير أن تكون الارض قد زلزلت ، وانما شعر الفرنج بحركة الارض نتيجة خوفهم فيقول :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما بقلوب أهليها من الخفقــــان (٥)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٠٠

(٢) ديوان ابن دنينير ٢٢ ، وأنظر مثلا آخر في الروضتين ١ / ٥٤

(٣) الباهر ٤٠

(٤) ديوان أسامة بن منقذ ٢٠٢

(٥) الروضتين ١ / ٢ / ٣٧٦ والخريدة قسم شعراء مصر ١ / ٢١٠

وقد صوّر ابن سناء الملك حالتهم النفسية بعد سقوط القدس حين قال :

غدا بادويل وهو يلعن نفســـــه   وحق لتلك النفس أن تربح اللعنـــــا
يروعه الصبح المنير اذا بـــــدا   ويوحشه الليل البهيم اذا جنـــــا (١)

ويؤكد الرشيد النابلسي هذا المعنى فيجعلهم كالوحش لشدة الخوف والحسرة يقول :

تراهم ن التشاؤن كالوحــــــــــم   وكانوا تلك المناكب ضـــــــكا (٢)

كما نجد هذا المعنى عند ابن عبد الظاهر زمن المنصور قلاوون حين فتح حصن المرقب ،
يقول :

حصن به الكفار قالوا تُســـــرى   من بعد هذا أي شيء بقــــــــى
وقال كل منهمُ ليتنـــــــــا   لمثل هذا اليوم لم نخلــــــــق (٣)

ويقول العماد في وصف حالة الفرنج الذين تحصنوا بحصن الاكراد " وخاف الكفـــر
وطاف الذعر ، وقال نفرُ الشرك نفرّ ولا نستقر ، .. فكأنهم في حصونهم أموات ، لا
ترتفع لهم من الوجل والوله أصوات .. "(٤) ، ويقول علاء الدين بن القاضي محيـــي
الدين بن الزكي في وصف فرنج صفد وقد هاجمهم بيبرس سنة ٦٦٤ : "وواغاننا والحصن
قد تزعزعت أركانه ، والكفر قد أنهدم بنيانه ، وشمر عن ساق الهزيمة شيطانه .."(٥) *
وقد كان للأحداث الجارية ورجحان كفة المسلمين أثر في شعور الفرنج بأن مصيرهـــم
الموت بعيدين عن مواطنهم الاصلية ، يقول القاضي الفاضل : " والفرنج يعرفون منهما
خصما لا يمل الشر حتى يملوا ، وقرنا لا يزال يُحرِم السيف حتى يحلوا ، حتى أنا لمـــا
جاوزناهم في الأمر القريب (دمياط سنة ٥٦٤) وعلموا أن المصحف قد جاء بأيدينـــا
يخاصم الصليب استشعروا بفراق بلادهم ، وتهادوا التعازي لأرواحهم بأجسادهم .. "(٦)
ولقد وفق الادباء حين قدموا لنا صورتين للافرنج ، إحداهما خلال فترة قـــــوة
واستعلاء ، ما لبثت أن انقضت ، والأخرى خلال مواجهة طويلة مع جيوش الاسلام ،
انتهت بخروجهم من المشرق الاسلامي ، ولعل الابيات التالية التي قيلت بعد أن أنتصر
نور الدين على الفرنج قرب طبرية سنة ٥٥٢ تعطي فكرة عما كان عليه الفرنج في فترة القوة

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ٧٥٩
(٢) عقد الجمان ج١٧ / ق١ / ١٢٦
(٣) تشريف الايام والعصور ٨٢
(٤) الفتح القسي ٢٢٥
(٥) نهاية الارب ٥ / ١٥٢
* لمزيد من الامثلة أنظر : الروضتين ١ / ٢ / ٢٧٦ ، ٢٧٤ ، ١٢٦ ، ٤ ، ج١ / ٢٨ و ١٥٦ ، ٢٢٠ ،
٢٧٤ ، ج١ / ١٢ ، ١٣ ، ٢٨ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ ، ١٠٦ ، ١٣٣ ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٨١ ،
والفتح القسي ١٥٦ ، ٢٤٥ ، ٣٠٠ ، ٣١٢ ، ٣٧١ ، ٣٩٧ ، ٤٠٣ ، صبح الأعشى ٧ / ٢٥٦
٨ / ٢٩٨ نهاية الارب ٥ / ١٥٧ - ١٥٨ ، ١٩٢ الكامل ١١ / ١٢ ، ٤٥٧ تشريف الايام ٧٩
رسائل ابن الاثير ١٥٢ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤٧ ، ٣١٨ النوادر ٧٧ ، ديوان ابـــن
سناء الملك ٥٦٦ ، ١٤٨ .
(٦) صبح الاعشى ١٢ / ٩٠

والاستعلاء ، وما آلوا اليه بعد ردة الفعل الاسلامية القوية :

ما رأينا فيما تقدم يوما كامل الحسن غاية في البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم ذلة الاسر والبلا والفناء
وراياتهم على الصين زفوا بين ذل وحسرة وشقاء
بعد عزلهم وهيبة ذكر في مصاف الحروب والهيجاء (١)

وفي عهد صلاح الدين ، بعد أن اتحدت البلاد الاسلامية ، أصبحت أرض الفرنج كما صورها الشاعر العربي سبيلاً سهلاً لكل سالك رغم كثرتهم ، بعد أن كانت حمى لا يضام ، يقول ابن الدهان الموصلي :

وكانت حمى أرض الفرنج فأصبحت سبيلاً لابناء السبيل مذللا
خشوا أن يلاقوا جحفلاً كل فارس يعدونه منه خميسا وجحفلا
وهابوك حتى الفارس الشهم من رأى بجيشك نارا أو تأمل قسطلا
ولو أنهم كالرمل أو عدد الحصى لما بينوا اذ عاينوك كلا ولا (٢)

ويشير ابن عبد الظاهر الى تحول خطير في نفسية الفرنج ، ساعد على استئصالهم ، وهو تكالبهم على الحياة ، بعد أن كانوا لا يخافون الموت ، فخيل لهم الرعب أشياء لا واقع لها رغم حصانة الموقع الذى يعيشون فيه ، وذلك حين حاصر المسلمون حصن المرقب الحصين ، وبعد جهد كبير لم يستطع المسلمون السيطرة على الحصن ، ففضلوا الرجوع على اضاعة الوقت ، واذا رسولهم يأتي يطلب الامان ، يقول : " فسقط في أيديهم وحل الخذلان في ناديهم ، وتحققوا أنهم قتلى بغير شك ، وأن أسيرهم لا يفك ، وطلبوا الحديث في الامان ، والمعاملة بالعفو والاحسان ، وبعد أن كانوا يؤثرون الموت على الحياة ، صاروا يؤثرون الحياة على الموت ، وتحققوا أنهم ان غفلوا عن أنفسهم فاتهم الفوت" (٣) ، ومما اعتمده الادباء في وصف المعركة وصفا مجزأ ، تقسيم جيش الفرنج بعد الهزيمة الى هاربين أو أسرى أو قتلى *

---

(١) الروضتين ١/١/٢٧٢ ، وانظر ذيل تاريخ دمشق ٣٤٢ ، وعقد الجمان جـ١٢ ق٢ ورقة ٢٨٣

(٢) ديوان ابن الدهان الموصلي ٤٣

(٣) تشريف الايام والعصور ٧٩ ، وللمزيد انظر الروضتين ١/٢/٥٠٤ ، ٦٥٥ ، ٦٦٩ ، صبح الاعشى ٦/٤٦٩ ، ديوان ابن الدهان ٤٣ ، ديوان شرف الدين الانصاري ٢٨٣ ، ٤٠١ ، الخريدة قسم الشام ٢/٢٨٢

* يقول الرشيد النابلسي :
فقتيل معفر ليس يودى وأسير مكبل لن يفكا (عقد الجمان جـ١٧ ق١ ورقه ١٨٠)
ويقول الصاحب شرف الدين الانصاري :
فالقوم بين قتيل وبين عاف وهارب (ديوانه ٩٦ وأنظر ص ٤٠١)
ويقول ابن مطروح :
خمسون ألفا لا يرى منهم غير قتيل أو أسير جريح (المختصر في أخبار البشر ٣/١٨٦ ديوان ابن مطروح ١٦٦ ، ديوان ابن دنينير ١٧٤)

وقد أعطوا صورة واضحة لكل نوع من هؤلاء ، حسب نتيجة المعركة ، فهذا ابن القيسراني يقدم صورة الهاربين أمام تاج الدولة بوري سنة ٥٢٣ ، اذ لم يستطيعوا التفريق بين وقع حبات المطر على أجسامهم ووقع السهام لشدة خوفهم ، يقول :

حتى اذا ما أحاط المشركون بنا   كالليل يلتهم الدنيا ، له ظُلَم
والنصر دانٍ وخيل الله مقبلة   ترجو الشهادة في الهيجا ، وتغتنم
صابَ الغمام عليهم والسهام معا   فما دروا أيما الهطالة الديم (١)

ويقول ابن منير :

خافوا بأنفسهم مما ألمّ بهما   فهم يظنون ربما أنها رصد (٢)

ويلاحظ أن الادباء ربطوا هزيمة الفرنج بعقيدتهم وشعائرهم الدينية ، بالاضافة الى وصف بلادهم بأنها خراب ، يقول ابن عبد الظاهر في رسالة أرسلها الى البولص بيمند ملك طرابلس وانطاكية " ... فلو رأيت خيالتك وهي صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهّابة فيها تصول ، والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار والمائة وكل أربع منها تباع وتشترى من مالك بدينار ، ... ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تحترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق .. لكنت تقول : يا ليتني كنت ترابا ، ويا ليتني لم أوت بهذا الخبر كتابا ...(٣) * .

أما الأسرى فقد قدم لهم الادب صورة ممتزجة الاطياف ، من حزن وخوف وحسرة واستهزاء يقول ابن القيسراني في فتح الرها :

لا أين يا أسرى المهالك بعدها   ضاق الفضاء على نجاة الهارب (٤)

ويقول :

الى أين يا أسرى الضلالة بعدها   لقد ذل غاويكم وعز رشاده (٥)

---

(١) الروضتين ١/١/١٤١
(٢) ديوان ابن منير ورقة ١٧ وأنظر ورقة ١٤
(٣) صبح الاعشى ٨/٣٠١ ، وأنظر ٦/٩١٥
* للمزيد من الامثلة على التشفي أنظر : الروضتين ج١/٣٨، ٤٩ ، ٢/١١، ١٢، ١٣، ٧٢، ٧٨، ٨٠، ٨٣، ٨٤ ، ٨٩ ، ١٠٥، ١٠٦، ١١٤، ١١٦ ، وعن الاذلال والتحقير أنظر الروضتين ٢/١٢، ١٦، ٤٨، ٨٢، ٨٤ ، ١٩٣، ١٩٤، ٢٠٤ ، وعن ارتباط الهزيمة بالعقيدة أنظر ديوان ابن عنين ص ٢٢ ، وديوان ابن الساعاتي ٢/٣٢٨ ، ٤٠٠ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ديوان ابن الدهان ص ٤٥ والروضتين ١/١/٥٣، ٨٨ ، ٩٦، ١٤٢ ، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٥٣، ١٥٤، ١٨٦، ١٨٨، ١٨٩، ١/٢/٣٥٧ ، ٣٧٢ ، ٤١٢ ، ٥٢٩ وأنظر : الكامل ١١/١٤٥، ٣٠٠ ، ٤٥٧ ، ديوان ابن سناء الملك ٧٥٩ ، ديوان شرف الدين الانصاري ١٢٧ ، ٢٨٣ ، ٤٠١ ، ديوان فتيان الشاغوري ٣١٦ الخريدة قسم الشام ١/٤٢٧ ، ٤٧٠ ، الفتح ١٣٧ ، ٣٦٠ ، صبح الاعشى ٦/٥١٩ ، ٥٢٧ ، ٧/٢٥ ، ٨/٢٥٠ تاريخ ابن الفرات مج٤ ج٢ /٢٥٢ ، مفرج الكروب ٤/٩٧
(٤) الروضتين ١/١/٩٩   (٥) الروضتين ج١ ق١/٩٨

ويصف ابن القلانسي وصول الاسرى الى دمشق ، وقد رتبوا على كل جمل فارسان من أبطالهم ، ومعها راية من راياتهم منشورة ، ويذكر قول بعض الشعراء :

ما رأينا فيما تقدم يومـــا   كامل الحسن غاية في البهـــاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم   ذلة الاسر والبلا والشقـــاء
وبراياتهم على العيس زفوا   بين ذل وحسرة وعنـــاء (١)

ويقدم القاضي الفاضل والعماد الاصفهاني وابن الاثير مثل هذه الصورة يوم حطين إذ صفد الاسرى بحبال الخيام ، وجيء بهم بين يدي السلطان ، يقول القاضي الفاضل : " فلو رأيت أطناب الخيم في أعناق الاسارى يساقون بها مقرنين ، لحمدت الذى سخر لنا هذا وما كنا لمقرنين ... " (٢) .

ويقول العماد : " وجاءوا بالاسارى بين يديه مقرنين في الأصفاد ، مقودين في الاقياد ، مسوقين الى السوق ، والحديد منهم في الاعناق والسوق .. " (٣)

ويقول ضياء الدين بن الاثير : " وجيء بالاسرى مقرنين في الاصفاد ، موقنين ان رؤوسهم عوار عن تلك الاجساد ، ولو استطاع رأس أحدهم أن ينكر عنقه لأنكره ولا يود وهو المعظم أن يقال ما أعظمه بل يقال ما أحقره ... " (٤)

ولم يكن هذا المآل للجنود فقط ، وإنما شاركهم فيه ملوكهم ، يقول ابن سناء الملك :

وحوى الأسر كل ملك يظن الد (م)   هر يفنى وملكه ليس يفنى
والمليك العظيم فيهم أسـيـر   يتثنى في أدهم يتثنى
يحسب النوم قظة ويظن الشـ   ـخص طودا ويبصر الشمس دجنا
كم تمنى اللقاء حتى رآه   فتمنى لهه أنه ما تمنى (٥)

ومن الواضح أن ذكر الملوك الاسرى جاء ليظهر عظمة النصر ، وقدرة الاسر ، فصحيح أن الاسير مليك عظيم إلا انه وقع في أسر المسلمين ، ولولا قوة القائد المسلم لما تمكن من أسر هذا الملك العظيم ، يقول ابن القيسراني في مدح نور الدين :

من باتت الأسد أسرى في سلاسله   هل يأسر الغلب إلا من له الغلب (٦)

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ٣٤٣ ، وانظر الروضتين ١/١/٢٧٢ ، ومفرج الكروب ٣/١٤٩ ، وعقد الجمان جـ١٢ ق ٢ ورقة ٢٨٣

(٢) الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقة ١٠٠

(٣) الفتح القسي ٩٣

(٤) ضياء الدين ابن الاثير ٧٥

(٥) ديوان ابن سناء الملك ٨١٩

(٦) الروضتين ١/١/١٥٤

وقد سلط أدباء العرب سياط السخرية والاستهزاء على قادة الفرنج الأسرى ، يقول ابن دنينير :

يمشون همسا ، وإيماءً حديثهم ... فيها لخوفك إن قالوا وإن ذكروا
نهاهمُ الرعب عن عَوْد لمنقصة ... إن قيل عودوا ، نَعُدْ بالسيف ننتصر (١)

ويقول ابن مطروح :

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال صدق عن لسان فصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغي ملكها ... حسبت أن الزمر يا طبل ريح (٢)

وكثر عدد الأسرى حتى أصبح القيد غاليا لشدة حاجة المسلمين إليه ، يقول الشاغوري :

أغلى الأداهمَ مَنْ أسَرْتَ وأرخصتْ ... بيض الصوارم من نسهاب العسكر (٣)

ويقول العماد :

يباعون أسرابا شرائح أحبل ... كشلة عصفور من الريش جُرّدا (٤)

ويقول :

سبايا بلاد الله مملوءة بهسا ... وقد شريت بخسا وقد عرضت نخسا
يطاف بها الأسواق لا راغب لها ... لكثرتها ، كم كثرة توجب الوكسا (٥) *

هذا ، وقد صور الأدب القتلى ودماءهم ، ومصير تلك الجثث المنتشرة هنا وهناك لكثرتها ، كما رسم صورة رهيبة لرأس الجندي الصليبي القتيل وهو يعلو الرمح ، وكأنه ثمرة من ثماره مع أن الرمح لا يثمر ، يقول ابن القيسراني :

عجبت للصعدة السمراء مثمرة ... برأسه ، إن إثمار القنا عجب
سما عليها سموّ الماء أرهقه ... أنبوبه في صعود أصلها صبب
إذا القناة ابتغت في رأسه نفقا ... بدا لثعلبها من نحره سرب (٦)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥
(٢) ديوان ابن مطروح ١٨١ ، والإلمام ١/ ١٦٩
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ١٦ ، والروضتين ٢/ ٨٤
(٤) الروضتين ٢/ ١١٨ (٥) المصدر السابق ٢/ ٨٣
* للمزيد من الأمثلة عن الأسرى أنظر : الروضتين ١/ ١/ ٢٠٦ ، ١/ ٢/ ٤٤٤ ، ج٢/ ٤٨ ، ٧٢ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١١٧ ، ١٢٩ ، حسن المحاضرة ٣٩ تاريخ ابن الوردي ٢/ ٥١ ، فوات الوفيات ١/ ١٥٧ ، المواعظ والاعتبار ط . بولاق ٢٢٣
(٦) الروضتين ١/ ١/ ١٥٤

ولم يكن رأس القائد هو الرأس الوحيد الذي رفع على رمح ، وإنما استطالت رؤوس الفرنج كأنما هي زرع قد أخصب ، وحين شهدها السيف الاسلامي أغرته بقطفها ، فنادى سيوف المسلمين لتشارك في حصاد الزرع البشري ، يقول ابن القيسراني أيضا :

وطالت أرؤس الأعلاج خصبا ... فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحاط بهم فكان القتل صبرا ... ولا طعنٌ هناك ولا طراد
وللإبرنز فوق الرمح رأس ... توسد والسنان له وساد (١)

ويقول القاضي الفاضل في فتوح صلاح الدين : " وعاد المسلمون برؤوس عدوهم في رؤوس القنا ، وقد أجتنوا ثمراتها ، وبأرواحهم في صدر الظبى ، وقد أطافوا بمائها جمراتها ... " (٢) ، وفي معركة دمياط سنة ٦١٥ يقول ابن دنينير :

ما أنبت الخط طول الدهر من أسل ... غادرته وله من هامهم ثمر (٣)

وقد فصّل الشعراء صورة أنفصال الرأس عن الجسد ، فجعلوه يركض نحو البطل المسلم ليقدم الطاعة والتحية إليه ، أو يطير الى السماء من القناة ثم يهبط الى الارض لشدة الضربة ، يقول ابن القيسراني :

أتى رأسه ركضا وغودر شلوه ... وليس سوى عافي النسور له قبر (٤)

ويقول ابن منير :

تمشي القناة برأسه وهو الذي ... نظمت مدار النيرين قناته
لو عانق العيوق يوم رهانه ... لأراك ماهد عقته إخباته (٥)

بل قد تبلغ الضربة لشدتها حداً ترتفع معها جثة القائد الصليبي فتلقيه مسبل الحنين لا من نحاس ، وغائرها لا من سهاد ، يقول ابن القيسراني :

ترجل للسّلام ففرسوه ... وليس سوى القناة له جواد
غضيضَ المقلتين ولا نعاس ... وغائرها وليس به سهاد (٦)

---

(١) الروضتين ١/١/١٤٦
(٢) الفاضل من كلام القاضي الفاضل ٩٨
(٣) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٢
(٤) الروضتين ١/١/١٨٦
(٥) المصدر السابق ١٥٨
(٦) المصدر السابق ١٤٦

وقد تصل الضربة الى رأسه فتحطمه بحد أن تكون قد حطمت التاج الذى عليـــه ، يقول ابن منير :

حللت التاج عنه وعل تاجـــا ... فكانَ المتد من عقد الكعــاب (١)

وفي مقابل ارتفاع الرأس في الجو ، فان الضربة تغرس الجسم في الأرض حيـــث تبدو وكأنها أشجار والرماح تحمل الثمر ، يقول العماد :

لقد نفقت فئة الافرنج فأنتصفتْ ... منها بأقدامك الهندية البتـــــر

غرست في أرض مصر من جسومهمُ ... أشجارَ خط لها من هامهم ثمر (٢) *

وبالاضافة الى هذه الصورة ، فقد قدم الادب صورا أخرى لجثة القتيل الفرنجـــي ، فهي إما ملقاة على الأرض تحملها الدماء كما يقول ابن الصياد في مدح طلائع بـــن رزيك حين تمكن من قتل مقدم خيل الفرنج :

هو ملبس جثث العدا في الحرب من ... حلل النجيع مجاسدا وربـاطـــــا

فجيادة تشكو مزاحمة القنـــــــــا ... وترد خرصان الرماح سياطا (٣) *

واما ملقاة بالعراء ، يقول ابن منير في صاحب إنطاكيـــة :

والآن ملقى بالعرا يقتاتـــه ... ما كان قبل بصيده يقتاتـــه

أوطأت أطراف السنابك هامه ... فتقاذفت بمنيفها قد فاتـــه (٤)

ويقول ابن شداد في وصف قتلى الفرنج يوم عكا : " وقامت سوق الحرب ، فلم يكن الا ساعة حتى رأينا القوم صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وامتدوا مطرحـــين ، على التلال والوهاد ، وشربت السيوف من دمائهم حتى رويت ، وأكلت أسد الوغــى بأسنان الظفر بهم حتى شبعت . . . " (٥) ، ويقول راجح الحلي في قتلـــى دمياط سنة ٦١٥ هـ :

فلم ينج إلا كل شلو مجـنـــدل ... ثوى منهم أو من تراه مقيـــدا (٦)

---

(١) الروضتين ١/١/٢٢٩

(٢) المصدر السابق ٢٧١

(٣) الخريدة/ قسم شعراء مصر ١/٢٤٣

* الابيات منسوبة خطأ الى ظافر الحداد ، انظر ديوان ظافر ص ٢٧٥ والرياط الاثواب الرقيقة

(٤) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٨

(٥) النوادر السلطانية ١٣٠

(٦) ابن كثير / البداية والنهاية ٩٥

وفي قتلى معركة حمص زمن قلاوون يقول بدر الدين المنبجي :

أجريت فيها بحارا من نجيعهمُ ... فكل سابحة سبحا الى اللبب
لم تطلع الشمس فيها بعد ذاك على ... غير الشلايا من القتلى ولم تغب (١)

وهذه الجثث المتناثرة على الأرض كثيرةُ العدد ، لأن الجيش الفرنجي يضم أعدادا كبيرة ، يقول ابن الاثير في وصف قتلى حطين : " فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم (المسلمين) أسروا واحدا ، ومن يرى الاسرى لا يظن أنهم قتلوا واحدا ... ولقد اجتزت بموضع الوقعة بعدها بنحو سنة ، فرأيت الارض ملأى من عظامهم تبين على البعد ، منها المجتمع ومنها المفترق ، هذا سوى ما جرفته السيول وأكلته السباع ... " (٢) ، ويقول فتيان الشاغوري :

فالخيل لا تمشي بها إلا على ... هام منضدة وشعر أشقر (٣)

وقد أعطى الأدب صورة لأعداد القتلى، ربما كان مبالغا فيها ، يقول العماد في قتلى الفرنج أثناء حصار عكا : " ولم يفلت من الاعداء الا أعداد ، ولم ينج من الآلاف إلا آحاد ، وأمست (تلك الاجساد) لنار الحرب فَراشا ، ولارض المعركة فِراشا ... " (٤) ، ويقول ابن النبيه في مدح الملك العادل :

كم لك في يافا وفي الموج من ... وقائع غر مشاهير
عشرون ألفا غير أتباعهم ... ما بين مقتول ومأسور (٥)

ويقول ابن مطروح في وصف قتلى الفرنج في موقعة دمياط سنة ٦٤٧ هـ :

خمسون ألفا لا يرى منهمُ ... غير قتيل أو أسير جريح (٦)

ويقدر الملك تورانشاه عدد القتلى في الموقعة السابقة بثلاثين ألفا ، يقول في كتاب الى نائبه في دمشق : " ولما كان الليل ، تركوا خيامهم وأثقالهم وأموالهم وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا في أثرهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في

---

(١) عقد الجمان ٢٠ ق ٤ / ٧٢٢
(٢) الكامل ١١ / ٥٣٧ ــ ٥٣٨
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ١٤٥
(٤) الفتح القسي ٢١١
(٥) ديوان ابن النبيه ١٢
(٦) ديوان ابن مطروح ١٨١ ، المختصر في أخبار البشر ٣ / ١٨٦

أدبارهم عامة الليل ، ويحل فيهم الخزي والويل ، فلما أصبحنا نهار الاربعاء ، قتلنا منهم الاثنين ألفا غير من ألقى نفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ٠٠٠ " (١) *.

هذا وقد صور الأدب مآل هذه الجثث ، وتسموها بين بطون الوحوش وحواصل الطيور ، لا إكراما لهم ، وإنما لان الارض رفضت احتواء جثثهم لرجسهم ، يقول العماد في وقعة حطين مادحا صلاح الدين :

كسرتهم إذ صح عزمك فيهم ونكستهم اذ صار سهمهم نكستها

بواقعة رجت بها الارض جيشهم دمارا كما بست جبالهم بسا

بطون ذ ئاب الارض صارت قبورهم ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا (٢)

ولهذا أكثر الادباء من وصف جيوش الطير فوق الجيش الاسلامي ، متوقعة سقوط القتلى من الفرنج ، يقول فتيان الشاغوري :

خميس له الرايات ظل ، وفوقه من الطير ظل يحجب الشمس سادل (٣)

ولكثرة الطيور فوق الجيش الاسلامي أخذ بعضها يصطدم ببعض ، يقول العماد في مدح صلاح الدين :

تركت مصارع للمشركين يطاون القشاعم فيه قبور

تزاحم فرسانها الضاريات فتصدم فيها النسور النسور (٤)

وقد قاسمت الطيور الجارحة في فرائسها الوحوش الضارية ، واشتركت جميعا في أكل تلك الجثث ، مع أن الطيور تنفر عادة من الوحوش ، يقول فتيان الشاغوري :

فالقوم نهب للسباع تنوشهم من كل ذى ناب وصاحب منسر (٥) **

---

(١) نهاية الارب ج ٢٧ ورقة ١٠١ ، النجوم الزاهرة ٣٦٧/٧

* لمزيد من الأمثلة عن القتلى أنظر : الخريدة قسم شعراء مصر ٢١٢/١ ، صبح الاعشى ١٢٧/٧ ، مفرج الكروب ١٥٠/٣ ، ديوان فتيان الشاغوري ٤٥٧ ، ٥٠٩ ، ابن الاثير الكامل ٥٢ ، ١١١ ، ١٧٤ ، الروضتين ٤٦٦/٢/١ ، الروضتين ١٠/٢ / ٧٨ ، ٨٧ ، ١٠٠ ، ١٤٧ ، ١٤٩ ، ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ديوان أسامة بن منقذ ٢٠٢

(٢) الروضتين ٨٣/٢

(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٢١٧

(٤) الخريدة/ قسم شعراء دمشق والشعراء الامراء من بني أيوب ص ٢٨

(٥) ديوان فتيان الشاغوري ١٤٤ ، وأنظر ١٤٥

** للمزيد عن مآل الجثث للطيور والسباع أنظر : ديوان ظافر الحداد ٢٥٤ ، ديوان فتيان الشاغوري ١٤٥ ، ٢٢٣ ، ديوان ابن النبيه ٧٦ ، أعلام النبلاء ١٦/٦ الفتح ٢٩٠ ، الخريدة قسم الشام ١٥٧/١ ، قسم العراق ١٤٧/٢ ، قسم مصر ١١/١ ، الروضتين ١٨٦/١/١

هذه حالة جثث القتلى ، أما دماء القتلى فقد جاء وصفها في الادب لتدل على ما دلت عليه متابعة الطير للجيش الاسلامي من كثرة قتلاهم سواء في البحر أو البر ، فها هو ذا شهاب الدين محمود يصف الخيل الإسلامية تخوض في دمائهم في البحر ويصف الرماح تنثر دمهم على الاسوار ، وتمد البحر ببحر من الدماء ، يقول :

وخاضت البيض في بحر الدماء فما أبدت من البيض إلا ساق مختضب
وغاص زرق القنا في زرق أعينهم كأنها شطن تهوى الى قلب
أجرت الى البحر بحرا من دمائهم فراح كالراح ، اذ غرتاه كالحبب (١)

ويبالغ ابن القيسراني في كثرة قتلاهم ، اذ يجعل مياه نهر العاصي حمراء لكثرة الدماء التي أهرقت فيه يقول :

غداة كأنما العاصي احمرارا من الدم عبرة الجفن القريح (٢)

ويقول فتيان الشاغوري في مدح الملك الأشرف موسى الذى قتل من الفرنج يوم دمياط ما قتل :

فبسيفه مج الفرنج دماءهم في البحر حتى الماء منه أشكل (٣)*

وقد نظر الادباء الى هذا الدم على أنه ماء مطهر للأرض التي دنسها الفرنج ، فدماؤهم الطاهر الوحيد لرجسهم ، يقول ابن القيسراني :

وقد أصبح البيت المقدس طاهرا وليس سوى جاري الدماء له طُهر (٤)

ويقول ابن سناء الملك :

وكانت بهم تلك البلاد تنجست فناب دم منهم عن الماء في الغسل (٥)

ويقول العماد في نكوص الفرنج عن عكا والقدس سنة ٥٨٣ هـ " ... بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير ، وقد غسل عن بلاد الاسلام بدماء الشرك ما كان يتخللها ، فلا ضرر ولا ضير ... " (٦) ، ويقول القاضي الفاضل في ذلك أيضا : " فلله الحمد أن أخرمت الصخرة بذلك البنيان المحيط ، وطهر ما طهر من دم الكفر وما كان ليطهرها البحر المحيط ... " (٧) ، وحين تم طرد الفرنج نهائيا من بلاد الشام قال شمس الدين الفزاري :

وأعدتها للمسلمين ولم يكن منهم ترى التطهير الا بالدم (٨) **

---

(١) جواهر السلوك ٦٠ ، ابن الفرات ٨/١١٧-١١٨ (٢) أعلام النبلاء ٢/١٦
(٣) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٤
* لمزيد من الأمثلة عن صورة الدماء أنظر : ديوان ابن سناء الملك ٤١٤ ، ٥٦٦ ، ديوان ابن النبيه ٦٧ ، الروضتين ١/١٤٧ ، ١/٢/٢٧١ ، الخريدة قسم شعراء الشام ١/١٥٨ قسم شعراء مصر ١/٢١١ ، عقد الجمان ٢٠/٤/٧٢٢
(٤) الروضتين ١/١/١٨٦ (٥) ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦ (٦) صبح الأعشى ٦/٥١٩
(٧) المصدر السابق ٦/٥٢٨ (٨) جواهر السلوك ورقه ٤٨
** ذكر محمود سليم هذا البيت من قصيدة ابن الصائغ في فتح عكا ولم يشر الى المصدر وهي للفزاري / أنظر عصر سلاطين المماليك جـ٨/٥٧

وبالاضافة الى كون دماثهم المطهر الوحيد للارض ، فان لها فائدة أخرى وهي أنها تروى الارض والبطاح والسيوف العطشى ، وقد تفنن الشعراء في تقديم هذه الصور للتشفي بالعدو المنهزم ...

* * *

تلك هي صورة الصراع العسكرى الذى أنتهى بعد عناء مرير أستمر مدة قرنين من الزمان ، ولكن ما الوظيفة التي أضطلع بها الادب خلال هذا الصراع ، وما الغاية التي استهدفها الادباء ؟ .

لقد أضطلع الادب بمهمة جليلة كان لها الأثر البعيد في مسيرة الصراع ، وفي حفز قادة المسلمين على القتال ، والسير به الى أن انتهى الوجود الصليبي في المشرق الأسلامي وذلك أن الأدب نظر الى الفرنج على أنهم غرباء طارئون على البلاد الاسلامية وعلى أهلها ، ومن ثم فقد حرضوا على مقاومتهم والتصدى لهم ، مهما بلغت التضحيات ، ومهما طال الزمان ، ولم يخل ديوان من دواوين الشعراء الذين عاشوا خلال أحداث الحروب الصليبية من التحريض على قتال الغزاة ، ويستطيع الباحث أن يتبين ذلك بوضوح في الاحداث التي سجلها الادب ، وقد استغل الادباء لاسيما الشعراء انتصار القادة المسلمين ، وأوضحوا للناس أن الفرنج طارئون وهم ينتظرون أحد المصيرين : الرحيل أو القتل والتدمير ، كما استغلوا المدح الشخصية وأضفوا على الممدوحين صفات ترتبط بمعظمهم من أجل طرد الغزاة ، ويتجلى هذا الموقف بصورة أكثر وضوحا في فتوح صلاح الدين ، اذ أجمع الادباء على أن القدس وغيرها من البلاد الاسلامية قد أحتلت في حالة ضعف المسلمين ، وأن قادة المسلمين يعملون الآن لاسترجاعها لتعود الى سابق عهدها بما فيه من طهر وفرح وأمن ، يقول العماد : "وكان الاسلام غريبا فرجع الى وطنه ، وسكن فيه التوطن في مسكنه ، وزالت مخاوفه ، وعاد الى مأمنه ..." (١) ويقول : " ورد الاسلام الغريب الى بيته القدس ، ونفى الكافر عنه كاسف البال راغم المعطس" (٢) ولم تغب فكرة الطرد عن أذهان القادة ، فهذا صلاح الدين يخطب في الجيش الاسلامي وهو قبالة العدو في عكا ، ويعلمهم أن هذا العدو الطارئ قد وطئ أرض الاسلام ، فيجب قتاله يقول : " أعلموا أن هذا عدو الله وعدونا قد وطئ أرض المسلمين ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ، ... والرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده " (٣) .

وحين حاول الملك ريتشارد قلب الأسد مفاوضة صلاح الدين رد عليه بقوله: "القدس لنا ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، فلا يتصور أن ننزل عليه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين ، وأما البلاد فهي أيضا لنا في الأصل ، واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف ما كان بها من المسلمين في ذلك الوقت " (٤) .

---

(١) الروضتين ٢ / ٩٨

(٢) الروضتين ٢ / ١٠٠ وأنظر أيضا ٢ / ٨٩ أو صبح الاعشى ٦ / ٥١٧ (٣) الروضتين ٢ / ١٤٦

(٤) ابن شداد / النوادر السلطانية ١٩٤ ، وأنظر ديوان ابن مطروح ١٨٢ ومحمد زغلول سلام/ ضياء الدين بن الاثير ٨٠ ، الخريدة/ الشام ١ / ١٥٨

وهكذا نجد حرص الأدباء والقادة على إظهار العدو بهذا المظهر عبر تاريخ الصراع معه ، وحتى قضي عليه نهائيا ، وأخرج من ديار الإسلام .

* * *

وقد حاول الفرنج نيل الاعتراف بهم من المسلمين ، باللين تارة ، وبالشدة تارة أخرى ، وعن طريق المفاوضات أو المهادنات ، ولكن ذلك كله لم ينته الى ما يريدون ، ويظهر ذلك من رد صلاح الدين الآنف الذكر ، ولذا فقد لجأوا الى القوة ، وشددوه كما روى العماد ما مضمونه " وأن أبيحت غير الغيرة والإباء ، ودمت على إرماق الدماء وإهراق الدماء ، جاء من وراء السبعة البحار من يسد فضاء السبع الطباق ، وأفاق للتناصر على دفع هذا المطلب نصارى الآفاق ، وثار الروم لروم الثأر ، وخرج الفرنج أنفارا للاستنفار"(١) ولكنه لم يكترث لهذا التهديد ، ورد عليهم بالعزم الذي لا يعرفون سواه ، فقال للترجمان " أمرنا الله بتمهيد الأرض ، ونحن قائمون في طاعته بالفرض ، وعلينا الاجتهاد في الجهاد ، وامتثال أمره فيه بالانقياد ، وهو الذي يقدرنا على فتح البلاد ، ولا تكثرت الآحاد بكثرة النقاد *...(١) .

وقد لجأوا الى الخديعة وصرف الناس عن الحرب ، وذلك بالمراسلات المتكررة من أجل الصلح لتستمرئ نفوس المسلمين الراحة ، وتكره القتال ، فأرسل ملك الانجليز عدة رسائل يطلب في بعضها من السلطان الكف عن القتال ، وأنه لا يجوز أن يُهلك المسلمين في القتال ، كما لا يجوز له أن يُهلك الفرنج ، ثم تودد اليه بأن يتنازل السلطان عن القدس والساحل وعسقلان (٢) ، فرفض السلطان ، فأعاد الكرة ثانية وبطريقة جديدة ، إذ طلب من السلطان أن يزوج أخاه العادل بأخته ، ثم يتنازل كل منهما للزوجين عن الساحل والقدس ... وطالت السفارات ، ولم تسفر عن شيء ، ومع ذلك بقي السلطان وجنده متهيئين للقتال (٣) ، ولما شعر بالحاح ملك الانجليز ، وقد ضجر العسكر الإسلامي من ملازمة القتال عدة سنوات قبل المهادنة ، لأنه خشي أن يستمر المستبد الفرنجي في حين ازداد الضجر في الجيش الاسلامي ، فتكون العاقبة وخيمة ،

---

(١) الفتح القسي ، ٢٤٠
(*) النقاد جنس من الغنم الصغيرة الأرجل .
(٢) النوادر السلطانية ٢١٩ ـ ٢١١ وللمراسلات أنظر ابن شداد / النوادر ٢٠١ ـ ٢٠٢ ، ٢١٨ ـ ٢٢٠ ، ٢٢٧ ـ ٢٣٠
(٣) الروضتين ٢/١٠١ ، ٢٠٢

وهذا ما يؤكده ابن شداد حين قال : " إن الصلح لم يكن من إيثاره " (١) ، وكأنـــه أحس بأن الهدنة بالرغم عن مدتها القصيرة تشكل خطرا على القضية ، فيصارح ابن شداد بقوله : " أخاف أن أصالح ، وما أدرى أي شيء يكون مني ، فيقوى هذا العدو ، وقد بقي لهم هذه البلاد ، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم ، وترى كل واحد من هـــؤلاء الجماعة " المسلمين " قد قعد في رأس تلة ، وقال لا أنزل ، ويهلك المسلمون " (١)

وإن الناظر في بنود الصلح يدرك أنه كان لصالح المسلمين ، لأن سأم الجنـــد الاسلامي بلغ حدا كاد يصل الى حد التمرد على أوامر صلاح الدين ، فكان هذا الصلــح تجديدا لنشاطهم ، ومن ناحية أخرى فإن خوف صلاح الدين من المستقبل قد تحقـــق فعلا ، إذ توفي بعد الصلح بفترة تقل عن السنة ، ولو أنه مات والقتال مستمر لتحققـــت مخاوفه من أن يكتسح العدو البلاد وقادة المسلمين متفرقون ، كل في البلد الذي يحكمه ، وهذا ما عبر عنه ابن شداد في تعقيبه على قول صلاح الدين بقوله : " وكان كما قال " (١) ثم إن مدة الصلح تشعر بأن الحروب مستمرة ، اذ قد تجدد القتال سنة ٥٩٣ هـ أي بعد انتهاء الصلح بسنتين (٢) .

ولو سرنا مع التاريخ الى عصر بيبرس وقلاوون لوجدنا الهدنة في صالح المسلمين بشكل واضح ، إذ كان من شروطها مقاسمة الفرنج في انتاج الأرض ، ومنعهم من استكمال الامدادات كما منعوهم من تعمير الأسوار والقلاع ، وهذا يدل على أن الهدن لــم يصاحبها شعور بانتهاء حالة الحروب ، وقد ساعد هذا العامل النفسي المسلمين علـــى استرجاع الاراضي المحتلة (٣) .

والدارس لتاريخ هذه الفترة وأدبها يجد فيها تركيزا على غرس الكره في نفـوس المسلمين ضد الفرنج ، لأنهم محتلون ، وقد أفلح هذا الكره في تصميم المسلمين على تحرير الأرض ، ومن الادلة التي تثبت شعور المسلمين الدائم بالكره للمحتلين ما سبقت الاشـــارة اليه هذا الكلام من تحريض المسلمين ضدهم ، وما ورد في النثر من دعاء بتدمير المـــدن التي يسكنونها واستنزال اللعنة والخذلان عليهم (٤)

---

(١) النوادر السلطانية ٢٣٥

(٢) الذيل على الروضتين ١٠

(٣) صبح الاعشى ٣٣/١٤ ، ٣٩ـ٤١ ، ٤٢ ، ٥١ ، ٦٠

(٤) انظر الاعتبار : ١٠ ، ١٧ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٨ ، ٦٤ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٩١ ، ٩٤ ، ١١٤ ، ١١٦ ، ١٣٠ ، ١٣٣ ، ١٣٩ ، ١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٦٢ ابن شداد ٢٩ ، ٣٣ ، ٦٣ ، ٧٥ ، ٩٨ ، الكامل ٣١٠/١٠ ، ٣٦٤ ، ٣٦٥ ، ٣٧٣ ، ٣٩٤ ، ١٠٦/١١ ، ١٥٤ ، ٤٥٣ ، ٦٦/١٢ ، ٦٩ ، ٧١ ، ٧٨ ، ١٢٦ ، رحلة ابن جبير ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، الروضتين ١٧٣/٢ ... الخ

وقد أبرز الادباء هذا الشعور بطريقة قوية مؤثرة حين ربطوا بين كراهتهم للغزاة ، وكره الله لهم ، ورفض البلاد المحتلة لوجودهم ، يقول القاضي الفاضل في وصف فتوح صلاح الدين :

" وقد أظفر الله بالعدو الذى تشذبت قنلته شفقا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الأكثر عددا وعصا ، فكلت حملاته ، وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحبها يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الارض لها حليفة ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ... " (١) .

أما بالنسبة الى الأرض فقد صورها الادباء تتململ تحت الاعداء ، بل صوروها تلفظهم وتذمهم ، يقول ابن منير في فتح فامية :

فاليوم أضحت تستذم مجيرها ... من جوره ، وغدت تذم جوارها (٢)

ويقول أحد الشعراء على لسان المسجد الاقصى شاكيا الظالم الذى يحيق فيه :

يا أيها الملك الذى ... لمعالم الصلبان نكس

جاءت اليك ظلامة ... تسعى من البيت المقدس

كل المساجد طهرت ... وأنا على شرفي منجس (٣)

وقد صور الشعراء العوامل الطبيعية وكأنها تعمل على استئصال الفرنج ، يقول العماد في وصف زلزلة :

سطوة زلزلت بسكانها الأر ... ض وهدت قواعد الأطواد

أخذتهم بالحق رجفة بأس ... تركتهم صرعى صروف العوادي

آية آثرت ذوي الشرك بالهلـ ... ك وأهل الايمان بالارشاد (٤)

---

(١) صبح الاعشى ٦/٤٩٩

(٢) الروضتين ١/٦٣

(٣) الانس الجليل ٣١٨ ، وزبدة كشف الممالك لابن شاهين الظاهري ٢٠

(٤) الخريدة بداية قسم الشام وشعراء دمشق ص ٤٩

في حين حرص الأدب على تقديم الصورة المقابلة لهذه الصورة ، فصوروا الأرض تطيع القادة المسلمين وتلقي بأيديهم حصون الاعداء ، يقول ابن القيسراني في مدح نور الدين حين تمكن من قتل أمير أنطاكية :

وألقت بأيديها اليك حصونـــــه ولو لم تجب طوعا لجاء بها القسر (١)

ويقول شهاب الدين محمود مخاطبا الأشرف :

فسر حيث ما تختار فالأرض كلهـا تطيعك والأمصار أجمعها مصـر (٢) *

والحل الذي طرحه الأدباء دائما لتحقيق النصر هو الوحدة الحقيقية بين البلاد الإسلامية ، والجهاد المستمر ، وقد أسهمت الحرب نفسها في ايجاد الوحدة وتقويـــة عزائم المجاهدين ، يقول ابن القيسراني مخاطبا نور الدين حين حاول أن يوحد إمـــارة دمشق مع البلاد التي كان يحكمهـــا :

إذا ما دمشقُ ملكتَ عنانهـــا تيقّن من في إيليّا انه الذبـــح (٣)

وفي هذا البيت إشارة واضحة الى أن اتحاد الاقطار الاسلامية يجني عليها القضاء على الفرنج الذين كانوا يحتلون القدس آنذاك ، ويقول العماد في مدح أسد الدين شيركوه وصلاح الدين :

غداً يشبان في الكفّار ناراً وغمــيّ بلفحها يصبح الشبان كالشيـــب
بمُلك مصرَ ونصرُ المؤمنين غـــداً تحظى النفوس بتأنيس وتأنيب (٤)

---

(١) الروضتين ١/١/١٨٦ ، الخريدة قسم الشام ١/١٥٨

(٢) البداية والنهاية ١٣/٣٢٩

* صبح الاعشى ٧/٣٥٤ ، ٦/٥١٨ ، الروضتين ٢/٨٩ ، ١٠٠ ، ديوان ابـــن مطروح ١٨٢ ، ديوان بهاء الدين زهير ١٢١ ، النجوم الزاهـــــــرة ٧/٢٧٠ ضياء الدين بن الاثير ٨١

(٣) الروضتين ١/١/١٨٠

(٤) الروضتين ١/٢/٣٦٩

ويقول في مدح أسد الدين شيركوه حين وزر في مصـــــر :

فتحت مصر وأرجو أن تصير بهـــا ميسرا فتح بيت القدس عن كثب (١)

وبعد أن ضم صلاح الدين حلب والموصل قال العماد مهنئا إياه :

فكأنني بالساحل الاقصى وقـــد ساخت ببحر دم الفرنجة ساحـــه

فأمر الى القوم الفرات ليشربـــوا (م) الموت الاجاج فقد طما طماحه (٢) *

وهكذا إنتهى الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي بعد جهود مضنية متواصلـــة دامت قرابة قرنين من الزمن ، وقد شارك في هذا الجهود المقاتل بسلاحه ، والشاعر بشعره والكاتب بنثره ، فكان الادب في المعركة طاقة امتدادها يستخدم عن وعي وهو في إحـــراز النصر ، ويترك أثره في نفوس تهتز للكلمة البليغة ، وتتوق الذكر الحسن ، وتخشى أن يقال فيها ما يســـوء .

---

(١) الروضتين ١/٢/٤٠٣

(٢) مفرج الكروب ٢/٤١

* لمزيد من الأمثلة على أثر الوحدة أنظر ديوان ابن الساعاتي ٢/٢٨٢ ، ديـــوان طلائع ١٢٦ ، ديوان أسامة ٢١٧ ، الروضتين ١/٤٩ ، ٦٨ ، ٧٠ ، ٢٠٧ ، ٢٥٧ ، ٢/٦ ، ١٣ ، ١٧٠ ، تاريخ ابن الفرات ٨/١١٠ ، تاريخ ابن العديم ٣/٢٠ ــ ٢٥ ، الكامل ١١/٣١٨ ، مونروند ، تاريخ الحروب المقدسة ١/١٨١ أحمد بيلي المصري حياة صلاح الدين ، مطبعة السعادة سنة ١٩٢٦ ص ٦٨ ، لمزيد من الامثلة على الاستنصال ، أنظر ديوان الشاغوري ٥٣ ، ابن النبيه ٦٦ ، ابن سناء الملك ٢٨٣ ، ٧٥٨ ، ابن الساعاتي ١/١٧٢ ، ديوان طلائع ١٠٢ ، ١٤٢ ، ١٧٢ ، ديوان البوصيري ٨٨ ، ديوان شرف الدين الأنصـــاري ٢٠٥ ، ٤٠١ ، ديوان ظافر الحداد ٢٥٤ ، وأنظر الروضتين ١/١٥٦ ، ١/٢/٣٩٦ ، ٦٩١ ، ٢/١١ ، ١٠٢ ، ١٠٦ ، ١١٦ ، ١٥٠ ، ١٩٤ ، ١/١/٩٩ ، ٢١٦ جواهر السلوك ٤٩ ، ٥١/٥٩ ، ٤٢ ، نهاية الأرب ٥/١٩٢ ، ٨/١٤ ، صبح الأعشى ٦/٥١٨ ، ٨/٢٥٠ ، ١٠/١٤٢ ، مفرج الكروب ٢٢٢

القسم الرابع : الخطر الصليبـــــــــي :

شكل الصليبيون بغزوهم المشرق الاسلامي خطرا على البلاد الإسلامية وأهلهـــــا ومعتقداتها ، وقد أظهر الأدباء هذا الخطر ونتائجه القريبة والبعيدة ، لكون ذلـــك استنهاضا للهمم من أجل الوقوف في وجه الخطر أولا ، ثم القضاء عليه في النهاية .

وقد تابع الأدب في مجاليْ الشعر والنثر الاحداث الكبار التي شهدها المشـــرق الإسلامي إبّان الوجود الصليبي فيه، وأحسن الادباء العرب تصوير هذا الخطر وعرضه ؛ فلم يقدموه الى الناس بصورة تدعو الى تجاهله وعدم التفكير فيه ، وهذا يفسر تركيزهم علـــى إظهار الخطر في مناسبات النصر أو المدح أو قبيل المعركة ، حين تكون همم المقاتلـــين عالية ، وأن يتحفزوا للقتال باعتباره السبيل الوحيد لدفع الخطر عن الأمة والبلاد .

ولم يجد الباحث في أدب هذه الفترة ــ على طولها ــ سوى موقف واحد ظهر فيـــه اليأس وعدم الاكتراث ، وذلك حين قام الفرنج بالهجوم على دمياط سنة ٦١٥ وأعلن الملك الكامل النفير العام ، في القاهرة ومصر ، وبين مخاطر الغزو الصليبي لمصر ، وأنّ ملـكَ الفرنج قد أقطع مصر لأصحابه فقال أحدهم :

يهدّدونا بأهل عكـــــــــا ‏ أن يملكونا وأهل يافـــــــــا
ومن لنا أن يلوا علينــــــــا ‏ فالروم خير من الريافـــا (١) *

ويلاحظ أن سبب هذه الدعوة اليائسة هو عدم اظهار الخطر الصليبي اذ ذاك بالحكمة التي أظهرها الادب طيلة الحروب الصليبية ، مما نشأ عنه نتائج سيئة ، فقد أظهـــر الافرنج بصورة الاقوياء القادرين على الاستيلاء على مصر دون شك ، مما أوهن عزائم الناس

(١) السلوك جـ ١ ق ١/ ٢٠٢

* في البيت الأول الاصل : يهددوننا حذفت النون خلافا لقواعد اللغـــــــــة ، وفي البيت الثاني الريافا : أهل الريف .

وأدخل في قلوبهم الرعب ، ولو قابلنا هذه الصورة من صورة حصارهم لعكا سنة ٥٨٦ لوجدنا أن قوات الفرنج كانت تزيد أو تقارب أعداد الفرنج الذين حاصروا دمياط ، ولكن طريقة اظهار الخطر اختلفت ، فعند حصار عكا ارتبط الخطر باستثارة عزيمة المسلمين ، بالرغم عن كثرة الفرنج والحاحهم لاقتحام عكا ، يقول القاضي الفاضل من كتاب الى سيف الاسلام أخي صلاح الدين في اليمن : " ... فالبدار البدار ، فان لم يكن الشام له بدار فما اليمن له بدار ، والجنة الجنة ، فانها لا تنال الا بايقاد الحرب على أهل النار ، والهمة الهمة فإن البحار لا تلقى إلا بالبحار ، والملوك الكبار لا يقف في وجوهها الا الملوك الكبار ... " (١) . هذا ويمكن تقسيم صورة الخطر الى ثلاثة أجزاء :

أ . الخطر على الأرض الإسلامية

ب . الخطر على جماعة المسلمين

جـ . الخطر على الاسلام والتراث الاسلامي

* * *

الخطر على الأرض الإسلامية :

أقام الصليبيون إماراتهم على حساب البلاد الاسلامية ، فكانت الامارات الأربع ، وأولاها الرها ، وهي في الجزيرة الفراتية ، أي في عمق البلاد الاسلامية ، مما جعل لها أثرا كبيرا في اعاقة الوحدة الاسلامية ، وتهديد العراق والشام معا ، وأما الامارات الثلاث الاخرى فقد كانت ممتدة على ساحل البحر الابيض المتوسط من شماله الى جنوبه متوغلة توغلا عميقا في بعض المناطق الاسلامية ، حتى أصبح بوسعها تهديد حلب ودمشق ومصر غير مرة .

وقد يميز الادباء في مجال الحديث عن خطر الفرنج على الارض الاسلامية نوعين من البلاد : تلك التي تعرضت للغزو وأثر الغزو عليها وعلى ما وراءها ، وتلك التي لم تتعرض للغزو ، ولكنها كانت مهددة به إن لم يقف المسلمون جميعا لصده .

(١) الروضتين ٢ / ١٣٦

وأما عن البلاد التي تعرضت للغزو ، فيمكن تحديدها ببلاد الشام والجزيرة ومصر ، وقد أوضح الأدب خطورة الفرنج عليها عامة ، وعلى بعض البلدان المهمة خاصة ، كالقدس ودمياط والرّها ، فهذا ابن الأثير يصف خطر الفرنج الذين في منطقة الرها فيقول : " وكانت سراياهم تبلغ ديار بكر الى آمد ، فلم يبقوا على موحد ولا جاحد ، ومن ديار الجزيرة الى نصيبين ورأس العين ، فاستأصلوا ما لأهلها من أثاث وعين ، وأما الرقة وحران فقد كان أهلها معهم في ذل وصغار ، واستضعاف واقتسار ، كل يوم قد أذاقوهم البوار ... وانقطعت الطرق الى دمشق إلا على الرحبة والبر ، فكان التجار والمسافرون يلقون من المخاوف وركوب المفازة تعبا ومشقة ونصبا ، ثم زاد الأمر وعظم الشر ، حتى جعلوا على كل بلد جاورهم خراجا واتاوه ، ثم لم يقنعوا بذلك حتى أرسلوا الى دمشق واستعرضوا الرقيق ممن أخذ من الروم والأرمن ، وسائر بلاد النصرانية ، وخيروهم بين المقام عند أربابهم والعود الى أوطانهم ، فمن اختار المقام تركوه ، ومن آثر العود الى أهله أخذوه ، ... وناهيك بهذه الحال ذلة للمسلمين وأما أهل حلب فإنهم أخذوا مناصفة أعمالهم حتى الرحى التي على باب الجنان ، وبينها وبين المدينة عشرون خطوة ، وأما باقي بلاد الشام فكان حالها أشد من هذين البلدين " (١) .

ويبين طلائع بن رزيك في رسالة بعثها الى أسامة بن منقذ حسرته لخلو القدس من أهلها فيقول :

لهف نفسي على ديار من السكـا (م) ن أقوت فليس فيها غريب (٢)

ولم تقف الخطورة عند هذا الحد ، بل وصل الأمر بالفرنج أن غيروا معالم المدينة ، فبنوا على الصخرة كنيسة ومذبحا وجعلوا فيها الصور والتماثيل (٣) ، ولذلك صور العماد القدس مخاطبة طيبة حين خلصها صلاح الدين من هذه الخطورة يقول :

الآن تاب الى البيت المقدس كال بيت المحرم إحرام ومعتمر (٣)

---

(١) الباهر ٣٤ ، وانظر ابن قاضي شهبة : الدر الثمين في سيرة نور الدين ورقة ٦١

(٢) ديوان طلائع بن رزيك ٦٣

(٣) الأنس الجليل ١/ ٣٣٩

ويؤكد ابن الساعاتي قول العماد ، لأن صيانة القدس تعني صيانة الحجـــاز
ثم يبين عمل المعظم عيسى بن العادل في حماية القدس وأهلها من خطر الفرنج فيقول :

حمى القدس من زرق الأعادي بسمرها — فما تجد الشطّين إلا تعظّمـــا
شكا أهلها دائي محول وخيفـــة — فأجرى على اعطافها الماء والدما
سقى ربّها ماء النجيع سيوفـــه — ففي غيرها لا يستجيز التيمّمـــا
فلم يبق في ساحاتها غير مسلـــم — ولولاه لم يبق الفرنجة مسلمـــا
وما صانها دارا تحلّ وأختهـــا — ولكنه صان الحطيم وزمزمـــا (١)

واهتم الأدباء كذلك بدمياط ، وركزوا على أهميتها من جميع النواحي (٢) ، فهـــي
مفتاح مصر ، وقد احتلها الفرنج عدة مرات للعبور منها الى داخل مصر ، ولكنهم كانــــوا
يفشلون في النهاية ، وفي حصار الفرنج لها سنة ٦١٥ كتب الامير جمال الدين الكناني الى
الكامل رسالة شعرية ، ورطها اليه في نشاب ، وقد جاء في تلك الرسالة :

هذا كتاب موضح من حالـــتي — ما ليس يمكنني لديك أقولــــه
أشكو اليك عدو سوء أحدقـــت — بجميعه فرسانه وخيولـــــه
فالبرّ قد منعت اليه طريقــــه — والبحر عزّ لنصره أسطولــــه
فخصوه بادٍ على أبراجـــــه — وحنينه وبكاؤه وعويلـــــه
ولو استطاع لأمّ بابك لاشـــــذا — لكنه سُدّت عليه سبيلـــــه
ورسوله في أن تجيب دعـــــاءه — دين الاله وخلقه ورسولـــــه
فقد انتهت أدواؤه وتحكمـــت — عادته ونحـا عليه نحولـــه (٣)

ولكنه مع هذه الحالة الحزينة لم ينقطع أمله ولا رجاؤه بل هو يستثير همة الكامـــل
لتحقيق رجاء البلد الحزين فيقول :

وبقي له رمق يسير يرتجـــــي — أو يشتفي لما دهاه عليلــــــه
فاعوس حماك بحزم تشفي بهـــا — داء لمثلك يرتجى تعليلـــــه
فالله أعطاك الكثير بفضلـــــه — ورجاه من هذا الكثير قليلـــه
فالعذر في نصر الاله ودينـــه — ما ساغ عند المسلمين قبولــــه
والثغر ناظره اليه محــــدّق — ما ان يملّ من الدموع همولــه (٤)

(١) ديوان ابن الساعاتي ١ / ١٧٨

(٢) انظر ابن دقماق ، الانتصار لواسطة عقد الأمصار ج ٢ ص ٨٠ و ٧٨ عن تنيس

(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ١ / ١٩٩

(٤) المصدر السابق ١ / ١ / ١٩٩

وحين جاءت الامدادات من الأشرف موسى والمعظم عيسى ، انتصرت القوى الإسلامية الموحدة على الفرنج ، فقال ابن دنينير مخاطبا الاشرف موسى ومبينا خطورة وجود الفرنج على عقيدة أهل دمياط :

وطريدة الاسلام أنت أعدتهـــا من بعد طول تشرُّد ونـدود (١)

ومع أن الخطورة كانت بصورة خاصة على بعض المدن الهامة ، إلا إنها كانت تعني أن البلاد كلها كانت مهددة بالخطر ، وقد بين الشعراء بالفعل خطورة الفرنج على جميع أرض مصر والشام ، فيقول العماد مثلا في تعاون شاور مع الفرنج مبينا خطورة هذا العمل على مصر بلد الاسلام :

هو الذى أطمع الافرنج في بلد الا (م) سلام حتى سموا للقصد والطلب (٢)

ولما تكررت هجمات الفرنج لاحتلال مصر ، والمسلمون في حالة لا تمكنهم على التصدى للفرنج تضرع الشاعر عمارة اليمني لله أن يحفظ مصر من المصير السيء والفتن التي تتوهج كالجمر فقال :

يا ربّ إني أرى مصرا قد انتهبت لها عيون الليالي بعد رقدتها
فاجعل بها ملة الاسلام باقيـــة واحرس عقود الهدى من حل عقدتها
وهب لنا منك عونا نستجير بـه من فتنة يتلظّى جمرُ وقدتها (٣)

ويقول وحيش الأسدي مبينا خطورة الفرنج على الشام لولا صلاح الدين :

والشام لو لم يدارك أهله اندرست آثاره وعَفَتْ آياته حقبـــا (٤)

ويقول ابن عبد الظاهر في مدح قلاوون بعد انتصاره في معركة حمص سنة ٦٨١ :

هذا المقام الذى لو لم تحلّ بـه لم يبق والله لا شامٌ ولا مصر (٥)

وقد وفق الأدباء في ربط هذه البلاد التي تعرضت للخطر الصليبي بالبلاد الإسلامية البعيدة لاقناع البعيدين عن أرض المعركة بأن وقوع بلد من بلاد الاسلام في أيدي الاعداء يعني وجوب الجهاد على كل فرد وان ابتعد وطنه ، وإلا فإن تلك البلاد البعيدة معرضة للمصير نفسه ، ولذا حرص الادب على ربط البلاد المعرضة للخطر بالبلاد الاخرى ، وهذا يدل على بعد نظر وعمق تفكير ، كان من أهم آثاره انجاح العمل من أجل الوحدة والجهاد لطرد الغزاة .

---

(١) ديوان ابن دنينير ٢٠
(٢) عقد الجمان ١٢/٢/٤٢٣
(٣) خريدة القصر : قسم الشام ٢/١٤٠ والنكت المصرية ١٩٠
(٤) الخريدة/ قسم الشام/١/٢٤٣ وانظر مثلا آخر في عقد الجمان ١٢/٢/٤٢٣
(٥) عقد الجمان ٢٠/٤ ورقة ٦٧٧

وأول ما يلاحظه المرء في هذا الصدد ربط البلاد المغزوة بالأماكن الدينية في مكة والمدينة المنورة ، وقد كان هذا الارتباط ماثلاً في تفكير نور الدين محمود ، حتى تمثلت له رؤيا في نومه أكثر من مرة واحدة ، فقد روى ابن قاضي شهبة ، أن نور الدين رأى النبي صلى الله عليه وسلم سنة ٥٥٧ يقول له : "يا محمود أنقذني من هذين الشخصين ، يشير الى رجلين تجاهه ، وقد تكررت هذه الرؤيا ثلاث مرات في ليلة واحدة..."(١) .

وبعد سنة ٥٥٧ هـ بعشرين عاما جمع الفرنج خيلهم ورجلهم وقصدوا تيماء التي يقول فيها العماد : "وهي دهليز المدينة" (٢) ثم قام أرناط في السنة التالية بتجهيز جيش بريّ وبحري لغزو الحجاز وأيلة من الكرك ، يقول القاضي الفاضل : "وكان للفرنج مقصدان : أحدهما قلعة أيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر: الخوض في هذا البحر الذي تجاوزه بلادهم من ساحله"(٣) . وقد نجحوا في الوصول الى أعماق الجزيرة ، ولكن صلاح الدين علم بذلك فأرسل الى أخيه العادل بتحريك الاسطول المصري بقيادة حسام الدين لؤلؤ ، وتمكن منهم وهم على بعد ليلة من المدينة فقتل من قتل وساق الاسرى الى القاهرة ، فكتب صلاح الدين الى العادل "بضرب رقابهم ، وقطع أسبابهم بحيث لا يبقي منهم عين تطرف ولا أحد يخبر طريق ذلك البحر أو يعرف ..." (٤)

ومن المواقع التي اتخذها الفرنج لتهديد الأراضي المقدسة في الحجاز حصن الكرك ، وقد سبق الحديث عنه ، وأما خطورته فقد تحدث عنها القاضي الفاضل بقوله : "وجلس (حصن الكرك) من هام الاسلام مكان عمامته ، وجثم على أنفاس الحجاز ، فلم يدع نفسا يصعد من تهامته ..." (٥) ، ويقول عن قلعة الكرك : "وكانت على الاسلام آية مضرة ، بل كانت لكعبة الله (زادها الله شرفا) أيضرّة ..." (٦).

ومن هنا نجد إشارة الادباء الى اطمئنان البيت الحرام بعد امتلاك المسلمين للكرك ، أو حتى حين يهزمون الفرنج هزيمة تقص أجنحتهم وتفل شوكتهم ، يقول العماد : واضطر الكفر في اسلامه الى الاسلام ، وتمم بمحل هذا البيت (حصن الكرك) أمن البيت الحرام" (٧) .

---

(١) ابن قاضي شهبة ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ٤٨ ـ ٤٩
(٢) الروضتين ٢/ ٢٣
(٣) المصدر السابق ٢/ ٣٧
(٤) المصدر السابق ٢/ ٣٦
(٥) ابن نباتة المصري ، الفاضل من كلام القاضي الفاضل ورقة ٢٥
(٦) المصدر السابق ورقة ١٠١
(٧) الفتح القسي ٢٢٦

ويقول أيضا في انتصارات صلاح الدين :

الآن قرّت جُنُوبٌ في مضاجعها … ونام من لم يزل حلفا له السهر
الآن ثاب الى البيت المقدّس كـ ال … بيت المحرم إحرام ومعتمر (١)

ويقول أبو الحسن الذروي في حسام الدين لؤلؤ :

كفيت أهل الحرمين العدا … وذدت عن أحمدَ والكعبة (٢)

وحين جاء ملك الانجليز ، أراد احتلال القدس ، فقام صلاح الدين بتحصينها وتسميم الآبار التي في طريقها ، فصاد الفرنج عنها ، ولجأ ملكهم الى المفاوضات والصلح على صلاح الدين ، حتى عقد صلح الرملة سنة ٥٨٨ ، ويقول ابن الساعاتي مبينا خطورة الفرنج على البلاد المقدسة :

لولاك أمّ البيت غير مدافع … ولسال سيلُ نداه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما … لترنم الناقوس في أثنائه (٣)

ولئن كان للحجاز من القيمة الدينية ما جعل الادباء يصورون خطر الفرنج عليهما ، فان الأدب أبرز خطورة الفرنج على العالم الاسلامي كله ، فقد بعث الملك المعظم عيسى كتابا ختمه ببيتين من الشعر الى الخليفة العباسي يطلب منه التدخل الفعلي في المعركة ضد الفرنج ، وبين له خطأ الظن بأن أرض بغداد بعيدة عن ميدان المعركة ، فان انفتاح الطريق من الشام يعني سقوط بغداد أو تهديدها ، والبيتان للأمير عبد المحسن الكاتب الحلبي وهما :

قل للخليفة لا زالت عزائمه … لها على الكفر ابراق وارعاد
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا … لا تغفلن ، فأرض الطور بغداد (٤)*

وقد تنبه ابن منير الى خطورة الفرنج على البلاد الاسلامية قبل ذلك بكثير ففي سنة ٥٤٧ هـ افتتح نور الدين حصن انطرسوس ، فأنشده ابن منير قصيدة بحلب منها :

ولو لم تمترقْ** وتشمْ لأمسى … وأصبح لا عراقُ ولا شآم (٥)

---

(١) عقد الجمان ١٧/١/١٨٠

(٢) الروضتين ٢ / ٣٦

(٣) تاريخ ابن الفرات مج ٤ ج٢ / ٨٦

(٤) نهاية الارب ج٢٧ ورقة ٢٢ والذيل على الروضتين ١٠٣

* في نهاية الارب :

إن الفرنج بأرض القدس قد نزلت … لا تغفلن ، فأرض القدس بغداد

وهو غير متفق مع الأحداث التاريخية اذ ان القدس سنة ٦١٤ لم تكن قد أعطيت للفرنج .

** في الاصل تعترف ، ولامعنى لها هنا ، فالمقصود الدخول في العراق والدخول في الشام

(٥) الروضتين ١/١/٢٢٠ وانظر ج١ ص ٩٣ ــ ٩٤ ط دار الجيل

كما تنبّه الى ذلك عمارة اليمني سنة ٥٦٤ الى جعل حكم صلاح الدين لمصر تأمينـــا لقبر الرسول عليه الصلاة والسلام من خطر الفرنج ، يقول :

بكم آمّن الرحمن أعظُم يـــــثرب ‌‌ وأمن أركان الثنية والحجـــــر
ولو رجعت مصرٌ الى الكفر لانطوى ‌ بساط الهدى من ساحة البر والبحر
ولكن شددت أزره بـــــــوزارة ‌ غدا لفظها يشتق من شدّة الازر (١)

وقد ربط الشعر البلاد الاسلامية بعضها ببعض ، لتقف في وجه الخطر الصليبـــي فهذا العماد يجعل حماية مصر حماية لبلاد الاسلام ، فيقول في مدح أسد الديـــن شيركوه سنة ٥٦٣ :

وبلاد الاسلام أنقذتهـــا أنـ ‌ ـت من الشرك أيما أنقـــاذ (٢)

ويقول البهاء زهير في مدح الملك الكامل محمد بعد أن طرد غزو وأغواه الفرنج مـــن دمياط سنة ٦١٥ :

ولو لم يقم بالله حق قيامـــه ‌ لما سلمت دار السلام من الفقـر
وأقسم لولا همة كامليـــــة ‌ لخافت رجال بالمقام وبالحجـر
فمَنْ مبلغٌ هذا الهناءَ لمكّـــــةٍ ‌ ويثربَ تنهيه الى صاحب القبـر
فقل لرسول الله إن سميّـــه ‌ حمى بيضة الاسلام من نوب الدهر (٣) *

* * *

ثانيا : الخطر على المسلمـــين :

أظهر الادباء الخطر الصليبي على المسلمين أفرادا وجماعات كما سبق أن بينــا ، وفي هذا الباب نبين مظاهر أخرى للخطر تحدث عنها الادباء ، أما الخطر على الافـراد فقد صوره عرقلة الكلبي أصدق تصوير ، وبيان ذلك أن صلاح الدين كان قد وعده بألـــف دينار إن ملك مصر ، فلما ملكها كتب اليه قصيدتين يطالبه بتحقيق وعده بارسال الدنانير والا فانه لن يستطيع الذهاب الى مصر ، لأن الفرنج في طريقه كالسياج المانع الـــذي يلاقي من يجتازه الموت أو الاسر ، يقول في الاولى :

---

(١) الروضتين ١/٢/٤١٢

(٢) المصدر السابق ١/٢/٣٨٤

(٣) ديوان البهاء زهير ١٢١ ومفرج الكروب ٤/١٠٣

* للمزيد من الأمثلة أنظر : الروضتين ٢/١٣٥ ، ١٤٦ ، ١٦٦ ، ٢١٦ ، خريدة القصر وجريدة العصر / قسم شعراء مصر ١/٦٩ ، زبدة الحلب ٢/٩٦ ، ١٥٠-١٥١ تاريخ ابن الوردي ٢/٥٥

قل للصلاح معيني عند إعساري ... يا ألف مولاي أين الألف دينار
أخشى من الأسر إن حاولت أرضكم ... وما تفي جنة الفردوس بالنار (١)

ويقول في الثانية :

إليك صلاح الدين مولاي أشتكي ... زمانا على الحر الكريم يجور
ترى أبصر الألف التي كنت واعدى ... بها في يدى قبل الممات تصير
وهيهات والإفرنج بيني وبينكم ... سياج ، قتيل دونه وأسير (٢)

ويصف سبط بن الجوزي حالة الذعر التي نشرها الفرنج ، وما نتج معه تقطع المواصلات بين المدن الاسلامية ، يقول : " وجئنا الى عقبة أفيق ، والطير لا تقدر أن تطير من خوف الفرنج " (٣) ، وقد ظهر هذا الخطر العام على المسلمين منذ أن وطئ العدو الفرنجي أرضهم ، اذ احتل البلاد وشتت العباد ، وأشاع الفساد ، وأهلك الحرث والنسل ، وقتل الفتيات والاطفال ، دون أن يرعى حرمة أو يحفظ عهدا ، يقول ابن الخياط :

بنو الشرك لا ينكرون الفساد ... ولا يعرفون مع الجور قصدا
ولا يردعون عن القتل نفسا ... ولا يتركون من الفتك جهدا
فكم من فتاة بهم أصبحت ... تدق من الخوف نحرا وخدا (٤)

وقد نتج عن هذا الإهلاك والتشتيت أن عاش الناس في ظروف قاسية ، كانت سببا في تحرك نور الدين لانقاذ دمشق ، ولكن صاحبها مجير الدين استنجد بالفرنج ، فكتب إليه نور الدين معللا سبب نزوله في منطقة دمشق ، ومبينا له الاخطار المحدقة بها من الفرنج ، يقول : " انني ما قصدت بنزولي هنا طلبا لمحاربتكم ، وانما دعاني الى هذا الأمر كثرة شكاية أهل حوران بأن الفلاحين أخذت أموالهم وسبيت نساؤهم وأطفالهم بيد الفرنج ، وعدم الناصر لهم ، ولا يسعني مع ما أعطاني الله — تعالى — أن أقعد عن نصرة المسلمين مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم والذب عنها ... " (٥) ، وقد تكرر هذا الخطر عندما كان الصف الاسلامي يصاب بالضعف أو التصدع ، فهذا ابن عنين يرثي المعظم عيسى مشيدا بأعماله التي كان منها حفظ البلاد والعباد من الفرنج ، يقول :

وديار مصر لو ونت عزماته ... عن نصرها لتحكمت فيها العدا
ولأمست البيض الحرائر أسهما ... فيها سبايا ، والموالي أعبدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيرة ... تجتاب ما بين المقيع الى كدى (٦)*

---

(١) الخريدة / قسم شعراء الشام ١ / ١٧٨
(٢) الروضتين ١ / ٢ / ٤٤٩ الخريدة قسم الشام ١ / ٢٠٨ (وفيها : وأسير) وعقد الجمان ١٢ / ٢ / ١
(٣) الذيل على الروضتين ٧٠ (٤) ديوان ابن الخياط ١٨٤
(٥) الدر الثمين في سيرة نور الدين ٩٧ (٦) ديوان ابن عنين ٦١
* كدى / بلد قرب مكة

وينكر ابن دنينير على المسلمين أن يعيشوا في حياة مرفّهة ، وهم لا يأمنون على حياتهم والموت يتربص بهم ، فيقول :

أيطمع أقوام بنعمة عيشة ... متى عطشوا فالموت دونهم ورد (١)

وسبب هذه الحياة القاسية عدم استقرار الناس في ديارهم ، لا في بدو ولا في حضر ، ولذلك يمدح ابن دنينير الملك المعظم الذى أعاد الى دمياط أهلها :

أتيت دمياط اذ أعيت رياضتها ... كل الورى وتناءى البدو والحضر (٢)

ويذكر الملك الامجد سببا آخر هو النهب الذى يقوم به الفرنج على حين غفلة من أهلها ، يقول عن عمل جماعة من الفرنج في نابلس بأنها : قتلت فيها المشايخ والشبان ، وسبيت الحلائل والصبيان ، واستولت يد الكفار على ما كان مدخرا من الاموال والغلال ، وما جمعه المسلمون لأزمتهم في السنين الدوال " (٣) ، وقد أشار ابن أسعد الموصلي الى خطر آخر يتهدد الاخلاق الاسلامية ، إذ إن الفرنج حاولوا تمزيق المسلمين أو زيادة شقة الخلاف بينهم ، ولذلك فان من صفات القائد الاسلامي أن يقوم على نصرة أحلافه وانجادهم مهما كانت مخاطر العون والانجاد ، يقول في مدح صلاح الدين :

لبيته عن نصره حلفاءه ... عددُ العدو ولا بعاد الموضع

بجحافل مثل السيول تدافعت ... واذا السيول تدافعتْ لم تدفع (٤)*

* * *

ثالثا : الخطر على الاسلام والتراث الاسلامي

كان من أهداف الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي القضاء على عقيدة الاسلام وهذا ما سبق ذكره في الصراع العقائدي ، والجدير بالذكر هنا أن نشر مبادىء الغزاة شكل خطرا على الاسلام ، لا لأن هذه المبادىء تمثل فكرا يشكل خطرا على الفكر الاسلامي ، بل لأن القوة في بعض الفترات كانت الى جانب الغزاة ، فتراءى لهم أن القوة العسكرية وقوة العقيدة الدينية صنوان ، يقول الملك الامجد : "ورفع الكفار الصليب على رؤوس الاشهاد والمشاهد ، وأعلنوا بما يفترونه من التثليث الذى تنزه عنه الله الأحد الواحد ، فاستفحل الشر وأعضل الداء ، وعز على اللديغ الشفاء ، وأقاموا بها (نابلس)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ٣ . (٢) المصدر السابق ورقة ٢٢

(٣) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ٩٥

(٤) مضمار الحقائق ص ١٠٠

* للمزيد من الامثلة أنظر : صبح الأعشى ٧/ ٤٤ ، ديوان ابن الساعاتي ١/ ١٧٨ ديوان ابن دنينير ١٧٤ ، عقد الجمان ١٢/ ٣/ ٣٢٨ ، ٤٥٧ ، السلوك لمعرفة دول الملوك ١/ ١/ ١٩٩ ، الاعتبار ١٢ ، ٣٤ ، تاريخ ابن الوردى ٢/ ٨٧ ،

ثلاثا لاكمال فتكهم وإظهار إنكهم ... " (١)، وقد أدرك الأدباء هذه الخطورة، وبيّنوا تضايق الاسلام وحرجه من اعلان شعائر الفرنج، يقول حيص بيص في مدح سيف الدين غازي أخي نور الدين :

أثابك ان سميت في المهد غازيـا — فسابقةً ممدودة في البشائـر
وقيت بها والدين قد مال روقـه — وصدقتها والكفر بادي الشعائر (٢)

ويقول عمارة في مدح شاور :

أقسمت لولا حسن رأيك لاغتدى الـ — ناقوس في بلبيس وهو أذانها (٣)

وكتب القاضي الفاضل الى العادل سنة ٥٩٣ يخبره بوصول نجدات الفرنج الى بيروت، وخطورة ذلك على البلاد والدين يقول " ...و للاسلام اليوم قدم ان زلّت زلّ، وهمة إن ملـت فان النصر منصل ... " (٤) ، ويقول الصاحب شرف الدين الأنصاري :

فكاد يقضي على الاسلام جاهلهم — ما ليس يطمع في ابطاله قاض (٥)

وحين حاصر الفرنج دمياط كتب الأمير جمال الدين الكناني الى الملك الكامل :

ولئن قعدت عن القيام بنصـره — جفّت نضارته وبان ذبولـه (٦)

ويقول ابن عنين في المعظم :

لولا دفاعك بالصوارم والقنـا — عن حوزة الاسلام عاد كما بدا (٧)

ويقول في الأشرف موسى :

لولاك لانفصمت عرى الاسلام فـي — مصر وأخمل ذكره وتبـدلا
وتحكمت منها الفرنج وغـادرت — أعلاجها محراب عمرو هيكـلا (٨)

وفي زمن تورانشاه نزل الفرنج على دمياط وحاولوا تغيير صبغة المدينة لولا صمود تورانشـاه، يقول علي بن عرام :

وقد كاد دين الله يخفت نـوره — ويرمى بتبديل وشرك وتقليـب
فحصّنتموه بالأسنة والظبـا — وتصحيح آراء كنه وتصويـب (٩)

ويلاحظ من الأدلة السابقة تركيز الادباء على أن الاسلام يواجه عدوا متسلحا بالقوة والعتاد،

---

(١) الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ورقة ٩٣
(٢) عقد الجمان ١٢/١/١٩٢
(٣) النكت العصرية ٣٦٩
(٤) الروضتين ٢/٢٣٢
(٥) ديوان الصاحب شرف الدين الانصارى ٢٨٣
(٦) السلوك لمعرفة دول الملوك ١/١/١٩٩
(٧) ديوان ابن عنين ٦١ ومفرج الكروب ٤/٢٦٠
(٨) ديوان ابن عنين ١١ ، ومفرج الكروب ٤/١٠٢ ، وعقد الجمان ١٧/٢/٤٢٠
(٩) خريدة القصر وجريدة العصر / قسم شعراء مصر ٢/١٧١

يريد أن يقضي عليه ، ولم يقل أحد منهم إن الاسلام يواجه دينا أو تكرا يشكل خطرا عليه ، ولذلك أحس الادباء بعودة الحياة الى الاسلام ، بعد كسر الفرنج في حطين وغيرها ، لأن القوة التي تشكل خطراً على الإسلام قد خضدت شوكتها ، يقول ابن سناء الملك في صلاح الدين :

أنت أحييته وقد كان ميتـــا   ثم أعتقته وقد كان قنّــا (١)

وهذا ما أدركه القادة المسلمون ، فهذا الكامل بن شاور يقول لأبيه الذي أراد الاستنجاد بالفرنج حين جاء شيركوه ... " ولئن نقتل ونحن مسلمون ، والبلاد بيد المسلمين خير من أن نقتل وقد ملكها الفرنج ، فليس بينك وبين عود الفرنج الا أن يسمعوا بالقبض على شيركوه ... " (٢) ، وهذا صلاح الدين يصارح ابن شداد بأنه ان ترك الجهاد وبقيت مع الكفر حصون ... " اختل أمرنا الحصون لا سيما صفد وكوكب فانهما للداوية والاستبارية في وسط البلاد ، والثغور الاسلامية بهما واهية السداد ... " (٣) ، وقد كنّى الادباء عن خطورة الفرنج على الاسلام بخطورتهم على القرآن ، فهذا الأمير جمال الدين يصف حالة القرآن لصد نهوض المسلمين في الدفاع عن دمياط سنة ٦١٥ بينما يرتفع الصليب ويُتلى الإنجيل يقول :

ووهت قوى القرآن فيمو قّمت   صلبانه وتلي به إنجيلــــه
وعلا صدى الناقوس في أرجائه   وخفي، على سمع الورى تهليله (٤)

ويقول ابن النبيه في ذلك :

الله أكبر أن تمسي مزامرهــم   تتلى وتنسى من القرآن آيات (٥)

كما بينوا خطورة الفرنج على الاسلام باظهار خطرهم على الصلاة ، ولذا مدح الشعــراء القائد الاسلامي الذي خلص المدن من الفرنج وأقام الصلاة فيها ، يقول ابن دنينير في مدح أسد الدين المهراني الذي فتح يافا سنة ٦٠٨ :

وأقمت الصلاة في ذلك الـدر   ب وقد كانت الصلاة مكــاء (٦)

---

(١) ديوان ابن سناء الملك ١٤ ٨
(٢) الروضتين ١ / ١٥٦ ـ ١٥٧ مطبعة دار الجيل
(٣) الروضتين ٢ / ١٢٢
(٤) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ / ١ / ١٩٩
(٥) ديوان ابن النبيه ٦٧
(٦) ديوان ابن دنينير ورقة ١٢٢

وقد تحدث الأدباء العرب بحرقة عن تحويل المساجد الى كنائس ، ومن ذلك ما ذكره الرحالة ابن جبير عن عكا بقوله : " فعادت مساجدها كنائس وصوامعها مضارب للنواقيس ..." (١) ويقول ابن عنين في جهاد الصفار للفرنج الذين اتخذوا المساجد بيعا يعبدون فيها الصليب :

وبثغر دمياط فكم من بيعة | عُبِدَ الصليبُ بها وكانت مسجدا (٢)

ويقول في الاشرف موسى الذي أبعد خطر الفرنج عن دمياط :

وتحكمت فيها الفرنج وغادرت | أعلاجها محراب عمرو هيكلا (٣)

ويقول فيه :

لو لم يقم موسى بنصر محمد | لعلا على درج الخطيب الأسقف (٤)

وقد مدح الأدب القائد الاسلامي في مدافعته عن المساجد حتى لا يدنسها الغزاة ، يقول ابن القيسراني في مدح تاج الملوك بوري :

وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت | عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم (٥)

كما أعلنوا فرحتهم بفرحة الاسلام بتخلصه من الاعداء ، يقول ابن دنينير :

فثم ترى الاسلام يسفر وجهه | سرورا ونجم الحق في أفقه يبدو (٦)

ويقول :

تهلل الدين والدنيا به فرحا | واستبشرت مكة والحِجْر والحَجَر
لمهتدى يثرب تثريبا لفادحة | من بعده اذ سرت في ذكرها السور (٧)

ويقول آخر :

بمغدا الثغر للاسلام مبتسما | بعد العبوس وفيه الله مذكور
بعد الأناجيل آيات القرآن به | تتلى وقد نسخ الناقوس تكبير
يقول محرابه لو كان يسمعنا | محمد ناصر والشرع منصور (٨) *

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ (٢) ديوان ابن عنين ٦١
(٣) المصدر السابق ١١ (٤) المصدر السابق ١٥
* للمزيد أنظر : الروضتين ٢/ ٨٣ ، ٨٨ ، ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١٣ : الكامل ١١/ ٥٣٩ رسائل ابن الاثير ١٥٥ ، الاعتبار ١٥٥ ، مفرج الكروب ٤/ ١٨ ، القديس لويس حياته وحملاته على الشام ومصر (مذكرات جوانفيل ص ١٠٢
(٥) عقد الجمان ١٢/ ١/ ١٨٦ (٦) ديوان ابن دنينير ورقة ٢
(٧) المصدر السابق ورقة ١٤ (٨) عقد الجمان ١٧/ ٢/ ٤٢٠
* للمزيد عن فرحة البلاد أنظر : ديوان البهاء زهير ١٢١ ، ديوان ابن دنينير ٥ ، ١٤ عقد الجمان ١٢/ ١/ ١٨٢ ، ديوان ابن النبيه ٧٦

وكما شكل الفرنج خطرا على الاسلام ، شكلوا خطرا على التراث الاسلامي والقيم الاسلامية ، مما جعل الشعراء يمتدحون القائد الذى يحافظ على هذه الفضائل ، يقول ابن دنينير في المعظم :

فَلْتَشْكُرَنْكَ بنو العباس بعدهمُ لا بلْ قريشٌ تؤدي الشكر بل مضر
ألبستهمْ عزَّ عباسٍ دهرَهُمُ من بعد ما قد طووا ما كان قد نشروا (١)

ومما امتُدح به القادة المجاهدون ، محافظتهم على الخلافة باعتبارها الوعاء السياسي الذى حوى الاسلام ، يقول عمارة اليمني في مدح صلاح الدين سنة ٥٦٤هـ :

حميتم من الافرنج سرب خلافة جريتم إليها مجرى الأمن من الذعر
حمى الله فيكمْ عزمة أسد يتة ... الاسلام ... الاسر (٢)

ويقول ابن دنينير في مدح الأشرف :

حفظت ملك بني العباس وانحفظت بك الشريعة اذ غيرتها الغير (٣)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥
(٢) الروضتين ١/٢/٢١٤
(٣) ديوان ابن دنينير ورقة ٢٣

الفصل الثاني

أضواء على حياة الصليبيين

أولا : الحياة الاجتماعية :

اطلع المسلمون بسبب الاحتكاك على ألوان من حياة الصليبيين الاجتماعية ، ولمسوا بشكل عام تركيب المجتمع الصليبي ، فتحدثوا عن الملك باعتباره الرئيس الأعلى ، ثم عن الامراء وكبار الفرسان وطبقة التجار الاغنياء (١) ، وأخيرا طبقة الفلاحين (٢) ، وبذلك ميزوا بين ثلاث طبقات في الكيان الصليبي ، هي : طبقة النبلاء ، وطبقة التجار ، وطبقة الفلاحين .

وبالرغم عن أن الادباء المسلمين لم يفهموا لغة الفرنج " لأنهم لا يتكلمون الا بالافرنجي " (٣) ، الا انهم سجلوا ما رأوه وما سمعوه عن طريق التراجمة ، أو عن طريق الاختلاط بالفرنج الذين تعلموا العربية ، يقول العماد : " وأحضرنا الترجمان وأدى عنا البيان " (٤) .

وقد جاءت ملاحظاتهم عن المجتمع الصليبي متفقة مع ملاحظات المؤرخين الصليبيين أو المؤرخين المحدثين من الاوروبيين ، ويمكننا معالجة الحياة الاجتماعية الصليبية في اطار مجالات ثلاثة : ما يتعلق بالمعتقدات ، وما يتعلق بالحياة وقت الحرب ، وما يتعلق بالحياة العامة .

ما يتعلق بالمعتقدات :

وأول ما يسترعي النظر في عاداتهم الدينية الحرص على بناء الكنائس والاهتمام بها ولو كان ذلك خارج المدن ، فحين خرج الفرنج لحصار بانياس نصبوا خيمة كبيرة ، وجعلوها كنيسة يصلون فيها ، ثم فرشوا أرضها بالحلفاء والحشيش (٥) ، أما الكنائس التي في المدن فقد تأنقوا في بنائها ، وأقاموا فيها التماثيل ، وعلقوا على جدرانها الصور ، فكانت شعار

---

(١) أنظر أسامة بن منقذ ، الاعتبار ١١٤

(٢) انظر عبد الحفيظ محمد علي ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين ٩٥ــ١١٣ (ستانسل) القاهرة ١٩٧٥

(٣) الاعتبار ٦٦ وأنظر ١٤٠ وديوان فتيان الشاغوري ٣١٨

(٤) الفتح القسي ٢٣٩ ، وأنظر النوادر السلطانية ٣٢ ، ٣٣

(٥) الاعتبار ٨٦

اعجاب الادباء ، يقول العماد في وصف كنيسة بنوها على الصخرة : " وأما الصخرة فقد كان الفرنج قد بنوا عليها كنيسة ومذبحا ، ولم يتركوا فيها للأيدي المتبركة ولا للعيون المدركة ملمسا ولا مطمحا ، وقد زينوها بالصور والتماثيل ، وعينوا بها مواضع الرهبان ومحط الانجيل وكملوا بها أسباب التعظيم والتبجيل ، وأفردوا فيها لموضع القدم قبة صغيرة مذهبة ، بأعمدة الرخام منقبة ، وقالوا محل قدم المسيح ، وهو مقام التقديس والتسبيح ، وكانت فيها صور الأنعام مثبتة في الرخام ، ورأيت فيها التصاوير وأشباه الخنازير (١) " ، ويروي الجزري عن الشهاب أحمد الصقيلي أنه رأى بعد خراب عكا على بعض أبواب كنائسها مكتوبا :

أدمى الكنائس ان يكن عبثت بكم أيدي الحوادث أو تغيّر حالُ
فلطال ما سجدت على أبوابكم شم الانوف جحاجحٌ أبطال (٢)

ويصف النص عادة السجود بالانحناء حين دخول أبواب الكنائس ، وذلك تعظيما للصليب *.
وللقيسراني في شعرياته تجربة فريدة من نوعها ، وصف خلالها الكنائس وما يجري فيها من قداس ديني ، وهو بذلك يؤكد ما وصفه العماد وغيره ، ويضيف صورا جديدة عما يجري داخل الكنيسة ، أما حديثه عن الصور في الكنائس ، فيظهر في وصفه للراهبة الساجدة لصورة معلقة ، يقول :

كم بالكنائس من مبتّلة مثل المهاة يزينها الخَفَر
من كل ساجدة لصورتها لو أنصفت سجدت لها الصور (٣)

كما يظهر في مناجاته لاحدى الراهبات ، إذ يطلب منها أن تعامله كالصورة المعلقة في الكنيسة ، يقول :

حبيبي صورة يحنى عليها أجيبُ اذا دُعيتُ ولا تُجيب
فليسمعْ بأطرف من فتاة من الرهبان قونتها أديب (٤)

ويقول :

فيا ليتني عندها دمية تراني ولا ريب في ملمسي
فأقسم لو أنني استطيع تحولت صورة مرجرجس (٥)

وأما الصور الجديدة التي قدمها من خلال تجربته الشخصية ، فهي ما رآه في كنيسة بربارة وهي للفرنج خاصة دون غيرهم ، اذ رأى القس فيها يتلو تداسا في الليل ، وحوله الراهبات الجميلات يرتدين الملابس الثمينة يقول :

بدينك يا قس بربارة وما بت تتلوه في الحندس

---

(١) الفتح القسي ١٤١ ، وأنظر ص ٩٥ و ٢٢٨
(٢) جواهر السلوك ورقة ٤٨ ، وأنظر ٤٩
* تبين فيما مضى أنهم يعظمون الصليب ويعتقدون به ، ومن الأمثلة الأخرى قول ابن القيسراني في راهبة :
أعظمة الصليب وددت أني ودين الله عندكم صليب (ديوانه ورقة ٦٤)
(٣) مخطوطة ديوان ابن القيسراني ورقة ٦٢ (٤) المصدر السابق ورقة ٦٤
(٥) المصدر السابق ورقة ٧١

أجرني من الصور الناطقـــــا ت متى قمن حولك في مــــــدرس
اذا هن أقبلن وقت الصـــلا ة في كل لون من الاطلـــس
وجالت مناطق أوساطهـــا وضاقت بها حلل السنــــد س
وأجلسها ثقل أردافهـــا فيالي من ذلك المجلـــس
فلولا التحرج في ملـــتي طلعت عليهن في برنـــس
وقمت ألحن قداسهـــن (م) غير بليد ولا أخــــرس (١)

فهو لولا تحرجه الديني لقام مقام الأسقف في تلاوة القداس ، وارتدى برنسا كبرنسه.
ومن المعلوم أن لباس الأسقف يختلف عن لباس الآخرين من الفرنج ، كما أن لباس الفرنج عامة يختلف عن لباس المسلمين * ، ويظهر ذلك من الخطة التي اتبعها المسلمون للدخول الى عكا وهي محاصرة ، اذ تزيوا بزي الفرنج ... (٢) " وتصوروا رهبانا ومسحوا لحاهم ومسحوا حلاهم ، وتملطوا وتكوفوا ، وتشبهوا بهم في كل بزة لئلا يتخوفوا ، وشدوا زنانـــير ، واستصحبوا خنازير " (٣).

وفي هذا النص بيان لعادة أخرى غير اللباس ، وهي حلق اللحى ، ففي قـول العماد السابق " ومسحوا لحاهم ، و... وتملطوا " ما يؤكد اختلاف الفرنج عن المسلمين في هذا الجانب ، وثمة أدلة أخرى تثبت ذلك ، منها قول ابن شداد عن الهنفري : " إنه شاب حسن ، إلا انه محلوق اللحية ، على ما هو شعارهم " (٤).

ولكن توجد أوصاف لبعض ملوكهم تشير الى أنهم أطلقوا لحاهم ، كما أن القساوسة كانوا يطلقون لحاهم كذلك ، وليس في هذا من تناقض مع قول ابن شداد ، اذ ان عامة الفرنج يحلقون لحاهم ، وأما الملوك فقد أطلقها بعضهم ، كما جاء في وصف ملك الالمان بأنه صاحب اللحية الحمراء " (٥) ، وحلقها آخرون كما جاء في وصف ملك الانكتير أنـــه " قد أشفى من المرض ، وأشرف على الحضض ، حتى حلق رأسه ، حلق لحيته ، واستلقـــى لانتظار منيته ... " (٦) ، وأما القساوسة فلم يرد نص يشير الى أنهم حلقوا لحاهم (٧)

---

(١) مخطوطة ديوان ابن القيسراني ورقة ٧١

* يقول ابن عنين في وصف لباس المقاتلين :
عليهم من الماذي كل مفاضة دلاص كقرن الشمس قد احكمت وضنا (ديوان ص ٣٠)

ويقول نجم الدين محمد بن الخضر بن اسرائيل يوصف لباس الملك ترنسيرن الذي ... توزنشاه وأهدى لباسه الى نائبه بدمشق :

ان غارة الفريس الذي جـا ت حباء لسيد الامــراء
كبياض القرطاس لونا ولكن صبغتها سيوفنا بالدماء

نهاية الارب ٢٧/ ١٩١ وانظر الذيل على الروضتين ١٨٤ والبيت الأول فيها مكسور

(٢) زبدة الحلب ٣/ ١١٨ ، مفرج الكروب ٢/ ٣٢١ (٣) الفتح القسي ٤١٧
(٤) النوادر السلطانية ١٨٢ (٥) الاعتبار ٢٣٠ وانظر ١٣٦ (٦) الفتح القسي ٤٩٧
(٧) تاريخ ابن القلانسي ٣٠٠

ومن عاداتهم الدينية اعتقادهم في رجال الدين ، كما اعتقدوا بنصرة الصليب لهم، يقول ابن القلانسي في نزول الفرنج على دمشق سنة ٥٤٣ " وكان معهم قسيس كبير طويل اللحية يعتقدون به " (١) ويؤكد ذلك قول أسامة عن صاحب طبرية وجماعة : أنهم جاءوا بقسيس لعطيب فارسا كبير القدر مع أنه لا يفقه بالطب شيئا ، ولكنهم كانوا يؤمنون بأنه " اذا حط يده عليه عوفي " (٢) . وبعد هذا ليس من الغريب أن يذكر ابن الاثير أن قول البابا عندهم كقول النبيين (٣) .

التصليب على الوجه :

ويعني ذلك أن يرسم الفرنجي علامة الصليب على وجهه ، حين يسمع أو يرى شيئا مروعا ، وانما يفعل ذلك التماسا لمساعدة روح القدس يقول ابن القيسراني :

فيا حُسْنَ ذاك الوجه إذْ ريع روعةً فَعَوّذه فيها بتصليبة اليد (٤)

ومن المواقف التي صلّب فرنجي فيها على وجهه ، حين عقد شيركوه الصلح مع الفرنج والمصريين ، فجاءه أحد الفرنجة الغرباء فقال له : " أما تخاف أن يغدر بك هؤلاء المصريون، والفرنج قد أحاطوا بك وبأصحابك ، ولا يبقى لكم بقية ، فقال شيركوه : يا ليتهم فعلوه حتى كنت ترى ما أفعله ، كنت والله أضع السيف فلا يُقتل منا رجل حتى يُقتلَ منهم رجال ... والله لو أطاعوني لخرجت اليكم من أول يوم ، ولكنهم امتنعوا "، فصلب على وجهه وقال : "كنا نعجب من فرنج هذه البلاد ، ومبالغتهم في صفتك ، وخوفهم منك ، والآن قد عذرناهم" (٥)

وحين أظهر صلاح الدين القوة والاستبسال لمقدم أسطول صقلية الذى هدده بجموع قواته بأن قال له : " وانهم إن خرجوا أذقناهم ما أذقنا أصحابهم من القتل والأسر " صلّب مقدم الاسطول على وجهه (٦) .

وفي زمن الملك المعظم عيسى ، استمال نساءُ خيالة الفرنج بالهدايا ، وكان أن اكتشف أحدهم الأمر ، وسأل زوجته عمن أرسلها ، فقالت :(الكريدي)، فصلّب على وجهه (٧) .

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ٣٠٠ (٢) الاعتبار ١٣٧
(٣) الكامل ١١/ ٥٣
(٤) ديوان ابن القيسراني ٧٥ ،وأنظر مذكرات جوانفيل ص ١٩٦ ، ٢٣٣
(٥) الكامل ١١/ ٣٠٠
(٦) الكامل ١٢/ ١٠ ، وأنظر الفتح القسي ص ٢٤٠ ، الروضتين ٢/ ١٢٩
(٧) نهاية الارب جـ٢٧ ورقة ٣٨

عدم الاختتـــان :

ارتبط هذا الوصف بنوع من الشماتة والاستهزاء ، لأن الوصف جاء في جو حربـي يمجد انتصار المسلمين على أعدائهم الفرنج ، أظهر الادباء شماتتهم ، وتقليل أهميتهـم يقول ابن منير في فتح الرها :

يا لها هَتَّكْتَ أضحكـتْ   من بني القُلْفِ ثغورَ الشّامتـين (١)

ويقدم ابن المجاور صورة طريفة ، إذ إن رؤوس الفرنج تختتن بالسيف في حين إن نفوسهـم تزهق وهم قلف غير طاهرين ، يقول :

سَنّتْ سيوفُك في الرؤوس ختانـةً   ذهبتْ بمهجةِ كلِّ علجٍ أقلـف (٢)

الأعيــاد :

لم يتحدث الأدب عن أعيادهم ، أسمائها وأنواعها ، وإنما وصفوا أفراحهم فـي بعضها ، وقد اشتهر من الادباء في تسجيل ما شاهدوه من أعيادهم اثنان هما أسامة بـن منقذ وابن جبير ، وأما الاول فيصف عيدا في طبرية ، حيث أجريت مسابقة بين عجوزين فـي ميدان كبير ، وفي نهاية الميدان خنزير جعلوه جائزة لمن تسبق أولا (٣) بينما يصف ابـن جبير عيدا حل على الفرنج وهم مسافرون ، فاجتمعوا في المركب صغيرا وكبيرا وحملوا الشمع المضيء (٤) .

الـــزواج :

ظهرت المرأة الفرنجية في الأدب العربي سافرة منطلقة غير منضبطة ، تخرج دون إذن زوجها ، وتتزوج دون إذن وليها ، ومن ذلك أن زوجة ملك الفرنج بالشام أحبت رجلا من الفرنج الذين قدموا من اوربا فتزوجته ونقلت المُلك اليه (٥) .

وقد كانت تجرى مراسيم الزواج بحضور البطارك والقسوس ، وقد يحضرها جمـع غفير من الفرسان ، إذ كان للزوجة مكانة خاصة ، كما يحضرها النساء ، وقد نقل ابن جبير صورة حية لعرس افرنجي في صور ، يقول : " ومن مشاهد زخارف الدنيا المحدّث بهـا زفاف عروس شاهدناه بصور في أحد الأيام عند مينائها ، وقد احتفل لذلك جميع النصارى (يقصد الفرنج) رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير ، وجميع الالات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها مـن يمين وشمال ، كأنهمـا من ذوى أرحامها ، وهي في أبهى زي ، وأفخـر لبــاس ،

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٠١
(٢) الروضتين ٢ / ١٠٤ وانظر الروضتين ١ / ١ / ١٩٦ ، ومذكرات جوانفيل ١٤٥
(٣) الاعتبار ١٣٨   (٤) رحلة ابن جبير ٢٨٦
(٥) الكامل ١١ / ٤٩٠

تسحب أذيال الحرير الذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ، وعلى لبتها مثل ذلك منتظم ، وهي رافلة في حليها وحللها ، تمشي فترا في فتر مشي الحمامة أو سير الغمامة ، وأمامها جلة رجالها من النصارى في أفخر ملابسهم البهية ، تسحب أذيالها خلفهم ، ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات ، يتهادين في أنفس الملابس ، ويرفلن في أرفل الحلى ، والآلات اللهوية قد تقدمتهم ، والمسلمون وسائر النصارى من النظار قد عادوا في طريقهم سماطين يتطلعون فيهم ، ولا ينكرون عليهم ذلك ، فساروا بها حتى أدخلوها دار بعلها ... " (١) .

ولا يملك ابن جبير الا أن يستعيذ بالله من فتنة المناظر ، ومن تلك الزخارف .

ومما أنكره الأدباء العرب على المرأة الفرنجية استهانتها بالعشرة الزوجية ، فهي لم تكن تعتد بعد وفاة زوجها ، وإنما تتزوج بعد وفاته بأيام قليلة حتى لو كانت حاملا يقول العماد عن الكندهرى بأنه " دخل بالملكة زوجة المركيس في ليلته ، وادعى انه أحق بزوجته ، وكانت حاملا ، فما منع الحمل من نكاحها ، وذلك أفظع من سفاحها " (٢) ويقول في أخرى : " وقيل إنها كانت حبلى ولم تخل من حبالة الحبل ، فما شغلهم حرمة الرحم المشتغل " (٣) ثم يعقب على ذلك بقوله : "فانظر الى استباحة هذه الطائفة المشركة "(٣).

ولم يكن هذا الأمر افتراء عليهم ، فهذا المؤرخ الصليبي جوانفيل يروى في مذكراته ما يؤكد وجود هذه الظاهرة ، اذ يقول إن امرأة منهم قد تزوجت ولما يمض على موت زوجها وقت طويل (٤) .

هذا فيما يتعلق بالزواج فيما بينهم ، وأما التزاوج مع المسلمين ، فقد كان ممنوعا ومستهجنا الا اذا تنصر المسلم أو هربت هي من عندهم ، ويظهر ذلك مما جرى من مفاوضات بين ملك الانكليز والعادل ، حين عرض الاول أخته على الثاني ، شريطة أن يتنازل صلاح الدين لاخيه العادل عن القدس وغيرها ، وهو يتنازل لاخته عن مناطق الساحل ، وحين علمت بالخبر " تسخطت من ذلك وأنكرته انكارا عظيما وحلفت بدينها المغلظ من يمينها أنها لا تفعل ذلك " (٥) ، ويصف العماد الرأي العام الفرنجي في ذلك فيقول : فجبهوها بالعذل واللذع ، واتجهوها بالقدح والقذع ، وقالوا لها كيف تفجعينا بأفجع ملم مؤلم ، وتسلمين بضعك لمباضعة مسلم ، فان تنصر تبصر ، وان تسرع فما تعسر ، وان أبى أبيناه وان أتى أتيناه ، فرغبت من بعد ما رغبت ، وطالت من بعد ما طابت " (٦)

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٨ ـ ٢٧٩ (٢) الفتح القسي ٥٩٠

(٣) المصدر السابق ٤٩٤ ، وأنظر الكامل ١١ / ١٢٨

(٤) القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ١٤٣

(٥) النوادر السلطانية ١٩٦

(٦) الفتح القسي ٥٥٦ ، وأنظر الاعتبار ٩٦ ، والروضتين ٢ / ١٩٣ ، ١٩٦

ويؤكد هذا ما جاء في قصة مريم الزنارية التي تزوجت من مسلم في مصر ، فلما اختطفها الفرنج وعادوا بها الى أوربا سألتها أمها عن زواجها ، فبينت لها أنها أجبرت على الزواج من المسلم (١) . وأما اذا رغبت الفرنجية في الزواج من مسلم فإنها تهجر أهلها كما دلت على ذلك قصة الصعيدي وزوجته الافرنجية (٢)

دفن القتلـــى :

ليس المقصود بدفن الموتى المراسيم التي كانت تتبع عند دفنهم ، وانما المقصود اهتمام الفرنج بدفن موتاهم حتى في أحرج الاوقات ، يقول ابن شداد : "وكلما قتل منهم شخص دفنوه وكلما جرح رجل حملوه" (٣) ، ويظهر أن هذا العمل كان يتم في المعركة أما إن كانوا في حالة هجوم وابتعدوا عن مواقعهم فانهم يحملون قتلاهم ، أو يدفنونهم قبل أن يغادروا أماكنهم ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ أن الفرنج كسروا على أبواب دمشق وقتل منهم خلق كثير ، فقطعوا رؤوسهم وحملوها في سموط الخيل (٤) ، وقد تم دفن القادة الاموات في القدس تكريما لهم ، ولو كان مكان موتهم بعيدا جدا عنها ، ولذلك عمدوا الى خطة يتم بها نقل الجثة أو العظام الى القدس ، وتدل هذه الخطة على ما عهدناه عندهم من وحشية وغلظة ، فحين مات الملك بلدوين ملك القدس في طريق غزوه الى مصر شق أصحابه بطنه ، ورموا حشوته في منطقة ما تزال تحمل أسمه حتى اليوم ، وحملوا جثته ودفنوها في قمامة (٥) ، وحين مات ملك الالمان في شمال الشام وهو في طريقه الى القدس سلقوه في خل وجمعت عظامه لتدفن في كنيسة القيامة ، يقول العماد : "وقيل إنهم سلقوا ذلك الهالك في قدر حتى تخلص عظامه ، وتهرى لحمه ، ثم جمعوا في كيس عظامه ، وراموا بذلك اكرامه واعظامه ، ليحملوه الى كنيستهم بالقدس قمامة ، ويدفنوه على ما كان أوصى به أو رامه ..." (٦) .

---

(١) ألف ليلة وليلة ٦/ ٢٢٣
(٢) المصدر السابق ٧/ ٤
(٣) النوادر السلطانية ٢٥ وأنذار ١٤٨ ، والروضتين ٢/ ١٧٩
(٤) الاعتبار ١١٦
(٥) تاريخ ابن الوردي ٢/ ٢٠ والأنس الجليل ١/ ٣٠٩
(٦) الفتح القسي ٣٩٣ ، وأنذار الحادثة في النوادر ١٢٤ ، وزبدة الحلب ٣/ ١١٤ ، ويؤكد جوانفيل ما ذكره الادباء العرب عن دفن موتاهم في مذكراته ص ١٤٥ .

زيارة الاماكن المقدسة :

رأينا حرص الفرنج على دفن قادتهم في بيت المقدس ، كما رأينا حرص القادة على زيارة القدس وان لم ينسأ في أجلهم فأنهم يوصون بدفنهم فيها ، كما قال العماد "..ويدفنوه على ما كان أوصى به أو رآه " . ولم يكن قادتهم بأكثر تحمسا من عامتهم للزيارة ، فقد أرسل صاحب انطاكية الى أسامة كتابا يقول فيه : " هذا فارس محتشم من الافرنج وصل وحج ويريد الرجوع الى بلاده ، وسألني أن أسيره اليكم يبصر فرسانكم وقد نفذته فاستوصوا به . " (١)
وذكر العماد أن صلاح الدين أسر شيخا طاعنا في السن فسأله عن سبب مجيئه وهو في هذا السن فقال : انما كان مجيئي للحج الى القيامة (٢) .

وقد كان لهم مواسم معينة يزورون خلالها الاماكن المقدسة في القدس وغيرها ، وقد استلزم ذلك تعيين فرقة للاشراف على هذه المواسم ، يقول العماد في معرض حديثه عن زيارة الفرنج لمشهد زكريا عليه السلام في سبسطية : " وهو متعبدهم المعظم ، والمشهد المكرم ، وقد حجبوه بالاستار ، وحلوه بالفضة والنضار ، وعينوا له مواسم الزوار ، وقومة من الرهابين فيمقيمة ، ولا يؤذن في الزيارة الا لمن معه هدية لها قيمة ... " (٣) .

الحياة الإجتماعية خلال الحروب :

تقدير الفارس :

لقد كان لتركيب المجتمع الصليبي أثر في ايثار الفارس والاهتمام به ، وقد لاحظ ذلك أسامة بن منقذ في كتابه الاعتبار ، فأفرد فصلا خاصا سماه " منزلة الفارس عندهم " وذكر أن الفرسان تميزوا بمنزلة عالية ويصفهم بأنهم " أصحاب الرأي وأصحاب القضاء والحكم " (٤) ويثبت ذلك بأدلة يوردها ، منها أن جماعة الفرسان حكموا في قضية جنائية فقضي بقضائهم ، ثم يعقب على ذلك بقوله : وهذا الحكم ... ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الافرنج يغيره ولا ينقضه ... (٤) .

كما أن الاحداث التاريخية نفسها تثبت ما ذهب اليه أسامة ، فما من فارس له قيمة أسر أو قتل في أرض المعركة الا تجد التعقيب على مقتله أو أسره يوحي بأهميته ، ومن ذلك التعقيب على أسر جوسلين بأنه " كان من أعظم الفتوح على المسلمين ... وأصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها وسهل أمرهم على المسلمين بعده ... " (٥) .

---

(١) الاعتبار ٦٩
(٢) الفتح القسي ١٥٦
(٣) الروضتين ٢/ ٨٨
(٤) الاعتبار ٦٤
(٥) الروضتين ١/١/ ١٨٣

الحزن والحـــداد :

وهما من المظاهر الاجتماعية المرتبطة بالحروب ، ويمكن أجمال أسبابهما بموت كبير أو فقد عزيز أو سقوط بلد أو تحطيم شعار ديني أو التعرض لهزيمة ٠٠٠ وقد أضفى الأدباء صورًا عربيةعلى مظاهر حزنهم ، ومنها النوح والندب ولبس الحداد ، وحث التراب علـــى وجوههم ، فهذا ابن الدّهان يمدح طلائع بن رزيك ويبين ما أنزله بالفرنج من هزائم حتى خيم الحزن والنواح على كل صقع من ديارهم ، يقول :

وبات في كل صقع من ديارهـــمُ نوح على بطل لولاك ما شيكـــا (١)*

بل ادعى الادباء أن الحزن خيم على كل بيت فرنجي حين أفشل أسد الدين شيركـــوه مخططات الفرنج في التعاون مع وزير مصر شاور ، يقول العماد :

في كل دار من الافرنج نادبــةٌ بما دهاهمفقد باتوا على نـــدب (٢)

وقد برح الحزن بهم ، حين عادوا الى بيوتهم فوجدوها خاوية من أهلها بسبب ما أحدثه صلاح الدين بهم من هزيمة وقتل في حصن الاحزان ، يقول العماد :

عادوا ، وحين رأوا خراب بيوتهم يئسوا من الأطار والأوطــــــــان
باءوا بأحزان وخافوا هولهـــــا ما لقوا بمخافة الاحـــــزان (٣)

أما طرق تعبيرهم عن الحزن فهي البكاء ، وحث التراب ، ولبس السواد ، وتحريم الملاذ. ومن ذلك وصف العماد لصاحبة الكرك التي أسر ابنها فخرجت الى السلطان " متعرضـــة للخضوع ، متضرعة بالخشوع ، وبرزت مسكينة مستكينة ، مستعطفة مراحم السلطان مستلينة ، رافعة عقيرتها بالابتهال ، شافعة في فك ولدها من الاعتقال ، معفرة خداً شأنـــــه التصعر ، سافرة عن وجه من عادته التخدر ، حاسرة حسرى ، باسرة لحزنها بأسرى ٠" (٤)
ومن وصف ابن شداد لحزنهم حين علموا بمقتل رجل كبير منهم ، يقول : " فضربوا بنفوسهم الارض ، وحثوا على وجوههم التراب ، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة ٠٠٠ " (٥)

---

(١) ديوان ابن الدهان ٢٢٦
* شيكا : الشوكة : حمرة ترقى الجسد ، وقد شيك الرجل : أصابته هذه العلــة (اللسان : شوك)
(٢) تاريخ ابن الفرات مج ٤/ ١/ ٤٦
(٣) خريدة القصر وجريدة العصر / بداية قسم شعراء الشام ص ٥٩ ، وانظر الروضتين ١/ ١/ ١٨٠
(٤) الفتح القسي ٢٠٥ ، وانظر ٢٠٦ ، والذيل على الروضتين ١٠٢
(٥) النوادر السلطانية ١٣٤ ، وانظر ١٤٣ والروضتين ٢/ ١٥٩

والطريقة الثانية للتعبير عن حزنهم هي لبس السواد ، ففي زمن نور الدين سنة ٥٦٥ ضرب زلزال مناطق كثيرة في الشام ، فأنزلت خسائر فادحة ، فقال العماد في ذلك :

جل رزء الفرنج فاستبدلوا منه بلبس الحديد لبس الحداد (١)

وفي سقوط القدس لبس الرهبان والقسوس وخلق كثير من الفرسان المشهورين السواد وحرموا الملاذ ، وقاطعوا كل من خرج عن هذا العرف ، يقول ابن شداد : " قد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى إن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه ، كل ذلك حزنا على بيت المقدس " (٢) وقد نهج جماعة منهم طريقة ثالثة وهي خلع الثياب ولبس الحديد ، كناية عن الحزن ، وتلهفا للقتال لاسترجاع القدس ، يقول العماد : وقد لبسوا الحديد للحداد على البيت المقدس وهجروا الثياب ولزموا المصاب وداوموا الاكتئاب ... " (٣)

ومن طرقهم في التعبير عن حزنهم اشعال النار العظيمة ، فحين مرض ابن طلك الالمان حزنوا عليه حزنا شديدا " فأشعلوا نيرانا هائلة ، بحيث لم تبق خيمة الا اشتعل فيها النار ان والثلاثة ، بحيث بقي عسكرهم كله نارا تتقد " (٤) *

المهادنات :

وتكون بعد اتفاق الطرفين على وقف القتال ، لمدة تختلف حسب الواقع ، ولها مراسيم خاصة يحضرها ممثلون عن الطرفين والأسقف ، وتؤدى فيها الايمان والمواثيق أما المسلمون فكانوا يقسمون بالله ثلاث مرات ، وأما الفرنج فيقسمون بالله ثلاث مرات وبالصليب كذلك ، وبالمسيح ... وبالاقانيم الثلاثة ... ثم تؤخذ خطوطهم عليها بالفرنجي (٥) .

ويلاحظ أن المهادنات كانت في صالح المسلمين ، وقد اعتبر القلقشندى مصلحة المسلمين من شروط شرعيتها (٦) .

---

(١) الروضتين ١/٢/٤٦٩

(٢) النوادر السلطانية ١٢٦

(٣) الفتح القسي ٣٩٣

(٤) الروضتين ٢/١٨١

* لمزيد من الأمثلة على حزنهم أنظر : الفتح ٢٠٥ ، ٤١٥ ، ٤٧٤ ، ٤٨٠ الروضتين ١/١/١٨٠ ، ٢/١٨٦ ، ديوان ابن عنين ٢١ ، ديوان ابن سناء الملك ٥٦٦

(٥) تشريف الايام والعصور ٩٢ ، صبح الأعشى ١٣/٣١٢ـ٣١٤ ، الفتح ٥٥٦

(٦) صبح الاعشى ١٤/٧

الرياضة والفرنـــج :

ان وجود الصليبيين في أرض بعيدة عن بلادهم ، وما تبع ذلك من صراع عنيف ، لم يجعلهم يقلعون عن عاداتهم في المرح واللهو ، بل لقد اتخذوا من بعض ألوان لهوهم تدريبا على قتال خصومهم من المسلمين ، فلا عجب أن يتخذ هذا اللهو أحيانا طابعـا حماسيا عنيفا ، فهذا ابن جبير يصف ميدان عكا بأنه لا يوجد شبهه في المنطقة ، وقد اتخذه الفرنج ملعبا يتدربون فيه على ركوب الخيل ، بما فيهم صاحب البلد الذى يركب كل بكرة وعشية (١) .

ويصف أسامة بن منقذ عيدا للفرنج حضره في طبرية ، وكانت وسائل الترفيه فيه لعبة قام بها الفرسان بالرماح وخرج معهم عجوزان فانيتان ، ومع كل واحدة منهما سرية من الخيالة يحثونهما ، ثم وضعوا في نهاية الميدان خنزيرا لمن يصله أولا أخذه ، فجرت المسابقة بينهما وهم يضحكون لانهما كانتا تقومان وتقعان كل خطوة (٢) .

وقد يدخل في لهوهم تلك المبارزة التي جرت بين صبيين مسلمين وآخرين فرنجيين ، وكان ذلك في وقت السلم ، فتغلب الصبيان المسلمان على الافرنجيين ، فأخذ اجائزه (٣)

ومن أنواع الرياضة التي اتبعوها للترفيه عن أنفسهم الصيد ، وقد مارسوا هذه الهواية في أوقات السلم ، فكانوا يتبادلون الرخص للصيد في الاراضي المجاورة لكل منهم (٤) ، هذا وقد اتخذوا الهزة والصقور والشواهين والكلاب لتساعدهم في القبض على الصيد (٥) ، ومن الادلة الشعرية التي تشير الى ممارستهم الصيد ، قول ابن منير متشفيا بمقتل صاحب انطاكية :

والآن ملقىً بالعرا يقتاتـــه ما كان قبلُ بصيده يقتاتـــه (٦)

المرأة الصليبية :

سبق الحديث عن مشاركة المرأة الفرنجية في الحرب ، ولم يكن هذا هو الشـيء الوحيد الذى استرعى انظار الادباء بالنسبة اليها ، فقد لفتهم جمالها وبعض عاداتها .

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٨٣ (٢) الاعتبار ١٣٨
(٣) الروضتين ٢/١٤٣
(٤) زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية ١٤٨ ـ ١٤٩
(٥) انظر النوادر السلطانية ١٥٧ ، الفتح ٤٧٤ ، الروضتين ٢/١٨٣ ، الاعتبار ٢١٠ ، ٢٢٣
(٦) اعلام النبلاء ٢/١٩ ، الروضتين ج١ ق ١ ص ١٥٩

وقد تميز ابن القيسراني عن غيره في تجسيد محاسن المرأة الفرنجية ، وكان في تجسيده ينحو منحى الشاعر أبي نواس ، ولذلك سنترك الكثير من الامثلة التي تجرح الحياء ، ونذكر مثالا دالا على جمالها ، يقول :

وفي ذلك الزنار تمثال فضة ... تنقل خديه العيون بمسجد
وقد غلب المصباح فيه على الدجي ... سنا قمر في جنح ليل مجمد
فيا لي من وجه كقنديل هيكل ... عليه من الصدغين محراب مسجد
لقد أسرتني حيث لا ابتغي الفدا ... ثقل في أسير لا يسر بمفتقد (١)

ويصف العماد المرأة الفرنجية بأنها : ... حمراء مرحاء ، نجلاء كحلاء ، عجزاء هيفاء غناء لفاء ، زرقاء ورقاء .. (٢) .

وقد تحدث الادب عن انصراف بعضهن عن مناهج الحياة الى اقامة الصلوات ، يقول ابن القيسراني :

كم بالكنائس من مبتلة ... مثل المهاة يزينها الخفر (٣)

ويقول :

يا هل سمعتم بدير سمعان ... وما به للعيون من عان
أموقف للصلاة هيكله ... أم نبت من منابت البستان ؟ (٤)

ويقول :

إذا هن أقبلن وقت الصلا ... ة في كل لون من الاطلس
وجالت مناطق أوساطهن ... وناقت بها حلل السندس
وأجلسها ثقل أردافهن ... فيا لي من ذلك المجلس (٥)

عادات مستنكرة :

تحدث الادب عن كثير من صفاتهم وعاداتهم السيئة ، وقد ورد بعضها في مجال الحديث عن الصراع الحضاري ، ويضاف اليها هاهنا ما يلي :

الدعارة والفجور :

كان لتكوين المجتمع الصليبي العربي أثر في اشاعة الفاحشة بينهم ، فكثيرون منهم تركوا أوطانهم وأولادهم وجاءوا تلبية لنداء الكنيسة ، مما جعلهم يعانون مرارة العزوبة فندبت أوربا مجموعات من النساء لاشباع حاجات الفرسان ، ثم تطور الأمر الى أن أنشئت أسواق للنسوة الساقطات في بعض المدن (٦) .

---

(١) ديوان ابن القيسراني ورقة ٧٥ وانظر ورقة : ٦١ ، ٦٦ ، ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩

(٢) الفتح القسي ٣٤٧ (٣) ديوان ابن القيسراني ورقة ٦٢ (٤) المصدر السابق ٧٣

(٥) المصدر السابق ورقة ٧٠ (٦) الفتح القسي ص ٣٤٥

وقد عقد الصماد فصلا خاصا ذكر فيه حال نساء الفرنج ، وتحدث عن هذا الجانب حديثا مفصلا ، وفيما يلي مقتطفات منه ، يقول " ... قد اجتمعن من الجزائر ، وأنتدبن للجرائر ، واغترين لاصحاف الغرباء ، وتأهبن لإسعاد الاشقياء ، تراقدن على الارفاق والارفاد وتلهبن على السفاح والسفاد ، من كل زانية نازية ، زاعمة سارية ، عاطية متعاطية ، حاذلية خاطية ، متغنية متغنجة ، متبرجة ... فوصلن وقد سلمن أنفسهن ، وقدمن للتبذل أعونهن وأنفسهن ... وتفردن بما ضربنه من الخيم والقباب ، وانضمت اليهن أترابهن من الحسان الشواب ، وفتحن أبواب الملاذ ، وسهلن ما بين ... ونفقن سوق الفسوق ، ولفقن رتوق الفتوق ... وزعمن أن هذه قربة ما فوقها قربة ، لاسيما فيمن اجتمعت عنده مغربة وعزبة ... (١) .

وقد كان لانتشار هذه الفاحشة أن انغمس فيها القسوس ، يقول العماد : وما عند الفرنج على العزباء اذا أمكنت من الاعزب حرج ، وما أزكاها عند القسوس اذا كان للمزنيات المضيقين من ... فرج " (٢) .

ولم يتوقف هذا الداء عند العزباء ، بل ان المتزوجات كن يخُنَّ أزواجهن ، (٣) ولو جاز لنا أن نتخذ حكايات ألف ليلة وليلة دليلا يعتمد عليه لوجدنا في حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية ما يؤكد ذلك (٤) .

وقد استرعى انظار الادباء العرب عدم غيرة الفرنج على نسائهم ، ومن ذلك ما رواه أسامة بن منقذ في الاعتبار عن فرنجي في نابلس كان يبيع الخمر ، وجد رجلا غريبا في حجرة نوم زوجته ، فما زاد بعد حوار عجيب له مع ذلك الرجل على أن قال له : وحق ديني ان عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت ، فكان هذا نكيره ومبلغ غيرته (٥) وفي الصورة دخل فرنجي عند حمامي من أهل المعرة ، ولم يخجل من أن يعرض زوجته لتجربة غريبة ، تنبئ عن انعدام الغيرة والحياء معا ، (٦) .

ويروي أسامة كذلك قصة وقعت في صور ، يبين عدم غيرة الاباء على بناتهم (٧) ، لا عجب اذن أن يقول أسامة عن الفرنج انه " ليس عندهم شيء من النخوة والغيرة ، يكون الرجل منهم يمشي هو وامرأته يلقاه رجل آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث ، فاذا طولت عليه خلاها مع المتحدث ومضى"(٨)

---

(١) الفتح القسي ٣٤٧ ــ ٣٤٨ (٢) المصدر السابق ٣٤٩
(٣) انظر نهاية الارب ٢٧ ورقه ٣٨ ، وانظر المقري : نفح الطيب ٢/ ٢٩٧ والروضتين ٢/ ١١
(٤) ألف ليلة وليلة ٢/ ٤ وانظر الفتح القسي ٥٩٠
(٥) الاعتبار ١٣٦ (٦) المصدر السابق ١٣٦
(٧) المصدر السابق ١٣٧ (٨) المصدر السابق ١٣٥

ولا غرابة والحالة هذه أن يتخذ القوم من الاماكن المقدسة مكانا لممارسة فجورهم وفحشائهم ، فجعلوا من المسجد الاقصى المبارك موضعا يقضون فيه أوطارهم ..(١) *

الخمر :

اتخذ الفرنج للخمر أسواقا ، وباعوها بأثمان باهظة لأنها أصبحت سلعة تجارية تستورد من وراء البحر ، وقد وصف أسامة عملية بيعها بالجملة في نابلس إذ يقول : " يأخذ (السمسار) الخمر في قنينة من النبيذ وينادي عليه ، ويقول : فلان التاجر فتح بتية من هذا الخمر ، من أراد منها شيئا فهو في موضع كذا وكذا "، وأجرته على ندائه ، النبيذ الذي في تلك القنينة (٢) .

وقد انتشرت الخمارات في أماكن كثيرة . ويصف ابن القيسراني إحداها وهي خمارة جسر الحديد في منطقة انطاكية فيقول :

ان كان لا بد من السكـــــر فمن يدي خمارة الجســـــر
خمارة تطلع من نحرهـــــا جارة بيضاء من نحـــــر (٣)

وقد اشتركت المرأة الفرنجية في تقديم الخمر ، ولذلك ربط العماد بين الخمر والنساء الفرنجيات في حديثه السابق ، يقول : " وسقين الخمر ، وطلبن بعين الوزر الأجر " (٤) هذا ، وقد سجل الشعر هذه الصور ، وسخر من خلالها من الفرنج ومن ذلك قول الرشيد بن النابلسي يمدح صلاح الدين بعد الفتوحات :

كم قد سقيتهم لا فلا عجـــب إن عربدوا سفها ، فالقوم قد سكروا (٥)

جفاء أخلاقهم وقسوتهم :

سبق الحديث عن وحشيتهم وقتلهم للمسلمين العزل ، مما يدل على اعتيادهم المناظر الدموية ، حتى ولو كانت منافية للطبائع الانسانية ، فحين حاصر المسلمون كفر طاب رفضوا التسليم ، وقتلوا أولادهم ونساءهم وأحرقوا أموالهم (٦) .

---

(١) الفتح القسي ١٣٧
* للتأكد من صدق المصادر العربية أنظر مذكرات جوانفيل ٩٩ ، ٢٤٤ وغوستاف لوبون / حضارة العرب ٣٢٨ ، وزكي النقاش / العلاقات الاجتماعية ١٥٢
(٢) الاعتبار ١٣٦ ، وانظر جوانفيل في مذكراته ص ٨٣ ، ١٤٢
(٣) ديوان ابن القيسراني ورقة ٧٧
(٤) الفتح القسي ٣٤٨
(٥) الروضتين ٢ / ١٩٤
(٦) الكامل ١٠ / ٥١٠

وقد لاحظ أسامة ذلك حين اعتبر قريبي العهد بالبلاد الفرنجية أجفى أخلاقا من الذين تبلدوا وعاشروا المسلمين (١) ، ثم يذكر دليلا على ذلك ، ملخصه أن أسامة كان يصلي في الأقصى فهجم عليه فرنجي ورد وجهه نحو الشرق ، وقال : كذا صلّ ، فانتهره قومه وأخرجوه ، لكنه قاتلهم ثانية ورد وجه أسامة ثانية ، فعاد الداوية وأخرجوه واعتذروا الى أسامة بأنه " غريب وَصَلَ من بلاد الفرنج في هذه الايام ... " (٢) .

ويمدح عمارة اليمني الوزير المصري شاور بأنه هذب أخلاق الفرنج الجفاة فيقول :

وعصابة روميّة عاشرتها فتأدبتْ وتهذّبتْ أذهانها (٣)

وقد ظهر هذا الجفاء وهذه القسوة في محاكماتهم ، فكانوا يُنزِلون العقاب الاليم الذي يصل الى درجة الموت دون التأكد من صحة التهمة ، كما يتضح من رواية أسامة عن محاكمتهم شيخا كبيراً بتهمة التعاون مع المسلمين ، وذلك باجباره على مبارزة حداد شاب ، انتهت بموت الشيخ المتهم بصورة بشعة قاسية ، وسط هتاف القوم واستحسانهم (٤) .. ومتهم آخر أتهموه وأمه بقتل الحجاج الفرنج ، ففقأوا عينيه دون أن تجرى له محاكمة تقدم فيها الأدلة والشهود .. (٥) .

ويروى ابن شداد محاكمة أخرى لمتهم فرنجي ، والتهمة هي أنه ضرب غلامه ضربا جاوز فيه الحد ، فاجتمعت القسوس للحكم ، فقضوا بذبحه وتشفع بعضهم فيه لدى الملك ، فلم يلتفت الى ذلك وذبحه (٦) .

النهب والسرقة :

تميزت عمليات الصليبيين في بداية الحروب الصليبية بالنهب والسرقة ، فقد نهبوا ما في طرابلس من أموال (٧) وأخذوا من عند الصخرة نيفا وأربعين قنديلا من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم ، وأخذوا تنورا من فضة ، ومن الذهب نيفا وعشرين قنديلا (٨) وفي اللاذقية هجموا على مينائها ، ونهبوا اثنتين وعشرين قطعة في البحر (٩) وفي جبيل أعطى الفرنج الامان للمسلمين ، ولكنهم لم يفوا لهم بعهدهم ،

---

(١) الاعتبار ١٣٤ — (٢) المصدر السابق ١٣٤
(٣) شرح الكروب ١/٢/١٤٢ — (٤) الاعتبار ١٣٨
(٥) المصدر السابق ١٣٩
(٦) النوادر السلطانية ١٢٦ ، وانظر تشريف الايام والعصور ١٧٧
(٧) الكامل ١٠/ ٤٧٦
(٨) المصدر السابق ١٠/ ٢٨٤
(٩) زبدة الحلب ٢/ ١٣٠

وأخذوا أموالهم ، واستنفذوها بالعقوبات وأنواع العذاب (١) ، وبعد أن استقروا في بلاد الشام عملت نجدات لهم لصوصا احترفوا مهنة السلب ، ومن ذلك أن جماعة من "الحرامية أخذوا قافلة للمسلمين وهم عند بحلبات ..." (٢) وحين غادر أسامة مصر عائدا الى الشام عن طريق البحر ، نهب الفرنج مركبه والمراكب الاخرى بحجة أنها كسرت ، فكتب الى طلائع ابن رزيك يشكو أمره :

أذهبت تالدى وطار مسني — الطاري فضاع الموروث والمكسوب
فهو شطران بين مصر وعصر — ذا غريق ، في ، وذا منهوب (٣)

ويصف ابن جبير شجرة عظيمة هي حد بين الامن والخوف لوجود حرامية للفرنج (٤)
وكان من شروط الناصر قلاوون على الفرنج ، وقد رجحت كفة المسلمين ، أن لا يمكنوا " حرامية البحر من الزوادة من عند هولا من حمل الماء ..." (٥) *

صفات خلقية :

نظر المسلمون الى صفات الفرنج الخلقية فلاحظوا أنهم شقر غريبون عن البلاد التي احتلوها ، تمش كالافاعي الخبيثة ، زرق أشداء ، ومن ذلك فهم مثار استهزاء ، يقول العماد : " خرجوا الى عكا من كل ... أزرق ، زرقة الموت الاحمر ، وأنمشي يمشي واليوم أغبر ، وأشقر وهو أشقى ، وأبقع اذا غوى في الوغى ما ترك ولا أبقى " (٦) ويقول أيضا " شقرا كأنما لفحت النار وجوههم " وهم فيها كالحون " زرقا كأنما عيونهم من حديد فهم بقلوبهم وعيونهم يكافحون" (٧) . ويقول في ملك الالمان : وأنه خرج في ثلاثمائة ألف مقاتل ، فمن كل سالب باسل ، وطالب للباطل ، وجهم جهنمي ، وأشقر سقري ، وأنمش أفعواني " (٨) ، ومن مواطن استهزاء الادباء العرب بالفرنج وصفهم لملك الانجليز بأنه "أشقر أمعط ، في عينية ضعف ، لو كان عبدا ما يساوى مائتي درهم " (٩) .

(١) الكامل ١٠/٢٧٢ ، وانظر : الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ٦٢
(٢) الاعتبار ١٤٠
(٣) ديوان أسامة ٢٦٦ ، وأنظر ١٢٤ والروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٤٨
(٤) رحلة ابن جبير ٢٧٣
(٥) صبح الاعشى ٤/٦٠/٦٢
* للمزيد أنظر الخريدة/ الشام/١/٦٩ ، ٢٠٢ ، ٢٢٢ ، والاعتبار ٤٤ ، ٤٥ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨٦ ، ١٨٣ ، ١٥٤ ، ٢٢٠ ، ٢٤٥ ، ومذكرات جوانفيل ١٨٦
(٦) الفتح القسي ٤٠٣ — (٧) المصدر السابق ٥١
(٨) المصدر السابق ٣٢٩ — (٩) عقد الجمان ١٨/١ ورقة ٨٣

وقد ركز الشعراء على وصف عيونهم الزرق ، التي يشمئز منها العربي ، بل يتطير بها ، يقول المهذب بن الزبير في الهرنس صاحب انطاكية :

وتعجّبوا من زرقةٍ في دارفـــه وكأنّ فوق الرمح نصلا ثانـــي (١)

ويصور فتيان الشاغوري الخيل تمشي على جثثهم ، والطيور تنقر عيونهم الزرقاء ، ولا يخلو هذا الوصف من التشفي والاستهزاء ، يقول في مدح صلاح الدين سنة ٥٨٣ :

فالخيلُ لا تمشي بها الا علـــى هامٍ منضّدةٍ وشعر أشقـــر
نهبتْ عفاة الطير من حدقٍ بهـــا زرقٍ فصوصاً من نفيس الجوهـــر (٢)

وقريب من هذا المعنى ما ذكره شهاب الدين محمود في فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ يقول :

وغاص زرق القنا في زرق أعينهـــم كأنها شطن تهوى الى قلـــب (٣)

عادات أخرى :

ومن عاداتهم أنهم ينكرون على من يشد في وسطه المئزر في الحمـــام (٤) ومنها كشف الرأس عند الفرح (٥) .

اقتباس ... واعجاب :

أدى استقرار الصليبيين في المشرق الاسلامي الى تأثر بالفن الاسلامي بأنواعه ومن ذلك الفن المعماري وقد وصف بعض الادباء أبنيتهم ، ومن هؤلاء القيسراني الذى قال في وصف انطاكية حين كانت تحت الاحتلال الصليبي :

واحربا في الثغور من بلـــد يضحك حسنا كأنه ثغــــر
به قصور كأنها بيـــــع ناطقة في خلالها الصـــور
هالات طاقا تهن آهلــــة يسفر عن كل هالة قمـــر (٦)

---

* قيل في هجاء خالد الفهري :

فألفيته يهوى فــــترده عروق الى أخواله الزرق تنتمـــي
اذا ايقظة نخوة عربيـــة الى المجد قالت أرمنيته نـــم
(ديوان ابن عنين ١٢٦)

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٧٦ ، وأنظر الخريدة قسم شعراء مصر ١/ ٣٨
(٢) ديوان فتيان الشاغوري ١٤٥ (٣) جواهر السلوك ورقة ٦٠
(٤) الاعتبار ١٣٦ (٥) تاريخ ابن الفرات ٤/ ٢/ ٢٥٥
(٦) ديوان ابن القيسراني ٦٣ ، وأنظر الخريدة/ قسم الشام ١/ ١٠٠

ويصف ابن جبير عكا المحتلة بأنها " قاعدة مدن الافرنج بالشام ، ومحط الجوارى ... وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام ، وتضيق فيها مواطئ الاقدام " (١) ، ولكن الاحتلال شوه المدينة في نظر ابن جبير ، اذ يقول فيها بعد ذلك : " زفرة قذرة مملوءة كلها رجسا وعذرة " (١) ولذلك فضل عليها صور التي تنعم بالهدوء ، ويقل فيها التعصب ضد المسلمين .. (٢) .

وقد أتخذ البناء في المدن المحتلة طابعا فنيا من الجمال ما يتفق مع تاريخ المعمار الاسلامي قبل غزو بلاد الشام ، كما يظهر من كتابة الرحالة الفارسي ناصر خسرو . وقد أضاف الفرنج الى الاماكن الدينية زخرفا لم يكن فيها من قبل ، واستنبتوا الاشجار حولها ، يقول العماد في وصف اللاذقية : " ورأيتها بلدة واسعة الافنية ، جامعة الابنية متناسبة المغاني ، متناسقة المباني ، قريبة المجاني ، رحيبة المواني ، في كل دار بستان وفي كل قطر بنيان ، أمكنتها مخرمة ، وأروقتها مرخمة ، وعقودها محكمة ، ومعالمها معلمة ودعائمها منظمة ، ومساكنها مهندسة مهندمة ، وأماكنها ممكنة ، ومحاسنها مبينة ، ومراتبها معنية ... " (٣) ، ويقول في كنيستها : " بأجزاء الاجزاع مرصعة وبألون الرخام مجزعة ... " (٤) .

وقد أفرغ الصليبيون جهدهم في تزيين القدس وكنائسها ، حتى أصبحت مثار اعجاب لكل من رآها ، يقول القاضي الفاضل " فانهم ــ خذلهم الله ــ عموها بالأسل والصفاح ، ومنوها بالعمد والصفاح ، وأودعوا الكنائس بها وبيوت الدمية والاستبارية ، فيها كل غريبة من الرخام ، الذى يطّرد ماؤه ، ولا يطّرد لألاؤه ، قد لطف الحديد في تجزيعه ، وتفنن في توشيعه ، الى أن صار الحديد الذى فيه بأس شديد ، كالذهب الذى فيه نعيم عتيد ، فما ترى الا مقاعد للرياض لها من بياض الترخيم رقراق ، وعمدا كالاشجار لهما من التنبيت أوراق ... " (٥) .

ويتحدث ضياء الدين بن الاثير عن مشاهداته في القدس بعد أن استعادها صلاح الدين ، كما شاهد ذلك القاضي الفاضل ، ولكن ابن الاثير يسلط الاضواء على جوانب أخرى ، فيذكر تفنن الفرنج في الابنية التي أتخذوها من الحجارة ، بينما ذكر الفاضل تفننهم في زخرفة الحديد ، يقول ضياء الدين بن الاثير " ولا ينتهي الوصف الى ما شوهد بالبلد من الآثار العجيبة التي تصطاد العجلان ، وتستجلب الاذهان ، وتستنطق الألسنة بالتسبيح لله الذى فطر الانسان ، ومن جملة ذلك ، تنوهي في حسنه من الهوع

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ (٢) المصدر السابق ٢٧٢

(٣) الفتح القسي ٢٢٨

(٤) المصدر السابق ٢٢٨ ، وأنظر الفتح القسي ١٤١

(٥) صبح الاعشى ٦/٥٠٢ ــ ٥٠٣

والصوامع ، ذوات الأبنية الروائع ، التي رَوّضت بالزخارف ترويض الأزهار ، ورفعت معاقدها حتى كادت النجوم توحي اليها بالأسرار ، وما فيها إلا ما يقال إنه إرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد ، ولقد ألان الله لهم الحجارة حتى تحيروا في توشيحها بضروب الاختيار ، وجعلوها أعاجيب الاسماع والابصار ، وقيل فيها هذه روضات جنان لا أفنية ديار ... " (١).

التأثر بالحضارة الإسلامية :

لم تتسم العلاقات الاسلامية الفرنجية دائما بالجفاف ، بالرغم عن الحروب الطويلة المستمرة ، فقد كانت العلاقات التجارية أحيانا طبيعية ، مما لفت نظر ابن جبير فقال : " ومن أعجب ما يحدّث به في الدنيا ، أن قوافل المسلمين تخرج الى بلاد الافرنج وسبيهم يدخل الى بلاد المسلمين " (٢) ويقول في عكا : " مجتمع السفن والرفاق وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الآفاق " (٣) ثم يقول : وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة " (٤).

هذا ما كان وسوق الحرب قائمة ، أما حين وضعت الحرب أوزارها ، فقد نادى المنادى في أسواق العسكر أن الصلح قد أنتظم ، من يشاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل " (٥)

وقد نتج عن هذا الاختلاط تعلم بعض الفرنج لغة العرب ، مما جعل التأثر بالحضارة الاسلامية أكبر ، ومن الادلة التي تثبت معرفة بعضهم اللغة العربية ما ذكره ابن جبير من أنهم " يكتبون بالعربية ويتكلمون بها " (٦) ، وما ذكره ابن شداد عن صاحب شقيف أرنون بأنه عارف بالعربية ، وعنده اطلاع على شيء من التواريخ والاحاديث (٧) * وروى أسامة بن منقذ عدة مشاهدات في أماكن مختلفة يتكلم فيها الفرنج العربية ، منها أن

---

(١) أنيس المقدسي ، رسائل ابن الاثير ص ١٥٥ ، دار العلم للملايين ط بيروت ١٩٥٩

(٢) رحلة ابن جبير ٢٧١

(٣) المصدر السابق ٢٧٦

(٤) المصدر السابق ٧٣

(٥) تاريخ ابن الفرات ٨٦/٢/٤

(٦) رحلة ابن جبير ٢٧٥

(٧) النوادر السلطانية ٩٧ ، ومفرج الكروب ٢٨٦/٢

* انظر الاعتبار ٦٧ ، ٨١ ، ٨٧ ، ٩٠

مجموعة منهم جاءت الى شيزر ،وسألوا البواب عن اسم البلد ، فقالوا : ايش اسم هذا البلد ؟ فقال شيزر (١) ... وحين دخل فردريك الى القدس زمن الكامل سأل قوّام الصخرة عدة أسئلة بالعربية (٢) .. وفي حكاية الصعيدي وزوجته الفرنجية ما يؤكد معرفة المرأة الفرنجية للعربية ،فحين خيرها السلطان بين زوجها المسلم والفرنجي قالت : أنا قد أسلمت وتزوجت وحملت كما ترون (٣) ..

ومن الأدلة الأخرى التي تثبت معرفتهم للعربية ، ما كان يجرى من مناظرات بين بعض المسلمين والفرنج ، ومثال ذلك قول ابن القيسراني في التناظر بينه وبين فرنجي في تحريم الخمر :

وبدا يناظرني بها عن دينه   فقلبت لياذاً بالجدال مكيشا (٤)

ويقول ابن شداد في صاحب شقيف أرنون " وكان يناظرنا في دينه ، ونناظره في بطلانه ، وكان حسن المحاورة متأدبا في كلامه " (٥)

ومن الطبيعي الا يكون التناظر والتحاور الا باللغة العربية ، لأنه لم يعهد عن العرب آنذاك أنهم تعلموا اللغة الفرنجية ، بل كانوا يصفونها بأوصاف لا تخلو من الطعن مثل البربرة (٦).ومن المتوقع بعد هذا أن الجماعات الصليبية لم تستطع أن تحتفظ بعاداتها ومظاهر حياتها سليمة كما جاءت بها ،وإنما اضطرت بحكم انحطاط مستواها الحضاري الى ان تكتسب الكثير من صفات المجتمع الاسلامي وعاداته ، حتى بلغ الاكتساب حداً شكا منه المؤرخون الصليبيون ، فهذا فوشه Foucher كتب بعد انقضاء نصف قرن تقريبا يقول : "واحسرتاه ! بعد أن كنا غربيين صرنا الآن شرقيين تماما في هذه البلاد (الشام) وغدا الايطالي أو الفرنسي الذي يعيش في هذه البلاد جليليا أو فلسطينيا لقد نسينا أوطاننا ، وصار معظمنا لا يعرف عنها شيئا (٧).

أما مجالات التأثر فهي كثيرة منها :

١. <u>الاسلام :</u>

فالبرغم من تعصب الفرنج الشديد لمعتقداتهم ،إلا أن بعضهم اقتنع بالدين الاسلامي وأسلم ، يقول العماد مشيرا الى اسلام بعض الفرنج بعد حطين :

---

(١) الاعتبار ٥٦ وأنظر ١٣٥ و ١٣٢
(٢) عقد الجمان ١٨/١/٨٣ ، ومفرج الكروب ٤/٤٤٤
(٣) ألف ليلة وليلة ٤/٧ وأنظر ألف ليلة وليلة ٦/٢٢٢
(٤) ديوان ابن القيسراني ٧١   (٥) النوادر السلطانية ص ٩٧
(٦) الاعتبار ١٤٠ وانظر ١٠٤
(٧) نقلا عن المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام مقالة الدكتور سعيد عاشور/عمان سنة ١٩٧٤ ص ٢٤٠

" وما أسلم إلا آحاد حسن إسلامهم ، وتأكد بالدين عزامهم " (١) ويقول : وهرب خادمان من عند الفرنج ، وذكر أنهما لأخت ملك الانكتير ، وأنهما كانا يكتمان الايمان في سر الضمير ... " (٢) .

ويلاحظ المرء من حكاية الصعيدي وزوجته الافرنجية اذا اعتبرناها مصدرا يعتمد عليه ، أن هذه المرأة أسلمت عن قناعة كما يبدو من قولها : " وهذا سر دينك الصحيح ، وأشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله ... " (٣)

٢ . **اللباس :**

تأثرت المرأة الفرنجية بزي المرأة المسلمة ، وراحت تقلدها في اتخاذ الحجاب لا احتشاما ، وانما رغبة في التجمل ، وفي محاكاة المرأة المسلمة التي تفوقها حضارة فلبست الفرنجيات الحرير والسترات الشرقية الموشاة بخيوط الذهب والفضة ، ومن ذلك وصف العماد لصاحبة الكرك التي اتخذت الحجاب فيقول : وخرجت مسفرة غدا شأنه التصمر ، مسفرة عن وجه من عادته التخدر ... " (٤)

ويقول ابن جبير في وصف عروس : تسحب أذيال الحرير الذهب سحبا على الهيئة المعهودة من لباسهم ، وعلى رأسها عصابة ذهب قد حفت بشبكة ذهب منسوجة ... ووراءها أكفاؤها ونظراؤها من النصرانيات (الفرنجيات) يتهادين في أنفس الملابس ويرفلن في أرفل الحلى ... (٥) .

وقد لبس الرجال اللباس العربي ، وهو القباء والشربوش ، فقد أرسل الكندهري الى صلاح الدين يقول : أنت تعلم أن لباس القباء والشربوش عندنا عيب ، وأنا ألبسهما منك محبة لك ، فأنفذ اليه السلطان خلعة ... فلبسها بعكا " (٦) .

ولنا أن نستند في تصديق ذلك على ما يذكره ستيفن رنسيمان عن ملابس الرجال والنساء فيقول : يرتدي الفارس في عدته وسلاحه برنسا من الحرير ويتخذ عمامة وعند القتال يرتدي فوق درعه سترة من الكتان لوقاية الزرد من حرارة الشمس كما يجعل خوذته كوفيه على نحو ما يفعل العرب . أما السيدات فاتبعن الزي الشرقي التقليدي فيما اتخذنه من قميص طويل وسترة قصيرة أو رداء بكمين ، وكلها موشاة بخيوط الذهب وأحيانا بالجواهر ، فاذا خرجن من بيوتهن اتخذن الحجاب شأن النساء المسلمات ، لا من قبيل الاحتشام ، بل لوقاية الطلاء الذي على وجوههن " (٧)

---

(١) الروضتين ٢ / ٨٠ وانظر ٢ / ١٦٥ (٢) الفتح القسي ٤٩٣ وأنظر ٤٤٠ و ٤٦١
(٣) ألف ليلة وليلة ٧ / ٤ (٤) الفتح القسي ٢٠٥ وأنظر ٢٠٦
(٥) رحلة ابن جبير ٢٧٨ (٦) الكامل ١٢ / ٧٩
(٧) الحروب الصليبية ٢ / ٥٠٩

٣- تذوق الأطعمة العربية :

روى أسامة عن أحد الفرنج الذين بأنطاكية أنه " أحضر مائدة حسنة ، وطعاما في غاية النظافة والجودة ، ورآني متوقفا عن الاكل فقال : كل ، طيب النفس ، فأنا ما آكل من طعام الفرنج ، ولي طباخات مصريات ، ما آكل إلا من طبيخهن ، ولا يدخل داري لحم خنزير " (١)

٤- اتخاذ الموسيقى العربية وسيلة للترفيه :

وقد استعملت في الغناء والأفراح ، ومن ذلك ما جاء في ديوان ابن القيسراني من أن جارية من مولدات انطاكية المحتلة تغني بالدف وتستميل قلوب المسلمين بقولها :

علقت بحبل من حبال محمد أمنت به من طارق الحدثان (٢)

وهناك أداة أخرى غير الدف ، وهي العود استعملها الفرنج ، يقول ابن القيسراني :

اذا بدا أذعنت له حدق وان شدا ملكته أسماع
يحمي أوتار عوده ويد ايقاعها بالنفوس ايقاع (٣)

ويصف ابن جبير عرسا افرنجيا في صور ، استعملت فيه جميع الالات اللهوية يقول : " وقد احتفل لذلك (العرس) جميع النصارى رجالا ونساء ، واصطفوا سماطين عند باب العروس المهداة ، والبوقات تضرب والمزامير وجميع الآلات اللهوية ، حتى خرجت تتهادى بين رجلين يمسكانها " (٤).

٥- الأبنية والفنادق والقلاع والحصون واستعمال النار ليلا والحمام الهادي نهارا لنقل الاخبار (٥).

٦- الاشياء الادارية ، فقد أعتمدوا على المسلمين أو من تدرب عندهم لإدارة الديوان والنظر في شؤون القوافل ، يقول ابن جبير " ورئيسها (ضيعة قرب عكا) الناظر فيها من المسلمين مقدم من جهة الفرنج .. " ويقول " .. وحملنا الى الديوان وهو خان معد لنزول القافلة ، وأمام بابه مصاطب مفروشة فيها كتاب الديوان من النصارى بمحابر الابنوس المذهبة الحلي ، وهم يكتبون بالعربية ، ويتكلمون بها "(٦)

(١) الاعتبار ١٤٠ ، وانظر رحلة ابن جبير ٢٧٥
(٢) ديوان ابن القيسراني ورقة ٧٤ (٣) المصدر السابق ورقة ٧٩
(٤) رحلة ابن جبير ٢٧٨
(٥) انظر رحلة ابن جبير ٢٧٥ ، الفتح ٤٨٤ ، مفرج الكروب ٢/٣٠٣ ، وزكي النقاش في العلاقات الاجتماعية ١٦٢ ، واحمد عبد الجواد الدومي : صلاح الدين الايوبي ١٠٢
(٦) انظر العلاقات الاجتماعية ١٥٧

ثانيا : الحياة الإقتصادية :

حظيت حياة الافرنج الاجتماعية باهتمام أكبر عند الأدباء العرب من الحياة الاقتصادية ، وسبب ذلك يعود الى خطورة النواحي الاجتماعية على بناء المجتمع الاسلامي فبرزت هذه النواحي في الأدب مرتبطة بالتنفير والاستغراب ، وثمة سبب آخر ، هو أن الحياة الاجتماعية ممارسات يومية معروفة ، في حين ان الحياة الاقتصادية قد تغيب ملاحظتها عن غير المهتم بها ، ولذلك جاءت ملاحظات أدباء العرب عن الحياة الاقتصادية غير وافية ، ومعظمها مرتبط بالاشياء الظاهرة ، وتنقصها سمة التعمق والاستقصاء .

موارد الافرنج :

تبين لنا فيما مضى أن الفرنج استمدوا مقومات وجودهم من دول وراء البحار ، وهذا يعني أنهم اعتمدوا في حياتهم الاقتصادية على الامدادات الخارجية ، فكانت كل حملة تأتي الى المشرق الاسلامي تتخذ اجراءات تكفل لها الامداد الاقتصادي ، إما عن طريق ما تحمله سفن تابعة للحملة أو عن طريق امدادات متوالية من سفن المدن التجارية كالبندقية وجنوا وبيزا .

ويظهر هذا الامداد في مواقف كثيرة ، فحين غزا الفرنج الاسكندرية رافقهم اسطول يحمل كل ما يحتاجه العسكر ، وبعد سقوط القدس بيد صلاح الدين جاء الجيش الالماني بعدته وعتاده ، وفي حصار عكا جاءت افرنجية متنفذة ، ومعها ثلاثمائة فارس ، معهم كل ما يحتاجون اليه .

الا انه كان للفرنج مصادر دخل أخرى منها :

١ . الضرائب :

وتشمل ما يؤخذ من البلاد الاسلامية التي تغلب عليها الفرنج ، وما يدفعه الافراد من المسلمين للفرنج بسبب بقائهم في بلادهم ، وما تدفعه القوافل لقاء دخولها في الاراضي التي يحتلها الفرنج .

ويتضح من تنوع الضرائب أنها كانت تشكل دخلا كبيرا للفرنج ، فعلى سبيل المثال قرر الفرنج على أهل صيدا نيفا وعشرين ألف دينار ، وكذلك على عسقلان وصور (١) .

وهذه البلاد لم تكن وحدها التي تدفع الجزاة مثل هذه الضرائب الكبيرة ، كما أن الضرائب النقدية لم تكن الضرائب الوحيدة التي تقدم لهم ، اذ كانوا يأخذون من المسلمين ضرائب عينية كذلك ، كما أوضح ابن جبير حين قال : " وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم " (٢)

---

(١) انظر ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ١٧١

(٢) رحلة ابن جبير ٢٦٠

أما الضريبة التي كانت تدفع على القوافل ومن معها من مسافرين عدا التجار ، فقد كانت على أساس أن يدفع المسافر دينارا وقيراطا ، ويدفع التجار عن البضائع العشر في مواضع معينة ، منها حصن تبنين الذي يقول ابن جبير فيه : " موضع تمكيس القوافل ، والضريبة فيه دينار وقيراط من الدنانير الصورية على الرأس ، ولا اعتراض على التجار فيه ، لأنهم يقصدون موضع الملك الملعون ، وهو محل التعشير والضريبة فيه قيراط من الدينار " (١) .

وقد فرض الفرنج ، في عصر قوتهم وسيادتهم ، على المناطق التي يسكنها المسلمون ضريبة على الانتاج ، مقدارها نصف الغلة ، مقابل السماح لهم بمزاولة أعمالهم بسلام ، وقد لاحظ ذلك الرحالة ابن جبير ، حين أجتاز بطحاء بانياس، وتبنين فيقول في بطحاء بانياس ان الفرنج " يتشاطرون الغلة على السواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حيف يجرى بينهم " (٢) ، ويقول في الثانية : " وسكانها (وهم من المسلمين) مع الفرنج على حالة ترفيه ـ نعوذ بالله من الفتنة ـ وذلك أنهم يؤدون لهم نصف الغلة ، عند أوان ضمها ، وجزية على كل رأس دينار وخمسة قراريط ، ولهم على الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها ، وكل ما بأيدى المسلمين على هذه السبيل " (٣) .

ثم فرضوا على المناطق الزراعية البعيدة عنهم فضلا عن القريبة ضريبة المشاطرة بسبب مواقعها ، فيذكر ابن شداد أن طبرية شاطرت المناطق القريبة منها ، بل التي تبعد عنها ما يقارب مائة كيلو متر غلاتها الزراعية ، وهذا يؤكد ما ذكره ابن جبير سابقا ، ويقول ابن شداد : " وكانت طبرية في عهد الفرنج تقاسم نصف غل البلاد من الصلت والبلقاء وجبل عوف والحيانية والسواد ، وتناصف الجولان وما يقربها الى بلد حوران (٤) . وقد توقف هذا المعين حين رجحت الكفة الاسلامية .

٢ . **التجارة :**

ارتبطت الحركة الصليبية منذ توجهها الى المشرق الاسلامي ، بالمدن التجارية الايطالية ، وكان لهذا الامر آثار خطيرة على الحركة الصليبية نفسها ، فقد غيرت اتجاه حملة كان من المقرر أن تتوجه الى مصر باعتبارها العامل المهم في هزيمة الفرنج في حطين ، ولكن العلاقات التجارية بين هذه المدن ومصر كانت طيبة ، فأقنع التجار الفرنج بأن يهاجموا القسطنطينية التي تخلت عن الفرنج في بعض معاركهم في مصر والشام ، ولكن الحملة فشلت ، ويدل هذا على تأثير المدن التجارية في سير الحملات الصليبية .

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٤ — (٢) المصدر السابق ٢٧٣
(٣) المصدر السابق ٢٧٥ — (٤) الروضتين ٢/٧٩

على أن الصليبيين ومن خلفهم من الاوروبيين اتخذوا بعض المدن التجارية في الساحل الشامي مركزا لهم للبيع والشراء . ومن المدن التي اتخذوها لهذه الغاية مدينة عكا التي كانت محط القوافل وملتقى التجار من المسلمين والفرنج . يقول ابن جبير فيها : " قاعدة مدن الافرنج بالشام ومحط الجواري ، وملتقى تجار المسلمين والنصارى من جميع الافاق ، سككها وشوارعها تغص بالزحام وتضيق فيها مواطن الاقدام (١) ومثلها مدينة صور (٢) .

ولم تكن عكا أو غيرها لتغص بالزحام لولا كثرة التجار ، فقد اجتمعوا بها من جميع الافاق ، وتوضيح ذلك ، أن القوافل كانت تختلف من مصر الى دمشق ، ومنها الى بلاد الفرنج ، كل ذلك دون انقطاع (٢) وكذلك كان تجار الفرنج يدخلون البلاد الاسلامية ، لا يمنع أحد منهم ولا يعترض (٣) حتى في أوقات المعارك ، وهذا ما يتضح من حكاية الصعيدي وزوجته الافرنجية ، حيث ذهب الى عكا ليبيع الكتان فيها وهي مع الفرنج (٤) ويتضح كذلك ، اذا أخذنا بالرواية ، من حكاية مريم الزنارية أن الفرنج دخلوا الاسكندرية ، واشتروا ما يريدون ، ثم عادوا الى بلادهم ومعهم مريم الزنارية الفرنجية (٥) .

وفي عهد بيبرس عقدت هدنة بينه وبين بيت الاستبار ، نصت على أن يكون التجار والسفار المترددون من جميع الجهات المذكورة آمنين من الجهتين (٦) .

ويظهر من النص الاخير أن التجار تميزوا بمعاملة خاصة من كلا الطرفين ، منذ وقت مبكر ، اذ يروى أسامة بن منقذ أنه اجتاز سوق عكا ، واذا امرأة فرنجية ، تعلقت به ظنا منها أنه قاتل أخيها ، فأجتمع عليه رجال الفرنج ، ولم يتخلص أسامة منهم إلا حين جاء أحدهم وقال : هذا رجل برجاسي (أى تاجر) لا يقاتل ولا يحضر القتال ، فتفرقوا عنه (٧) .

وقد عين الفرنج نقاطا للحراسة على مداخل البلد التي تمر منها القافلة ، ونقاطا أخرى داخل المدينة ، وسبب هذه الحراسة فحص المواد المنقولة ومعرفة أصحاب السلع من غيرهم منعا للسرقات ، وكان يتم ذلك كله بالمعاملة الحسنة . يقول ابن جبير : "وطلب رحل من لا سلعة له لئلا يحتوى على سلعة مخبوءة فيه ، وأطلق سبيله حيث شاء ، وكل ذلك برفق وتؤدة ، دون تعنيف ولا حمل .." (٨) .

---

(١) رحلة ابن جبير ٢٧٦ (٢) المصدر السابق ٢٧٧
(٣) المصدر السابق ٢٦٠
(٤) ألف ليلة وليلة ٤/٧ وأنظر الكامل ٥٣٩/١١
(٥) المصدر السابق ١٩٩/٦
(٦) صبح الاعشى ٣٧/١٤ ، وأنظر محمد زغلول سلام/ ضياء الدين بن الاثير ١٥
(٧) الاعتبار ١٤٠ (٨) رحلة ابن جبير ٢٧٦

أما ان حدثت سرقة أو أخيذة ، فتغرّم الجهة التي سرقت عندها ، أو تحلف اليمين ، وقد جاء ذلك في الهدنة التي عقدت بين بيبرس وبين بيت الاستبار اذ نصت على أنه ان تعدى أحد من أصحابه (الاستبار) بأذية ، أو تعدى أحد من الفرنجة في بلاده بأذية ، كانت المهلة في ذلك خمسة عشر يوما ، فان تكشفت الاخيذة ، أعيدت ، والا تحلف الجهة المدعى عليها أنها ما علمت وما أحست ... " (١) .

ويبدو أن التجار اتخذوا زيا خاصا بهم . ففي زمن الصالح أيوب تحرك ملك فرنسا يريد مصر ، فعلم ملك صقلية بذلك ، فأرسل ابنه يخبر الصالح بعزم لويس التاسع على قصد مصر ، وكان ذهابه الى مصر في زي تاجر خوفا من الفرنج أن يعلموا مالاة الانبرطور للمسلمين ... " (٢) ، هذا ، وقد وردت اشارات عابرة عن المواد التي تاجر بها الفرنج ، وأهمها الفضة والاشياء الأثرية ، فقد ظفر المسلمون بمراكب لتجار العدو في حصار عكا ، يحمل معظمها فضة مصوغة وغير مصوغة .. (٣) وأما الاشياء الأثرية ، فقد أخذوها من القدس ، وباعوها في صقلية (٤) .

أما التجارة الداخلية ، فقد كانت تتعلق بحاجات الجيش من ميرة وسلاح ، كما حدث مع ملك الألمان الذي فنيت أقوات جيشه وأسلحتهم بسبب ما لاقوه من مصاعب وقتال في طريقهم الطويل . فاتفق مع ملك التركمان أن يتزود عسكره من أسواق السلاجقة .. ليعوضوا ما فقدوه ، يقول العماد : وأقاموا لهم الاسواق ، وعرض عليهم الأمتعة والاعلاق ، فساروا في رفقة ورفق ، وتقوبلا توق .. " (٥) وكان أرناط يحصن حصنه في الكرك بما يشتريه من سوق العسكر (٦) ، هذا ، وقد استعمل الفرنج العملة الذهبية للبيع والشراء ، وكانت الوحدة المستعملة التي تحدث عنها الادب ، هي الدينار الصوري ، والدينار أربعة وعشرون قيراطا (٧) ويصف القلقشندي الدينار الصوري فيقول : " دنانير يؤتى بها من البلاد الفرنجية والروم ، وهي معلومة الوزن ، على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه ، وعلى الوجه الاخر صورتا بطرس وبولس الحواريين (٨) .

ومن الأدلة التي تثبت استعمالهم للدنانير الصورية ، ما ذكره ابن جبير عن التمكيس حيث يقول : " والتمكيس بالدنانير الصورية " (٩) وما جاء في مضمار الحقائق من أن ابن بارازان الفرنجي بذل في نفسه مائة وخمسين ألف دينار .. وابن القومصية افتكته أمه بخمسة وخمسين ألف دينار صورية (١٠) .

---

(١) صبح الاعشى ١٤/ ٣٤ وأنشار ٢٨ (٢) مفرج الكروب ٤/ ٢٤٧
(٣) الروضتين ٢/ ١٨١ (٤) الفتح القسي ١٤٢ (٥) المصدر السابق ٣٩٠
(٦) مفرج الكروب ٢/ ٢٨٣ (٧) رحلة ابن جبير ٤٧٤ (٨) صبح الاعشى ٣/ ٤٣٧
(٩) رحلة ابن جبير ٢٧٤
(١٠) مضمار الحقائق ١٧ ، والكامل ١١/ ٤٥٦ ، وصبح الاعشى ١٤/ ٣٤

٣ • الزراعة :

أشار الادباء الى بعض مزروعات الصليبيين في معرض حديثهم عن سيطرة المسلمين عليهم وتدمير زروعهم ، وقطف ثمار أشجارهم ، وهم لا يستطيعون دفعا ولا صدا ، يقول صاحب مضمار الحقائق في نزول صلاح الدين سنة ٥٧٨ على الكرك : "ووجد فيها جمعا عظيما من الفرنج ، فنزل قريبا منهم ، فأذللناهم وضايقناهم ، حتى لاذوا بالجدار ، فاستولينا عليهم ، فقطعنا أشجارهم ورعينا زروعهم ، وجعلنا نشن الغارات عليهم مدة عشرة أيام " (١) . وكتب محيي الدين بن عبد الظاهر الى ملك الفرنج في طرابلس وأنطاكية : " قد علم القومص كيف فارقنا بلادك ، وما بقيت فيها ماشية الا لدينا ماشية ، ... ولا زرع الا وهو محصود ، ولا موجود الا وهو منك مفقود ... " (٢) ويقول سبط بن التعاويذي :

جيوشهم بالرعب مفلولة وزرعهم بالسيف محصود (٣)

ولكن المزارعين — مع هذا — أعطوا حرية التنقل لتصريف منتوجاتهم ، ولعلهم نالوا هذه الميزة لأنهم اشتركوا مع التجار في النشاط الاقتصادى ، بل أصبحت حرية التنقل اتفاقا معمولا به زمن الظاهر بيبرس ، فقد نصت الهدنة التي عقدها مع بيت الاسبتار على " أن يكون فلاحو بيت الاسبتار رائحين وغادين ومتصرفين في بيعهم وشرائهم لا يتعدى عليهم أحد ، وكذلك جميع فلاحي بلاد الاسماعيلية (٤)

٤ • الحيوانات :

وقد أعتمد الفرنج عليها في غذائهم وتنقلهم ، فكانوا يستوردونها من الغرب ، أو يشترونها من المنطقة ، ثم يحافظون عليها ، ويقدمون لها ما تحتاجه من أعلاف وقد ورد ذكر الأدب للحيوانات في مجال سيطرة المسلمين على الفرنج . يقول صاحب مضمار الحقائق عن صلاح الدين : " وساق أغنامهم وأبقارهم ، وخرب عليهم بل أحرق ديارهم " (٥) . ويقول العماد : " وانتهى الينا أن الفرنج ينتشرون في الارض وينبسطون في موضع القبض ، ولا يحتفظون في الرفع والخفض ويحتطبون ولا يحتاطون ، ويحتشون ولا يختشون " (٦)
وقد اعتمد الفرنج على الإسماك مصدرا آخر من مصادر الغذاء ، ولكن قوة المسلمين المتصاعدة جعلت الفرنج يقدمون نصف أنتاجها اليهم ، كما نصت على ذلك الاتفاقية التي عقدت بين الطرفين سنة ٦٦٥ هـ وقد جاء فيها " وتكون صيدة السمك الرومية مهما تحصل منها يكون النصف منها للملك الظاهر بيبرس والنصف الثاني لبيت الاسبتار ... " (٧)

---

(١) مضمار الحقائق ٩٢ (٢) صبح الاعشى ٨/ ٢٩٩
(٣) ديوان ابن التعاويذي ١١١ (٤) صبح الاعشى ١٤/ ٣٥
(٥) مضمار الحقائق ٣٣ (٦) الفتح القسي ٢٩٣ وأنظر النوادر ٢٠٠ والروضتين ٢/ ١٤١
(٧) صبح الاعشى ١٤/ ٣٣

هذا ، وقد ذكر الأدب بعض صناعتهم ،وهي صناعة حربية كصناعة الأبراج والاسلحة الخفيفة ،وقد سبقت الإشارة الى ذلك .

ويلاحظ مما مضى أن دخل الفرد الفرنجي في بداية الحروب الصليبية كان عاليـــا لتنوع مصادر الدخل ، مما جعل أحد امرائهم يمن فرسانه لضعفهم أمام المسلمين ،مع أن دخل الفرنجي يعادل دخل مائة مسلم ، قال لهم : " انتم فرساني ، وكل واحـــد منكم له ديوان مثل ديوان مائة مسلم ، وهؤلاء سرجند(Sergeant) (يعني رجالة) ما تقدرون تقلعونهم من موضعهم ؟ ... " (١) .

ولكن هذا الدخل تناقص تدريجا ،بل حدثت أزمات اقتصادية خانقة فيما بعد ، بسبب تدهور الاحوال السياسية ، اذ انحصر ملك الفرنج في صور وأنطاكية ، فاجتمـــع الفرنج كلهم في هذه المناطق ، وباعوا ما لا يمكنهم حمله بأرخص ثمن كما قضى بذلـــك الاتفاق (٢)،ثم قدمت الجيوش الفرنجية بأعداد هائلة عن طريق القسطنطينية ، وحـــين وصلوا انطاكية استهلكوا بضاعتها ، فارتفعت الاسعار ارتفاعا فاحشا حتى بلغ سعر غـــرارة القمح اثني عشر دينارا . يقول العماد : " وكانت حينئذ انطاكية قد أسعر غلتها غـــلاء سعر الغلة ، وقل ساكنوها لما كانوا فيه من القلة ، والغرارة تساوى اثني عشر دينـــارا ، والقوم قد شارفوا فيها تبارا وبوارا " (٣) . بل ان ابن شداد يذكر أن سعر الغرارة بلـــغ ستا وتسعين دينارا صورية (٤) .

وأما في عكا حيث اجتمعت الجيوش الصليبية ، فقد ازدادت الاسعار أكثر مما كانت عليه في انطاكية ، اذ بلغ ثمن الغرارة أكثر من مائة دينار . يقول العماد : "وكانـــت الغرارة من الغلة قد بلغت أكثر من مائة دينار ،والسعر من الزيادة لديهم في استعار" (٥) وبسبب هذا الغلاء التجأت جماعة منهم الى المسلمين ، وماتت جماعات يقدرها ابن شداد بمائة ومئتين يوميا (٦)، ويصور العماد حالتهم تلك فيقول : " وغلت الاسعار عند الفرنـــج ، واستمرت الغلل ،وأعلتهم ما عراهم ، وترتهم العلل ، وباءوا بالوباء وبلوا من الهـــلاك ، وغلوا من الغلاء ،وتضوروا من الضراء ،وشق مرائرهم استمرار الشقاء ، وعمت المجاعة الجماعة وعدموا الطاعة والاستطاعة ،وزاد جوعهم ،وزال هجوعهم ، وقصرت عن القرار بوعهـــــم ، وأمحلت ربوعهم ، واستحال رتوعهم ، وبعث الرعب على الهرب ، أو القحط على الشحط ، لكنهم أقاموا على الموت ،واستناموا الى الفوت ، وبلوا بأمور صعبة ، وهرب الينا منهم عصبة بعد عصبة " (٧) . ولم تكن حالتهم زمن بيبرس وقلاوون والاشرف بأحسن مما كانت زمـــن صلاح الدين ، بل ان حالتهم ازدادت سوءا ،لانهم زمن صلاح الدين وجدوا الحمـــاس الاوروبي يمدهم بما يحتاجونه من ميرة وأموال وسلاح ،ولكن هذا الحماس تضاءل زمـــن بيبرس حتى قضى عليهم نهائيا زمن الاشرف ،ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة .

---

(١) الاعتبار ٦٧ (٢) الكامل ١١/٥٥٣ (٣) الفتح القسي ٢٥٩
(٤) النوادر السلطانية ١٤٦ (٥) الفتح القسي ٤٤ والروضتين ٢/١٦٥ والكامل ١٢/٥٤
(٦) النوادر السلطانية ١٥٤ (٧) الفتح القسي ٤٣٩

ثالثا : الحياة السياسيـــة :

أقام الصليبيون كيانهم السياسي في المشرق الاسلامي على شكل امارات منفصلة ، هي الرها وانطاكية والقدس وطرابلس ، وتشكل منها الاطار العام للحكم السياسي ، إذ كان الأدباء يبرزون الفرنج كلا متماسكا ، في بداية تأسيس تلك الامارات ، وربما خلط بعضهم بين الروم والفرنج ، ثم اتضحت الرؤية تدريجيا ، وصار الأدباء ينسبون الفرنج الى مناطق وجودهم ، فيقولون فرنج انطاكية ، وفرنج الرها ، وهكذا ، ولكنهم مع هذا نظروا الى إمارة القدس نظرة خاصة ، لانهم أدركوا أن من اسباب الحروب الصليبية ، العامل الديني ، يضاف الى ذلك توجه كثير من الفرنج الى القدس للحج ، وتوسع الفرنج الذين فيها فـــي أرض الشام ومصر .

ولكن هذه الامارات ، وعلى رأسها القدس ، لم ترتكز على أساس متين ، فهي كانت قائمة على أساس الاتكاء على قوة الغرب الاوروبي ، مع أنهم جهدوا في بناء كيان سياسـي منفصل عن الغرب ، ومقبول في الشرق الاسلامي ، فعملوا من أجل ذلك على التوســـع السريع لتكون البقعة الجغرافية صالحة لاقامة كيان مكتف متكامل ، يدر أنتاجا يضمن لهـم الاستغناء عن الجهات الاخرى ، كما أن الفرنج حاولوا الإستفادة من الاوضاع الداخلية للبلاد الاسلامية ، فتوسعوا في الارض الاسلامية ، وأمدوا أعداء الامة ، ولكن مسيرة الوحدة والجهاد كانت أسرع من عملياتهم ، فأوقفتهم أولا ثم تحولت فيما بعد الى مرحلـــة الهجوم ، مما اضطر الفرنج الى المطالبة بوقف القتال على أن يعترف المسلمون بهـــم بوصفهم جيرانا لهم . وراسلوا صلاح الدين في ذلك مـرات ومرات (١) ، كما راسلوا قطز وبيبرس وقلاوون وغيرهم (٢) وكان جوابهم أن الارض ليست لهم ، ولكنها للمسلمين ، فــلا يستطيعون المفاوضة عليها ، حتى اكتملت التعبئة النفسية والعسكرية عند المسلمين ، ممـا مكّنهم في النهاية من اجتثاث الغزاة من المشرق الاسلامي .

ولقد كان للتكوين الاجتماعي في المجتمع الصليبي أثر في نظمهم السياسيـــة ، فهم من طبقات شتى وأجناس مختلفة ، جمعتهم المطامع الخارجية والاستثارة الدينية ، فجاءوا معا من أجل أن يقاتلوا ويبنوا كيانا لهم في المشرق ، فجاء هذا الكيان صورة عن الانظمة السياسية الغربية ، وأنتخبوا في القدس ملكا على الطريقة الغربية .

وقد اتخذ ملك الفرنج القدس عاصمة لهم منذ احتلالهم لها والى حين استعـادة المسلمين لها سنة ٥٨٣ هـ ، ثم اتخذوا عكا قاعدة لهم ، وقد تبعهم في ذلك أمراء المناطق التابعة للقدس ، وتبع الامراء الفرسان والفلاحون وبذا كان النظام المتبع نظاما اقطاعيا ، يكون الملك بموجبه على رأس الحكومة (٣) ، وهو الذي يصدر القوانين والتشريعـــات

---

(١) انظر الروضتين ٢ / ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٥ ، ١١٩ ، ١٩٣ ، ٢٠٣ ، والحركة الصليبية ٤٦٥

(٢) انظر النجوم الزاهرة ٦ / ٣٦٧ ونهاية الأرب ٥ / ١٥٣

(٣) الحروب الصليبية ٢ / ٤٨٠

بمساعدة مجلس الفرسان والقساوسة ... ويدل على ذلك ما فعله الملك فولك حين سرق الداوية أغنام المسلمين ، فأمر الملك أن تعقد محكمة من الفرسان ، وأصدر حكم التنفيذ بعد المشاورة بالنوابة (١) ، دون الرجوع الى سلطات أخرى .

ولكن الملك لم يكن دكتاتوريا ، يتفرد بإصدار القرارات أو التشريعات ، وانما كان يطالب عقد مجلس شورى ، وله حق المصادقة على القرار . وأما تشكيل المجلس فقد كان يختلف من موقف الى آخر ، وقد كان أعضاؤه اما من الفرسان أو القسوس أو منهما معا ، وقد يكون من الامراء . وعدد الاعضاء قد يزيد عن الثلاثة ليصل الى عشرة ، ومن ذلك أن (مرّي) جمع أمراءه واستشارهم بصدد الذهاب الى مصر لأنه يتيح المجال لنور الدين " يتنفذ فيها لان أهلها يميلون اليه دون الفرنج (٢) .

وحين هاجم صلاح الدين طبرية ، اجتمع أمراء الفرنج ، وأشار ملك طرابلس بعدم التعرض له ، ولكنهم رفضوا اقتراحه وكان بينهم خلاف فاصطلحوا " وتآمروا فيما بينهم وتشاوروا " (٣) ، ويقول ابن شداد في قصد الفرنج الى القدس بعد سقوط عكا سنة ٥٨٧ هـ : " وانهم قد نصوا على عشرة أنفس منهم وحكموهم ، فأي شيء أشاروا به لا يخالفونهم (٤) .. " ويقول : " فانفصل الحال على أنهم حكّموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكّم الثلاثمائة اثني عشر منهم ، وحكّم الاثنا عشر ثلاثة منهم ، وقد باتوا على حُكم الثلاثة فما يأمرونهم به يُفعل " (٥) .

ومع أن الملك مصدر السلطات القضائية والتشريع ، إلا ان حكم الفرسان نهائي ولا يرده الملك . وهذا ما يفهم من تعقيب أسامة على الحادثة السابقة : " وهذا الحكم بعد أن تعقده الفرسان ما يقدر الملك ولا أحد من مقدمي الافرنج يغيره أو ينقضه " (٦) ويؤكد ذلك ماذكره ابن شداد من أن القسوس قضوا بذبح أحد الجناة فتشفع بعضهم لدى الملك فلم يلتفت الى ذلك وذبحه (٧) .

تقدير الحكم :

نظر الصليبيون الى ملوكهم وأمرائهم نظرة تقدير واعجاب لما كانوا يتميزون به من فروسية وتضحية ، ولما كانوا يبذلونه من أموال ، لا سيما انهم الاقطاعيون الكبار . يقول ابن جبير في صاحب طرابلس وطبرية : " وهو ذو قدر ومنزلة عندهم ، وهو المؤهل للملك ، والمرشح له ، وهو موصوف بالدهاء والمكر " (٨) ، ويصف ابن شداد نظرتهم لملك فرنسا فيقول : وكان عظيما عندهم مقدما محترما ، من كبار ملوكهم ينقاد اليه الموجودون في العسكر بأسرهم ، بحيث اذا حضر حكم على الجميع ... " (٩) ويقول العماد : "وما زال

(١) الاعتبار ٦٤ (٢) الكامل ١١ / ٣٣٥ـ٣٣٦

(٣) الفتح القسي ٦٥ ، وانظر ٦٦ ، والكامل ١١ / ٥٣٤ ، من تاريخ الحرب المقدسة (٥) المصدر السابق ٢١٨ ، وانظر مذكرات جوا:

(٤) النوادر السلطانية ١٢

(٦) الاعتبار ٣٥ (٧) النوادر ١٢٦

(٨) رحلة ابن جبير ٢٨٢ (٩) النوادر السلطانية ١٥٦ـ١٥٧ ، وانظر ١٣٤

الفرنج في وهن وضعف ، وتوزن وخُلف ، حتى وصل في البحر كند يقال له هري ، وهو عندهم عظيم القدر ، فكمل بمن وصل معه نقصهم ، وأحيا بمدد موت نفوسهم حرصهم ، وأفاض عليهم الاموال ، وحلّى بنهيهد عاطلها الاحوال ... " (١) .

ومن مظاهر تقديرهم للحاكم بذلهم أرواحهم دونه ، ففي معركة حطين نصبوا لملكهم خيمة ، على تل بناحية حطين ، وأحاط به نحو من مائة وخمسين فارسا من الفرسان المشهورين والشجعان المذكورين ... " (٢) ويقول العماد في آخر : " وقاتل دونه جماعة من المقدمين فما قتل حتى قتلوا ، ولا بذل روحه حتى بذلوا ... " (٣) .

أما إن قتل أو أسر أو انهزم ، فإن ذلك يفت في أعضادهم ، ويثير حزنهم ، فحين أسر جوسلين " أصيبت النصرانية كافة بأسره ، وعظمت المصيبة عليهم بفقده ، وخلت بلادهم من حاميها ، وثغورهم من حافظها ، وسهل أمرهم على المسلمين من بعده " (٤) . وحين قتل الكندهري " أكثر الفرنج عليه بعد التعويل عويلا ، وباتوا يندبونه نوحا ، ويذيعون سر تقدمه بوحا ... " (٥) وحين انهزم ملك طرابلس في معركة حطين قبل انتهائها " سقط في أيديهم وكادوا يستسلمون " (٦) .

ولكن تقديرهم للحاكم ، وطاعتهم له لم يكونا مطلقين بلا حدود ، ودون اعتبار للمصلحة العامة ، فحين أسر ابن صاحبة الكرك اشترط عليها صلاح الدين أن تسلمه الحصن مقابل اخلاء سبيل ابنها ، فعادت الى سكان الحصن وتوسلت اليهم أن يرحلوا عن الحصن لتسلمه الى صلاح الدين ، فكان موقفهم قاسيا معها ، لأنها تجاوزت ما اعتبروه مصلحتهم العامة ، وخرجت عن المعهود في البذل والتضحية ، ولذلك عصوها ونسبوها الى موافقة الاسلام ، يقول العماد : " فلما وصلت قاطعوها ، ودافعوها عن حصونها ومانعوها ، وأعلنوا ذمها وخالفوها ، حيث ما ألفوها كما ألفوها ، وجنحوا وجمحوا ، واجترأوا عليها واجترحوا ، وعصوها وأقصوها ، وعددوا عليها الذنوب وأحصوها ، وأفحشوا لها في خطاب الخطاب ، وأوحشوها بالتنحي عن صوب الصواب ، وسبوها وسبوها ، والى موافقة الاسلام نسبوها " (٧) * .

---

(١) الفتح القسي ٤١٣
(٢) الكامل ١١ / ٥٣٦ ، وانظر الروضتين ٢ / ٨٧ ، ١٩٢
(٣) الروضتين ٢ / ١٩١
(٤) الروضتين ١ / ١ / ١٨٣
(٥) الفتح القسي ٤١٥
(٦) الكامل ١١ / ٥٣٥
(٧) الفتح القسي ٢٠٧
* للمزيد من الأمثلة عن تقدير الحكام أنظر الفتح ١١٠ ، الروضتين ٢ / ١٦١ ، مذكرات جوانفيل ١٩٠ ، ٢٤٥ ، ٢٥٤

الحكم الوراثي وحكم المرأة :

لاحظ الادباء بعض مظاهر الحياة السياسية ، ومنها الحكم ، وقرروا أنه كان حكما وراثيا ، لا فرق فيمن يتولاه بين ذكر وأنثى ، وهم في هذا ينطلقون من النظام الاقطاعي ، فقد ولوا أمرهم ولدا مجذوما ، وما كانوا ليولوه لولا النظام الوراثي ، يقول العماد : " لما هلك الملك أماري (سنة ٥٦٩) خلف ولدا مجذوما ، وكان مع الموجود معدوما ، قد أعضل داؤه ، وأيس شفاؤه ، وسقطت أعضاؤه ، وطال بأذوه ، فوضع الفرنج التاج على رأسه ، وتمسكوا مع أمراضه بأمراسه ... " (١) .

وما داموا قد ولوا أمرهم ولدا مريضا فلا غرو أن يولوا أمرهم امرأة ، وقد أجاز قانونهم ذلك ، ومارسوه فعليا بشكل لافت للنظر ، يقول العماد : وعادتهم أنه اذا مات ملك ينتقل ملكه الى ولده ، وسواء في هذا الميراث ، بين الذكور والاناث ، ويكون الملك بعد الابن ، اذا لم يخلف ابنا ، للكبرى ، فان توفيت من غير عقب ، كانت للصغرى " (٢) وجاء في الروضتين أن صاحب انطاكية خلف ابنا بعد مقتله ، فتزوجت أمه ببرنس آخر ليدبر الجيش حتى يكبر بوهمند الثالث (٣) .

وقد أحصى أحد الدارسين البيوت التي انتقل عن طريقها الملك ، فذكر أنه عندما تزوج فولك ميليند انتقل العرش الى بيت انجو (١١٣١ــ١١٨٦م) ثم انتقل العرش بزواج ايزابيلا للمرة الثالثة الى بيت مونتفرات (١١٩٠ ــ١١٩٢) ودى شامبان (١١٩٢ــ١١٩٧) ثم عاد العرش الى بيت لوزيجنان (١١٩٧ــ١٢٠٥) ثم انتقل بعد ذلك الى بيت بريين (١٢٠٥ ــ١٢٢٥) ثم أخذ ينتقل العرش بواسطة الاناث الى أن استقر في عام ١٢٦٩ في بيت لوزيجنان (٤) .

وقد كان هذا مثار انتقاد الامبراطور فردريك الذى تأثر بالثقافة الاسلامية فيروى ابن واصل أن الامبراطور سأل الامير فخر الدين عن الخليفة ، ما أصله ، فقال : هو ابن نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، أخذ الخلافة عن أبيه وأخذها أبوه عن أبيه ... وهكذا ، فقال ما أحسن هذا ، لكن هؤلاء القليلي العقول ــ يعني الفرنج ــ يأخذون رجلا من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب ، جاهلا فدما يجعلونه خليفة عليهم ؟ (٥)

---

(١) الفتح القسي ٦٧ ، وأنظر ابن جبير ٢٨٢
(٢) الفتح القسي ٤٩٤
(٣) الروضتين ١/١/١٥٢ ــ١٥٣ وانظر رنسيمان ، الحروب الصليبية ٢/ ٦٦٨
(٤) عبد الحفيظ محمد علي ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين ورقة ٣١ رسالة ماجستير القاهرة ١٩٧٥
(٥) مفرج الكروب ٤/ ٢٥١

الخلاف بينهم :

أدى الصراع الى تماسك الصليبيين على اختلاف مشاربهم ، حتى تحققت لهم الانتصارات العظيمة التي أقاموا بها كيانهم السياسي . ولكن هذا الكيان حمل في طياته بذور فنائه ، ومن هذه البذور ، الحكم الوراثي الاقطاعي ، ومنها وجود عدة أجناس وفرق دينية . ولئن قدمت هذه الفرق جهدا عظيما في بناء الكيان السياسي للفرنج ، الا انها بدأت تنقسم على نفسها ، وأصبحت فيما بعد دولا داخل دولة ، تعمل كل فرقة دون التنسيق مع غيرها مما سهل القضاء عليها فرقة فرقة (١) .

وقد رصد الادباء بعض الحالات التي وقع الخلاف فيها بين الفرنج أنفسهم ، ومنهم العماد ، إذ تحدث عن الخلاف فيما بينهم ، فقد ظهر في أول حملة وصلت الى انطاكية ، اذ كان فيها تسعة أمراء ، وأراد كل أمير أن تكون المدينة له ، فاختلفوا (٢) .. لكن هذا الخلاف في هذه الفترة كان قليلا ، يتلاشى بسرعة ، ولذلك يقول ابن القلانسي حين اختلفوا وهم على أبواب دمشق : " ونشبت المحاربة وقتل منهم جماعة من غير عادة جارية لهم بذلك (٣) " .

ولما استقرت الأمور ، واتسع الغزو الى مناطق واسعة ، وصل الخلاف بهم الى حد استنجاد صاحب طرابلس بصلاح الدين . ويصف العماد هذا الخلاف بقوله : " وقد كان بينهم خلاف وبحث ، وحيف وتحكم ، ووقوع نفار بين الانفار ، ووقود شرار بين الشرار " (٤) . ثم جاء ملك الالمان ، فخاف الفرنج على ملكهم منه ، فعملوا على اشهار أنفسهم قبل وصوله حتى لا يكون له الملك ، يقول العماد : " كان الفرنج لما صحّ عندهم وصول ملك الالمان الى البلاد ، وأنه ملأ احشاء الربا والوهاد بالأجناد ، قالوا : إنه اذا جاء لا يبقى لنا معه ملك ، والصواب أن نشيع لنا قبل مجيئه اسما .. " (٥) ويقول : " وما زال الفرنج في خلف وضعف ، وتنازع بينهم وخلف " (٦) .

وبعد أن احتلوا عكا ، توجهوا الى القدس فسبقهم اليها صلاح الدين وحصنها وخرب آبارها القريبة منها ، فلما وصلوا المنطقة اختلفوا في الصعود الى القدس ... (٧)

ثم قامت الامور زمن قلاوون وابنه حتى توالت الاخبار بغزو الفرنج بعضهم بعضا ، وأنها بقيت تمصهم أرضهم ، وأنهم تفانوا بالحروب والملاحم ، وما بقي لهم مزاحم " (٨)

---

(١) الفتح القسي ١٦١ ، وانظر تشريف الايام والعصور ١٧٧ ، ومذكرات جوانفيل ٢٢٧/٢٢٦
(٢) زبدة الحلب ١٣٢/٢ وانظر ص ٢١٥ ، ص ٢٤٧ ، ج ٩٣/٣
(٣) ذيل تاريخ دمشق ٢٦٣
(٤) الفتح ٦٥ وانظر ص ٦٢ والكامل ٥٢٧/١١
(٥) الفتح القسي ٤٠٣ والروضتين ١٦٠/٢
(٦) الفتح القسي ٤١٣
(٧) النوادر السلطانية ٢١٧ ، وانظر أحمد بيلي المصري / حياة صلاح الدين ١٧٥ ، وانظر الروضتين ١٩٦/٢ (٨) تشريف الايام والعصور ٥٨

أما خلافهم مع الروم ، فيظهر من رسالة كتبها القاضي الفاضل الى الديوان ببغداد سنة ٥٧٨ ه يخبره بكتاب ورد من مصر بأن المسلمين كسبوا بطشة فرنجية كانت قد خرجت من القسطنطينية " لفتنة وقعت بين روما وفرنجها ، فقتل منهم خمسون ألف فرنجي وأفلتت منهم بطش منها هذه البطشة ، وفيها رجال أكابر ومقدمون لهم ذكر سائر ." (١)

وقد حدث خلاف آخر بين الروم والفرنج حين حاصروا دمياط ، ثم ما لبث أن عاد الروم ، ففشلت الحطة على مصر ، مما قطع العلاقات بينهم .

وبذلك أمن صلاح الدين من خطرين من جهة الروم : الاول أنه أنه حالفهم وصرف جهده لمقاومة الفرنج ، والثاني : أنهم كانوا يخبرونه بتحركات الفرنج التي كانت تنطلق من القسطنطينية الى بلاد الشام (٢) .

ونلاحظ أن هذا الخلاف كان سببا من أسباب نهايتهم في بلاد الشام ، وثمة أسباب سياسية أخرى للخلاف ، منها أن الفرق الكثيرة التي أنتسب اليها الكيان السياسي جعل بعض الفرنج يميل الى السلم دون اعلام الفرق الاخرى ، مما ساعد على التهيؤ النفسي لترك القتال ، بينما كان المسلمون يقبلون السلم ، ولكنهم يعدون العدة للجهاد والتخلص من الغزاة .

---

(١) الروضتين ٢/٢٢

(٢) النوادر ١٢٤ ـ ١٢٦ ، ١٣٢ ـ ١٢٣

الباب الثالث

التقويم الفني

الفصل الأول : الشعر

الفصل الثاني : النثر

موازنة بينهما

الفصل الأول

أدب هـــادف :

يقتصر التقويم الفني للشعر ، على ذلك النوع من الشعر الذي تصدى للأحـــداث التي جرت خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، وهذا يعني أن نسلط الأضواء على أدب التزم بالدفاع عن وجود الامة الاسلامية ، خلال هجمة عاتية عليها ، وهو بذلك يمثل ظاهرة الشعر الجماعي في الادب العربي على نحو ممتاز ، وذلك لان الشاعر العربي فـــي هذه الفترة ، نفذ من الدائرة الذاتية الضيقــة ، الى الدائرة الإسلامية ، عبر الدائـــرة الوطنية ، فهو في مقاومته للمحتلين الصليبيين صور ما فعلوه في البلاد المحتلة من قتل وتشريد وتخريب وتدمير ، وناشد كل مسلم أن يهب للذود عن المحارم ، يقول الأبيوردي :

فأيهاً بني الإسلام إنّ وراءكـــم ... وقائع يلحقن الذّرى بالمناســـم
أتهويمةً في ظل أمنٍ وغبطـــة ... وعيش كنوار الخميلة ناعـــم
وإخوانكم بالشام يضحي مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعـم
يسومهم الروم الهوان وأنتـــمُ ... تجرّون ذيل الخفض فعل المسالــم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى ... تواري حياء حسنها بالمعاصـــم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبى ... وسمر العوالي داميات اللهـــاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة ... تظل لها الولدان شيب القــوادم

الى أن يقول :

أترضى صناديد الأعاريب بالاذى ... وتغضى على ذل كماة الأعاجـــم
فليتهمُ ان لم يذودوا حميـــة ... عن الدين ضنّوا غيْرة بالمحـــارم (١)

ويقول آخر فيما أحدثه الفرنج من مجازر ، مناشدا ذوي البصائر أن يهبوا للتصدي لها :

أمور لو تأملهن طفـــــل ... لطفّل في عوارضه المشيـــب
أتسبى المسلمات بكل ثغـــر ... وعيش المسلمين اذاً يطيـــب
أما لله والاسلام حـــــق ... يدافع عنه شبان وشيـــب؟
فقل لذوي البصائر حيث كانـوا ... أجيبوا الله ــ ويحكمُ ــ أجيبوا (٢)

وهم في انتصارهم ، انما يمثلون انتصار الحق على الباطل ، يقول ابن دنينير في اســـترداد دمياط سنة ٦١٨ هـ :

الله أكبر جاء الحق يقدمـــه ... نصر المليك فلاوان ولا جحـــد
كم موقف لك ليس الله ناسيـــه ... والدين مهتضم والملك مضطهـــد

---

(١) الكامل ١٠/٢٨٥ ، نهاية الارب ٥/٢٢٦ ، النجوم الزاهرة ٥/١٥١
(٢) النجوم الزاهرة ٥/١٥١

جلوت وجه العلى فيبدى شطب ماء المنية في متنهمطـــرد (١)

ويقول العماد في صلاح الدين :

بعودك عاد الحق واتضح الهدى وهب نسيم النصر وانفرج الضغط (٢)

وهو انتصار المكارم والمناقب الحسنة ، يقول ابن القيسراني في عماد الدين زنكي :

نشرت الفضائل بعد الخمـــول ألا ربما نبه الخامـــل (٣)

ويقول ابن الدهان في صلاح الدين :

ولولاك مات الفضل هزلا وأصبحت رياض الاماني ذاويا عوطـــلا (٤)

وهو طرد للغزاة عن أرض يطلكها أصحابها ، يقول ابن سناء الملك في مدح العزيـــز عثمان سنة ٥٩٤ :

الشام للاسلام دار القـــرار وكان من قبل طريق الفـــرار
وكان في ظالمة ليل دجـــت فجاء عثمان معا والنهـــار
وجاءه بالبرء بعد الضنـــى وجاءه بالأمن بعد الحـــذار
فيا أمان الكفر لا تأمنـــواه بدار ما الشام لكفر بــــدار (٥)

وأخيرا ، هو انتصار التوحيد على من لا يؤمنون بالتوحيد . يقول ابن سناء الملك فـــي صلاح الدين :

أقمت بها التوحيد لله وحـــده وأنسيت فيها الروح والاب والابنا (٦)

تلك أمثلة سريعة نفذ الشاعر من خلالها الى الدائرة الواسعة في مقاومة الغـــزاة للمشرق الاسلامي .

اما التعبير عن روح الجماعة ، فيظهر في اهتمام الشعراء بقضية الامة المصيريـــة ، والتفافهم حول القادة المسلمين ، لا في منطقة العراق فقط ، بل حيثما كانوا في ديـــار الاسلام (٧) ، اذ راح الشعراء يخففون من أثر الهزيمة حين تقع ويشيعون انبــــاء الانتصارات بطريقة مثيرة ، ويبشرون بالمزيد منها ، بل ، ويرسمون طريقة الخلاص مـــن

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٧ (٢) الخريدة ، قسم شعراء مصر ٢٩/١
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١٠٩/١ (٤) ديوان ابن الدهان ص ٤٥
(٥) ديوان ابن سناء الملك ص ٢٨٣ (٦) المصدر السابق ص ٧٥٨
(٧) انظر كتاب د . عبد الكريم توفيق العبود ، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ١٣٥ ـ ١٣٩

الاحتلال الاجنبي ، فيدعون للوحدة والجهاد معا ، ويربطون بينهما وبين النصر .

وتظهر الروح الجماعية في استعمال الشعراء لضمير المتكلمين ، ولفخرهم بالقوة الجماعية ، يبرزونها دون تفريق بين الافراد ، يقول ابن عنين :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة ... ودينا ، وان كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب ، فأقبلت ... جموع كأن الموج كان لهم سفنا
وأطمعهم فينا غرور ، فأرقلوا ... الينا سراعا بالجياد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم ... بأطرافها حتى استجاروا بنا منا (١)

ويقول ابن القيسراني حين كسر الفرنج على أبواب دمشق سنة ٥٢٣ ، مصورا خطر الفرنج على السكان جميعا ، ودفع صاحب دمشق لهذا الخطر :

حتى اذا ما أحاط المشركون بنا ... كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لا من الاقبال في عدد ... يؤود حاسبه الاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا ... أمواجه بأواسي اليأس تلتطم (٢)

وقد أضفى هذا الشعور الجماعي على الشعر العربي في تلك الفترة قيمة فنية ، تجلت في القوة اللفظية والمعنوية ، الناتجة عن الانتماء الجماعي ، وذلك بالاضافة الى القيمة التاريخية لما قدمه من تصوير المجتمع الاسلامي وعلاقاته الداخلية والخارجية مع الفرنج خلال القرنين السادس والسابع الهجريين ، كما أعطى صورة جيدة عن الحياة الاجتماعية والسياسية عند الطرفين المتصارعين .

وهذه القيم لا تعني أن الشعر أو الادب وثيقة اجتماعية أو سياسية أو تاريخية ، وانما هو فن أو رؤية خاصة للاحداث ، يمكن للدارس من خلالها أن يستخلص استنتاجات متعددة ، ويستفيد معلومات قيمة ، وان كانت هذه كلها ملونة بلون شعوري معين ، يضفيه موقف الشاعر من الأحداث التي يواجهها ويتفاعل معها .

شكل القصيدة :

من نافلة القول أن نتحدث عن شكل القصيدة العربية التقليدي : من وقوف على الاطلال أو ذكر المرأة أو ما يتعلق بها من رحيل وبكاء ، ومن نافلة القول كذلك أن نحاول تفسير هذه الظاهرة ، فقد تصدى لتفسيرها القدماء والمحدثون على السواء (٣) .

---

(١) ديوان ابن عنين ٢٩ ــ ٣٠ (٢) الروضتين جـ١ ق ١ ص ١٤١
(٣) انظر على سبيل المثال كتاب د . حسين عطوان : مقدمة القصيدة العربية

وبالرغم عن ثورة بعض الشعراء ، مثل أبي نواس وبشار والمتنبي ، على المقدمات التقليدية ، إلا انهم لم يستطيعوا الاستغناء عنها كلية ... وفي هذا العصر ، نجد ثلاثة أشكال لاستهلال القصائد : أولها : البدء بمقدمات تقليدية ، وثانيها : البدء بمقدمات غير المقدمات التقليدية ، وثالثها : البدء دونما مقدمات ، وسنفصل فيما يلي الحديث عن كل منها ، ثم نتحدث عن اجزاء القصيدة وترابطها :

أولا : المقدمات التقليدية :

لم يقتصر الشعر العربي خلال الحروب الصليبية على وصف الحروب فقط ، وانما قيلت قصائد في سائر أغراض الشعر المعروفة ، ويهمنا من هذه القصائد ما تصدى لوصف الصراع بين المسلمين والفرنج ، أو الشعر الحربي بشكل عام .

ولدى دراسة شعر الحرب ، نجد قصائد معدودات استهلها قائلوها بمقدمات غزلية ، في حين نجد كثيرا من القصائد تدخل في الموضوع مباشرة دون مقدمات ، أو بمقدمات مرتبطة بجو الحرب .

وبما أن القصائد التي تبدأ بمقدمات غزلية قليلة ، فلا بد أن يكون لذلك تفسير ما ، وخير ما نفصل في البحث عن هذا التفسير ، هو أن ندرس جو القصيدة العام والمناسبة التي قيلت فيها ، ولنبدأ هنا بقصيدة لاسامة بن منقذ أرسلها من مصر الى معين الدين أنر حاكم دمشق ، يبيّن له فيها خطورة انقياده الى وزرائه الذين يزينون له التقرب من الفرنج ، يقول :

ولوا ، فلما رجونا عدلهم ظلموا	فليتهم حكموا فينا بما علموا
. . . .	. . . .
يا راكبا تقطع البيداء همته	والعيس تعجز عما تدرك الهمم
بلّغ أميري معين الدين مألكة	من ناز الدار ، لكنّ ودّه أمم *
وقل له أنت خير الترك فضلك ال	حياء والدين والاقدام والكرم
. . . .	. . . .
لكن ثقاتك ما زالوا بغشهم	حتى استوت عندك الانوار والظلم
باعوك بالبخس يبغون الغنى ولهم	لو أنهم عدموك ، الويل والعدم
والله ما نصحوا لما استشرتهم	وكلهم ذو هوى في الرأي متهم .. (١)

(*) مألكة : رسالة ، أمم : قريب

(١) ديوان أسامة بن منقذ ص ١٤٦

ويتضح من القصيدة أن الشاعر بعيد عن معين الدين أنر ، فالأول في مصر والثاني في دمشق ، ولذلك جاء النداء التقليدي " ياراكبا " مرتبطا مع نص القصيدة وجوها العام ، فهو يطالب من المسافر الى دمشق عبر صحراء واسعة أن يبلغ صاحبها أمرا بالغ الخطورة ، وهو نصح حاكم دمشق بأن يبتعد عن أولئك النفعيين الذين يحسنون له التفاوض مع الفرنج . وقد عبّر عن خطورة الموضوع وأهميته بعدة أمور منها ، الرحلة من مصر الى دمشق عبر الصحراء الواسعة ، ثم المسافر الجلد ، والعيس القوية ... ومن هنا يحس القارئ أن المقدمة لها دلالة خاصة ، تستثير القارئ الى أهمية ما يأتي بعدها ، وهو :

بلغ أميري معين الدين : مألكة من نازح الدار ، لكن وده أمم
هلا أنفت حياء أو محافظة من فعل ما أنكرته العرب والعجم
أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة ولم يروّ سنان السمهريّ دمُ ...

فهو اخبار للأمير معين الدين أنر برسالة مهمة حملت اليه من مكان بعيد ، وهذا البعد يستغرق معه الحسد والبغض لأولئك المعيذين بالاخير ، ولذا ، فالرسالة رسالة ناصح ودود في نفسه تحنان الى وطنه الشام ، ومودة تربية لصاحبها .

وبعد هذا التقديم الموجز البليغ ، يمدح أسامة " معين الدين أنر " ويضفي عليه صفات البطولة والدين والشجاعة والكرم ، ويحمل بطانته مسؤولية تزيين الاعمال السيئة له ، ويتهمهم بأنهم باعوه بالبخس ، لينالوا الغنى من الفرنج على حسابه .

وهاهنا قصيدة أخرى تبدأ بمقدمة غزلية هي قصيدة عرقلة الكلبي في مدح مجير الدين أبق صاحب دمشق أيضا ، ومطلعها :

عرج على نجد لعلك منجد بنسيمها ، وبذكر سعدى مسعدي (١)

ونلاحظ أن القصيدة في مدح صاحب دمشق ، والمدح تناسبه المقدمة الغزلية التقليدية ، وكأنها أمر متعارف عليه ، وهذا ما يؤكده أبو الطيب المتنبي في ثورته على هذا النظام يقول :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل بليغ قال شعرا متيم ؟

وبعد أن يبدأ عرقلة بمقدمة يتغزل فيها بامرأة بدوية في جنان الشام ينتقل في البيت الثاني عشر من القصيدة الى الاشادة بالممدوح ، ويثني على أفعاله التي يحق لفاعلها الفخر حقا ، فقد أبلى في حرب الفرنج ــ الذين قصدوا دمشق بأعداد هائلة ــ بلاء حسنا ، وأظهر من شجاعته وصبره وبسالته ما لم يشاهد في غيره " (٢) . يقول عرقلة الكلبي :

ما نشرت راياته يوم الوغى الا انطوى جيش العدو المعتدي
من قاتل الافرنج دينا غيره والنيل مثل السيل عند المشهد

---

(١) ديوان عرقلة الكلبي ص ٢٥ ــ ٢٦
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٢٨

رد الامان بكل ندب باسل ومن الجياد بكل نهد أجرد
ومن السيوف بكل عضب أبيض ومن الحجاج بكل نقع أسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه وغدا بجند من شريعة أحمد
طلق المحيا ، واضح ، متهلل مثل الضيا في الضحى ، طلق اليد ...

ويتضح مما مضى أن الشاعر لم يجعل موضوع القصيدة هجوم الفرنج على دمشق وبلاء مجير الدين في صدهم ، وانما كان موضوعها المدح ، ومن خلال المدح عرض شجاعته ودفاعه عن الاسلام ، وكرمه وبشاشة وجهه ...

ولو كان الموضوع هو الحادثة نفسها لوجدنا الامر يختلف ، ولنا من ابن القيسراني مثل على ذلك ، فقد جعل موضوع قصيدته موقعة شبيهة بهذه ، فدخل في الموضوع دون مقدمة غزلية ، يقول :

الحق مبتهج ، والسيف مبتسم وبال أعدا مجير الدين مقتسم
قدت الجياد ، وحصنت البلاد وأفنيت العباد ، فأنت الحل والحرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها معاقد الحزم في أوساطها الحزم
حتى اذا ما أحاط المشركون بنا كالليل يلتهم الدنيا له ظلم
وأقبلوا لامن من الاقبال في عدد يؤوده حاسبة الاعياء والسأم
أجريت بحرا من الماذي معتكرا أمواجه بأواسي اليأس تلتطم (١)

ولدى قراءة القصيدتين نحس بالفرق بينهما ، فقد اختلفتا في البناء والموسيقى لاختلاف طريقة التناول عند كل من الشاعرين .

ومن استقرائنا لعدد من القصائد التي قيلت في المدح ، نستطيع القول إن معظمها يبدأ بمقدمات غزلية .

ومن هذه القصائد المدحية التي ابتدئت بمقدمة غزلية كذلك القصيدة التالية التي مدح بها ابن القيسراني نور الدين ، فقال في أولها :

يا ليت أن الصدّ مصدود أو لا ، فليت النوم مردود
الى متى تعرض عن مغرم في خده للدمع أخدود
قالوا : عيون البيض بيض الظبى قلت : ولكن هذه سود
يخاف منها وهي في جفنها والسيف يخشى وهو مغمود (٢)

وبعد هذه المقدمة القصيرة ، يخرج الشاعر الى المدح ، فيصف نور الدين محمودا بالعدل والحفاظ على الاسلام ، والشجاعة في القتال ، ثم يذكر وقعته مع الفرنج في يغرى*

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١
(٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٤١
* وهم أبو شامة أنها بصرى .

وكانت الدائرة فيها على الافرنج ، فيقول :

واما الافرنج من بغيهـــا	عاد وقد عاد لهم بمـــود
قد حصحص الحق لما جاحد	في قلبه بأسك مجحـــود
فكل مصر بك مستفتـــح	وكل ثغر بك مســـدود

ويلاحظ القارىء لهذه الابيات أن الوقعة جاءت دليلا على شجاعة نور الدين ولم تكن موضوع القصيدة الاساسي .

أما قصائده الحربية التي تكون الوقعة فيها موضوع القصيدة ، فلم يبدأها بمقدمات غزلية ، ولهذا جاءت خالية من المقدمات ، الا هذه وقصيدة أخرى سنقف عندها بعد قليل ، وقد لاحظ الدكتور محمود ابراهيم ذلك ، وعدّ قصيدته السابقة خروجا عن عادته في الاستغناء عن المقدمات الغزلية في قصائد القتال (١) .

وفي القصيدة التالية لابن القيسراني ، ورد ذكر الوقعة دليلا على شجاعة نور الدين كذلك ، كما في قصيدته السابقة ، بل ذكر الشاعر في هذه القصيدة عدة وقعات ، لا وقعة واحدة ، وقد جاء في مقدمة القصيدة قوله :

اما وخيال زار من أحبـــه	لقد هاج من ذكراه مالا أغبـــه
اذا ما صبا قلب المحب الى الصبا	ذكرت نسيما بالثغور مهبـــه
فيا نفحات الشام رفقا بمهجـــة	يحامي عليها مدنف القلب صبـــه
فلا تسألن الصب : أين فؤاده	فان فؤاد المرء مع من يحبـــه
وفي شعب الاكوار من هو عالـم	غداة استطار البرق من طار لبـــه
يشيم ثغور المزن تهمي كأنهـا	سنا بشر نور الدين تنهل سحبـــه

ثم يتخلص الى مدح نور الدين بالكرم وجودة الرأي ، والحفاظ على الاسلام ، ويقدم الادلة على ذلك ، فيقول :

كيوم الرها الورهاء والها يانـع	على برعي الهند واني خصبـــه
وشهباء هاجتها وفي سرخديـة	ثناها ، وليل الحرب ينقض شهبـــه
وحارم يوما بالهزيمة فاقتـدت	كوادى ثمود اذ رغا فيه سقبـــه
وعاصي على العاصي بأرعن خاطب	دم الافلة حتى انكم النصل خطبـــه
بأنب لما اكسب الال وانثنى	بصاحب انطاكية وهو كسبه .. (٢) .. الخ

ويستمر في ذكر الادلة على شجاعته وما فعله بالاعداء ، وكلها ترتبط بشخصية القائد نور الدين الذى يستحق الثناء فعلا .

---

(١) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٠٧

(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٨

ويداول بنا المقام لو حللنا بقية القصائد التي تبدأ بمقدمات غزلية ، ولذلك نذكر مطالعها وموضوعاتها ، للاحاطة بها ثم مقارنة عددها بصورة تقريبية بعدد القصائد الحربية التي يمكن أخذ صورة عامة عنها من مطالعة الملحق الشعري .

يقول ابن رواحة الحموى ، وهو من شعراء الشام في مدح صلاح الدين بعد أن رد الفرنج عن دمياط ثم الاسكندرية سنة ٥٧٢ :

أقمت الموت لي رصدا فأخشى　　زيارته وان يك ليهزني
كما رصد العدى في كل يوم　　صلاح الدين في سهل وحزن
يرون خياله كالطيف يسرى　　فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبادهم تخوفه فأمسى　　منامهم ، لو يبيتهم بأمن (١)

ونلاحظ من هذه الابيات حسن تخلصه ويسر انتقاله .

وارسل ابن التعاويذي قصيدة الى صلاح الدين من بغداد يمدحه فيها ، ويهنئه بانتصاره على الفرنج في وقعة مرج عيون مطلعها :

إن كان دينك في الصبابة ديني　　فقف المطي برملتي يبرين

وقدمتها الغزلية طويلة ، ينتقل بعدها الى الوقعة ، فيقول :

كمنوا وكم لك من كمين رصادة　　في الغيب تظهر من وراء كمين (٢)

ولعل بعد الشاعر عن الحادثة مكانيا وزمانيا جعله ينهج هذا المنهج .

ولما انتهى صلاح الدين من بعض العمليات العسكرية في منطقة انطاكية ، رجع الى حماة ومنها الى حمص ، فأتاه الفقيه مهذب الدين عبدالله بن أسعد الموصلي ، وأنشده :

أما وجفونك المرضى الصحاح　　وسكر مقلتيك وأنت صاحي
لقد أصبحت في العشاق فردا　　كما أصبحت فردا في الصلاح

ثم يذكر اخضاعه للفرنج ، فيقول :

وما خضع الفرنج لديك حتى　　رأوا مالا يطاق من الكفاح (٣)

وقد مدح العماد الاصفهاني الامير تقي الدين عمر سنة ٥٨٢ بقصيدة مطلعها :

عفا الله عنك ، عن ذوى الشوق نفسوا　　فقد تلفت منا قلوب وأنفس (٤)

ثم يذكر ذهابه الى تونس ، ووقوفه في وجه الفرنج من هناك ، ثم يتمنى عليه أن يفتح القدس ويطهر البلاد من الرجس .

وقال في مدح حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين (ابن أخت صلاح الدين) يوم فتح القدس :

استوحش القلب مذ غبتم فما أنسا　　وأظلم اليوم مذ بنتم فما شمسا (٥)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١/٤٩٢　(٢) الروضتين ٢/١٠
(٣) المصدر السابق ٢/١٦ـ١٧　(٤) المصدر السابق ٢/٧١
(٥) المصدر السابق ٢/٨٨

وهنأ السلطان صلاح الدين بفتوحاته ، فقال :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفسا وتعتاض من ذكراكمُ وحشتي أنسا (١)

ومن الشعراء الذين استهلوا قصائدهم الحربية بمقدمات غزلية ابن دنينير ، ففي ديوانه عشر قصائد حربية ، ذكر بعضها فور انتهاء المعركة ، فتخلصت من المقدمات ، وقال ستة منها في مدح بعض الحكام والقادة فابتدأت بمقدمات تقليدية .

أما الاولى فهي في العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة ٥٩٤ وهي من شعره في الصبا ، ومطلعها :

إن كان أضمر قلبي عنك سلوانا لا كنت من مغرم صبٍّ ولا كانا (٢)

والثانية في الأمير أسد الدين أحمد بن عبد الله المهراني ، ومطلعها :

راح يخشى في حبه الرقباء ويسر الغرام والبرحاء (٣)

والثالثة في مظفر الدين كوكبوري بن علي بن بكتكين ، ومطلعها :

أشاقتك من أطلال ليلى معالم فأبدت شؤون الدمع ما أنت كاتم (٤)

والرابعة في الملك الناصر قلج أرسلان بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه الأيوبي ومطلعها :

بما بجفنيك من غنج ومن كحل صل مغرما ليس يصغي فيك للعذل (٥)

والخامسة في الملك الكامل بن العادل ، ومطلعها :

لهم حب قلبي ان تدانوا وان صدوا وان قربوا أو حال دونهم البعد (٦)

والسادسة في الاشرف موسى عند منصرفه من الجزيرة الى الشام ثم الى مصر ، ومطلعها :

أرأيت ما صنعت لحاظ الغيد ما بين منعرج اللوى فزرود ؟ (٧)

ومن هؤلاء الشعراء : ابن سناء الملك (٨) ، وفتيان الشاغوري (٩) ، ومهذب الدين سالم بن سعادة (١٠)

* * *

---

(١) الروضتين ٢/١٠١
(٢) ديوان ابن دنينير ورقة ٣٨
(٣) المصدر السابق ورقة ١٢٢
(٤) المصدر السابق ورقة ٥٦
(٥) المصدر السابق ورقة ٢٤
(٦) المصدر السابق ورقة ١
(٧) المصدر السابق ورقة ٢٠
(٨) انظر ديوانه ص : ٢٥٨ ، ٢٦٦ ، ٢٧٨ ، ٥٦١ ، ٥٤٥ ، ٧٥٨
(٩) انظر ديوانه ص : ١٤٨ ، ٢٥٧
(١٠) انظر تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ جـ ٢ ص ١٥٧

المقدمات التي تخلصت من الغزل :

تلك هي المقدمات التقليدية في القصائد العربية ، وهي وان بدت كثيرة (اذ بلغت خمسا وعشرين قصيدة) ، فانها تقل بكثير عن عدد القصائد التي تخلصت من المقدمات التقليدية .

وأما سبب تخلص الشعراء من هذه المقدمات التقليدية بأنواعها ، فلأنهم وصفوا أحداثا مهمة في جو حرارة تلك الاحداث ، فلم يشعروا بالحاجة الى التقديم لها ، لأن هذا التقديم من شأنه أن يضيع حرارة الانفعال ، ويبدد الاندفاع الشعوري ، ولهذا تعددت بدايات هذه القصائد عند الشاعر الواحد ، وعند الشعراء المختلفين على السواء .

ولنأخذ مثالا على هذه القصائد ، قصيدة أبي المظفر الابيوردى ، التي قالها اثر سقوط القدس بيد الفرنجة سنة ٤٩٤ ، وفيها يتفجع ، ويقرع ، ويدعو الى الاستيقاظ ، ويأمل في الانتقام من المعتدين ، يقول :

مزجنا دماء بالدموع السواجم ... فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه ... اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فايها بني الاسلام ، ان وراءكم ... وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة ... وعيش كنوار الخميلة ناعم؟
واخوانكم بالشام يضحى مقيلهم ... ظهور المذاكي أو بطون القشاعم (١)

وهكذا تمضي بقية القصيدة : انفعالات متأججة صادرة عن نفس متحرقة متحسرة تعتب على النيام ، وتدعو الى دفع الاخطار قبل تفاقمها ، ولذا جاءت القصيدة في موضوع واحد ، وابتدأت باستهلال حزين مؤثر ، يعبر عن مشاعر أمة أضعفتها الخلافات وأوهنها التمزق .

ولعل القصيدة الثانية التي لم يذكر اسم قائلها ، تعبر عن مثل هذه العواطف ، وقد جاء فيها :

أحل الكفر بالاسلام ضيما ... يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح ... وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا ... ومسلمة لها حرم سليب

الى أن يقول :

أتسبى المسلمات بكل ثغر ... وعيش المسلمين اذن يطيب
أما لله والاسلام حق ... يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوى البصائر حيث كانوا ... أجيبوا الله ويحكم أجيبوا (٢)

---

(١) نهاية الارب ٥/ ٢٦٦ ، الكامل ١٠/ ٢٨٥ ، النجوم الزاهرة ٥/ ١٥١
(٢) النجوم الزاهرة ٥/ ١٥١

ولم يكن هذا الحزن والبكاء مرتبطا ببداية المد الصليبي فقط ، إذ إنه بعد أن انفرط عقد الدولة الايوبية ، وتحارب الاخوة ، واستنجد بعضهم بالفرنج مقابل التنازل عن القدس ، فعادت رنة الحزن والالم ، كما كانت أو أشد ، لأن من الصعب على الانسان أن يتحمل الضياع والهزيمة بعد القوة والنصر ، ولذلك كانت قصيدة ابن المجاور في تسليم القدس زمن الملك الكامل الايوبي ، أشد وقعا وتأثيرا على النفس من القصائد التي قيلت بعد سقوط القدس بيد الفرنج للمرة الاولى ، يقول ابن المجاور :

أعينيّ لا ترقئْ من العبـــــرات ــ صلي في البكا الآصال بالبكــــرات
لعل سيول الدمع يطفئ فيضهـــا ــ توقد ما في القلب من جمــــرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلمـــا ــ خبت بادكار يبعث الحســـرات
ويا فم بح بالشجو منك لعلــــه ــ يروح ما ألقى من الكربـــــات
على المسجد الاقصى الذي جل قدره ــ على موطن الاخبات والصلـــوات (١)

وتستمر القصيدة في هذا التدفق العاطفي الحار ، الصادر عن نفس متألمة حزينـــــة

وفي غمرة الاحزان والضياع ، في بداية الحروب ، وقف بعض الامراء في الثغــور موقفا مشرفا ، ومنهم الامير مجد الدين عضب الدولة زعيم الجيوش في دمشق ، كما وقــف الادب مع هؤلاء يحضهم ، ويقوى من عزيمتهم ، فهذا ابن الخياط يحرض الامير المذكـور على الجهاد ، فيقول في مطلع قصيدته :

تدتك الصواهل قبا وجـــــردا ــ وشم القبائل شيبا ومـــــردا
وذلت لاسيافك البيض قضبــــا ــ ودانت لأرماحك السمر ملــــدا
وقل لمن قام في ذا الزمـــــان ــ مقامك أن باتبالخلق يفـــدى
ألست أبر البرايا يـــــــدا ــ وأندى من المزن كفا وأجـــدى
وأمضى حساما وأوفى ذمامـــــا ــ وأحمى غماما اذا الغيث أكدى (٢)

والمتتبع لنص القصيدة يلاحظ أن موضوعها واحد ، وهو في استعراض أحـــوال المسلمين على ضوء الخطار الصليبي ، وتحريض البطل كي يقف في وجه الغزاة ، ولذا جاء مطلع القصيدة حماسيا في معانيه وألفاظه وموسيقاه ، ثم أخذت النبرات الحماسية تتحـول الى تعداد صفات القائد ، وما لبثت أن عادت مرة ثانية حين نبه الشاعر الى الاخطـــار المحدقة بالمسلمين ، واستحثهم على العمل ، وحرضهم على الجهاد .

وقد وفق الشعراء باستهلال القصائد الحربية بما يتفق والجو الحربي الحماسي ، وقد اختلفت المقدمات من قصيدة الى اخرى ، ومن شاعر الى آخر ، ولكن ذلك لا ينفــي أن يكون لهذه المقدمات صفات مشتركة تلتقي عندها ، ومن هذه الصفات ابتداؤها بضمير الشأن ، وهو من الضمائر التي تفيد التفخيم الذي يتناسب والجو الحماســــــي .

---

(١) الروضتين ٢/ ٢٠٥
(٢) ديوان ابن الخياط ١٨٢ ـ ١٨٤

ومن ذلك قول أمية بن أبي الصلت في الافضل مقدم الجيش المصري :

هي العزائم من أنصارها القدر — وهي الكتائب من أشياعها الظفر
جردت للدين والاسياف مغمدة — سيفا تفل بها الاحداث والغير
وقمت اذ قعد الاملاك كلهم — تذب عنه وتحميه وتنتصر
بالبيض يسقط فوق البيض أنجمها — والسمر تحت ظلال النقع تشتجر (١)

ومنه أيضا قول ابن القيسراني في فتح الرها سنة ٥٣٩ هـ :

هو السيف لا يغنيك الا جلاده — وهل طوق الاملاك الا نجاده
ومن ثغر هذا النصر فلتأخذ الظبي — سناها وان فاتالعيون اتقاده
سمت قبة الاسلام فخرا بطوله — ولم يك يسمو الدين لولا عماده (٢)

ومنها ابتداؤها بأسماء الاشارة : وهي تفيد جلب الانتباه لامر جليل ، ومن ذلك قول ابن القيسراني في انتصار نور الدين على الفرنج في منازلة انطاكية :

هذى العزائم لا ما تدعي القضب — وذى المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت — تعثرت خلفها الاشعار والخطب (٣)

وقول الرشيد بن بدر النابلسي في فتح القدس :

هذا الذى كانت الآمال تنتظر — فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح لا والله ما حكيت — في سالف الدهر أخبار ولا سير (٤)

ومنها ابتداؤها بأدوات الاستفتاح والتنبيه والتساؤل ، وهي تفيد ما تفيده اسماء الاشارة من جلب الانتباه لامور ذات خطر ، يقول طلائع بن رزيك مفتخرا بأعماله ضد الفرنج ومحرضا نور الدين على قتالهم :

ألا هكذا في الله تمضي العزائم — وتمضي لدى الحرب السيوف الصوارم
وتستنزل الاعداء من طود عزهم — وليس سوى سمر الرماح سلالم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارها — ويوطا حماها والانوف رواغم
ويلقى الكرام الناذرون بنذرهم — وان بذلت فيها النفوس الكرائم (٥)

ويقول ابن القيسراني في فتح الرها :

أما آن ان يزهق الباطل — وأن ينجز العدة الماطل
الى كم يغب ظباه الصلا — ل سيف بأعناقها كافل
فلا تخفلن بصوت الذ — ب ، وقد زأر الاسد الباسل (٦)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١/ ١٦٥ (٢) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٩٧
(٣) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٢ ، والبداية والنهاية ١٢/ ٢٢٦
(٤) " " نفسه ٢/ ١١٨
(٥) ديوان طلائع بن رزيك ١٢٥ ، والروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٨٩
(٦) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١/ ١٠٨ ، والروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٢٦

ويقول ابن دنينير في تخليص دمياط من الفرنج بعد اجتماع الجيوش الشامية والمصرية بقيادة الاخوة ابناء العادل ورئاسة الكامل :

ها قد بلغت الذى قد كان ينتظر ... اللهأكبر هذا النصر والظفر
قد صرح الخبر منك اليوم عن خبر ... قد كان أنظار فيه نفسه النظر (١)

وقد يكون التساؤل لعظم النصر ، الذى يبهر العقول ، ويأخذ النفوس ، ويبعث الحيرة في النفس ، حتى ليتحير الشاعر ، وهو يتلمس الشيء الذى ينبغي أن يهنىء به ، يقول الجواني :

أترى مناما ما بعيني أبصر ... القدس تفتح والفرنجة تكسر؟
وقمامة قمّت من الرجس الذي ... بزواله وزوالها يتطهر
وطيكهم في القيد مصفود ولم ... ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذي ... وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشام وطهّر القدس الذي ... هو في القيامة للأنام المحشر (٢)

ويحس المرء حين قراءة الابيات أنها تعبر عن فرحة غامرة استولت على المشاعر والالباب ، فجاءت الحيرة ممزوجة بالفرحة ، ومعبرة عن هذا الشعور الدافق ، يقول ابن سناء الملك مخاطبا صلاح الدين بعد الفتوحات الكبرى :

لست أدرى بأى فتح تهنى ... يا منيل الاسلام ما قد تمنى
كل فتح يقول اني أولى ... وهو أولى لانه كان أهنى
أنهنيك اذ تملكت شاما ... أم نهنيك اذ تملكت عدنا ؟ (٣)

ومنها ابتداؤها بـ "كم" الخبرية ، وقد قُصد بها التكثير ، وذلك للمبالغة في عدد الضربات التي أنزلها القادة المسلمون بالفرنج ، يقول العماد في هزيمة الفرنج على أبواب دمشق على يد نور الدين :

كم وقعة لك في الفرنج حديثها ... قد سار في الافاق والبلدان
....
قمّصت قومصهم رداء من ردى ... وقرنت رأس برنسهم بسنان
وملكت رق ملوكهم وتركتهم ... بالذل في الاقياد والاشجان (٤)

ويقول ابن عبد الظاهر في فتح حصن المرقب زمن المنصور قلاوون :

كم لك فتح غير هذا خبي ... فاستوف فتح الارض واستوعب

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٤
(٢) الروضتين ٢/١٠٥
(٣) ديوان ابن سناء الملك ٨١٤
(٤) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٥٥

يا فاتح الحصن الذي نقضه ... يأتي به عكرك من يثرب
حصن عظيم القدر في سيرة ... لمن مضى قبلك لم يكتب (١)

ويقول شهاب الدين محمود في فتح الحصن المذكور :

كم رام قبلك هذا الحصن من ملك ... تطال عنه وما في باعه قصر
عز الاعادي حلم تحته همم ... لاشقر البرق من تجحيلها غرر
أوردتها المرقب العالي وليس سوى ... ماء المجرة في أرجائها نهر (٢)

ومنها ابتداؤها بالاستهزاء والتشفي ، والمستهزئ يكون عادة في مركز القوة ، حتى يستطيع أن يهزأ بالعدو ويزري بقوته ، وهذا من مستلزمات الحرب النفسية ، التي كانت وما تزال ترافق حرب السلاح ، يقول ابن منير في انتصار نور الدين على الفرنج في حصن فامية :

خنس الثعالب حين زمجر مصحر ... ملأ البلاد غماغما وزئيرا
تركوا مشاجرة الرماح لحاذق ... جعلت مخافته القصور قبورا
لربيب حرب لم تزل فتكاته ... كالراء يلزم لفظها التكريرا (٣)

ويقول ابن مطروح في كسرة ملك فرنسا على دمياط :

قل للفرنسيس اذا جئته ... مقال صدق من قؤول نصيح
آجرك الله على ما مضى ... من قتل عباد يسوع المسيح
قد جئت مصرا تبتغي أخذها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين الى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح (٤)

ومن التشفي قول العماد في ملك الفرنج :

في باطن الغيب ما لاتدرك الفكر ... فذو البصيرة في الأحداث يعتبر
مالي أرى ملك الافرنج في قفص ... أين القواضب والعسالة السمر ؟ (٥)

ومنها ابتداؤها بذكر السلاح وأدوات القتال : وهي مرتبطة بجو المعركة أشد ارتباط ، لانها عنصر أساسي من عناصر القوة في الحرب ، كما أنها تثير مكامن القوة عند تصورها ، وادراك مفعولها ، يقول ابن القيسراني في هزيمة الفرنج امام نور الدين فيغفرا :

تفي بضمانها البيض الحداد ... وتقضي دينها السمر الصعاد
وتدرك ثأرها من كل باغ ... فوارس من عزائمها الجلاد (٦)

---

(١) تشريف الايام والعصور ٨٢
(٢) ابن حبيب ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ورقة ١٢٥ ، وانظر مثلا آخر من ديوان علم الدين ابن محمد المحيوي ص ١٥
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٢
(٤) ديوان ابن مطروح ١٨١
(٥) الروضتين ٢/١١٦
(٦) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦

ويقول ابن منير في هزيمة الفرنج في حصن فامية على يد نور الدين :

أسنى الممالك ما أطلت منارها ... وجعلت مرهفة الشفار دسارها (١)

ويقول ابن أسعد الموصلي في مباغتة الفرنج للمسلمين قرب حصن الاكراد ، وسيطرتهم على الموقف ،واصرار نور الدين على الأخذ بالثأر :

دابى المواضي وأطراف القنا الذبل ... ضوا من لك ما حازوه من نفل

وكافل لك كاف ما تحاوله ... عز وعزم وبأس غير منتحل (٢)

ونلاحظ أن هذه القصيدة في معركة خسرها المسلمون ، ومع ذلك فهي تتفجر قوة ، لان الشاعر يتهدد هؤلاء المنتصرين ويتوعدهم في يوم قريب ، فنور الدين لن ينام عن ثأر ، وقد حقق ثأره من الفرنج فعلا ، اذ هاجمهم بعد وصول الامدادات اليه ، وانتصر عليهم ، فعقب العماد على هذه القصيدة بقوله : " وهذا أحسن ما سمعته من مدح من كسر وعذر ، ولقد وافق العذر ما ذكر ، وانتصف بعد ذلك وانتصر " (٣)

ويقول ابن عنين في هزيمة الفرنج على دمياط سنة ٦١٨ :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

غداة لقينا دون دمياط جحفلا ... من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا (٤)

ومنها ابتداؤها بالدعوة الى الوحدة والجهاد : ويتطلب ذلك قوة في التعبير ، وقدرة على التأثير ، اذ ان الصياغة الفنية هي التي تكسب الكلام سمات القوة والتأثير ، ومن ذلك طلب المهذب بن الزبير من طلائع بن رزيك أن يعمل للجهاد بالتعاون مع نور الدين ، يقول :

أعلمت حين تجاور الحيان ... أن القلوب مواقد النيران

يا كاسر الاصنام ، قم فانهض بنا ... حتى تصير مكسر الصلبان

فالشام ملكك قد ورثت بلاده ... عن قومك الماضين من غسان

واذا شككت بأنها أوطانهم ... قدما ، فسل عن حارث الجولان

الى أن يقول :

وأعد ترسل ابن القسيم اليه في ... شعبان كي يتلاءم الشعبان

والفأل يشهد في اسمه أنه سوف يغدو الشام وهو عليكما قسمان (٥)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٦٠
(٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢٨٩/٢ ، الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٣٢٠
(٣) الخريدة ،قسم شعراء الشام ٢٨٩/٢
(٤) ديوان ابن عنين ص ٣٠
(٥) الروضتين ١٤٧/١

ومنه أيضا ، تحريض ابن دنينير لامراء العسكر والاجناد على القتال عقيب هزيمتهم عن دمياط ، وقد وصل الملك المعظم عيسى من دمشق لنجدة أخيه الكامل محمد ، يقول ابن دنينير :

أقيموا عمود الدين لله تسعدوا — فقد جاءكم عيسى وهذا محمد
فريق الهدى ، والله يظهر دينه — على دين من قد أشركوا وتمردوا

ثم يقول :

فلا تجزعوا من حادث جاء قادحا — فذا الدين للرحمن في نصره يد
فشنوا لدين الكفر غارات معشر — لهم في الهدى فرع زكي ومحتد
وشبوا لهم نار الجهاد فانكم — متى تتركوها آن للنار تخمد (١)

ومما يدخل في هذا كذلك ، ابتداء القصائد بالتحذير والتهديد ، كقول ابن القيسراني :

حذار منا ، وأنى ينفع الحذر — وهي الصوارم لا تبقي ولا تذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملك — من خيله النصر ، لا بل جنده القدر (٢)

ويلاحظ القارئ لهذه القصيدة الحرارة الوجدانية الشديدة ، وتزاحم الانفعالات فيها ، وامتزاج التحذير بالتهديد ، والاستحثاث والفخر ... ومنها ابتداؤها بذكر نتيجة المعركة ، أو باستبشار الشعراء بالنتيجة التي يتمنونها ، وبيان أن النصر لا يحقق بيسر وسهولة ، وانما يحتاج الى جهد كبير ، والى صبر وعمل ، اضافة الى ارتقاب عون الله لمن يجاهدون في سبيله ، يقول العماد في امتلاك أسد الدين شيركوه مصر وطارد الفرنج عنها :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب — كم راحة جنيت من دوحة التعب
هذي الحلى التي تزهى الملوك بها — وهي المآثر لا المأثور في الكتب
فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها — ميسرا فتح بيت القدس عن كثب (٣)

وفي زمن قلاوون ، قال بدر الدين المنبجي البزاز في فتح طرابلس :

أدركت بالجد أقصى غاية الطلب — ونلت بالجد أعلى منتهى الرتب
أبا المظفر لا زالت مظفرة — منك الجيوش على الاعداء بالرعب
فالله جارك أنى سرت من ملك — وناصر لك من ناء ومقترب (٤)

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ٤

(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٨

(٣) الروضتين ١/١٥٩ ، تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ١ ص ٤٥

(٤) عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ص ٢٦٦

وقد قرن الشعراء في شعرهم الجد الانساني بالعون الالهي ، وافتتحوا بعض قصائدهم بهذا المعنى ، يقول الجويني في فتح القدس :

لك رب السماء خير معيـــــن ... وكفاه بما تحب ضميـــــــــين
فلـه الحمد أي نصر عزيـــــز ... قد حبانا به وفتح مبـــين (١)

ويقول أيضا :

جند السماء لهذا الملك أعوان ... من شك فيهم فهذا الفتح برهان (٢)

ويقول ابن عبد الظاهر في معركة حمص التي دارت بين المسلمين بقيادة المنصور قلاوون مـــن جهة وبين الفرنج والتتار من جهة أخرى :

الله أعطاك لا زيد ولا عمـــرو ... هذا العطاء وهذا الفتح والنصر
هذا المقام الذى لو لم تحل به ... لم يبق ، والله ، لا شام ولا مصر (٣)

وقد بدأ بعض الشعراء قصائدهم بالحديث عن النصر بلفظه المباشر، ومن هؤلاء ابن دنينير اذ يقول في استرداد دمياط :

نصر من الله واتانا به الخبـــر ... فلتهنك العزة القعساء والظفر (٤)

ويقول علم الدين بن الشاتاني في صلاح الدين :

أرى النصر معقودا برايتك الصفرا ... فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى
يمينك فيها اليمن ، ويسراك في اليسرى ... فبشرى لمن يرجو الندى بهما بشرى (٥)

وقد حمد بعض الشعراء في مقدماتهم القادة ، وبينوا للناس أن طاعتهم واجبـــــة ، لانهم دافعوا عنهم ، وعن معتقداتهم ، يقول شهاب الدين محمود في المنصور قلاوون حـــين فتح طرابلس :

علينا لمن أولاك نعمته الشكـــــر ... لأنك للاسلام يا سيفه ذخـــــــر
ومنا لك الاخلاص في صالح الدعا ... الى من له في أمر نصرتك الامــــر
ولله في اعلاء ملكك في الــــورى ... مراد وفي التأييد يوم الوغى ســـر
نهضت الى عليا طرابلس الــــتي ... أقلّ عناها أنّ خندقها البحـــر (٦)

---

(١) الروضتين جـ٢ ص ٩   (٢) المصدر السابق ٢ / ١٠٤
(٣) عقد الجمان جـ ٢٠ ق ٤ ص ٦٧٧   (٤) ديوان ابن دنينير ورقة ٢١
(٥) مرآة الجنان ٣ / ٤٩٦
(٦) درة الاسلاك ورقة ١٤٥ ، النجوم الزاهرة ٧ / ٣٢٣ ـ ٣٢٤

ومنها المقارنة بين حالة المسلمين وحالة الفرنج ، ويكون ذلك عادة حين تكون كفة المسلمين هي الراجحة ، وهذا يجعل المقدمة مرتبطة بموضوع القصيدة .
يقول ابن القيسراني في كسرة الفرنج على أبواب دمشـــــق :

الحق مبتهج والسيف مبتسم | ومال أعدا مجير الدين مقتسم
قدت الجياد ، وحصنت البلاد وأمضيت المهاد فأنت الحل والحرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطها | معاقد الحزم في أوساطها الحزم (١)

ويقول ابن منير في انتصار نور الدين على صاحب انطاكية :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته | وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده | من بعد ما غلبت دما عبراته (٢)

ويقول ابن سناء الملك في صلاح الدين :

بدولة الترك عزت دولة العرب | وابن أيوب ذلت بيعة الصلب (٣)

ومنها التهنئة والدعاء : وهو نوع من أنواع المقدمات التي ترتبط بالموضوع ارتباطا وثيقا ، فكان الشعراء يقدمون التهنئة بعد انجلاء الحرب عن النصر ، بأسلوب يختلف عن تقديمهم لقصيدة في ذكر الاحداث الحربية . ومع هذا الاختلاف ، نجد قوة التعبير ماثلة في القصيدة ، وهذا أمر طبيعي ، لان التهنئة مرتبطة بالنصر ، والنصر يحمل معاني القوة ، يقول الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان المراقي في تهنئة صلاح الدين بالنصر على الفرنج في بيت الاحزان :

هنيئا صلاح الدين بالفتح والنصر | ونيل الاماني الغر والفتكة البكر
وما حزت فيها من فخار ومن علا | وحسن ثناء يبقى الى آخر الدهر
سموت لها بالمشرفية والقنا | سمو أبي لا ينام على وتر (٤)

وقد افتتح راجح الحلي قصيدته باللفظة نفسها ، والتي ابتدأ بها ابن نبهان المراقي ، وذلك حين انتصر الملك الاشرف موسى ، وأخوته على الفرنج في دمياط ، ولعل جو الفرح أملى عليه كما أملى على سابقه هذه المقدمة ، يقول :

هنيئا ، فان السعد راح مخلدا | وقد انجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا اله الخلق فتحا بدا لنا | مبينا ، وانعاما وعزا مؤبدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه | وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا (٥)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١ (٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٥٦
(٣) الروضتين ٢/٤٣ (٤) المصدر السابق ٢/١٢
(٥) الذيل على الروضتين ١٣٠ ، البداية والنهاية ١٣/٩٥ ، النجوم الزاهرة ٦/٢٤١

وما يتصل بهذا الجانب البدء بالبشرى ، يقول شرف الدين الانصارى مبشرا الملك المظفر تقي الدين بن المنصور صاحب حماة بانتصاره على الفرنج في منطقة حصن الاكراد :

أبشر بما شئت من نصر وتأييـــد ... نسناك يروى حديث البأس والجود (١)

وهناك صور أخرى ابتدأ بها الشعراء قصائدهم بمقدمات تتفق مع موضوع القصيـــدة الحربي كأن تبدأ بالتكبير أو بالجمل الاخبارية القوية الالفاظ ، ومن ذلك قول العماد فـــي فتوح صلاح الدين :

أسباط يوسف من مصر أتواولهـــم ... من غير تيه بها سلوى وامتنـــــان
لهم فلسطين ءان يخرج عداتهم ... عنها والا عدت بيض وخرصـــان (٢)

ومنه قول شهاب الدين محمود في فتح حصن المرقب :

الله أكبر ، هذا النصر والظفـــر ... هذا هو الفتح لا ما تزعم السيـــر
هذا الذى كانت الامال ان طمحت ... الى الكواكب ترجوه وتنتظـــــر
فأنهض ،وسر ، والملك الدنيا فقد نحلت شوقا منابرها وارتاحت السـ ـــور (٣)

وأما الجمل الخبرية القوية ، التي بدأت بها القصائد الحربية فهي كثيرة منها قول ابن قسيم الحموى في عماد الدين زنكي :

بعزمك أيها الملك العظيـــــم ... تذل لك الصعاب وتستقيـــــم
اذا خطرت سيوفك في نفـــوس ... فأول ما يفارقها الجســـوم (٤)

ومنها قول أسامة بن منقذ الموجه الى طلائع بن رزيك على لسان نور الدين :

أبى الله الا أن يكون لنا الامـر ... لتحيا بنا الدنيا ويفتخر العصـــر
وتخدمنا الايام فيما نرومـــــه ... وينقاد طوعا في أزمتنا الدهـــر (٥)

وقد يقول قائل : إن هذه القصائد قد خلت من المقدمات الغزلية ، ومع ذلك فان فيها مدحا للقائد ، وهذا صحيح ، ولكن المدقق في موضوع القصيدة يجد أن موضوعهـا يدور حول حادثة أو حوادث ، يدلها القائد الممدوح فهو عنصر هام فيها ، ولكـــن الحادثة هي محور القصيدة ، بينما لاحظنا في القصائد ذات المقدمات التقليدية أن القائد هو موضوع القصيدة ، والحادثة أو الحوادث فيها إنما أوردت باعتبارها أدلة على شجاعته .

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين الانصارى ص ١٧٨
(٢) الروضتين ٢/١١٦ (٣) النجوم الزاهرة ٧/٢١٧ ــ ٢١٨
(٤) خريدة القصر ، قسم شعراء الشام ١/٢٧٠ ، والروضتين ١/٢٢
(٥) ديوان أسامة بن منقذ ٢٠١

ثالثا : المقطعات الشعرية :

تدور المقطعات الشعرية حول حادثة واحدة ، وموضوع واحد ، وقد تستوعب عشرة أبيات أو أقل ، أو أكثر من ذلك بقليل . ولهذه المقطوعات دلالات خاصة بها ، اذ ان الوقت الذي نظمت فيه لا يسمح بإنشاء قصيدة طويلة ، فتكون المقطوعة الشعرية كالخاطرة أو كالدفقة الشعورية الحارة ، لان موضوعها واحد مثير ، والاستثارة تتباين أشكالها بتباين الموضوعات ، فالحزن غير الفرح ، والفرح غير المدح ... وهكذا .

وفيما يلي أمثلة منوعة على المقطعات الشعرية ، حسب نوع الانفعال المضمن فيها :

١ . سجلت المقطعات الشعرية الحزن الذي عاشه المسلمون ، لسقوط البلاد الاسلامية بيد الفرنج ، ومن ذلك المقطوعة التي نسبت الى مجهول في سقوط القدس ، والتي مطلعها :

أحل الكفر بالاسلام ضيما يطول عليه للدين النحيب (١)

والقارئ لهذه المقطوعة يلاحظ أنها نفثة شعرية صادقة ، تنبعث من نفس حزينة لما أصاب المسلمين من ذل وخسارة وهوان ، وفي روح ثائرة تستصرخ المسلمين جميعا لكي يدافعوا عن دينهم وأعراضهم .

ومن هذه الخواطر الشعرية قول الصفي أبي بشر بن الحواري في خراب معرة النعمان ، وقد استوحى الصورة من خراب داره بعد هجوم الفرنج على مدينة المعرة :

أهذي بين اندارى وعرفانــي مسارب الوعظ أم داري وأوطاني ؟
جهاتها ولقد أبدت ملاعبهــا عهد الصبا بين أخواني وخلانـي
فبحت أسألها والدمع منسكب والقلب في لوعة من وجده عـان
يا دار مالي أرى الأيام قد حكمت فينا وفيك بحكم الجائر الجانـي
فلو أجابت لقالت هكذا فعلت قدما بجيرة نعمان ونعمــان
وفي مدائن ذو شيدان معتبر للسائلين وفي سيف وغمــدان
فاذهب لشأنك فالدنيا أبدا دول تمضي وتأتي وكل بينها فان (٢)

إن القارئ لهذه الابيات ليحس وكأنها كتبت بدموع الشاعر لا بمداده ، وهذا الحزن الذي تعبر عنه أبيات المقطوعة ، هو حزن جماعة الناس من البلد المنكوب لا حزن شاعر فرد فحسب ، ويؤكد ذلك ما وجدناه من مقطعات أخرى لشعراء المعرة ، ومنهم أبو سلامة محمود بن داوي الذي يقول :

أنا دون بلادة قضى الله بها ح عليها كما ترى بالخـراب
قتلوا أهلها وأبادوا جميعا من شيوخ وصبية وشبـاب (٣)

(١) ...

(٢) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢/٨٧

(٣) المصدر السابق ٢/١٠١

ومنهم دحية بن عبد الله بن نصر الذي يقول :

هذه صاح بلدة قد قضى الله ء علوها كما ترى بالخراب
وقف العيس وقفة وابك من كا ن بها من شيوخها والشباب
واعتبر ان دخلت يوما اليها فهي كانت منازل الأحباب (١)

ولو تجاوزنا هذه الفترة التاريخية الى زمن الكامل بن العادل لوجدنا النفحة الحزينة تنبعث ثانية ، لسقوط القدس بأيدي الفرنج . وفي هذه الحادثة المؤلمة يقول قاضي الطور :

مررت على القدس الشريف مسلما على ما تبقى من ربوع وأنجم
ففاضت دموع العين مني صبابة على ما مضى من عصره المتقدم
وقد رام علج أن يعفي رسومه وشمر عن كفي لئيم مذمم
فقلت له شلت يمينك خلها لمعتبر أو سائل أو مسلم
فلو كان يفدى بالنفوس فديته بنفسي ، وهذا الظن في كل مسلم (٢)

٢ ـ وقد شارك الشعراء بمقطعاتهم الشعرية في تقريب وجهات النظر ، ورأب الصدع ، فحين تأكدت الوحشة بين نور الدين وقلج أرسلان السلجوقي ، أرسل طلائع الى نور الدين يقول :

نقول ولكن أين من يتفهم ويعلم وجه الرأي ، والرأي مبهم
وما كل من قاس الأمور وساسها يوفق للأمر الذي هو أحزم
وما أحد في الملك يبقى مخلدا وما أحد مما قضى الله يسلم
أمن بعد ما ذاق العدى طعم حربكم بفيهم ، وكانت وهي صاب وعلقم
رجعتم الى حكم التنافس بينكم وفيكم من الشحناء نار تضرم
أما عندكم من يتقي الله وحده أما في رعاياكم من الناس مسلم
تعالوا لعل الله ينصر دينه اذا ما نصرنا الدين نحن وأنتم
وننهض نحو الكافرين بعزمة بأمثالها تحوى البلاد وتقسم (٣)

٣ ـ وقد تطرق الشعراء في مقطوعاتهم الى الموضوعات العامة من فخر ومدح ووصف ، ولكن الفرق بين القصائد والمقطوعات ، أن الاولى أطول من الثانية ، ولذا نفقد يتراوح الانفصال فيها بين القوة والضمور ، فضلا عن أن القصائد قد تحتوي عدة موضوعات ، في حين أن المقطعات تنبثق عادة عن انفعال شديد يصاغ في أبيات قليلة ، فلا تجد فيها الذبذبة الشعورية التي قد نجدها في القصيدة الطويلة .

---

(١) النجوم الزاهرة ٥ / ٢٠٠
(٢) شذرات الذهب ٥ / ٦٦
(٣) ديوان طلائع بن رزيك ١٢٣ ، والكامل ١١ / ٢١٨

٤٠ وقد عبرت بعض المقطوعات عن الأماني الكامنة في النفوس ، فقد احتوت كتب الأدب عدة روايات تذكر أن بعضهم قد رأى في المنام قائلاً يقول شعراً أو يبشر بالفتح وانتهاء الأسر ، كتلك التي سمعها أحدهم في منامه تبين استرداد دمياط :

لا تيأسن لعسرة فوراءهــــا يسران وعد ليس فيه خــــلاف
كم كربة قلق الفتى لنزولهـــا لله في أعطافها ألطــــاف (١)

ومنها ما قيل عما سمعه البوصيري في منامه من نشيد قبل فتح عكا ، جاء فيه :

قد أخذ المسلمون عكـــا وأصبحوا الكافرين صكــــا
وساق سلطاننا إليهـــم خيلاً تدك الجبال دكــــا
وأقسم الترك منذ ســـارت لا تركوا للفرنج ملكــــا (٢)

ومما يندرج تحت هذا ، تلك المقطعات التي كانت تكتب على الجدران ، ومنها ما وجد مكتوبا على عضادة محراب المسجد في الرها :

أصبحت صفراً من بني الأصفــر أختال بالأعلام والمنبـــــر
دان من المعروف حال بـــه ناء عن الفحشاء والمنكــــر
مطهر الرحب على أنـــني لولا جمال الدين لم أطهــر (٣)

وجمال الدين هذا هو الذي شجع عماد الدين زنكي على فتح الرها ، وشبيه بهذا ما وجد مكتوبا على باب كنيسة في عكا :

أدمَى الكنائس إن تكنْ عبثت بكم أيدي الحوادث أو تغيَّر حـــالُ
فلطالما سجدت على أبوابكـــم شم الانوف جحاجحٌ أبطـــال
صبرا على هذا المصاب فإنـــه يوم بيوم والحروب سجـــال (٤)

ولا بد أن القارئ لاحظ أن معظم هذه المقطعات لم يعرف اسم قائلها ، وهذا يعني أن الشاعر غير مشهور ، وأنه قد انفعل مع الاحداث التي عبرت به ، فعبر عنها بلفظ موجز ملتهب ، فحفظ القول ونُسي القائل ..
ولا بد ـ كذلك ـ أن يلاحظ في هذه المقطعات سهولة الألفاظ ، وقرب المعاني وخلوها من التقليد الذي قد يذهب بحرارة القول .

---

(١) الذيل على الروضتين ١٢٩
(٢) ديوان البوصيري ٢٣١
(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب ٢٧٥
(٥) درة الاسلاك ورقة ١٦١ ، وجواهر السلوك ورقة ٤٨

بناء القصيدة :

اتضح من خلال الحديث عن مقدمة القصيدة أنها اتخذت ثلاثة أشكال عامة • فالقصيدة التي تهدأ بالغزل يتحدث فيها قائلها عن المرأة • ثم ينتقل الى الممدوح • ويذكر صفاته • ويدلل على شجاعته بأمثلة عملية مرتبطة بالتصدي للفرنج • ثم يختم قصيدته بالمدح • وقد يبين للممدوح قيمة قصيدته بأن يمجد فنه الشعري •

وغالبا ما تكون القصيدة التي من هذا النوع طويلة • وقد تصل أحيانا الى مائتي بيت كما عند العماد ••• ولنأخذ مثلا شعريا واحدا على هذا النمط من القصائد ولتكن للشاعر ابن دنينير (١) • يقول هذا الشاعر في مدح الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل • ويذكر نزول الفرنج على دمياط :

لهم حبّ قلبي إن تدانوا وإن صدوا ... وإن قربوا أو حال دونهم البعد
صبابة قلب قد تفرد بالأسى ... بهم حين أقوى منهم الملم الفرد
أقم مأتم الأشواق ان كنت ذا هوى ... يرنحه بان ويذكره رند
فقد هب من أرض العراق نسيمه ... تضوع في أرجائها الطلك والند
قفوا بالحمى النجدي نُزجي طلائحا ... من الشوق يحدوها من الوجد ما يحدو
وان رمتم وردا فيها فيض عبرتي ... لميسكُم إن مسها ظمأ ورد
فلي بين هاتيك القباب خريدة ... يطالبني في كل وقت بها الوجد
أحن اليها ما تألق بارقٌ ... حنينا يُرى للنار من حره برد
ويطربني أن قام بالدوح نائح ... على عذبات البان من شجوه يشدو
سقى الله نجدا ما حللتم بأرضها ... فان غبتمُ عنها فلا سقيت نجد
جحدت الهوى خوف الوشاة فأعربت ... دموعي بما ألقى ولم ينفع الجحد
واني وان قامت قيامة عذلي ... على كل حال لي لي منكمُ بد
أرى كبدي مصدوعةً بعد بعدكم • ... وفي كل عضو من فراقكمُ كبْد
وما أنا بالباغي سواكم لخلة ... وان أسعدت سعدى وإن وصلت هند

فهو يبدأها بالغزل التقليدي • اذ يبكي على فراق الأحبة كلما هب النسيم أو لاح بارق من أرض العراق • ثم يأتي بالصورة التقليدية : صورة الظعائن •وما يكتنف الرحيل من حزن وحنين • ثم ينتقل الى مدح الملك الكامل • فيقول :

وركب تداعوْا للسرى ثمّ انبرى ... ليبغي القرى بعد الهدى، ذلك الوفد
فقلت لهم والليل طلق جرانه ... وقد ستر الآفاق من جنحه برد
قفوا حيث أنوار الهدى كاطمة ... ونار الوغى والمشركون لها وَقْد
فثم ترى الاسلام يسفر وجهه ... سرورا ونجم الحق في أفقه يبدو
فلولا سميّ المصطفى ووليّه ... وَهَى الدين بل كادت قوى الحق تنهد

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقه ١ ـ ٣

فما صافحت بيضُ الصفاح كفّه ... ولا حملتْ ذاك المطهمةُ الجرد

ويستمر الشاعر في مدحه ، ثم يذكر ما قام به في الذود عن الاسلام ... وقد يكون من المفيد أن نتلمس علاقة المقدمة بالموضوع ، فابن دنينير كما يلحظ من قصيدته ترك العراق، وجاء الى أرض الشام ، ثم الى مصر ليجد حظوة يتخلص بها من الفقر الذى لازمه ، فهو لم يعرض في حديثه عن الحب والشوق إلا للاسى والالم والدموع ، (الابيات : ٢ ، ٣ ، ٦ ، ٨ ، ١١ ، ١٣) ثم ينتقل الى الممدوح فتذهب نبرة الحزن ، وتحل محلها نبرة القوة ، ويستبدل بالصوت العاطفي الشجي ، صوتا هادرا قويا ، ويتصاعد هذا الصوت حتى يبلغ الذروة في الابيات التالية :

فقل لملوك الخافقين اليكمُ ... عن الملْك أو صُدُّوا من الأمر ما صدوا
مليك الورى أين الملوك عن الذى ... تصديت فيه للعدى حين ما صدوا
أيطمع أقوام بنعمة عيشة ... متى عطشوا ، فالموت دونهم ورد
إلام التمادى والفرنج بجمعهم ... على جيد دمياطٍ كما انتظم العقد
فوالله ثم الله حلفة صادق ... حشاه حشايا ملؤها الغيظ والحقد
لما طاب سكنى طيبة ، ولقد نبا ... بجنب النبي المصطفى ذلك اللحد

ثم تلين النبرات عندما ينتقل الشاعر الى طلب الرعاية من الممدوح ، فيقول :

ولست أرجّي غير خدمتك التي ... يتم بها بين الورى عند السعد
تركت بلادى ، وارتحلت أريدكم ... فدونك فضلا حال عن جزره المد

ثم يختم القصيدة بمدح شعره ، فيقول :

فخذ ، واستمع مدحا تمد لسواه ... يد الدهر يرويه لرونقة الضد

ويلاحظ أن القصيدة تدور حول محور واحد ، وان تعددت جزئياتها ، فالبكاء والحزن ناشئان عن فقر الشاعر ، وذكر الظعائن يمثل الارتحال الى الممدوح للتخلص من الفقر ، اذ ان الممدوح يتصف بالكرم الى جانب الشجاعة وصفات عظيمة أخرى من أعمال الجهاد ومقارعة العدو ...

أما القصيدة التي تخلصت من المقدمات الغزلية فنجد طابع القوة فيها من البداية حتى النهاية ، وهي تدور حول بطل المعركة وحوادثها ، فتمجد القائد ، وتضفي عليه صفات القوة والعظمة ، أو تتحدث عن وقائع المعركة وجوها وأسلحتها ، أو تشيد بالنصر وتندد بهزيمة الفرنج .

ولنأخذ مثلا غير منتقى على هذا الجانب وهو قصيدة ابن الساعاتي في فتح طبرية ، يقول :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرّتْ عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما ... غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما ... يعزّ على العوالي أن يهونا

يقاتل كلّ ذى مُلْك ريـــــاء ... وأنت تقاتل الاعداء دينـــــا
غَدَت في وجنة الأيام خالا ... وفي جيد العلى عقدا ثمينـــا
فيالله كم سرّت قلوبـــــا ... ويا لله كم أبكت عيونا ... (١)

تبدأ القصيدة بذكر النتيجة وهي الفتح ، واستقرار نفوس المسلمين باسترداد ما سلب من حقهم ، فهم في تلهف لرؤية المدينة المستردة ، واستنشاق هوائها . اذ ان للنصر عذوبة خاصة ، لأن استرجاع المدينة لم يكن أمرا سهلا ، أو بلا ثمن ، فالمدينة حصينة ، تردّ المهاجمين ، وكأنها المرأة العفيفة المحصنة ، التي تتأبى على الرجال فهل تترفع عن أكف اللامسين . ومع ذلك فان الإعداد السليم ، والتضحية ، جعلا هذه المدينة تلين ، وتفتح ذراعيها للقائد المجاهد ، إعجابا به ، وتقديرا له :

وما طبريّة الا هـــــــــــديٌّ ... ترفّع عن أكف اللامسينـــــا
حصانُ الذيل لم تقذف بســــوء ... وسل عنها الليالي والسنينـــا
فضضت ختامها قسرا وســـــن ذا ... يصدّ الليث أن يلج العرينـــا
لقد انكحتها صمّ العوالـــــي ... فكان نتاجها الحرب الزبونـــا
هناك ندىً أهل الارض طـــــرّا ... سواك ومعقل أعيا القرونـــا
قست حتى رأت كفّا فلانـــــت ... وغاية كل قاس أن يلينـــا

ثم ينتقل الشاعر الى ذكر أهمية الفتح للمسلمين ، وخطورته على الفرنج ، فتستولي عليه الفرحة ، ويطير من بلد مفتتح الى آخر ثم يختمها بالثناء على هذا البطل القائد ، فيرى فيه أعظم الابطال ، وان كان آخرهم زمنا ، مثلما أن محمدا عليه الصلاة والسلام أعظم الانبياء وان كان خاتمهم :

وان تك آخرا وخـــــــساك ذم ... فإن محمدا في الآخرينـــــا

وهي خاتمة رائعة لحادثة رائعة ...

* * *

أما المقطعات الشعرية ، فهي ومضات سريعة تحمل قوة الانفعال ، وسرعة العرض ، فأبياتها أقل من النوعين السابقين عددا ، وحرارتها متأججة ، وصورها قليلة مركزة

العواطـــف :

تكسب العواطفُ التي تكتنف النص الادبي مادةَ النص حرارة تتناسب مع درجـــة انفعال الأدب . فاذا لم ترتفع درجة الانفعال في النص الادبي عن درجة الانفعـــال المادية التي يحس بها كل فرد ، فان هذا النص سيخفق كل الاخفاق (٢) .

---

(١) الروضتين ٢ / ٨٤

(٢) انظر حول هذا الموضوع كتاب سيد قطب ، النقد الادبي ص ٦٥

ويرى د . أحمد الشايب أن العواطف نوعان : ذاتية تقع في دائرة ضيقة ، وانسانية تستقطب مشاعر ابناء اللغة أو من يتفهمها ، لأنها تقدم الافكار بطريقة مؤثرة تستهول النفس وتسرب المعاني الى الذهن (١) .

ومن المسلم به أن نوع الانفعال يرتبط بمادة النص ، فالقصيدة الحربية التي تتحدث عن موقعة فاصلة ، تثير انفعالا حماسيا شديدا ، بينما القصائد الغزلية أو المقطعات الشعرية كتلك التي نظمها ابن القيسراني في الفرنجيات ، تثير نوعا مختلفا من الانفعالات يغيب فيها الاندفاع والعنف .

وبين قصائد الحرب وقصائد الغزل أنماط من القصائد تثير أنماطا مختلفة من الانفعالات ... ويصاحب هذه الانفعالات جرس موسيقي يتناسب عادة مع مادة النص كذلك ولنأخذ أمثلة على أنواع العواطف والانفعالات في شعر هذه الفترة ، وبين ارتباطها بالجرس الموسيقي الخارجي المتمثل في الوزن الشعري ، والجرس الداخلي المتمثل في موسيقى الالفاظ والحروف ...

١ . العاطفة الدينية :

تبرز هذه العاطفة في القصائد الحربية بشكل واضح . فما من قصيدة تخلو من ربط الحادثة أو بطلها بالشعور الديني ، وهذا أمر طبيعي ، لان الحروب الصليبية أتخذت في كثير من جوانبها شكل صراع عقائدي ، وقد أكسبت هذه العاطفة الشعر عنصر اثارة ، وحرارة ، نحس لفحها في قصائد كثيرة ، منها قصيدة ابن منير الطرابلسي ، التي نأخذ بعضها شاهدا على ما نذهب اليه ، يقول هذا الشاعر :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاته ... وعلا الهدى وتبلجت قسماته
وانتاش دين محمد محموده ... من بعد ما علّت دما عبراته
ردت على الاسلام عصر شبابه ... وثباته من دونه ، وثباته

ويبدو من المقدمة أنها تحمل انفعالا دينيا قويا ، يتخذ شكل المقارنة بين الفرنج والمسلمين ، فأولئك أهل ضلال اندثر ، ولم يبق منه سوى رسوم تدل عليه ، وهؤلاء أهل الهدى الذي أهلّ وابتسم . وفي هذا الاطار من الاصطراع العقائدي ، يوضح الشاعر عمل نور الدين في تعزيز هذا الدين ، ويحرص الشاعر على أن يقدم هذه العاطفة في ظلال التحنان الى الماضي المجيد ، والمقابلة بين قوة في عهد نور الدين ، وضعف في عهد الحكام المتخاذلين الذين سبقوه .

ولو تابعنا ابن منير في قصيدته الطويلة هذه ، لوجدناه يلح على فكرة المقابلة بين المسلمين والفرنج ، مستعينا بالحركات السريعة لمقاطع البحر الكامل ليضع القارئ في جو لشد متحرك :

---

(١) انظر كتاب د . أحمد الشايب ، أصول النقد الادبي ، فصل العواطف .

حطّ القوامس فيه بعد قماصها ... ضرب يصلصل في الطلى صمقاتـه
نبذوا السلاح لضيفهم ، عاداته ... ترس الفوارس ،والقنا غايلتـه
لمجزب عمرية غضباتـه ... لله معتصمية غزواتـه ...
ثم يقول :
صدم الصليب على صلابة عوده ... فتفرّقت أيدي سبا خشباتـه (١)

(٢) عاطفة الكراهية :

وهي عاطفة لا يكاد يخلو منها شعر قيل في الحروب ، وذلك من أجل استثارة الجند والناس ، للوقوف في وجه العدو ، ومحاولة القضاء عليه .
فلا عجب ، إذن أن نرى الشعراء العرب في هذه الفترة يحفزون بكراهية الغزاة حين ينظمون شعرا يرتبط بالوجود الصليبي في البلاد . ومن خلال شعور الكراهية يحرضون قادة المسلمين ضد العدو ،ويشمتون به حين تلحق به الهزائم . يقول العماد محرضا صلاح الدين على استرداد ما تبقى من الارض المحتلة ، بعد ان استرد القدس :

من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى ... صور فإنْ فُتحتْ فاقصد طرابلسا
أثرْ على يوم انطرسوس ذا لجـب ... وابعث الى ليل انطاكية العسسا
وأخل ساحل هذا الشام أجمعـه ... من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهم نَفَسا ولا نفسـا ... فإنّهم يأخذون النّفس والنفَسا (٢)

وقبل ذلك قال ابن منير في تحريض نور الدين على الغزاة :

أن الألى أمنوا وقاعك بعد هـا ... غزوا ، وقد ركبوا الأغرّ غـرورا
ألق العصا فيمن أطاع ومن عصى ... منهم ،ودمّر أرضهم تدمـيرا
لا يلهيهم أن قد منت ، وشنّها ... شعواء تصلي الكافرين سعيرا
باكر بركز قنا تنسف أسهـا ... والخيل صوركي تزيرك صـورا
وتريك لامعة التريك بساحة الأ ... قصى مطهرة لها تطهيرا (٣)

وتظهر هذه العاطفة في مواطن التحدى بدرجة أكبر ، ومن خير ما يمثل هذا الجانب قصيدة ابن عنين في فتح دمياط التي مطلعها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا ... إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا

فمن أول بيت نحس بالشدة والصلابة والاعتداد بالنفس ،ولعل تتابع الاصوات المتشابهة في البيت يوحي بالتحدى والاعتداد معا .

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٦ (٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٢
(٣) المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢١٧

٣- عواطف الحزن والحسرة :

وقد تجلت هذه العواطف في أوقات النكسة التي مر بها المشرق الاسلامي كفترة سقوط القدس والمعرة ودمياط وغيرها .

ومن القصائد التي تمثلت فيها هذه العواطف قصيدة ابن المجاور في تسليم القدس للفرنج سنة ٦١٠ ، اذ يبدأها بالبكاء والنداء الحزين لعينيه ، بأن تذرف الدموع وتواصل البكاء ، لعل الدمع يكون سبيلا لان يطفيء ما في القلب من حرقة ، يقول :

أعيني لا ترقيْ من العبرات ... صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفيء فيضها ... توقّد ما في القلب من جمرات
ويا قلب أسعرْ نار وجدك كلما ... خبت بادكار يبعث الحسرات
ويا فمُ بحْ بالشجو منك لعله ... يروّح ما ألقى من الكربات - (١)

ان النداء المتكرر ليوحي بالحسرة والتلهف ، كما أن القافية المكسورة المسبوقة بالمد يتناسب وقعها مع الجو الحزين ، وليس من العجيب أن تشترك قصيدة العماد في رثاء صلاح الدين مع هذه القصيدة في كثير من أدوات الحزن فيها ، يقول العماد في رثائه للبطل المسلم الراحل :

شَمِل الهدى ، والملك عمّ شتاتُه ... والدهرُ ساء وأقلعتْ حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشية ... مرجوة رهباته وهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة ، ولربه طاعاته
بالله ، أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته (٢)

أما الحزن والحسرة على سقوط المعرة فتمثلة مقطعة أبي بشر بن الحواري ، التي يبدأها أيضا بالاستفهام والبكاء والنداء ، ويتكرر فيها حرف المد وتنتهي برويّ مكسور

أهذه بين إنكاري وعرفاني ... مسارب الوحش أم داري وأوطاني
جهلتها ، ولقد أبدت ملاعبها ... عهد الصبا بين إخواني وخلاني
فمجتُ أسألها ، والدمع منسكب ... والقلب في لوعة من وجده عان (٣)

أما الحزن على دمياط ، فقد امتزجت فيه الشكوى بالتعريض ، وجاءت أدوات الحزن متكررة متنوعة . يقول الأمير جمال الدين الكناني في رسالة شعرية بعث بها من داخل دمياط المحاصرة :

يا مالكي إ دمياطُ ثغرٌ هدّمت ... شرفاته ، كادت تجتّ أصوله
يقريك من أزكى السلام تحية ... كالمسك ، طاب دقيقه وجليله

---

(١) الروضتين ٢ / ٢٠٥ (٢) المصدر السابق ٢ / ٢١٥
(٣) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢ / ٨٧ .

ويقول عن بعد ، وانك سامع — حتى كأنك جاره ونزيلـــه
يا أيها الملك الذي ما إن يُرى — بين الملوك شبيهه وعديلـه
أشكو إليك عدوّ سوء أحرقست — بجميعه فرسانه وخيولـــه
فالبر قد ضمت اليه طريقـه — والبحر عز لنصره أسطولـه
فغدوهم باد على أبراجـه — وحنينه وبكاؤه وعويلـــه
والثغر ناداه المليك محـدّق — ما ان يمل من الدموع همولـه
ولو استطاع لأمّ بابك لاتبـدا — لكنه شدّت عليه سبيلـــه
ورسوله في أن تجيب دعـاءه — دين الاله وخلقه ورسولـه
فقد انتهت ادواؤه وتحكمت — علاته ونحا عليه نحولـه (١)

ففي الابيات الأولى تأخذ الشاعر الغصة ، ويتهدج صوته ، ثم ينتقل الى مخاطبة الملك الكامل ، ويشكو اليه سوء الحال ، بسبب حصار الفرنج لدمياط ، ثم يعرض صورة مؤثرة تحكي ما يعانيه الثغر من ضيق ، ويكرر هذه المواقف والمعاني ، لكي تحرك مشاعر الكامل وتدفعه الى العمل ، وقد حصل ما توقعه فعلاً ، اذ انه عندما وقف الكامل على هذه الابيات ، أمر أهل القاهرة وحضر بالنفير للجهاد ، وكان قد بعث الى أخيه الأشرف يستحثه على سرعة الحضور بأبيات مثيرة ، قال فيها :

يا مسعدي إن كنت حقا مسعفي — فانهض بغير تلبث وتوقـف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفـا — بتجشمي سيرها وتعسـف
واطو المنازل ما استطعت ولا تُنخ — الا على باب المليك الاشـرف
إن تأت عبدك عن قليل تلقـه — ما بين كلّ مهنّد ومثقـف
أو تُبْطِ عن انجاده ، فلقـاؤه — يوم القيامة في عراص الموقف (٢)

وقد سبق الحديث من خلال المقدمات عن أنواع أخرى من العواطف الحافزة على قول الشعر ، ومن هذه : الاعجاب بالقائد ، والاحساس بالنشوة حين النصر ، وشعور الانتماء الى الامة ... الى غير ذلك .

ومن خلال الامثلة التي تقدم تحليلها في هذا القسم يمكننا أن نقول :

إن عواطف الشعراء في قصائدهم الحربية عواطف صادقة ، لانها تنطلق من احساس شديد بالاحداث ، وانتماء قوي الى المجتمع وعقيدته وحضارته ، وارتباط بالوطن ، واعجاب بالبطل ، الى غير ذلك مما سبقت الاشارة اليه ، ولذا فاننا نحس في كثير من الاحيان بتوهج الابيات ، بل اننا نحس بأننا نتفاعل مع الشاعر ، وكأنما ينقل الينا مشاعره بالعدوى واذا نحن وهو في وضع عاطفي واحد .

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٩٩
(٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٩٧

وهذا الصدق في التعبير هو صدق شعوري ، ولا يستلزم الصدق الشعوري دقة وصدقا في نقل الوقائع ، إذ إن الشاعر ينقل لنا الوقائع والأحداث ملونة بمشاعره ، ومواقفه الخاصة ، وكذلك بأحاسيس المجتمع الذي ينتمي اليه ، مما يجعل النص أكثر تأثيرا .

وقد عرضنا ألوانا مختلفة من عواطف الشعراء ، فوجدنا أشدها تأثيرا وقوة ما يرتبط بالتحدي والتحريض ، حتى ليجد الدارس النبرة الخطابية واضحة فيها .

ومن عوامل التأثير في الشعر ، العنصر الموسيقي ، المرتبط بالبحر والقافية والموسيقى الداخلية ، وبما أن الشعر الحربي في غالبه يعبر عن القوة فكان من المتوقع أن تكون موسيقى القصائد الحربية توحي بالقوة ، ولعل الجدولين التاليين ، المرتبطين بموسيقى الشعر الحربي الذي أخذته من الروميتين ، يعطيانا فكرة عن أشيع بحور الشعر والقوافي التي استعملت في القصائد ذات السمة الحربية :

البحـــور	الكامل	الطويل	البسيط	الخفيف	الوافر	المتقارب	السريع	المنسرح	الرجز	الرمل	الهزج
مجموع القصائــــد											
١٢٨	٣٧	٢٦	٢٥	١٠	٩	٨	٥	٤	٢	١	١

وكانت حروف الروي كما يلي :

حروف الـروى	الراء	الدال	الميم	النون	الباء	اللام	الحاء	الياء	القاف	السين	العين	التاء	الهمزة	الحاء	الفاء	الجيم	الذال
مجموع القصائـد																	
١٢٨	٢٤	١٦	١٤	١٤	١٢	١٠	٨	٦	٥	٥	٣	٣	٢	٢	١	١	١

ويلاحظ أن البحر الكامل قد تكرر استعماله في هذه القصائد سبعا وثلاثين مـرة ، وهذا أمر طبيعي لأنه يحتوى على ثمانية عشر مقطعا صغيرا واثني عشر مقطعا طويلا ، ولعل ما يوحي به البحر من حركة متصلة ، يتسق مع الانفعالات الشديدة التي ترافق الحـروب في المعتاد ، كما يصور جو المعركة وما فيها من حركة أيضا . أما البحر الطويل ، ففيه عشرون مقطعا طويلا وثمانية مقاطع قصيرة ، فهو يتسع للموضوعات الجادة والمواقف الخطيرة وقد استعمله قدامى الشعراء في شعر البطولة . (١)

1- Mahmud Ibrahim, Martial Poetry under the Hamdanids of Aleppo. P.P 461-463 (PH.D 1965)
وانظر كذلك كتاب د. أحمد الشايب ، اصول النقد الادبي ص ٣٢٢ ــ ٣٢٥

أما البحر البسيط الذى يأتي ثالثا ، فهو قريب من البحر الطويل ، إذ إن عـدد الحركات فيهما يكاد يكون متساويا ، وكثيرا ما استعمل هذا البحر في الموضوعات الرصينة الجادة كذلك ، على أنه لا بد من القول ، انه لا يوجد رابط حاسم متفق عليه ما بين موضوع القصيدة الشعرية ، وبحرها ، وانما هي استقراءات تعتمد على مدى شيوع استعمال بحر ما في موضوع من الموضوعات .

وكما أن موسيقى البحور تضفي على الشعر جوا معينا ، فان حروف الروى تضفي مثل هذا الأثر كذلك على الشعر ، وقد لوحظ أن حرف الراء قد تكرر في أربع وعشرين قصيدة من القصائد التي استقريت ، ثم يأتي حرف الدال في المرتبة الثانية ، وقد جاء في ست عشرة قصيدة ، ثم جرفا : الميم والنون في المرتبة الثالثة ، وقد تكررا في ثمان وعشرين قصيدة . ولعل هذه الأحرف الاربعة تمثل أصواتا تتناسب في وقعها على الاذن مع أجواء الحرب ، لا سيما أنها من الحروف التي كثر استعمالها في قوافي القصائد العربية .

التصويـــــر :

يختلف الناس بعضهم عن بعض في نقل الأفكار ، فمنهم من ينقل الفكرة مجـردة ومنهم من يخلعها بالصور الشائقة ، ومنهم من يصب عليها من قلبه ما يشيع الدفء والحرارة فيها ...

ثم ، إن تميز الشاعر عن بقية الناس بشدة الاحساس بالحياة وما يجرى فيها ، يجعله أقدر من غيره على التفاعل مع الأحداث وتصويرها تصويرا يحمل طابعه الذاتي ، وهذا التصوير يجعل كل كلمة في الفن الشعري تؤدي وظيفة معينة في نقل الفكرة ، ولذلك فإن للكلمة تأثيرا خاصا ...

ولعل الصور التي تثيرها الكلمة هي التي تبعث الحياة في النص الادبي ، وتكسبه القدرة الايحائية ، وهي التي تجعل القارئ يقبل على نوع من العمل الادبي دون نوع آخر .

ومن المسلّم به أن الصور الشعرية مرتبطة بالفكرة أشد ارتباطا ، لأنها تعبر عنهـا ولكن ذلك لا يعني أن تكون الصور في الشعر الحربي مشتقة من مناظر الحرب فقط ، بل ان مصادر الصور متنوعة ، يلجأ الشاعر في تكوينها الى معطيات البيئة المحلية ، والثقافـة ، والتجارب الشخصية .

ويطول الحديث لو حللنا عناصر هذه المعطيات ، وضربنا لها الامثلة ، ولذا ، فقد يكون من المجدي اختيار أمثلة معينة ، وتوضيح مصادر الصور من خلالها ...

١ . يقول ابن دنينير في معركة دمياط :

١ . يا يوم دمياط قد راحت مسوّدة	منك الطروس وقد سارت بك السير
٢ . تهلل الدين والدنيا به فرحـا	واستبشرت مكة والحِجْر والحَجَـر
٣ . لم تخشَ يثرب تثريبًا لفادحـة	من بعده إذ سَرَتْ في ذكره السُّوَر
٤ . أنطقتَ خرْس الاماني وهي صامتة	ورضتَ صعب المعاني فهي تبتـدر
٥ . ألبستَ أهل الهدى من نصرة حللا	والشرك قد حلّ منه الأزْر والأُزُر

٦ • في يوم ذي رهج لا وصف يدركه … يكاد منه فؤاد الدهر ينفطر
٧ • يوم يدين له الايام اذ خرست … عن فخرها وهو طول الدهر يفتخر
٨ • في حالة جمع الضدين في قرن … فالشرك منخذل والحق منتصر
٩ • قد عاد صبحهم ليلا تضيء بـه … زرق الأسنة فهي الأنجم الزهر
١٠ • والشمس طالعة فيه وغاربة … لكنها بظلام النقع تستتر
١١ • والدين قد تليت آياته فرحا … بنصره ، وصليب الشرك منحقر
١٢ • يا دين عيسى بعيسى قد خذلت ولا … كسر مدى الدهر منكم ليس ينجبر
١٣ • واتاك في جحفل ضاق الفضاء به … ذرعا ، فأنت لديه مهل له جزر
١٤ • أتى بجيش وغى في الارض عسكره … وفي السماء قضاء الله والقدر
١٥ • فالبحر من تحتهم أذيه وعلى … رؤوسهم منك نار الحرب تستعر
١٦ • وزعتهم بين بيض الهند مصلتة … وبين سمر القنا والموت مستكر
١٧ • فللرماح قلوب منهم أبدا … وللسيوف الطلى والهام والقصر
١٨ • أموا الجسور الى دمياط تحصنهم … وما دروا أنه قبر به القبر
١٩ • راموا بحيث اطلخم الأمر سلمهم … وقد رأوا غارة قامت لها الغير
٢٠ • لم يطلبوا السلم إلا بعد علمهم … بأن سيفك لا يبقي ولا يذر
٢١ • أضحى لرومية الكبرى بما شهدوا … ويل طويل وقد وافاهم الخبر
٢٢ • ان لم يكن حوصروا فيها فإن بها … من بؤس بأسك حصرا ليس ينحصر
٢٣ • يمشون همسا ، وايماء حديثهم … فيها لخوفك ، إن قالوا وإن ذكروا
٢٤ • نهاهم الرعب عن عود فمنقصة … إن قيل عودوا ، نعد بالسيف ننتصر
٢٥ • ما يوم بدر بأعلى منه أو أحد … ولا حنين ، وإن عدوا وإن شهروا (١)

ففي هذه القصيدة يرسم الشاعر صورة دمياط ، وقد تخلصت من الافرنج بعد حركة طويلة ، فقدم النتيجة على المعركة ، نظرا لأنها كانت معروفة ، ثم أخذ يصف قوة الفرنج ، ولكن هذه القوة لم تغن عنهم شيئا ، ولم تدفع كثرتهم الهزيمة ، بل سقطوا موزعين بين النار والماء ، والسيوف والرماح .

أما مصادر الصور فهي إما مأخوذة من حياة الناس وأقوالهم وممارساتهم كالتهلل والاستبشار (بيت ٢) والنطق (بيت ٤) والهمس والاشاره (بيت ٢٣) واللباس (بيت ٥) والتلاوة (بيت ١١) ، أو مستمدة من الجو الحربي كلمعان النصال ، والسيوف وغبار المعركة ، والجيش ، والمعركة البحرية والنار المحرقة ... (الابيات ٩ ــ ٢٣) ، أو من الحياة الدينية ، كمكة والحِجْر والحَجَر ، والمدينة المنورة (بيت ١ + ٢) والهدى والشرك (بيت ٥ ، ٨) وبدر وأحد وحنين (بيت ٢٥) ...

---

(١) ديوان ابن دنينير ورقة ١٤ ــ ١٥

٢ • ويقول فتيان الشاغوري في فتوح صلاح الدين :

أنشأت ملحمة تمل معاقـل الـ / فرسان بالعدو الذي لم يحصـر
اعرابها ضرب الحسا ونقطها / وقع السّهام وخطّها بالسمهري
والحبر بحرُ دمٍ تخطط موجُـه / إذ ليس ثم سوى الثرى من دفتر
والبيض تنثر وهي غير خواطب / والسمر ناظمة وان لم تشعـر
والخيل طربة كأن صهيلها / شدو النحيلة في نسيب البحتري
نشوى تميد من السرور كأنما / صبحت كؤوسا من شراب مسكر (١)

ومصادر الصور في هذه الأبيات متنوعة ، أبرزها الاعتماد على الثقافة اللغوية والادبية ممثلة في : الإعراب والنقط والخط والنثر والنظم ، وأدوات الكتابة من حبر وورق • وقد اشتق بعض الشعراء الصور البيانية من اسماء الفرنج وقادتهم ، كما في أبيات العماد التالية :

لما رأى الداويّ راونـد اءه / ولّى يطاعون بغير طعـان
طلب الفريريّ الفرارَ بطلبـه / متباعدا من هلكه المتدانـي
والهنفرى هنّهان فرّ مؤملا / لسلامة ، والهون شأن الشاني
باروا فبارو نيّهم بفنائـه / مود ، وسريرهمُ أسير عـان (٢)

وهذا يمكن تلخيص مصادر الصور الشعرية في شعر الحروب الصليبية ، بما يلي :

١ • الحياة الاجتماعية	٤ • جو الحـروب
٢ • الحياة السياسية	٥ • البيئة المحلية
٣ • الحياة الثقافيـة	٦ • الحياة الدينية

الصور التقليدية :

سادت الروح الاتباعية أدب هذا العصر ، فاتكأ شعراء الحروب الصليبية على التراث الأدبي السابق ، وأخذوا منه كثيرا من الصور ، بالإضافة الى التأثر بالجو العام للقصائد الحربية في العصور السابقة •

وقد ناقش الدكتور محمود ابراهيم في كتابه : " صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني " هذه الفكرة مناقشة وافية ، استعرض فيها أسباب هذه التهمة ، واستوفى أمثلة كثيرة من شعر ابن القيسراني في تأثره بالمتنبي وأبي تمام • (٣) •

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري ص ١٤٢
(٢) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ٥٥ ، ٥٩ ، وانظر الروضتين ١/٢/٥٧٩ و ٥٢٩
(٣) صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٧٢ ــ ١٩٦

وليس من الضروري ، في هذا المقام ، استعراض كل صورة اقتبسها شعراء هـــذه الفترة من الشعراء الاقدمين ، فذلك يحتاج الى دراسة خاصة ، ولذلك فاننا سنعـرض بعض الصور التي ترددت في شعر الحروب الصليبية ، وأخذها أصحابها من الشعراء السابقين ويمكن عرضها كما يلـــي :

١ . صورة الجيش الاسلامي يظلله جيش من الطيور :

وقد تكررت هذه الصورة في الشعر الحربي غير مرة ، منها قول فتيان الشاغـــوري في وصف جيش صلاح الدين :

خميسٌ له الرايات ظل وفوقــــه ... من الطير ظلٌ يحجب الشمس سادل (١)

وقوله :

وجيش لهام ، حلّق الطير فوقـــه ... ستضحي لكم أحشاؤهن نواويسا (٢)

ويصف العماد تزاحم الطيور الجارحة في الجو وكأنها جيوش تتزاحم فرسانهـــا ، فيقع الصدام بينها ، يقول :

تزاحم فرسانها الضاريــــات ... فتصدم فيها النسورَ النسورُ (٣)

ويقول ابن دنينير في مدح الملك كوكبري بن علي بن بكتكين :

وما زلت في جيشين : جيش مقاتل ... وجيش على القتلى من الطير حائم (٤)

وقد وردت هذه الصورة في الشعر الجاهلي ، وردّها اسامة بن منقذ إلى الافـــوه الأودي إذ يقول :

وترى الطير على آثارهـــا ... رأي عين ثقة أن ستمـــار

ثم أخذها النابغة فقال :

اذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم ... عصائب طير تهتدي بعصائـب
جوانح ، قد أيقن أن قبيلـــه ... اذا ما التقى الجمعان ، أول غالب

ثم أخذها الحطيئة ، ثم حميد بن ثور ، ثم مسلم بن الوليد ، وأبو نواس ثم أبو تمام والمتنبي ، إذ يقول الاخير :

له عسكرا خيل وطير اذا رمى ... بها عسكراً لم تبقَ الاجماجمُه (٥)

---

(١) ديوان فتيان الشاغوري ٣١٧ (٢) المصدر السابق ٢٦٤
(٣) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٢٩
(٤) ديوان ابن دنينير ورقه ٥٧
(٥) البديع في نقد الشعر ص ٢٦٤

٢ • صورة الجيش الاسلامي الكثيف المدجج بالسلاح :

وقد جاءت هذه الصورة في شعر الحروب الصليبية ، فاستفاد شعراء هذه الفترة من الصور القديمة وأوردوا في شعرهم وصفا للجيش الاسلامي ، فقالوا إنه يزحف كالجراد ، ويحمل من السلاح اللامع والسهام الكثيرة ما يشبه أغصان الشجر في الغابات ، كما وصفوا انقضاض السهام والرماح بانقضاض الشهب ، يقول سعادة الأعمى في وصف جيش صلاح الدين :

عرمرم كالدبى الطيار منتشر ... تحصى الرمال ولا يحصى له عدد
اذا انهمرت الى أرض العدو به ... لم يبق من مائها غمر ولا ثمد
تسمو عليه سماء من عجاجته ... مبنية من قناة تحتها عمد
وفي نواحيه نار من صوارمه ... تكاد تقطر ماء وهي تتقد (١)

ويقول ابن أسعد الموصلي متحديا الفرنج بتأييد انتصارهم على نور الدين :

هلا وقد ركب الأسد الصقور وقد ... سلوا الظبى تحت غابات من الأسل (٢)

٣ • صورة جيش العدو المنهزم :

وقد قدم الشعر لهم صورة طريفة تحمل معنى الاستهزاء ، فهم لا يفرقون بين وخز السلاح ووقع حبات المطر الشديد تنوب أجسامهم ، وقد اعتمد ابن القيسراني في هذه الصورة حين قال :

صاب الغمام عليهم والسهام معا ... فما دروا أيما الهطالة الديم (٣)

على صورة المتنبي التي يقول فيها :

يتشامم مطر السحاب مفصلا ... بمهند ومثقف وسنان

٤ • التأثير بقصائد الشعراء السابقين عامة :

فقد اعتمد الشعراء على قصيدة أبي تمام البائية وزنها ورويها وصورها ، ومن الشعراء الذين قلدوه ابن القيسراني في قصيدته التي مطلعها :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب ... وذي المكارم لا ما قالت الكتب (٤)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١/ ١٤٤
(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٨٩
(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤١
(٤) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ١٥٢

وشهاب الدين محمود في قصيدته التي مطلعها :

الحمد لله زالت دولة الصلـــب ... وعز بالترك دين المصطفى العربي (١)

وأخذ ابن دنينير من قصيدة ابي تمام البائية بعض الصور في قصيدته التي يصـــف فيها فتح دمياط ، ومطلعها :

ها قد بلغت الذى قد كان ينتظر ... الله أكبر هذا النصر والظفـــر

وفيها يقول :

هذا هو الفتح فتحٌ لا يقوم بـــه ... نظم المديح ولا نثرٌ فيتكـــــر

فتح مبين وفي من كلّ موبقـــة ... لم يبق من بعده ذنب فيُغتفـــر

يا يوم دمياط قد راحت مســودة ... منك الدارون وقد سارت بك السير (٢)

ومن الشعراء الذين استفادوا من قصائد ابي الطيب المتنبي ابن أسعد الموصلي في قصيدته التي يعتذر فيها عن كسرة نور الدين ، ومطلعها :

ظبى المواضي ، وأطراف القنا الذُبُل ... ضوامنُ لك ما حازوه من نفـل (٣)

فقد استفاد من قصيدة المتنبي التي يعتذر فيها عن كسرة سيف الدولة ، ومطلعها :

غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع ... إن قاتلوا جبنوا أو حدثوا شجعوا

٥ • مقارنة الفتح بالفتوح السابقة ، ومقارنة القادة بالأبطال السابقين في تاريخ الاسلام :

وقد أصبحت هذه المقارنة ظاهرة من ظواهر شعر الحروب الصليبية ، ولعل ذلـــك يعود الى طبيعة الصراع الديني بين المسلمين والفرنج •

ومن الشعراء الذين اقترنت صورة الفتوح في أذهانهم بالفتوح الإسلامية السابقـة ، أبو علي الحسن بن علي الجويني ، يقول :

هذى الفتوح فتوح الانبياء وما ... لها سوى الشكر بالأفعال أثمان

....

فأين مسلمة عنها وأخواتـــه ... بل أين والدهم ، بل أين مروان (٤) ؟

ومنهم العماد الاصفهاني ، إذ يقول في مدح صلاح الدين وتكسيره الصلبان فـــي القدس :

نفى من القدس صلبانا كما نفيتْ ... من بيت مكةَ أزلام وأنصـــاب (٥)

---

(١) تاريخ ابن الفرات ٨/ ١١٥ ، درة الاسلاك ورقة ١٥٤

(٢)

(٣) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٣٢٠

(٤) المصدر السابق ٢/ ٢٠٥

(٥) المصدر السابق ٢/ ١٠٣

ويقول البهاء زهير في فتح دمياط :

فلله يومُ الفتح ، يومُ دخولها ... وقد طارت الاعلام منها على وكْر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها ... وأنسى حديثا عن حنينٍ وعن بدر (١)

ويقول ابن دنينير في فتح دمياط :

ما يوم بدر بأعلى منه أو أحدٍ ... ولا حنينَ وإن عدوا وإن شَهروا (٢)

أما مقارنة القادة بالابطال السابقين أو الانبياء فتظهر في قول ابن الساعاتي اذ أقام علاقة بين صلاح الدين يوسف والنبي يوسف عليه السلام بجامع الاسر والشهرة :

فكنت كيوسف الصديق حقاً ... له خوت الكواكب ساجدينا (٣)

ويقول الجويني فيه أيضا :

حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقا ... ل الناس : داودَ هذا أم سليمان (٤) ؟

ويقول الجواني النسابة المصري في صلاح الدين بعد فتح القدس :

يا يوسف الصديق أنت لفتحها ... فاروقها عمرُ الإمام الاطهرُ
ولأنتَ عثمانُ الشريعة بعده ... ولأنت في نصر النبوة حيدرُ (٥)

٦. تشبيه المدن والثغور بالنساء المتمنعات :

فقد صور الشعراء تمنع المدينة على الفتح بتمنع الفتاة ، وقد سبق المتنبي الى هذا الباب في استعمال الفاظ الغزل والنسيب في وصف الحرب (٦) .
ومن الشعراء الذين جاءت هذه الصورة في شعرهم ابن القيسراني ، اذ يقول في مدح نور الدين :

ما زفّت الحرب العوان به ... الا انجلت عن معقل بكر (٧)

ومنهم الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه الأيوبي ، اذ يقول في فتح صلاح الدين للقدس :

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحا ... يا كفأها ما العذر عن عذرائها
زفّت اليك عروس خدر تجتلى ... ما بين أعبدها وبين إمائها
ايه صلاح الدين خذها غادة ... بكرا ، ملوك الارض من رقبائها
كم خاطب لجمالها قد ردّه ... عن نيلها أن ليس من أكفائها (٨)

(١) ديوان البهاء زهير ١٢٣
(٢) ديوان ابن دنينير ورقة ١٥
(٣) الروضتين ٢/ ٨٥
(٤) المصدر السابق ٢/ ١٠٥
(٥) المصدر السابق ٢/ ١٠٥
(٦) يتيمة الدهر ١/ ٢٠٩
(٧) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٤٦
(٨) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ٨٦

نعى كثير من الدارسين لهذه الفترة على الشعراء والكتاب استعمالهم الزائـــد للبديع ، واستقصاءهم لصوره ، وقد غالى بعض الدارسين في نقد هذه الظاهرة حتى وصف العصر الذى ندرسه بالجمود والانحطاط بسببها ، وكأن الصنعة لم توجد الا في أدب هذه الفترة فقط ، أو كأنها قد تمثلت في كل نص من نصوص هذا الادب .

ولا شك أن بعض هذه الاحكام لا يستند الى دراسة مستقصية دقيقة ، وانما هي خطف سريع لأحكام متأثرة بأحكام سريعة سابقة .

ومن المسلّم به أن البديع موجود في الأدب العربي قبل هذه الفترة ، ولكن درجات اهتمام الادباء به تختلف من واحد الى آخر ، ومن نمط من أنماط الأدب الى نمط آخر.

ولسنا معنيين بدراسة تحكّم البديع في الادب العربي عامة ، وفي شعر هـــذه الفترة خاصة ، لان ذلك يحتاج الى دراسة مستقلة ، وقد عالج د . زكي مبارك في كتابه النثر الفني في القرن الرابع الهجري هذه الظاهرة (١) ، كما عالجها د . محمـــود ابراهيم في الشعر من خلال دراسته لابن القيسراني الشاعر (٢) وما نريد تأكيـــده هنا ، هو أن البديع ظهر في الأدب ؛ شعره ونثره ، بشكل بارز في هذه الفترة ، ولكن مواطنه في المديح والوصف ... أكثر منها في الموضوعات الاخرى .

ويمكننا التدليل على ذلك بملاحظة سريعة ، وهي أنه لو قارنا بين ما فـــي الخريدة من شعر ، وبين ما في الروضتين من شعر ، لوجدنا اختلافا ملموسا مـــن حيث تحكم البديع ، والسبب في هذه الظاهرة هو أن شعر الروضتين يكاد يكون مرتبطـــا بالأحداث السياسية في عهدي نور الدين زنكي وصلاح الدين الايوبي ، وهذا يعني أن الشعراء قد تحرروا بشكل عام من عقال البديع في موضوعات معينة ، فلم يطغ البديع على شعرهم ، بينما نجد شعر الخريدة تبرز فيه هذه الظاهرة بشكل يسترعي الانتباه ، لأن شعر الخريدة مجموع حسب المناطق الجغرافية ، اذ يعرض العماد شعر الشعراء الذين اختارهم بغضّ النظر عن الموضوع ، وقد تحكم ذوقه بمختاراته الشعرية ، فجاءت ممثلـــة لولعه بألوان المحسنات اللفظية .

وسنذكر فيما يلي بعض القصائد العربية موزعة على فترات حقبة الحروب الصليبية ، ثم تعرض للبديع الذى ورد فيها ، لنرى الى أي مدى كثر استعماله في هذا اللون مـــن الشعر ، فقصيدة ابن الخياط التي مطلعها :

قد تك الصواهل قبّا وجـــردا   وشم القبائل شيبا ومُـــرْدا (٣)

---

(١) انظر : النثر الفني في القرن الرابع الهجري ص ٦٤ وما بعدها

(٢) أنظر : صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ص ١٩٨ ــ ٢٠٢

(٣) ديوان ابن الخياط ١٨٢ ، وانظرها في الملحق الشعري

لا يسيطر عليها البديع ، الا بشكل معتدل ، كالطباق في قوله : بيض — سمر ، شرقا — غربا ، غورا — نجدا ، هزلا — جدا ، الحر — عبد ، تأمنون — اسهرتموهن ، والجناس في قوله : الأسد — الأشدا ، نائل — نائل ، جاعلا ، عاجلا ، جدا ، جدا ، والتقسيم في قوله : فدتك الصواهل : قبا وجردا وشم القبائل : شيبا ومردا

أما مقطعة أبي بشر بن الحوارى التي مطلعها :

أهذ مبين إنكارى وعرفانـــــي مسارب الوحش أم داري وأوطانـي

فلا يوجد فيها من البديع الا الطباق في البيت المذكور .

وكذلك الحال في قصيدة ابن قسيم الحموي التي يمدح فيها عماد الدين زنكي ، ومطلعها :

بعزمك أيها الملك العظـــيم تذلّ لك الصعاب وتستقـــيم

اذ يقل فيها البديع ويمكن حصره في عدد محدود من أمثلة الطباق والمقابلة والمبالغة ...

وأما قصيدة ابن عنين في هزيمة الفرنج على دمياط التي مطلعها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا اذا جهلت آياتنا والقنا اللدنـا

ومقطعة ابن مطروح في هزيمة الملك لويس التاسع على دمياط سنة ٦٤٧ التي مطلعها :

قل للفرنسيس اذا جئتــــه مقال صدق من قؤول فصيـح

آجرك الله على ما مضـــى من قتل عباد يسوع المسيـــح

فهما بعيدتان عن الصناعة اللفظية ، مع انهما مختلفتان في الاسلوب من حيث القوه واللين كما أنهما قيلتا في وقتين متباعدين نسبيا .

ومع أن قصيدة شهاب الدين محمود في فتح عكا ، التي مطلعها :

الحمد لله زالت دولة الصلـــب وعز بالترك دين المصطفى العربي

هي تقليد لقصيدة أبي تمام ، إلا أنها خلت تقريبا من الصناعة اللفظية ، علما بـــأن قصيدة أبي تمام فيها من الصنعة الشيء الكثير .

كل هذا يدل على أن الصناعة اللفظية لم تكن متحكمة تحكما كليا في جميع الشعـــر ولذا فلا يجوز تعميم الحكم على شعر الحروب الصليبية كله ... ومع هذا ، فأننـــــــا نجد بعض القصائد تستبد فيها الصنعة ، لا سيما في القصائد التقليدية ، وقد بين د . محمود ابراهيم ذلك في شعر ابن القيسراني (١) ، ولذلك سنعرض فيما يلـــي أمثلة أخرى من نظم شعراء آخرين ، فمن ذلك قصيدة ابن منير الطرابلسي التي مطلعها :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاتــــه وعلا الهدى وتبلجت قسماتـــــه

فان كل بيت فيها لا يخلو من البديع ، لان ابن منير عرف عنه ولعه بالزخرفة اللفظيـــة . وأكثر ما استعمل من أنواع البديع :

المقابلة ومن أمثلتها : أقوى الضلال وأقفرت عرصاته ... البيت ، والبيت الثانـــــي ، الجناس : وهو كثير ، ومنه : وثباته — وثباته — شذاته شذاته ... التجنيس بالاشتقاق وهو كثير أيضا منه :

---

(١) صدى الغزو الصليبي ص ٢٠٣ — ٢٠٨

* وأعاد وجه الحق أبيض ناصعا	إصلاته وصلاته وصلاتـــــه
* حط القواضب فيه بعد قماصها	ضرب يصلصل في الطلى صمقاته
* نبذوا السلاح لضيفهم عاداتــه	فرس الفوارس والقنا غاياتـــه
* يمسي قنانيه بنات قيونـــه	فوق القوانس والقنا قيناتـــه
* ومضى يؤنب تحت إنب همــة	أمست زوافر غيها زفراته ... الخ .

الطباق : نار ـ ظلماته ، صبوح ـ غبوق ..

المبالغة : ومن أمثلتها :

* صبوحه خمر الطلى وغبوقـــه	نطف النفوس تديرها نشواتـــه
* لم تنبت الآجام قبل رماحـــه	شجرا أصول فروعه ثمراتـــه
* في كل يوم تستطيل قناتـــه	فوق السماء ، وتعتلي درجاته

ثم قصيدة ابن سناء الملك التي مطلعها :

هل الكرك الثكلى بأولادها انتهت	عن النسل مما جرعته من الثكل

ومنها من أنواع البديع ما يلي :

ايهام التناقض كقوله :

* يكلفهم غزو الفرنج بدارهـــم	ويسهل الا أنه ليس بالسهل
* اذا كنت من قتلاك تملأ سبلها	فكيف يسير الجيش فيها بلا سبل
* وكانت بهم تلك البلاد تنجست	فناب دم منهم عن الماء في الغسل
* ولم أر أرضا جادها الغيث قبلها	وتصبح تشكو بعده غلة المحل

المبالغة : ومنها :

* عساكر أرواح العساكر شربهـا	وليس لها غير الفوارس من أكـل
* جيادهم تخشى المثار من القنا الـ	قصيف وتخشى في الدماء من الوحل
* وما شرقوا بالماء والريق اذ رأوا	جيوشك لكن بالفوارس والرجل

المقابلة ، ومنها :

* وصبحت أخرى صبحتك بأهلهـا	ومستك إذ أمسيت وهي بلا أهـل
** أحسوا بطل[3] للخريف فجاءهـم	ربيع من النبل المدد كالوبـــل

* * * *

هذه نظرة سريعة في مدى وجود البديع في شعر الحروب الصليبية ، ولنا أن نتساءل : هل أدى البديع الى تضبيب الصورة أو اطفاء الانفعال ؟

قد يكون الجواب بالايجاب بالنسبة الى بعض القصائد التي سعى قائلوها الى تزيين شعرهم بالزخارف اللفظية كيفما اتفق ، ولكن المتصفح للملحق الشعري ، يجد أن البديع لم يكن طاغيا على كل الشعر ولا على اكثره ، ومما يقوم دليلا على ما ذهبنا اليه ، تلك الرسائل الشعرية التي تبادلها الشاعران :

: أسامة بن منقذ وطلائع بن رزيك ، اذ ان الشاعرين لم يحفلا كثيرا بالصنعـــة ، ولنضرب على ذلك مثلا واحدا من شعر كل منهما ، فقد كتب طلائع الى أسامة رسالـــة شعرية قال فيها :

قل لابن منقذ الـــذي ... قد حاز في الفضل الكمـــالا
. . . .
كم قد بعثنا نحـوك الا (م) ... شمار مسرعة عجـــبالا
مثل الحسان الغيد تا ... هت في محاسنها دلالا
علا بذلت لنا مقـــا ... لا حين لم تبذل فعـــالا
مع أننا نوليـــك صب ... را في المودة واحتمـــالا
ونبئك الاخبـــار ان ... أضحت قصارا أو طـــوالا
سارت سرايا لقصـــ ... د الشام تعتسف الرمـــالا
تزجي الى الاعداء جر ... د الخيل اتباعا توالـــى
تمضي خفافا للمغـــا ... ربها وتأتينا ثقـــالا
حتى لقد رام الأعـــا ... دى من ديارهم ارتحالا ... الخ (١)

فأجابه أسامة بقوله :

يا أشرف الـــوزراء أخـ ... لاقا وأكرمهم فعـــالا
وأعزهم جارا وأمـــ ... نعهم حمى وأجـــل آلا
نبهت عبدا طالمـــا ... نبهته قدرا وجـــالا
وعتبته فأنلتـــه ... شرفا ومجدا لن ينـــالا
أما السرايا حين تـــر ... جع بعد خفتها ثقـــالا
ومسيرها في كـــل أر ... ض تبتغي فيها المجـــالا
فكذاك فضلك مثل عـــد ... لك في الدنى سار وجـــالا
فاسلم لنا حتى نـــرى ... لك في بني الدنيا مثـــالا
واشدد يديك بود نـــو ... ر الدين والق به الرجـــالا
فهو المحامي عن بـــلا ... د الشام جمعا أن يـــذالا
ومبيد أملاك الفـــر ... نج وجمعهم حالا فحالا ...الخ (٢)

* * *

على أنه يسترعي الانتباه في شعر هذه الفترة عدة أمور أهمها :

أ ـ المبالغة في التصوير ، سواء في وصف الجيش الاسلامي أم الجيش الفرنجي أو في وصف القائد ، ولعل ذلك يعود الى طبيعة الظروف التي نظم فيها هذا الشعر وما يكتنفها من جو انفعالي .

---

(١) الروضتين جـ١ ق ١ ص ٢٩٢
(٢) المصدر السابق جـ ١ ق ١ ص ٢٩٤

ب• تركيز الشعراء على ابراز صورة البطل أكثر من ابراز صورة المعركة ، وهذا يرجع الى طبيعة الشعر الذى يبحث دائما عن شخصية محورية تتمثل في البطل ، فضلا عن أن الشعر يضيق بالتفصيلات الواقعية ، يضاف الى ذلك ، ان الشاعر العربي رأى أن تحطيم القائد الاسلامي ، والقائد الفرنجي دلالة على ضراوة القتال المنتظر •

ج• اخفاض مستوى الشعر الحربي زمن المماليك • فلو قارنا الانتاج الشعري في القرن الاول من الصراع الاسلامي الصليبي ، لوجدناه أرقى مستوى ، وأغزر انتاجا ، ولعل ذلك يرجع الى أن الصراع في ذلك القرن كان شديدا وحاسما ، بينما شالت كفة الصليبيين في القرن السابع الهجرى ، وأصبح موقفهم في الغالب موقف الدفاع ، فخفت حدة الصراع في الواقع وفي نفس الشاعر أيضا •

* * *

وبعد هذا العرض السريع ، قد يكون من المفيد التعرض لآراء بعض الدارسين لادب هذه الفترة ، ويمكن تصنيفهم في ثلاث فئات :

أ • فئة تتهم أدب الفترة عامة بأنه سطحي وعقيم •

ب• فئة معجبة به أشد الاعجاب •

ج• فئة وقفت وقفة اعتدال بين الفئتين المتعارضتين ، وأتخذت لها موقفا توفيقيا ، فجاءت أحكامها معتدلة •

فممن يمكن أن يصنفوا في الفئة الاولى كل من د • أحمد الجندى، و د • عبد العزيز الأهواني ، ود • زكي المحاسني ، وقد وصف د • أحمد الجندى شعر هذا العصر بأنه "سطحي يكرر نفسه في أفكاره وتعبيراته وصناعته ••• فقير في صوره وأخيلته ولمحاته الذهنية •••" (١) ، ثم أرجع بدء هذا الانحطاط الى أوائل القرن الخامس الهجري ، والتمس أسبابا لذلك ، فوجدها في ولع الشعراء بالمحسنات اللفظية ، نظرا لان الممدوحين من أصل غير عربي ، مما حدا بالشعراء الى التلاعب بالالفاظ ، لتعجب اولئك الممدوحين (٢) •

أما د • عبد العزيز الاهواني فقد وصف عصر الايوبيين بالعقم والانحراف ، وقد استند في حكمه هذا على شعر ابن سناء الملك ، ووصفه بأنه عمل عقلي بحت ••• ثم عمم حكمه على شعر ابن سناء الملك على شعر العصر الأيوبي كله (٣) •

---

(١) ديوان عرقلة الكلبي ، المقدمة ص : ك

(٢) ديوان فتيان الشاغوري ، المقدمة ص : ٦

(٣) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ص ٢٠٢ وانظر ص ٧ ، ١٠

أما د • زكي محاسني فلم يدرس هذا العصر ، وانما درس شعر الحرب في العصرين الاموى والعباسي الى عهد سيف الدولة ، ومع ذلك فقد قال : " فاذا صح وصف التطور (في شعر الحرب) بأدوار ، فيكون شعر الحرب في العصر الجاهلي في طور التولد والبداوة ، وفي العصر الاموى في طور النمو والتحضر ، وفي العصر العباسي في طريق التكامل ••• وفي عصر الحروب الصليبية انحدر شعر الحرب الى درك التقاعس على الرغم من وفرة الاسباب المعنوية ، لان شعراء العرب في عهد هذه الحروب كانوا في دور ضعف وانحذال في اللفظ والاسلوب ، وكان أغلبهم صاحب ركة في القول ، وصناعة تنسج بالكلفة ••• " (١) •

ويخشى أن يكون في هذه الأحكام تعميمات خطيرة ، انطلاقا من شواهد انتقائية ولنبدأ بقول د • أحمد الجندى : إن الشعر صناعي يكرر نفسه •

فان الناظر في كتاب الروضتين يصعب عليه أن يحكم بالسطحية على شعر مرتبط بأحداث جسام خطيرة مرت بها الامة الاسلامية ، وقد صور الشعر هذه الاحداث بما احتوت عليه من صراع طويل بين أمتين وحضارتين • ثم ان التكرار الذى يراه الدكتور أحمد الجندى هو ظاهرة لا بد من وجودها على درجة من الدرجات ، في شعر نظم في فترة واحدة ، وفي ظل مؤثرات كبيرة واحدة أيضا ، وحتى مع ذلك ، فإنه يصعب اطلاق هذا الحكم دونما تحفظ على جميع الشعر الذى نظم في هذه الفترة ، لأن التلون موجود فيه مثلما أن قدرا من التماثل والتكرار موجود فيه كذلك •

أما تحديد زمن الضعف بالقرن الذى بدأت فيه الحروب الصليبية ، فهو حكم على النواحي السياسية في المشرق الاسلامي ، ولا يوجد دائما ارتباط بين الضعف السياسي وضعف الادب ، واذا وجد ارتباط بينهما فانه لا يمكن أن يظهر مباشرة في النصوص الادبية ، لان الظواهر الادبية لا تولد بين يوم وليلة ، بل هي تحتاج الى زمن كاف لكي تولد أو لكي تتبدل •

أما تعليله الضعف الادبي بوجود البديع ، فان ظاهرة البديع لم تكن بالظاهرة الطارئة في القرن الخامس الهجري ، بل هي قد وجدت قبل ذلك ، وأصبحت لافتة للانظار بشكل واضح خلال القرن الرابع الهجرى •

واما الحديث عن أعجمية الممدوحين ، فان العبرة في الامر ، هو التمكن من اللغة العربية ، وليس العرق ، بدليل أن كلا من ابن العميد ، والصاحب بن عباد في القرن الرابع كانا من غير العرب ، ولكن تمكنهما من العربية وتذوقهما لادبها ، جعلاهما من أعلام الادب العربي في عصرهما ، بل ومن عوامل النهوض بالادب مما كانا يقدمانه

---

(١) زكي مبارك ، شعر الحروب في أدب العرب ص ٣٤٠

من تشجيع ورعاية لأدباء عصرهما * .

ولو أننا جارينا د. أحمد الجندي حول كون الممدوحين من أصل غير عربي، مما دفع الشعراء الى تبسيط شعرهم، فان تبسيط الشعر لا يكون بالتلاعب اللفظي، لأن التلاعب اللفظي يعقد المعنى ولا يبسطه، ومعلوم أن البديع يحتوى الكثير من التلاعب اللفظي، فكيف يكون اعجاب الممدوحين من أصل غير عربي بشعر معقد، قد يصعب عليهم فهمه ؟ .

أما وصف د. عبد العزيز الأهواني الادب في العصر الايوبي بالعقم والانحراف، فان فيه قسوة حتى على شعر ابن سناء الملك وحده، لوجود قصائد لهذا الشاعر لا ينطبق عليها الحكم القاسي الشامل الذى أصدره عليه الدكتور الاهواني، فكيف بالامر اذا عم هذا الحكم على جميع شعراء عصره، ومنهم من لا يسير في شعره على مدرسته، وبالتالي، فلا يجوز أن يشجب شعرهم بناء على مقاييس لا تنطبق عليهم ؟ .

وأما حديث د. زكي المحاسني عن نزول الشعر العربي في هذه الفترة الى درك التقاعس، فان الرد عليه لا يختلف كثيرا عن الرد على الناقدين السابقين ...

ولعل من المناسب هنا أن نذكر أقوال بعض من الدراسين الآخرين لهذه الفترة :

أ . يرى د. عبد اللطيف حمزة أن الشعر الصليبي يمتاز بالقوة والصدق، لأنه شعر الحماسة في محنة الحروب الصليبية، ثم إنه شعر العاطفة الذى يتصل بشعور ديني عميق في نفوس المسلمين (١) .

ب. وصف "جب" هذا العصر بأنه العصر الفضي للأدب، وأنه يتميز بالابداع والعبقرية تدر امتيازه بالبراعة والصنعة أو المهارة الفنية (٢) .

---

* أنظر عن تشجيع حكام العصر للأدب كتاب: الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية ص ٢٥، وكتاب: المدخل في الادب العربي ص ١١٢، وانظر كذلك النجوم الزاهرة ٦/ ٥٨ ـ ٥٩

(١) أدب الحروب الصليبية ص ١٧٤ وانظر ص ١٩، وكتاب الشعر العربي في العراق ص ٢٠٥ وكتاب الادب في مصر والشام ص ٢٩٩

(٢) محمد زغلول سلام، ضياء الدين بن الاثير ص ٢٢ عن :

Gibb, Arbic literature p. 82

جـ• كما وصف جودت الركابي أدب هذا العصر بأنه حافظ على رونقه ، وتماسك فـــي العصر المملوكي بعض الشيء ، ولكنه انحدر انحدارا واضحا في العهد العثماني (١) هذا ، وقد بالغ بعض الدارسين في تقرير شعر الفترة ، فذهبوا الى حد القول : ان الشعر في هذا العصر اتصل بالواقع اتم اتصال ودبت فيه حياة لم تكن تمهـــد قبل ذلك في الشعر العربي (٢) .

ولا بد أن نتساءل بعد أخيرا ، هل تأثر الادب العربي بالفرنج وأدبهـــم ؟ الجواب على ذلك بالنفي ، وذلك لأنه قد تبين أن الفرنج كانوا أدنى في مستواهـــم الحضاري من المسلمين ، ولان العداء المستحكم بين الطرفين طيلة هذه الفترة ، وقلـــة الاحتكاك الثقافي فيما بينهما ، بالاضافة الى اختلاف مصادر الادب العربي وأسســه وركائزه عن مصادر أدب الفرنج وأسسه وركائزه ـ كل هذه العوامل ، جعلت تأثر الادب العربي بأدب الغزاة يكاد لا يلحظ .

أما تأثير الفرنج عامة بسلوكهم وعاداتهم ولغتهم في الادب العربي ، فهو كذلـك تأثير محدود ، وقد يتجلى بدخول بعض الالفاظ الجديدة في الشعر ، كالقومص ، والبرنس ، والسِّير ، وبعض الاسماء كالداوية والفريرية والهنغري * .

كما أن بعض الشعراء قد أورد في شعره صورا وألفاظا مأخوذة من حيـــاة الصليبيين ، مثل : هيكل ، قونة ، قديس ، قس ، بربارة ، مَدْرَس ، برنس ، قداس ... الخ . **

---

(١) جودت الركابي ، الأدب العربي من الانحدار الى الازدهار ط١ مط زيد بن ثابت ، نشر دار الفكر دمشق سنة ١٣٩٤ ص ٧

(٢) محمود مصطفى ، الادب العربي في مصر الى نهاية العصر الايوبي ٢٧٧

* انظر على سبيل المثال : الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٦ ـ ١٥٩ ، والخريدة قسم شعراء الشام ١/ ٥٩

** انظر ديوان ابن القيسراني ورقة ٦٢ ـ ٦٣ ، ٦٤ ، ٧٠

الفصل الثانـــــي

أولا : النثر الادبـــــي :

شارك النثر الشعر في تقديم صورة الصليبيين ، بما قدمه من أوصاف دقيقة لبعـــض المشاهد ، أو سرد لبعض الحوادث ، ويمكن عرض الانماط الادبية التي شاركت في رســم صورة الصليبيين على النحو التالي :

١ • التواليف الأدبيـة ٢ • الرسائل ٣ • الخطب ٤ • نصوص الهدن

١ • التواليف الأدبية :

عرف عن هذا العصر كثرة التآليف في مختلف ميادين الحياة الانسانية ، ويهمنا منها كتب الادب أو الكتب التاريخية الادبية ، وهي تتراوح بين الالتزام بالصور البيانية المختلفـة والانفكاك عنها • وخير ما يمثل النوع الاول كتاب " الفتح القسي في الفتح القدســي " للعماد الاصفهاني ، وهو مثقل بالسجع وأنواع البديع ، ومن خير ما يمثل النوع الثاني كتاب " النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية " لابن شداد ، وقد تخلى فيه صاحبه عن البديع إلا ما جاء عفو الخاطر ، ثم كتاب "الاعتبار " لأسامة بن منقذ ، وهو يمثل أسلوب المذكرات الشخصية ، فجاءت لغته ، في معظمها ، عادية ، وربما تنحدر أحيانا الى العاميـة ، وكتاب " رحلة ابن جبير " ، وهو يمثل كتابة الملاحظات العامة التي يشاهدها الرحالة ، وقد يجنح أحيانا الى استعمال الصور البيانية ، ولكن هذا ليس هو النمط الكتابي الغالب عليه •

أ • الفتح القسي في الفتح القدسي :

لسنا معنيين هنا بتقويم الكتاب الا من حيث الصياغة الفنية ، فهو كما يبدو مــن العنوان ، يستلهم نفحات قس بن ساعدة كاهن العرب وخطيبها ، ليعرض تاريخ الفتوح العظمى زمن صلاح الدين واهمها فتح القدس ، وهو يقدم مادته بلغـــة مسجوعة ، وألفاظ منتقاة ، قد تصل الى حد الغرابة ، ان اضطره السجع الـــى ذلك •

ولكن مقدرته اللغوية سهلت له استعمال ألوان البديع ، فقد يشتق من الالفـاظ الاجنبية مفردات تجانسها ، يقول على سبيل المثال في وصف فرق الفرنج الـتي استعدت لمعركة حطين : " وللداوي دَوي ، وللاسبتاري هوي ، والباروني يقدم على البوار ، والتركبولي يلقي نفسه على النار ، وقد ثاروا والثار قد وَقَدَ ، والجو قد عقد وقد انصدع زجاج الزجاج ، وارتجز عجاج العجاج ، وانفض الفضـــاء •

وأنقض القضاء ، وكادوا يفلون الجمع ، ويجمعون الفل ، ويحلون العقد ، ويعقدون ما انحل ... " (١)

ونلاحظ دقة الوصف في أوصافه مع أن كتابه حفل بأنواع البديع ، فالنص السابق محشو بالسجع ، والطباق ، والجناس ، والتجنيس بالاشتقاق اللغوي ، ويمكن أن نجد ذلك في أية صفحة من صفحات الكتاب .

ومن الأمثلة الأخرى للوصف الدقيق ، وصفه للخلاف الذي نشب بين امراء الفرنج ثم تصافيهم قبيل المعركة ، يقول : " وقد كان بينهم (الفرنج) حينئذ خلف نبعث وحليف منتكث ، ووقوف نفار بين الانفار ، ووقود شرار بين الشرار ، ولما استدنوا حين حينهم ، سعوا في اصلاح ذات بينهم ، ودخل الملك على القومص ، ليتقضى له بالود الأخلص ، ورمى عليه بنفسه ، واستبدل وحشته بأنسه ... " (٢) .

والذي يتابع نصوص العماد في الفتح القسي ... يلاحظ أنها مستقاة من مصادر مختلفة ، فبعضها مأخوذ من البيئة في انسانها وحيوانها ، كقول العماد عن البركيس : " وكان البركيس من أكبر طواغيت الكفر ، وأغوى شياطينه ، وأغرى سراحينه وأنهش ذئابه ، وأنجس كلابه ... وأعوى أعوانه ، وأخون إخوانه ، وأبشى بناته وأرعى حماته ، ... وأروغ ثعالبه وألسب عقاربه ... " (٣) .

وبعضها مأخوذ من الحرب وما يرتبط بها من شؤون القتال وأدواته ونتائجه ، كقول العماد : " ... هذا ، والمنجنيقات ترميهم ، والمفوقات الموفقات تصميهم وتصميهم ، والقتال قائم ، والنزال دائم ، والصخور تفلق والصدور تقلق ، والاحجار تقلق ، والاحجار تقلقل ، والاسوار تحلحل ... والاوداج شاخبة كالعيون البواكي ، والأبصار دامية من الزنبوركات والناوكات النواكي ، وهناك العقل معزول بالتهور ، والرأي مشغول عن التدبر ، والحلم والحلم خالطهما الجهل والسفاه ، والجرخي يبتدئ بنسم الله ، والمنجنيقي يختم بلا إله إلا الله ، والزراق بالنار يذليب القارورة ، ويحرق الساتورة ... فلم يسمع الا ضجة الحديد من الحديد ، وعجة الشديد من الشديد ، وجعجعة رحى الحرب ، وقعقعة أداة الطعن والضرب ، وصلصلة الزبر ، وولولة الزمر ، وحيملة دعاة النصر ، وهيضلة رعاة الكفر ... " (٤) .

---

(١) الفتح القسي ٦٢
(٢) المصدر السابق ٦٥
(٣) المصدر السابق ١٠٢ وانظر ص ٢٤٠
(٤) المصدر السابق ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦

وقد تؤخذ هذه الصور من الحياة الدينية للمسلمين وخصومهم ، كما يتراءى في النص السابق ، وفي قول الكاتب نفسه : " وبات الاسلام للكفر محاربا ، والتوحيد للتثليث مقاتلا ، والهدى للضلال مراقبا ، والايمان للشرك محاربا ، وعيثت دركات النيران ، ومنشت درجات الجنان ، وانتظر ما لك واستبشر رضوان .. " (١) وفي قوله : " وهو (الصليب) اذا نصب أقيم ورفع ، سجد له كل نصراني وركع وهم يزعمون أنه من الخشبة التي يزعمون أنه صلب عليها معبودهم ، فهو معبود هو ومسجودهم ... " (٢) .

وثمة مصادر أخرى للصور البيانية التي استعملها العماد ، تستبين منها ثقافته الواسعة المتشعبة ، ولا مجال هنا لاستقصائها ... إلا أن أي قارئ لهذه النصوص لا تخفى عليه مقدرة العماد اللغوية ، كما لا تخفى عليه قدرته على استخلاص الصور البيانية من مصادر كثيرة متنوعة ، منها ما هو حسي ، ومنها ما هو ذهني ... وقد يتأتى عن الافراط في الزخرف البياني عند العماد ، أن تجور الصياغة اللفظية على وضوح المعنى وحرارة الانفعال .

ب- النوادر السلطانية :

وهو كتاب عن صلاح الدين كتبه قاضيه ابن شداد مستمينا بمشاهداته ، وما وصله من مشاهدات غيره وسماعهم ، وقد حرص فيها على تحديد الزمان والمكان دون تأنق زائد ، أو تصيد للالفاظ ، فجاءت كتابته سهلة ، تستقي من الوقائع ، وتعتمد على الحقائق في تحريك المشاعر ، دونما افراط في استعمال الصور البيانية .

وباستطاعة القارئ ملاحظة ذلك في معظم ما ورد في الكتاب من نقل للأحداث ، فها هو ذا يصف خروج الفرنج الى التلول المحيطة بعكا وصفا دقيقا ، ثم يصف تصدي المسلمين لهم ، فيقول : " فاعتدوا على التلال ، وساروا الهوينى غير خارجين عن أنفسهم ، ولا خارجين من راجلهم ، والرجالة حولهم كالسور المبني ، يتلو بعضهم بعضا ، حتى قاربوا اليزك ، ولما رأى المسلمون ذلك ، واقدام العدو عليهم ، تداعت الشجعان ، وتنازلت الكماة الى الاقران ، وصاح السلطان (قدس الله روحه) بالعساكر الاسلامية : " يا للاسلام " .

فركب الناس بأجمعهم ووافق فارسهم راجلهم ، وشابّهم شيخهم ، وحملوا حملة الرجل الواحد على العدو المخذول ، فعاد ناكصا على عقبيه ، والسيف يعمل

(١) الفتح القسي ص ٧٨
(٢) المصدر السابق ٨٤

فيهم ، والسالم منهم جريح ، والطالب طريح ... يعثر جريحهم بقتيلهم ، ولا تلوي الجماعة منهم على قبيلهم ، حتى لحق الخيام من سلم منهم ، وانكفوا عن القتال أياما ، وكان قصاراهم أن يحفظوا نفوسهم ويحرسوا رؤوسهم ... " (١) .

فهذا النص لوحة ناطقة ، تتضح فيها حركة العدو ، وتصدّي المسلمين لهم ، مع وصف الحالة النفسية عند الطرفين .

كل ذلك بلغة شائقة مأنوسة لا تبعد كثيرا عن الاستعمال اليومي ، وإنما فيها من الحرارة ما يمليه الموقف المثير ، وفيه من الفصاحة ما يتطلبه وصف موقف كهذا . وأما ما جاء فيه من سجع ، فلا افراط فيه ، وهو متماسك غير متخلخل ، وألفاظه ذات ايحاءات مثيرة ، اكتسبت من تواتر الاستعمال في سياقات معينة ، مثل قوله : وصاح السلطان : يا للاسلام " و "كان قصاراهم أن يحفظوا نفوسهم ويحرسوا رؤوسهم " .

ولكن ، مع حيوية الوصف وحرارته ، فان الكاتب لم يقدم صورة ذات تسلسل لاحداث المعركة ، شأنه في ذلك شأن العماد ، وذلك لأن الكاتبين يقدمان صورة المعركة العامة ، بدلا من أن يسيرا مع المعركة خطوة خطوة ، الى أن يصلا الى نتيجتها ، وقد يتعجل الواحد منهما في الوصف الى النتيجة كما فعل ابن شداد ، حتى وهو يصف حصار مدينة استمر سنتين كاملتين ، سيطر الفرنج خلالها على مشارف المدينة — عكا — من البر والبحر معا ، في حين أن الآخر — العماد — يعرض لنا لوحة زخرفية حافلة بالصور الجزئية المعتمدة على التزويق اللفظي ، وهو يقدم لنا وصفا لوقعة عكا الآنفة الذكر ، يقول : " وأصبح الفرنج ، يوم الاربعاء العشرين من شعبان ، قد رفعوا الصلبان ، وزحف أسودهم في غاب المران ، وطارت بهم خيولهم عقبانا على عقبان ، وجرت بالجبال منهم رياح ، وجالوا دون التل كأنهم له وشاح ، وخرجوا على التعبية ، وشفعوا نداء الكفر بالتلبية ، وشفعوا بالتبرية للتربية ، وتقدموا محتزمين ، وعزموا مصممين ، وثاروا ثورة الشيطان ، وفاروا فورة الطوفان ، وقدموا الراجل امام الفرسان ، وزحفوا ، أرسالا ، وحفزوا طلابا ، ودبوا دبيب الليل الى النهار ، وهبوا هبوب الخيل الى المضمار ، وأجروا سيول السوابق الى القرار ... " (٢) .

والمدقق في هذا الوصف ، يجد أنه يتكون من قطع فسيفسائية ، تتعلق أجزاؤها الأولى بوصف لحركة الفرنج السريعة ، وهم مدججون بالسلاح على سوابق الخيل ، وأصواتهم تتردد بالتعريض والاستشارة ، ولكن المشهد

---

(١) النوادر السلطانية ١٠٧
(٢) الفتح القسي ص ٣٠٨ — ٣٠٩

الأول سرعان ما يندفع في المشهد الثاني ، المتعلق بتقدم الفرنج نحو خصومهم : " وتقدموا محتزمين ، وعزموا مصممين ... " ثم يبدأ المشهد الثالث بالحديث عن حركة للجيش الفرنجي سرعان ما تتصاعد ، الى أن تصل قمة السرعة ، وعندها تنهمر الدماء سيولا في ساحة المعركة .

وهذه المشاهد الثلاثتكون معا صورة المعركة ، بما فيها من حركات وأصوات وأدوات قتال .

ولعل عدم توفيق الشعراء والكتاب في رسم صورة متكاملة للمعركة ، تتسلسل فيها المشاهد وتتتابع ، هو عدم وجود الكثير من الوصف العربي الدقيق في تراثنا الادبي ، وربما كان غياب الاديب كذلك عن مسرح القتال في كثير من الحالات ، عاملا من عوامل فقدان التسلسل والتتابع والتكامل .

جـ . الاعتبـــــار :

وهو كتاب مذكرات ، كتبها أسامة بن منقذ في شيخوخته عن مشاهداته وتجاربه ، وأراد بها تقديم العبرة لغيره ، فهو — لذلك — ان وصف معركة لم يكتف برواية أحداثها فقط ، وانما يذكر ، كذلك ، ما يتعلق وروح الاحداث ، وما يمكن استخلاص العبرة منه . يقول في موقعة بيت جبرين التي كان سببها اشمان أسامة وبعض فرسانه النار في بيادر الفرنج : " فاجتمع الفرنج — لعنهم الله — من تلك الحصون ، وهي كلها متقاربة ، وفيها خيل كثيرة للافرنج ، لمنادادة عسقلان ومراوحتها ، وخرجوا على أصحابنا ، فجاءني فارس يركض ، وقال : قد جاء الافرنج ، فسرت الى أصحابنا ، وقد وصلت أوائل الفرنج ، وهم — لعنهم الله — أكبر الناس احترازا في الحرب ، فصعدوا على رابية ووقفوا عليها وصعدنا نحن على رابية مقابلهم ، وبين الرابيتين فضاء .. لا ينزل منهم فارس خوفا من كمين أو مكيدة ، ولو نزلوا أخذوهم عن آخرهم .. " (١) .

فقد أراد بذلك التدليل على احتراز الفرنج ، بالرغم عن كثرتهم وقلة أعدائهم فلم ينزلوا عن الرابية خوفا من كمين أو مكيدة . وقد أورد ملاحظات كثيرة في كتابة " الاعتبار " عن تأخر الطبهم ، وعدم غيرتهم .... الخ .

ومن العبر التي يقدمها للقارئ أن القتال ودخول المعارك لا يقصر الآجال ، ويذكر على ذلك بعض المشاهدات ، منها : أن شابا فرنجيا جاء الى أسامة ليبصر فرسان المسلمين ، ويصفه بحسن الهيئة ، الا أن فيه آثار جراح كثيرة وفي وجهه ضربة سيف قدته من مفرقه الى حكمته ، ومع ذلك ما زال حيا (٢)

---

(١) الاعتبــــار ص ١٧
(٢) المصدر السابق ص ٦٩

أما لغة هذا الكتاب فهي سهلة لا تبتعد عن اللغة المحكية كثيرا ، بل كثيرا ما اتكأ على اللغة المحكية في وصفه ، مثل قوله عن سرعة فرسه بأنها : " مثل الطير " (١) وقوله على لسان الفرنج الذين سألوا بواب مدينة شيزر " ايش اسم هذا البلد " (١) وقوله عن فرنجي أراد اصطحاب ابنه (ابن اسامة) معه الى اوروبا بأن كلامه : " ما يخرج من رأس عاقل " (١) .

د . رحلة ابن جبير :

وهي مذكرات كتبها الرحالة ابن جبير حين مرّ ببلاد الشام ، فوصف بعض المناطق مثل حصن الكرك ، وبانياس ، وعكا .. ووصف علاقة الفرنج بالمسلمين في بعض المناطق .. كما سجل ما شاهده من سلوك الصليبيين ، وعاداتهم في الافراح ومن ذلك قوله عن معاملة أهل عكا من الفرنج للمسلمين : " ان المسلمين يعانون أهوالا ومشقات ، منها الذلة والمسكنة الذمية ، ومنها سماع ما يفجع الافئدة من ذكر من قدس الله ذكره ، وأعلى خطاره ، لا سيما من أراذلهم وأسافلهم ومنها عدم الطهارة والتصرف بين الخنازير " (٢). وعن معاملتهم للأسرى المسلمين ، يقول : " ومن الفجائع التي يعانيها من حل بلادهم ، أسرى المسلمين ، يرسفون في القيود ، ويصرّفون في الخدمة الشاقة تصريف العبيد، والاسيرات المسلمات كذلك ، في أسواقهن خلاخيل الحديد " (٢) .

ويلاحظ أن لغة الكتاب ترتفع عن لغة أسامة بن منقذ ، فهي بعيدة عن التعبيرات المحكية ، وقد يتأنق المؤلف أحيانا في بعض الفصول حتى يشيع الزخرف اللفظي والصور البيانية فيما يكتب (٣) .

ويلاحظ الباحث ، أيضا ، أن هذه المذكرات بأنواعها قد غذت الأدب العربي بمادة شائقة وأضافت اليه أبوابا جديدة ، وقد جاء بعضها مثقلا بالزخرف اللفظي ، في حين كان اكثرها بعيدا عن الصنعة والتكلف ، وهي في مجملها سواء منها المثقلة بالزخرف أو الخالية منه - تقدم صورة واضحة عن أوضاع كانت قائمة في تلك الفترة ، وتستمد هذه الصورة قيمتها من أنها وليدة المشاهدة لا السماع ...

---

(١) انظر الاعتبار على الترتيب ص ٤٠ ، ٤٨ ، ١٣٢ ، وأنظر ١٣٦ ، ١٤٨

(٢) رحلة ابن جبير ٢٨٠

(٣) انظر رحلة ابن جبير ص ٢٦٤ ، ٢٦٧ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٨٠ ... الخ

٢ - الرسائـــــل :

أدت الحروب المتوالية بين المسلمين والفرنج الى نهضة النثر ، لا سيما نثر الرسائل بما كانت تحمله هذه الرسائل من بشائر بالفتح أو تهنئة أو طلب نجدة أو أوامر عسكرية . ومن خلال هذه الاغراض يمكن للقارئ أن يخرج بمادة خصبة عن الفترة التي ندرسها .

وقد يكون من المفيد الوقوف على الرسائل الديوانية والاخوانية لنستشف من خلالها السمات الفنية لهذا النوع من النثر .

الرسائل الديوانية :

من الصعب على الباحث أن يحصر عدد الرسائل الديوانية لان كثيرا منها لم يصلنا ، ولان الكثير مما وصلنا لم يصل كاملا ، بل جاء نتفا ، نجد الكثير منها في كتاب الروضتين ، وفي مخطوطة " الفاضل من كلام القاضي الفاضل " ، والذى جاء منها كاملا عدد ضئيل موزع بين صبح الاعشى والروضتين ، ونهاية الارب ، ورسائل ابن الاثير

وسنتناول بالتحليل بعض هذه الرسائل لنقف على سماتها الفنية .

أ. رسالة القاضي الفاضل الى الديوان العزيز ببغداد ، بفتح القدس وما معه ، واقتلاع ذلك من أيدى الفرنج ، واعادته الى ما كان عليه من الاسلام ، وهي :

" أدام الله أيام الديوان العزيز النبوى الناصرى ، ولا زال مظفر الجد بكل جاد ، غني التوفيق عن رأى كل رائد ، موقوف المساعي على اقتناء مطلقات المحامد ، مستيقظ النصر ، والسيف في جفنه راقد ، وارد الجود ، والسحاب على الارض غير وارد ، متعدد مساعي الفضل ، وان كان لا يلقى الا بشكر واحد ، ماضي حكم القول بعزم لا يمضي الا بنيل غوى ، وريش راشد ، ولا زالت غيوث فضله الى الاولياء أنواء الى المرابع وأنوارا الى المساجد ، وبعوث رعبه الى الاعداء خيلا الى المراقب وخيالا الى المراقد .

كتب الخادم هذه الخدمة تلو ما صدر عنه مما كان يجرى مجرى التباشير بصبح هذه الخدمة ، والعنوان لكتاب وصف هذه النعمة ، فانها بحر للاقلام فيه سبح طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ، يسري للاسرار في اظهارها مسارب ، ولله في اعادة شكره رضا ، وللنعمة الراهنة به دوام لا يقال معه هذا مضى ، وقد صارت أمور الاسلام الى أحسن مصايرها ، واستتبت عقائد أهله على بصائرها ، وتقلص ظل رجاء الكافر المبسوط ، وصدق الله أهله دينه فلما وقع الشرط حصل المشروط ، وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه ، والفوز معروضا فقد بذلت الانفس في ثمنه ، وأمر أمر الحق وكان مستضعفا ، وأهل ربعه وكان قد عيف حين عفا ، وجاء أمر الله وأنوف أهل الشرك راغمة ، فأدلجت السيوف الى الآجال وهي نائمة ، وصدق وعد الله في اظهار دينه على كل دين ، واستطارت له أنوار أبانت أن الصباح عندها حيان الحين ، واسترد

المسلمون تراثا كان عنهم آبقا ، وظفروا يقظة بما لم يصدقوا أنهم يظفرون بمطيفا على النأي طارقا ، واستقرت على الاعلى أقدامهم ، وخفقت على الاقصى أعلامهم ، وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وان كانت صخرة كما تشفى بالماء غللهم .

" ولما قدم الدين عليها عرف منها سويداء قلبه ، وهنأ كفوءها الحجر الاسود ببت عصمتها من الكافر بحربه ، وكان الخادم لا يسعى سعيه الا لهذه العظمى ، ولا يقاسي تلك البؤس الا رجاء هذه النعمى ، ولا يناجز من استمطله في حربه ، ولا يعاتب بأطراف القنا من تمادى في عتبه ، الا لتكون الكلمة مجموعة ، والدعوة الى سامعيها مرفوعة ، فتكون كلمة الله هي العليا ، وليفوز بجوهر الاخرة لا بالعرض الادنى من الدنيا وكانت الالسنة ربما سلقته فأنضج قلوبها بالاحتقار ، وكانت الخواطر ربما غلت عليه مراجلها فأطفأها بالاحتمال والاصطبار ، ومن طلب خطيرا خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لان يجلي غمرة غامر ، والاقان القمود يلين تحت نيوب الاعداء العاجم فتعضها ، ويضعف في أيديها مهر القوائم فتقضها ، هذا الى كون القعود لا يقضي فرض الله في الجهاد ، ولا يرعى به حق الله في العباد ، ولا يوفى به واجب التقليد الذى تطوقه الخادم من أئمة قضوا بالحق وبه كانوا يعدلون ، وخلفاء الله كانوا في مثل هذا اليوم للميسالون ، لا جرم أنهم أورثوا سرورهم وسريرهم خلفهم الاطهر ونجلهم الاكبر ، وبقيتهم الشريفة ، وطلعتهم المنيفة ، وعلوان صحيفة فضلهم لا عدم سواد العلم وبياض الصحيفة ، فما غابوا لما حضر ، ولا غضبوا لما نظر ، بل وصل الأجر لما كان به موصولا ، وشاطروه العمل لما كان عنه منقولا ومنه مقبولا ، وخلص اليهم الى المضاجع ما اطمأنت به جنوبها والى الصفائح ما عبقت بمجيوبها ، وفاز منها بذكر لا يزال الليل به سميرا والنهار بصيرا ، والشرق يهتدى بأنواره ، بل ان أبدى نورا من ذاته هتف به الغرب بأن واره ، فانه نور لا تكنه أغساق السدف ، وذكر لا تواريه أوراق الصحف .

" وكتاب الخادم هذا وقد أظفر الله بالعدو الذى تشظت قناته شفقا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الاكثر عددا وحصا ، فكلت حملاته ، وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ، وعثرت قدمه وكانت الارض لها حليفه ، وغضت عينه وكانت عيون السيوف دونها كسيفة ، ونام جفن سيفه ، وكانت يقظته تريق نطف الكرى من الجفون ، وجدعت أنوف رماحه وطالما كانت شامخة بالمنى أو راعفة بالمنون ، وأضحت الارض المقدسة الطاهرة وكانت الطامث ، والرب المعبود الواحد وكان عندهم الثالث ، فبيوت الشرك مهدومة ، ونيوب الكفر مهتومة ، وطوائفه المحامية ، مجتمعة على تسليم البلاد الحامية وشجعانه المتوافية ، مذعنة ببذل المطامع الوافية ، لا يروق في ماء الحديد لهم عصره ، ولا في فناء الافنية لهم نصره ، وقد ضربت عليهم الذلة والمسكنة ، وبدل الله مكان السيئة الحسنة ، ونقل بيت عبادته من أيدى أصحاب المشأمة الى أيدى أصحاب الميمنة .

" وقد كان الخادم لقيهم اللقاة الاولى فأمده الله بمداركته ، وأنجده بملائكته
فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا يحيى معها بمشيئة الله كفر وأسر منهم
من أسرت به السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى
من الخيل والسلاح والكفار ، وعن أنصاف محيل فانه تتلهم بالسيوف الافلاق والرماح
الاكسار ، فنيلوا بثار من السلاح ونالوه أيضا بثار ، فكم أهلة سيوف تقارض الضراب بها
حتى عادت كالعراجين ، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ، وكم
فارسية ركض عليها فارسها السهم الى أجل فاختلسه ، ونفرت تلك القوس فاما فاذا
فوها قد نهش القرن على بعد المسافة فافترسه ، وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة
شهودا ، وكان الكفر مفقودا ، والاسلام مولودا ، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم
وقودا ، وأسر الملك وبيده أوثق وثائقه ، واكد وصله بالدين وعلائقه : وهو صليب
الصلبوت ، وقائد أهل الجبروت ، وما دهموا قط بأمر الا وقام بين دهمائهم
يبسط لهم باعه ، ويحرضهم وكان مد اليدين في هذه الدفعة وداعه ، لاجرم أنهم تهافت
على نارهم فراشهم ، وتجمع في ظل ظلامه خشاشهم ، فيقاتلون تحت ذلك الصليب
أصلب قتال وأصدقه ، ويرونه ميثاقا يبنون عليه أشد عقد وأوثقه ، ويعدونه سورا تحفر
حوافر الخيل خندقه ...

" ولما لم يبق الا القدس ، وقد اجتمع اليها كل شريد منهم وطريد ، واعتصم
بمنعتها كل قريب منهم وبعيد ، وظنوا أنها من الله مانعتهم ، وأن كنيستها الى الله
شافعتهم فلما نازلها الخادم رأى بلدا كبلاد ، وجمعا كيوم التناد ، وعزائم قد
تألفت وتألبت على الموت فنزلت بعرصته ، وهان عليه مورد السيف وأن تموت بغصته ،
فزاول البلد من جانب فاذا أودية ، ولجج وعرة غريقة (هكذا) ، وسور قد انعطف عطف
السوار ، وأبرجة قد نزلت مكان الواسطة من عقد الدار ، فعدل الى جهة أخرى كان
للمطامع عليها معرج ، وللخيل فيها متولج ، فنزل عليها ، وأحاط بها وقرب منها ،
وضرب خيمته بحيث يناله السلاح بأطرافه ، ويزاحمه السور بأكتافه ، وقابلها ثم قاتلها ،
ونزلها ثم نازلها ، وبرز اليها ثم بارزها ، وحاجزها ثم ناجزها ، فضمها ضمة ارتقب
بعدها الفتح ، وصدع أهلها فاذا هم لا يصبرون على عبودية الجد عن عتق الصفح ،
فراسلوه ببذل قطيعة الى مدة ، وقصدوا نظرة من شدة ، وانتظارا لنجدة ، فعرفهم في
لحن القول ، وأجابهم بلسان الطول ، وقدم المنجنيقات التي تتولى عقوبات الحصون
عصيها ، وحبالها ، وأوتر لهم قسيها التي تضرب فلا تفارقها سهامها ، ولا يفارق
سهامها نصالها ، فصافحت السور باكفانه ، فاذا سهمها في ثنايا شرفاتها سواك ،
وقدم النصر نسرا من المنجنيق يخلد اخلاده الى الارض ويعلو علوه الى السماء ، فشج
مرادع أبراجها ، وأسمع صوت عجيجها ، ورفع مثار عجاجها ، فأخلى السور من السيارة ،
والحرب من النظارة ، فأمكن النقاب أن يسفر الحرب النقاب ، وأن يعيد الحجر الى
سيرته من التراب ، فتقدم الى الصخر فمضغ سرده بأنياب معوله ، وحل عقده بضربه

الاخرق الدال على لطافة أنطه ، وأسمع الصخرة الشريفة حنينه واستغاثته ، الى أن كادت ترق لمقبله ، وتبرأ بعض الحجارة من بعض ، وأخذ الخراب عليها موثقا فلن تبرح الارض ، وفتح في السور باب سد من لجاتهم أبوابا ، واخذ نقب في حجره قال عنده الكافر : يا ليتني كنت ترابا ، فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور ، كما يئس الكفار من أصحاب القبور ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور ..." (١) .

يجدر القول ، قبل الشروع في تحليل هذه الرسالة ، أن القلقشندي صاحب "صبح الاعشى" قد تحدث عن بدايات الرسائل الديوانية ، وحصرها في جملة أساليب ، فوجد أنها تبدأ بذكر الديوان العزيز والدعاء للخليفة (٢) ، وقد تكون البداية في صدر الرسالة ، وقد تكون بعد الآيات التي تستهل بها الرسالة .

وكما هو واضح ، تبدأ هذه الرسالة بالدعاء للديوان العزيز ، ثم تنقل البشرى بالفتوحات ، وما جرى فيها من أحداث انتهت بتسليم الفرنج وطردهم . وخلال ذلك يعرض الفاضل أحوال المسلمين قبل الفتح وبعده ، لتظهر قيمة الفتح والفاتح ، ومن هنا ندرك أن هذه الرسالة ، وغيرها من الرسائل الديوانية ، ملتزمة بطرائق معينة .

والرسالة تدور حول مضمون واحد هو معركة حطين وفتح القدس ، وقد ضمن القاضي الفاضل رسالته عدة أفكار ، هي : الدعاء للديوان ثم شرح حال المسلمين قبل الفتح وبعده ، ثم وصف الاحداث التي أدت الى الفتح ، ووصف خروج الفرنج ... على أن البارز في الرسائل الديوانية عامة ، ومنها هذه الرسالة ، الميل الى التصوير والتشخيص ، والاكثار من البديع ، والجنوح الى التكرار .

أما مصادر الصور في هذه الرسالة فهي :

١ . دينية :

ومن ذلك قوله : وتلاقت على الصخرة قبلهم ، وشفيت بها وان كانت صخره كما تشفى بالماء غللهم ، وقوله : " وكان اليوم مشهودا ، وكانت الملائكة شهودا ، وكان الكفر مفقودا ، وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا .

---

(١) صبح الاعشى ٦/ ٤٩٦ ـ ٥٠٢ .
(٢) المصدر السابق ٦/ ٤٩٦ .

٢ • حربية :

وتتجلى في النص التالي : " ... فكسرهم كسرة ما بعدها جبر ، وصرعهم صرعة لا ينهض معها بمشيئة الله كفر ، وأسر منهم من أسرته السلاسل ، وقتل منهم من فتكت به المناصل ، وأجلت المعركة عن صرعى من الخيل والسلاح والكفار ، وعن انصاف خيل فانه قتلهم بالسيوف الافلاق والرماح الكسار ، فنيلوا بثلو من السلاح ونالوه أيضا بثار ، فكم أهله تقارض الضراب بها حتى عادت كالسراجين ، وكم أنجم رماح تبادلت الطعان حتى صارت كالمطاعين ... النص " وفي النص صور أخرى يمكن الرجوع اليها .

٣ • اجتماعية :

مأخوذة من حياة الناس ، وهي صور متعددة كتعدد مظاهر الحياة الاجتماعية ، فمنها ما هو مأخوذ من البشرى ، ومنها ما هو مأخوذ من البيع والشراء ، ومنها ما هو مأخوذ من العادات الاجتماعية كالسمر واللباس والمصافحة والثأر ... ومنها ما هو مأخوذ من الحياة الزراعية .

٤ • ثقافية :

وتشمل صور التعلم وأدواته كالاقلام والحبر ، والمعلومات التاريخية والمعلومات العلمية كالحديث عن الانواء والكواكب والشفاء والتداوي .

٥ • بيئية :

مأخوذة من الطبيعة كالظل والسحاب والبحر ، والاسد والغابات والرياض ...

وقد مال الكتاب كثيرا الى التشخيص وبث الحياة في الجمادات ، كما فعل القاضي حين صور الصخرة بالقلب الذي حل في جسم الدين ، وهي بذلك تلتقي مع الحجر الاسود ثم صورها بالمرأة المجاهدة التي خلصت نفسها من عصمة الكفر ، كما صور الارض المقدسة كلها بالمرأة الطامث زمن الغزو الصليبي ، وأما بعد استرجاعها فقد تطهرت منهم ، وكذلك صور القوم بالحيوان الشرس الذي يفغر فاه ليفترس عدوه .

على أن جمال التشخيص يتجلى في وصفه لتحصينات القدس ، وما قامت به المجانيق الاسلامية من نقب للأسوار وتحطيمها ، فهو يشبه السور المحيط بالقدس بالسوار المحيط باليد ، وتتخلل هذا السور الابراج المشرفة على المناطق المجاورة ، ثم يذكر نزول صلاح الدين عليها ، وقتاله لها ، وقصفه اياها بالمنجنيقات وأنواع الاسلحة الخفيفة ، فالسهام تصافح السور ، وتدخل في الشرفات كأنها سواك ، والمجانيق تقصف الابراج فتهزها بالصوت وتدمرها بالحجارة ، فيرتفع الغبار ، وتتناثر الحجارة ، ويتبرأ بعضها من بعض ،

ابن الخلال رئيس الديوان ، فسأله : ما الذي أعددت لفن الكتابة من الآلات ، فرد عليه القاضي ــ كما يروي ابن الاثير في كتابه الوشي المرقوم ــ ليس عندي شيء سوى أني أحفظ القرآن ، وكتاب الحماسة ، فقال : في هذا بلاغ ... ثم أمره بملازمته ، ... حتى تدرب بين يديه ثم أمره بحل شعر الحماسة من أوله الى آخره مرتين .. (١) .

وهذا يدل على أن حل الشعر والقرآن والحكم والامثال والحديث أصبح من مستلزمات الكتابة الفنية في العصر الايوبي وما بعده . وفي الرسالة الموردة آنفا اعتمد القاضي على الاقتباس الحرفي والمعنوي ، ومن أمثلة ذلك قوله : " وصدق الله أهل دينه " ، وقوله : " وصدق وعد الله في اظهار دينه على كل دين " (٢) وقوله : " فتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى " (٣) وقوله : وكان اليوم مشهودا وكانت الملائكة شهودا (٤) وجعل الله ضلوع الكفار لنار جهنم وقودا (٥) وظنوا أنها من الله مانعتهم وان كنيستها الى الله شافعتهم (٦) فقبل منهم البذول عن يد وهم صاغرون (٧) وقال الكافر : يا ليتني كنت ترابا (٨) فحينئذ يئس الكفار من أصحاب الدور كما يئس الكفار من أصحاب القبور (٩) ، وجاء أمر الله وغرهم بالله الغرور (١٠) .

---

(١) انظر مجلة الهلال ، العدد التاسع ــ السنة الحادية والثلاثون ، ايلول سنة ١٩٧٣ مقال د . محمد أحمد خلف الله ، عن القاضي الفاضل ص ٤٢

(٢) اشارة الى الآية : " ليُظهرَه على الدّين كلِّه ولو كرِهَ المشركون " . الصف ٩

(٣) = = " وجعل كلمةَ الذين كفروا السفلى وكلمةُ الله هي العليا " . التوبه ٤٠

(٤) = = " ذلك يوم مجموعٌ له الناس وذلك يوم مشهود " . هود ١٠٣

(٥) = = " وأولئك هم وقود النار " . آل عمران ١٠

(٦) = = " وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله " . الحشر ٥٩

(٧) = = " حتى يُعطوا الجزيةَ عن يدٍ وهم صاغرون " . التوبة ٢٩

(٨) = = " ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا " . النبأ ٤٠

(٩) = = " قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفارُ من أصحاب القبور " . الممتحنة ١٣

(١٠) = = " حتى جاء أمر الله وغرّهم بالله الغرور " . الحديد ٥٧

ومن التأثر بالحديث قوله : وكان الدين غريبا فهو الآن في وطنه ، ومن الحكم قوله : ومن طلب خطيرا خاطر ، ومن رام صفقة رابحة تجاسر ، ومن سما لأن يجلي غمرة غامر .

٣ ٠ الطباق :

وهو قليل في هذه الرسالة بالنسبة الى السجع ، ومن أمثلته : تقلص — المبسوط البؤسى — النعمى ، الآخرة — الدنيا ، سواد — بياض ، غابوا — حضر ، كسرة — جبر ... الخ .

٤ ٠ الجناس :

وهو قليل أيضا ، ومن أمثلته : أنواء — أنوار — المراقب — المراقد ، العنان — العيان ... الخ .

أما الاطناب وتكرار المعاني فهما سمتان عامتان في الرسائل الديوانية التي تحمل انباء الفتوحات ، اذ يعبر الكاتب عن الفكرة في عدة جمل ، ويكرر المعنى في أشكال مختلفة ، ولو نظرنا في رسالة القاضي السابقة لوجدنا فيها هذه السمة بوضوح ، فهو يقول مثلا : وكتاب الخادم هذا ، وقد أظفر الله بالعدو الذي تشظت قناته شققا ، وطارت فرقه فرقا ، وفل سيفه فصار عصا ، وصدعت حصاته وكان الاكثر عددا وحصى ، فكلت حملاته وكانت قدرة الله تصرف فيه العنان بالعيان ، عقوبة من الله ليس لصاحب يد بها يدان ... " فالنص كله يدور حول معنى واحد ، وهو ضعف العدو ، وهذا المعنى تكرر من قبل في الفقرات السابقة أيضا ، كما تكرر في الجمل السابقة ، فتكسّر رماحه وطيران فرقه ، وتثلم سيفه ... كلها تعني ضعف العدو .

وما يتسم به أسلوب هذه الرسالة المبالغة ، فقد بالغ القاضي في كل شيء : وهو يزف البشرى ، وهو يصف الفتح ، وهو يصف اندحار العدو وهزيمته ... ، ويمكن للقارئ أن يرجع الى الرسالة ليجد الشواهد على هذه المبالغة ، ونجتزئ هنا فقط ببعض حديثه عن البشرى : " فانها بحر للاقلام فيه سبح طويل ، ولطف الحق للشكر فيه عبء ثقيل ، وبشرى للخواطر في شرحها مآرب ، ويسرى للاسرار في اظهارها مسارب ... "

والمبالغة في التعبير ما جنح اليه كتاب الدواوين عامة في هذا العصر ، ولعل حرص القاضي الفاضل على تعظيم النصر والمنتصر ، من الحوافز التي دفعته الى هذه المبالغة ، ولكنه أفرط ، وافراطه هذا لا يرجع الى تحكم السجع والزخرف اللفظي في كتابته ، فقد كان تمكنه من المادة اللغوية كفيلا بأن يخرجه من قيود البيان التي قد يتعثر بها من هو أقل منه معرفة باللغة " .

أما انفعال القاضي بما يكتب ، فأمر لا ريب فيه ، وهو انفعال يبعثه أولا أنه رجل من الأمة التي ابتليت بالغزو والاحتلال ، ثم استطاعت التخلص منهما ، ويؤ جججه بعد ذلك أن الكاتب لم يكن مجرد رجل عادي من صفوف الناس ، بل كانت له منزلة عند صلاح الدين لا تكاد تدانى ، حتى عده السلطان من صناع النصر في القدس ، والاسلوب الذى اعتمده القاضي في هذه الرسالة ، هو أسلوب شاعرى ينطلق فيه خيال الكاتب ، وتتدفق فيه عواطفه ، كما في أى نص شعرى .

ب . رسالة العماد الاصفهاني الى الديوان العزيز ببغداد بمناسبة فتح طبرية يقول :

" ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون " ، الحمد لله على ما أنجز من هذا الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وعلى أن اجرى هذه الحسنة التي ما اشتمل على شبهها كرام الصحائف ، ولم يجادل عن مثلها في المواقف ، في الايام الامامية الناصرية زادها الله غرا وأوضاحا ووالى البشائر فيها بالفتوح غدوا ورواحا ، ومكن سيوفها في كل مازق ، من كل كافر ومارق ، ولا أخلاها من سيرة سرية تجمع بين مصلحة مخلوق وطاعة خالق ، وأطال أيدى أوليائها لتحمي بالحقيقة حمى الحقائق ، وأنجزها الحق وقذف به على الباطل الزاهق ، وملكها هوادى المغارب ومرامي المشارق ، ولا زالت آراؤها في الظلمات مصابح ، وسيوفها للبلاد مفاتح ، وأطراف أسنتها لدماء الاعداء نوازح .

والحمد لله الذى نصر سلطان الديوان العزيز وأيده ، وأظفر جنده الغالب وأنجده ، وجلا به جلابيب الظلماء وجدده ، وجعل بعد عسر يسرا ، وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا ، وهون الامر الذي ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا ، وخوطب الدين بقوله : " ولقد مننا عليك مرة أخرى " : فالأولى في عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والاخرى هذه التي عتق فيها من رق الكآبة ، فهو قد أصبح حرا ، فالزمان كهيئته استدار ، والحق بمهجته قد استنار ، والكفر قد رد ما كان عنده من المستعار ، وغسل ثوب الليل بما فجر الفجر من أنهار النهار ، وأتى الله بنيان الكفر من القواعد ، وشفى غليل صدور المؤمنين برقراق ماء الموردات البوارد ، أنزل ملائكة لم تظهر للعيون اللاحظة ، ولم تخف عن القلوب الحافظة ، عزت سيما الاسلام بمسومها ، وترادف نصره بمردفها ، وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم تؤو فيها ، فكم أقدم بهيا حيزوم ، وركض فانبعث سحاب عجاج مركوم وضرب فاذا ضربه كتاب جراح مرقوم ، ولولا فان الحروب انما عقدت سجالا ، وانما جمعت رجالا وانما دعت خفافا وثقالا ، فاما سيوف تقاتل سيوفا ، أو زحوف تقاتل زحوفا ، فيكون حد الحديد بيد مذكرا وبيد مؤنثا ويكون السيف في اليد الموحدة يغني بالضربة الموحدة وفي اليد المثلثة لا يغني بالضرب مثلثا ، وذلك أنه في فئتين التقتا ، وعدوتين لغير مودة اعتنقتا ، وان هذه النصرة ان رويت عن ملائكة الله جحدت كراماتهم ، وان رويت عن البشر فقد عرفت قبل مقاماتهم ،

فما كان سيف يتيقظ من جفنه قبل أن ينبهه الصريخ ، ولا كان ضرب يطير الهام قبل ضرب يراه الناظر ويسمعه المصيخ ، فكم قرية كأنها شجرة الموت وبها التاريخ ، وكم طمنة تخر لها هضاب الحديد ولها شماريخ .

والحمد الله الذى أعاد الاسلام جديدا ثوبه ، بعد أن كان جديدا جبله ، مبيضا نصره ، مخضرا نصله ، متسعا فضله ، مجتمعا شمله ، والخادم يشرح من نبأ هذا الفتح العظيم ، والنصر الكريم ، ما يشرح صدور المؤمنين ، ويمنح الحبور لكافة المسلمين ، ويكرر البشرى بما أنعم الله به — من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الاخر الى يوم الخميس منسلخه — وتلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما سخرها الله على الكفار " فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية " ورايتها الى الاسلام ضاحكة كما كانت من الكفر باكية ، فيوم الخميس الاول فتحت طبرية وفاض ري النصر من بحيرتها ، وقضت على جسرها الفرنج فقضت نحبها بحيرتها ، وفي يوم الجمعة والسبت كسر الفرنج الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدى أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة .

وفي يوم الخميس منسلخ الشهر فتحت عكا بالامان ، ورفعت بها أعلام الايمان ، وهي أم البلاد واخت إرم ذات العماد ، وقد أصبحت كأن لم تغن بالكفر وكأن لم تفتقر من الاسلام .
وقد أصدر هذه المطالعة وصليب الصلبوت مأسور ، وقلب ملك الكفر الاسير جيشه المكسور مكسور ، والحديد الكافر الذى كان في الكفر يضرب وجه الاسلام ، قد صار حديدا مسلما يفرق خطوات الكفر عن الاقدام ، وأنصار الصليب وكباره ، وكل من المعمودية عمدته والدير داره ، قد أحاطت به يد القبضة ، وأخذ رهنا فلا تقبل فيه القناطر المقنطرة من الذهب والفضة ، وطبرية قد رفعت أعلام الاسلام عليها ، ونكصت من عكا ملة الكفر على عقبيها وعمرت الى ان شهدت يوم الاسلام وهو خير يوميها ، بل ليس من أيام الكفر يوم فيه خير ، وقد غسل عن بلاد الاسلام بدماء الشرك ما كان يتخللها فلا ضرر ولا ضير ، وقد صارت البيع مساجد هم بها من آمن بالله واليوم الاخر ، وصارت المناصر مواقف لخطباء المنابر واهتزت أرضها لوقوف المسلمين فيها وطالما ارتجت لمواقف الكافر ، والبأس الامامي الناصري قد أمضى مشكاته على يد الخادم حتى بالدني في الكنائس ، وان عز أول الاسلام بحط تاج فارس ، فكم حطت سيوفه في هذا اليوم من تاج فارس ... " (١)

أول ما يلفت النظر في هذه الرسالة أنها تبدأ بآية قرانية ، متلوة بالدعاء للديوان العزيز والسلطان صلاح الدين ، ثم ينتقل الكاتب الى وصف حالة الاسلام قبل الفتح وبعده ، ففتح القدس هو محور الرسالة الذى تدور الاحداث حوله .

وقد انتزع العماد صورة البيانية من الحياة الدينية والاجتماعية ومصادرها ، ومن الطبيعة وأجواء الحرب . ومن السهل على الناظر في الرسالة أن يجد الشواهد على هذه الصور .

---

(١) صبح الاعشى ٥١٧/٦ — ٥٢٠ ، الروضتين ٨٩/٢

والعماد كالقاضي الفاضل ، يعتمد كثيرا على التضمين ،كما في قوله : " وغسل شحوب الليل بما فجر الفجر من أنهار النهار ، وأتى الله بنيان الكفر من القواعد " وفي قوله : "وقد أصدر هذه المطالعة وطلب الصليب مأسور ، وقلب الكفر الأسير جيشه المكسور مكسور ،والحديد الكافر الذي كان في الكفر يضرب وجه الاسلام قد صار حديدا مسلما يفرق خطوات الكفر عن الاقدام ٠٠"

ويطغى البديع على هذه الرسالة كما يطغى على رسائل العماد عموما ، ولو أخذ القارئ أية فقرة لوجد فيها ألوان البديع ، ومنها السجع والاقتباس اللفظي والمعنوي والتضمين ، ومن أمثلة الاقتباس اللفظي قوله : "ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون (١) وقوله : "ولقد مننا عليك مرة أخرى"(٢) وقوله : "فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية" (٣) ٠ ومن الامثلة على حمل الايات القرآنية قول الكاتب : الحمد لله على ما أنجز هذا الوعد ، على نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد (٤) وقذف به على الباطل الزاهق (٥) وجعل بعد عسر يسرا (٦) وقد أحدث الله بعد ذلك أمرا (٧) ما كان الاسلام يستطيع عليه صبرا (٨) ،وأتى بنيان الكفر من القواعد (٩) ، أنزل ملائكة لم تظهر للعيون الاخطلة (١٠) ، وأخذت القرى وهي ظالمة فترى مترفيها كأن لم تؤ وفيها (١١) ، في فئتين التقتا (١٢) ٠٠٠ الخ ٠

---

(١) سورة الانبياء آية ١٠٥ — (٢) سورة طه آية ٣٧

(٣) سورة الحاقه آية ٦٩

(٤) اشارة الى قوله تعالى : "لله الامر من قبل ومن بعد" " الروم ٤

(٥) = = = "بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق" الانبياء آية ١٨

(٦) = = = " فان مع العسر يسرا " الشرح آية ٥

(٧) = = = "لا تدري لعلّ الله يُحْدِثُ بعدَ ذلك أمرا " الطلاق ٦٥

(٨) = = = "قال إنك لن تستطيع معي صبرا " الكهف ٦٧

(٩) = = = "قد مكر الذين من قبلهم ،فأتى الله بنيانهم من القواعد " سورة النحل آية ٢٦

(١٠) = = = "ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة الاف من الملائكة منزلين" سورة آل عمران آية ١٢٤

(١١) = = = "وكذلك أخْذُ ربك اذا أخذ القرى وهي ظالمة " هود ١٠٢

(١٢) = = = "قد كان لكم آيةٌ في فئتين التقتا ٠٠ " آل عمران ١٣

ومن الأمثلة على حل نصوص الاحاديث النبوية ، قوله : فهو قد أصبح حـــرا فالزمان كهيئته ، استدار ٠٠٠ ومن ألوان البديع كذلك ، الطباق ، ويبدو في الالفاظ التالية : مخلوق ــ خالق ، الحق ــ الباطل ، المقارب ــ المشارق ، عسر ــ يســـر الليل ــ النهار ، مذكر ــ مؤنث ، الموحد ــ المثلث ــ ضاحكة ــ باكية ، جديــد جديد (البالي)٠٠٠ الخ .

ومنه الجناس ، ويتمثل في الكلمات التالية : سيرة ــ سرية ، جدد ــ جدد ، استدار ــ استنار ، بُحَيْرتها ــ بحيرتها ، نصره ــ نصله ٠٠٠ (١) .

وأما الاطناب والتكرار ، فاننا نجد منهما ما وجدناه من قبل عند القاضي الفاضل كقول العماد : الحمد لله الذى أعاد الاسلام جديدا ثوبه ، بعد أن كان جديدا حبله مبيضا نصره ، مخضرا نصله ، متسعا فضله ، مجتمعا شمله ٠٠٠ فهذه الجمل تؤدى معنى واحدا هو قوة الاسلام بعد الفتح .

ورغم هذا التشابه في السمات الفنية بين النصين إلا أننا نحس بعض فـــوارق في طريقة التناول ، فالعماد قسم الفتح على الأيام ووصف ما جرى في كل يوم ، ثم أن الجمل التي اعتمدها خاصة في نقل البُشرى ، كانت أقصر من جمل القاضي الفاضــل ، وقد يشعر هذا القصر في الجمل بسرعة الحركة ، ثم إن العماد دخل في موضوع البُشرى مباشرة ، إذ قدم آيات الحمد المرتبطة بالفتح ، بينما أبتدا القاضي الفاضل رسالتـــه بالدعاء للخليفة العباسي ثم لصلاح الدين .

وبعد ، فقد نتساءل : لو سقط اسم كاتب كل من الرسالتين ، هل يمكننـــا أن نتعرف عليه من خلال السمات الفنية لرسالته ؟ .

أغلب الظن أننا لن نستطيع ذلك ، لأن السمات الفنية مشتركة بين الرسالتـــين الى حد بعيد ، والواقع أنني حاولت فعلا ــ حين كنت أقرأ بعض الرسائل في كتـــاب الروضتين ــ أن أردّ هذه الرسائل الى أصحابها فلم أستطع ، لأنني لم أجد الممـــيزات الخاصة التي تضع حدا فاصلا بين رسائل أشهر كتاب الدواوين في هذه الفـــترة : القاضي الفاضل ، والعماد الاصفهاني ، وابن الاثير .

---

(١) انظر وصف العماد لرسالته بمناسبة الفتح ، يقول : وأوردت المعنى البلوغ في اللفظ الوجيز ، ووشحت ووشعت ، وشعبت وأشبعت ، وأطلت وأطلبت ٠٠٠ وأبعدت وأبدعت ، ورصعت وصرعت ، وطابقت وجانست ، ووافقت وآنست ٠٠٠ الفتح ١٢٣

ويقودنا هذا الى مناقشة آراء الذين ذكروا أن القاضي الفاضل ابتكر الطريقة التي سميت " الفاضلية " باسمه ، وهي التي تعتمد على نثر القرآن ، والتشخيص والاكثار من البديع (١) ، فقد تبين أن هذه المميزات الفنية مشتركة عند عدد من الكتاب الذين عنوا بالبديع زمن الفاضل وقبله ، مما يدل على أن القاضي لم يبتكر طريقة خاصة في الكتابة ،وانما كانت شهرته ومشاركته في الاحداث السياسية ، وارتباطه بشخصية صلاح الدين هي التي ساعدت على نسبة هذه الطريقة اليه دون غيره . ومعلوم أن القاضي الفاضل كان كاتبا زمن الدولة الفاطمية ثم زمن الدولة الايوبية ، وهو الذى كتب العهد لصلاح الدين بالوزارة ، لكنه حتى تلك الفترة لم يكن قد اشتهر بعد ،لانه لم يكن قد اضطلع بدور سياسي كبير ، وبقي الامر كذلك ، الى أن تمت الوحدة بين الشام ومصر على يد صلاح الدين ، فتولى تصريف الأمور في مصر في غياب صلاح ، وكان على اتصال دائم به ، واعتمد عليه صلاح الدين كثيرا ... واستفاد من قلمه ، حتى قال فيه : "ما فتحت البلاد بالعساكر ، وانما فتحتها بقلم القاضي الفاضل"(٢) .

ويمكننا القول ، إن رسائل القاضي الفاضل رسائل سياسية فكرية وجدانية تتصل بأعمال صلاح الدين وحياته اتصالا وثيقا ، بينما تقتصر رسائل العماد وابن الاثير على مراسلاته الرسمية " دون غيرها .

جـ- رسالة الملك المنصور قلاوون الى اليمن مبشرا بفتح " صافيثا " من انشاء محيي الدين بن عبد الظاهر ، يقول الكاتب :

" أعز الله تعالى نصرة المقام العالي ، المولوى ، السلطان الملكي المظفرى الشمسي ، وأشركه في كل بشرى تشد الرحال لاستماعها ، وتحل الحبى لاستطلاعها وتتهادى التواريخ والسير على استرقاعها ، وتتنافس الاقلام والسيوف على الافهام بأجناسها وأنواعها ، ولا خلا موقف جهاد من اسمه ، ولا مصرف أجر من قسمه ، ولا غرض هناء من سهمه ، ولا أفق ابتهاج من بزوغ شمسه وطلوع نجمه ، سطر الملوك هذه البشرى والسيف والقلم يستمدان : هذا من دم وهذا من نقس ، ويمضيان هذا في رأس وهذا في طرس ، ويتجاريان : هذا بالصليل ، وهذا بالصرير ، ويتناوبان : هذا يستميل وهذا يستمير ، وكل منهما ينافس الآخر على المشافهة بخبر هذا الفتح الذى

---

(١) انظر الخريدة ١/ ٣٥ ، خزانة الادب ، ٢٤٠ ، الروضتين ١/ ٢٤٢ ، الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي ص ١٥٩ - ١٦٠ ، أدب الحروب الصليبية ١٨٥ ، أمير شعراء المشرق ، ابن نباته المصري ص ٩١

(٢) مرآة الزمان ٨/ ٤٧٢

سمتْ اليه همم الملوك الاوائل ، ولا وسمت به سيرهم التي بدت أجيادها من حـلاه عواطل ، ولا دار في خَلَدٍ أن مثله يتهيأ في المدد الطويلة ، ولا تشكل في ذهن أنه سيدرك بحول ولا حيلة ، وهو النصر المرتب على حركتنا التي طوى الله لركابنا فيهـا المراحل وألقى بحور عساكرنا من بحر الحديد المالح الى الساحل ، وهجومنا على البلاد الفرنجية : وهي طرابلس وصافيثا وأنطرسوس ومرقية والمرقب ، كما يهجم الليث ، وهطلهنا صدورها كما يصدم الليث ، وسلوكنا منها حيث لم يبق حيث ، وما جرى فـي هذه الوجهة من اغارات أحسنت تقلب الأعنة ، وتسليق السيوف وتحرق الاسنة ، ومـا تهيأ منها من فتوح صافيتا التي هي أم البلاد ، ومفتاح الخاصر والبادي ، وكونهـا قدمت نفسها في جملة ما يقرى به الضيف ، وقالت : هذا فتوح حضر على هذا الفتـوح لهذا السيف ، وتلطفت في مسح أطراف الامان ، وطلبت شكرا ومنا شكران ، وأحضرت الينا من أهلها الوقت وهدت السيوف في أعناقهم فتشبهت بها الاغلال ، وأنفت أيمان أهـل الايمان من مصافحتهم لأنهم أصحاب الشمال ، فأطلقهم سيفنا وأقله يمتد الى من هـو أعز منهم مالا ، وأكثر احتفالا ، وأبز مالا ، وأعز سيوفا قصارا ورماحا طولا ، واستطار منها شرار نار الحرب الموقدة الى غيرها من القلاع ، واستطال الى سواها من الحصون منهم الباع فلا حصن الا وافترت ثنيته عن نصر مسهل ، وفتح معجل ومؤجل ... الخ (١) .

بدأت هذه الرسالة بالدعاء لمقام المرسل اليه ، كتلك الرسائل السابقة ، ويجـد القارئ في هذه ما وجدناه في تلك من سمات فنية ، فالسجع ملتزم به من أول الرسالة الى آخرها ، والطباق والجناس يشكلان عنصرا مهما من عناصر البيان فيها ، ولكن اعتمـاد الكاتب على حل القرآن والشعر أقل في هذه الرسالة مما هو في الرسالتين السابقتـين ، وقد اكثر الكاتب من استعمال التشخيص ، فبعث الحياة في السيف والقلم ، وأنشـأ مفاضلة بينهما على ما هو معهود في هذا العصر من مناظرات بين السيف والقلم ، ومنهـا مناظرة طويلة بينهما لجمال الدين بن نباته المصري (٢) .

ومن التشخيص كذلك وصفه لحصن الاكراد بأنه انسان متكبر يستطيع أن ينزل ضربته بالشام وقت ما يشاء ، ثم يصوره بأنه مقر للصقور ، ومربض للأسود ، يقول : " فمن ذلك حصن الاكراد الذي تاه بمحالفه على الممالك والحصون ، وشمخ بأنفه عن أن يمتد الى مثله يد الحرب الزبون ، وغدا جاذبا بضبع الشام ، وآخذا بمخانق بلاد الاسلام ، وشللا في يد البلاد ، وشجا في صدر العباد ، تنقض من عشه صقور الاعداء الكاسرة ، وترتاع من سطوتها قلوب الجيوش الطائرة ، وتربض بأرباضه آساد تحمي تلك الاجام ، وتفوق من تسنّه سهام تصمي مفوقات السهام ، تعطيه الملوك الجزية عن يد وهم صاغرون ، ويصطفي كرام أموالهم وهم صابرون لا مصابرون .... وله مدن حوله خمس هو كالراحة وهـي

---

(١) صبح الأعشى ٧/ ٣٥٤ ـ ٣٥٥

(٢) انظر المناظرة في كتاب : الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي ص ٧٩

كالانامل ، وتكاد بروجه ترى كالمطايا المقطرة وهي منها بمنزلة الزوامــــل ... الخ

وفي الرسالة أيضا تشخيص لأدوات الحرب من مجانيق ورماح وسهام يقول : ونصبنا عليها عدة مجانيق حملت في شواهق الجبال ، على رؤوس الأبطال ، فتغيظت السمهرية أن الذى تقوم به هذه ، تلك به لا تقوم ، وأن ما منها إلا له من الأيدي والرؤوس مقام معلوم ، وصار يرمي بها كل كمي مختلس ، وأروع منتهس ، وكل ليث غابة يحميها وتحميه ، فشكراً لأسود حتى غاباتها تفترس ، الى أن جثت أسوارها على الركب ، وكانت سهام مجانيقها تميل من العجب فصارت تميد من التعجب ، وكانت تطلب فصارت تهرب من الطلب ... (١) .

* * *

هذا نمط من الرسائل الديوانية ، وهناك أنماط أخرى تتميز عن هذا النمط بسمة أو أكثر من السمات ، نظرا لاختلاف الموضوع أو اختلاف الكاتب .

أما اختلاف الكتاب فالمقصود فيه انتماؤهم الى كتاب الدواوين أو عدم انتمائهم وذلك لأن كتاب الدواوين تجمع بين رسائلهم سمات عامة مشتركة : كالسجع ، والتشخيص وحل القرآن والشعر ... الخ ، في حين أن الكتاب الآخرين قد لا يقيدون أنفسهم بقيود الزخارف اللفظية ، ولا يعنونها بالبحث عن الالفاظ والصور .

ومن الامثلة على ذلك رسالة السلطان الملك المعظم تورانشاه الى الامير جمال الدين موسى بن يغمور نائبه بدمشق يبشره بهزيمة الفرنج عن دمياط . يقول :

" الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن ، وما النصر الا من عند الله ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

يبشر المجلس السامي الجمالي ، بل يبشر الاسلام كافة بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين ، فانه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره ، ويئس العباد من البلاد ، والاهل والاولاد ، فنودوا لا تيأسوا من روح الله .

ولما كان يوم الاربعاء مستهل السنة المباركة تمم الله على الاسلام بركاتهــــا فتحنا الخزائن ، وبذلنا الاموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان والمطوعة ، واجتمع خلق لا يحصيهم الا الله تعالى ، فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق ولما رأى العدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع الاتفاق بينهم وبين الملك الكامل فأبينا .

---

(١) صبح الأعشى ٧/ ٣٥٥ـ٣٥٦ ، وانظر رسالة أخرى زمن الأشرف خليل تحمل السمات نفسها ، صبح الأعشى ٧/ ٣٦٨ .

ولما كان الليل تركوا خيامهم وأموالهم وأثقالهم ، وقصدوا دمياط هاربين ، فسرنا في آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ، ويدخل بهم الخزي والويل . فلما أصبحنا نهار الاربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولا حرج ، والتجأ الفرنسيس الى المنية ، وطلب الامان ، فأمناه وأخذناه ، وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط بعون الله تعالى وقوته وجلاله وعظمته . " (١) .

فاذا ما قارنا بين هذه الرسالة والرسائل الديوانية السابقة نجد وجه التشابه اتكاءها جميعا على المادة القرآنية الى حد الاقتباس الحرفي .

فهي تبدأ بجملة آيات من سور مختلفة : " الحمد الله الذى أذهب عنا الحزن"(٢) "وما النصر الا من عند الله"(٣) ، "ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم"(٤) ،"وأما بنعمة ربك فحدث"(٥) ، "وإنْ تعُدّوا نعمة الله لا تحصوها" (٦) ، ومن الاقتباسات المعنوى قوله :" فنودوا لا تيأسوا من روح الله"(٧) ، وقوله : "فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق"(٨) ..

ولكنّ مع هذا التشابه اختلافا واضحا في نواح أخرى بين هذه الرسائل فالسجع في الرسالة الأخيرة قليل ، ويأتي دونما جهد وطلب شديد ، ويمكن حصره في أماكن محدودة : " ويشى العباد من البلاد والأهل والأولاد "، " فجاءوا من كل فج عميق ، ومن كل مكان بعيد سحيق " .

---

(١) نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١٠١

(٢) سورة فاطر آية ٣٥

(٣) سورة آل عمران آية ١٢٦ والأنفال آية ١٠

(٤) سورة الروم آية ٥

(٥) سورة الضحى آية ١١

(٦) سورة النحل آية ٧

(٧) اشارة الى قوله تعالى :"ولا تيأسوا من روح الله ،إنه لا ييأسُ من روْح الله إلاّ القوم الكافرون"، سورة يوسف آية ٨٧

(٨) اشارة الى قوله تعالى :"وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر، يأتين من كل فج عميق"،سورة الحج آية ٢٧

" وقصدوا دمياط هاربين ، فصرنا في آثارهم طالبين ، وما زال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ، ويدخل بهم الخزي والويل " ، " ... غير من ألقى نفسه في اللجج وأما الاسرى فحدث عن البحر ولا حرج ... ".

وثمة اختلاف آخر ، وهو ما تتسم به هذه الرسالة من سهولة الألفاظ وبساطة المعاني ، وقلة الصور البيانية ، دون أن ينشأ عن ذلك ضحالة في المعاني . فالرسالة تعرض ما جرى في دمياط من قتال مع الفرنج ، وتصور الحالة النفسية التي كان عليها المسلمون ، من ذعر استشعروه في البداية ، ثم من ثقة ، استطاع السلطان أن يعيدها الى نفوسهم بعد ذلك ، كما تصور حالة الفرنج النفسية قبل المعركة الحاسمة وبعدها ، مع ما رافق هزيمتهم من شعور المسلمين بالتشفي ، والحديث عن العدو بزراية وسخرية وكل ذلك في إطار أسطر قليلة .

واذ يختلف اسلوب النص باختلاف كاتبه ، فإنه يختلف كذلك باختلاف موضوعه . وقد وضع شهاب الدين محمود نمطا عاما للرسائل ، وطلب من الكتّاب التقيد به ، فهو يقول : " ومما يتعين على الكاتب استعماله والمحافظة عليه ، والتمسك به ، اعطاء كل مقام حقه ، فاذا كتب في أوقات الحروب الى نواب الملك عنه والى مقدمي الجيوش والسرايا ، فليتوخ الإيجاز والألفاظ البليغة الدالة على القصد من غير تطويل ولا بسط يضيع المقصد ، ويفصل الكلام بعضه عن بعض ، ولا تهويل لأمر العدو يضعف القلوب ، ولا تهوين لأمر يحصل به الاغترار ... واذا كتب عن الملك في أوقات حركات العدو الى أهل الثغور يعلمهم بالحركة للقاء العدو ، فليبسط القول في وصف العزائم ، وقوة الهمم وشدة الحمية الدين ، وكثرة العساكر والجيوش ، وسرعة الحركة وطي المراحل ... ويبرزه في أمتن كلام وأجلّه ، وأمكنه وأقربه من القوة والبسالة ، وأبعده من اللين والرقه ... " (١) ، وهذا ما لاحظه القلقشندي فيما بعد ، اذ يقول : " واعلم أن الكتابة في فتوحات بلاد الكفر ومعاقلهم والاستيلاء على بلاد البغاة تكاد تكون على نسق واحد إلا ان مجال الكاتب في فتوحات بلاد الكفر أوسع ، من حيث عزة الاسلام على الكفر ، وظهور دينه على سائر الاديان " (٢) .

ومن الموضوعات التي برزت في الرسائل الديوانية التحريض والتوبيخ والرد على التهديد ....

ومثال التحريض ما كتبه الشيخ بدر الدين حبيب الحلبي الى أصحاب الثغور في طرابلس ، عند ظهور الفرنج في بحر تلك المنطقة ، يقول : " المرسوم بالامر العالي أعلاه الله تعالى ، لا زالت مراسمه النافذة تبلغ أهل العصابة المحمدية غاية الآمال ،

---

(١) نهاية الأرب جـ ٧ ص ١٨٩ ـ ١٩٠ ، وانظر حسن التوسل الى صناعة الترسل ص١٣٤

(٢) صبح الأعشى جـ ٨ ص ٢٧٨

وأوامره المطاعة تقضي بكسر اللوسارية وشين الشوال ، أن تتقدم العساكر المنصورة بالمملكة الطرابلسية أيد الله تعالى عزائمهم القاهرة ، وأذل بسيوفهم الطائفة الكافرة ، بارتداء ملابس الجهاد ، والتحلي بحرارة الصبر على اجتلاء الجلاد ، وأن يجيبوا داعي الدين ، ويكفوا أيدي المعتدين ، ويفوقوا سهامهم ويجعلوا التقوى أمامهم ، ويشرعوا رماحهم ، ويحملوا سلاحهم ، ويومضوا بروق السيوف ، ويرسلوا نبال الحتوف ، ويهدموا بنيان الكفار ، ويطلعوا أهلة القسي بمد الاوتار ، ويهضموا جانب أهل العناد ، ويقابلوا البحر بسيل بحر من الجياد ، ويناظروا أمواجه بأمواج النصال ، ويقاتلوا الفرقة الفرنجية أشد القتال ، ولا يمهلوهم بالنهار ولا بالليل ، ويعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، وينوروا بمصابيح الرباط في سبيل الله ظلام الدجنة ، وأن يصابروا ويصبروا فاذا استنفروا فلينفروا ، ويبالغوا في الغدو والرواح ليبلغوا الرعية من الأمن أمانيها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : " لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها " ويعتمدوا القريب المجيب ويجتهدوا في كسر أصلاب أهل الصليب ، وينافسوا في أمر الاخرة ، ويدعوا الدنيا ، ويقاتلوا لتكون كلمة الله هي العليا ، ويشهد المواقف ويبذلوا التالد والطارف ، وليبرز الفارس والراجل ، ويظهر الرامح والنابل ، فان الجهاد سطوة الله تعالى على ذوي الفساد ، ونقمته القائمة على أهل الشرك والعناد ، وهو من الفروض الواجبة ، التي لم تزل سهام أصحابه صائبة ، فواظبوا على فعله ولا تذهبوا عن مذاهبه وسبله ، واطلبوا اعداء الله برا وبحرا ، وقسموا بينهم النكات قتلا وأسرا ، وفاجئوهم بمكروه الحرب ، وناجوهم برسائل الطعن والضرب ، وخذوا من الكفار باليمين ، وجدوا في تحصيل الربح الثمين ، ولازموا النزول بساحل البحر لمنازلة الطغاة المشركين " يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين " وسابقوا الاعنة ، وهزوا أعطاف الأسنة ، وشمروا عن ساق العزائم ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، واتخذوا الخيام مساكن ، واجعلوا ظهور الخيل لكم مواطن ، وانصبوا الألوية والأعلام ، واتقوا جمرة الشرذمة المائلة للاسلام ، ولا تخشوا من جمعهم الائل الى التفريق ، وحشدهم الذى هو عما قليل إن شاء الله تعالى غريق ، ولا تعبأوا بسفنهم البحرية ، فان سفنكم الخيل المخلوقة من الرياح ، ولا تنظروا الى مجاذيفهم الخشبية ، فان مجاذيفكم السيوف والرماح فاقلعوا قلوبهم ، وشتتوا جموعهم ، وأذهبوا الجنف والحيف ، وخاطبوهم بألسنة السيف ، وأوقدوا في قلوبهم بالتحصين والاحتراز نارا ، وادعو الله أن لا يذر على الارض من الكافرين ديارا ، ونكسوا صليبهم المنصوب ، وبادروا الى حرب حزبهم المغلوب ، وارتموا باليقين شك هذه المحنة ، وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، واهجروا في ذات الله طيب المنام ، وانقلوا الاقدام الى الاقدام ، واكشفوا عنكم أستار الضلال والملام ، واهتموا بما يعلي كلمة الاسلام والسلام ، ليرفعكم الله الى منازل العز والتمييز ، " ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز " (١)

---

(١) صبح الاعشى ٨/ ٢٥٠ ـ ٢٥١

ويتبين من الرسالة أنها " مرسوم " بالحركة لمواجهة الفرنج الواصلين بالبحر ، ويحرض لاستئصال شأفة الفرنج ، فجاءت قوية الجرس شديدة الوقع وكأنها خطبة قائد في جنده قبيل المعركة - وتشترك هذه الرسالة مع الرسائل السابقة في معظم السمات الفنية ، وتتميز عنها بشدة الوقع لاختلاف الموضوع ، فالسجع فيها سمة بارزة تتراءى في الرسالة جميعها ، وكذلك الجناس والاقتباس بنوعيه الحرفي والمعنوي ، ثم التكرار والاطناب ، من أجل زيادة التأثير ، وشحن النفوس بالانفعالات المحركة .

ومع أن هذه الصفات مشتركة في الرسائل الديوانية ، إلا أن هذه الرسالة تتميز بالحرارة الشديدة ، والانفعال القوي ، وقد جاءت عباراتها قصيرة ، وألفاظها قوية موحية بالحركة ، واقتباساتها مرتبطة بموضوع القتال والجهاد .

وقريب من هذه الرسالة رسالة شهاب الدين محمود التي يقول فيها :
" أصدرناها ومنادي النفير قد أعلن : يا خيل الله اركبي ، ويا ملائكة الرحمن اصحبي ما وفود التأييد والظفر اقربي ، والعزائم قد ركضت على سوابق الرعب الى العدى ، والهمم ... الى عدو الاسلام لو كان في ... ما بينها وبينه من مدى ... " .

فهي رسالة الى مقدم سرية كشف ، يطلب فيها أن يكون خفيفا سريعا ، فجاءت الرسالة قصيرة في حجمها وفي جملها ، مثيرة في أصواتها وايحاءاتها ...

ومثال التهييج والتقريع رسالة القاضي محي الدين بن عبد الظاهر الى ملك الفرنج في طرابلس وانطاكية ، يقول " :

" قد علم القومص الجليل ... ألهمه الله رشده ، وقرن بالخير قصده وجعل النصيحة محفوظة عنده ، ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمائر وهدم الأعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من على بساط الارض ، ودارت الدوائر على كل دائر ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الاجساد على ساحل البحر كالجزائر ، وكيف قتلت الرجال واستخدمت الاولاد وتملكت الحرائر ، وكيف قطعت الاشجار ولم يترك إلا ما يصلح لأعواد المجانيق - ان شاء الله تعالى - والستائر وكيف نهبت لك ولرعيتك الاموال والحريم والاولاد والمواشي ، وكيف استغنى الفقير وتأهل العازب واستخدم الحريم وركب الماشي ، هذا وأنت تنظر نظر المغشي عليه من الموت ، واذا سمعت صوتا قلت فزعا : علي هذا الصوت ، وكيف رحلنا عنك ... الا لأجل معدود ، وكيف فارقنا بلادك وما بقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ... جارية ، ولا سارية إلا وهي بين أيدي المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود إلا وهو منك مفقود ، وما منعت تلك المغاير التي هي في رؤوس الجبال الشاهقة ، ولا ... ولم يصبها الى

مدينتك انطاكية خبر ،وكيف وصلنا اليها وأنت لا تصدق أننا نبعد فسنعود على الأثر ، وها نحن نعلمك بما تم ، ونفهمك بالبلاء الذى عم ؛ كان رحيلنا عنك من طرابلس يوم الاربعاء ، ونزولنا انطاكية في شهر رمضان ، وفي حال النزول خرجت عساكرك للمبارزة وتناصروا فما نصروا ،وأسر من بينهم كند اسطبل، فسأل في مراجعة أصحابك ، فدخل الى المدينة ،فخرج هو وجماعة من رهبانك : وان رأيهم في الخير مختلف ، وقولهم في الشر واحد ، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفوت ،وأنهم قد قدر الله عليهم الموت ، رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم نحاصر ، وهذا هو الاول في الانذار والاخر ، فرجعوا به متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، ففي بعض ساعة مرّ شأن المرشان ، وداخل الرهب الرهبان ، ولان للبلاء القسطلان ، وجاءهم الموت من كل مكان ، وفتحنا بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شئ من الدنيا فما بقي أحد منا الا وعنده شئ منهم ومنها ، فلو رأيت خيالتك وهي صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهابة فيها تصول ، والكسابة فيها تجول ، وأموالك وهي توزن بالقنطار، وداماك وكل أربع منها تباع فتشرى من مالك بدينار ... ولو شاهدت النيران وهي في قصورك تخترق والقتلى بنار الدنيا قبل الاخرة تحترق ، وقصورك وأحوالها قد حالت وكنيسة بونصر وكنيسة القسيان وقد زلت كل منهما وزالت ــ لكنت تقول : يا ليتني كنت ترابا ، ويا ليتني لم أوتَ بهذا الخبر كتابا ، ولكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولكنت تطفيء تلك النيران بماء عبرتك ، ولو رأيت مغانيك وقد أقفرت ،ومراكبك وقد أخذت في السويدية بمراكبك ، ولصارت شوانيك من شوانيك ، ولتيقنت انّ الإله الذى انطاك انطاكية منك استرجعها ،والرب الذى اعطاك قلعتها منك قلعها ومن الارض اقتلعها " (١)

فهي رسالة يقصد منها القضاء على الروح المعنوية عند العدو ،بما احتوت عليه من تهكم وتوبيخ وتقريع ، وتذكير بالهزائم ، وقد اتبع الكاتب في رسالته عدة وسائل لارهاب العدو ، والقضاء على إرادة القتال عنده ، منها تذكيره بالافعال السابقة التي قام بها الجيش الاسلامي في الارض التي كان يسيطر عليها الفرنج ، ومنها الاستهزاء به وبجيشه ، والمن عليه باطلاق سراح الرهبان ، بعد ما ذاقوا الخوف المريع الذى هو أشد من القتل ، ومنها التشفي بما أصابهم من ويلات ،ويرافق ذلك كله اظهار قوة المسلمين ،وسيطرتهم على الاعداء في جميع المجالات .

---

(١) صبح الأعشى ٨/ ٢٩٩ ــ ٣٠١

ومع ان هذه الرسالة موجهة الى الفرنج الا انها مسجوعة كالرسائل السابقة ، بل ان فيها من الجناس ما لم يوجد في بعض الرسائل ، وذلك لان السجع قد أصبح سمة فنية استحكمت في الادب عامة في هذه الفترة .

ومن السمات الفنية المشتركة الاخرى ، تكرار المعاني وحل الآيات القرآنية ...
على ان الناظر في الرسالة لن تفوته ملاحظة إنها كتلة انفعالات متأججة ، يمتزج فيها الاستهزاء بالتوبيخ والتهكم ، وقد اعتمد الكاتب في اظهار هذه الانفعالات على الاستفهامات الكثيرة ، في جمل تتراوح بين الطول والقصر حسب طبيعة الانفعال ففي التشفي تطول الجمل مثل قوله : قد علم القومص ... ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له في عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمائر وهدم الاعمار ، وكيف كنست تلك الكنائس من على بساط الارض ودارت الدوائر على كل دائر ، وكيف جعلت تلك الجزائر من الاجساد على ساحل البحر كالجزائر ... " وفي التوبيخ والتقريع تقصر الجمل وتشتد حتى تصبح كالسياط الشديدة اللاذعة ، ومن ذلك قوله : وأخرناك وما كان تأخيرك الا لاجل محدود ، وكيف رحلنا عنك رحيل من يعود وكيف فارقنا بلادك وما ابقيت فيها ماشية إلا وهي لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهي في ملكنا جارية ... الخ .

ويمثل الرد على رسائل العدو رسالة بهاء الدين زهير التي كتبها بناء على طلب الملك الصالح نجم الدين أيوب ، ردا على رسالة الملك لويس التاسع ملك فرنسا ، يقول فيها :

" أما بعد ، فانه وصل كتابك ، وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك وعدد أبطالك ، فنحن ارباب السيوف ، وما قتل قرن منا إلا جددناه ، ولا بغى علينا باغ الا دمرناه ، فلو رأت عيناك — أيها المغرور — حدّ سيوفنا ، وعظم حروبنا ، وفتحنا منكم الحصون والسواحل ، وأخرابنا منكم ديار الاواخر والاوائل ، لكان لك أن تعضّ على أناملك بالندم ، ولا بد ان تزل بك القدم ، في يوم أوله لنا وآخره عليك ، فهنالك تسوء بك الظنون ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون ، فاذا قرأت كتابي هذا فكن فيه على أول سورة النحل " أتى أمر الله فلا تستعجلوه " وكن على آخر سورة ص : " ولتعلمن نبأه بعد حين " ونعود الى قول الله تبارك وتعالى ، وهو أصدق القائلين : " كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين " (١)

ويلاحظ أنها رسالة قصيرة ، تحمل قوة التحدي والتهديد ، وقد استلزمت حرارة الظرف الذي كتبت فيه ان تقل فيها المحسنات نسبيا ، إلا ما كان من سجع واقتباس بالرغم من قصر الرسالة ، وقد ساعد هذا القصر على اكتناز الحرارة فيها ، كما ساعد على ذلك طبيعة الموضوع ومقتضياته ...

---

(١) السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٤٧

الرسائل الاخوانية :

تختلف الرسائل الاخوانية عن الديوانية باصطباغها بالصبغة الشخصية ، وهي لذلك تعتمد على التأثير الوجداني على المرسل اليه ، ولا تقتصر على الشؤون العامة للدولة .

ومن أمثلة الرسائل الاخوانية رسائل القاضي الفاضل الى صلاح الدين حين شدد الفرنج حصارهم على عكا سنة ٥٨٦ هـ ، ومنها قوله :

" وما تجدد للعدو من الشروع في آلات الحصار لعكا ، وما أرجف به من النجدتين الفرنجيتين ، الواصلة والبعيدة ، وافتراق العساكر في هذا الوقت للضرورة والتماس العسكر الشرقي الدستور للضجر ، وحاجة المولى من الإنفاق الى ما لا يسعه التدبير ، ويضيق عنه الإمكان ، ومطالبة الغني بالزيادة مع الغنى والضعيف بأكثر مما يحتاج اليه ، وضياع فرصة ، واختلاف رأي بين المتشاورين من الجماعة ، وجود الالسنة بالاراء ، وبخل الايدي بالمعونة ، وانفراد المولى بالتعب ، واشتراك الناس في الراحة ، وما ابتلى به المسلمون من مرض أظهروه ليكون عذرا لهم في القعود ، وكتمه المولى على نفسه لئلا يجلب لأصحابنا ضعف النفوس ، فهذه الأمور وإن كانت شدائد ، وزائدات على الشوائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن الصبر ، ليشعره أن صبره يعقبه النصر ، وحسبته يعقبها الاجر ، ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا أكمل القوى، وعروة عزمه أوثق العرى، لما أهّله لأن ينصر ملة لا يعرف الملوكُ غيرَ الله ينصرُها ، وغير مولانا يباشرُ النصرةَ ويحضرها ، فليس إلا التجرد للدعاء ، والتجلد للقضاء ، فلا بدّ من قدر مفعول ، ودعاء مقبول ، ومن الأمثلة المنظومة :

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا   يوم الهياج ، وان علوا لم يضجروا

معاذ الله أن يفتح علينا البلاد ثم يغلقها ، وان يسلم على يدينا القدس ، ثم ينصره ، ثم معاذ الله ان نغلب على الصبر ، واذا كان ما يقدم الله اليه المماليك قبل المولى لا بد منه ، وهو لقاء الله ، فالآن نلقاه والحجة لنا ، خير من أن نلقاه والحجة علينا ، فلا تعظم هذه الفتوق على مولانا فتبهر صبره ، وتملأ صدره ، فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون ، والله معكم ، وهذا دين ما غلب بكثرة ولا نصر بثروة ، انما اختار الله تعالى له أرباب نيات ، وذوي قلوب معه وحالات ، فليكن المولى نعم الخلف لذلك السلف ، لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، واشتدي أزمةُ تنفرجي ، والغمرات تذهب ثم لا تجي ، والله تعالى يُسْمِعُ الأذنَ ما يسرّ القلب ، ويصرف عن الاسلام وأهله غاشية هذا الكرب ، ونستغفر الله العظيم ، فانه ما ابتلى إلا بذنب " (١) .

لقد عرض القاضي الفاضل أسباب ضيق المسلمين ، وتفرقهم ، وتحكم الفرنج وتنفذهم ، ولكنه مع ذلك لم ينس الحرص على رفع الروح المعنوية ، فطلب من السلطان التوجه الى الله بالدعاء ، والتجلد للقضاء ، ليقوي نفسه ونفوس الجند ، وقد راوح

---

(١) الروضتين ٢ / ١٦٦ ــ ١٦٧

الكاتب ما بين الصوت المتعقل الرصين ، ومخاطبة الضمير المؤمن في محاولة التسرية عن صلاح الدين ، فهو يقول : " اذ كيف يفتح الله علينا البلاد ثم يغلقها ، وان يسلم على يدينا القدس ثم ينصره ؟ .. ثم معاذ الله ان نغلب على النصر ، ثم معاذ الله أن نغلب على الصبر ...

وقد انتهج القاضي في عرضه اسلوبا موفقا ، فانتقل من الواقع المؤلم المتمثل في تعداده المنغصات والمثبطات ، الى غرس الثقة في نفس سيده ، واشاعة الطمأنينة في نفسه : " فهذه الأمور وإن كانت شدائد ، وزائدات على العوائد ، فقد ألهم الله مولانا فيها سعة الصدر ، وحسن الصبر ، ليشعره أن صبره يعقبه النصر وحسبته يعقبها الأجر ، ولو لم ير الله تعالى أن قوة مولانا اكمل القوى ، وعروة عزمه أوثق العرى، لما أهله لأن ينصر ملة ، لا يعرف المملوك غير الله ينصرها ، وغير مولانا يباشر النصر ويحضرها ... " كل ذلك بعيد عن التواكل والحزن واليأس والدعوة الى الاستسلام ، " فلا تعظم هذه الفتوق على قلب مولانا فتبهر صبره ، تملأ صدره ... "

وبعد أن عمل على إشاعة الأمل في نفس القائد ، وتقوية عزيمته لتحمل الشدائد صارحه بأن هذه البلوى لم تكن إلا بذنب ، وقد أوضح ذلك في رسالة إخوانية أخرى كتبها في المناسبة نفسها - اى خلال حصار عكا - إذ قال : " المملوك ينهي أن الله تعالى لا ينال ما عنده الا بطاعته ، ولا تفرج الشدائد إلا بالرجوع اليه ، والامتثال لأمر شريعته ، والمعاصي في كل مكان بادية ، والمظالم في كل موضع فاشية ، وقد طلع الى الله تعالى منها ما لا يتوقع بعدها إلا ما يستعاذ منه ، وقد أجرى الله تعالى على يد مولانا من فتح البيت المقدس ما يكون بمشيئة الله له حجة في رضاه ، ونعوذ بالله ان يكون حجة عليه في غضبه ... ولا يتعرض المملوك لتفصيل ما بلغه من ظهور المنكرات في اتباعه ، وشيوع المظالم في ضياعه ... " (١) .

فهو يشخص الداء ، ويهون البلاء ، ويضع العلاج ، الذى هو ازالة المظالم ، واعادة النظر في مراعاة تطبيق الشريعة الاسلامية ، والزام تابعيه بتطبيقها ، كل ذلك دون أن يبعث الغم واليأس في نفس السلطان ، إذ إنه قد أحسن التأني في كل ما عرضه .

ويلاحظ القارئ أن الرسالة تنطلق من الوجدان ، وتعبر عن نفس منفعلة بما تقول ، فلا غرو ان انعتقت من البديع إلا ما جاء عفو الخاطر ، مع أن البديع قد ارتبط بأسلوب القاضي الفاضل الكتابي ارتباطا شديدا خلال هذه الفترة .

---

(١) الروضتين ٢ / ١٦٥ - ١٦٦

والرسالة بعد ذلك تشترك مع الرسائل الاخرى في الاقتباس والتضمين ، ومثاله : " فلا تهنوا وتدعوا الى السلم وأنتم الاعلون " (١) ، ولقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنه " (٢) ومن التضمين قوله : " اشتدي أزمة تنفرجي " ومن الامثال المنظومة قوله :

نحن الذين اذا علوا لم يبطروا يوم الهياج ، وان علوا لم يضجروا

أما مادة الرسالة ، فمصادرها مأخوذة من التاريخ .. والقرآن .. والشعر والأمثال ... وقد عرضت حالة المسلمين النفسية والاجتماعية ، خلال فترة حرجة من جهاد صلاح الدين ضد الصليبيين ، ولهذا فهي ذات قيمة أدبية وتاريخية واجتماعية في آن واحد .

ومن الرسائل الاخرى* ذات الصبغة الديوانية الاخوانية المشتركة ، رسالة الملك الناصر داود الى العز بن عبد السلام يطلب منه فيها أن يحث الملك الصالح نجم الدين أيوب على قتال الفرنج بعد غزوهم لمدينة نابلس . يقول الناصر :

" أحسن الله عزاء المجلس السامي العزّي في مصابه بالمسلمين ، وصبّرنا واياه على ما دهمت به حوزة الدين ، وأثاب الذين استشهدوا بما وعد به الشهداء من رضوانه ، وعوضهم عن منازلهم بمنازل الامن من قصور جنانه ، وسامحنا واياه بما أهملناه من حماية الدين وحفظ أركانه ، وما اعتمدناه من إغفاله وخذلانه ، ولا حول ولا قوة الا بالله قول معترف بتقصيره ، عن جهاد اعداء الله واعداء دينه ، ذاكرا جريمته جهرا بلسانه وسرا بيقينه ، وذلك بمصيبة المسلمين بمدينة نابلس التي قتلت فيها المشايخ والشبان ، وسبيت الحلائل والصبيان ، واستولت يد الكفار على ما كان مدخرا من الاموال والغلال ، وما جمعه المسلمون لازمنتهم في السنين الطوال ، فهو يوم ضرب فيه الكفر بجرانه ، وتبختر تيها بين أنصاره وأعوانه ، وزها على الاسلام برونق زمانه ، وهو اليوم الذي تقابلا فيه فأحجم الاسلام ثم تولى ، واقتسما فيه بالسهمان فكان سهم الكفر هو السهم المعلا ، فيا لها من فجيعة أبكت العيون وأبكت الجفون ، وفجعت على القلوب من أسماعها فود ت لو أنها سبقت بالمنون ، فيا ليتني نبذ ت قبل سماعها مكانا قصيا ، أو ليت ربي لم يجعلني بعباده حفيا ، أو ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا :

ألا ليت أمي أيم طول عمرها فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتها لما قضاها لسيد لبيب أديب طيب الفرع والأصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا فما بشرت يوما بأنثى ولا فحل

---

(١) إشارة الى قوله تعالى : ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون إن كنتم مؤمنين " سورة آل عمران آية ١٣٩

(٢) الآية من سورة الأحزاب آية ٢١

* للمزيد/انظر الروضتين ٢ / ١٦٥ — ١٧٣ وصبح الأعشى ٧ / ٢٣ — ٢٤ وصبح الاعشى ٦ / ٥٢٨

ويا ليتها لما غدت بي حاملا أصيبت بما اجتنت عليه من الحمل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت تشدّ الى الشدقميات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم ولم أر في الاسلام ما فيه من خبل

فيا أيها العزّ الذي كنا نظن أن الاسلام يتزيد بسعيه عزا ، وأن رقى عزائمه تكون عليه من سحر الكفار حرزا ، تيقن أنه قد عم بالشام النفير ، ووجبت الغزاة على الحدث الطرير ، والشيخ الكبير ، وجاز للحرة أن تبرز للقتال بغير اشارة بعلها ، وللامة أن تبارز برمحها ونصلها ، ووجب على المجاورين الاسعاد والانجاد ، وتعين عليهم في طاعة الله الجهاد ، فيا لسان الشريعة ، أين الجدال فيه والجلاد ، وأين مهند لسانك الماضي اذا كلت المهندة الحداد ، أتغمد سيف لسانك في جفنه وقد هجرت سيوف الكفار جفونها ، وأجرت عيون الانام على الاسلام شؤونها الا وان الاسلام بدا غريبا وسيرجع غريبا كما بدا ، وتقاصرت الهمم عن إسعاده حتى لا يرى له مسعدا ، فانا لله قولُ من عزّ عزاؤه في الإسلام وذويه ، وبذل في الدفاع عنه ما تملكه يده وتحتويه ، وصبرا في الله على احتمال الاذى ورؤية جافيه ، والله سبحانه يتلافى الاسلام بتلافيه ، ويحميه بحمايته وحسن نظره فيه ، إنه قريب مجيب (١) " .

ابتدئت الرسالة بالتعبير عن الحزن الشديد ، في معرض اعتراف الحاكم بالتقصير في الدفاع عن الشيوخ والشبان والنساء والصبيان ، وملك هذا الحزن عليه أقطار نفسه حتى إنه تمنى لو لم يولد ... ، ثم استحث العزّ بن عبد السلام على ان يستثير الناس للجهاد ، بعد أن ابتلي الاسلام بما ابتلي به من عدوان . وغني عن البيان أن في الرسالة من السمات الفنية ما في الرسائل الديوانية من سجع وتكرار واقتباس وتضمين ، وغير ذلك من السمات التي اتسمت بها الرسائل في هذا العصر .

٣ . الخطابة

لم يصلنا من الخطب في عصر الحروب الصليبية الا القليل ، مع أن المتوقع أن تروج الخطابة في جو الحروب ، لانها جو مواتٍ لها ، والجدير بالذكر أنه عندما تم فتح القدس ، اجتمع عدد كبير من الخطباء ، وتمنى كل واحد منهم أن يكون له السبق في القاء أول خطبة بعد الفتح ، يقول العماد : "وانتدى الفضلاء ، وانتدب الخطباء ، وكثر المترشحون للخطابة المتوشحون بالإصابة المعروفون بالفصاحة الموصوفون بالحصافة ..." (٢) . وما هذا الفتح — على أهميته — إلا حدث كبير من أحداث أخرى كبيرة

---

(١) الفوائد الجلية والفرائد الناصرية ورقة ٩٤ — ٩٥
(٢) الروضتين ٢/١٠٨

شهدتها الأمة خلال هذه الفترة .

ومن أشهر الخطب التي وصلتنا في هذه الفترة خطبة ابن الزكي في اول صلاة جمعة أقيمت في القدس بعد استعادة المدينة على يد صلاح الدين . وقد ابتدأها بالآيات التي فيها حمد لله ، ثم قال : " الحمد لله معز الاسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ، ومصرف الأمور بأمره ، ومديم النعم بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الايام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ، القاهر فوق عباده فلا يمانع ، والظاهر على خليفته فلا ينازع ، والآمر بما يشاء فلا يراجع والحاكم بما يريد فلا يدافع ، أحمده على اظفاره واظهاره واعزازه لأوليائه ونصره لأنصاره ، وتطهيره بيته المقدس من أدناس الشرك وأوضاره ، حمد من استشعر الحمد باطن سره وظاهر جهاره ، وأشهد أن لا اله الا الله وحده لاشريك له الأحد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه ، وأرضى به ربّه ، وأشهد أن محمدا (صلى الله عليه وسلم) عبده ورسوله رافع الشك ، وداحض الشرك ، وراحض الإفك الذى أسرى به من المسجد الحرام الى هذا المسجد الأقصى ، وعرج به منه الى السموات العلى ، الى سدرة المنتهى " عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى " ، صلى الله عليه وعلى خليفته أبي بكر الصديق السابق الى الايمان ، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان ، وعلى أمير المؤمنين عثمان ذي النورين جامع القرآن ، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب مزلزل الشرك ومكسر الأوثان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم باحسان .

أيها الناس ، ابشروا برضوان الله الذى هو الغاية القصوى ، والدرجة العليا ، لما يسره الله على أيديكم من استرداد هذه الضالة ، من الأمة الضالة ، وردها الى مقرها من الاسلام ، بعد ابتذالها فى أيدي المشركين قريبا من مائة عام ، وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وان يذكر فيها اسمه ، واماطة الشرك عن طرقه بعد ان امتد عليها رواقه واستقر فيها رسمه ، ورفع قواعده بالتوحيد فانه بني عليه ، وبالتقوى فانه أسس على التقوى من خلفه ومن بين يديه ، فهو موطن أبيكم ابراهيم ومعراج نبيكم محمد عليه السلام ، وقبلتكم التي كنتم تصلون اليها في ابتداء الاسلام ، فهو مقر الانبياء ، ومقصد الاولياء ، ومقر الرسل ومهبط الوحي ومنزل تنزّل الأمر والنهي ، وهو في أرض المحشر ، وصعيد المنشر ، وهو في الارض المقدسة التي ذكرها الله في كتابه المبين ، وهو المسجد الذي صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم بالملائكة المقربين ، وهو البلد الذى بعث الله اليه عبده ورسوله ، وكلمته التي ألقاها الى مريم وروحه عيسى الذى شرفه الله برسالته ، وكرمه بنبوته ولم يزحزحه عن مرتبة عبوديته ، فقال تعالى " لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله " وقال : " لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم " ، وهو أول القبلتين

وثاني المسجدين وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين الا اليه ، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه ، ولولا أنكم ممن اختاره الله من عباده ، واصطفاه من سكان بلاده ، لما خصكم بهذه الفضيلة التي لا يجاريكم فيها مجار ، ولا يباريكم في شرفها مبار ، فطوبى لكم من جيش ظهرت على أيديكم المعجزات النبوية ، والوقعات البدرية ، والعزمات الصديقية ، والفتوح العمرية ، والجيوش العثمانية ، والفتكات العلوية ، جددتم للاسلام أيام القادسية ، والوقعات اليرموكية ، والمنازلات الخيبرية ، والهجمات الخالدية ، فجازاكم الله عن نبيه محمد (صلى الله عليه وسلم) أفضل الجزاء ، وشكر لكم ما بذلتموه من مهجكم في مقارعة الأعداء ، وتقبل منكم ما تقربتم به من مهراق الدماء ، وأثابكم الجنة فهي دار السعداء ، فاقدروا رحمكم الله النعمة حق قدرها وقوموا لله تعالى بواجب شكرها ، فله النعمة عليكم بتخصيصكم بهذه النعمة ، وترشيحكم لهذه الخدمة ، فهذا هو الفتح الذى فتحت له أبواب السماء ، وتبلجت بأنواره وجوه الظلماء ، وابتهج به الملائكة المقربون ، وقرّ به عيناً الانبياء والمرسلون ، فماذا عليكم من النعمة بأن جعلكم الجيش الذى يفتح عليه البيت المقدس في آخر الزمان ، والجند الذى تقوم بسيوفهم بعد فترة من النبوة أعلام الايمان ، فيوشك أن تكون التهاني به بين أهل الخضراء ، اكثر من التهاني به بين أهل الغبراء ، أليس هو البيت الذى ذكره الله في كتابه ، ونص عليه في خطابه ، فقال تعالى : " سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، الذى باركنا حوله ... " أليس هو البيت الذى عظمته الملوك ، وأثنت عليه الرسل ، وتليت فيه الكتب الأربعة المنزلة من إلهكم عز وجل ؟ ، أليس هو البيت الذى أمسك الله عز وجل الشمس على يوشع لأجله أن تغرب ، وباعد بين خطواتها ليتيسر فتحه ويقرب ؟ أليس هو البيت الذى أمر الله موسى أن يأمر قومه باستنقاذه فلم يجبه إلا رجلان ، وغضب عليهم لأجله فألقاهم في التيه عقوبة للعصيان؟ ، فاحمدوا الله الذى أمضى عزائمكم لما قعد عنه بنو اسرائيل وقد فضلهم على العالمين ، ووفقكم لما خذل فيه من كان قبلكم من الأمم الماضين ، وجمع لأجله كلمتكم وكانت شتى ، وأغناكم بما أمضته كان وقد ، عن سوف وحتى ، فليهنكم أن الله قد ذكركم به فيمن عنده ، وجعلكم بعد أن كنتم جنودا لا هويتكم جنده ، وشكركم الملائكة المنزلون على ما أهديتم الى هذا البيت من طيب التوحيد ، ونشر التقديس والتحميد ، وما أمطتم عن طرقهم فيه من أذى الشرك والتثليث ، والاعتقاد الفاجر الخبيث ، فالآن يستغفر لكم أملاك السموات ، وتصلي عليكم الصلوات المباركات ، فاحفظوا رحمكم الله هذه الموهبة فيكم ، واحرسوا هذه النعمة عندكم ، بتقوى الله التي من تمسك بها سلم ومن اعتصم بعروتها نجا وعصم ، واحذروا من اتباع الهوى ، وموافقة الردى ، ورجوع القهقرى ، والنكول عن العدى ، وخذوا في انتهاز الفرصة ، وازالة ما بقي من الغصة ، وجاهدوا في الله حق جهاده ، وبيعوا عباد الله أنفسكم في رضاه اذ جعلكم من خير عباده ، واياكم أن يستزلكم الشيطان ، وأن يتداخلكم الطغيان فيخيل لكم أن هذا النصر بسيوفكم الحداد ، وبخيولكم الجياد ، وبجلادكم

في مواطن الجلاد ، لا والله ما النصر إلا من عند الله ، إن الله عزيز حكيم ، واحذروا عباد الله بعد أن شرفكم بهذا الفتح الجليل والمنح الجزيل ، وخصكم بهذا الفتح المبين ، وأعلق أيديكم بحبله المتين ،أن تقترفوا كبيرا من مناهيه ، وأن تأتوا عظيما من معاصيه فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ، والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين ، والجهاد الجهاد فهو أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم، انصروا الله ينصركم ، اذكروا أيام الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الاعداء ، وتطهير بقية الارض التي أغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر واجتثوا أصوله ، فقد نادت الايام بالثارات الاسلامية ،والملة المحمدية ، الله أكبر فتح ونصر ،غلبَ اللهُ وقهر ، أذلّ اللهُ مَنْ كفر ، واعلموا رحمكم الله أن هذه فرصة فانتهزوها ، وفريسة فناجزوها ، ومهمة فأخْرجوا لها هممكم ، وأبرزوها ، وسيّروا اليها عزماتكم وجهّزوها ، فالأمور بأواخرها ، والمكاسب بذخائرها ، فقد أظفركم الله بهذا العدو المخذول ، وهم مثلكم أو يزيدون ، فكيف وقد أضحى في قبالة الواحد منهم منكم عشرون ؟ ، وقد قال الله تعالى : " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين" ، أعاننا الله واياكم على اتباع أوامره ، والازدجار بزواجره ، وأيّدنا معشرَ المسلمين بنصر من عنده ، إن ينصركم الله فلا غالب لكم وان يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده"(١)

عقد ابن الزكي مقارنة بين حال المسلمين وحالّ الفرنج المشركين ،ثم قاده ذلك الى الحديث عن الخلفاء الراشدين والقادة المسلمين ، لما قدموه من نصرة لهذا الدين ثم بين فضائل المسجد الاقصى ،وارتباطه بالدين الاسلامي والتاريخ الاسلامي، ونهى عن العدوان والبطر ، وحثهم على متابعة الفتوح وازالة الكيان الغريب .

هذه أفكار الخطابة أما بناؤها فقد ابتدأت بالحمد والثناء ثم الشهادتين ثم الموضوع والخاتمة ...

وأما مادتها فهي مأخوذة من التاريخ الأسلامي ، مثل إشارته الى أعمال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وخالد بن الوليد ، والمعارك التي جرت من أجل اعزاز الاسلام مثل القادسية واليرموك وموقعة خيبر ، ومن التاريخ أيضا قصة الاسراء والمعراج وقصة موسى ودخوله الارض المقدسة ، وعيسى ويوشع عليهم السلام ... وهي معتمدة على القرآن والحديث ولهذا كثرت الصور الدينية في الخطابة كثرةً لافتة .

وتتميز الخطابة بكثرة الاقتباس الحرفي والمعنوي ، فمن الاقتباس الحرفي ، قوله "لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد"(٢) و " عندها جنة المأوى ، إذ يغشى السدرة ما يغشى ، ما زاغ البصر وما طغى " (٣) و " لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله " (٤) و " لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم " (٥) و " سبحان الذى أسرى

---

(١) الروضتين ٢/١١٠ ـ ١١١ (٢) سورة الاخلاص ٣ ـ ٤
(٣) سورة النجم ١٧ (٤) سورة النساء ١٧٢
(٥) سورة المائدة ٧٢

بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله " (١) و " إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين ... " (٢) و " إن ينصركم الله فلا غالب لكم ، وإن يخذلكم فمن ذا الذى ينصركم من بعده " (٣) .

ومن الاقتباس المعنوي ، وان لم يخل أحيانا من اقتباس حرفي جزئي ، قوله : " وأظهر دينه على كل دين ، القاهر فوق عباده فلا يمانع والآمر بما يشاء فلا يراجع ، والحاكم بما يريد فلا يدافع ... راحض الإفك الذى أسرى به من المسجد الحرام الى المسجد الأقصى ، وعرج به منه الى السموات العلى ... وتطهير هذا البيت الذى أذن الله أن يرفع وأن يذكر فيه اسمه ... بيعوا أنفسكم في رضاه ... وجاهدوا في الله حق جهاده ... والنصر إلا من عند الله ... فتكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا ... والذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين .

وأما تضمينه للأحاديث فيظهر في قوله : وهو أولى القبلتين ، وثاني المسجدين وثالث الحرمين ، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا اليه ... الامور بأواخرها ... ومن تضمينه لقول علي ابن أبي طالب : الجهاد الجهاد ، فهو أفضل عبادتكم ...

كما يتضح في هذه الخطبة السجع وأنواع البديع الأخرى . أما السجع فهو متمثل في الخطبة جميعها ، ولعقيمة في الاداء ، اذ يكسب الخطبة ايقاعا مؤثرا لا سيما أن الجمل قصيرة ، حارة انفعالية ، توحي بالحركة ، واما أنواع البديع الاخرى فمنها الطباق ، ومنه : معز الاسلام ـ مذل الشرك ، مصرف الامور ـ مديم النعم ، باطن سره ـ ظاهر جهاره ، رافع الشك ـ داحض الشرك .... والجناس ومن أمثلته : الشك ـ الشرك ، واسترد هذه الضالة (القدس) من الامة الضالة (الفرنج) ، مجار ـ جار .

ومن السمات الفنية التكرار والاطناب ، إذ إن أفكار الخطبة محدودة ، ولكنه كررها بصور مختلفة ، ومثال ذلك ما ذكره من نعم الله على الانسان المسلم ، فقال : معز الاسلام بنصره ، ومذل الشرك بقهره ... ومديم النعم للمتقين بشكره ، ومستدرج الكافرين بمكره ، الذى قدر الايام دولا بعدله ، وجعل العاقبة للمتقين بفضله ، وأفاء على عباده من ظله ، وأظهر دينه على الدين كله ... الخ .

---

(١) سورة الأسراء آية ١
(٢) سورة الأنفال آية ٦٥
(٣) سورة آل عمران آية ١٦٠

فهي صور متعددة لمعنى واحد .. ومثال آخر تجده في بيان فضائل المسجد الاقصى والقدس ...

وأخيرا يحس المرء بحرارة العاطفة وصدقها ، وتدفقها ، وهي عاطفة شخصية جماعية في آن واحد ، تعبر عن شعور الخطيب ومشاعر المسلمين المحتشدين في ساحة المسجد الاقصى بعد تسعين عاما من الاحتلال . كما تعبر عن لهفة الناس لرؤية القدس والمسجد الاقصى ، وعن نشوة النصر والفرح ، ولكل ذلك أطنب الخطيب وكرر القول . ثم دعا المسلمين الى تجنيد نصرهم ومشاعرهم وطاقاتهم فيما يرضي الله ، ويستكمل الفتح ، وينهي الوجود الغريب في البلاد ، يقول : والجهاد الجهاد ، فهو من أفضل عباداتكم ، وأشرف عاداتكم ، أنصروا الله ينصركم ، اذكروا أيام الله يذكركم ، اشكروا الله يزدكم ويشكركم ، جدوا في حسم الداء ، وقطع شأفة الاعداء ، وتطهير بقية الارض التي اغضبت الله ورسوله ، واقطعوا فروع الكفر ، واجتثوا أصوله ... " .

* * *

ومن الخطب التي وصلتنا ، خطبة صلاح الدين في الجند اثناء حصار الفرنج لمدينة عكا ، يقول : " بسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، اعلموا ان هذا عدو الله وعدونا ، قد وطيء أرض الاسلام ، وقد لاحت لوائح النصر عليه ان شاء الله تعالى ، وقد بقي من هذا الجمع اليسير ، ولا بد من الاهتمام بقلعه والله قد أوجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل ، وهذا العدو ان بقي وطال أمره الى أن ينفتح البحر جاءه مدد عظيم ، والرأي كل الرأي عندي مناجزته ، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك " (١) .

يتضح من الخطبة أنها قيلت في أرض المعركة ، ولذلك جاءت قصيرة جدا بعيدة عن التكلف والتصنع والإطالة والتكرار ، فهي تدور حول موضوع واحد هو استشارة القوم في القتال بناء على الواقع الذى كان ماثلا أمامهم ، وقد حاول أن يقنعهم بما يرى دونما مبالغة ، وانما بتصوير الخطر ، وبيان واجب الانسان المسلم ازاءه ، وايضاح ما يقتضيه الموقف العسكري .

---

(١) الروضتين ٢/١٤٦

٠٤ الهدن

كثرت الكتابة في مواثيق الهدن ،والمواثيق السياسية ،لا سيما بعد رجحان كفة المسلمين . وقد تقبل الفرنج الهدن ترقبا لوصول نجدات من أوروبا ، وتقبلها المسلمون للتصدى للخطر المغولي القادم من الشرق ،أو لمعالجة المشاكل الداخلية ، ولهذا فقد اعتبروها ذات فائدة لهم .

اما النص المتعلق بالهدنة فقد كان كما يلي : القسم على الوفاء بما تضمنته الهدنة ، وطريقة القسم عند الفرنج تكون بأن يحلف مقدمهم بالله ، وبالمسيح وبالصليب وبالأقانيم الثلاثة والأنجيل ... ثلاث مرات على كل مقسم به ، وطريقة القسم عند المسلمين تكون بأن يحلف السلطان أو نائبه بالله ثلاث مرات (١) .

ثم يحدد المقسم عليه ، وهو موضوع الهدنة ، وفيه تفصيلات كثيرة جدا ، تشمل مدة الهدنة والأماكن الواقعة ضمن الهدنة ، والاشياء المتفق عليها ، لا سيما في معاملة التجار والفلاحين (١) .

ثم تنتهي بالعقوبات التي يلزمها كل لنفسه إن خالف ما جاء في الهدنة ... وهي لهذا ذات قيمة تاريخية واجتماعية وأدبية وسياسية ، بما تقدمه من معلومات عن الطرفين .

وقد فرضت كثرة التفاصيل على الهدنة ،أن تكون طويلة مفصلة ، ومثال ذلك ، الهدنة بين الظاهر بيبرس وبيت الاسبتار سنة ٦٦٩ ، ومنها :-

" استقرت الهدنة المباركة بين السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس قسيم أمير المؤمنين ، وولده الملك السعيد ناصر الدين خليل ، وبين المباشر المقدم الجليل أفريز أولدكال مقدم جمع بيت اسبتار سرجوان ، بالبلاد الساحلية ، وبين جميع الاخوة الاسبتارية ، لمدة عشر سنين كوامل متواليات متتابعات وعشرة أشهر أولها مستهل رمضان سنة تسع وستين وستمائة للهجرة النبوية المحمدية ، الموافق للثامن عشر من نيسان سنة ألف وخمسمائة واثنتين وثمانين للأسكندر بن فيلبس اليوناني على ان تكون قلعة لد بكاملها وربضها واعمالها ، وما هو منسوب اليها ومحسوب منها بحدودها المعروفة بها من تقادم الزمان ، وما استقر لها الآن ، وما يتعلق بذلك : من المواضع والمصايد ، والملاحات ، والبساتين ،والمعاصر ، والطواحين ،والجزائر : سهلها وجبلها وعامرها ودائرها ، وما يجرى بها من أنهار ، وينبع بها من عيون ،

(١) انظر صبح الأعشى ١٣/٣١٢-٣١٣

(٢) المصدر السابق ١٤/٣٨-٦٢

وما هو مبني بها من عمائر ، وما استجد بها من القراح وغير ذلك ، وكل ما عمر في أراضي المناصفات على دورها وانهارها ، وما يحدود ذلك من نهر بدرة الى جهة الشمال ، وما استقر لبلده من هذه الجهات الى آخر الايام الناصرية من الحدود المعروفة بها والمستقرة لها ، وحصن برغين وما ينسب الى ذلك من البلاد والضياع والقرى التي كانت مناصفة — تكون جميع بلاده وهذه الجهات خاصا الى آخر الزائد للملك الظاهر ، ولا يكون لبيت الاسبتار ولا للمرقب فيها حق ولا طالب بوجه ، ولا سبب الا حين انقضاء مدة الهدنة وما بعدها الى آخر الزائد ، ولا لاحد من جميع الفرنجة فيها تعلق ولا طلب بوجه ولا سبب .

وكذلك مهما كان مناصفة ، كقلعة المليقة في بلادها لبيت الاسبتار ، يكون ذلك جميعه للديوان المعمور والخاص الشريف ، ولا يكون للمرقب فيها شيء ولا لبيت الاسبتار .

وكذلك كل ما هو في بلاد الدعوة المباركة جميعها وقلاعها من القرى — لا تكون فيها مناصفة لبيت الاسبتار ولا للمرقب ، ولا حق ، ولا رسم ، ولا شرط ، ولا طالب في جميع بلاد الدعوة : مصياف المحروسة ، والكهف والمنيقة ، والقدموس ، والخوابي ، والرصافة ، والمليقة ، وكل ما هو في هذه القلاع وفي بلادها من مناصفة يكون ذلك خاصا للملك الظاهر ، وليس لبيت الاسبتار ولا الفرنجة فيه حديث ولا طلب ..." (١) * .

ونص الهدنة طويل جدا يقع في تسع صفحات من القطع الكبير ، لأنها تميل الى التفصيل والتحديد الدقيق للمعاني ، شأن النصوص السياسية ، لا سيما تلك التي يكون الطرف الآخر فيها أعجميا ، وهي مع ذلك لا تتكرر فيها المعاني ، لأن التكرار غير التفصيل ..

وواضح أن لغتها سهلة بعيدة عن السجع وأنواع البديع الأخرى ، فهي تقرر الحقائق ، وتوصي بتنفيذ المقررات ، دون إشارة أو تعريض أو تصوير فني ، ولذلك فهي ذات قيمة تاريخية وسياسية واجتماعية قبل أن تكون ذات قيمة فنية .

---

(١) صبح الأعشى ١٤/٤٢ــ٤٤

* للمزيد من الهدن انظر ج ١٤/٣٣ و ج ١٣/٣٢٧ وتشريف الأيام والعصور ص ٣٤ ، ٩٣ ، ١٦٣ ، ١٦٦ ، ٦٨

وقد تصل البساطة في نصوص الهدن الى حد استعمال التعابير المحكية مثل ما جاء في هذه الهدنة من أن " الدار المستجدة عمارتها بقلعة المرقب برسم الماستر المقدم الكبير ، الذى هو عايز تكميل عمارة سقف القبو بالحجارة والكلس ، لا تكمّل (١) .

هذا ، وقد ذكر القلقشندي ثلاثة مذاهب لبداية الهدن : أولها أن تفتتح بلفظ : هذه هدنة أو نحو ذلك (٢) ، وثانيها : أن تفتتح بلفظ استقرت الهدنة بين فلان وفلان (٣) ، ومنها هذه الهدنة ... وثالثها : أن تفتتح بخطبة مبتدأة بالحمد لله (٤) .

كما بين شروط الهدنة عامة ، من خلال استقرائه لعدد كبير منها في الجزء الرابع عشر من صبح الاعشى ، فذكر أن يكون عاقدها الامام أو نائبه العام ، وأن تكون في مصلحة المسلمين ، وأن لا يكون فيها شرط يأباه الاسلام ، وأما مدتها فهي تتراوح ما بين أربعة أشهر وعشر سنين (٥) .

---

(١) صبح الاعشى ١٤/ ٥٠

(٢) المصدر السابق ١٤/ ٢٩

(٣) المصدر السابق ١٤/ ٣١

(٤) المصدر السابق ١٤/ ٧١

(٥) المصدر السابق ١٤/ ٧ ـ ٨

ثانيا : موازنة عامة بين الشعر والنثر :

اشترك الشعر والنثر في تسجيل الأحداث خلال فترة الحروب الصليبية ، ولكنهما اختلفا في طريقة تناول الاحداث من حيث واقعيتها وطريقة عرضها ، وتأثيرها والتفاعل معها ،

ونعرض فيما يلي نصوصا ثلاثة اشتركت في تسجيل معركة حطين وفتح طبرية ، لنقف على الفروق بينها •

أ• يقول ابن الساعاتي مخاطبا صلاح الدين :

جلت عزماتك الفتح المبينا	فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما	غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بك الصليب وكان قدما	يعز على العوالي أن يهونا
يقاتل كل ذي ملك رياء	وأنت تقاتل الأعداء دينا
عقدت في وجنة الايام خالا	وفي جيد العلا عقدا ثمينا
فيا لله كم سرت قلوبا	ويا لله كم أبكت عيونا
وما طبرية الا هدي	ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء	وسل عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا	لصد الليث أن يلج العرينا
لقد أنكحتها صم العوالي	فكان نتاجها الحرب الزبونا
عناء ندى أهل الارض طرا	سواك ، ومعقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفئا فلانت	وغاية كل قاس أن يلينا
تقضيت فريضة الاسلام منها	وصدقت الأماني والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا	وترضى عنك مكة والحجونا
فلو أن الجهاد يطيق نطقا	لناداك ادخلوها آمنينا
جعلت صباح أهلها ظلاما	وأبدلت الزئير بها أنينا
تخال حماة حوزتها نساء	يخوضون الحديد مقنعينا
لبيضك في جماجمهم غناء	لذيذ ، علم الطير الحنينا
تميل الى المثقفة العوالي	فهل أمست رماحا أم غصونا
يكاد النقع يذهلها فلولا	بروق القاضبات لما هدينا
فكم حازت تدود قناك منها	قدودا كالقنا لونا ولينا
وغيد كالجآذر آنسات	كغيد نداك أبكارا وعونا
ولما باكرتها منك نعمى	بنان تفضح الغيث الهتونا
أعدت بها الليالي وهي بيض	وقد كانت بها الأيام جونا

فليس بحادم مرعى خصيبـــا أخو سغب ولا ماء معينـــا
فلا عدم الشآم وساكنـــوه ذمي تشفى بها الداء المدفينـــا
سهاد جفونها في كل فيـــح سهاد يمنح الغمض الجفونـــا
فالم بالسواحل فهي صـــور اليك وألحق الهام المتونـــا
فقلب القدس مسرور ولـــولا سطاك لكان مكتئبا حزينـــا (١)

ب• وكتب العماد الى الديوان بذلك الفتح رسالة ، وقد وردت مع الرسائـــل الديوانية فيرجع اليها (٢) •

جـ• وكتب ابن شداد في وصف معركة حطين ما يلي : " وكانت في يوم السبـــت الرابع والعشرين من ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وذلـــك أن السلطان رأى أن نعمة الله عليه باستقرار قدمه في الملك وتمكين الله ايـــاه في البلاد ، وانقياد الناس لطاعته ، ولزومهم قانون خدمته ليس لها شكر سوى الاشتغال ببذل الجهد والاجتهاد في اقامة قانون الجهاد ، فسير الى سائـــر العساكر واستحضرها ، واجتمعوا اليه بعشترا ، في التاريخ المذكـــور، وعرضهم ورتبهم ، واندفع قاصدا نحو بلاد العدو المخذول في وسط نهار الجمعة سابع عشر من ربيع الاخر ،وكان أبدا يقصد بوقعاته الجمع لا سيما أوقات صـــلاة الجمعة ، تبركا بدعاء الخطباء على المنابر ، فربما كانت أقرب الى الاجابة •

فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغنا أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا ، فقصدوا نحو الملتقى منهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبره ، ورحـــل من هناك ، ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب منتظرا ان الافرنج اذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركوا من منزلهم •

وكان نزوله في هذه المنزلة يوم الاربعاء الحادي والعشرين من ربيع الآخـــر المذكور ، فلما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الاطلاب بحالها قبالة وجهة العدو ، ونازل طبرية ،وزحف عليها فهجمها ، وأخذها في ساعة من نهار ، وامتدت الأيدي اليها بالنهب والاسر والحريق والقتل واحتمـــت القلعة وحدها •

---

(١) الروضتين ٢ / ٨٤ ـــ ٨٥
(٢) انظر الروضتين ٢ / ٨٩ وصبح الأعشى ٦ / ٥١٧

ولما بلغ العدو ما جرى على طبرية لم يأخذهم الصبر دون إجابة الحميـــــة ، فرحلوا من وقتهم وساعتهم ، وقصدوا طبرية للدفع عنها ، فأخبرت الطلائع الاسلاميــة الامراء بحركة الافرنج ، فسيروا الى السلطان من عرفه ذلك ، فترك على طبرية من يحفظ قلعتها ،ولحق العسكر هو ومن معه ، فالتقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربي منها ، وذلك في أواخر الخميس الثاني والعشرين .

وحال الليل بين الفئتين فتباتا على مصاف شاكين في السلاح الى صبيحـــة الجمعة ، في الثالث والعشرين ، فركب العسكران وتصادما ، وحملت الجالشية ، وتحركت الاصلاب والتحم القتال ، واشتد الامر ، وذلك بأرض قرية تسمى اللوبيا ، وضاق الخناق بالقوم ، هذا وهم سائرون كأنما يساقون الى الموت وهم ينظرون ، وقد أيقنوا بالويـــل والثبور ، وأحست أنفسهم أنهم في غد زوار القبور .

ولم يزل الحرب يلتحم ،والفارس مع قرنه يتصادم ، حتى لم يبق الا الظفـــر ووقوع الوبال على من كفر ، فحال بينهما الليل وظلامه ، وجرت في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة ، والامور الجسيمة ،ما لم يحك عمن تقدم ، وبات كل فريق في سلاحه ،ينتظر خصمه في كل ساعة وقد أقعده التعب عن النهوض ، وشغله النصب عن الحبو فضــلا عن الركوض .

حتى كان صباح السبت الذي بورك فيه فطلب كل من الفريقين مقامه ، وعلمت كل طائفة ان المكسورة منهما مدحورة الجنس معدومة النفس ، وتحقق المسلمون أن مـــن ورائهم الاردن ، ومن بين أيديهم بلاد القوم ،وأن لا ينجيهم إلا الله تعالى .

وكان الله قد قدر نصر المؤمنين ويسره ،وأجراه على وفق ما قدره ، فحملــت الاطلاب الاسلامية من الجوانب ، وحمل القلب ،وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، فالقى الله الرعب في قلوب الكافرين : " وكان حقا علينا نصر المؤمنين " .

وكان القومص ذكي القــوم وألمعهم ، فرأى أمارات الخذلان قد نزلت بأهـــل دينه ، ولم يشغله ظن محاسنة جنسه عن نفسه ، فهرب في اوائل الأمر قبل اشتــداده وأخذ طريقه نحو صور ، وتبعه جماعة من المسلمين ، فنجا وحده ، وأمن الاسلام كيده ، واحتاط أهل الاسلام بأهل الكفر والطغيان من كل جانب ،وأطلقوا عليهم السهـــام ، وحاكموهم بالصفاح ،وانهزمت منهم طائفة ، فتبعها أبطال المسلمين ، فلم ينج منهـــم واحد ،واعتصمت الطائفة الأخرى بتل يقال له تل حطين ، وهي قرية عنده وعندها قبـر شعيب عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء ، فضايقهم المسلمون على التل ، وأشعلوا حواليهم النيران ، وقتلهم العطش ، وضاق بهم الامر ، حتى كانوا يستسلمون للأسـر خوفا من القتل ،فأسر مقدموهم ، وقتل الباقون وأسروا وكان فيمن سلم وأسر من مقدميهـم الملك جفري ، والبرنس أرناط ،وأخو الملك ، والبرنس ــ وهو صاحب الشوبك ــ وابـن

الهنفــرى ، وابن صاحبة طبريـــة ، ومقدم الداوية ، وصاحب جبيل ، ومقـــــدم الاستبار (١) .

* * *

يقدم النص الشعرى تصورا عاطفيا شموليا للحادثة دون الدخول في الجزئيـات أو التفاصيل ، وهذا التصور جاء ممتزجا بشعور الفرح عند المسلمين وشعور الشماته بالفرنج كما يبدو في الابيات التالية :

فلو أن الجهاد يطيق نطقـــا ... لنادتك ادخلوها آمنينـــا
جعلت صباح أهلها ظلامـــا ... وأبدلت الزئير بها أنينـــا
تخال حماة حوزتها نســـاء ... يخوضون الحديد مقنعينـــا
لبيضـك في جماجمهم غنـــاء ... لذيذ ، علم الطير الحنينـــا
تميل الى المثقفة السوالــي ... فهل أمست رماحا أم غصونـــا

ثم يذكر الشاعر ما حازه المسلمون من غنائم ،وكان قد أعلن عن النتيجة في بداية القصيدة بقوله :

جلت عزماتك الفتح المبينـــا ... فقد قرت عيون المؤمنينـــا
رددت أخيذة الاسلام لمـــا ... غدا صرف القضاء بها ضمينـــا

وهذا يدل على أن الشاعر لم يلتزم بالتسلسل المنطقي للحادثة ، ولم يذكـــر تفاصيل ما حدث فعلا ،وانما ذكر ما هز شعوره وشعور المسلمين ، بينما تسلسل النثر في سرد قصة المعركة ، واذ يتحدث العماد عن المعركة ،فانه يبدأ بالحديث عن فتح طبرية ،موردا تاريخ الفتح ، ثم يتابع حديثه عن الاحداث اللاحقة :

" ويورد البشرى بما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من شهر ربيع الآخـر الى يوم الخميس منسلخه ، وتلك سبع ليال ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيهـــا صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية ، واذا رأيت ثم رأيت البلاد على عروشها خالية ، ورأيتها الى الاسلام ضاحكة ، كما كانت من الكفر باكية ، فيوم الخميس الاول فتحت طبريـــة ، ويوم الجمعة والسبت نوزل الفرنج فكسروا الكسرة التي ما لهم بعدها قائمة ، وأخذ الله أعداءه بأيدي أوليائه أخذ القرى وهي ظالمة ، وفي يوم الخميس منسلخ الشهـــر فتحت عكا ... " .

وبالأضافة الى التسلسل التاريخي ، يدخل الكاتب في بعض التفاصيل عــن الحادثة ،اذ يذكر ما جرى من حوادث خلال اسبوع : ففي الخميس الاول سقطت طبرية

---

(١) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٧٥ ــ ٧٧

وفي يومي الجمعة والسبت نزل الفرنج في حطين ، وبعدها سارت الجيوش الى عكـــا وفتحتها ، ثم يجمل البلاد المفتوحة ويسميها فيقول : " والبلاد والمعاقل التي فتحت هي : طبرية ، عكا ، الناصرة ، صفورية ، قيسارية ، نابلس ، حيفا ، معليا ، الفوله الطور ، الشقيف ، وقلاع بين هذه كبيرة ... " ولم نجد مثل هذا التفصيل في الشعر .

ويمكننا ملاحظة هذه التفاصيل ، وهذا التسلسل المنطقي في وصف ابن شداد فهو يتدرج مع الاحداث زمنا ومكانا ، وينقل جزئيات دقيقة ، لأن النثر يتحمل ذلك ، لما يهدف اليه من تقديم الوثائق والحقائق بشكل تقريري مباشر ، يقول : " فسار في ذلك الوقت على تعبية الحرب ، وكان بلغه أن العدو لما بلغهم أنه قد جمع العساكر اجتمعوا بأسرهم في مرج صفورية بأرض عكا ، فقصدوا نحو المصاف ، معهم ، فسار ونزل من يومه على طبرية ، عند قرية تسمى الصنبرة ، ورحل من هناك ، ونزل غربي طبرية على سطح الجبل بتعبية الحرب ، منتظرا أن الفرنج ، اذا بلغهم ذلك قصدوه ، فلم يتحركـــوا من منزلهم ... " .

فالقصيدة الشعرية لم تلتزم بعرض الحقائق ولا ترتيبها ، كما لم تقدم عن مجريات الاحداث الا النزر اليسير ، ثم أن ذكر النتيجة في بداية القصيدة والعود الى الحديث عنها مرة أخرى في مكان آخر من القصيدة ، لا يتسق مع التطورات الطبيعية للأحداث ولا غرابة في ذلك ، لأن الشعر إنما يتصل أولا وقبل كل شيء بالحالة النفسية للشاعر ، الذي يختار أن يسلط الاضواء على مشاهد معينة منتقاة ، دون أن يلزم نفســـه بقيود الواقع .

وكثيرا ما ينقاد الشاعر الى المبالغة ، وهو يعرض مادته الشعرية ، نتيجة تفاعل قوي مع مادته الشعرية ، وهو تفاعل كثيرا ما يؤدي الى التعميمات غير المنضبطـــة بضوابط الواقع .

أما النثر ، فغالبا ما يلتزم بعرض الحقائق ، كما يلتزم بالتسلسل المنطقـــي وقد يضفي كتّاب معينون ألوانا خاصة على ما يكتبون ، كما فعل العماد في رسالتــــه ... وقد تكون هذه الالوان عادئة غير صاخبة ، كما في وصف ابن شداد . وبديهـــي ان العرض الواقعي للحقائق يحتاج الى هدوء عقلي يتمثل في نثر الناثر ، أكثر مــــن تمثله في شعر الشاعر ، الذي يقيم عادة علاقات غير عادية بين الكلمات ، من أجل الايحاء والتأثير ، وكلا الايحاء والتأثير محتاج الى الصور ، ولذا كانت الصور عنصرا بارزا فـــي الشعر ، في حين أنها تقل عادة في النثر ، الا ما كان منه نثرا فنيا ، يقترب في اسلوبه والصيحة التي ينطلق بها الشعر كما هي الحال في أكثر نصوص العماد النثرية فـــي الفتح القسي ...

وقد يكون من المفيد أن نقارن بين الصور التي وردت في النصوص الثلاثة آنفة الذكر • فقد صور ابن الساعاتي طبرية بالمرأة السبية التي جاهد صلاح الدين من أجل تحريرها ... ، وصورها بأنها خال جميل في وجنة الايام ، ولذلك فهي تستحق الجهد الكبير الذى بذله ، ومثلها بالعقد الثمين في جيد الحلى ، وهذا يغرى البطل بأن يتحمل المشاق من أجلها ، ومثلها بالمرأة الحصان التي تترفع عن أكف اللامسين • وتبتعد عن قالة السوء ، ومع هذه الصفات فقد تمكن صلاح الدين منها ، لانها بعد أن صدت وتمنعت رأت أن صلاح الدين ليس كغيره من الرجال ، فلانت له ورحبت به • ثم صور الاماكن الاسلامية المقدسة مشاركة في فرحة المدينة وفرحة المسلمين ، وصور الفرنج داخل المدينة وخارجها في حالة حسرة وعجز ، اذ هم لا يملكون الشجاعة الكافية للدفاع عنها بل هم نساء يلبسون ما يلبسه رجال الحرب ... كما قدم صورا للمعركة بما فيها من غبار وسهام ، وجثث وطيور •• تتحفز لأكل القتلى ••ثم صور السبايا الفرنجيات ، وشعور الارتياح عند المسلمين بعد خلاصهم من احتلال طال أمده •

أما العماد فقد صور انتصار الاسلام على الكفر الذى رد ما عنده ، كما صور جثث القتلى ، والبلاد الخالية • ثم تحدث عن تقدم الجيش الاسلامي في البلاد ، وتقهقر الفرنج أمامه • وفي هذه الصور تسجيل لعواطف الفرح والتشفي بالمحتل ، وقد جاءت هذه الصور في حوالي ثلاثة وعشرين سطرا •

وأما ابن شداد فقد عرض حقائق مفصلة ، فابتدأ بحركة الجيش الاسلامي نحو طبرية ، وحركة الفرنج في مرج صفورية ، ثم تقدمهم نحو طبرية بعد استعادة المسلمين للمدينة ، ثم وصف بداية المعركة بين الطرفين الى أن حجز بينهم الليل ، ثم العودة الى القتال صبيحة اليوم التالي ، ثم تباشير النصر ، الى أن هرب أمير طرابلس وتشتت شمل الباقين ، ووقعوا بين أسير وقتيل ...

ويلاحظ أن الانفعالات التي يثيرها هذا الوصف ، إنما هي وليدة الوقائع والاحداث ، وليست وليدة الزخرف البياني أو الصور اللفظية المثيرة •

(الخاتمـــة)

لما كان من الصعب دراسة جميع النصوص الشعرية والنثرية في فترة الحـروب الصليبية لتنوعها ، وكثرتها ، ولطول الفترة التي ترتبط بها هذه النصوص ، فقـد اخترت قضية محددة ، رغبت في أن أدرسها من خلال الادب ، وتلك هي " صورة الصليبيين في الادب العربي " .

وقد احتوت الدراسة على إطار تاريخي للحروب الصليبية تَبَيَّن من خلالـه أن هذه الحروب كانت صورة أخرى على نطاق واسع لحروب المسلمين مع بيزنطة في الشرق ومع الاسبان في الغرب ، فضلا عن كونها تحقيقا لاطماع أوروبية في السيطرة على منطقـة ذات أهمية دينية وتاريخية واقتصادية ، ولهذا تتبعت مسيرة الحركة الصليبية من أوروبـا الى الشرق الاسلامي ، وبينتُ الحوافز التي كانت تدفعهم للمغامرة والمصابـرة ، والعوامل التي ساعدتهم على تثبيت أقدامهم في الشرق الاسلامي ، حتى اتحدت مصر والشام تحت قيادة قوية واحدة أنزلت بهم هزيمة ساحقة .

ولدى استقراء المادة الادبية من شعر ونثر ، ظهرت عدة أنواع من الصـراع أهمها : الصراع الديني ، وقد تجلى فيه تمسّك الطرفين بمعتقداتهم الدينيـة ، فالفرنج ، اتخذوا الصليب شعارا لهم ، في حياتهم اليومية والعسكرية ... ولكنهم مـع هذا الشعار الديني كانوا قساة غلاظا ، وقد تصل غلظتهم الى حد الوحشية ... ، فلا يرعون عهدا ولا ذمة ... على النقيض من المسلمين الذين أظهرتهم النصـوص الأدبية – في معرض المقارنة بينهم وبين الفرنج – بأنهم يحافظون على العهـود ، ويعطون عند القدرة ولا يبالغون في الانتقام .

وفي إطار الصراع الحضاري ، وصف الادب الفرنج بأنهم متأخرون في علومهم ، وفي طرائق تعاملهم في شؤون القضاء والقانون ، ولكنهم متقدمون في شؤون الحرب من اختراع وتطوير لأدوات القتال الهجومية والدفاعية . وقد قدّم الأدب صورة مفصلـة للصراع العسكري ، حين عرض علينا وصفا دقيقا للجيش الصليبي من حيث تكوينُـه ، وامداداته وأسلحته ، وخططه الحربية ، كما سلط الاضواء على حصون الفرنج وقلاعهم . وبين الادباء من خلال الشعر والنثر أن الفرنج إنما كانوا يستمدون مقومات وجودهـم من المدد الذي كان يأتيهم من وراء البحار ، ومن فرقة المسلمين وعدم اجتماع كلمتهم .

ومن ناحية أخرى ، قدم الادب العربي صورة لهؤلاء الطارئين ، خلال الهدن وتوقف القتال ، فصورهم في أوقات السلم يمرحون ويلعبون ، ويفترسون الأرض ويجتنبون ، ويستقبلون القوافل ويتّجرون ، تعج بهم الشوارع والأزقة ... ويعيشون في بلاد الشـرق حياة تتناقض في طبيعتها كثيرا مع حياة السكان الأصليين .

وقد حرص الادباء وهم يقدمون صورة بغيضة للصليبيين ، على أن يحرضوا الحكام والقادة باستمرار ويستثيروا عزائمهم بكل وسيلة ، لتخليص البلاد من الوجود الصليبي في المشرق الاسلامي .

والدراسة الاستقصائية أو شبه الاستقصائية للنصوص الادبية التي كتبت خلال هذه الفترة مما وصل الينا بالفعل ، تكشف عن غزارة في الانتاج الادبي خلال القرن الاول من الغزو الصليبي ، وربما كان من عوامل هذه الغزارة ، ظهور شخصيات فذه خلال القرن المذكور ، في ميادين الحرب والسياسة والادارة ورعاية الادب ، أمثال نور الدين زنكي وصلاح الدين ، وبعض ابنائه . وقد يضاف الى ذلك شدة التحدي والصراع خلال القرن الاول من الصراع . ولا يخفى أثر الزخم الادبي القوي المنحدر من نتاج القرن الرابع الهجري السابق للقرن الذي ابتدأت فيه الحروب الصليبية .

وأما الاداء الفني في نصوص الشعر، فقد كان الى حد ما امتدادا لنظيره في أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين ، فهو يجمع بين التقليد والاتباع من ناحية ، وبين التجديد في اغراض الشعر من ناحية أخرى ، ويظهر ذلك في شكل القصيدة ومضمونها ... اذ وجدنا معظم القصائد تنهج نهج الشعر القديم في الاستهلال والصور والافكار ، في حين يخرج بعضها عن النهج المعتاد ، وبخاصة في التقدمة وفي الباس المعاني ثوبا زخرفيا بغية اخراجها في قالب طريف جديد .

وقد لوحظ أن البديع سمة فنية ظاهرة في شعر هذه الفترة ولكنها لم تكن بالظاهرة الطارئة في القرن الخامس الهجري ، اذ هي قد وجدت قبل ذلك ، ولكنها برزت بروزا قويا في هذه الفترة حتى بلغت حد الافراط عند بعض الشعراء .

وأما الاداء الفني في نصوص النثر ، فقد اتسم كذلك بالسمة الزخرفية ، لا سيما في الكتب الادبية المحضة ، أما الكتب التي تجمع بين الادب والتاريخ ، فقد تراوحت حسب اتجاهات المؤلف الادبية بين زخرف أدبي مفرط ، وبين اعتدال في هذا الزخرف ، قد يصل أحيانا الى حد التخلص منه .

هذا ، وقد قورنت رسائل القاضي الفاضل برسائل العماد الاصفهاني ورسائل ابن الاثير ، تبين أنه لا يوجد فرق واضح بين رسائل الكتاب الثلاثة ، مما يجعل المرء يتشكك في قول من رأوا أن للقاضي الفاضل مدرسة أدبية خاصة به تتسم بسمات فنية معينة .

ولدى الموازنة بين الشعر والنثر المرتبطين بالوجود الصليبي في المشرق الاسلامي ، لوحظ اختلاف متوقع في طرائق التعبير عن الموضوع الواحد .

من حيث كيفية التناول والمعالجـــة ، ومن حيث الأسلوب الأدبي كذلك ، فالشعر قلما يلتزم بالتسلسل المنطقي ، وسرد الحقائق المجردة ، وقلما يحفل بالتفصيل والتعليـــل، وانما يعني الحركة النفسية للشاعر ، واصداء الأحداث في نفوس ابناء مجتمعـــــــه ، وقد يعمد في تصوير ذلك كله الى المبالغة لاعطاء الأحداث تأثيرات معينة ، واستثـــــــارة العواطف ، كما يلجأ الى تلوين الوقائع بلون معين ، تتبين فيه ذات الشاعر .

أما النثر فانه يقدم أول ما يقدم الوقائع والأحداث في إطار الحقيقة ، ويعمـــد الى التسلسل والتفصيل ، وما كان فيه من اثارة ، انما يعتمد بالدرجة الأولى علـــى مجريات الحوادث نفسها . على أن الهوة بين الشعر والنثر ، قد تضيق أحيانـــــا الى حد كبير ، في نثر المتأدبين الذين تطغى النزعة الفنيـــة على كتاباتهـــــم حتى تتحول في بعض الحالات الى شعر لا ينقصه إلا الوزن الموسيقي .

وأخيرا أسأل الله أن يكون قد وفقني في تقديم صورة الصليبيين كما رسمهـــــا الأدب العربي ، وأن يبارك لي في جهدي ، وأن يجعله ابتغاء مرضاتـــــه .

" والحمد لله رب العالمـــــين "

الملاحــــــــق

اولا : الملحـــــــــق المصـــــــــورى

ثانيا : معاني المصطلحات (مرتبه هجائيا)

ثالثا : جدول بتحويل السنوات الهجرية الى ميلاديـــــة

رابعا : جداول بأسماء الحكام المسلمين والصليبيـــــــين

خامسا : الخرائـــــط

فهرس بأسماء الشعراء الذين وردت لهم أشعار في هذا الملحـــق

تابع اسماء الشعـــراء

له وقد وقف على داره بالمعرة بعد هجوم الفرنج :

أهذه بين انكاري وعرفاني مسارب الوحش أم داري وأوطاني
جهلتها ولقد أبدت ملاعبها عهدَ الصبا بين اخواني وخلاني
فعجت أسألها والدمع منسكب والقلب في لوعة من وجده عاني
يا دار مالي أرى الأيام قد حكمت فينا وفيك بحكم الجائر الجاني
فلو أجابت لقالت هكذا فعلت قدما بجيرة نعمان ونعمان
وفي مدائن نوشروان معتبر للسائلين وفي سيف وغمدان
فان عجبت لهذا فالدنيا لها دولٌ تمضي وتأتي وكلٌ بينها فان (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام جـ ٢ ص ٨٧

وله في المعمرة :

حذ معاج بلدة قد قضى الله عليها كما ترى بالخراب
وقف العين موقفة وأبك من كان بها من شيوخها والشباب
واعتبر ان دخلت يوما اليها فهي كانت منازل الأحباب (١)

---

(١) شذرات الذهب ٥/٦٦

أبو سلامة محمود بن علــوى -(٥٠٥)

له في المعـــــرة :

أنا من بلدة قضى الله يـــــا صــا ح عليها كما ترى بالخــــــــــراب
قتلوا أهلها وبادوا جميعـــــــــا من شيوخ وصبية وشبــــــــاب (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢/١٠١ ، وانظر النجوم الزاهرة ٥/٢٠٠

أبو المعالي بن المهذب

له يصف الوباء والافرنج بالشـام :

ولقد حللت من الشآم ببقعة ... أعذر بساكن ربعها المسكين
وُبِئَت وجاورها العدو فأهلها ... شهداء بين الطعن والطاعون (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ٢/١٢٩

أبو المظفر الابيوردى

قال بعد دخول الفرنج القدس سنة ٤٩١ :

مزجنا دماء بالدموع السواجم　　فلم يبق منا عرضة للمراجم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه　　اذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فأيها بني الاسلام : ان وراءكم　　وقائع يلحقن الذرى بالمناسم
أتهويمة في ظل أمن وغبطة　　وعيش كنوار الخميلة ناعم
وأخوانك بالشام يضحى مقيلهم　　ظهور المذاكي أو بطون القشاعم
يسومهم الروم الهوان وأنتم　　تجرون ذيل الخفض فعل المسالم
وكم من دماء قد أبيحت ومن دمى　　توارى حياء حسنها بالمعاصم
بحيث السيوف البيض محمرة الظبى　　وسمر العوالي داميات اللهاذم
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفة　　تظل لها الولدان شيب القوادم
وتلك حروب من يغب عن غمارها　　ليسلم يقرع بعدها سن نادم
سللن بأيدى المسلمين قواضبا　　ستغمد منهم في الطلى والجماجم
يكاد بهن المستجن بطيبة　　ينادى بأعلى الصوت يا آل هاشم
أرى أمتي لا يشرعون الى العدى　　رماحهم والدين واهي الدعائم
ويجتنبون النار خوفا من الردى　　ولا يحسبون العار ضربة لازم
أترضى صناديد الاعاريب بالاذى　　وتغضي على ذل كماة الاعاجم
فليتهم ان لم يذودوا حمية　　عن الدين ضنوا غيرة بالمحارم
وان زهدوا في الاجر اذ حمي الوغى　　فهلا أتوه رغبة في المغانم
لئن أذعنت تلك الخياشيم للبرى　　فلا عطسوا الا بأجدع راغم
دعوناكم والحرب ترنو ملحة　　الينا بألحاظ النسور القشاعم
تراقب فينا غارة عربية　　تطيل عليها الروم عض الاباهم
فان أنتم لم تغضبوا عند هذه　　رمتنا الى أعدائنا بالجرائم (١)

(١) نهاية الارب ٥/ ٢٢٦ ، والكامل ١٠/ ٢٨٥

ابن الخيـاط ــ ٥١٧

قال يمدح الامير مجد الدين عضب الدولة أبق بن عبد الرزاق، أحد مقدمي أمراء دمشق ويحضه على الجهـــاد :

فدتك الصواهل قبّا وجردا   وشمّ القبائل شيبا ومردا
ودانت لأسيافك البيض قضبا   ودانت لأرماحك السمر مُلْدا
وقلّ لمن قام في ذا الزمان   مقامك أن بات بالخلق يُفدى
ألست أبرّ البرايا يدا   وأندى من المزن كفّا وأجدى
وأمضى حساما وأوفى ذماما   وأهمى غماما إذا الغيث أكدى
وأذكى إذا غُيّب الأمر طرفا   وأورى إذا أظلم اليوم زندا
إذا التبس الرأي كنت الأسدّ   وإن غالب الخطب كنت الأشدّا
وإن قصّر الناس عن غاية   سبقت إليها من الناس فردا
ومن ذا يجاريك فضلا ونبلا   ومن ذا يساويك عملا وقصدا
سجيّة من لم يزل بالثناء   والحمد منفردا مستبدا
تجلّ معاليه أن تستطاع   وتأبى مناقبه أن تعدّا
حقيق إذا ما انتضى سيفه   بأن يجعل الهام للسيف غمدا
زعيم الجيوش لقد أعجزت   أياديك واصفها أن تُحدّا
وأضحى ذكرك في الخافقيـ   ـن شرقا وغربا وغورا ونجدا
فصار مسير هلال السما   ء يزداد نورا إذا ازداد بعدا
فلو تُبع الفخر سيفا لأثبـ   ـت دون الورى حدّه والفرندا
وكم لك من نائل نائل   رقاب المآثر شكرا وحمدا
ندى يعتق العبد من رقّه   ولكنّه يترك الحرّ عبدا
وإني لمهد إليك القريـ   ـض يطوى على النصح والنصح يهدى
الا م * وقد زخر المشركون   بسيل يهال له السيل مدّا
وقد جاش من أرض إفرنجة   جيوش كمثل الجبال تمرّدا
تراخون من يجترى شدّة   وتنسون من يجعل الحرب نقدا
أنوما على مثل هدّ الصفاة   وهزلا وقد أصبح الأمر جدّا
وكيف تنامون عن أعين   وترتم فأسهرتموهن حقدا
وشر الضغائن ما أقبلت   لديها الضغائن بالكفر تحدى
بنو الشرك لا ينكرون الفساد   ولا يعرفون من الجور قصدا
ولا يردعون عن القتل نفسا   ولا يتركون من الفتك جهدا
فكم من فتاة بهم أصبحت   تدقّ من الخوف نحرا وخدّا

---

* في الديوان : الى كم وقد زخر المشركون : وهو مكسور

وأمّ عواتق ما إن عرفـ … ـن حَرّاً ولا ذقن في الليل بـرد ا
تكاد عليهن من خيفـة … تذوب وتتلف حزنـا ووجـد ا
فحاموا على دينكم والحريـم … محاماة من لا يرى الموت فقـد ا
وسدوا الثغور بطعن النحور … فمن حق ثغر بكم أن يسـد ا
فلن تعدموا في انتشار الامور … أخا تدرا حازم الرأي جلـد ا
يظاهر تدبيره باسـه … مظاهرة السيف كفا وزنـد ا
كمثل زعيم الجيوش الملـيّ … بحزم يبيت له الحـزم ردا
وعادات بأسكم في اللقـا … ء ليست تحول عن النصـر عهـد ا
فدونكم ظفرا عاجـلا … لكم جاعلا سائر الارض مهـد ا
فقد أينعت روس المشركيـن … فلا تغفلوها قطافا وحصـد ا
فلا بد من حدهم أن يفـل … ولا بد من ركنهم أن يهـد ا
فإن ألب رسلان في مثلهـا … مضى وهو أمضى من السيف حـد ا
فأصبح أبقى من الفرقديـ … ـن ذكرا وأسنى من الشمس مجـد ا
لكم أن تعيدوا من المـ … ـآثر والمجد ما كان أبـد ا
وهذا ابنه قائما فيكـم … مقام المفاخر جدا وجـد ا
بخيل تخال غداة الكـر … طيرا تحملن غابا وأسـد ا
وطعن أمر من الموت طعمـا … وضرب أحر من النـار وقـد ا
اذا ما السيوف غداة الحتـو … ف نوّعت الضرب قطعا وقـد ا
ترى لمعا وقعا لا يـزلـ … ـن يخطفن برقا ويقصفن رعـد ا
غذو البأس من جاب من تركـة … له جنة ومن الدرع بـرد ا
وليمض السرد عن منكبيـ … ـه حتى يصير مع الجلـد جلـد ا
فما ينزع اليوم عنه الحديـ … ـد من رام أن يلبس العز رغـد ا
وأيسر ما كابدته النفـوس … من الامر ما لم تجد منه بـد ا
بقيتم ولا زلتم في اللقـاء … بدورا توافق في الافق سعـد ا
ولا برح العز للمسلميـ … ـن من نصركم أبدا مستمـد ا
فلسنا نرى بعد طول البقـا … ء أنور منكم على الله وفـد ا
وقد قيل في الترك إن الـذي … يتاركهم أسعد الناس جـد ا(١)

---

(١) ديوانه صفحة ١٨٢ ـ ١٨٧

وقال يرثي السالار (القائد) قول بن الامير عثمان ، وكان قتل في البقاع سنة ٥٠١ ، ويعزي به الامير عضب الدولة :

ليس البكاء وان أطيل بمقنعي ... الخطب أعظم قيمة من أدمعي

ثم يذكر مناقبه باثنين وخمسين بيتا ، الى أن يقول :

لا يطمع الاعداء يوم مرهم ... ان الردى في طي ذاك المطمع
الثار مضمون في أيماننا ... بيض كنا طفقا لبروق اللمع

وذوابل تهوى الى ثغر العدى ... توق العطاش الى صفاء المشرع
قد آن للدهر المضل سبيله ... أن يستقيم على الطريق المهيع
مستدركا غلط الليالي فيكم ... متنصلا من جرمها المستفظع
أفغركم ان الزمان أجركم ... طولا ببغيكم الوخيم المرتع
هلا ومجد الدين قد عصفت بكم ... عزماته بالامور عصف الزعزع
وغداة علمان التي روتكم ... بالبيض من سم الغراب المنقع
لا تأمنن حريمة عضبية ... من أن تقيم الحق عند المقطع
بقسنا لغير رداكم لم تصقل ... وظبى لغير بواركم لم تطبع
يا خير من تمشي وأكرم من رجي ... وأبر من نودي وأشرف من دعي
إنا وان عظم المصاب فلا الأسى ... فيه المضي ولا السلو بطيع *(١)

ويختمها بتعزية الامير عضب الدوله بستة ابيات أخيره :

---

* انظر الخريدة بداية قسم شعراء الشام ٢١٥

(١) ديوانه صفحة ٢١٣ ـ ٢٢٠

قال يمدح الامير حسام الدين تمرتاش بن ايلغازى ويذكر ظفره بالفرنج بعد عودة من الشام سنة ٥٢٤ :

أطاعك فيما شاء حاسدك الدهر ووالاك ما عادى معاديك العصر
ولا استعرت الا بحملاتك الوغى ولا سار الا تحت راياتك النصر
فأنت الذى أرضى عن الدهر تربه وجمّلت الايام أيامه الغر

. . . .

أتاك بما أعيا سواك من العلى بهن الطعان الشزر والنائل الغمر
وعربية شقر ، وماذية خضر وهندية حمر ، وخطية سمر
تصول اذا استمطرتها ذرت الطلا وخيل اذا استحضرتها أظلم الفجر
مصونة الا تجوب عصارة فترحل الاوحى من سكنها تفر
هزمت بها جيش العدو مجاهدا فعز بك الاسلام ، وأمتهن الكفر
ورويت بيض الهند من مهجاتهم فهن توانٍ من دمائهم حمر .... الخ (١)

---

(١) الخريدة ، القسم العراقي ، ج ٢ ، ص ١٤٥

قال يمدح الوزير الافضل بن بدر الجمالي ويذكر تجريده العساكر الى الشام لمحاربة الفرنج بعد انهزام عسكره في الموضع المعروف بالبصة :

هي العزائم من أنصارها القدر ... وهي الكتائب من أشياعها الظفر
جردت للدين والاسياف مغمدة ... سيفا تفل به الاحداث والغير
وقمت اذ قعد الاملاك كلهم ... تذب عنه وتحميه وتنتصر
بالبيض يسقط فوق البيض أنجمها ... والسمر تحت ظلال النقع تشتجر
بيض اذا خطبت بالنصر السنها ... فمن منابرها الاكباد والقصر
وذبل من رماح الخط مشرعة ... في طولهن لاعمار الورى قصر
يغشى بها غمرات الموت أسد شرى ... من الكماة اذا ما استنجدوا ابتدروا
مستلئمين اذا شاموا سيوفهم ... شبهتها خلجا مدت بها غدر
توم تطول بيض الهند اذ رعم ... فما يغير ظباها أنها بتر
اذا انتضوها وذيل النقع فوقهم ... فالشمس طالعة والليل معتكر
ترتاح أنفسهم نحو الوغى طربا ... كانما الدم راح والظبى زهر
وان هم نكصوا يوما فلا عجب ... قد يكهم السيف وهو الصارم الذكر
العود أحمد والايام ضامنة ... عقبى النجاح ووعد الله منتظر
وربما ساءت الاقدار ثم جرت ... بما يسرك ساعات لها أخر

ومنهـا :

لله بأسك والالباب طائشة ... والخيل تردى ونار الحرب تستعر
وللعجاج على صم القنا ظلل ... في الدخان وأطراف القنا شرر
اذ يرجع السيف يبدي خده علقا ... كصفحة البكر أدمى خدها الخفر
أما يهولك ما لاقيت من هدد ... سيان عندك قل القوم أم كثروا
هي الصاحة الا أنها شرف ... وهي الشجاعة الا أنها غرر ... الخ (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ، القسم الرابع الجزء الاول ص ٢٦٥

قال يمدح الأفضل الجمالي بقصيدة مطلعها :

الحب مذ كان معنى يعجب الأدبا   فإن تغزلت في مدح فلا عجبا

ومنها :

سارت له سيرة أدنى مناقبها   قد عطر الارض والأفواه والكتبا
تضمنت غزوات كلما ضحك الإسلام منهن ناح الكفر وانتحبا
أرضى المساجد والزهاد عنه الا   لله ما أسخط الرهبان والصلبا
وللأذان سرور في مواطنه   تبدي النواقيس منه الويل والحربا
ضمر خيولك للنصر التي وعدت   وتقف السمر حزنا وانتضوا القضبا
أبشر فعادات وفد النصر قادمة   كالهيم من بعد خمس وافت القربا
واسفك دما في طلى الاعداء منتظرا   فلو أشارت له أسيافك انسكبا (١)

وقال يمدح الامام الآمر المنصور ، بقصيدة أولها :

بكم آل وحي الله يفتخر المجد   وفيكم يسوغ المدح والشكر والحمد

ومنها :

ستأخذ للاسلام ثاراته التي   تقاوم للكفر اللعين بها الحقد
كما فعلت في يوم بدر سيوفكم   وفي الشرك من دون القليب لها ورد
لك العزمات النافذات اذا أبرت   الى مقصد لم تمنع البيض والسرد
وان خفقت راياتك الحمر سبحت   انصراك أعلاها ملائكة جند
ومخلية حمر وبيض صوارم   ومسرودة زغف ومقربة جرد
وقوم مناياهم مناهم اذا انتضت   رضاك ، وفي طيب الحياة لهم زهد
فقد شام منك الشام برقا سيحتوي   على ملك قسطنطين من سيله قصد
تزلزل ما خلف الفرنجة هيبة   له فرواسيها تخر وتنهد
ولله سر فيك حان ظهوره   ليوقن مرتاب ويرجع مرتد ... (٢)

وقال يمدحه بقصيدة مطلعها :

صلى الاله عليك يا ابن رسوله   وهدى لطاعتك الورى لسبيله
فيك استقر الحق واتضح الهدى   وأبان للثقلين وجه دليله
يا ابن الائمة من ذؤابة هاشم   شرف سما بفروعه وأصوله

(١) ديوانه ص ٢٤ ــ ٢٨
(٢) ديوانه ص ١١٧

ومبيد ملك الروم بالنصر الـــــذي ... نطقت به الآيات من انجيلــــه
قد شام منه الشام أعظم بــــارق ... يمحو الفرنجة منه بعض سيولــــه
بادر بيوم مثل بدر أن يكــــن ... لأبيك ذاك فان ذا لسليلــــه
قد حان حينهم وكاد لتربــــه ... منهم يسمعنا صياح عويلــــه
لله جيش مثل جيشك معلــــم ... فالنصر يرحل دائما برحيلــــه
لولا الضجيج لكاد يسمع ناصــــت ... صوت الملائك فيه من تهليلــــه
وأجر الجياد فكل طرف سابــــح ... شوقا لهذا النصر جلّ صهيلــــه
وشم السيوف اذا فكل مهنــــد ... لرقاب أهل الكفر فرط نحولــــه
فليثبت الافرنج منه لقســــوَر ... بعث الحتوف اليهمُ من غيلــــه
ما مالهم وحريمهم ودماؤهــــم ... الا وديعته بكف وكيلــــه
فالبر مثل البحر من فرسانــــه ... والبحر مثل البر من اسطولــــه
جمع بيت الطير فوق رماحــــه ... عدما لكثرته فكان مقيلــــه
ضاقت به الكرة التي هو ملؤهــــا ... حتى يكاد يشقها برحيله ... الخ (١)

---

(١) ديوانه ص ٢٥٤ ــ ٢٦٠

قال يمدح صلاح الدين محمد بن أيوب العمادي صاحب حمـــــاه :

وما جاء كلب الروم الا ليحتـــــوي حماة ، وما يسطو على الأسد الكلـــب
أراد بها أنْ يملك الشام عَنـــــوة وقد غلبت عنه الضراغمة الغلـــب
وما دام فيها العيش حتى صدمتــه فمال جناح الجيش وانكسر القلـــب
تولى وأطراف الرماح كأنهـــــا نجومٌ عليه بالمنيّة تنصــــبُ (١)

وقال يمدح عماد الدين زنكي بقصيدة أولهـــا :

بعزمك أيها الملك العظـــيم تذلُّ لك الصعابُ وتستقيـــم
ألم تر أن كلب الروم لمـــا تبيّن أنك الملك الرحيـــم
فجاء يطبّق الفلوات خيـــلا كأنّ الجحفلَ الليلُ البهيـــم
وقد نزل الزمانُ على رضــاه فكان لخطبه الخطبُ العظيـــم
فحين رميته بك في خميـــس تيقن أن ذلك لا يـــدوم
وأبصر في المفاضة منك جيشـــا فأحرزَ لا يسير ولا يقيـــم
كأنك في العجاج شهابُ نــــور توقّد وهو شيطانٌ رجيـــم
أراد بقاءَ مهجته فولـــى وليس سوى الحِمام له حميـــم
يؤمّل أنْ تجود بها عليـــه وأنتَ بها وبالدنيا كريـــم
أيلتمس الفرنج لديك عفــوا وأنت بقطع دابرها زعيـــم
وكم جرّعتها غُصَص المنايـــا بيوم فيه يكتهل الفطيـــم
ولما أن طلبتهم تمنّـــى سنية جوسلينهم اللئيـــم
أتاه يطوف الآفـاق حينـــا وأنت على مقاتله مقيـــم
فسار وما يعاد له مليـــكٌ وبان وما يعاد له سليـــم
اذا خطرت سيوفك في نفـــوس فأول ما يفارقها الجســوم
رأيتك ، والملوك لها ازدحـــام ببابك لا تزول ولا تريـــم
تقبل من ركابك كل يـــوم مكانا ليس تبلغها النجـــوم
تودّ الشمس لو وصلتْ اليـــه وأين من الغزالة ما تـــروم
أردت ثلاثين في الدنيا مقيـــا وقد ت تليه في الدنيا عديـــم
وما أحييت فينا العدل حتـــى أمت بسيفك الزمن الظلـــوم
وصرت الى الممالك في زمـــان بموصلك الدنيا عقيـــم
تزخرف للأمير جنان عـــدن كما لعدا استعر الجحيـــم

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٣

أمّا الملوك فمن مليك ... تخامر غير شيمته الهموم
فلا برحت لك الدنيا فداء ... ومُلكك من حوادثها سليم
وإن تُلفي سبيل الله تشقى ... فعند الله أجرك والنعيم (١)

وقال يهنئ صلاح الدين بالعيد ويذكر ما وهبه إياه من العبيد والإماء سنة ٥٧٦ : مطلعها :

أيحسن بعد صدك حسن ظني ... فأجمع بين يأسي والتمني

وبعد مقدمة غزلية يقول :

أتمتا الموت لي رصدا فأخشى ... زيارته وإن يك لم يزرني
كما رصد العدى في كل يوم ... صلاحُ الدين في سهل وحزن
يرون خياله كالطيف يسري ... فلو هجعوا أتاهم بعد وهن
أبا داود تخوفه فأمسى ... منازلهم لو يبتهم بها ثمّن
تملك حولهم شرقا وغربا ... فصاروا لاتقائك تحت رهن
أطاف عليهم من كل فج ... قبائلَ يقبلون بغير وهن
أتاهم بآل أيوب رباطا ... رأت منه الفرنج مضيق سجن
فهم للدين والدين جبال ... رواسٍ لا ترى أبدا كعهن
اذا اتخذوا له عزما ورأيا ... غنوا في الحرب عن ضرب وطعن
وإن نادى : نزال ، فلن يبالوا ... قتالهم لانسٍ أو لجن
ربما أتعص الملوك السلم حربهم ... ولهم جهد مثل البأس يغني
وخافتهم ملوك الناس جميعا ... فلم تقلب لهم ظهر المجن
لهم من بأسه ركن شديد ... ولو طلبوا لما آووا لركن
حوت آفاق مصرهم حصونا ... فكيف اذا أداروا كل حصن
فطارقة لهم سلطان عدل ... يمنّ لهم بكارمهم ويثني
. . . .

أرى داوية الكفار خافت ... بعداء يضعف كل متن
أبوا نصلا مخافة نسل بنت ... تفارق دينهم أو تتلة ابن
لقد عقموا به من غير عقم ... كما جبنوا به من غير جبن
ومن أقنانهم قدما حقيق ... بمحمد مثلما وجدوا ويثني
لقد خبر التجارب منه حزم ... وقلّب دهره ظهرا لبطن
فكف الكفر أن يلقى بكسر ... يحيّر كل ذي فكر وذهن
نساق الى الفرنج الخيل بحرا ... وإن ركبهم على بحر بسفن
لقد جلب الجواري بالجواري ... يمدن بكل قد مرجحن
يزيدهم أجتماع الشمل بؤسا ... فمرنان تنوح على مرن

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٢ والخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ٤٢٠ — ٤٢٢
والكامل ١٠ / ٥٦ والباهر ٥٦

فما من ظبيـــة تفدى بليـــث ... ولا ليث فدى رشأ أغـــنّ
زهت اسكندرية يوم سيقـــوا ... ودمياط فما مُنيا بغَـــبْن
وخيرهما هناءً ما أتاهـــا ... بقرب الملك كلّ علىّ يهـــني
فلو لبست به للفخر بـــردا ... لجرّت فضل أذيـــال وردن
لقد سبق الندى منه السبايـــا ... فكم عزب بأهل باتيمـــني
وأعجله السماح عن اذكـــارى ... ولو ألقاه مَن بغير مَـــنّ
فأسلحة تخاف لديه خزنـــا ... وأموال تطيرُ بغير خـــزن
وكيف يصون بحرا جود بحـــر ... فيحمل منه لا آن وشـــدن
وان الناصر الملك المرجّـــى ... لأولى من وَلي حيّاً بحـــسن
يبيد عداته ويشيد مجـــدا ... لآل فهو يفني حين يقـــنى
اذا لاقى العدى فأشدّ ليـــث ... وان بذل الندى فأسمح مـــزن (١)

وقال يمدح نور الدين :

تبدو الشجاعة من طلاقة وجهـــه ... كالرمح دلّ على القساوة لينـــه
ووراء يقظته أناةُ مجـــرب ... لله سطوة بأسه وسكونـــه
هذا الذى في الله صحّ جهـــاده ... هذا الذى بالله صحّ يقينـــه
هذا الذى بخل الزمانُ بمثلـــه ... والمشمخر الى العلى عرنينـــه
ملك الورى ملك أغرّ متـــوّج ... لا غدره يخشى ولا تلوينـــه
إن حلّ فالقرَنُ التليد أنيســـه ... أو سار فالظفر الشريف قرينـــه
فالدهر خاذلُ من أراد عنـــاده ... أبدا وجبّار السماء معينـــه
والدين يشهد أنه لمعـــزّه ... والشرك يعلم أنه لمهينـــه
ما زال يقسم ان يبدّد شملـــه ... والله يكره أن تمين يمينـــه
فتح الرها بالأمس فانفتحت لـــه ... أبواب ملك لا يزال مصونـــه (٢)

---

(١) الخريدة قسم الشام ١/٤٦١ ـ ٤٦٦
والروضتين ج ١ ق ١ ص ٦٩٥

أبو الحكم الأندلسي

قال يصف ما فعله الفرنج الألمان سنة ٥٤٣ بدمشق :

بشطيّ نهر داريـــا	أمورٌ ما تواتينـــا
وأقوامٌ رأوا سفك الـــد (٢)	ما في جلّق دينـــا
أتانا مائتا ألـــف	عديداً أو يزيدونـــا
فبعضهمو من أندلـــس	وبعضٌ من فلسطينـــا
ومن عكا ومن صـــور	ومن صيدا وتبنينـــا
إذا أبصرتهم أبصـــر	ت أقواماً مجانينـــا
ولكن حرّقوا فـــي عـــا	جل الحال البساتينـــا
وجازوا المرج والتسـ ـد يـــل أيضاً والميادينـــا	
تخالهمو قد ركبـــوا	فطائرهـــا جراذينـــا
وبين خيامهم ضمّـــوا الـ ـخنازر والقرابينـــا	
ورايات وصلبانـــا	على مسجد خاتونـــا
وقلنا إذ رأيناهـــم	لعل الله يكفينـــا
صاليهمُ صبيٌّ قـــد	أعان الخلق والدينـــا
وفتيان تخالهـــم	لدى الهيجا شياطينـــا
فولوا يطلبون المـــر	ج من شرقيّ جسرينـــا
ولكن غادروا إليـــا	س تحت الترب مدفونـــا
. . . .	. . . .
ومنهم مائتا علـــج	ونيّفٌ نحو تسعينـــا
وباقيهم الـــ الآن	مِنَ القتل يفرّونـــا (١)

---

(١) الروضتين ١ / ١ / ١٣٩

ابن القيسراني — ٥٤٨ هـ

له من قصيدة هنأ بها القاضي كمال الدين بن الشهرزوري عند فتح الرها :

ان المغانم يوم صافحت الرها … عطفت عليها كل أشوس ناكب
فتح الفتوح مهذر بتمامه … كالفجر في صدر النهار الآيب
لله أية وثقة بدرية … نصرت صحائبها بأيمن صاحب
ظفر ، كمالَ الدين ، كنت لقاحه … كم ناهض بالحرب غير محارب
وأمدكم جيش الملائك نصرة … بكتائب محفوفة بكتائب
جنبوا الدبور وقدموا ريح الصَّبا … جند النبوة هل لها من غالب
أترى الرها الورهاء يوم تمنعت … ظنت وجوب السور سورة لاعب
لا أين يا أسرى المهالك بعدها … ضاق الفضاء على نجاة الهارب
شدا الى أرض الفرنجة بعدها … ان الدروب على الطريق اللاحب
أغركم اثار رهن دمائكم … ما كان من أطراق لحظ الطالب
واذا رأيت الليث يجمع نفسه … دون الفريسة ، فهو عين الواثب (١)

وقال في تهنئة نور الدين بانتصاره على الفرنج يوم إنب :

هذي العزائم لا ما تدعي القضب … وذي المكارم لا ما قالت الكتب
وهذه الهمم اللاتي متى خطبت … تعثرت خلفها الأشعار والخطب
صافحتيا بن عماد الدين ذروتها … براحة للمساعي دونها تعب
ما زال جدك يبني كل شاهقة … حتى ابتنى قبة أوتادها الشهب
لله عزمك ما أمضى ، وهمك ما … أقضى اتساعا بما ضاقت به الحقب
يا ساهد الطرف والأجفان هاجعة … وثابت القلب والأحشاء تضطرب
أغرت سيوفك بالإفرنج راجفة … فؤاد رومية الكبرى لها يجب
ضربت كبشهم منها بقاصمة … أودى بها الصُّلب وانحطت بها الصُّلُب
قل للطغاة وإن صمت مسامعها … قولا لصم القنا في ذكره أرب
ما يوم إنب والأيام دائلة … من يومنا ببعيد ، لا ، ولا كثب
أغركم خدعة الآمال ظنكم … كم أسلم الجهل ظنا غره الكذب
غضبت للدين حتى لم يفتك رضى … وكان دين الهدى مرضاته الغضب
طهرت أرض الأعادي من دمائهم … طهارة كل سيف عندها جنب
حتى استطار شرار الزند قادحه … فالحرب تضرم والآجال تحتطب

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٩٨

والخيل من تحت قتلاها تقر لها   قوائم خانهن الركض والخبب
والنقع فوق صقال البيض منعقد   كما استقل دخان تحته لهب
والسيف هام على هام بمعركة   لا البيض ذو ذمة فيها ولا اليلب
والنبل كالوبل هطال وليس له   سوى القسي وأيد فوقها سحب
وللظبى ظفر حلو مذاقته   كأنما الضرب فيما بينهم ضرب
وللأسنة عما في صدورهم   مصادر ، أقلوب تلك أم قلب
خانوا فخانت رماح الطعن أيديهم   فاستسلموا ، وهي لا نبع ولا غرب
كذاك من لم يوق الله مهجته   لاقى المدى والقنا في كفه قصب
كانت سيوفهم أوحى حتوفهم   يا رب حائنة منجاتها العطب
حتى الطوارق كانت من طوارقهم   ثارت عليهم بها من تحتها النوب
أجسادهم في ثياب من دمائهم   مسلوبة ، وكأن القوم ما سلبوا
أنباء ملحمة لو أنها ذكرت   فيما مضى نسيت أيامها العرب
من كان يغزو بلاد الشرك مكتسبا   من الملوك فنور الدين محتسب
ذو غرة ما سمت والليل معتكر   إلا تدق عن شمس الضحى الحجب
أفعاله كاسمه في كل حادثة   ووجهه نائب عن وصفه اللقب
في كل يوم لفكري من وقائعه   شغل ، فكل مديحي فيه مقتضب
من باتت الأسد أسرى في سلاسله   هل يأسر الغلب إلا من له الغلب
فملوا سلب الإبرنز قاتله   وهل له غير انطاكية سلب
من للشقي بما لاقت فوارسه   وان يسائرها من تحته قتب
عجبت للصعدة السمراء مثمرة   برأسه ، إن أثمار القنا عجب
سما عليها سمو الماء أرذله   انبوبه في صعود أصلها صبب
ما فارقت عذبات التاج مفرقه   الا وهامته تاج ولا عذب
اذا القناة ابتغت في رأسه نفقا   بدا لثعلبها من نحره سرب
كنا نعد حمى أطرافنا ظفرا   فملكته الظبا ما ليس تحتسب
عمت فتوحك بالعدوى معاقلها   كأن تسليم هذا عند ذا جرب
لم يبق منهم سوى بيض بلا رمق   كما التوى بعد رأس الحية الذنب
فانهض الى المسجد الأقصى بذي لجب   يوليك أقصى المنى ، فالقدس مرتقب
وائذن لموجك في تطهير ساحله   فانما انت بحر لجه لجب
يا من أعاد ثغور الشام ضاحكة   من الظبا عن ثغور زانها الشنب
ما زلت تلحق عاصيها بطائعها   حتى أتمت ، وانطاكية ذنب
حللت من عقلها أيدي معاقلها   فاستعجلت ، والى ميثاقه الهرب
وأيقنت أنها تتلو مراكزها   وكيف يثبت لا جوق ولا طنب
أجريت من ثغر الاعناق أنفسها   جري الجفون امتراها بارح نصب
وما ركزت القنا إلا ومنك على   جسر الحديد هزبر غيله أشب
فاسعد بما نلته من كل صالحة   ياوي الى جنة المأوى لها نسب

انْ لا يكن احدَ الابدال في فلك الـــــــــــتقوى فلا تمارِ أنك القطــــــب
فلو تناسبَ أفلاك السما بهـــــــا لكان بينكما من عفة نســــــــب
هذا ، وهل كان في الاسلام مكرمــــة الا شهدْتَ وعادُ الهوى غيـــب (١)

وقال عند دخوله انطاكية في رأهبـــــــة :

أشجْنة الصليب وددت أنـــــــي ودين الله عندكم صليـــــــب
اذا أقبلت قبلني حبيـــــــب أسر به مدانقني حبيـــــــب
وهل بيني وبين الســـود فـــرق يرى الا التفجعوا النحيـــــب
حبيني صورة يحنى عليهـــــا أجيب اذا دعيت ولا تجيـــب
فليهصرها طرف من فتـــــاة من الرهبان قوتها أديـــــب
فلو تديسها ناجاه لفظـــــي لأمسى ، والنسيب له نسيـــب (٢)

ومن ذلك :

عرجا بالاشـــــارب كــي أقضـي مآربــــي
واسرقا نوم مقلـــــتي من جفون الكواعـــب
واعجبا من ضلالـــــتي بين عين وحاجـــــب
رب كأس حبابهـــــا من ثغور الحبايـــب
اسكرتني فبت ملـــــــــــــتقى على الترايـــــب (٣)

وقال في مدح نور الديـــن حين أسر جوسلين سنة ٥٤٥ هـ : المطلع :

أما وخيال زار من احبـــــــه لقد هاج من ذكراه ما لا اغبـــــه

---

(١) الروضتين ١/١/ ١٥٢ + الباهر في الدولة الاتابكيه ص ٩٣
+ البدايه والنهايه ١٢ / ٢٢٦ + الكامل ١١ /١٤٥
(٢) ديوان : ابن القيسرانـي ورقة ٦٤
(٣) ديوانه : ورقه ٧٨ والخريدة قسم الشام ١ /١٥٦

ثم انتقل الى المديح :

يكين الحجى أرض الزمان بنفســـه ... الى الآن حتى لان وانقاد صعبــه
حمى قبة الاسلام بالخيل ، فاغتدت ... واوتادها جرد الطعان وقبــه
فكم هبوة أو قمن بالكفر تحتهـا ... فما انقضت الا وللذل جنبــه
كيوم الرها الورهاء والهام يانـع ... ملئ برعي الهند واني خضبــه
وشهباء هاجتها وغىً صرخديــه ... ثناها وليل الحرب تنقض شهبــه
وحارم يوما بالعريمة فاغتـدت ... كوادي ثمود اذ رغا فيه صقبــه
وعاص على العاصي بارعن خاطـب ... دم الا غلة حتى انكا النصل خطبــه
بإنب لما اكسب الدال وانثنـى ... بصاحب انطاكية وهو كسبــه
غداة هوى شطرين للسيف رأســه ... وللرمح حتى توج الرأس قلبــه
على حين للخطي فيه عوامـل ... يعاقبه خفض الحسام ونصبــه
وقائع محمودية النصر لم تـزل ... غريبا بها عن موطن السيف غربــه
يقوم مقام الجيش فيها وحيـده ... وتفصل أفعال الكتائب كتبــه
وحينا نتشمعزة منقرابــه ... مضى وهو نصل والممالك قربــه
الى ان عدعمرتها كل بلـدة ... فليس من الأسار مالا يربــه
ولما نزا بالقمص عجب هوى بـه ... على أم رأس البغي والغدر عجبــه
فاصبح في الحجلين ينكر خطـوه ... بعيد على الرجلين في السعي قربــه
تعاتبه البشرى باخذ حصونـه ... فيا عانيا ضرب البشائر ضربــه
تناجي عزاز باسمقل باشـر ... فيلمنه لمن الصريع وسربــه
فان يكن المعهود من مثل عرشـه ... فهذا عمود الكفر قد طاح طنبــه
تقل لملوك الخافقين نصيحـة ... كذا عن طريق الليث يزار غلبــه
وخلوا عن الآفاق فالشرق شرقـه ... بحكم الردينيات والغرب غربــه
ولا يعتصم بالدرب طاغ على القنـا ... فان القنا في ثغرة النحر دربــه
رحيب فناء الحلم عند اقتـدرة ... اذا ضاق من صدر المملك رحبــه
عفو عن الجاني يكاد الذي جنـى ... يكر به شوقا الى العفو ذنبــه
امحض الاخلاص لله جنـة ... ومن يعتصم بالله ، فالله حسبــه
أبوك استرد الشام بالسيف عنـوة ... وللروم بالروم طالما غال خطبــه
اذا ذب عن أضغاث دنياه ملـك ... فانت الذي عن حوزة الدين ذبــه
رايت اتباع الحق خيرا مغبـة ... فافرجت عن رأي يسرك غبــه
وأوضحت ما بين الفريقين سنـة ... بها عرف المربوب من هو ربــه
وبينت نور الدين ما كان يختفـي ... دليلا بأن الله من أنت حزبــه (١)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٨٨

وقال بكنيسة أشمونيثا وهي للفرية والنصارى :

لو كنت ثالثنا باشمونيثا   حتى ترى التوحيد والتثليثا
لرأيت منا أعينا طامحة   تستحسن التذكير والتأنيثا
• • • • •
لما سألت غزالةً من ريقه   ملء الزجاجة ثم جاء حثيثا
قلت اسقني من فيك إنّ رضابه   قد ردّ أطيب ما حملت خبيثا
قال • • • • • ؟ • • • • المزاج نسيبة   ما عند قسّ يفهم الثالوثا
وبدا يناظرني بها عن دينه   فقطعت ليلا بالجدال مكيثا
•   • • • • • • • • • • • • • • • • • • (١)

وقال يمدح نور الدين زنكي سنة ٥٤٤ ويذكر وقعته بالفرنج يوم إنب :

ألا لله درك أيّ در   صريح جاء بالكرم الصريح
وعسكرك الذي استولى مسيحا   على ما بين فامية وسيح
ووقعتك التي بنت الموالي   صوادر عن قتيل أو جريح
بإنب يوم أبرزت المذاكي   من النقع النزالة في مسوح
غداة كأنما العاصي احمرارا   من الدم عبرة الجفن القريح
وقد وافاك بالابرنس حتف   أتيح له من القدر المتيح
تنلتا شحمها النفس إذ لا   يجود بنفسه غير الشحيح
ملأت بهم ضرائحهم فاسوا   وليس سوى القشاعم من ضريح
وعدت الى ذرا حلب حميدا   سمو البدر من بعد الجنوح
فإن حليت بنصرتك الليالي   فكم لسناك من زمن مليح
رويدك تمكن الهيجا فواقا   بحيث تريح من تعب المريح
فأنت وان أرحت الخيل وقتا   فهمك غير همّ المستريح (٢)

وقال في الصلح بين نور الدين ومجير الدين صاحب دمشق سنة ٥٤٥ وأثر الوحدة في الانتصار على الفرنج :

لك الله ان حاربت • فالنصر والفتح   وان شئت صلحا عقّ من حزبك الصلح
وهل أنت الا السيف في كل حالة   فطورا له حدّ وطورا له صفح
سقيت الردينيات حتى رددتها   ترنّح من سكر فخلّ القنا تصحو
وما كان كف العز إلا إشارة   الى الحزم لو لم يغضب السيف والرمح

---

(١) ديوانه ورقة ٧١   (٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٥

وقد علم الاعداء مذ بتّ جانحـــا — الى السلم ما تنوي بذاك وما تنحـــو
اذا ما دمشق ملّكتك عنانهـــا — تيقّن من في ايليا أنها الذبـــح
متى التف نقع الجحفلين على الهدى — فلا مهمه يحوي الضلال ولا سفـــح
اذا سار نور الدين في الجيش غازيـــا — فقولا لليل الإفك قد طلع الصبـــح
تركتَ قلوب الشرك تشكو جراحهـــا — فلا زالت الشكوى ولا اندمل الجـــرح
صبرت فكان الصبر غير مغبـــة — فسيق اليك الملك يسعى به النجـــح
كان القنا تجلو لوجه أمــــوره — ولو أهملت بلقيس ما عرفنا الصـــرح
بدولتك الغراء أصبح ضدهـــا — بهيما ولولا الحسن ما عرف القبـــح
وكم من قريح القلب لو بــات واردا — موارد هذا العدل ما مسه قـــرح
سحابك هذا الدهر جودا على الورى — على أنه ما زال في طبعه شـــح
وقد كان يمحو رسم كل فضيلـــة — ونحن نراه اليوم يثبت ما يمحـــو
بك ابتهج الالباب وانتهج الحجى — وأثمرت الآداب واطّرد المـــدح
ولاذت بك التقوى وعاذت بك العلى — ودانت لك الدنيا وعزّ بك الســـرح
فلا قلب الا قد تملكته هـــوى — ولا صدر الا قد جلاه لك النصـــح
وما الجود في الأملاك الا تجــارة — فمن فاته حمد الورى فاته الربـــح
ولم اختصر ما قلت الا لأنـــني — أعبر عما لا يقوم به الشـــرح (١)

وقال يمدح نور الديـــن :

تدارك ملك العرب ذ بــّـــا — الى أن عده منه مــــــدّ
وحلّ ذرى العواصم وهي نهـــبى — فاجلى الشرك حتى ليس ضــــد
ثنى يده عن الدنيا عفافــــا — ومال بها عن الأموال زهـــد
رأى حط المكوس عن الرعايــــا — فاهدر قبل ما أنشاه بعــــد
ومدّ لها رواق العدل شرعـــا — وقد طوى الرواق ومن يمـــد
وبات وعند باب العرش منهـــا — لدولته دعاء لا يــــردّ (٢)

وقال يمدح نور الدين بعد هزيمته للفرنج بيصرى* ، مطلعها :

يا ليت أن الصدّ مصـــــدود — أو لا ، فليت النوم مــــردود (٣)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٠

(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٤٨ .

(٣) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦ وانظر الكامل ١١ / ١٣٤ والباهر ٩٢

(*) وهم ابو شامة فظنها بصرى وهي عند ابن الاثير يغرى ، الكامل ١١ / ١٣٤

ثم خرج الى المدح فقال :

وكيف لا نثني على عيشنا المحمود والسلطان محمود

فليشكر الناس ظلال المنى   ان رواق العدل ممدود
ونيّرات الملك وهّاجة   وطالع الدولة مسعود

وصارم الاسلام لا ينثني   إلاّ وشلو الكفر مقدود
مناقبٌ لم تك موجودة   إلا ونور الدين موجود
مآثرٌ في درعه ضيغم   عليه تاج الملك معقود
نال المعالي مالكا حاكما   فهو سليمان وداود

ترتعش الأغوار من سيفه   إنّ رضاب الضرّ مورود
وكم له من وقعة يومها   عند ملوك الشرك مشهود
والقوم اما موهق صرعة   أو موثق بالقدّ مشدود
حتى اذا عادوا الى مثلها   قالت لهم هيبته عودوا
طالب بثأر ضمنته الظبى   فكل ما يضمن مردود
والكر والفر مجال الوغى   فطارد طورا ومطرود
وانما الافرنج من بغيهم   "عاد" وقد عاد لها "ثمود"
قد صحصح الحق فما جاحد   في قلبه بأسك مجحود
فكل مصر بك مستفتح   وكل ثغر بك مسدود

وقال فيه :

تفي بضمانها البيض الحداد   وتقضي دينها السمر الصعاد
وتدرك ثأرها من كل باغ   فوارس من عزائمها الجلاد
ويغشى حومة الهيجا همام   يشدّ بضبعه السبع الشداد
أظنوا أن نار الحرب تخبو   ونور الدين في يده الزناد
وجند كالصقور على صقور   اذا انقضوا على الأبطال صادوا
إذا أخفوا كيد تهم أخافوا   وان أبدوا عداوتهم أبادوا
ونصرة دولة حاميت عنها   وهل يخشى وأنت لها عماد
وان تثلّ التوالي ما تليه   بإنب ما يؤنبها سناد
جرت بالنصر أقلام العوالي   وليس سوى النجيع لها مداد
ونالت أرؤس الاعلاج خضبا   فنادى السيف قد وقع الحصاد
أحطت بهم فكان القتل صبرا   ولا طعن هناك ولا طراد
ولم يبرنس فوق الرمح رأس   توسّد والسنان له وساد
ترجل للسلام لفرسه   وليس سوى القناة له جواد

غضيض المقلتين ولا نعـــاسٌ ... وغائرُها وليدربه سهـــــاد
تمرّ واستوعب الدنيا فتوحـــا ... فلا غضبٌ عناك ولا وهـــاد
وزرْ بني الوغى مثوى جبيـــب ... فما عزباب مسلمة زيـــاد
ولا في باب فارسَ غير كِلـــس ... بفارسها يضيء بها الســداد
لانطاكية يحمي ذراهـــا ... وقد دانت لسطوتك البـــلاد
واذعنت الممالك واستجابـــت ... ملبية لدعوتك العبـــاد (١)

وقال في جارية حسناء اسمها ماريًا تغني بالدف ، خفيفة الروح في نهاية اللطف ومن أصواتهـــا التي تغايظ بها النصارى وتستميل بها قلوب المسلمـــين :

علقت بحبل من حبال محمـــد ... أمنتُ به من طارق الحدثـــان (٢)

فقال فيها بعد البعد عنهـــا :

ألا يا غزال الثغر هل أنت منشـــدي ... علقت بحبل من حبال محمـــد
ويا هل لذاك اليوم في الدهر ليلـــة ... تعود ، ولو عادت عقيبا بعد غـــد
فالقاك فيها هادي الكاس حاديـــا ... وحسبك من ساع بها ومغـــرد
الا حبذا عاري المحاسن عاطـــل ... محلىً باثواب الملاحة مرتـــد
اذا ما الأماني ما طلتني بوعدهـــا ... ذكرت له وصلا على غير موعـــد
وعهدي بماريًا سقى الله عهدهـــا ... بما عندها من حاجة الهائم الصـــدي
وفي ذلك الزنار تمثال فضـــة ... تنقط خديه العيون بعسجـــد
وقد غلب المصباح فيه على الدجـــى ... سناقمر في جنح ليل مجـــد
وكنت اذا غنت الزجاجة مـــوردا ... سقتني رضابا في اناء مـــورد
فيا لي من وجه كقنديل هيكـــل ... عليه من الصدغين محراب مسجـــد
لقد أسرتني حيث لا أبتغي الفـــدا ... فقل في أسير لا يسرّ بمفتـــد

وقال في فتح الرّها سنة ٥٣٩ هـ ومهنئا عماد الدين زنكـــي :

هو السيف لا ينبيك الا جـــلاده ... وهل طوق الاملاك الا نجـــاده
وعن شفر هذا النصر فلتأخذ الظبـــا ... سناها وان غضت العيون اتقـــاده
سمت قبة الاسلام فخرا بطولـــه ... ولولاه يسمو الدين لولا عمـــاده

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٦ ، وانظر أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢ / ٩
(٢) ديوانه : ورقه ٧٤ – ٧٥ والخريدة قسم الشام ١ / ١٠١

وذاد قسيم الدولة ابن قسيمها … عن اللهط لا يستطاع ذيادها
ليحميني الايمان أمن ترقت … رواسيه عزا واطمأن مهادها
وفتح حديث في السماع حديثه … شهي الى يوم المعاد معادها
أراع قلوبا طرن عن وكناتها … عليها غوالي كل صدر فؤادها
لقد كان في فتح الرها لالمه … على غير ما عند الملوك اعتقادها
يرجون ميلاد ابن مريم نصرة … ولم يغن عند القوم عنه ولادها
مدينة أفك منذ خمسين حجة … يفل حديد الهند عنها حدادها
تنوت مدى الابصار حتى لو أنها … ترقت اليه خان طرفا سوادها
وجاحتفز الملوك قيادها … الى ان ثناها من يعز قيادها
فأوسعها حر القراع مؤيد … بصير بتدوين الالد لدادها
كأن سنا لمح الاسنة حوله … سرار ولكن في يديه زنادها
فأضرمها نارين حربا وخدعة … فما راع الا سورها وانهدادها
فصدت صدور البكر عند افتضاضها … وهيهات كان السيف حتما سدادها
فيا ظفرا عم البلاد صلاحه … بمن كان قد عم البلاد فسادها
غداة كأن الهام في كل قونس … كمائم نيطت بالسيوف حصادها
فما مطلق الا وشد وثاقه … ولا موثق الا وحل صفادها
ولا منبر الا ترنح عوده … ولا مصحف الا أنار مدادها
فإن يشكل "الابرنز" فيها حياته … والا فقل للنجم كيف سهادها
وباتت سرايا القمص تقمص دونها … كما تتنزى عن حريق جرادها
الى اين يا أسرى الضلالة بعدها … لقد ذل غاويكم وعز رشادها
رويدكم لا مانع من مظفر … يعاند أسباب القضاء عنادها
تصيب سهام الرأي لو أن عزمه … رمى سد ذي القرنين أعيى سدادها
وقل لملوك الكفر تسلم بعدها … ممالكها ، ان البلاد بلادها
كذا عن طريق الصبح أيتها الدجى … فيا طالما غال الظلام اتقادها
فلو دون الافلاك منتحصنت … لامست صعادا فوقهن صعادها
ومن كان املاك السماوات جنده … فأية ارض لم تطأها جيادها
ولله عزم ماء سيحان ورده … وروضة قسطنطينية مستقادها (١)

وقال في جنيسة السيدة ، وهي قبة شاهقة للنصارى بانطاكيـة :

متى عجت يا صاح بالسيده … فسل عن فؤادي في الافئده
وقلبك حذره عن أن يصاد … فإن بها للهوى مصيده
وجوه تباهي قناديلها … ببهجة نيرانها الموقده
ترى كل مستضعف خصره … اذا ما دعا طرفه أنجده

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ /٩٧ وانظر الخريدة قسم الشام ١ /١٥٣ وانظر عقد الجمان جـ١٢ ق ١ ورقة ١٥٥

وذات رواد فٍ عند القيـــا ... م تحسبها أنها مقعـــده
وبدر ه من الشعر في غاسـق ... يضاحك أبيضُه أســوده
فيا لي من ذلك الزبرقـا ... ن اذا زرفن الليل او جعـده
محل خيال اذا ما رأيـت أمرده ه قلت : ما أمـرده
به كل نشوانة لحظهـا ... يطرق بين يدى عربـده
صوارم قاطعـة في الجفـو ... ن فهي مجرّدة منغمـده
فها أنا ومن في سبيل الغـرا ... م أورده الحب مـا أوردده
فهـل لدم فات من طالـب ... وهيهات أعجـز يوم غـده
وكيف يجازى بقتل النفـو ... س من لم يمد اليها يـده (١)

وقال يمدح نور الديـن :

لله عزمك أي سيف وغـى ... طبعت مضاربه على القهـر
ما زنت الحربُ العوان بـه ... الا انجلت عن معقل بكـر
هل وجه نور الدين غير سنى ... صدع الدجى عن خجلة البـدر
ملكٌ مهابته طليعتـه ... ابدا أمام جيوشه تسـري
كم فلّ كيد هم بصاعقـة ... شغلت قلوبهم عن الفكـر
تركت حصونهم سجونهـم ... فالقوم قبل الأسر في أسـر
عصم النواصم فهي ضاحكـة ... تجلو الظبى ثغرا على ثغـر
فاذا سرايا خيله قفلـت ... نهضت سرايا الخوف والذعـر
وربى القلاع بمثل جند لهـا ... حتى استكان الصخر بالصخـر
يا سائلي عن نهج سيرتـه ... هل غير مفرق هامه الفجـر
عدل حقيق من تأملـه ... ان يحيي العمرين بالذكـر
وشهامة في اللمخالصـة ... عقدت عليه تمائم الاجـر
وندى يد ما ضـر واردها ... الا يبيت مجاور البحـر
هذا المخيم في ذرا حلـب ... وثناؤه أبدا على ظهـر (٢)

قال يمدح عماد الدين زنكي سنة ٥٣٤ ه ويذكر هزيمة الفرنج قرب حصن بارين :

حذار منا وأنى ينفع الحـذر ... وهي الصوارم لا تبقي ولا تـذر
وأين ينجو ملوك الشرك من ملـك ... من خيله النصر لا بل جنده القـدر
سلوا سيوفا كأغماد السيوف بهـا ... صالوا فما غمدوا نصلا ولا شهـروا
حتى اذا ما عماد الدين أرهقهـم ... في مازق من سناميرق البصـر

---

(١) الخريده : قسم الشام ١/١٠٠
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٤٦ ه وانظر الدر الثمين ورقة ١٥ مخطوط

ولو تضيق لهم ذرعا مسالكهم … والموت لا ملجأ منه ولا وزر
وفي المسافة من دون النجاة لهم … طول وان كان في أقطارها قصر
وأصبح الدين لا عينا ولا أثرا … يخاف والكفر لا عين ولا أثر
فلا تخف بعدها الافرنج قاطبة … فالقوم ان نفروا ألوى بهم نفر
ان قاتلوا قتلوا او حاربوا حربوا … او طاردوا طردوا او حاصروا حصروا
وطالما استفحل الخطب البهيم بهم … حتى أتى ملك آراؤه غرر
والسيف يفترع أبكار أنفسهم … ومن هنالك قيل الصارم الذكر
لا فارقت ظل محيي العدل لامعة … كالصبح تطوي من الاعداء ما نشروا
ولا انثنى النصر عن أنصار دولته … بحيث كان وان كانوا به نصروا
حتى تعود ثغور الشام ضاحكة … كأنما حل في اكنافها عمر (١)

وقال في نور الدين عند قدومه الى حمص وقد استولى على سنجار وأعمال الرحبة والفرات سنة ٥٤٤ :

هذا الذى ولدت له الافكار … وتمخضت فالا به الاشعار
وجرت له خيل النهى في حلبة … وردت وصفو ضميرها المضمار
وأتت به نذر القوافي برهة … إن القوافي وحيها إنذار
حكمت سيفك بالممالك عنوة … حكما لعمري ما عليه غبار
يا أيها الملك المطيل نجاده … بز يدين بهديه الأبرار
يا ابن السيوف وهل فخرت بنسبة … الا سما بك قائم وغرار
فارقت دار الملك غير مفارق … لك من علاك بكل أرض دار
في عسكر يخفي كواكب ليله … نقعا فيطلعها القنا الخطار
جرار أذيال العجاج وراءه … وأمامه بل جحفل جرار
تدني لك الغايات أكبرهمة … نورية همم الملوك كبار
حتى ملأت الخافقين مهابة … دانت لسطوة نظامها الاقطار
وملكت سنجارا وما من بلدة … الا تمنت انها سنجار
وبسطت بالاموال كفا طالما … طالت بها الآمال وهي قصار
وجرت بأمداد الجياد شعابها … جري السيول وما سواك قرار
وثنى الفرات الى يديك عنانه … والبحر ما اتصلت به الانهار
وملكت رحبة مالك فتبرجت … منها لسيفك كاعب معطار
جاءتك في حلل الربيع وحليها … قبل الربيع شقائق وبهار
نثرت عليك هوى القلوب محبة … وتود لو أن النجوم نثار
فاتمت كالشمس المنيرة إن نأت … عن أفقها فلها به أقمار
من كان نور الدين ثم أجنة … ليل السرى خفيت به الأنوار

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٨٨ وانظر عقد الجمان جـ ١٢ ق ١ ورقه ١١٦

تدعو البلاد اليك ألسنة الظبـــــى … فتجيك الانجــاد والاغـــــوار
حتى عمدت الدين يا ابن عمـــادة … بقناً أسنتها عليه منـــــار
وثقلت من أسفار جدك قادمــــا … كالصبح ثم بغثره الاسفـــــار
يغشي البصائر نور وجهك بعد ما أعــــــ … تركت على قسماته الأبصـــــار
حتى عمرت بكل قلب صـــدره … حين الصدور من القلوب قفـــار
ان تمس في حلب رياحك غضــة … فلها بأنطاكية إعصـــــار
وغدت جيادك بالشام مقيمـــة … ولها بأطراف الدروب مغـــــار
ثم سبقت بها الى مهج العـــدى … صرف الردى ومسيرة احضـــــار

وأرى صياح القمص كان خديعـــة … فطغى وجار وليس ثَم وجـــــار
سال الصنيع فغير محقوق بهـــا … والخير يهدمها بنى الختـــــار
حتى اذا ما غبت أتدم غاتبــــا … أتداهم من ايدن منقعـــــرار
أمضى السلاح على عدوك بنيتـــه … بالغدر يطعن في الوغى الغـــدار
فاحسم عناد ذوي العناد بجحفــل … كالليل فيه من الصفيح نهـــــار
جند على جرد أمام صدورهـــا … صدر عليه من اليقين صـــدار
قد بايع الاشلاء بيعة نصـــرة … ولكل شادي أمة أنصـــــار
ملك له من جده لوفائــــه … جيش بمستفتح الامصـــــار
واذا الملوك تثاقلت عن غايـــة … وأرادها خفت به الاقـــدار
واذا انتضته الى الثغور عزيمــة … قامت مقام جنودها الاخبـــار (١)

وقال يمدح نور الدين بعد صدوره عن دمشق واستقرار أمرها ، ويذكر قتل البرنس ، وأسر جوسلين ، وأخذ بـــلاده :

دعا ما ادعى من غره النهي والامـــر … فما الملك الا ما حباك به القهـــر
ومن ثنت الدنيا اليه عنانهـــا … تصرف فيما شاء عن اذنه الدهـــر
ومن راهن الاقدار في صهوة العلـــى … فلن تدرك الشعرى مداه ولا الشعـــر
اذا الجد أمسى دون غايته المنـــى … فماذا عسى ان يبلغ النظم والنثـــر
ولمْ لا يلي أسنى الممالك مالـــك … زعيم بجيش من طلائعه النصـــر
ليهن دمشقا أن كرسي ملكهـــا … حُبي منك صدرا ضاق عن همه الصـــدر
وأنك نور الدين مذ زرت أرضهـــا … سمت بك حتى انحط عن نسرها النســـر
خطبت فلم يحجبك عنها وليهـــا … وخطب العلا بالسيف ما دونه ستـــر
جلاها لك الاقبال حورية السنـــا … عليها من الفرد وس أردية خضـــر
خلوب أتت من هواك محبـــة … نمت فانتمت جهرا وسر الهوى جهـــر
فسقت اليها الامن والعدل نحلـــة … فأمست ولا أسر تخاف ولا اصـــر
فان صافحت يمناك من بعد هجرهـــا … فاحلى التلاقي ما تقدمه هجـــر

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٧٤

وهل هي الا كالحصان تمنعت ... دلالا ؟ وإن عز الحيا وغلا المهـــر
ولكن اذا ما قستها بصداقهـــا ... فليس له قدر وليس لها قـــدر
هي الثغر امسى بالكراد يسر عابســـا ... وأصبح عن باب الفراديس يفتــر
على أنها لو لم تجبك إنابـــــة ... لأرهقها من بأسك الخوف والذعــر
فاما وقفت الخيل ناقمة الصـــدى ... على بردى من فوقها الورق النضـر
فمن بعد ما أوردتها حومة الوغـــى ... وأصدرتها والبيض منعلق شــزر
وجللتها نقعا أضاع شياتهـــا ... فلا شهبها شهب ولا شقرها شقــر
فلا النهر لما كاثر القصب القنـــا ... مكاثرة في كل نحر لها نحـــر
وقد شرقت أجرافه بدم العـــدى ... الى أن جرى العاصي وضحضاحه غمــر
صدعتهم صدع الزجاجة لا يـــد ... لجابرها ؟ ما كل كسر له جبــر
فلا ينتحل من بعدها الفخر واثــل ... فمن بارز الإبرنز كان له الفخـــر
ومن بز انطاكية من مليكهـــا ... أطاعته ألحاظ الدوء للمقاتل شـــزر
أخو الليث لولا عذره ؟ نزعت بـــه ... الى الذئب ؟ إن الذئب شيمته الغــدر
اتى راسه ركضا وغودر شلــوه ... وليس سوى عافي النسور له قبـــر
وقد كان في استبقائه لك منـــة ... هي الفتك لو لم تنتضب البيض والسمــر
كما أهدت الأقدار للقمص أسـره ... وأسعد قرن من حواه لك الأســـر
طغى وبغى عدوا على غلوائـه ... فأوبقه الكفران: عدواه والكفــر
وألقت بأيديها اليك حصونـه ... ولو لم تجب طوعا لجاء بها القســر
وأمست عزاز كاسمها بك عـزة ... تشق على النسرين لو أنها الوكــر
فسر ؟ واملأ الدنيا ضياء وبهجــة ... فيا لافق الداجي الى ذا السنا فقـــر
كأني بهذا العزم لا فل حـده ... وأقصاه بالاقصى ؟ وقد قضي الأمـــر
وقد أصبح البيت المقدس طاهـرا ... وليس سوى جاري الدماء له طهـــر
وقد أدت البيض الحداد فروضهـا ... فلا عهدة في عنق سيفك ولا نـــذر
وصلت بمحراب النبي صــوارم ... مساجدنا شفع ومساجدنا وتــر
وان يتيمم ساحل البحر مالكـا ... فلا عجب أن يملك الساحل البحـــر
سللت سيوفا أثكلت كل بلـدة ... بصاحبها حتى تخوفك البـــدر
اذا سار نور الدين في عزماتــه ... فقولا لليل الإفك قد طلع الفجــر
ولو لم يسر في عسكر من جنـوده ... لكان له من نفسه عسكر مجـــر
مليك سمت شم المنابر باسمــه ... كما زينت بها به الانجم الزهـــر
فيا كعبة ما زال في عرصاتهـا ... مواسم ؟ لا يروعها النفـــر
خلعت حلى الايام من حلل العلــى ... ملابس من أعلامها الحمد والشكــر
وتوجت ثغر الشام منك بحلــة ... تمنت لها بغداد لو أنها ثغـــر
فلا تفتخر مصر علينا بنيلهـــا ... فيمنا لك النيل ؟ وكل مصر بها مصـــر
رددت الجهاد الصعب سهلا سبيلــه ... ويا طال أمسى ومسلكه وعـــر
وأطمعت في الافرنج من كان بأســه ... تخوف ا يعتاده منهم كــر
واقحمت جرد الخيل أعلى حصونهــا ... ولولاك لم يهجم على كاثر كثـــر

ومن يدّعي في تلك الشراك شركـــــة	إذا لم يكن عند القوافي له ذكـــــر
هي القانتات الحافظات فروجهـــــا	فشاهدها عدل وراثقها سحــــــر
ولو لم يكن في فضلها وكمالهـــــا	سوى أنها من بعد عمر الفتى عمــــر (١)

وقال عند دخوله انطاكية ، ومره بالمواصم يذكر مواضع استحسنها ، وهي الثغريات ، فمن ذلك :

كم بالكنائس من مبتّلـــــــــة	مثل المهاة يزينها الخفــــــــر
من كلّ ساجدة لصورتهـــــــا	لو أنصفت سجدت لها الصـــــور
تديمة في جهل عاتقهـــــــا	طول وفي زنارها قصـــــــر
غرس الحياء بصحن وجنتهـــــا	وردا ، سقى أغصانه النظـــــر
وتكلمت عنها الجفون فلـــــو	حاورتها لأجابك الحـــــــور
وجلت مدارعها غدائرهـــــا	فأراك صفو ليلة قمـــــــر (٢)

وقال يصف أنطاكيـــــة :

واحربا في الثغور من بلـــــد	يضحك حسنا كأنـــــه ثغـــــر
بقصور كأنها بيـــــــع	ناطقة في خلالها الصـــــور
هالات طاقاتهن آهلـــــــة	يبسم في كل هالـــــة قمـــــر
سوافر كلما شعرن بنـــــا	برقعهن الحيـــــاء والخفـــــر
من كل وجه كأن صورتـــــه	بدر ولكن ليله شعـــــر
فهو إذا ما السلو حاربـــــه	كان لتلك الضفائـــر الظفـــر
يا عاذلي فيهن ، دع كلفـــــي	وانظر الى الشمس هل لها طـــور
وكن معيني على ذوي خـــدع	ان سالم القلب حارب النظـــر
سرت وخلفت في ديارهـــــم	قلبا تمنيت أنه بصـــــر
ولم أزل أغبط المقيم بهـــــا	للقرب حتى غبطت من أســـروا (٣)

ومن ثغرياته قولـــــه :

. . . .	. . . .
على أردافها قضبان بـــــان	تميس بفاتنات اللحظ حـــــور
اذا انتصبت فأقطار الـــدراري	وإن مالت فأفلاك البـــــدور

---

(١)	الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨٥ ــ ١٨٧ وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ١٥٧ والكامل ١١ / ١٥٥ ، والباهر ١٠٣

(٢)	ديوانه : ورقة ٦٢ مخطوط

(٣)	ديوانه : ورقة ٦٣ وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ١٠٠

فلو نطقتها بحلى يديهـــا ... جرت تلك الخصور على الخصـــور
سفرن من مكنّ بيوت شعـــر ... فأبرزن المحاسن في الشعـــور
وأمرجن النواظر في وجـــوه ... منزهة الخدود عن الخـــدور
تريك الحسن غير مرقعـــات ... ألا ما في البراقع من غـــرور
فلو خادعت طرفك لم تمـــنّ ... به إلا على قمر منـــير
فدعني من منازلة البـــوادي ... علي شغل بسكـــان القصـــور (١)

وبذلك في خمارة بجسر الحديد على باب أنطاكيـــة :

إن كان لا بد من السكـــر ... فمن يـــدي خمارة الجســـر
خمارة تطلع من نحرهـــا ... جارة بيضاء من نحـــر
تمشي فتمشـــي الراح في راحهـــا ... تهدي سنا الشمس إلى البـــدر
حتى إذا دارت على شربهـــا ... ألحاظها أغنت عن الخمـــر
ما زرتها إلا وباتت يـــدي ... أولى من الزنـــار بالخصـــر
وبت أسقى منجنا ريقهـــا ... كأسا من الثغر على الثغـــر (٢)

وقال وقد أجتاز بعزاز من نواحي حلب وهي من الافرنـــج :

أين عزي من روحتي بعـــزاز ... وجوازي على الظباء الجـــوازي
واليعافير ساحبـــات المغافيـــر علينا كالربرب المجتـــاز
بعيون كالمرهفات المواضـــي ... وقدود مثل القنا الهـــزاز
ونحور تقلدت بثغـــور ... ريقها ذوب سكـــر الأهـــواز
ووجوه لها نبـــوة حســـن ... غير أن الإعجـــاز في الأعجـــاز
كل خمصانة تشد طرف الزنـــار منسرة على هـــواز
ذات خصر يكاد يخفى على القـــا ... رمه مواقف المهمـــاز
لاحظتني فاتقيت منها على قلـــبي طرف له قوادم بـــاز
وسبتني لها ذوائب شعـــر ... عقدتها تاجا على إبـــرواز
من معيني على بنات بنـــي الاصـــفر غزوا فانني اليوم غـــاز (٣)

---

(١) ديوانه : ورقة ٦٦ مخطوط .
(٢) ديوانه : ورقة ٧٧
(٣) ديوانه : ورقة ٧٩ وانظر الخريدة قسم الشام ١ / ١٥٦ .

وقال في كنيسة بربـارة وهي للافرنج خاصـــة :

بدينك يا قس بربـــارة ... وما بت تتلوه في الخنـــد س
أجزني من الصور الناطقـــات ... متى قمن حولك في مـــد ر س
اذا هن أقبلن وقت الصـــلا ... ة في كل لون من الاطلـــس
وجالت مناطق أوساطهـــا ... وضاقت بها حلل السنـــد س
واجلسها ثقل أردافهـــا ... فيا لي منذ لك المجلـــس
فلولا التحرج في ملتـــي ... طلمت عليهن في برنـــس
وقمت الحن قدا ستهـــن ... غير بليد ولا أخـــر س
ولم تك فرسانها في الطعـــان ... باشجع مني ولا أفـــر س (٣)
الا حبذا ما استثار الهـــوى ... بتلك الكنائس من كنـــس
ترى كل فاتنة وجههـــا ... معرى بشمس الضحى مكنـــس
تكاد التماثيل من حسنـــه ... تفور بنا طاقة الانفـــس
فرنجية ساكن عقد هـــا ... وزنارها قلق المجلـــس
إذا قبلت صورة أقبلـــت ... عليها بناظرها الاشـــوس
فيا ليتني عندها دميـــة ... تراني ولا ريب في ملبـــس
فاقسم لو انني استطيـــع تحولت صورة مرجرجـــس (١)

وقال في مولد من مولدي الافرنج ابصره بـ "ياعو" من بلاد الشمال :

وشحنة كالهلال في " ياعـو " ... عيناه جند له واشيـــاع
وال وألبابنا ولايتـــه ... ومقطع والقلوب أقطـــاع
اذا بدا أذعنت لـــه حـــدق ... وان شدا ملكتـــه اسمـــاع
يحسن أوتار عوده بيـــد ... إيقاعها بالنفـــوس ايقاع (٢)

ولغي المكشـــوف :

لا انثني عنه بتعفيـــف
كم لي بانطاكية من هـــوى ... جيئن من الأقمـــار مصفـــوف
اذ لا أجيل العين إلا علـــى ... ما عندها البدر بموصـــوف
من كل بيضاء مسيحيـــة ... تلحظ طرفا غير مطـــروف
تجري ثناياها التي عـــا ... عنها وما القلب بمصـــروف
فالعين عنها العين مصروفـــة ... بالهيكل المكشـــوف بكشـــوف (٣)
هذا وكم وجه كشمس الضحـــى

---

(١) ديوانه : ورقـة ٧٠ (٢) ديوانه : ورقة ٧٩ (٣) ديوانه ورقة ٦٢

ولمهذب بافرنجية يصفها بزرقة العين:

لقد فتنتني فرنجيّة ... نسيم العبير بها يعبق
ففي ثوبها غصن ناعم ... وفي تاجها قمر مشرق
وان تك في عينها زرقة ... فانّ سنان القنا أزرق (١)

وهنا عماد الدين زنكي بفتح الرها سنة ٥٣٩ هـ:

أما آن ان يزهق الباطل ... وان ينجز العدة الماطل
الى م يغيب ملوك الضلال سيف باعناقها كافل
فلا تحفلن بصول الذئاب وقد زار الأسد الباسل
كذا ما انثنت قط صم الرماح او يتثنّى القنا الذابل
هو السيف إلا تكن حاملا لبزته يزك الحامل
وهل يمنع الدين الا فتى يصول انتقاما فيستاصل
أبا جعفر اشرقت دولة أضاء لها بدرك الكامل
فاما نصبت لرفع اسمها فانكما الفعل والفاعل
بل انقاد جامحها المصعبي وأخصب جانبها الماحل
ليهنك ما أفرج النصر عنه وما ناله الملك العادل
فتوح الفتوحات نظم القنا ة أعلى أنابيبها العامل
نقل للحقائق: الطريق الطريق فقد دلف القرم البازل
وجاهد في الله حق الجهاد محتسب بالعلى قائل
بجيش اذا ما ورد الثغور يروّى بما الأسل الناهل
اذا شمر البأس عن ساقه مضى وهو في نقعه رافل
فيا نعمة شمل الشاكرين فضلك وإفضالها الشامل
تخص عزلها منجب فيا سعد ما وضعت حامل
غداة ولا رمح دون الطعان الا وعقر به شائل
ولا نصل الا لمبارق دماء الطلى تحته وابل
وقد قلدوا السيف تحصينهم ولكنّه الناصر الخاذل
وهل يمنع السور من طالع يشايعه القدر النازل
شققتم اليها بحار الحديد ملتطما موجها طائل
وخضتم غمار الردى بالردى وعن نفسه يد القاتل
فان يك فتح الرها لجة فساحلها القدس والساحل
فهل علمت علم تلك الديار أنّ المقيم بها راحل
أرى القمص يأمل فوت الرماح ولا بد أن يضرب السابل

---

(١) ديوانه: ورقه ٦٦ ، وانظر الخريد قسم الشام ١ / ٩٩

يقوي مقاتله جاهدا … وهل عاقل بحدها عاقل
وكيف يضبط بواقي الجهات … لمن فات حسبته الحاصل
برايك في الحرب أم لفتك است … تقاد إصابتها النابل
وعن حد عزمك في المشكلات … قضى فمضى الصارم القاصل
نشرت الفضائل بعد الخمول … ألا ربما نبّه الخامل
وحطت البلاد على نأيها … كأنك في كلها نازل
أتحفظ الممالك من حافظ … وصدرك من حفظها آهل
ولم لا تحيط بآفاقها … وفي يدك الصامت القائل
إذا ما علا الخمس في حومة … ففارس بهمتها راجل
يغيض على الطرس سحر البيان … كأن بنانتها بابل
متى ترك المجد والمرهفات … فأحدها القاطع الواصل
بسابقة الملوك الأنام … وهل يدرك الحالم الجاهل
إذا خطب الأكرمون الثناء … فأكرم أصهارك الفاضل
أبز الكفاة وتاج العراق … ومن كفها بالندى حافل
تأمل مطالع هذا الكلام … وإلا فكوكبها آفل
أرى القوم تلفح آمالهم … وحالي من دونها حائل
فهل لي على البعد من قربة … يزيل بها غفلة الداخل
فإن الغمام صيد المنال … وفي كل فج له نائل
وأنت الزمان وأنت الأمان … من كل ما يفرق الذاهل
وأنت الحلي على المكرمات … فلا وصفت أنها عاطل (١)

وقال يمدح نور الدين سنة ٥٤٤ هـ بقصيدة مطلعها :

أبدى السلو خديعة للائم … وجنى الغلو على فؤاد هائم
يا أيها المغرى بأخبار الهوى … لا تخدعن عن الخبير العالم
اسأل غديتك بالصبابة مستى … واسأل بنور الدين صدر الصارم
ومطفقات ترتمي بأجنة … ومثقفات تهتدي بلهاذم
وصهوات لمت تدري في الوغى … بقوائم يدركن أيدي قوادم
كل ابن سابقة إذا ابتدر المدى … فلغير غرته يمين اللاطم
يرمي بفارسه أمام طريده … حتى يرى المهزوم خلف الهازم
ينمى إلى ملك إذا قسم الندى … والبأس كان المكتفى بالقاسم
متسربل بالحزم ساعة تلتقي … حلق البطان على جواد الحازم
ما بين منقطع الرقاب وسيفه … إلا اتصال يمينه بالقائم
سام الشآم وما لها من صفقة … لولاه ما أتيت على يد سائم
ولثمت عنها الثغور وأصبحت … فيها العواصم وهي غير عواصم

(١) الخريدة : قسم الشام ١/١٠٨-١١١ ، وانظر الروضتين جـ١ ق١ ص١٢٦

تلك التي جمحت على من رامهـــا ... ودعوت فانقادت بغير شكائـــم
وإذا سادتك أحتبت في دولـــة ... قام الزمان لها مقام الخـــادم
يا ابن الملوك وعصب أنصار الهـدى ... ما عند رأيك من ظبى وعزائـــم
تو إذا انتضت السيوف أكفهـــم ... قلت الصواعـق في متون غمائـــم
من كل منصور البيان بعجمـــة ... وهل الأسود الغلب غير أعاجـــم
أو مفصح بقرى الصوارم في الوغـى ... أسخى هناك بنفسه من حاتـــم
حصن بلادك هيبة لا رهبـــة ... فالدرع من عُدَد الشجاع الحـــازم
وارم الاعادي بالعوادي إنهـــا ... كفلت بفل قديمهم والقـــادم
أهلا بما حملت اليك جيادهـــم ... ما في ظهور الخيل غير غنائـــم
واسأل فوارس حاكموك الى القنـا ... في الحرب كيف رأوا لسان الحاكـــم
تلك العوامل اى أفعال المـــدى ... ما سكنت حركاتها بجـــوازم
هيهات يطمع في ... طامـــع ... طال البناء على يمين الهـــادم
كلفت همتك العلو فحلقـــت ... فكأنما هي دعوة في ظالـــم
قننت بأوطان النجوم فكم لهـــا ... من مارد قذفت اليه براجـــم
أنشأت في حلب غمامة رأفـــة ... أمددت ديمتها بنوء دائـــم
ألحقت أهل الفقر فيها بالغنـــى ... أمن المؤمل ثروة للعـــادم
وأظن ان الناس لما لم يـــروا ... عدلا كعدلك ارجفوا بالقائـــم
فتهن أوصاف العلى منظومـــة ... فالدر أنفسه بكف الناظـــم
جاءتك في حلل النباهة حاسـرا ... تختال بين فضائل ومكـــارم
عربية أنسابها لوأنهـــا ... لحقت أمية لأنتمت ... دارم
وتمل غرة كل فطر بعـــده ... مسر بالا أسنى ثواب الصائـــم
لا زال وجهك في عقود شهـــوره ... بدر التمام مقلدا بتمـــائم (١)

ولهفي مدح تاج الدين بورى سنة ٥١٣ :

الحق مبتهج والسيف مبتســـم ... وطال أعدا مجير الدين مقتســم
قدت الجياد وحصنت البلاد وأمـــنت العباد فأنت الحل والحـــرم
وجئت بالخيل من أقصى مرابطهـــا ... معاقد الحزم في أوساطها الحـــزم
حتى اذا ما أحاط المشركون بنـــا ... كالليل ، يلتهم الدنيا له ظُلَـــم
وأقبلوا ، لا من الإقبال ، في عـــدد ... يؤود حاسبه الاعياء والســـأم
أجريت بحرا من الماذي معتكـــرا ... أمواجه بأواسي الباس تلتطـــم
وسست جندك ، والرحمن يكلـــؤه ... سياسة ما يعفي أثرها نـــدم
وتقتفي الجيش والاعلام خافقـــة ... بالنصر ، كل قناة فوقها علـــم
يحوطك الله عونا عن عيونهـــم ... والله يعصم من بالله يعتصـــم
حتى إذا بدت الاراء ضاحكـــة ... واقبلت أوجه الإقبال تبتســـم

---

(١) الخريدة ، قسم الشام : ج ١ / ١١٢ ــ ١١٤ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٤٩

اتبعت جنّ سراياهم مضمّرة ... فيها نجوم إذا جدّ الوغى رجموا
والنصر دان وخيل الله مقبلة ... ترجو الشهادة في الهيجا وتغتنم
صابّ الحمام عليهم والسهام معا ... فما دروا أيما الهطالة الديم
سروا لينتهبوا الأعمار فانتهبوا ... قتلا ، ويغتنموا الاموال فاغتنموا
وأقبلت خيلنا تردي بخيلهم ... مجنوبة ، وعلى أرماحنا القمم
وادبر الملك الطاغي يزعزعه ... حرّ الأسنة ، وهو البارد الشبم
واتوا دمشق فظنوا أنها جدة ... ففارقوها وفي أيديهم العدم
وأيقنوا من ضياء الصبح أنهم ... إن لم يزولوا سراعا زالت الشيم
فغادروا اكثر القربان وانجلفوا ... وخلفوا اكبر الصلبان وانهزموا
مستسلمين لايدي المسلمين وقد ... أغرى القنا بتمادي قطفهم نهم
لا يملك الجسم دفعا عن مقاتله ... كأنه حين يغشاه الردى صنم
وحاولوا المسجد الأدنى فما عبرت ... عن مسجد القدم الأقصى لهم قدم (١)

وله في كنيسة القيسان :

يا غزال الثغور بالقيسان ... أنت من غال ذكره نسياني
اسأل السانحات عنك نهارا ... فاذا الليل جنّ جنّ جناني
كيف يصغي الى السلو جماحي ... بعد ما أطلق الغرام عناني
حبذا يوم باكرتنا الزنانير ... تر ترينا القضبان في الكثبان
وعلى موقف الأساقف ظبي ... يفرس الأسد من بني الفرسان
غصن كابت من المرمر المنضو ... د في غير منبت الأغصان
. . . .
فارى من أراني الشمس شمسا ... سا على الارض تالي الألحان (٢)

ولقي دير سمعان وهو على فرسخين من أنطاكيـة :

يا هل سمعت بدير سمعان ... وما به للعيون من عان
أوقفت للصلاة هيكله ... أم نبتت من منابت البستان
في كل غصن تفاحتا خجل ... تلقاك من مثلها ببستان
من ذات بشر يلوح في بشر ... وذات جان يبدو على جان
يرمي فيصمي عن غير ناطقة ... ما كل قوس ترمي بمرنان
. . . .
تسجد للشمس وهي مرضية ... في الافق عن موجب غفران
وانصرفوا والفؤاد أفئدة ... من كل نصرانة ونصران
يا حسن عيد الصليب لو أن كا ... ن الدهر فيهم أعياد صلبان (٣)

---

(١) الروضتين : جـ ١ ق ١ / ١٤١ (٢) ديوانه : ورقة ٦٧ (٣) ديوانه : ورقة ٧٢

وقال في تفرباتـــــه :

اذا ما زرت ماريـــــــا ... فما سعدى وماريّـــــا ؟
فتاة كقضيب البـــــــا ... نِ يثنيها الصَّبا طيـــــا
تلوّى كالمواعيـــــــد ... أطالت عمرها ليّـــــا
لها وجهٌ مسيحـــــيٌّ ... ترى الدّنيا به حيـــــا
اذا ما قابلته الشمْـــــس لم تبصرْ له فيـــــا
فيا أحسن ما أعـــــر ... ضَ دلالا ومَن حَيّـــــا
....(١)

---

(١) ديوانه : ورقة ٧٦

قال يمدح نور الدين :

وما يوم الفرنجة منك فذ   فتحصر عده خطط الحساب
أجاش الارجاء لهم خميسا   بعيد النور ملتطم العباب
وأحكم بالحليم لهم حطاما   أمر بريمه مر السراب
مشوا متماندين الى صليب   يرق بنبوة الصم الصلاب
تلقتهم المنايا في الثنايا   وتفجأهم شعوب من الشعاب
أطاعتهم كبشهم هناة   فكنت ذباب طائشة الذباب
حللت التاج عنه وحل تاجا   فكان العقد من عقد الكعاب
أناف على العقاب فكان أشهى   وأبهى منه في ظل العقاب
فأشرف وهو عن شرف مسوق   وأبعد وهو غاية الانتصاب
فكاشرها الشوامت وهو نشوى   ثناه مناه عن رجع الجواب
بعيدا من مراح واقتراح   يؤوب له الى يوم المآب
وكم سوط بخيلك أقبلوه الصدور فكان سوطا من عذاب
تركتهم بأرض الشام شاما   لنافر تتقيه أو لناب
هتكت حجابه والشمس وسنى   بشمس لا توارى بالحجاب
بأبيض من جبينك الهند صاف   مصون المتن مبتذل الذباب
له سنة الشيوخ صفاء شيب   وفي شطواته نزق الشباب
الا يا ناظر الدنيا بعين   أرته علاً بها خدع السراب
تبحلتها فطلقها ثلاثا   على عز التملق والخضاب
فلا يأوى الى رأي شعاع   ولا يثني الى أمل خراب
ترفع عن مجاوزة الاماني   وحلق عن محاضرة التصابي
حباة الله كل درور شمس   على مثوى أبيك من التراب
لقد ألقى الى الاسلام عضبا   يطبق في النوائب غير نابي
تجيش له رواس كالرواسي   تمد لها جفان كالجوابي (١)

وقال في تهنئة نور الدين بفتح عزاز وغيرهما سنة ٥٤٥ :

ندى القلوب بالبابها   وساق الملوك بأربابها
كتائب تربي جنود الصليب منها بتقليع أصلابها
اذا ما أنقت من تراح الكماة   كست وقدها جمر ألبابها
تيرنس منها البرنس التياب   وحلته وقع أدبابها
عشية فنت على انصب   نفوس النصارى بنصابها
وقام لاحمد محمودها   يجدع مسوارن أحزابها

---

(١)   الروضتين ج ١ ق ١ / ٢٢٩

تجلى لهـــا حيـــدري الصـــــبا
مورّث أركاسها ـــــــــن اب
همام اذا اصوصبتْبيـــــــــوة
مضى وجنى لك حلو الشهـــــــا
واوص بها لك من بعد مـــــــا
واقسم جدك الا يليـــــــــق
صبحت دمشق بمشق الجيـــــاد
واصلت رايك قبل الحســـــام
فاعدلك ما لم تنلـــــه يـــــد
وانتصرت نضل الزمـــــــــا
تخوّنها الجور فاستدركـــــــت
وتاجات قورس يا لشائـــــــلات
فما رمتَ حتى رمستبيضهـــــــا
وعزت عزاز فأذ للتهـــــــــا
بأشمخ من أنفها منكبـــــــا
دلفت لميطاء أمّ النجـــــــو
وعذراء مذ عمّرت ما اهتـــــدت
تفرعها بفروع الوشيـــــــــ
وعوت اذا انبضت أغضـــــــت
ومحدودبات تطير الخطـــــوب
تصوب عقبان ريب المنـــــون
وما ركضت حول شهرالهضـــــا
فأذنت بمعتصم بالكتـــــاب
بمعتصم النـدى والهـــــدى
محلى المحل بوصف الفتـــــوق
وتعجز مداحه أن تحيـــــط
بدائع لو رد دهر رمـــــين
واين ابن اوس وآياتـــــه
من الآء عاد عتيق لهـــــا
فأيامه منحبور تكـــــاد
لك الفضل اذ راسلتك الجيـــاد
اذا اعتسفت همم الجائريـــن
أبوك أبوها وأنت ابنهـــــا الـ
أتوك لموجرة بالفـــــــرور
حذار فعند ابتسام النيـــــو
ولا تخدعوا بافترار الليـــــو

ع اغلب مود بغلابهـــــــــا
أكول الفوارس شرابهـــــــا
دها بهاشم أعصابهـــــــا
دما تمطق من صابهـــــــا
تضرّج مقر أوصابهـــــــا
بنيرك ملبس أثوابهـــــــا
زبور الوغى بين أحدابهـــــا
فخمد جمرة أجلابهـــــا
وفازت رناد بأصحابهـــــا
م من حمص تأخير ركابهـــــا
بحرك أغبار طبطابهـــــا
تمع القناسم أذنابهـــــا
اليك أزمة شرابهـــــا
بمجر مضيق لاسهابهـــــا
واكثر من عد توابهـــــا
م في الامر ابطاء أترابهـــــا
فنون الليالي لاضرابهـــــا
ع مثمرة هام أوشابهـــــا
ذكاء لارسال نشابهـــــا
ملاغط ألسن خطابهـــــا
متى زممتها بأعقابهـــــا
ب الاسجد ن لانصابهـــــا
وهوب الممالك أسلابهـــــا
هموس السرى غير هيابهـــــا
ووصف التهاني وأربابهـــــا
بآدابه تلك آدابهـــــا
بنات حبيب بأحبابهـــــا
من الآء أودت بحسابهـــــا
ورد عليها ابن خطابهـــــا
يطير بها فرط أعجابهـــــا
وتامت أدلة انجابهـــــا
أتيت السيادة من بابهـــــا
عريق ودمية محرابهـــــا
تمطت هواها نا هوى بهـــــا
ث تخشى صواعق ألهابهـــــا
ث فالنار في برد أنيابهـــــا (١)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٨١ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ١ ورقه ٢٠٦

وأنشده بحلب سنة ٥٤٧ قصيدة أولها :

المجد ما ادرعت ثراك هضابــه ... وتقلقلت شمّوبوشما بــه
ملكٌ تكنّف دين أحمد كنفــه ... فأضاءنيّر وصاب شهابــه
فالعدل حيث تصرّفت أحكامــه ... والأمن حيث تصرمت أسرابــه
متهلّل والموت في نبراتــه ... يُرجى ويرهب خوفه وعقابــه
عقد اللواء وسار يقدمه ومــا ... حلت عقود تومها أترابــه
أسد فرائسه الفوارس والظبــى ... أطفاروا لسمهرية غابــه
طبع الحديدُ فكانَ منه جنانــه ... وسنا نوازها بموثيابــه
وتهلّل إن كتب الوجوه كأنمــا ... أعداؤه تحت الوغـى أحبابــه
نصرت بمحمود شريعة أحمــد ... وأرى الصحابة ما اعتداه صحابــه
ما غاب أصلع هاشم فيهمــا ولا الـــفاروق باء بخطبه خطابــه
أبناء قيلة قائمون بنصــره ... إن أجلبت من قاسط أحزابــه
صبحوا محلقة البرنس بحالــق ... خرق الضباب من القلوب ضبابــه
ما زال يغلب من يغامضالـــه ... حتى أتيم من الهدى غلابــه
ملقى بوجه الاصرّين تزيلــت ... آراؤه وتزايلــت الابــه
دون الارتك سخت به نجداتــه ... وجياده وقرابه وقرابــه
سلبته درة تاجه يد ضيغــم ... لم تنجه من بأسه أسلابــه
وأتته تحلب جوسلين جنائــب ... هبت فقل الى القتال ضبابــه
أسرته لا منعت سراه وعــزه ... بالقاع إن رام الورود سرابــه
يمشي فيسمعه وقائع قيـــده ... هزبرا تقيء دما له أنيابــه
لا تل باشره ولا كيسونــه ... صدت منى عنه ولا عنتابــه
ضمنت شقاوته سعادة صافــح ... غطى على إعنانه إعتابــه
ما زال يغدر ثم يغدر قــادرا ... حتى أتاه بجارم أصحابــه
نصر الاماني أن يملأه عصــرك الأ ... سلامضروبا عليه حجابــه
مجر يجرّ الى الغنائم قبــه ... وسعى يزار على الفتوح قبابــه (١)

وقال يمدحه ويذكر ظفره بصاحــب انطاكيه وأصحابه :

أقوى الضلال وأقفرت عرصاتــه ... وعلا الهدى وتبلجت قسماتــه
وانتاش دين محمد محمــوده ... من بعد ما علت دما عبراتــه
ردت على الاسلام عصر شبابــه ... وثباته من دونه وثباتــه
أرسى قواعده وقد عمــاده ... سندا وشيد سوره سوراتــه
وأعاد وجه الحق أبيض ناصعــا ... إصلاته وصلاته وصلاتــه

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢١٨

رغبت لنور الدين نارُ عزيمـــــة
ملكَ مجالسُ لهوهِ مشداتـــــه
يغري بحثحثة اليراع بنانـــــه
ويروقه ثغر المدى قان دمـــــا
فصبوحه خمرُ الطلى وغبوقـــــه
فتح تعممت السماءُ بفخـــــره
صبغتْ على الاسلام بيض حجولـــــه
وانهلّ فوق الابطحين غمامـــــه
لله يلجة ليله مخضتْ بـــــه
حط التوامس فيه بعد قماصهـــــا
نبذوا السلاح لضيغم عاداتـــــه
لجرب عمرية غضباتـــــه
تحيا لضيق صفـــا مأســـــراوه
بين الجبال خواضعا أعناقهـــــا
نشرت على حلب عقود بنود هـــــم
روض جناه لها مكرّ جيـــــاده
متساندين على الرّحال كما انتشـــــى
لم تنبت الاجامُ قبل رماحـــــه
فليحمد الاسلام ماجد حمت لـــــه
وسقى صدى ذاك الحيا صوب الحيـــــا
نصب السرير وطال عنه ومهّـــــدت
ما ضر هذا البدر وهو محلـــــق
في كل يوم تستطيل تناتـــــه
وتظل ترتم في الضحى آثـــــاره
أين الالى ملأوا الطروس زخارفـــــا
غدتوا باعناق السواطل مالـــــه
لو فصلوا سمطا ببعض فتوحـــــه
يمسي تنانيه بناشقيونـــــه
بلتان من دون الملوك تفرهـــــا
تحدت بهم عن خطوه همّاتهـــــم
سكنوا مجففة الحصان واسكنـــــت
لولا للطائي غرة فتحـــــه
أوهب الحليري طيب نسيمـــــه
صدم الصليب على صلابة عـــــوده
وسقى البرنس وقد تبرنس ذلـــــة
فانقاد في خطم المنية أنفـــــه

رجعت لها عن طبعها ظلماتـــــه
ومشوقة بين الصفوف شذاتـــــه
ان لذّ حثحثة الكؤوس لداتـــــه
لا الثغرُ يعبق في لماه لثاتـــــه
نداف النفوس تديرها نشواتـــــه
وهفت على أغصانها عذباتُـــــه
واختال في أوضاحها جبهاتـــــه
وسرت الى سكينها نفحاتـــــه
واليوم ذبحَ وشيهَ ساعاتـــــه
ضرب يصلصل في الطلى صفقاتـــــه
غرس الفوارس والقنا غاباتـــــه
لله مختصمة غزواتـــــه
وتغيض ماءُ شؤونها نقماتـــــه
كالذود نابت عن براصد اتـــــه
حلل الربيع تناسقت زهراتـــــه
واستوأرت حماله حملاتـــــه
ضرب أمالت هامه قهواتـــــه
شجرا أصول فروعه ثمراتـــــه
شربات غرس هذه مجناتـــــه
خير الثرى ما كنت أنتنباتـــــه
لمقر منصبك السرى سراتـــــه
إن الكواكب في الذرى ضراتـــــه
فوق السماء وتعتلي درجاتـــــه
مجداً والسنةُ الزمان رواتـــــه
عن نزف بحر هذه قطراتـــــه
من جوهر فاتتهم فذاتـــــه
سفرت بما افتعلوا لهم غفلاتـــــه
فوق القوانس والقنا قيناتـــــه
حركاته وتنيمها يقظاتـــــه
وسمت به عن قطوعم سماتـــــه
زحل الرحال من السنها عزماتـــــه
باءت بحمل تأومباءاتـــــه
لاحتش من تاريخه حشواتـــــه
فتفرقت أيدي سبا خشباتـــــه
بالروح مقر ما جنتحفراتـــــه
يوم الخطيم وأقصرت سرواتـــــه

وضى يوثب تحت أنب همـــة ... أمست زوافر فيهـــا زفراتـــه
أسد تبوّأ كالفرنف فجاتــه ... فتبوأت طرف السنان شواتــه
دون النجوم منضّا ولطالمـــا ... أغضت وقد كسرّت لها لحظاتــه
فجلوته تبكي الأصادق تحتــه ... بدماء إذا ضحكت لهشُماتــه
تمشي القناة برأسه وهو الـــذى ... نظمت مدارُ النيرين قناتــه
لو ذاق الميوق يوم رفعتــه ... لأراك شاهدَ خفضه إخباتــه
ما انقاد قبلك انفبخزامـــه ... كُلا ، ولا همّت لها هدراتــه
طيان خلف السرج طال زئـــيره ... نطقت سطاك له فطال صماتــه
لما بدا مسودَ رأيك فوقــه ... ميمُن نصرك نكّست راياتــه
ورأى سيوفك كالصوالج طاوحـــت ... مثل الكرين تقلصت كراتــه
ولى وقد شربت ظباك كماتــه ... تحت العجاج وأسلمته حماتــه
ترك الكنائس والكناسَ لنا هـــب، ... بالبيض ينهب ما حواه عفاتــه
غلاّب أروع لا يميت عداتــه ... داء المطال ولا تعيش عداتــه
للوحش يلتقَ بالسرا يقتاتــه ... ما كان قبل بصيدة يقتاتــه
اليوم ملكك الفراغ قلاعــه ... متسنما ما استشرفت شرفاتــه
وغدا تحلّ لك الحلائل أسهـــم ... متوزعاتٌ بينهن بناتــه
أوطات أطراف السنابك هامــه ... فتقاذفت بستيقها قذفاتــه
لا زال هذا الملك يشمخ شأنــه ... أبدا ويكفت في الحضيض شناتــه
ما أخطأتك يدُ الزمان فدونــه ... من شاء فلتسرع اليه هناتــه
أنت الذى يحلي الحياة حياتــه ... وتهبّ أرواح القصيد هباتــه (١)

وقال يمدح نور الديـــن :

أيا نور دين خبا نــوره ... وقد شاع عدلك فيه اتقــد
رآك الصليب صليب القنـــا ... ة أمين المنار متين العمـــد
تهم فسلبه ما اقتنـــى ... وتدأن فشكلسه ما اقتشـــد
زنتهم أمس عن صرخـــد ... فغضوا كأن نساما شـــرد
يوم الضريبة أتبلتهـــم ... عراما تتحلـــب منها الأســد
حبيت مليكهم في الصفـــاد ... وعفوك عنهم العضـــد
وتبل أزرتهم في الرهـــا ... موازن مزقن جردَ الجـــرد
بقيت ترق خرق الزمـــان ... قياما لابنائه ان قعـــد
تثقف من زيغها التـــوى ... وتصلح من طبعه ما فســـد (٢)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٦ وأعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ٢ / ١٦

(٢) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥

ولـه فيـــــه :

أيا ملك الدنيا الحلاحل والـــــذى ... له الارض دارٌ والبرية أعبـــــد
وليست بدعوى لا يقوم دليلهـــــا ... ولكنه الحق الذى ليس يجحـــــد
أخو الغزوات كالعقود تناسقـــــت ... تحل بأجياد الجياد وتعقـــــد
لسان بذكر الله يكسو نهـــــاره ... بهاء وحتى في الدجى ليس يرقـــــد
وبذل وعدل أعرقا وتألقـــــا ... فلا الورد مثمود ولا الباب موصـــــد
مرام سمائي ، وحزم مســـــدد ... ورأى شهابي وعزم مؤيـــــد (١)

وله فيــــــه :

أبدا تنكب عن ضلال ســـــادرا ... يقوب زندك او تدل على هـــــدى
سدت الكهول من الملوك مرا هقـــــا ... وشاوت شيبهم البوازل أمـــــردا
ان شيدوا صرحا أناف منـــــاره ... أو اسجدوا للكأس جدد مسجـــــدا
واذا استهزتهم قلائد معبـــــد ... هزته موعظة تمرف معبـــــدا
قسما لشام الشام منك مهنـــــد ... ارضا مشهورا وراع مقلـــــدا
وتمسك الاسلام منك بعـــــروة ... اللا برم حبلها فاستحصـــــدا
اشفى فكنت شفاءه من حـــــادث ... غاد امار ضمرد ى بالمـــــردى
كنت الصباح لليله لما وجـــــى ... والنوث كنت لظاه حين توقـــــدا
لله يوم أطلعتك به النـــــوى ... يجتاب من مهج الاعادى مجســـــدا
نشوان غنتك الظبى مفلولـــــة ... وامال عطفيك الوشيج مقصـــــدا
في معرك ما قام باسك دونـــــه ... الا اقام المشركين واقعـــــدا
ولكم مكر قمت فيه معلمـــــا ... ارضى إلهك والمسيح وأصعـــــدا
يوم الفريصة والحليم وحـــــارم ... وشاب باسوطا وشاب وصرخـــــدا
لا يعد الا شرا عجداه انـــــه ... ماسل فيهم حاكما الا اعتـــــدى
أصدقتهم من بعد ما مادوا المـــــلا ... رجالا فهل كانت سيوفك مرتـــــدا
طلعت نجوم الحق من آفاقهـــــا ... وأعادها كسر النصور كما بـــــدا
وهوى الصليب وحزبه وتبختر الا ... سلام من بعد التساقف أغيـــــدا (٢)
مهق المجلي للخطي فرفـــــه ... نسق بثم ، وقد رفعت بالابتـــــدا (٢)

وكتب الى نور الدين من حماة وهو محاصر دمشق قصيدة ينال فيها من صاحبها يقول :

أبوك اب لو كان للناس كلهـــــم ... أبا ورضوا وطء النجوم لقعـــــدوا
وما مات حتى سد ثلمة ملكـــــه ... بك الله ترمى ما رماه فتقصـــــد
عدمت ابن ذى اللغدين فانحل عقـــــده ... وكالسلك قد أمسى يحل ويعقـــــد
يقلب خلف السجف عينا سخينـــــة ... ويبكي باخرى ذات شتر وسهـــــد
ولا غرو قد أبقى أبوه وجـــــده ... لكل يوم ثوب عجز يجـــــدد
فيا راكبا إما عرضت فبلغـــــن ... بيوتا على جيرون بالذل تعمـــــد

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٥

(٢) [illegible]

وقل لمبير الدين وهو مجـــــيره … بزعم لموجه الحقيقة أزيـــــــد
حملت الصليب باغيا ، ونبذتـــــه … وتنزه مطووس النبـــــــات وادرد
وحاربت حزب الله والله ناصـــــر … لناصر دين أحمد أحمـــــــد
تنمرت حينا والبلاء موكـــــــل … ولا بد من يوم به تتنهــــــود
وأتممها ذات اليهود بايليـــــــا … وموضعها من بختنصر أسـود
كبعض الذي جرعته فسرطتـــــــه … وأيد فيه من عماك المؤيـــــد
ولايته عزل اليك موجـــــــهه … وتصحيفه تتل عليك مؤبـــــد
رماه بباب دمشق فلم تكـــــــن … سوى بقلة حمقاء بالحق تحصد
وجالدت جلادا وأنت مؤنـــــــث … تذكرت والجلاد أدهى وأجلـد
تطاولت لانفس تسمـــــــو ولا أب … وراءك زحفا أنما أنت مقعـد
أصلاة نور الدين تبغي ودونهـــــا الأ … سنة بتر والعوامل تعضـد
بمحمود المحمود سيفا وساعـــــدا … حملت لقد ناجتك صمصا مؤيد
وهل يستوى سار تأسد طاويـــــا … ونشوان يعلى معصما ويؤبـد
تنمرت أما بل تخنثت والـــــــدا … وعثا فمزق الكفر فيك مسـرد
تخذت بني العوني أسراوأسـرة … لكي يصلحوا ما في يديك فأفسدوا
لعمري لنعم العبد أنت تجيء الـــــــموالي وتواليه خوانا فيحمـد
اليكهني الصلات عن متشـــــــاوس … له الشام مرفا والعراق مرفـد
وما مصر إلا بعض أمصاره الـــــتي … الى أمر مصى تماء وتحفـد
أنيبوا اليه وارحم قـــــــادر … لها الصفح دين ، وأقبلوا النصح ترشدوا
ولا ترشفوا نفث المؤيد إنـــــه … عن الخير يزوى أو الى المين يسند
وفروا الى مولاكم والذي لـــــه … عليكم أياد وشمها ليس يجحـد
ولا تكفروا إنما أنتم لــــــه … ومنهو عند حوران يشهــــد
غداة على الجولان جول وللظبـــى … رعود ، فريص الموت منهن يرعـد
ولما اكفهر اليوم واربد وجهـــه … وعوف مرهون وغر مزيــــد
وأيقن من بين السدير وجاســـم … بأن الجرار السود بالجرد تجــرد
رددتهم على بصرى وصرخد خيلـــه … وقد أبصرت بصرى رداها وصرخـد
وطاروا تهز المرهفات طلابهـــم … كما انصاع من أسد نعام مشـــرد
وليلة ألقى الشرك بالمرج بركـــه … ومارج نيران الوغى تتوقــد
رمى وأخو مغرب الشمس دونكـــم … بمشرقها غضبان يحدو ويسعـد
فمذ وردتماء الأرنط مغـــــذة … أثارت مثورا غلة ليس تبـرد
أيا سيف شامته يد الملك صارمـــا … فيمهد اذ يسرى ، ويسرى فيمهـد
دمشق ، دمشق : انما القدس سرحـــة … ومركزها سور عليها ممـــرد
حموها لكي يحموا وقد بلغ المـــدى … بهم أجل حتم وعمر منفـــد
متى أنا راء طائر الفتح صادحـــا … يرفرف في أرجائها ويغـــرد ؟ (١)

---

(١) الروضتين ١/ ١٩٧

وأنشده بحمص سنة ٥٤٦ قصيدة منها :

الدهر أنت وداراك الدنيا ومـــــن   في المد يمد مؤمل يصـــود
وازمة الاقدار طوع يديـــــدك والا   يام جندك والأنام عبيـــد
فت الورى وعقدت ناصية المـــدى   بمفر الشعرى فأين تريـــد
تال أبائك تهل سليمانَ يـــــرى   في الدست مهد ملكـــه داود
جلى وسدت مصليا لا يرفـــع الـــ   ـــمعدوم ما لم يشفع الموجـــود
لم يختر جد نـــــاك ولا أب   إن النباهة في الخليف خلـــود
شمخت مناراك في اليفاع وأمـــا   من لم يسد غارته كيف يســود
وهبت للاسلام وهو مســـون   فاهتز أعطاف ورق مجـــود
ونأت بجرة صاليهبعـــلم   نصح الأجنة يومها المشهـــود
خطفتهم فوق الخطيم لوافـــع   نفس الارين لو أرهن بـــرود
وردوا على الجولان منك بجولـــة   توئيد ها نسر الضلال وئيـــد
ولحا عظامهم حرتقـــارق   ما زلت تمخض جوه فيبـــود
وشللت بالروح السروج وفوقهـــا   زرع تحصـــده الرماح حصيـــد
وعلى عزاز عنوا وثل عروشهـــم   ملك مقيد من عداه مقيـــد
وبتل باشر باشروك فمانســـوا   أشب الاساود حشوهن أســـود
أودوا كما أودى بعاد غيهـــا   وقوا كما أستغوى الفصيل ثمـــود
ان آلموا غدرا غالك صالـــح   أو آلموا غدرا غالك هـــود
وزعتهم بكل مهبط تلعـــة   خد به من وازع أخـــدود
وصبتهم بمصائب ملء المـــلا   شتى وان خل البسالة عـــود
آثارها محمودة وأثارهـــا   مشهودة وشمارها محمـــود
لبست من أسطك في الكريهة ملبســـا   يبلى جديد الدهر وهو جديـــد
وتسيرة الآجال طول باعهـــا   بوهساص هامها وقـــدود
مطرورة الاصلاب مذ هزعتهـــا   تاه الهدى وتبختر التوحيـــد
أشرعتها فعلى شريعة أحمـــد   مما جنته بوارق وعقـــود
ولكم نثرت نظيمها في موقـــف   تشريد صالى حره التغريـــد
يجلو سناك ظلامه ويحل مـــا   عقدت قناه لواءك المعقـــود
في شبوة زحم السماء رواقهـــا   والارض ترجف تحته وتميـــد
ضربت مخيمها فكان كماتهـــا   أوتاد ما القصوى وأنت عمـــود
في كل يوم فتوحاتهـــاد   مزج الغناء وطائر غريـــد
تهدى لمانق كأسه فرغانـــة   وتسيغ زبدة ما شد امزيـــد
فتراز سيفك للأحابش محبـــس   ومثار نقعك للصعيد صعيـــد
لا تخل من هذا المقلد أمـــة   ملقى اليه لرعيها الاقليـــد
الورد ثر والمسارح رحبـــة   والرشد مد والضلال مديـــد
والمينى أبلج مشرق القسمات والاشـــ   ـــجار غر والأصائل فيـــد
والملك ممدود الرواق منـــور الا   فاق وظل المنى ممـــدود

في دولة مذهب نشر ربيعهـــــا نشر الرفات وأشر الجلمـــود
محمودة الآثار محموديـــــه كل الجواسم عندها تبييـــد (١)

وله في مدح نور الدين وتهنئته في غزاة حارم:

ما فوق شأوك في العلى مـزداد فعلام يقلق عزمك الإجهـاد
شم تضربين على السماء سرادقـا فالشهب أطناب لها وعمـاد
أنت الذي خطبت له حسـاده والفضل ما اعترفت به الحسـاد
فأما الدليل وسلم الخصم اليلنـدد وانجلى للأعين الاسنـاد
زهرت لدولتك البلاد فروحهـا أن المهب ودوحها ميـاد
أحيا ربيع العدل ميت ربوعهـا فالبرق نجم والهشيم مـراد
فالعيش الا في جنابك ميتـة والنوم الا في حماك سهـاد
واذا العدى زرعوا النفاق واحصدوا كيدا فسيفك ناقد حصـاد
بالقربات كأن فوق متونهـا جن الملا وكأنها أطـواد
تدأى ومن وحي الكماة صفورهـا فالزجر قيد والندى قيـاد
سحب اذا سحبت بأرض ذيلهـا فالحزن سهل والهضاب وهـاد
يهدي النواظر في دجنة نقعهـا بدر بسرجك نير وقتـاد
المستدين محمد يا نـوره عزاً له فوق السهاء إسـاد
ما زلت تمسكه بحيث القنـا حتى تقطف عوده الميـاد
لم يبق مذ أرهفت عزمك دونـه عدد يراعيه ولا استعـداد
ان المنابر لو تطيق تكلمـا حمدتك عن خطبائها الأعـواد
ولئن حمت منك الأعادي مهلـة فلهم الى المرعى الوبي معـاد
ولكم لكم في أرضهم من مشهـد دارفا ضرب صادق وجـلاد
ملئ باطراف الفرنجة كلكـلا حاموا براثنه كيدهم أو كـادوا
حاموا ، فلما عاينوا حوض الـردى حرما بحارم ، والمصاد مصـاد
ورجا البرنس وقد تبرنس ذلـة بيض تناسب في الحديد حـداد
ضجت ثمالها خرس جرسهـا من دون ملة أحمد الأجـداد
ومواعد ضربت بهن عيا القنـا تجني فواكها منهمـا بنـداد
يركزن في حلب ومن أثنائهـا خمدت جحيم الشرك فهي رمـاد
يا من اذا عصفت زعازع باسـه عوداً غواتاهم إليه مـراد
عجباً لقوم حاولوك وحاولـوا فأقام منهم في السلو فـؤاد
ورأوا لواء النصر فوقك خافقـا وأبوه ذاك العارض المعتـاد
من منكر أن ينسف السيل الربـا نار لها ذاك الشهاب زنـاد
أو أن يسيد الشمس كاسفة السنـا

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢١٢ – ٢١٥

لا ينفع الاباء ما سكوا مـــن الـــحياء حتى ترغـــمَ الأولاد
ملك يقيّد خوفه ورجـــاؤه   ولقلما تتظافر الاضــداد (١)

وقال يمدح نور الدين حين أسر جوسلـــين :

شمسٌ اذا ما الحرب زرّ جيوبهـــا   حل المعاقد كرّه وطـــراده
الوى ، ألدّ ، حمى الشريعة جهـــده   وأذل ناصية الضلال جهـــاده
صحق البرنسَ وقد تلاءلاء برقـــه   وأطار ساكنَ جاشه ارعـــاده
ولى وقد سلّت فسلّت نفســـه   زبرٌ تلقى فـــودهن فـــؤاده
متلثما متصلبا لاعـــدّة   ردّ المنى عنه ولا استعـــداده
ولجوسلينَ احتثهنّ فاصبحـــت   نهبى لهنّ : بلاده وتـــلاده
جاءت به بعدَ الشطارعوابـــس   تود يلين لمثلهنّ قيـــاده
وتصيدته لك السعود وقلمـــا   ينبو بخير من أردتَ مـــراده
دانى لقيناه أدهمَ كلمـــا   غناطار شماتـــه ســـواده
سلبت عزازُ عزاءه وبقـــوره   محجوبة فرشت له اقتـــاده
وبتل خالدَ يوم تلّ جبينهـــا   خلد الثرى بجبينـــه إخـــلاده
وغدا يباشر تل باشرَ قلبـــه   باحرَ ما حمل القلـــوب ضـــداده
مت أمانيه بشائرك الـــتي   عادت لهن مآثما أعيـــاده
وحبوت ملكه من نظيم ثغـــوره   حليا تتايه تحته أجيـــاده
لا يخدعنك فانما إصلاح مـــن   ينفس انتشاط خناقه افســـاده
أنزلته حيث تضنّ له غدراتـــه   واحله طغيانـــه وعنـــاده
في حيث لا يأوى لمسجانـــه   حنقا ويكشط جلـــده جـــلاده
وش ، هدمت بني الضلال بهد مـــه   وعدت عباد ك عنوة عبـــاده
فتكت به آيات من لمحمّـــد   ولدينه أبد او موتـــواده
او انشط البلد الحرام تـــواءمت   تثني عليك تلاعه ووهـــاده
ولو أن منبره أطاق تكلمـــا   نطقت يباهر فضله أعـــواده
نام الخليفة ، واستطال لذبـــه   عن سدتيه واستطير رقـــاده
رجعت لك العزّ القديم سيوفـــه   ما زان رونق ياقها أغمـــاده
من بعد ما نمق الصليب لحزبـــه   ورأيت زرع الملك حـــان حصـــاده
انى تميل الحادثات رواقـــه   بهبوبها ، وابن العماد عمـــاده (٢)

---

(١) الروضتين ١/١/٢٥٥ ، وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ٢ ورقه ٢٦٧
(٢) الروضتين ١/٧٥ ، ج ١ ق ١ ص ١٩١

وقال يمدح نور الديـــن سنة ٥٤٣

غداك من صام ومن أفطـــرا … ومن سعى سعيك أو قصّـــرا
وما الورى أهلا فتفدى بهـــم … وهل يوازى عرض جوهـــرا
عدل تساوى تحت أكنافـــه … مطاعل العين وأسد الشـــرى
يا نو دين الله كم حـــادث … دجى وأسفرت له فانثـــرى
وكم حمى للشرك لا يهتـــدى الـــوهم له غادرته مجـــزرا
يا ملك العصر الذى صـــدره … أفسح من أقطارهـــا مصـــدرا
وابن الذى طاول أفلاكهـــا … فلم يجد من فوقـــه مظهـــرا
مناقب تكسر كسرى كمـــا … تقصر عن ادراكها قيصـــرا
ما عام في أوصافها شاعـــر … الا رأى أوصافها أشعـــرا
لله أصل أنت فرع لـــه … ما أطيب المجنى وما أطهـــرا
ما حلب البيضاء مذ صنتهـــا … الا حرام مثل أم القـــرى
شيدت في محور أرجائهـــا … لكل باغي عمرة مشعـــرا

فأصبح الشادي اذا شوّب الـــد … اعي له هلل أو كبـــرا
لا عدم الاسلام من كفـــه … كهفا لمن أرهقت أو أحصـــرا
كأنما ساحتـــه جنّـــة … أجرت بها راحتـــه كوثـــرا
تصرم الشهر الذى كنت فـــي … أوقاته من قدره أشهـــرا
جهاد ليل في نهـــار فقـــد … ان كنت فيه الاصبر الاشكـــرا
أصدق ما يرشفه سامـــع … ما حزّ من أوصافك المنبـــرا
أبقاك للدنيا وللدين مـــن … شفاك في ليلها نـــيرا
حتى نرى عيسى من القدس قـــد … لبا الى سيفك مستنصـــرا (١)

وقال فيه من قصيـــدة :

خضر الثعالب حين زمجر مصحـــر … ملك البلاد مهاهما وزئـــيرا
تركو مشاجرة الرماح لحـــاذق … جعلت مخافته القصـــور قبـــورا
لربيب حرب لم تزل غمراتـــه … بالراء يلزم لفظها التكريـــرا
أسد اذا ما عاد من ظافـــر بمفـــترو احد لمثلها ظافـــورا
يتناذر الاعداء منه سطـــوة … ملء الزمان تنيظا وزفـــيرا
عرفوا بنور الدين وقع وقائـــع … ولي بها الاسلام أمرا منـــذورا
أبدا يظافرك القضاء على الـــذى … تبني فترجع ظافرا منصـــورا
توضت فانتقع الظهائر ظلمـــة … وتقلت فاشتعل الدياجـــر نـــورا
وعلى العواصم من دفاعك عاصـــم … ينشي الرشيد وينشر المنصـــورا (٢)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٧

(٢) الروضتين ١/١/١٦٣

وقال يمدحه ظافر حمـــــصي :

هيهات يعصم من أردتَ حــذار ... أنى ومن أوهاقك الأقــــدار
طلمتمليك بجوسلين ذريعـــــة ... لا تستقلّ أنشاها ولا إمـــرار
وسعادة ما زلت تمري خلفهــــا ... فيشف ، وهو النّاتقُ المـــدرار
غارتك ما يجني الوفي وفــاؤه ... وأرته كيف يحيّن الغـــدار
عودٌ أمرّ على أبارك طلمـــه ... فأحيل ذاك البر وهو بـــوار
ما زلتَ تنصحهو يكثر عاتيـــا ... والله يهدم ما بنى الكفـــار
حتى أتاح لقومه ما جـــرّه ... لثمودَ من عقر الفصيل قـــدار
أسرى ، فأصبح في برائن آســر ... ما زال يدمي ظفره الأظفـــار (١)

وكتب اليه قصيدة من حماة وهو محاصر دمشــق سنة ٥٤٦ :

أخليفةَ الله الذى ضمنت لــه ... تصديق واصفه سراة المنبـــر
لا المستخلينُ بمصر ظلّ قصــوره ... والمستطال اليمشقة صـر صمصــر
يا نور دين الله وابن عمــاده ... والكوثر ابن الكوثر ابن الكوثــر
عفّر بحد السيف دار أشائـــب ... عقلوا جيادك عن بنات الاصفـــر
هم شيدوا صرح النفاق وأوقـــدوا ... نارا تخشّنُ بهم غدا في المحشـــر
اذكوا بجلق حرها واستشمــرت ... لفحاتها بين الصفا والمشعـــر
شرد بهم من خلفهم مستنجـــدا ... ما ظاهر الكفار من لم يكفـــر
لا تمف ، بل شق الهدى نفس الذى أدّ (٢) ... رع الضلال على أغر مشهـــر
قلده ما أهدى علي لمرحـــب ... فلقد تهكم في الخداع الخيبـــري
ما الفتح من أتنصرانـــه ... لم تختتن كالفتح من مستنصـــر
اذكت لنا هذي العزائم لا خبـــت ... ما غار من سنن الملوك النـــبّر
اعقاب آراء المعز وخفـــق را ... يات العزيز ويقظة المستنصـــر
شمّر فقد مدت اليك رقابهـــا ... لا يدرك الغايات غير مشمّـــر
أو لست من ملأ البسيطة عدلــه ... واجتب بالمعروف أنف المنكـــر
جدب الأب البر الكبير ورأفـــة الأ (٢) ... م الحنيفية ليتيم الأصغـــر
يا هضبة الأسلام من عصبهـــا ... يؤمن ، ومن يتولّ عنها يكفـــر
كانوا على صلب الصليب سرادقـــا ... إنهتّ بنيته بكل مذكـــر
آثارهم تجر إذا ل السجـــد الا ... قصى غصنٌ ما د تسوموطهـــر
جار الخليل ومن بغزة هاشـــم ... بلهاك المقدمش المتعصّـــر
بصرمهم علمتَ وعاوعه عســـرى ... اسماع جيحون وسيف البربـــر
يغترّ عن ملك الملوك منحـــل الا ... نوابل سعد السعود الاكبـــر

---

(١) الروضتين ق ١ ج ١ ص ١٩٠

عن طاعن الفرسان غير مكـــــذب   وبتم الاحسان غير مكـــــدر
بدر الجحافل والمحافل فـــارس الا   ساد في غاب الوشيج الا سمـــر
ملك تساوى الناس في أوصافـــه   عذرَ المقل وبان عجز المكثـــر
يا أيها الملك المنادى جـــوده   في سائر الآفاق هل من مجتـــر
ان القصائد أصبحت أبكارهـــا   في ظل ملكك غاليات الأمهـــر
ان كنت أحييت ابن حمدان لهـــا   فأنا الذى غيرت في وجه السري
ولأنت أكرم من أناس نوهـــوا   باسم ابن أوس واستخصوا البحتري
ذلت لدولتك الرقاب ولا تـــزل   ان تغز تغنم أو تقاتل تظفـــر (١)

وقال يمدح نور الدين ويهنيه بفتح انطرسوس ويحرور سنة ٥٤٦ :

أبدا تباشر وجه غزوك ضاحكـــا   وتؤوب منه مؤيدا منصـــورا
تدني لك الأمل البعيد سواهـــم   صفت أناملها وكن بـــدورا
مثل السهام لو ابتغى ذو اربـــع   في الجو مطلبها لكن طيـــورا
نبذت علائقها بحمص واعلقـــت   سحرا بحصن قرعرقة لا ظفـــورا
وعدون حاقيتا لاح شوارهـــا   قد أتلعت عنقا إليك مشـــيرا
القلب أنت فان تصامى عن هـــدى   عضو أصاب به فساد بصـــيرا
عرفوا مكانك والظهيرة بينهـــم   يفري بيافرادیمها الديجـــورا
أين الذبال من الغزالة أشرقـــت   وجها وطبقت البسيطة نـــورا
غضبان اقسم لا يشيم حسامـــه   والارض تحمل في الكفور كفـــورا
فصل المواصم من بن ادرانهـــم   واليوم رد به السواحل بـــورا
ليبقَ بين الدولتين وآمـــد   وترا لضحاضن ه ولا موتـــورا
أخلى ديار الشرك من أوثانهـــا   حتى غدا ثالوثهن نكـــيرا
رفع القصور على نضائد هامهـــم   من بعد ما جعل القصور قبـــورا
بشواحب الاليا طرتقطو في الظـــلا   م قطا وتهوى في الصباح نشـــورا
غادرت أنطرسوس كالطرس امحـــى   رسما وحمّر دمعها يحمـــورا
وهي الرماد لفتنة كانت علـــى الا   سلام أحكم كسره اكســـيرا
هتمت طرابلسا فأصبح ثغرهـــا الـ   بسام من عز الثغور ثغـــيرا
أتليدها كانت ه وقد انطيتـــه   واسأل بـه معهد متخبـــيرا
ان الألى أمنوا وقاءك بعد هـــا   غروا وقد ركبوا الاغر غـــرورا
ألقر العصا فيمن أطاع ه ومن عصـــى   منهم ه ودمر أرضهم تدمـــيرا
لا يلههم انقد منت ه وشنهـــا   شعرا تصلي الكافرين سعـــيرا
باكر بركز قنا تنسف أسهـــا   والخيل صوركي تزيرك صـــورا
وتريك لا ممتالئريك بساحـــة الا   قص مطهرة لها تطهـــيرا

---

(١) الروضتين ١ / ١ / ١٩٦

أو لستَ من قوم اذا هزوا القنـــــا ... قتلوا مناصمهم لها تمويـــــرا
واذا هم خطبوا اليراع عـــــزيزة ... ساقوا الشفار على المهار مهــــورا
ألقى تسيماهم اليك أزمة الـــــــملك المطل على السها تأثـــيرا
ضحكت لك الايام واكتأب العــــدا ... قلقا فجئت مبشرا ونذيــــرا
لا ملك الا ملك محمود الـــــذي ... تنفذ الكتاب مظاهرا ووزيـــرا
تمشي وراء حدوده أحكامــــه ... تأتمهن فيحكم التقديـــرا
يقظان ينشر عدله في دولـــة ... جاءت لمطوي السماح نشـــورا
خلف الخلائف قائما عنهم بمـــا ... عيوا به ، الوى ، الذ ، غيـــورا
البر ، والمعصوم ، والمهدي ، والمــــأمون ، والسفاح ، والمنصـــورا
يشروا به فعهودهم وعهادهـــم ... يمتحن تحت اوائه منشـــورا (١)

وله فيـــه :

أيا سيفا أعز الدين منــــه الـــــــنزار المضب والنوم الغـــرار
ملأت جوانح الاقطار رجفـــا ... كأن الارض خامرهـــا دوار
علاه حلى على الدنيا فتـــاج ... بمفرقها وفي يدها ســـوار
أنار شمس عدلك في دجاهـــا ... فكل زمان ساكنها نهــــار
تحرك من عصاك وأنت مـــاء ... وتخرق من رجالك وأنت نـــار
ألا لله وجهك والمنايـــا ... مكحلة وللبيض أفـــترار
هتكت حجابها والنصر غيـــب ... وللهبوات طي وانتشـــار
يطعن للقلوب بها انتظـــام ... وضرب للرؤوس بها انتشـــار
تباد ره كأن الموت غـــتم ... وما من عادة البدر البــــدار
أنخت على الصليب مطا صليبـــا ... به من سلك مبركه مـــدار
بمشرفة المناكب مقربـــات ... لهن بمعترك وغى حضـــار
جبين بانب أنب المناصـــي ... وأضمر وللقنا منها ثمـــار
وفي هاب أهبتها فجـــاءت ... كما أجلى من الكســـم الصوار
وكم في فج حارمن حريـــم ... عفته فلا جدير ولا جـــدار
وإنطاكية استنت اليهـــا ... فاجفل خيطها وله عـــرار
وصهيح في عزاز بها عـــزاز ... فانس وضوعت أو غبـــار
يشق بها دجا الغمرات عسفـــا ... جواد لا يشق لمغبـــار (٢)

---

(١) الروضتين ١ / ١ / ٢١٦ (٢) الروضتين جا ق ١ ص ٢٢٨

وقال يمدح نور الدين بعد أن ملك حصن فامية سنة ٥٤٤ :

أسنى الممالك ما أطلت منارها   وجعلت مرهفة الشفار دثارها
واحق من ملك البلاد وأهلها   رؤف تكنف عدله أقطارها
من حام سام الخافقين وحامها   منا وزاد هوى فخفر نزارها
ضربة طبعت ضاربه وان   عدته ذو رو قمارها أسوارها
آل الرعية وهي تجهل آلها   وتماف نطفتها وتكرم دارها
فأمر ضجعتها وأنبت نبتها   وأساغ جرعتها وأثبت زارها
ملك أبوه سما لها تسما بها   وأجارها فعلت سهولها جارها
نهج السبيل له فاوضح خلفه   وبدا له يمن العلى أبشارها
أنشرت يا محمود ملة أحمد   من بعد ما شمل البلى أصعارها
ابجانات تعدل السنان توامها   أو نائات كان الحسام جبارها
عقلت من المعصم السواعد غدت   هذي العزائم أسرها واسارها
وتكفلت للعسكر أنضيتها   في صونها أن تسترد ضمارها
كثرت شواملها ورق مطارها   ما أرشفت وتقفت آطارها

كم حاولت من كفتيها غرة   غلب الاسود فقلمت أظفارها
أني وحامي سرحها من لو سمت   للفلك بسطته أحال مدارها
في كل يوم من فتوحك سورة   للدين يحمل سفره أسفارها
ومليلة تعمر المنابر ان غدا السـ   ـخطباء تنثر فوقها تقصارها
همم تعجلت الملوك وراءها   بدم المثار وما اقتفت آثارها
وعزائم تستوتز الآساد عن   نهش الفرائس إن أحس أوارها
أبدا تقصر طول مشرفقا لـ   ـذري بالمشرفية أو تطيل قصارها
فغرت أفامية فما فهتمته   كبوار أجناها الاران بوارها
أرنقت رايك فوق رايك تحتها   فحططت من سعفاتها أعفارها
أدركت ثارك في البغاة وكنت يا   مختار أمة أحمد مختارها
تارية الزمن المنيز ممالها   منك المعير فاسترد معارها
زار الجزير فقيدت عاناتها   عصر الغلائل وأسلمت أعيارها
شاء تحجوك فوقها ولربما   باتت تناغيها النجوم سرارها
أمست من العذري العبور وأصبحت   شمراء تستقلي الفحول شوارها
ولكم ترعت بقرباتك مثلها   تلما وقلدت الكماة عرارها
حتى اذا اشتملتك أشرق سورها   عزا وحلاها سناك سوارها
خر الصليب وقد علت نعماتها   واستوبلت صلواته تكرارها
لما وعاها سمع أنطاكية   سرت الوقار وكشفت أستارها
فاليوم تستند بجيرها   من جوره وغدت تذم جوارها
علمت بأن ستذوق جرعة أختها   إن زر أطواق القباء وزارها

ماضر إذا قرع الركاب لبلدة ... ألقت لقبل القراح إزارها
وإذا مجانقهم كمن لصعبة الـ ... ـملقاة أسجك كالجدير جدارها
ملء البلاد مواهبا ومهابة ... حتى استرقت آية أحرارها
يذكي العيون اذا أقام لصونها ... أبدا ويقضي بالظبى أبكارها
أوما الى رمم الندى فأعاشها ... وهي لسابقة المنى فأزارها
نبوي تشبيه الفتوح كأنما ... أنصار مرجمت له أنصارها
أحيا لصوح سلامها سلطانها ... وأمات تحت عمارها عمارها
ان سار سار وقد تقدم جيشه ... رجف يقطن في اللهى دعارها
أو حل حل حما القروم بهيبة ... سلب البدور بدارها أبدارها
وإذا الملوك تنافسوا دون العلا ... أربى بنفس أسرعته خيارها
ونهى إذا هيضت تذل بغيرها ... وسطى تذل إذا عنت جبارها
تهدى لمحمود السجايا كاسمه ... لولز فاعلة بها لا آبارها
الفاعل الفعلات ينظم في الدجى ... بين النجوم حسودها أسمارها
ساع سعى والسابقات وراءه ... عنقا فقصر منتهاه عثارها
كالمشرفي إذا يصرصر آيها ... خرس البغاث وهاجرت أوكارها
عرفت لنور الدين نور وقائع ... يغشى إذا اكتحلت به أبصارها
مشهورة سطت وقد حاولتها الأ ... قدار عجزا ان تشق غبارها
لله وجهك والوجوه كأنما ... حطت بها أوقار هيت وقارها
والبيض تخنس في الصدور صدورها ... هبرا وتكتحل المغفور شفارها
والخيل تدلج تحت أرشية القنا ... جذب المواتح غاورت آبارها
فبقيت تستجلي الفتوح عرائسا ... متمليا صدر العلى وصدارها
في دولة للنصر فوق لوائها ... زبر تنمق في الطلى أسطارها
فالدين موماة رفعت بها الصوى ... وحد يقضت يداك إبارها (١)

وقال أيضا :

هي الخيل خير عتاد الكريم ... يحضر للهم إحضارها
ضفت فأدرت أفواهها ... وسرت تقلمت أظفارها
إلام ولم تبق ما غزوت ... قلوبا تكابد اذعارها
أما في مفضل آي القرا ... ع أن تضع الحرب أوزارها
عسى أن يحم لهذا الحما ... م أن يتوكر أوكارها
وما يوهن غلته واحد ... فتورعها للسنا شمارها
وأين القاول ما فعلت ... ولو شفع القطر اكثارها
فكم أجليت خلفك الجائحات ... فصلصل غيرك غمارها
أعد تبصرك هذا الانيق ... فتوح النبي وأعصارها

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٠ وانظر الكامل ١١ / ١٥٠ والباهر ١٠١

وكان مهاجرها تابعيـــك ... وأنصار رأيك أنصارهـــا
تجددت إسلام سلطانهـــا ... وعمر جدّك عمّارهـــا
وما يوم إنب الا كتيـــبـــك ه بل طال بالبوغ أشـــبارهـــا
وأيامك الغرّ من بعـــده ... تعيد الى الطين اغوارهـــا
ولما هبيت ببصرى سكـــت ... باهباءخ بلك أبصارهـــا
وبـ على الجون جون السـرا ... ة عزّ فسقطها عارهـــا
صد متعريمها صد مـــة ... أذابت من الماء أحجارهـــا
وفي تل باشر باشرتهـــم ... بزحف تسوّر أسوارهـــا
وانهد الكثهم لو انفقـــد ... شدّدت فصدقت أخبارهـــا
وشبّ التدامر حتى طلـــت ... عليها فولتك أدبارهـــا
مشاهد مشهورة نشئـــت ... على صفحة الدهر أسطارهـــا
يلذ الاغاني ترجيعهـــا ... وتستسفر السفر أسفارهـــا
بنيت لوفد المنى كعبـــة ... تجير المسك أستارهـــا
ملكت الاراضي مقسـورة ... تكاد تحدّث أخبارهـــا
فما زلت تدجن حتى محـــوت ... دجاها وشمشمت أنوارهـــا
وعلت فاعززت سكينهـــا ... وصلت فأن للت جبارهـــا
وصنت حلى من علّ أحكمـــت ... على عنق الدهـــر أزرارهـــا (١)

قال يمدح عماد الدين زنكي ويهنيه بفتح الرها سنة ٥٣٩ :

وما يوم كلب الروم الا أخو الـــذى ... أزحت به ما في الجناحين من نبـــل
أتاك بمثل الروم حشداً ازارـــه ... ليفضل اضعافا كثيرا عن الرمـــل
فقاتلته بالله ثم بعزمـــة ... تصك قلوب العاشقين بما تسلـــي
توهم أن الشام مرعى ومـــا درى ... بأنك أمضى منه في الشرز والعجـــل
قطار وخير المغنمين ذمـــاؤه ... اذا رد عنه منهم المال والأهـــل

. . . .

أيا ملكا ألقى على الشرك كلكـــلا ... أتاك على أماته كلكل الثكـــل
جمعت الى فتح الرها سدّ بابـــه ... بجمعك بين النهب والأسر والقتـــل
هو الفتح أنسى كل فتح حديثـــه ... وتوّج مسطور الرواية والنقـــل
نفضت بمفتاح الخواتم بعـــده ... تجزيت جزاء الصدق عن خاتم الرســـل
تجردت للإسلام دون ملوكـــه ... تبقّ أسباب المذلة والخـــذل
أخو الحرب غذته القراع منظمـــا ... يشوب بإقدام الفتى حنكة الكهـــل (٢)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٩٣
(٢) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٨٣ ، ص ١٠٠

وقال يمدح نور الدين ويهنئه بالعود من غـزاة سنة ٥٦٠ :

أخرست شقشقة الضلال ، وقد تـه ... قود الذلول أطاع بعد صيال
ورميت دار المشركين بصيلم ... ألقحت فيها الحرب بعد حيال
وسمرت بين تريبهم وترابهم ... ذعرا يشيب نواصي الأطفال
فوق العظيم ، وقد خطمت زعيمهم ... ضربا سوابقه بغير توال
ضربا ملأت ترنجتهن حسره ... رتبا ، به سيف الصقالب صالي
ويفخ حارم أحرمت لقراعهم ... ثم أعلن النوم غير حلال
عجبوا على جسر الحديد حديدها ... نبسا يساق به أد يرد صيال
زلزلت أرضهم بوقع صواعق ... اعطيتنا أمنا من الزلزال
في مأزق شمرت ذيلك تحته ... والنصر فوقك مسبل الأذيال
في دولة غراء محمود يمينه ... سحبت رداء الحمد غير مذال
تمسي الفتوح بها الفتوح ، وتجتني ... زهر المقال بباهر الأفعال
ليمنٌ بنور الدين نور حدائق ... ثمراتهن غرائب الأمثال
ملك تجحب في السرير بحزارة ... زرّت حواشيها على رئبال
تنجاب عن ذي لبدتين شذاته ... في بردتيّ بدل من الإبدال
رفع الرواق بروق أنطاكية ... فرص الخليج بمردن البلبال
بدر لأربع عشرة اتبمن السنا ... من خمس عشرة صورة الأشكال
فوز المآل أخاضه ماء الطلى ... وسواميقه ماحتياز المال
متقسم بين القسمين الحلا ... عن عمّ عم أو مخايل خال
لا زلت تحتل من ثنايا جحفل ... يقفو لواءك كاللوى المنهال
لك أن تحل على الكواكب راقيا ... ولحاسديك بكى على الأطلال (١)

وأنشد نور الدين بحلب سنة ٥٤٧ قصيدة منها :

لقد أوطأت دين الله عزا ... أديم المشركين له رغام
دعاك وقد تناوشت الرزايا ... له أشبا يوزعها الحذام
فتستنصره والناس فوضى ... قيام ذم ما اقترفت نيام
جذبت به من قسر بسيم ... له من فوق مقسمها لطام
وملت على مقاتلهم فخرت ... ولا مثل ما انتقى الذباب هام
بمرخف والخطي وفي عزاز ... وتابين منز تشهد ما الأنام
ولو لم تعترف وتشم لاسى ... واعيم لاعراق ولا شام
صبيت على الصليب صليب باس ... تواه تحت كلكله حطام
ويوم بالعريمة كان حتفا ... على الأشراك أنقرها لحمام
لتواه كأن ما سلوه سيح ... وما اعتقلوه من خسور تمام
وهاب وتورس ويكفر لاثا ... ذئبت وأنت للجلّى ذمام

---

(١) الروضتين جـ١ ق١ ص٣٥٧

صدقتهم بأرض مرج عن ... كأن مطار أنسره غمام
وأية ليلة لم تلف فيها ... لهم طيفا يروع به منام
بنور الدين أشرق كل عدل ... تشفت في الثرى منه الرمام
وعاد الحق بعد كلال حد ... حمى من أن تراع له سوام
تألق عدله وذكت سطاه ... فلا حيف يخاف ولا اهتضام
بقاء الخير ما يرجوه راج ... وأنفس ما يبل به أوام (١)

وله فيـه :

ملك كسا الاسلام من ذبه ... بردا تبدى بين الثنايا معلما
من أصبح الشام به شامة ... يقطر من قتل عداه دما
لو لم يقم فيها لتا دونه ... لم يلق في أقطارها مسلما (٢)

وقال يمدحه ويذكر مواقعه :

غدا الدين باسمك سامي السنم ... أمين العماد مكين القدم
لذلك لتبت نورا له ... وقد أغطش الظلم فيه الظلم
أضاءت بعدلك آفاقه ... وثقت عرى الدين لما ادلهم
ولما تعدوا لنصر الهدى ... ومثلك أدرك لما عزم
وبسطوا بسطات العجام ... على العضب من ركنها ثائهم قدم
وبصر وصرخد لو لم تثر ... تراكا لكانا رديفي ارم
وقد قدت جيشك في النوطتين ... قفر الصليب له ما نظم
وفي كنز لاثا وداب حللت ... عقد البرنس بيمنى خذم
معودة أنها لا تسل ... الا متقسمة للسقم
ويوم بسرفود جرعتهم ... أجاجا أغصهم واصطلم
وفوق السريتقشاهم ... عرام يوقيه سيل العرم
وأتيك كلبهم في الكبول ... مباح الحريم مذال الحرم
وبارتهم إذ نت أنها ... أبارتهم فليبوؤا بندم
بنوها وأعلوا ولم يعلموا ... بما خط في اللوح منه القلم
وأنك خارم ما أحكموه ... ومن ديننا راتق ما انخرم
فترفع من بعد خفض هدى ... وتخفض من بعد رفع صنم
سكت المدارس فوق النجوم ... فكم منجم تحتها قد نجم

---

(١) الروضتين ١/١/٢١٠
(٢) الروضتين ج١ ق ١ ص٣٣

وعاش الحنيفي والشافعي ... بما شدت منها وكانا رمم
وان لم تكن هاشمي الاصول ... فانك فرع العزيز الهشم
ومن يدعي في العلا ما ادعيت ... وأنت ابن من عز لما احتكم
واتسمها غاب سيفه ستت ... منارسه عين نفذ الشيم (١)

وقال ابن منير يمدح عماد الدين زنكي :

فدتك الملوك وأيامها ... رداء لنقضك إبرامها
وزلت لسيفك أقدامها ... وزال لبطشك إقدامها
ولو لم تسلم اليك القلوب ... هواها لما صح اسلامها
أيا محيي العدل لما نعاه ... أيا منى البرايا وأيتامها
ومستنقذ الدين من أمة ... أزال المحاريب أصنامها
الفت لها تقتفيك الاسو ... د والبيض والسمر آجامها
جزرت جزيرتها بالسيو ... ف حتى تشاءمها شامها
وصارت عوارى أكنافه ... متى شئت أرخص مستامها (٢)

وله في نور الدين يذكر وقعة الجولان وغيرها :

ما برقت بيضك في غمامها ... الا وغيث الدين لابتسامها
محمود المحمود جدا وجدا ... أرخص جلد الارض حكم عامها
ملك أزال الروم عن عليائها ... د غاله وكب من أصنامها
جال على الجولان أمر جولة ... صفرت الادحى من نعامها
والجون قد جرعها الجون ه ... وظل مشحوذا من اعتزامها
وشد في القد له مليكها ... تود عقود القوط في شبابها
وفي الرها عابت له سحابة ... صاروا جناء فيه في التطامها
وصب في هاب لمعواصف ... تب نشقها ألهف من جهامها
وكفر لا تالات في جبينها ... لثم ابا أبت على أشامها
وتاك يرفل تحت وقعها ... نظم الثريا في فضا مصامها
فساعقا لبيض اذا عدد ها ... سوط عذاب صب في أيامها
واعجبا لمصب الشراك التي ... لم يصب الرشد على أحلامها
حكمة استواؤها في عيمها ... في نقضها أحصد من ابرامها
مظفر الرايات والـرأي اذا ... الحرب مشت تعثر في خطامها
عدت به حد العلاء هم ... من النجوم أو نواصي هامها
جلت له الدنيا على زبرجها ... عفوا فلم تلو على حطامها
رأته وهو الليث يدمي ظفره ... أنفذ في المشكل من حكامها (٢)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٢٤ (٢) المصدر السابق ج ١ ق ١ ص ٨٩

وله في نور الدين :

عزت سيوفك ، فالعراق عراقها ... والشام غير مدافعات شامها
ان أغمدت حل العزائم حلها ... أو جردت حرم الكرى احرامها
شخبت عداك بها ، فلا اشراقها ... بمفازة منها ، ولا اعتامها
سريت تصبحها بها يقظانها ... هدأت فمستها بها أحلامها
كالماء ، الا أن في رشفاته ... نارا حشاشات النفوس ضرامها
خفت على أيمانك أوزانها ... يوم الوغى ، واستثقلتها هامها
حتى أحلن الشا شاما صرصرت ... فيه جنادبها وصدح هامها
ورحضن أدران الجزيرة بعدما ... نمرت بها وهدانها واكامها
شمارا أبرت ، ومثله أنارته ... وقع الشآبيب تكرها أيامها
بالخابلات الخاب ، تزأر أسده ... والمجفلى الحي اللقاح صيامها
أوردتها أجمات أنطاكية ... عنقا وقد شب الصدا اجامها
تلقى المشافر في مراشف ، كلما ... بردت بها الاكباد زاد هيامها
فغدت وقد عز السراج سراحها ... وتوزعت في كنسها آرامها
ومشى الضلال القهقرى واستأصل الا ... ذان من رجع الاذان صلامها
وغدا يخللها الخليل سواجبا ... عذبا يمر لها العذاب غمامها
غضبا لدين الله خص جناحه ... بغيا وأدمى صفحتيه لدامها
فالان رد النور فيه نوره ... وانجاب من تلك الهنات ظلامها
محمود المحمود اقداما اذا ... خام الكماة وزلزلت أقدامها
القانح الكرب المظلم تخاجمت ... أشداقها وفرى القلوب ضمامها (١)

---

(١) الروضتين ق ١ ص ٢٣١

فتوجته العز في مرتبة ... تدفلق الجوزاء في نظامها
عبان للاسلام لا ينيظه اسـتسلامها للتسر من اسلامها
خط على مثل أب طاعت له الآ (٢) ماق واستشرف لاغتشامها
تسرب الدنيا على إيثاره ... عراقها مستردة بشامها
لو لم يكن دون منى فات المنى ... واقتصد الفائز من تواميها
وأمطة ما ملكه راضيا ... يقصر باع الدهر عن فطامها
وعاد كالجمر الجمار وخلا ... من أهله الاشرف من مقامها
ودونها لا زلت ترقى فـي حمى ... من مولم الارواء أولمامها
تلبس بيتا الله وشي يمن ... يقرأ آياته من أعلامها
فانما الدين رحى قطبتها ... وبازل يمكنت من زمامها
أعت بنا الامال منك كعبة ... سلم الليالي آية استسلامها
وأرشفتنا بك ثغر نعمة ... لا نسأل الله سوى دوامها (١)

وقال يمدح عماد الدين زنكي ويهنئه بفتح الرها :

بعماد الدين أضحت عـروة الـدين معصوبا بها الفتح المبين
واستزادت بقسيم الدولـة الـمستقسين ارعاش كيد المارقين
ملك أصهر عينا لم تزل ... همها تشريد هم الراقدين
لا خلت من كحل النصر فقد ... قرت عينا عيون الحاسدين
كل يوم من ايامه ... فهو عيد عائد للمسلمين
لو جرى الانصاف في أوصافه ... كان أولاها أمير المؤمنين
ما روى الراوون بل ما سطروا ... مثل ما خطت له أيدي السنين
اذ أناخ الشرك في أكنافه ... بهزة الرتناها بمئين
وقعة طاحت بكلب الروم من ... تدلمة ابين الى قطع الوتين
ان حمت مصر فقد تاه لها ... واضح البرهان إن الصين صين
دنى الدهر عليها مصرا ... لم يدنسه مرام الآثمين
والرها لو لم تكن الا الرها ... اكفت تعظيما لشاك المترين
ولكم من ملك حاولها ... فتعلى الحين وسما في الجبين
هي أخت النجم إلا أنها ... منه تا انجم لرأى المبصرين
منيت منه بليث ثائد ... بعران الفل آساد العرين
زارها يزأر في أسد وغى ... تبدل الأسد من الزأر لانين
صولجو البيض بضرب نـثر الـهام في ساحاتها نثر الكرين
يا لها فتح ثغر أضحكت ... منبني القلب ثغور الشامتين
برنست رأس برنس لـ ... بعد ما جاست حوايا جوسلين

---
(١) الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٠٢

وسرور قد وحت أسراجـــه … فرقت جماتها عنها عضـــين
تلك أثقال رماها الله بـــن … عزمه الماضي بخير الفاتحـــين
شام منه الشام برقا ودقـــة … مؤمن النوف منيف الأمنـــين
كم كثير كنست قد رامهــــا … منه بعد الروع في ظل المسفـــين
دنت الآجال من آجالهـــا … فاحلتها القطا بعد القطـــين
ونار يجتلي صلبانـــه … بين بيض تتبارى في البريـــن
ترعته البيض حتى بدلــت … ترعة الناقوس تثويـــب الاذيـــن
بالقسيسات قسوم الهــا السد … در في علك لجين او لجـــين
سل بها حران كم جرى سقـــت … بردا من يوم ردت ما رد يـــن
سطت أمر سيسا طيهـــا … نال جيش تبهج للناظريـــن
وغدا يلقى على القدس لهـــا … كلكل يد رسها درس الدريـــن
شمقتص وشجى عزمـــة … ليس حصن إن نحته بحصـــين
تل القوم غرهم أسها لـــه … ستذوقون شـــذاه بعد حـــين
انه الموت الذي يدركه مـــن … فرمنـــه مشحا للناكلـــين
وهو يحيي مسكي عروتـــه … انها حبل لمن تاب متـــين
من يطع يغنم ومن يعص يكـــن … من غداة تبرة للآخريـــن
بك يا شمس المعالي ردت الـــر … وفي الميتين من دنيا ودين
أتسم الجد بأن تبقى لكـــي … تملك الارض يمينا لا يمـــين
وتفيض العدل في أقطارهـــا … منسيا مؤلم عصر الجائريـــن
لا تزل داره كيف انتقلـــت … كعبة محفوفة بالطائفـــين
كل يوم يتحلى جيـــدها … من نظيم المدح بالدر الثمـــين
كلما أخلدر فيها دعـــوة … لك قالت ألسن الخلق أمـــين (١)

وقال يمدح نور الديـــن :

يجداك أصحب الجد الحـــرون … واطلع بوجه الفتح المبـــين
وفي كنفيك سولمت الليالـــي … وفاروق طبعه الزمن الخـــؤون
ومنك تعلما القطن المواضـــي … وقد زينت بها الحرب الزبـــون
وأنت السيف لم تمسه نـــار … ولا شحذت مضاربه القيـــون
ترقرق فوق صفحته الأمانـــي … ويقطر من غراربه المنـــون
وتبلك ما سمحت بذي فقـــار … يثير القتر كان ولا يكـــون
ولا غيث سماوته سريـــر … ولا ليث وسادته عريـــن
ولا قمر لها الهيجاء هـــال … ولا تاج له الدنيا جبيـــن
جبلت ندى وعفوا وانتقامـــا … وطاء كل مجبول وطـــين

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٠٠

وملكه عمر الاقطار قطرا … تأمرت الأواعث والحصون
تلألأ تحته غرر الليالي … اذا الايام عند سواك جون
وانت أتمت للجدوى منارا … يبين لشائميه ولا يبين
وعندك مشرب النعمى زلال … اذا عبقت مشاربها الأجون
تحكم في عطائك كل عاط … وقد شيدت من المنن الحصون
لقد اعصرت وبين الله عز … تتيه له المشاعر والحجون
وقام بنصره والناس فوضى … ترى منك في الدلى أمين
رجمت ملوكهم ودم الحتوف … أسير في عقادك أو كمين
فبرنست البرنس لقاء خسف … وجرع من جوسك جوسلين
اذا ما الفضل عن تالأحتذى … يتام لمنتهاه أو سكون
غنوا حتى غزوتهم فغنى الصدى (...) في أرضهم خف القطين
وكم عبر الصليب بهم صليبا … فروتهناك وفيه ليس
وما خطرت بدار الشرك الا … هوى الناقوس وارتفع الاذين
هبت عظام ساحهم عظاما … فكل ملأ لقولك بمجرين
بأنب في القنا تجرى نجيعا … كأن عيون اكبها عيون
وبين جرار صرخد ذي بن عمرا … له في كل جبجبة كمين
وقسين من المريمة في عرام … لمثل جونها الاقصى وجون
وكم حرم لحارم قاد رتنه … ودارته لمسقها د رين
وفي شعرا قورس صفن شعرا … تدار على غراريه اللجون
وقائع عرن في صنعاء طيرا … يوتحها على عدن عدون
نمال أب اذا عدّ انتسابا … تراقى صعدا والناس دون
فيالا كان املاك البرايا … وقد قيسوا به وهلو اليمين
تنى وتضاءه في الارض حتما … وطاعفا سلها لبنيه دين
لهذا اليوم تنتخب القوافي … ويذخر نفسها الدر المصون
ونحن احق منك بأن نهنا … اذا ترتبروءيتك العيون
سلمت لنا فإنا كل صب … نوازيه بأن تبقى يهون
ترابطنا بمقوتك التهاني … ويتبطنا بدولتك القرون (١)

وقال يمدح نور الدين :

صفات مجدك لفظ جل معناه … فلا استرد الذي أعطاكه الله
يا صارما بيمين الله قائمه … وفي أعالي أعادي الله حداه
أصبحت دون ملوك الارض منفردا … بلا شبيه إذ الاملاك أشباه
فداك من حاولت مسعاك همته … جهلا وتقصر عن مسعاك مسعاه
قل للأعادي : ألا موتوا به كمدا … فالله خيبكم والله أعطاه
ملك تنام عن الفحشاء همته … تقي وتسهر للمعروف عيناه

---

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٠٥

ما زال يسطو والايام تخدمه ... فيما أبتناه وتدنو ما توخاه
حتى تعالت عن الشعرى مشاعره ... قدرا وجاوزت الجوزاء نعماه
وقد روى الناس أخبار الكرام مضوا ... واين مما رووه ما رأيناه
أين الخلائف عن فتح أتيح له ... مظلل أفق الدينا جناحاه
على المنابر من أنبائه أرج ... مطوية بفتيق المسك ريّاه
فتح أعاد على الاسلام بهجته ... فافتر مبسمه وأهتز عطفاه
يهدي بمستعصم بالمفتكه ... حديثها نسخ الماضي وأنساه
ان الرها غير عمورية وكذا ... من رامها ليس مغزاه كمغزاه
أنت الكواكب عزا ما بنى أحد ... من الملوك لها وتعا فواتاه
حتى دلفت لها بالعزم تشحذه ... رأي يبيت فويق النجم مسراه
صبرا وبنو الاسلام في شغل ... عن بدء غرس لهم أثمار عقباه
يا محيي العدل إذ قامت نوادبه ... وناشر الجود لما مُ نعاه
يا نعمة الله يستصفى المزيد بها ... للشاكرين ويستثنى عفاياه
أبقاه للدين والدنيا تحوطهما ... مَن لم يتوجه هذا التاج الا هو (١)

وله في نور الدين :

ملك ما أذل بالفتح أرضا ... قط الا أعزها إتفاقه
والوصي في الرها أزجى اليها ... عارضا شيب الدجى إبراقه
جارت جارة اليه فحلى ... عطلا من أعناقها إعتاقه
تلك بكر الفتوح فالشام منها ... شابة والعراق بعد عراقه
أين كان الملوك عن وجهها الطلـ ... ـق يرينا إضاءة إطلاقه
ممتنعها أبو بكلب السر ... وم لما أظله إرهاقه
شائقا قلبه الى أمل عـ ... ـجله دون نيله إخفاقه
قسمت راية المواضي القسيـ ... ـات وابتز من لهاه عراقه
وكذا أنت يا ابنه ما عمدا ... شاقه نيله فصلة خلاقه
وكفى البحر انه ابن سحاب ... ما ونى سحّه ولا إصفاقه
لم يمت من سددت ثلمه يا ... مَن على الدين كظه إشفاقه
ربة لم تدع على الارض قلبا ... خلفه عدو ينشق عنه شقاقه
كلما كان ذكرها منه في السمـ ... ـع يكفي في الآفاق نفاقه
وجهاد عن حوزة الدين لم يسـ ... ـل له ركضه ولا إنفاقه
اى شان أدركت يا نور دين الـ ... ـله اعيا على الملوك لحاقه
نطق الحاسدون بالعجز عن مسـ ... ـعاه محلى بالنيرات نطاقه
غض أبصارهم لحاق جواد ... ليس إلا الى المعالي سباقه
مل بصيرا كم اعتقت يوم بصرى ... من أسار الموت الزؤام عتاقه

(١) الروضتين ١ / ١ / ٩٩

كم عرام على الصريحة شبت ... ضاق منه على الصليب خناقه
ولكم صبوة بهاب واختيت ... ـها لها حكت الأسارى رباقه
بسط الذل فوق بسطة باسـ ... ـطا ولكن طواه عنه ارتفاقه
كان فيها ليث العرين حمى الاشـ ... ـبال منه غضبان كالنار ما تـــه
وشبيه النبي يوم حنين ... اذ تلاقى أدواءهم درياقه
وفي الحرب مثلها يحسن الكسـ ... ـرة ان ضرباسها لا نياقه (١)

وقال فيه :

مظفر العزم ممدود الرواق على ... معالم الدين يرفعها ويبنيها
رد الفناء كنسا للهدى فخبت ... نار الضلال وورثها أثافيها
وأورد الملحدا من إياته ... فاستن وأثنزعها في صوانيها
وبت المشركين أوراثا لما دريت ... داريدة منه إلا استوسقت فيها
يا بدر في أشرقت في الدست غرته ... غيث الرعية واشتملت مراعيها
أتام أحمد من محمود ما علما ... به استقام على البيضاء ساريها
محيي شريعته من بعد ما انهدمت ... واستصبحت بعد اظلام مبانيها
ثابت مواهبه فيها مهابته ... حتى استقرت على سمت مراسيها (٢)

وله من أخرى :

أما الرعايا فانها رضيت ... لديك نعمى عفت ثناياها
ملكت نهى العدل القويم لها ... فاحمدت دينها ودنياها
وكم أمنيت خوفا فاتمها ... متانفه الخوف خوفه اللــه
لله أقطارك التي تطهرت ... لها مفاها الى مناياها
أنت في انبعوارسها ... تردى فتوى أولاد أفراسها
أشجت لهاة البرنس صبوتها ... وكم عتا عاتيا فأشجاها
وجوسلين استماع نطاقها ... فاعتقل الذي تحت مقداها
ردته صفرا من كل ما ملكت ... يداه أيدي ما حل مسراها
جويين جاسقه أو بسالة لارات ... بوسا وجاد الحيا محياها
سرية لو تكون فارسها ... يومئذ ما انبعثت أشقاها
لا زال ظل النعماء عن ملساه ... ما الشمس كفؤا له اذا باهى
والله جازيه عن عقيدة ... أعزها الله مذ تولاها
محمود المعتلي الى فلك المجـ ... ـد وقيرا له ولاياها
أصاله جداك التقى بالجـ ... ـد ونصر الله مغزاها
نت عزوف عن الغنا طبت ... نزلها الله يوم مثواها
أنت الذي سلم الأنام له ... يدني طاقة القال ويسراها
وأنت مولى الدولة تابعة ... من كل فنا خسرو وشاهنشاها
والشمر هذا لاتول احمده ... أوه بديل من تواستي وامسها (٣)

(١) الروضتين ١/١/١٢٧، ١٣١، ١٤٤ (٢) الروضتين ١/١/٢٣٠ (٣) الروضتين ١/١/٢٠٧

ابن الصيـــــاد

قال يمدح طلائع بن رزيك حين قتل مقدم خيل الفرنــــــج * :

عن سيف دين الله سل أرناطـــــا ... حيث المنية كاسها يتعاطـــــى
والمشرفية قد حكمت في جيشـــــه ... في الضال والنهل القطا الفرّاطـــــا
قد شام طير الكفر منه منســـــرا ... أشفى وعاين مخلبا غطاطـــــا
هو طبهم جثث العدى في الحرب مـــن ... حلل النجيع مجاسدا وربا طـــــا
فجياده تشكو مزاحمة القنـــــا ... وترد خرصان الرماح سباطـــــا
هو فارس الاسلام يحفظ بالظبـــــا ... من دينه الاطراف والاوساطـــــا
كم قد أثار من الاسنة أنجمـــــا ... لما أثار من العجاج غطاطـــــا
فتخاله ملكا رمى بشهابـــــه ... في الرّوع شيطان الحروب فشاطـــــا (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر جـ ١ ص ١٤٣

(*) نسب الابيات أحمد بدوى الى ظافر الحداد (أنظر الحياة العقليه ص ١٢) والصواب لابن الصياد (أنظر ديوان ظافر ص ٣٧٥)

قال :

توالت علينا في الكتائب والكتب … بشائر من شرق البلاد ومن غرب
بشائر تهدي للموالي مسرة … وتحدث للباغين رعبا على رعب
ففي كبد من حرها النار تلتظي … وفي كبد أحلى من البارد العذب
جعلنا جبال القدس فيها وقد جرت … عليها عتاق الخيل كالنفنف السهب
فقد أصبحت أوعارها وحزونها … سهولا توطا للفوارس والركب
ولما غدت لا ماء في جنباتها … صببنا عليها وابلا من دم سكب
وجادت بها سحب الدروع من المدا … نجيعا فأغنتها الغداة عن السحب
وأجرت بحارا منه فوق جبالها … ولكن بحار ليس تعذب للشرب
فقد عمها خصب به من رؤوسهم … بها ولكم خصب أضر من الجدب
وقد روعتها خيلنا قبل هذه … مرارا وكانت قبل آمنة السرب
وأخفى صهيل الخيل أصوات أهلها … فعاقت نواقيس الفرنج عن الضرب
وأبطال حرب من كتامة دوخوا … بلاد الأعادي بالمسومة القب
وعادوا إلينا بالرؤوس على القنا … وأغناهم كسب الثناء عن الكسب
وإنا بنو رزيك ما زال جارنا … يحل لدينا بالكرامة والخصب
ونفنيه بالأموال في السلم دائما … كما نحن بالأعداء نفنيه في الحرب (١)

كتب الى أسامة بن منقذ :

بأبي شخصك الذي لا يغيب … عن عياني وهو البعيد القريب
يا مقيما في الصدر قد خفت أن يشو … ذيك القلب حرقة ووجيب
وأرى الدمع ليس يطفئ حر الـ … ـوجد إن جاد غيثه المسكوب

ومنها :

قد علمتم بأن غيث أيادينا على الناس بالنضار سكوب
وبنا يدرك المؤمل ما يرجوه قدما وينقذ المكروب
نحن كالسحب البوارق والرعد لدينا الترغيب والترهيب
تارة نسعر الحروب على النا س وطورا بالمكرمات نصوب
كره الدار أهله فهو معقو ق بألا يقيم فيه لبيب
إن تجلت عنه الحروب تليها … خلفتها زلازل وخطوب
رتعت أرضه عشية غنى الـ … ـرعد في الجو والكريم طروب
وتثنت حيطانه فإما تمـ … ـيلها شمال بزمرنا وجنوب
وأرى البرق شامتا ضاحك السـ … ـن وللجو بالغيوم قطوب

(١) ديوانه ص ٥٨

ذكروا أنه تذوب بها السحب ... فما للصخور أيضا تذوب
أبذنب أصابها قدر اللـه ... فللأرض كالأنام ذنوب
إن ظني ، والظن مثل سهام الـ ... ـرمي ، منها المخطي ومنها المصيب
إن هذا لئن غدت ساحة القد ... س وما للإسلام فيها نصيب
منزل الوحي قبل بعث رسول الله ... فهو المحجوج والمحجوب
نزلت وسطه الخنازير والخمر ... وباري الناقوس فيها الصليب
لو رآه المسيح لم يرض فعلا ... زعموا أنه له منسوب
أبعد الناس عن عبادة رب الناس ... قوم إلههم مصلوب
لهف نفسي على ديار من السكان ... أقوت فليس فيها عريب
ولكم حلها فآنسه أوطان ... صباه ، والأهل يوما غريب
فاحتسب ما أصاب قومك مجد الدين ... واصبر فالحادثات ضروب
هكذا الدهر : حكمه الجور والقصد ... وفيه المكروه والمحبوب
إن تخصصكم نوائب ما زالت ... لكم دون من سواكم تنوب
فكذاك القناة يكسر يوم الروع ... منها صدر ، ويبقى كعوب
ولعمري إن المناصح في الدين ... على الله أجره محسوب
وجهاد العدو بالفعل والقول ... على كل مسلم مكتوب
ولك الرتبة العلية في الأمرين ... مذ كنت إذ تشب الحروب
أنت فيها الشجاع ، مالك في الطعن ... ولا في الضراب يوما ضريب
وإذا ما حرضت فالشاعر المفلق ... فيما تقوله والخطيب
وإذا ما أشرت فالحزم لا ينكر ... أن التدبير منك مصيب
لك رأي يقظان إن ضعف الـرأي ... على خاطر اللبيب عليب
فانهض الآن مسرعا ، فبأمثالك ... ما زال يدرك المطلوب
وألق عنا رسالة عند نور الدين ... ما في إلقائها ما يريب
قل له دام ملكه ، وعليه ... من لباس الإقبال برد قشيب
أيها العادل الذي هو للدين ... شهاب ، وللحروب شبيب
والذي لم يزل قديما عن الإسلام ... بالعزم منه تجلى الكروب
وغدا منه الفرنج إذا لاقوه ... يوم من الزمان عصيب
إن يوم نزف حقدهم فلذا شطان ... تناه في كل قلب قليب
غيرنا من يقول ما ليس يرضيه ... بفعل ، وغيرك المكذوب
قد كتبنا إليك ، فاوضح لنا الآن ... بماذا عن الكتاب تجيب
قصدنا أن يكون منا ومنكم ... أجل في مسيرنا مضروب
فلدينا من العساكر ما ضاقت ... بأدناهم الفضاء الرحيب
وعلينا أن يستهل على الشام ... مكان الغيوث مال صبيب
أو تراها مثل العروس : ثراها ... كله من دم العدى مخضوب
لطنين السيوف في فلق الصبح ... على هام أهلها تطريب

ولجمع الحشود من كل حصن ... سلباً نهب الجم ونهوب
ويحول الاله ذاك ، ومن غا ... لب ربي فإنه مغلوب (١)

واجاب طلائع أسامة بن منقذ بقصيدة رداً على قصيدته الطائية ، وحرّضه على الجهاد مطلعها :

هي البدر ، لكن الثريا له قرط ... ومن أنجم الجوزاء في نحرها سمط

ومنها :

حللنا بها البيض السيوف فلن يخب ... شباب الدجى لما بدلمعها شمطٌ
سيوف لها في كل درع وجنة ... اذا ما اعتلت قدّ او اعترضت قط
ذخرنا سطاها للفرنج ، لانها ... بهم دون أهل الارض أجدر أن تسطو
لهم تسطهم في الحرب منها ، وطالما ... عليهم لدى الهيجاء عدل ولا قسط
وقد كاتبوا في الصلح ، لكنْ جوابهم ... بحضرتنا ما يثبت الخط لا الخط
سطور خيول لا تغب ديارهم ... لها بالنواصي والقنا الشكلُ والنقط
وحرب لها الارواح زاهقة اما ... تباين والاصوات من دهش لغط
اذا أرسلت غربا من النقع فاحمنا ... أتيتنا فأسنان الرماح لها مشط
كأن القنا فيها أنامل حاسب ... أجد بها في السرعة الجمع والقسط
رددنا بها ابنَ الفُنْشِ عنا ، وانما ... يثبّته في سرجه الشدّ والربط
فقولوا لنور الدين : ليس لجائف الـ ... جراحات الا الكي في الطب والبسط
وحسم أصول الداء أولى لعاقل ... لبيب اذا استولى على المدنف الخلط
فدع عنك ميلا للفرنج وهدنة ... بها أبدا يخطي سواهم ، ولم يخطبوا
تأمل فكم شرط شرطت عليهم ... قديما ، وكم غدر به نُقِضَ الشرط
وشمّرْ فإنا قد أعنا بكل ما ... سألت وجهزنا الجيوش ولم يبطؤوا
ودونك مجدَ الدين عذراء زفها ... اليك الوفاء المحض والكرم البسط
هدايا تهادى بين حسن وفائها ... وانما هنا ، ذا التاج زان وذا القرط
على أنها تشتطّ إن هي ساجلت ... (أجيرة قلبي ، ان تدانوا وان شطوا)(٢)

وقال قصيدة أرسلها الى أسامة مكتوبة بخط يده :

أيها المقتدى أنت على البعـ ... ـد صديق لنا ، ونعم الصديق
ليس يخفى تأتيه من سرّ أفعا ... لك للطالب المحقوق عقوق
فلهذا نرى مواصلة الكتـ ... ـب تباطا اليك ما يليق

(١) ديوانه ص ٦١ ــ ٦٥ وانظر الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٩٥
(٢) ديوانه ٨٤ والروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٩٨

ونناجيك بالمهمات إذ أنت بالقائها اليك خليق
واهم الأمور أمر جهاد الكفر فاسمع فعندنا التحقيق
واحلتهم منا السرايا فاشجاهم بكور منا لهم وطروق
وأباحت ديارهم فأباد القوم قتل ملازم وحريق
وانتظارنا بزحفنا بر نور الدين علما منا بأن سيفيق
وهو الآن في أمان من الله وما يعتريه أمر يعوق
ما لهذا المهم مثلك ، مجد الدين ، فانهض به ، فأنت حقيق
كل له : لاعدا هراى ولا زال لديه لكل خير طريق
أنت في حسم داء طاغية الكفار ذاك المرجو والموثوق
فاغتنمها لجهاد أجرك ، كي تلقى رفيقا له ، ونعم الرفيق (١)

وأنشد قصيدة في وصف جيوشه وعدتها ومناعتها وأرسلها الى الامير أسامة بن منقذ :

قل لابن منقذ الذي ... قد حاز في الفضل الكمالا
فلذاك قد أضحى الانام ... على فضائله عيالا
وقريضة عند الظما ... ينسيهم الماء الزلالا
كالدر ، والياقوت ما ... سكن البحار ولا الجبالا
لكن يجاور فيه أيمان ... واحلالا ثقالا
ما كان ظني أن يحز ... منه لي السحر الحلالا
كلا ، ولا يشكو لحمد ... رسائل مني كلالا
كم قد بعثنا نحوك الأ ... شعار مسرعة عجالا
مثل الحسان الغيد تا ... هت في محاسنها دلالا
بذلت لك الممنوع ثم ... منحتها منك ابتذالا
وصددت عنها حين را ... مت من محاسنك الوصالا
ما كان مرسلها ، وحقك ... يستحق بها المطالا
هلا بذلت لنا مقالا ... حين لم تبذل فعالا
مع أننا نوليك صبرا ... في المودة واحتمالا
ونبثك الأخبار إن ... أضحت قصارا أو طوالا
سارت سرايانا لقصد الشام ، تعتسف الرمالا
تزجي الى الاعداء جرد ... الخيل أتباعا توالى
تمضي خفافا للمغا ... ر بها ، وتأتينا ثقالا
حتى لقد رام الاعا ... دي من ديارهم ارتحالا
وعلى الوعيرة معشر ... لو يجهدوا فيها القتالا
لما نأت عن يجنف ... بها يمونا أو شمالا
نهضت اليها خيلنا ... من مصر تحتمل الرجالا

---

(١) ديوانه ص ١٠٣ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٦١

والبيض لامعة وبيض الهند والأسل النهالا ... في أرضها حتاً حثالا
فغدت كأن لم يسهدوا ... ل ملآن بالقتلى التلالا
غدا وفي تل العجو ... إذ مر مري ليس يلوى نحو رنته اشتغالا
واشتاق عسكرنا لبه ... أهلا يحبهم وصالا
وسرية ابن فريج الطائي طال بها وصالا
سارت الى أرض الخليل ... ل فلم تدع فيها شمالا
فلو أن نور الدين يجمل فعلنا فيهم شمالا
ويسير الأجناد جهرا كي ينازلهم نزالا
وبقي لنا ولأهل دولته بما قد كان قالا
لرأيت للإفرنج طرا في معاقلها اعتقالا
وإذا أبى إلا أطراحاً للنصيحة واعتزالا
عدنا بتسليم الأمور لحكم خالقنا تعالى (١)

وكتب يخطيد قصيدة الى أسامة :

أيها السائر المجد الى الشام تبارى ركابه والخيول
خذ على بلدة بها دار مجد الدين لا ريع ربعها المأهول
وتعرف أخباره واقره منا سلاما فيه العتاب يجول
قل له : أنت نعم ذخر الصديق اليوم لكنك الصديق الملول
ما ظننا بأن حالك في القرب ولا البعد بالملال تحول
لا كتاب ولا جواب ولا قو ... ل به للبقين منا حصول
غير أنا نواصل الكتب إذ تعمر منك البر الكريم الوصول
ذاكرين الفتح الذي فتح الله علينا فالصنع منه جميل
لم يزل فعلنا لما دعانا وهو لما شاء في الأنام فعول
جاءنا بعد ما ذكرنا في كتب أتاكم بهن منا الرسول
أن بحر الاسطول نال من الافرنج ما لا يناله التأميل
سار في قلة وما زال بالله وصدق النيات ينمي القليل
وبقايا الاسطول لم يلبث بعد الى ساحل الشام وصول
فحوى من عكا وانطرسوس ... عدة لم يحط بها التحصيل
جمع دوية بهم كانت الافرنج تسطو على الورى وتصول
فيد في وسطهم مقدمهم يهدى الينا وجيد مغلول
بعد مثوى جماعة ملكت بالسيف منها الغريق والمقتول
هذ منحة الإله وتعديد أيادي الاله شيء يطول
بلغوا قولنا الى الملك الصا ... دل فهو المرجو والمأمول

---

(١) ديوانه ١٢٤ ـ ١٢٦

قل لمه : كرتماطسل الدين في الكفـــــــار ، فاعذر أن ينصب المطـــــول
مر المعى التد س واحتسب ذلك في اللـــــه فاليسير مثله يشفي الغليـــــل
واذا ما أبطأ مسيرك فاللـــــه اذاً حسبنا ونعم الوكيـــــل (١)

وقال إثر وحشة حصلت بين نور الدين محمود بن زنكي وبين قلج أرسلان بن مسعود صاحب الروم أدت الى الحرب والتطاحن والتضاغن ، فعندما بلغ خبرها الى مصر كتب الابيات عنه الى قلج أرسلان ، ينهاه عن ذلك :

نقول ، ولكن أين من يتفهـــــم ... ويعلم وجه الرأي ، والرأي مبهـــــم
وما كل من قاس الامور وساسهـــــا ... يوفّق للأمر الذي هو أحـــــزم
وما أحدٌ في الملك يبقى مخلـــــدا ... وما أحدٌ مما قضى الله يسلـــــم
أمن بعدما ذاق العدى طعم حربكـــــم ... بغيتم ، وكانت وهي صاب وعلقـــــم
رجعتم الى حكم التنافس بينكـــــم ... وفيكم من الشحناء نار تضـــــرّم
أما عندكم من يتقي اللـــه وحـــــده ... أما في رعاياكم من الناس مسلـــــم
تعالوا ، لعل الله ينصر دينـــــه ... اذا ما نصرنا الدين نحن وأنتـــــم
وننهض نحو الكافرين بعزمـــــة ... بأمثالها تحوى البلاد وتقســـــم (٢)

وأرسل الى أسامة بن منقذ قصيدة صور فيها حال الغزاة ، وحرض فيها نور الدين على قتال الصليبيين :

الا هكذا في الله تمضي العـــــزائم ... وتنقض لدى الحرب السيوف الصـــــوارم
وتستنزل الاعداء من طود عزهـــــم ... وليس سوى سمر الرماح سلالـــــم
وتغزى جيوش الكفر في عقر دارهـــــا ... ويوطأ حماها والانوف رواغـــــم
ويوفي الكرام الناذرون بنذرهـــــم ... وان بذلت فيه النفوس الكرائـــــم
نذرنا مسير الجيش في صفر فمـــــا ... مضى نصفه حتى انثنى وهو غانـــــم
بعثناه من مصر الى الشام قاطعـــــا ... مفاوز يشقى بالمسير بهن دائـــــم
وناهيك من أرض الجفار التظعن بها ... بجنبيه مشبوب من القيظ باجـــــم
وصارت عيون الماء كالعين عـــــزة ... اذا ما أتاها العسكر المتراحـــــم
فما ناله بعد الديار ولا ثـــــنى ... عزيمته جهد الظما والسمائـــــم
يهجّر والعصفور في قعر وكـــــره ... ويسري الى الاعداء والنجم نائـــــم
اذا ما طوى الرايات وقت مسيـــــره ... غدت عوضا منها الطيور الحوائـــــم
تباري خيولاً ما تزال كأنهـــــا ... اذا ما دنى أنقضّت نسورٌ قشاعـــــم
فان طابقت مصرا تساوين مرشـــــة ... تواد مها في جوها والقوائـــــم
هي الدهم الوانا ، وصبغ عجاجـــــة ... فان طالبت أعداءها فالاداهـــــم

---

(١) ديوانه ص ١٢٨ والروضتين ج١ ق ١ ص ٢٩٦
(٢) ديوانه ص ١٣٣ ، الكامل ١١ / ٣١٨

تصاحبها علما بأن سوف تفتدي
كما أن وحش القفر ما زال منهم
خيول اذا ما فارقت مصر تبتغي
يسير بها ضرغام في كل مأزق
ورنقتصين الزمان وحاتم
ضى طاهر الاثواب من كل ريبة
هنيئا له ، يسقى الرحيق اذا غدت
ولو أننا نبكي على فقد هالك
ولكننا بعنا الاله نفوسنا
تهون علينا أن تصاب نفوسنا
وما خام اذ لاقى همام وصنوه
(وبرتية) شاموا السيوف ، فلم تعش
وأبناء جند لو توجه جمعهم
وجمع ماليك بأفعالنا اقتدوا
(وسنبعر) قد شادوا المعالي بفعلهم
و (ثعلبة) أضحوا بنا قد تأسدوا
وان (جذاما) لم يزل قط منهم
جيوش أفدناها اعتزاما ونجدة
اذا ما أثاروا النقع فالثغر عابس
ولما وطوا أرض الشام تحالفت
وواجهم جمع الفرنجة بعلمة
فلقوهم زرق الاسنة ، وانطووا
وما زالت الحرب العوان أشدها
يشتهم من لاح جمعهم له
وحسبك أن لم يبق في القوم فارس
وعادوا الى سل السيوف فقطعت
فلم ينج منهم يوم ذاك مخبر
كذلك ما ينفك تهدى الى العدى
وتسرى لهم آراؤنا وجيوشنا
فتقتلهم بالرأي طوراً ، وتارة
وما الحازم المحمود الا الذى يرى
وقد غرق الكفار منه بقطرة
فكيف اذا سالت عليهم سيولنا
وما نحن يا الاسلام للشرك هازم
فقولوا لنور الدين : لا فل حده
تجهز الى أرض العدو ، ولا تهن
فما مثلها تبدى احتفالا به ، ولا

بها ، ولها في الكافرين مطاعم
مدى الدهر أعراس لهم وولائم
عدى ، فلها النصر المبين ملازم
وما يصحب الضرغام الا الضراغم
ويحيى ، وان لاقى المنية حاتم
شهيدا كما تمضي السراة الاكارم
تحييه في الخلد الحسان النواعم
لقلت له منا الدموع السواجم
ورحنا وطمنا على البوم نادم
اذا لم تصبنا في الحياة المآثم
عشية أصوات الرجال همائم
اباريقها في ساحة الشام شائم
لروعة جالت عليها المقاسم
فكلهم بالطعن والضرب عالم
وليس لهم الا العوالي دعائم
فما لهم في المشركين مقادم
قديما لحبل الكفر بالشام جاذم
فطاعننا منهم ، ومنا المزائم
وان جردوا الاسياف فالثغر باسم
فأنست جمعها عربها والاعاجم
تهون على الشجعان منها العزائم
عليهم ، فلم ينجم من الكفر ناجم
اذا ما تلاقى العسكر المتصادم
بلجة بحر ، موجها متلاطم
من البيض الاوهو للرمح حاطم
رؤوس ، وحزت للفرنج غلاصم
ولا قيل : هذا وحده اليوم سالم
وللوحش أعراس لهم ومآتم
بداهية تبيض منها القوادم
تدوسهم منا المذاكي الصلادم
من الحزم في أحواله ، وهو حازم
سحاب انتقام عندنا متراكم
وجاشت لنا تلك البحار الخضارم
ولكننا الايمان للكفر هادم
ولا حكمت فيه الليالي الغواشم
وتظهر فتورا ان مضت منك حازم
تسلا علها للملوك الأعاظم

فعندك من ألطاف ربك ما بـه … علمنا يقينا انه لك راحـم
أعادك حيا بعد ان زعم الورى … بأنك قد لاقيت ما الله حاتـم
بوقت أصاب الارض ما قد أصابها … وحلت بها تلك الدواهي العظائـم
وخيم جيش الكفر في أرض شيزر … فسيقت سبايا ، واستحلت محـارم
وقد كان تاريخ الشام وهلكه … ومن يحتويه أنه لك عـادم
نقم ، واشكر الله الكريم بنهضة … اليهم ، فشكر الله للخلق لازم
فنحن على ما قد عهدت نروعهم … ونحلف جهدا أننا لانسالـم
وغاراتنا ليست تغتر عنهم … ولم ينجي القوم منها الهزائـم
واسطولنا أضعاف ما كان سائرا … اليهم ، فلا حصن لهم منه عاصـم
ونرجو بأن نجتاح باقيهم بـه … وتحوى الأسارى منهم والغنائـم
على أننا نلنا من المجد ما بـه … نفاخر أملاك الورى ونقـاوم
ولكننا نهنى المثوبة جهدنا … وطاقتنا ، والله معط وحـارم
ونختم بالحسنى الفعال ، وانما … تزين أعمال الرجال الخواتـم (١)

وكتب الى أسامة بن منقذ في وصف غزو جيوشه للفرنج :

يا سيداً يسمو بهمـ … ـته الى الرتب العليـة
فينال منها حين يحصـر … م غيره أوفى مزيـة
أنت الصديق وان بعـد … ت وصاحب الشيم الرضيـة
يهنيك أن جيوشنـا … فعلت فعال الجاهليـة
سارت الى الاعداء مـن … أبطالها مائتا سريـه
فتنير هذى بكـرة … وتعاود الاخرى عشيـة
فالويل منها للفرنـ … ـج فقد لقوا جهد البليـة
جاءت رؤوسهم تلـو … ح على رؤوس السمهريـة
وبداشق قد قسمـت … بين الجنود على السويـه
وخلائق كثرت مـن الاسـ … ـرى تقاد الى المنيـة
فانهض ، فقد أنبيـت مجـ … ـد الدين بالحال الجليـة
ألم بنور الديـن واعلمـ … ـه بهاتيك القضيـة
فهو الذى ما زال يخلـص … منه أعمالا ونيـة
ويبيد جمع الكفـر بالبيـ … ـض الرقاق المشرفيـة
فعساه ينهض نهضـة … يفني بها تلك البقيـة
أما لنصرة دينـه … او ملكه أو للحميـة (٢)

---

(١) ديوانه ص ١٣٥ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٩
(٢) ديوانه ص ١٧٣ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٠

شمس المعالي أبو الفضائل الحسين بن محمد بن تركان ـ ٥٧٦

قال حين سمع تأويل منام بإعلان الخلافة العباسية بمصر قصيدة منها :

لتهنك يا مولى الانام بشارة ... بها سيف دين الله بالحق مرهف
ضربت بها هام الأعادي بهمّة ... تقاصر عنها السمهري المثقف
بعثت الى شرق البلاد وغربها ... بعوثا من الآراء تحيي وتتلف
تقامت مقام السيف والسيف قاطر ... ونابت مناب الرمح والرمح يرعف
وقدت لها جيشا من الروع هائلاً ... الى كل قلب من عداتك يزحف
ملكت به أقصى المغارب عنوة ... وكادت بمن فيها المشارق ترجف
ايهنك يا مولاي فتحا تتابعت ... اليك به صور الركائب توجف
أخذت به مصرا وقد حال دونها ... من الشرك ناس في لهى الحق تقذف
وقد دنست منها المنابر عصبة ... يساء التقى والدين منهم ويأنف
فطهرتها من كل شرك وبدعة ... أغر عزيز بالمكارم يشغف
فعادت بحمد الله باسم امامنا ... تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو أن دانت ليوسف مصره ... وكانت الى علياته تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف ... وخلصها من قبضة الرق يوسف (١)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٠

قال المهذب بن الزبير يمدح طلائع بن رزّيك بقصيدة : منها :

وما أضطربت رماح الخط الا ... مخافة أن يحطّمها جبينا
وما تندق يوم الروع حتى ... يدقّ بها الكواهل والمتونا
عجبت لها تصافح من يديه ... وتوصف بالظما وبحرا معينا
ويوردها ولا يخطى برأى ... نطافا من دروع الدار عينا
وهل يشفى لها أبدا غليل ... وقد شربت دماء الكافرينا
اذا لقيت عيون الروم زرقا ... حسبت سنانها تلك العيونا
وتائق في العداة له تبارى ... صنائق في العفاة المجتدينا
وأرغام به أبكى عيونا ... وأنعام أقر به عيونا ... (١)

وقال فيه أيضا ، يصف أسطوله ونصرته على الروم سنة ٥٥٣ :

أعلمت حين تجاور الحيان ... أن القلوب مواقد النيران ؟
يا كاسر الاصنام قم فانهض بنا ... حتى تصير لكسر الصلبان
فالشام ملكك قد ورثت تراثه ... عن قومك الماضين من غسان
فاذا شككت بأنها أوطانهم ... قدما فسل عن حادث الجولان
أو رمت أن تتلو محاسن ذكرهم ... فاسند روايتها الى حسان

ومنها في وصف الزلزلة :

ما زلزلت أرض العدا بل ذاك ما ... بقلوب أهليها من الخفقان
وأقول إن حصونهم سجدت لما ... أوتيت من ملك ومن سلطان
والناس أجدر بالسجود اذا غدا ... لسناك يسجد شامخ البنيان
ولقد بعثت الى الفرنج كتائبا ... كالاسد حين تصول في خفان
لبسوا الدروع ولم تخل من قبلهم ... أن البحار تحل في غدران
وتيمموا أرض العدو بقفرة ... جرداء خالية من السكان
عشرين يوما في القفار وليلة ... يسرون تحت كواكب الخرصان
حتى اذا قطعوا الجفار بجحفل ... هو في الحديد ورمله سيّان
أغريتهم بحمى العدا فجعلته ... بسطاك بعد العز دار هوان
عجلت في تلك المجول قراهم ... وسم لك الضيفان بالذيفان
لما أبوا ما في الجفان قريتهم ... بصوارم سلت من الاجفان
وثللت في يوم العريش عروشهم ... بضراب صادق وطعان

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج ١ ص ٢٠٥

الجأتهم للبحر لما أن جرى … منه ومن دمهم معا بحران
دمع الورى بالبأس إذ خضبوا الظبا … في يوم حربهم من الأقران
ولأنت تخضب كل بحر زاخر … من تحارب بالنجيع القاني
حتى ترى دمهم وخضرة مائه … كشقائق نثرت على الريحان

ومنها في وصف الاسطول :

وكان بحر الروم خُلّق وجهه … وطفت عليه مناهت المرجان
ولقد أتى الأسطول حين غزا بما … لم يأت في حين من الأحيان
أحبب الي بها شواني أصبحت … من فتكها ولها العداة شواني
شبهن بالغربان في ألوانها … وفعلن فعل كواسر العقبان
أوترتها عدد القتال فقد غدت … فيها القنا عوضاً من الأغصان
فأتتك موقرة بسبي بينه … أسرائهم مغلولة الأذقان
حرب عوان حكمتك من العدا … في كل بكر عندهم وعوان
وأتت رسل ابن القسيم اليه تسعى … شعبان كي يتقاسم الشعبان
والفال يشهد باسمه أن سوف يغدو … الشام وهو عليكما قسمان

ومنها في مدح نور الدين ووصف قتله للبرنس :

وأراك من بعد الشهيد أبا له … وجعلته من أقرب الإخوان
وهو الذي ما زال يفصل في العدى … ما لم يكن ليسد في الإمكان
قتل البرنس ومن عساه أعانه … لما عتا في الغي والعدوان
وأرى البرية حين عاد برأسه … مر الجني يبدو على المران
وتعجبوا من زرقة في طرفه … وكأن فوق الرمح نصلا ثاني
فليهنه أن فاز منه بسيد … أوفى برتبته على كيوان
قد صاغ من أرماحه لمعاصم الا … سلام أقراطا من الخرصان
والخيل تسلم في الكريهة أنه … قد حط هيكلها على الفرسان
عجبا لجود يديه اذ يبني العلا … والسيل يهدم ثابت الاركان (١)

---
(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ، جـ ١ ص ٢١٠ ، وأنظار الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٢٧٥

عرقلة الكلبي ـ ٥٦٧ هـ

قال يمدح الامير معين الدين أنر الطغتكي ، وقد وجّه يستنجد بالافرنج :

تضاعف ضعفي بَعدَ بُعد الحبائب … وقد حجبوا عني قسي الحواجب
وقد أفلت تلك الكواكب لم تزل … موكّلة عني برعي الكواكب
فما آيب للهمّ عني برائح … ولا رائح للعيش عني بآيب
ونادبة ناحت سحيرا بأيكة … فهيّجت الوسواس في قلب نادب
تنوح على غصن ، وأنوح لمثله … وهل حاضر يبكي أسى ، مثل غائب
بواد ، بوادي الغوطتين ، ربوعكم … ربيعي ، ومن ذاك التراب ترائبي
يزيد احتراقي واشتياقي اليكم … اذا صاح بي : عزّ على الدار صاحبي
وأهوى عواشا من رياض أنيقة … فتصرفني عنها صروف النوائب
تظل ثغور الاقحوان ضواحكا … اذا ما بكتفيها عيون السحائب
كأن لمع البرق في جنباتها … سيوف معين الدين بين الكتائب
فتى لم يعد حتى تعفر ترنه … كأن نهايه الضرب ضربة لازب
حشية سرج على ظهر سابح … وحلته درع على غير دارب
غدا في المعالي راغبا غير زاهد … وفيما سواها ، زاهدا غير راغب
يظن صلاح الدين فرسان جلق … كفرسانه ، ما الاسد مثل الثعالب
غدا تطلع الشام الفرنج بفيلق … مودة أبطاله للمصائب
رجال اذا قام الصليب تصلبت … رماحهم في كل ماش وراكب
لها الليل نقع ، والأسنة أنجم … فما غير أبطال وغير جنائب (١)

وقال يمدح الامير مجد الدين أبق بن محمد بن بوري بن طغتكين :

عزّ على نجد لملك منجدي … بنسيمها ، ويذكري سعدى ، معهدي
بدوية الالفاظ دون خبائها … خيل تروح الى الطعان وتغتدي
قد كان يغني لحظها وقوامها … عن كل خطيّ ، وكل مهند
ياسائلي ، إن دمع عيني سائل … دعك الحديث عن الغزال الاغيد
من لي بمعسول الثنايا عذبها … لدن كغصن البانة المتأود
أبدا هواه لي مقيم مقعد … روحي فداه ، من مقيم مقعد
ولقد نعمت بوصله في سيرب … ألف الربيع بروضه الغصن الندي
أزهاره من جوهر ، ونسيمه … من عنبر ، وثماره من عسجد
وعلى الغصون من الحمائم قينة … تنبيك عن شدو الغريض ومعبد

---

(١) ديوان صفحة ٥ ـ ٦

والماء في بردى كأن حبابه ... برد جنته الريح غير مجمد
بينا تراه كالسجنجل ساكنا ... حتى تراه أجعدا كالمبرد
وكأنما أنفاس ريـاه تنسا ... أبقى الهمام الماجد بن محمد
ملك تشرفت المنابر باسمه ... وعلت مناقبه فويق الفرقد
وعلى الأسرة من أسرة وجهه ... شمس تجلت من بروج الاسعد
ما نشرت راياته يوم الوغى ... الا انطوى جيش العدو المعتدي
من قاتل الافرنج دينا غيره ... والخيل مثل السيل عند المشهد
رد الامان بكل ندب باسل ... ومن الجياد بكل نهد اجرد
ومن السيوف بكل عضب ابيض ... ومن السنان بكل نقي اسود
حتى لوى الاسلام تحت لوائه ... وغدا بمحمد من شريعة احمد
طلق المحيا واضح متهلل ... مثل الشهابا فهو الشمس طلعة الاسعد
كسد القريض وكان قدما نافقا ... في ذا الزمان ، وعنده لم يكسد
أمجير دين الله ، وابن جماله ... والسيد بن السيد بن السيد
كم حاسد لك في الشجاعة والندى ... والعلم ، لا قرت عيون الحسد
أضحت دمشق بحسن وجهك جنة ... فيها الذي شنئاك غير مخلد
لا زلت للاسلام عضدا ما سرت ... بعد الكرى شدنية فهي غدغد (١)

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيـوب :

إلام ألام فيك وكم أعادي ... وأمرض من جفاك ولن أعادا
لقد ألف الضنى والسقم جسمي ... وجنباي المدامع والسهادا
وها أنا قد وهى صبري ، وشوقي ... اذا ما قلت الاشواق زادا
بقلبي ذات خلخال وقلب ... تملك غوره منى الفؤادا
مهفهفة كأن قضيب بان ... تثنى في غلائلها ومادا
بوجه لم يزد إلا بياضا ... وشعر لم يزد إلا سوادا
تعجب عاذلي من حر حبي ... ومن برد السلو وقد تمادى
ولا عجب اذا ما آب حر ... بآب ، ومن جمادى في جمادى
وقد أنساني الشيب الغواني ... فلا سعدى أريد ولا سعادا
وهل أخشى من الانواء بخلا ... اذا ما يوسف بالمال جادا
فتى للدين لم يبرح صلاحا ... وللاموال لم يبرح فسادا
هو المعروف بالمعروف حقا ... جواد لم يهب الا الجوادا
به الاقمار قد عاشت نفاقا ... وعند سواه قد ماتت كسادا

---

(١) ديوانه صفحة ٢٤ ـ ٢٦ الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٠

يحب الخمسة الأشباح دينـــــــا ... وما يهوى زيدا أو زيـــــــادا
لئن أمطا منور الدين حصنـــــا ... فإن الله أعطاه البـــــلادا
الى كم ذا التوانـــي في دمشـــق ... وقد جاءتكم مصـــر تهـــادى
عروس بعلها أسد هصـــــور ... يصيد المعتدين ولن يصـــادا
الا يا معشر الاجنـــاد سيـــروا ... وراء لوائه تلقوا رشـــــادا
وما كل امرئ صلى مـــع النـــا ... س، مأمونا كمن صلى فـــرادى (١)

وقال يمدح صلاح الدين الأيوبي ، وقد وعده بألف دينار ان ملك مصر :

قل للصلاح ، معيني عند اعســـاري ... يا ألف مولاي أين الألف دينـــار
اخشى من الاسر ان حاولت أرضكـــم ... وما تفي جنة الفردوس بالنـــار
فجد بها عاضديات مبطـــــرة ... من بعض ما خلف الطاغي أبو الصـــار
حمرا كأسيافكم ، غرا كخيلكـــم ... عتقا ثقالا كأعدائي، وأطمـــاري (٢)

وكتب الى صلاح الدين من قصيـــدة :

اليك صلاح الدين مولاي اشتكـــي ... زمانا على الحر الكريم يجـــور
ترى أبصر الألف التي كنت واعـــدي ... بها ، في يدي ، قبل الممات تصـــير
ودينهات والافرنج بيني وبينكـــم ... سياج ، تقيل دونه وأســـير
ومن عجب الايام انك ذو غـــنى ... بمصر ، واني في دمشق فقـــير (٣)

---

(١) ديوانه صفحة ٣٠ ـ ٣٢ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤ ٣٩ وعقد الجمان جـ ١٢ ق ٦ ورقة
(٢) ديوانه صفحه ٤٩ ـ ٥٠ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٩ والخريدة قسم شعراء الشـــام
جـ ١ / ١٧٨
(٣) ديوانه ٥٠ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٤٩ والخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٢٠٨

قال يمدح شاوَر بعد أن رحل شيركوه عن بلبيس وعاد الفرنج الذين ساعدوا شاور الى ديارهم :

وأنقذت من مصر عدوا بمثلـــــه ... فلله من ظفر ثلث ونصـــاب
صدمت جموع الكفر والشام صدمـــة ... أقمت بها للقوم سوق ضـــراب
وقد جودت أجناد مصر عزائمـــا ... مضاربها في الصخر غير نوابــي
تولوا عن الافرنج فادح ثقلهـــا ... ودارت رحاها منهم بهضـــاب
أقامت دروع الجند تسعين ليلـــة ... ثيابا لهم ، ما بدلت بثيـــاب
وهيهين مطروح هناك وطـــارح ... وبين مصيب خصمه ومصـــاب (١)

وقال يمدح طلائع بن رزّيك من قصيـــدة :

تيقنت الافرنج أنك إن تـــردْ ... ديارَهم لم ينجهم منك مهـــرب
وخافتك إن لم تصطلها الأمن مخمصـــا ... فجاءتك بالأسد الشرى تتغلـــب
وأهدوا رجال السلم آلة حربهـــم ... ومن بعض ما أهدوا مجن ومقضـــب
وذلك فأل صادق أن عزهـــم ... بسيفك يا سيف الهدى سوف يُسلب (٢)

وقال يمدح صلاح الدين سنة ٥٦٥ هـ :

مَن شاكرٌ والله أعظم شاكـــر ... ما كان من نعمى بني أيـــوب
طلب الهدى نصرا ، فقال وقد أتـــوا ... حسبي ، فأنتم غاية المطلـــوب
جلبوا الى دمياط عند حصارهـــم ... عز القوي وذلة المغلـــوب
وجلوا عن الاسلام فيها كربـــة ... لو لم يجلوها أتت بكـــروب
فالناس في أعمال مصر كلهـــا ... عتقاؤهم من نازح وقريـــب
ان لم تظن الناس قشرا فارغـــا ... وهم اللباب ، فأنت غير لبيـــب (٣)

وقال يمدح صلاح الدين سنة ٥٦٤ :

ملكٌ صلاح الدين ، لا توّضـــت ... أطنابه ، ملك التقى والصـــلاح
سيرة عدل حسّنت عندنـــا ... ما كان من وجه الليالي القبـــاح
سائر في الدنيا وأقطارهـــا ... ذكر غدا عنه بهيمـــنة وراح

(١) الروضتين جا ق ٢ ص ٣٣٧
(٢) النكت المصريه ص ١٧٦
(٣) الروضتين جا ق ٢ ص ٣٣٧ وانظر عقد الجمان جـ١ ق ٣ ورقه ٤٥٧

قل لابن أيوب ، وكم ناصح … أنفق من هو شاكي السلاح
حارب على مثل نجوم السما … فملك مصر ما عليه اصطلاح
قولا لمن في عزمه فترة … ارجع الى الجدّ وخلّ المزاح
فالقدس قد أذن اغلاقه … على يدي يوسف بالانفتاح (١)

وله في صلاح الدين أيضا :

لك الحسبُ الباقي على عقب الدهر … بل الشرف الراقي الى قمة النسر
كذا فليكنْ سعي الملوك اذا سمت … بها همم العليا الى شرف الذكر
نهضتم بأعباء الوزارة نهضة … أقلتم بها الأقدام من زلة العثر
كشفتم عن الاقليم غمته كما … كسفتم بأنوار الغنى ظلمة الفقر
حميتم من الافرنج سرب خلافة … جريتم لها مجرى الأمان من الذعر
ولما استغاث ابن النبيّ بنصركم … ودائرة الانصار أضيق من شبر
جلبتم اليه النصر أوسا وخزرجا … وما اشتقت الانصار الا من النصر
كتائب ، في جيرون منها أواخر … وأولها بالنيل من شاطيء مصر
طلعتم فأطلعتم كواكب نصره … أنامل ، وكان الدين ليلا بلا فجر
وأبت اليكم يا ابن أيوب دولة … تراسلكم في كل يوم من المصر
حمى الله فيكم عزمة أسدية … فككتم بها الاسلام من ربقة الأسر
أشد تبعلى الافرنج كل ثنيّة … وألمتم لأيدي الخيل مرّى على مسترب
لئن نصبوا في البر جسرا فانكم … عبرتم ببحر من حديد على ابحر
طريق تقارعتم عليها مع العدى … فقرتم بها والصخر يقرع بالصخر
وأزعجه من مصر خوف يلزه … كما لزّ مهزوم من الليل بالفجر
وكم وقعة عذراء لما افتضضتها … بسيفك لم تترك لغيرك من عذر
وأيديكم بالبأس كاسرة العدى … ولكنها بالجود جابرة الكسر
أبوك الذي أضحى ذخيرة مجدكم … وأنت له خير الذخائر والذخر
ومن كنت معروفا له فاستفزه … بمثلك تيه فهو في أوسع العذر
فكيف أب أضحت نار زناده … والا كنور البدر من سنة البدر
توفر وسط الندى كرامة … وتخمل عنه ما يؤود من الوقر
وتخلفه حربا وسلما خلافة … تؤلف أضدادا من الماء والجمر
وكم تمتّ في بأس ، وجود ، ورتبة … بما سرّه في الضرب ، والدست ، والنشر
ولو أنطق الله الجمادات لم تقم … لنسرتكم بالمستحق من الشكر
يد لا يقوم المسلمون بشكرها … لكم آل أيوب الى آخر الدهر
بكم أذن الرحمن أعظم حرب … وأمّن أركان الثنيّة والحجر
ولو رجعت مصر الى الكفر لانطوى … بساط الهدى من ساحة البرّ والبحر
ولكن شددتم أزره بوزارة … غدا لفظها يشتق من شدة الأزر
فهنئتم فتحا تقدم جله … وبشرى أن الكلّ يتلو على الإثر

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤١٤

وما بقيت في الملوك الا بقيـــــــة … تتمتها في ذمة البيض والسمـــــــر
وعند تمام الملك آتي مهنئـــــــا … وملتمساً أجر النهانة والزجـــــــر
ولولا اعتقادي أن مدحك قربـــــة … أرجي بها نيل المثوبة والأجـــــــر
لما قلت شعرا بعد اعفاء خاطـــري … ولي سنوات منذ تبت عن الشعـــــر
فاوص بي الايام خيراً ، فإنهـــــــا … معترفة بالنهي منك وبالامـــــــر
وجائزتي تسهيل إذني عليكــــــم … وملقاكم لي بالطلاقة والبشـــــر (١)

وقال يمدح صلاح الدين أيضاً سنة ٥٦٦ هـ ويذكر غزوه للداروم بقصيدة منها :

لمن بني أيوب أن علوا بمـــــا … تظلمت منه ان يرقوا ويشفقـــــوا
غزوا عقر دار المشركين بغـــــزة … جهارا ، وطرف الشرك خزيان مطـــرق
وزاروا مصلى عسقلان بارعـــن … يغيض إناء البر منه ويفهـــــق
وكانت على ما شاهد الناس قبلكـم … طرائق من شوك القنا ليس تطـــرق
وما عصمتهم منك الا معاقـــل … تأنوا على تحصينها وتأنقـــــوا
لبت لهم سورة الحرب ما التقـــى … بوادره سور عليهم وخنـــــدق
واخربت من أعمالهم كل عامـــر … يمر به طيف الخيال فيفـــــرق
أضفت الى أجر الجهاد زيـــارة المـــخليل ، فأبشر انت غاز موفـــق
وهيجت للبيت المقدس لوعــــة … يطول بها منه اليك التشـــوق
تنفس من ملقاك أعظم نفحـــة … تطيب على قلب الهدى حين تنشــق
وغزوك هذا سلم نحو فتحــــه … قريبا ، والا رائد ومطـــــرق
هو البيت ، ان تفتحه ، والله فاعـــل … فما بعده باب من الشام مغلـــق (٢)

وقال يرثي الدولة الفاطمية بقصيدة أولها :

رميت يا دهر كف المجد بالشلـــل … وجيده بعد حلي الحسن بالعطــــل

ومنها :

يا عاذلي في هوى ابناء فاطمـــة … لك الملامة ان قصرت في عذلــــي
بالله زر ساحة القصرين وابك معـــي … عليهما ، لا على صفين والجمــــل
وقل لاهلهما ، والله ما التحمـــت … فيكم قروحي ، ولا جرحي بمندمـــل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلـــة … في نسل آل أمير المؤمنين علـــي
هل كان في الامر شيء غير قسمة مــا … ملكتم بين حكم السبي والنفـــل (٣)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤١٢ وانظر الكتب المصرية ٢٦٩ ـ ٢٧١ والكامل ١١ / ٣٠٠
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٩١ (٣) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٧٠

وقال يمدح طلائع بن رزّيك منقصيدة :

ولما تشكّى الحوف حيفا على الهدى ... وكاد الهوى يسطو عليه فسائل
نهدتَ الى الإفرنج تزجي كتائبا ... تغلّ بها أعناقهم وتصال
فولّوا وقد أبقت عليهم نفوسهم ... سباسب حالت دونهم ورمال
واتبعتهم ركناً على كل سابح ... اذا الريح كلّت لم يصبه كلال
جيادٌ اذا جردتها يوم غارة ... فليس لها غير الوشيج ظلال(١)

وقال يمدح أمير الجيوش شاورا عند رجوعه من حصار بلبيس والافرنج صحبته :

وتداركَتْ بلبيس منك عواطف ... بيع الزمان وأهله غفرانها
أقسمتُ لولا حسنُ رأيك لاغتدى الناقوس في بلبيس وهو أذانها
بلد لو انهدمت قواعد سوره ... بيد النصارى لم يسد بنيانها ...الخ(٢)

---

(١) النكت المصرية ص ٣٠٧
(٢) النكت المصرية ص ٣٦٩

قال يمدح صلاح الدين عند وصوله إلى دمشق وملكها سنة ٥٧٠ بقصيدة أولها :

قد جاءك السعد والتوفيق واصطحبا ... فكن لأمثال هذا النصر مرتقبا

ومنها :

لله أنت صلاح الدين من أسد ... أدنى فريسته الأيام إن وثبا
رأيت جلق ثغرا لا نظير له ... فجئتها عامراً منها الذي خربا
نادتك بالذل اما قل ناصرها ... وأزمع الخلق من أوطانها هربا
أحييتها مثل ما أحييت مصر فقد ... أعدت من عدلها ما كان قد ذهبا
هذا الذي نصر الاسلام فاتضحت ... سبيله ، وأطاح الكفر والصلبا
ويوم شاور ، والايمان قد هزمت ... جيوشه ، كان فيه الجحفل اللجبا
أبت لها الضيم نفس مرة وسد ... غالة ، وفؤاد قط ما وجبا
يستكبر المدح يتلو في مكارمه ... زهدا ويستصغر الدنيا اذا وهبا
ويوم دمياط والاسكندرية قد ... أضارهم مثلا في الأرض قد ضربا
والشام او لم يداركه أهله اندرست ... آثاره وعفت آياته حقبا

ومنها :

هو الجواد ولكن لا يقال كبا ... وهو الحسام ولكن لا يقال نبا
وهو الهزبر ولكن لا يقال طغى ... وهو الضرام ولكن لا يقال خبا
فأنت إسكندر الدنيا ووارثها ... فاقصد ملوك خراسان ودع حلبا (١)

---

(١) الخريدة قسم الشام ١ / ٢٤١ ، الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٠٦
وعقد الجمان ج ١١ ق ٣ ورقه ٥٧٠

قال يمدح صاحب بصرى بقصيدة أولها :

خانَ الصريم لواصفيه آرامه … وغزاله لمُتيّمٍ يُجْفا مه

ومنها في المديح :

أسد ولكن من براثن كفه … بيض الظُّبا والسمر من آجامه
لو لم يكن أحد الضراغم لم يكن … كسر الكماة الشوس من الهامه
سائل به يوم الظليل فانه … يوم تجلى عنه من أيامه
ان جاءه جيش الفرنج منظما … غصبا اليه فحل عقد نظامه
وغدا يحدث في الهجا من كفرهم … بالبأس والسطوات عنا سامه
ولعبارض القدس فيم موتحة … سلبت ملوكهم لذيذ منامه
كم جحفل للفرنج ثم بحربه … فأحل صدر الرمح صدر همامه
فبنور شمس الدين قد كشفت من السكفر الفرنج عاكفات ظلامه
فالليث في سرباله والغيث بين بنانه والبدر تحت لثامه
ماء المنايا والمنى في كفه … بحار ووقت الطارمن أقلامه
حاز المفاخر والنهى في مهده … وسما الى العلياء قبل فطامه
للاريحية والندى في عطفه … فمل يقصر عنه فمل مرامه
وتهز عطفيه المدائح هزة … كتواسل المزان يوم زحامه
يغنيك في العام الجديب بجوده … عن غيث ابحره وجود غمامه
كرم غدا هذا الزمان لكل ذي … أمل يروض به نفوس كرامه (١)

---

(١) الخريدة قسم الشام ج ١ ص ٢٣٥

أنشد الملك الناصر صلاح الدين قصيدة منها :

سيُرتَقُ فتقُ هذا المُلكِ منه … قواضبُ ، للرؤوس بها انتضاب
ويمرع بالبوار جناب قوم … لهم عن نصرة الدين اجتناب
فلا تقبلْ لهم ، ما عشتَ ، عذرا … وإنْ خضعوا لديك وإنْ أنابوا
هم حشدوا عليك بكل واد … عصائب ، بالضلال لها اعتصاب
وجيشا ظن دعائه على اغترار … صلاح الدين ، عاجله الجواب
بأرعن مثل ركن الطود مجر … تضيق به من الأرض الرحاب
خميس موف ترضى البيض عنه … اذ زارت ضراغمه الغضاب
تكرّ على الصقور به أسود … عليها القنا الخطّيّ غاب
كأن مثار قسطلة عليهم … اذا طلعت شموسهم ضباب
فلما أقدموا للطعن ولّوا … ولما أيقنوا بالنجح خابوا
ظفرت أبا المظفر بالأعادي … وقلّ منهم ظفر وناب
وكانوا كالحديد ، فحين أصلوا … صلاح الدين ، نار سطاك ذابوا
أصابوا بالهزيمة حين ولّوا … ولو وقفوا الغداة لما أصابوا
غداة هزمتهم فلووا وقالوا … غنيمتنا السلامة والإياب

ومنها :

وما ضحكت ثغور الشام إلّا … ونيها من محاسنكم رضاب
فأوجهكم كواكبها الدراري … وأيديكم مشاربها العذاب
حميتم بالصوارم كل ثغر … بذبٍّ لا يقل له ذباب
أطرتم عنه عادية الأعادي … كما طارت من الريح الذباب
وعلتم فالعذاب بكم نعيم … وسلتم فالنعيم بكم عذاب
ميشكر عنكم عنه رجال … لهم فيكم دعاء مستجاب (١)

وأنشد في مجلس السلطان صلاح الدين يحرضه على الوحدة والجهاد ضد الأعداء سنة ٥٧١ هـ بقصيدة طويلة أولها :

لا يقصدنّك ما حلوا وما عقدوا … هم الذئاب ، وأنت الضيغم الأسد
كم يخدعون بروقا ما بها مطر … ويقصفون رعودا ما بها برد
والقوم قد قعدوا عما نهضت به … من الجهاد ، فلا قاموا ولا قعدوا
فلا ثياب المعالي فوقهم جدد … ولا طريق الأماني نحوهم جدد

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ١/٤٢٦

إياك تغفل عنهم مثل ما غفلـــوا
ماذا الكرى يا حامي الدين عن أرق
ولهان تزمز نار في جوانحـــه
لا يستطيع اهتداء فهو مرتبـــك
مخيب السعي لا يمتاده ظفـــر
فكيف يرقى خوفا وهو متسع
لما رآك وقد أقبلت تقد مهـــا
ألقى السلاح وما غلت ظبي قضـــب
وراح من بعد ذاك الجمع منفـــردا
يطوى الحزون فيطويه وينشـــره
وفي شباه الذي أغمدته فلـــل
وحول عزل لو أنهم تـــدوا
خانوا فخانوا ، وما حازوا الذي طلبـــوا
لما دعوك أجبت القوم في لجـــب
حتى اذا ما رأوا في الدرع منك فتى
هدوا وما عطفوا ، الووا وما وقفـــوا
فرقتهم فرقا فاستحلوا فرقـــا
فدعت ما شعبوا ، قطعت ما وصلـــوا
حقنت منهم دماء او تراق جـــرت
عفوت عن قتلهم يوم الوغى فنجـــوا
فهم عبيدك إن لانوا وإن خشنـــوا
وإن أساؤا فأحسنت الفداة بهـــم
أوسعت فرعونهم لما طغـــى غرقـــا
حباية البيض والبيض الحداد لـــه
اذا تلاحق من السابغات بـــه
عرمرم كالدبى الطيار منتشـــر
اذا تهددت الى أرض العدو بـــه
تسمو عليه سماء من عجاجتـــه
سماء نقع لشيطان العدو بهـــا
وفي دياجيه نار من حوارمـــه
نار تشب على أيدي قطارفـــة
شم العرانين في أفعالهم رشـــد
ما جن عبقر جن كلما عزمـــوا
من كل أروع ، أما رمحه فـــل
في كل يوم جلاد لو ألم بـــه
شم باقدام سيوفاً من عزائمهـــم

إياك ترقد عنهم مثل ما رقـــدوا
من قبل سيفك قد أودى به السهـــد
يشبها القاتلان : الخوف والفنـــد
حيران فيه ، وفي آرائـــه أود
مضلل الرأي لا يقتاده رشـــد
أم كيف يملك أمرا وهو مقتـــصد
أسدا عرائنها الاقـــدام والعـــدد
تفري الرؤوس ، ولا دقت قنا ملـــد
ومن نجاك بجمع سوف ينفـــرد
حزن له منه وجد فوق ما يجـــد
وفي شباه الذي أقلقته غمـــد
أضحى القنا وهو في لباتهم قصـــد
خابوا فآبوا وما نالوا الذي قصـــدوا
السيف ناصره والواحد الصمـــد
كأنه من ثبات في الوغى أحـــد
ولوا وما رشدوا ، ذلوا وما أسعـــدوا
بظاهر القرن ، والأقران تطـــرد
فللت ما شحذوا ، حللت ما عقـــدوا
منها حدود لها من هامهم ســـدد
ولو ترى القتل رأيا ما نجا أحـــد
وإن أتروا بما أوليت أو جحـــدوا
منها يحدث عنه الناس البلـــد
بزاخر : لجاة النقع والزبـــد
خلي ، وأمواجه لما طغى الزبـــد
على الكماة عانه من دم زبـــد
تحصى الرمال ولا يحصى له عـــدد
لم يبق من مائها غمر ولا ثمـــد
مبنية من قناة تحتها عمـــد
من الاسنة شهب كلها رصـــد
تكاد تقطر ماء وهي تتقـــد
لا يبرق الجو الا كلما رعـــدوا
في النائبات وفي أقوالهم ســـدد
ما أسد بيشة أسد كلما حـــردوا
لا يستفيق ، وأما سيفه فـــرد
عمرو بن ود علاه الصبر والجلـــد
اذا غضب المواضي ليس ينفـــد

ولا تخف فالعوالي شوكها شرعٌ ... حلو الجنا ، والمعالي عابها شهد
واخطب بحد المواضي كل شامخة ... في أنفها شمم ، في جيدها غيد
فمن يكن بالمواضي خاطبا أبدا ... زفت اليه بلاد كلها خرد
هل بعد جلق إلا أن ترى حلبا ... وقد تحلل منها مشكل خرد
وقد أتتك كما تختار طائعة ... وقد عنا لك منها الحصن والبلد (١)

وقال يهنئ صلاح الدين بفتح حصن بيت الأحزان سنة ٥٧٥ هـ :

حللت فكنت الالمعيّ المسددا ... وسرت فكنت القمريّ المؤيدا
وقمت بأعباء الممالك ناهضا ... فأقصدت أعداء ولم تخط مقصدا
تعودت ضرب السيف والطعن بالقنا ... وكل امرئ مغرى بما قد تعودا
نصرت الهدى لما تخاذل حزبه ... فناداك حزب الله يا ناصر الهدى
فقيت الدين أنت حقا صلاحه ... فأرضيت لما أن غضبت محمدا
فيا يوسف الخير الذي في يمينه ... من الخير ما قد غار فينا وأنجدا
وصلت لدى سلم وصلت لدى وغى ... ففقت جميع الناس بالبأس والندى
وقدت الى الاعداء جيشا عرمرما ... اذا أبرقت فيه الصوارم أرعدا
فلم تبق للطغيان شملا مجمعا ... ولم تبق للإيمان شملا مبددا
فناهيك من جيش نهضت بعبئه ... فأقصدت لما أن نهضت به العدى
حملت ذبالا في ذوابل سمره ... فلما دجى ليل العجاج توقدا
وزرت بها الحصن الذي لو تحصنت ... فوارسه بالنجم أوردته الردى
تسمت به سلب الصليب ورعته ... وشهدته لما غدا فتشهدا
هبت اليه هبة يوسفية ... تعيد هباء كل ما كان جلمدا
وقربها قد فتّه من سهامه ... نواجذ ثغر المشرفي وتسددا (٢)

وقال يصف غارته على غزة سنة ٥٧١ ، وعوده من ذلك الغزو بالعزة بقصيدة مطلعها :

وقفت وأنضاء المطيّ ضحى تمطو ... وقوفي وأنحى على قرية الشط

ومنها :

فتى مذ غزا بالخيل والرجل غزة ... نأى عن نواحيها الرضا ودنا السخط
رماها بأسد مالهن ترابس ... ولا أجم إلا الذي ينبت الخط
وطاحت نواحيها ضحى بكتائب ... من الترك ، لا روم طغام ولا قبط
رماهم بأمثال السراحين شزبا ... عليها أسود بل أساودة رقط
وطاحت على تلك الرمال جسومهم ... ففي كل سقط من جماجمهم سقط (٣)

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٤١٢
(٢) الروضتين ٢ / ١٢
(٣) الخريدة قسم شعراء الشام ١ / ٤١٦ والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٤٦

وقال يصف دمشق ، ويحرّض صلاح الدين على الجهاد بقصيدة طويلة أولها :

حيّتك أعطاف القدود ببانها … لما أنثنت قيماً على كثبانها

ويصف المنزل والوصف يقول في صلاح الدين :

وفتىً اذا زخرت بحار نواله … غرقت بحار الارض في خلجانها
غيث يكرّ من الظبى بصواعق … ماء الردى يجري على نيرانها
بصوارم أجفانها قمم العدى … لا ما كساها القين من أجفانها
مغنية ذهبية فلجينها … يختال يوم الروع في عقيانها
محمرة بدم الفوارس خضرها … فالورد منثور على ريحانها
من كل لامعة بليل قتامها … كالنار لامعة بليل دخانها
تلك السيوف المرهفات بكفه … أمضى على الايمان من حدثانها
تنصبّ إذا اقترنت كواكب بيضها … بكريهة كانت ردى أقرانها
محزوزة الضرب في يد ماجد … ضرب أطاح الروم عن أبدانها
ملك اذا جليت عرائس ملكه … رصعت فريد العدل في تيجانها
واذا جحافله أثرن سحائبا … لمعت بروق النصر في أحضانها
من كل شهباء الحديد كأنما الا … سوار ماثلة على شجعانها
وكتيبة كم قد كتبن لها الظبى … كتبا يلوح النصر من عنوانها
واذا ذوابله هززن رأيتها … والموت مشتمل على خرصانها
من كل جائلة بكل كريمة … رأي الفتى رأسا على جثمانها
سمراء لا يثني حشاها عند ردها … الا ومن نحر ثم للسانها
واذا سوابقه نزعن حسبتها … ما ذقت يوم الروع من أرسانها
من كل سابحة ألمّ بها الطوى … حتى طواها الضمر طيّ عنانها
جرداء تتلو البروق اذا دنت … وتفوت ما قد فات من لمعانها
خيل هي العقبان في طيرانها … لا بل هي السيدان في عسلانها
فالشهب ما حملته في أرماحها … والشهب ما نقلته في عدوانها
كم قد تهنّ أبا المظفر ثائراً … والاسد صائلة على عقبانها
متواثبات للطعان ، فاذ كبت … تلك العتاق الجرد يوم طعانها
عقدت سنابكهنّ بالهمم التي … أشطانهنّ تنوب عن أشطانها
همم رقت بك فارتقيت من العلى … رتباً ، فكان الشمس دون مكانها
أقسمت ما شيدت من أركان المدى … الا بما شيدت من أركانها
فافخر فلو روعت رومية بها … خرّت كنائسها على رهبانها
أو لو بها سبحت قسطنطينية … خشعت لما رفعته من صلبانها
فانهض الى فتح السواحل نهضة … قاد قذالك الاعداء بعد حرانها
وأسأم صلاح الدين وابن لدولة … ذلّت لدولتها ملوك زمانها
خضعت لها الشجعان عند نزالها … وعنت لها الأقران عند قرانها … (١)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام جـ١ ص ٤٠٦ والروضتين جـ ١ ق ١ ص ٦٤٦

قال يصف توجه صلاح الدين الى حلب سنة ٥٧٠ وفتحهـــا :

سرى ما بيننا سر الذنيــــــوب ... يبشرنا بنصرك عن قريـــــــب
ركبت الى الحروب جياد عــــزم ... مصرفة عن الرأى المصيـــــــب
تبسمت البلاد اليك أنســــــا ... وكانت قبل موحشة القطـــــــوب
لقد ولت شمائل لدراك لمـــــا ... أنار الدين من أفق الجنـــــوب
تركت صوارم الاعداء فيهـــــا ... محرقة المدارع بالحريــــــب
تكاد قلوبهم بالخوف منهـــــا ... تطير عن المساكن بالوجيـــــب
وما سهرت رماحك فيــــه الا ... لترتد في الترائب والجيـــــوب
عصت حلب وقاتل ساكنوهـــا ... وليس قتالهم لك بالعجيـــــب
لانك ناصر الاسلام حقــــــا ... وشمس رحلها المنيرة أو شبيـــب
وقد قالت سعودك عن قريـــب ... اليك أسوقهم سوق الجنيـــــب
جهادك أن طلبت الغزو فيهـــم ... أهم اليك من غزو الصليـــــب
غزو باب العراق وما يليـــه ... بكل مزنر طرب الكعـــــوب
وفجر منبع الاوداج حـــتى ... تخوض الخيل في العلق الصبيـــب
ترى الاسلام قد وافاك يعـــدو ... الى لقياك مشقوق الجيــــوب
وقد نادى مؤذنهم فنـــادى ... ليوث الغاب : حي على الحـــروب
أناسي دبت الاغلال فيهـــم ... وليس لهم كسيفك من طبيـــب
وقد ولى الوزير وعن قريـــب ... سينقلب الوزير الى القليـــب
أحاط بجمعهم في كل نـــاد ... ظلام الكفر في ليل الذنـــوب
وقد أظلمت شمس النصل فيهـــم ... على أعناقهم شفق الغـــروب
فلا يغرركم ان كفه عنكـــم ... كأن الأسد تجثم للوثـــوب
اذا أبتسمت سيوف الهند يومـــا ... فيسمها يدل على النحيـــب
ولهذ خراك نور الديـــن الا ... لتدفع عنه نائبة الخطـــوب
فخلص أبنه بالسيف منهـــم ... لقد حبسوه في بلد جديـــب
يبيت وقلبه المحزون أشـــوى ... الى لقياك من نجم الحبيـــب
صغير بينهم ، لا بل أســـير ... غضيض الطرف محجوب النصيـــب
تذكر عهده وأحنق عليــــه ... وتفرغ عنه تضييق الكـــروب
ولايغررك من يوليـــك ودا ... ويلوى عنك أجفان المريـــب
أتيتك والرطن تخب نحـــوى ... وخضت عجاجة اليوم العصيـــب
رأيت كواسر الابطال حولـــي ... مجددة المخالب والنيـــوب
وسرت اليك محزونا فلمـــا ... رأيتك قلت للاحزان : غيبـــي

رأيت المارقين ومن يليهـــــــم ... جميعا من عصي أو مجيـــــب
اذا غنت صوا هلهم وأبـــــدى ... لها الخطي أخلاق الطـــروب
غراشا عاينت نارا فابـــــدت ... تهالكها على جمر اللهيـــب
فاوسع بطعن من عاداك ظلمـــا ... كما وسّعت رزق المستثيـــب
الماتتني الهموم بأرض قـــوم ... بما فعلوا وأخذ لني كروب
وها قد قمت من قبرى لتحيـــا ... بقربك مهجة الميّت الغريـــب
وقد هاجرت إنكارا لما قـــد ... رأيت من المثالب والعيـــوب
ولي دهر يراقبني فارصـــد ... بلحظ منك الحافظ الرقيـــب
وشعري تحرق الحسّاد كتْبـــا ... وشعري وصف ذي اللسن الخطيـــب
علت في أوجها وحضيض حظـــي ... يجاذ بها بأرسان المغيـــب (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ج١ ص ٣٠٠ ـ ٣٠٤

الحافظ بن عساكر ـ ٥٧١ هـ

قال يمدح نور الدين سنة ٥٦٤ وكان نور الدين قد اعفى أهل الشام من المطالبة بالخشب:

لما سمحت لاهل الشام بالخشب ... عوضت مصر بما فيها من النشب
وان بذلت لفتح القدس محتسبا ... للاجر ، جوزيت خيرا غير محتسب
والاجر في ذاك عند الله مرتقب ... فيما يثيب عليه خير مرتقب
والذكر بالخير بين الناس تكسبه ... خير من الفضة البيضاء والذهب
ولست تعذر في ترك الجهاد وقد ... أصبحت تملك من مصر الى حلب
وصاحب الموصل الفيحاء ممتثل ... لما تريد فبادر فجأة النوب
فاحزم الناس من قوى عزيمته ... حتى ينال بها العالي من الرتب
وقد بلغت بحمد الله منزلة ... عليه فاقصد العالي من القرب
فالجدّ والجِدّ مقرونان في قرن ... والحزم في العزم والادراك في الطلب
وطهّر المسجد الاقصى وحوزته ... من النجاسات والاشراك والصلب
عساك تظفر في الدنيا بحسن ثنا ... وفي القيامة تلقى حسن منقلب (١)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ١/ ١٧٧ ، الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٠٥

ابن الزغيلـــــــة

قال يمدح الصالح بن رزيك سنة ٥٥٤ بقصيدة مطلعهـــــا :

أبتكما لو أن نائبة تســـــــرو　　　تفرج بالشكوى اذا غلب الصبــــر

ومنهــا :

من القوم ان ابدوا اعادوا ، وان عدوا　　　أبادوا ، وان أجروا الى غاية جــزوا
بحور اذا أجدوا ، بدور اذا بــدوا　　　ليوث اذا كروا ، غيوث اذا بــروا
اذا قيل هذا صائل الدهر اقد مــوا　　　وان عرضت احدى الدنايا لهم فــروا
تدين المنايا والاماني أمرهـــم　　　فان حاربوا ساءوا وان سالموا ســروا

أيا كاشف الغماء ان جل فــــادح　　　ويا مسبغ النعماء ان مسنا ضــر
حفظت ثغور المسلمين ، وصانعت　　　صروف الردى عنهم مهابتك النمــر
فلا دولة الا وأنت مقيمهـــــا　　　ولا دولة الا وأنت لها ذخــــر
ولا فقر الا وأنت له غنـــــى　　　ولا عسر الا وأنت له يســـر
فهنئت الايام منك بمالــــك　　　به انتصر الاسلام وانخذل الكفر(١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء الشام ج ١ ص ٣١٠

قال ابن سعدان يمدح السلطان ويذكر ما فعله على عسقلان ويهوّن عليه أمر كسرتهـــــا بقصيدة منها :

ترنّت من عسقلان كل نائحـــــة — باتت تئنّ بشوكان من الأســـــل
ناحت النجيب عليها وهي معولـــــة — فأصبحت مرتعاً للخيل والإبـــــل
قل للفرنجة لا تغذ لى : رويدكــــم — بالثأر أو تتخذ الشعرى من الحمـــل
ترقبوها من الثوار طالعـــــة — خوارق الأرض تمحو رونق الأســـــل
كأنني بنواصيهن يقدُمُهـــــا — كأسٌ من الجود عريانٌ من النجـــــل
حسب العدى يا صلاح الدين حسبهم — أن يقرنوك بجود غير مبتـــــذل
وهل يخاف لسان النحل ملتمـــــس — مرت على أسبحيه لذة العسل ؟ (١)

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٧٠٤

قال يمدح عز الدين فرخشاه في القاهره سنة ٥٧٦ :

أنت الذى جاهـــدت عن دين الهـــدى ... فأعزّ نصرك ناصر لا يخـــذل
وأزرت أرض الشرك أطراف القنـــا ... حتى غدت من خيفة تتـــزلزل
وبالمن لاغماد خاطبت الصـــدى ... فأجابها فتح أغر محجـــل (١)

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١/٥٥

الامير نجم الدين محمود بن الحسن بن نبهان العراقي

هنيئاً صلاحَ الدين بالفتح والنصر ... ونيلِ الأماني الغرّ والفتكة البكْر

وما حُزتَ فيها من فخارٍ ومن علاً ... وحسن ثنا يبقى الى آخر الدهر

سموت لها بالمشرفيّة والقنا ... وكلّ أبيٍّ لا ينام على وتر

وسامت بها خيل المفاخر ملابسا ... قطعت بها يوم الوغى دابرَ الكفر

سفكت بها دمَ العِدى وهو صوارم ... وخضّبتَ سوادَ الليل وهو دم يجري

وقد عرف الإفرنج بأسك في الوغى ... وجرّعتهمْ منه أمرّ من الصبر

وظنّوا بناء الحصن صونا لملكهم ... فأصبح بالشعواء منهتك الستر

فما قبضت منهم يد الغدر قطّعت ... أناملها الا على صفقة الخسر

في الفتكة الغرّاء لا زلت قائماً ... بأمثالها في الدين في السرّ والجهر

وأصبح في أقصى خراسان ذكرها ... وفي كل قلب منه جيش من الذعر

فلا ترضَ منهم بعدها بذل طاعة ... فما خلقوا الا على شيمة الغدر

فسر وافتح الارض التي لو تركتها ... لأغضت عيون المجد منها على أمر

فيا آل أيوب حويتم مناقباً ... بأشخصها تعلو على الأنجم الزُّهر

اذا عُدّ أرباب الفخار فأنتم ... ذووا الفيضات الغرّ والنائل الغمْر

وأنت الذي أصبحت بالبأس والتُّقى ... وبذلِ اللُّهى عالي السنا عَطِرَ الذكر (١)

---

(١) الروضتين ٢/١٢

الجمال الواسطي (أبو غالب محمد بن سلطان بن الخطاب المقرى)

قال يمدح السلطان بعد إخضاع ملك الأرمن ابن لاون سنة ٥٧٦ه بقصيدة منها :

لقد جعل الله ملك الــــوري ... بأوفى مليك وفيّ شجـــان
تهشّ الى نفحات السيــــو ... ف في الهيا لا نفحات القيـــان
ازرت أبـــن لاون لأواؤه ... فأضحى به خبرا عن عيـــان
ودان من الذلّ لا يرعـــوي ... حذاراً من الراعفـــات اللـــدان
فلا تدم عنده للثبـــا ... ت وليس له بعساكم يـــدان
وأخلى اليكم مناقـــيره ... وغادر للهدم تلك المبانـــي
وأرسل بالأسراء العنـــا ... ة يسأل إطلاقـه فهو عـــان
رتقـــت بعزلك والمكرمـــات ... فتوقـــا من الأرتقـــيّ الهجـــان (١)

---

(١) الروضتـــين ٢ / ١٦

قال في الحاجب لؤلؤ قائد الاسطول المصري الذي لحق الفرنج حين غزوا الحجاز :

يا حاجب المجد الذي ماله ... أيمن عليه في الندى حجبه
ومن دعوه لؤلؤاً عندما ... صحّت من البحر لـه نسبه
لله من تحمل من صالح ... فيه وما تظهر من حسبه
كفيت أهل الحرمين الردى ... وذدت عن أحمد والكعبة (١)

وقال أيضا فيه :

مر يوم من الزمان عجيب ... كاد يبدي فيه السرورَ الجماد
اذ أتى الحاجب الأجل بأسرى ... قرنتهم في طيها الأصفاد
بجمال كأنهن جبال ... وعلوج كأنهم أطواد
قلت بعد التكبير لما تبدّى ... هكذا هكذا يكون الجهاد
حبذا لؤلؤ يصيد الأعادي ... وسواه من اللآلي يُصاد (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ويذكر ملك الفرنج "مرّي" بقصيدة منها :

ولكم أشمت الروم أشأم بارق ... أضحت مياه نفوسها من قطره
وأتاك يحمد روعها عن مدّه ... ومضى وقد حكمت ظباك بجزره
ولقيت مرّياً وطعم حياته ... حلوٌ فبدله القتال بمرّه
فأعقد اليه الرأي في عقب القنا ... وأحلل بها عقد معاقد مكره
وأطرده من وكر الشآم فإنه ... قد طار منه بخافق من ذعره (٣)

وقال يمدح صلاح الدين بعد انتصار حطين بقصيدة منها :

شرحت لمتن الدين بالصبر والظبى ... من المجد معنى كان من قبل يغمض
وما كاد جيش الروم يبرم كيده ... الى أن سرت منك المهابة تنقض
حميت ثغور المسلمين فأصبحت ... ثغورا بأمواه الحديد تمضمض
أسرت ملوك الكفر حتى تركته ... وما فيه عرق عن قوى النفس ينبض (٤)

---

(١) الروضتين ٣٦/١
(٢) الروضتين ٣٦/١
(٣) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٢٩٦
(٤) الروضتين ٨٢/٢

قال يصف نزول الفرنج على مصر ، ويمدح شمس الدين تورانشاه بن أيوب وآل أيوب :

ولما دُعوا من مصر لبّوا دعاءنـــا ... على كل نهد لين العنق يعبـــوب
فأروى كماة الروم شدة بطشهـــم ... فهم بين مطلول الدماء ومطلـــوب
فلست ترى في عصبة الشرك حامـــلا ... صليبا ولا علجا لهم غير مصلـــوب
وحسبهم ذاك الطعان الذي غــدت ... بهم خُضَّداً فيهم صدور الانابيـــب
وظل عميد الروم من حذر الـــردى ... يؤم طريقا بينهم غير ملحـــوب
ونكب عن مصر وولى بمنكـــب ... جريح بأنياب النوائب منكـــوب
وقد كاد دين الله يخفت نـــوره ... ويرمى بتبديل وشيك وتقليـــب
فحصّنتموه بالاسنة والظبـــى ... وتصميد آراء كفته وتصويـــب
فلست ترى الا محاريب في وغـــى ... حموا بيضة الاسلام أو في محاريب (١)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١ / ١٧١

ابن أسعد الموصلي ٥٨١ هـ
(ابن الدهان)

قال :

أبدى عذارك اذا تبـــدى ... عذري وصار هواك جـــدا

ومنها :

ملك أنامله علـــى الـــعافي من الانداء أنـــدى
من آل غسان الألـــى ... فضلوا الورى بأسا ومجـــدا
حسن السريرة لم يـــزل ... لله ما أخفى وأبـــدى
ماض على الأعـــداء لا ... فلت له الاعداء حـــدا
ملأ الفضاء عليهـــم ... عددا وسد الارض ســـدا
كالبحر يجري خلفهـــم ... سفنا وفوق الارض جـــردا

. . . .

هول أشاب صغارهـــم ... وأتوا بشيب الرأس مـــردا
أغنيتهـــم وورثتهـــم ... مالا وملكتهم ولدا ... (١)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة طويلة مطلعهـــا :

أما وجفونك المرضى الصحـــاح ... وسكرة مقلتيك وأنت صـــاح

ومنها :

ترنحت شجاعة وتقى وحلمـــا ... الى كرم الخلائق والسمـــاح
وقد أثنت عليك ظبى المواضـــي ... كما تثني بألسنة الرمـــاح
وكم نتجت حروب الفتح بـــا ... سيوفك والنتاج عن اللقـــاح
وكم لظباك من يوم اغتبـــاق ... من الاعداء أو يوم اصطبـــاح
وكم ذللت من ملك عزيـــز ... وكم دوخت من حمي لقـــاح
تبيح حمى الملوك وتستبيـــه ... وما تحميه ليس بمستبـــاح
وما خضع الفرنج لديك حتـــى ... رأوا ما لا يطاق من الكفـــاح
وما سالوك عقد الصلـــح ودا ... ولكن خوف معلمـــة رداح
ملأت بلادهم سهلا وحزنـــا ... أسودا تحت غابات الرمـــاح
على معتادة جوب الموامـــي ... دواح بالملا بيض الاداحـــي
فحلوا أرض نابلس وفيهـــا ... نواح ليس تخلو من نـــواح

---

(١) ديوانه ص ٢٠٠

فكانوا هؤلوا بالحشد جهـــلا ... وما تخشى الأسود من النبـــاح
وهم في قولهم إنا نلاقـــي ... صلاح الدين أكذب من سجـــاح
ألا يا سيلُ مخجل كلّ سيـــل ... تظلّ المعجزات لضواحـــي
ويا غيثَ البلاد اذا تشحّـــرت ... وضنّ الغيث في شهري تمـــاح
تركتُ بني الزمان فلم أسلهـــم ... ولم أر أهله أهل امتداح ... الخ (١)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة مطلعهـــا :

أعلمت بعدك وقفتي بالاجـــرع ... ورضى طلولك عن دموعي الهمّـــع

ومنها :

جمع الجيوش فشتّ شمل عداتـــه ... ما فرق الاعداء مثل تجمـــع
لهيبته عن نصره خالفـــاه ... عِظَم العدو و لابعاد الموضـــع
بجحافل مثل السيول تدافعـــت ... واذا السيول تدافعت لم تدفـــع
من تبّع ملكا أرجت لهـــا الحمد (م) ... بها لطيب شذى لها متضـــوع
المرضين اذا تمرّن مطمـــع ... والمقبلين اذا دعوا في مفـــزع
والناثرين الهام يوم بيضـــه ... والخارقين مضاعفـــات الادرع
قوم اذا يقع الصريخ تبـــادروا ... نحو الحمام بكل أبلـــج أروع
لا يغزون الروم بعد ديارهـــم ... ان الخليج لديك أقرب مشـــرع
لو أن مثل البحر سبعة أبحـــر ... من دونهم أزدتهم لم تقنـــع
كم وقفة لك في الوغى محمـــودة ... أبدا وكم جود حميد الموقـــع
والطير من ثقة بأكل مشبّـــع ... تبعت جيوشك فوق غاب مسبّـــع
والناس بعدك في المكارم والعلـــى ... رجلان : إما سارق أو مدّعي ... الخ (٢)

وقال يمدح طلائع بن رزيك سنة ٥٦٥ ه بقصيدة مطلعها :

أما كفاك تلافي في تلافيكـــا ... ولست تنقم إلا فرط حبيكـــا

ثم يقول :

يا كاشف الغمة الكبرى وقد نزلـــت ... يشعب شمل العلا لولا تلافيكـــا
برزت سبقا فما داناك في أمـــد ... خلق قديما ولا خلق يدانيكـــا
أرت مساعيك سُبْل المجد جاهلهـــا ... فلو سعى كان أيضا من مساعيكـــا
ينافك الملك ناء عنه منزلـــه ... ويقنع المرء عن بعد فيرجوكـــا
يشكو اليه بنو الآمال فقرهـــم ... فيثنون وبيت المال يشكوكـــا

---

(١) ديوانه ص ٥٩ ــ ٦١ وانظر الروضتين ١٠ / ١٦ ومضمار الحقائق ٢٤٠
(٢) ديوانه ص ١٣١ ه مضمار الحقائق ٢٤٠

وفيلق يملأ الأقطار ذي لجب   يضحي له ثابت الأطواد مدكوكا
من كل أغلب تلقى عرضه حرما   موقرا وتلاقي المال منهوكا
من الحديد عليٌ كالماء شيمته   مثل الحديد براه الله فتيكا
صمٌ عن الذام لا يأتون داعية   فإن دعوت الى حرب أجابوكا
بعثتهم نحو جيش الشرك فانبعثوا   يرون أكبر غنم أن أطاعوكا
ساروا الى الموت قدما كأنهم   رأوا طريق فرار قط مسلوكا
فأوردوا السمر شربا من نحورهمُ   وأوطأوا الهام بالقاع السنابيكا
ضربا وطعنا يقدّ البيض محكمةً   ويخرق الزرد الماذي محبوكا
وبات في كل صقع من ديارهمُ   نوح على بطل لولاك ما شيكا
أمسوا ملوكا ذوي أمر فصبحهم   أسد أتوك بهم أسرى مماليكا
ولم يفتهم سوى من كان معقله   مطهما حثه ركضا وتحريكا
يا كعبة الجود إن الفقر أقعدني   ورقةُ الحال عن مفروض حجيكا
قد جاد غاديك لي جودا وأطمعني   سماحةٌ فيك في استمناء ساريكا .. الخ (١)

وقال يعتذر عن كسرة نور الدين تحت حصن الأكراد سنة ٥٥٨ ويمدحه :

ظبى المواضي وأطراف القنا الذبل   ضوا منَ لك ما حازوه من نفل
وكافل لك كافٍ ما تحاوله   عزّ وعزم وبأس غير منتحل
وما يهيبك ما نالوه من سلب   بالختل ، قد توتر الآساد بالحيل
وإنما أخلدوا جبنا الى خدع   إذ لم يكن لهمُ بالجيش من قبل
واستيقظوا وأراد الله غفلتكم   لينفذ القدر المحتوم في الأزل
حتى أتوكم ولا الماذيّ من أمم   ولا الظبى كثبٌ من موقف عجل
تناً لقيٌ وقسي غير موترة   والخيل عازبة ترعى من الهمل
ما يصنع الليث لا ناب ولا ظفر   بما حواليه من عفر ومن وعل
هلاّ وقد ركب الأسْدُ الصقور وقد   سلوا الظبى تحت غابات من الأسل
من كل ضافية السربال ضافية السـ   ـقذاف بالنبل فيها المقذف بالنبل
وأصبحوا غرقا في أرضهم بددا   يجوس أدناهم الأقصى على مهل
وإنما هم أضاعوا حزمهم ثقة   بجمعهم ولكم من واثق خجل
بني الأصافر ما نلتم بمكركمُ   والمكر في كل إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى غاب سعيكم   غير الأراذل والاتباع والسفل
سلبتم الجرد معراة بلا لجم   والسمر مركوزة والبيض في الخلل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها   مثال آخذها في الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزا كسالبه   والحرب دائرة من كف معتقل
جيش أصابتهم عين الكمال وما   يخلو من العين الا غير مكتمل
لهم بيوم حنين أسوة وهم   خير الأنام وفيهم خاتم الرسل

---

(١) الخريدة قسم الشام ١/٢٨٢ ـ ٢٨٤ وأنظر الروضتين جـ١ ق ١ ص ٦١٥ وديوانه ص ٢١٩

سيقتضيكم بضرب عند أهونــــــه
ملك بعيد من الأدناس ذو كنــفٍ
فالشمس ما أصبحتْ والشمس ما أفلــت
كم قد تجلّت بنور الدين من ظلــم
وبلدةٍ ما ترى فيها سوى بطــل
قل للموليّن كفّوا الطرف من جبــنٍ
طلبتم السهل تبغون النجاة ولــو
أسلمتموه ووليّتم فسلمكــم
حمارين ولم تنثل كنائنكــم
ولا طرقتم بويل النبل طارقــة
فقام فردا وقد دلّت جحافلـــه
في مشهد لو ليوث الخيل تشهــده
وحط الهدى وحد مثبت الجنان وقــد
يعود عنهم وبدا غير مكتــرث
يزداد قدما اليهم من تيقّنــه
ما كان أقربهم من أسر أبعدكــم
ثباته في صدور الخيل أنقذكــم
ما كل حين تصاب الأسد غافلــة
والله عونك فيما انت مزمعــه
كم قد ملكت لهم ملكا بلا عــوض
وكم سقيت الموالي من طلى ملــك
وأسمر من وريد النحر مــورده
حصيد سيفك قد أعفيته زمنــا
لا أنكبت سيفه الاقدار عن غــرض

البيض كالبيض والأدراع كالحلــل
بالصدق في القول والإخلاص في العمــل
والسيف ما غلّ والأطواد لم تــزل
للظلم وانجاب للاضلال من ظلــل
غزا فأضحت وما فيها سوى طلــل
عند اللقاء وغضّوا الطرف من خجــل
اذ ثم بملككم اذ ثم الى جبــل
بثبتة لو بناها الطود لم ينــل
والسمر لم تبتذل ، والبيض لم تــذل
ولا تساقت الأسياف في القلــل
فكان من نفسه في جحفل زجــل
خرّت لاذقانها من شدة الوهــل
طارت قلوب على بعدٍ من الوجــل
بهم وقد كرّ فيهم غير محتفــل
أن التأخّر لا يحمي من الاجــل
لو أنهم لم يكونوا منه في شغــل
لا تحسبوا وثبات الضمّر الذلــل
ولا يصيب شديد البطش ذو الشلــل
كما أعانك في أيامــك الأول
وحزت من بلد منها بلا بــدل
وكم قريت الحوائم من قرا بطــل
وأجدل أكلـه من لحم منجــدل
لو لم يطل عهده بالسيف لم يطــل
ولا ثنت يدك الايام عن أمــل (١)

---

(١) الخريدة قسم الشام ١ / ٢٨٩ ـ ٢٩٢ وأنظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٣٢١ وديوانه ص ٧٠ ـ ٧٧

قال يمدح السلطان صلاح الدين بأنتصاره على الفرنج في معركة قرب البقاع سنة ٥٧٥ بقصيدة أولها :

لك رب السماء خير معـــين   وكفاه بما تحب ضمـــين
فبله الحمد أيّ نصر عزيـــز   قد حبانا به وفتح مبـــين
أدرك الثأر حين نازله المنصـــــــــور ، حتف الكفار ليث العريـــن
الهمام المظفـــر الملك النــــا   صر مولى الورى صلاح الديـــن
يا مليكاً أضحى الزمـــان ينا جـــ   ــيه بلفظ المذلل المسكـــين
قذفت أهلها الحصون السبـــايا   ملك حتى عوّضتهم بالسجـــون
وأراهم رب السما بأسيـــــا   فك ما لم يُخِلْ لهم في ظنـــون
لك قلب عند اللقاء سكـــين   وله من تقاه ألف كمـــين
يا مليكاً يلقى الحروب بمصقـــول الـــــــنصل مستبطاً وصدق اليقــين
إن هذا الفتح المبين شفـــاء   لصدور وقرّة للعيـــون
هو يوم أضحى كيوم حنـــين   سهّل الله نصره في الحـــزون (١)

وقال في فتوحات سنة ٥٨٣ :

جُندُ السماء لهذا الملك أعـــوان   من شكّ فيهم فهذا الفتح برهـــان
متى رأى الناس ما نحكيه في زمـــن   وقد مضت قبل أزمان وأزمـــان
هذا الفتوح فتوح الأنبياء ومـــا   له سوى الشكر بالأفعال أثمـــان
أضحت ملوك الفرنج الصيد في يــده   صيداً ، وما ضعفوا يوماً وما دانـــوا
كم من فحول ملوك غودروا وهـــم   خوف الفرنجة ولدانٌ ونسـوان
أستصرخت بملكشاه طرابلـــس   فخاطبتها وصمّت منه آذان
هذا وكم ملك من بعده نظر الإســـلام يطوى ويحوى وهو سكــران
تقصون عاما بلاد الله تصرخ والإســـلام أنصاره صُمٌّ وعميـــان
فالآن لبّى صلاح الدين دعوتهـــم   بأمر من هو للمعوان معـــوان
للناصر ادّخرت هذي الفتوح ومـــا   سمت لها همم الأملاك مذ كانـــوا
حباه ذو العرش بالنصر العزيز فقـــا   ل الناس داود هذا أم سليمـــان
في نصف شهر غدا للشرك مصطلمـــاً   فطُهّرت منه أقطارٌ وبلـــدان
فأين مسلمة عنها وأخوتــــه   بل أين والدهم ، بل أين مــروان
وعدّ عما سواه فالفرنجة لـــم   يبدهم من ملوك الأرض إنســـان
لو أن ذا الفتح في عصر النبي لقــد   تنزّلت فيه آيات وقـــرآن

---

(١) الروضتين ٢ / ٦

قال يمدح صلاح الدين بقصيدة طويلة أولها :

حتّام أرض في هواك وتغضـــــــــب ... وإلى متى تجني علي وتعتـــــــــب

ومنها :

ذلّت أخلاق الزمان لأهلـــــــــه ... فأطاع ، وهو الخائن المتغضّـــــــــب
واتمت سوقاً للمدائح بعد مـــــا ... كانت إليه أغاني الفضائل تجلـــــــــب
ونهضت للإسلام نهضة صـــــادق ... العزمات ، تراب من بناه وتشعـــــــــب
وغضبت للدين الحنيف ولم تـــــزل ... في الله ترضى منذ كنت وتغضـــــــــب
غادرت أهل البغي بين مجنـــــدل ... ألقى الحِمام ، وخائف يترقّـــــــــب
أو هارب ضاقت عليه رحبهـــا الا ... رض الفضاء ، وأين منك المهـــــــــرب
فاصبح بلاد الروم منك بغـــــارة ... النصر فيها رائد لا يكـــــــــذب
وارم الكنائس من سطاك بصاعق ... متأجج نيرانه تتلهّـــــــــب
وارفع بها للمسلمين منابـــــرا ... باسم الخليفة ثم باسمك يخطـــــــــب
واترع بحيّ على الفلاح سماءهـــا ... تهبو اذا ذكر الصليب فتطـــــــــرب
لا تبق زنارا يشد بها علــــــى ... علج ولا ناقوس دير يضـــــــــرب
واحمد لحرب المشركين مهذبـــا ... بالسيف من يهواه لا يتهـــــــــذب
لا تعفونّ اذا ظفرت بمجـــــرم ... منهم فرب جريمة لا توهـــــــــب (١)

وقال يمدح صلاح الدين ويذكر هزيمة الفرنج سنة ٥٧٠ :

فاصبحت بالدوّ أشلاؤهـــــــم ... يشبع منها النسر والسيـــــــــد
جيوشهم بالرعب مفلولـــــة ... وزرعهم بالسيف محصـــــــــود
جهاد من لم يبق يوما لــــه ... في نصر دين الله مجهـــــــــود
ومن تبقّاه الردى منهـــــم ... في الأسر مكبول ومصفـــــــــود *
فابشر بنصر عاجل يومـــــه ... بالنصر في الأعداء مشهـــــــــود
وأنصت لها عذراء بيت العلــــى ... بمثلها والفخر محســـــــــود (٢)

---

(١) مضمار الحقائق ص١٩٣ ـ ١٩٤

(٢) ديوانه ص١١١

(*) حذفت من الديوان خمسة أبيات وقد تعمد المحقق ذلك

وقال يمدحه أيضا :

يضلنني الاعادي كل كريهـــــــــة … يشوى الوجوه حريقها المتضـــــرم
يزجي لهم سحب الحمام رعود هـــــا … زجل الكماة ، وصوب عارضها الـــدم
فزمانهم بالرعب منه ليلــــــــــــة … ليلاء أو يوم عبوس أيـــــــــــوم

قال يمدح صلاح الدين سنة ٥٧٥ بقصيدة أولهـــــــا :

إن كان دينك في الصبابة ديـــــــني … فقف المطيّ برملتي يبريـــــــن

ثم قال بعد تمام الغــزل :

ليت الضنين على المحبّ بوصلـــــه … لقن السماحة من صلاح الديـــــن
ملك اذا علقت يدٌ بذ مامـــــــــه … علقت بحبل في الحفاظ متـــــين
قاد الجياد معاقلا وان اكتفـــــى … بمعاقل من رأيه وحصـــــــــون
سهرت جفون عداه خيفة ماجـــــد … خافت صوارمه بغير جفـــــــون
لو أنّ لليث الهزبر سطاه لـــــم … يلجأ الى غاب له وعريـــــــن
أضحت دمشق وقد حللت بجوّهـــــا … مأوى الطريد وموئل المسكـــين
له عفة في قدرة وتواضـــــــــع … في عزة وشراسة في لـــــــين
وأريتنا بجميل صنعك مـــــا روى الــــ … ـــراوون عن أمم خلت وقـــرون
وضمنت أن تحيي لنا أيامهــــــم … بالمكرمات فكنت خير ضمـــين

. . . .

لله ما اشتملت عليه قبابهـــــم … يوم النوى من لؤلؤ مكنـــــون
من كل تائهة على أترابهـــــــا … بالحسن غانية عن التحســــين
خود ترى قمر السماء إذا بـــــدت … ما بين سالفة وبين جبـــــين
غادين ما لمعت بروق ثغورهـــم … إلاّ استهلّت بالدموع جفونـــي

. . . .

كاد الأعادي أن يصيبك كيد هـــــا … لو لم تكدْكَ برأيها المأمـــون
تخفي عداوتها وراء بشاشــــــة … تكشف عن نظر لها مشفـــــون
دفنت حبائل مكرها فرددتهـــــا … تدوي بغيظ صدورها المدفـــون
وعلمت ما أخفوا كأن قلوبهـــــم … أفضت اليك بسرها المخـــزون
كمنوا وكم لك من كمين سعـــادة … في الغيب يظهر من وراء كمـــين
فهوتْ نجوم سعود هم وقضى لهـــم … بالنصر طائر جدك الميمـــون (١)

(١) ديوانه ص ٤١١ الروضتين ١/ ١٠ ومضمار الحقائق ص ٢١

يا قبحَ أوجه عباد الصليب وقـــد ... غدا يبرّقها شؤمٌ وخـــذلان
خزنت عند إله العرش سائر مـــا ... ملكته وملوك الأرض خـــزان
فالله يبقيك للإسلام تحرســـه ... من أن يُضام ويلفي وهو حـــيران
وهذه سنة أكرم بها سنـــةً ... فالكفر في سِنةٍ والنصر يقظـــان
يا جامعاً كلمة الإيمان قامع مـــن ... معبوده دون رب العرش صلبـــان
اذا طوى الله ديوان العباد فمـــا ... يطوى لأجر صلاح الدين ديـــوان (١)

---

(١) الروضتين ٢/ ١٠٤

كتب الى الملك الصالح طلائع بن رزيك بعد أن استولى الفرنج على أمواله بعد عودته من مصر الى الشام قصيدة أولها :

غرني لامع السراب ، وهذا البحر دوني عذب المياه شروب
سرت أستقرئ المحول وفي أرضي مرتقى رعين ، وواد قشيب
وسحاب منه تعلمت السحب ، وإن لم تشبهه ، كيف تصوب
سوء حظ نأى عن الملك الصالح ، والحظ ينتهي ويشوب
والى بابه مآلي وللآبق حسن القبول حين يتوب
....

أنا أشكو اليك دهرا لحا عودي ، وأعراه ، فهو يبس سليب
وخطوبا رمى بهن حسادات الدهر سوادي ، وكلهن مصيب
أذهبت تالدي وطار بالطاري ، فضاع الموروث والمكسوب
فهو شطران بين مصر وبحر ذا غريق فيء ، وذا منهوب (١)

وقال يمدح صلاح الدين بعد حصار عسقلان سنة ٥٧٠ هـ ، أولها :

تهن يا أطول الملوك يدا في بسط عدل وسطوة ويدي
أجراً وذكرا من ذلك الشكر في الدنيا ، ومن ذلك الجنان غدا
لا تستقل الذي صنعت ، فقد قمت بفرض الجهاد مجتهدا
وجشت أرض العدى ، وأفنيت من أبطالهم ما يجاوز العددا
وما رأينا غزا الفرنج من الملوك في عقر دارهم أحدا
غسرا الى الشام فالملائكة الأبرار تلقاك بجمعهم مددا
فهو فقير اليك ، يأمل أن تصلح بالعدل منه ما فسدا
والله يعطيك فيه عاقبة النصر كما في كتابه وعدا
فما حباك الورى ، والهك العدل ، وأعطاك ما ملكت يدي (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ويهجو شاورا :

أقمت عمود الدين حين أمالته لطاغي الفرنج الفتم طاغي بني سعد
وجاهدت حزب الكفر حتى رددتهم خزايا ، عليهم خيبة الذل والرد
أغدت بما قدمت ملكا مخلدا وذكراً مدى الأيام يقرن بالحمد
وذكراك في الآفاق يسرى كأنه الصباح له نشر الألوة والندا (٣)

---

(١) ديوانه ص ١٦٢
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٠٥ وعقد الجمان جـ ١١ ق ٢ ورقة ٥٦٩
(٣) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٩٥

وكتب الى معين الدين أثر لما لقي الفرنج في أرض بصرى سنة ٥٤٤ قصيدة يقول فيها :

كل يوم فتح مبين ونصر … واعتلاء على الأعادي وقهر
صدق النعت فيك أنت معين الديـ … ـن ، إن النعوت فأل وزجر
أنت سيف الإسلام حقاً فلا كـ … ـل غراريك أيها السيف دهر
بك زاد الإسلام سيفه المضفد م عزاً … وذل شرك وكفر
لم تزل تضمر الجهاد مسرّاً … ثم أعلنت حين أمكن جهر
كل ذخر الملوك يفنى وذخرا … ك هما الباقيان أجر وشكر
الندى مالك الهمام ، وما تمـ … ـلك إلا الأجرد ، وبيض ، وسمر
عمّ أهل الشام عدلـ ــه لكنـ … ـا بعدنا ، وغاية المجد مصر … الخ (١)

وكتب رداً على قصيدة طلائع بن رزيك التي مطلعها :

أبى الله إلا أن يدين لنا الدهر … ويخدمنا في ملكنا العز والنصر

قصيدة أشار بها عليه نور الدين وهي :

أبى الله إلا أن يكون لنا الأمر … لتحيا بنا الدنيا ، ويفتخر العصر
وتخدمنا الأيام فيما نرومه … وينقاد طوعاً في أزمتنا الدهر
وتخضع أعناق الملوك لعزنا … ويرهبها منا على بعدنا الذكر
بحيث حللنا الأمن من كل حادث … وفي سائر الآفاق من بأسنا ذعر
بطاعتنا للأمر طوعنا الأنـ … ـام ، فما يعصى لنا فيهم أمر

. . . .

وما في ملوك المسلمين مجاهد … سوانا ، فما يثنيه حر ولا قر
جعلنا الجهاد همنا واشتغالنا … ولم يلهنا عنه السماع ولا الخمر
دماء العدا أشهى من الراح عندنا … ورقص المواضي فيهم الناي والوتر
نواعلهم وصل الحبيب ونعم عدا … زيارتهم ينحط عنا بها الوزر
وثير حشايانا السروج ، وقمصنا الد … روع ، ومنصوب الخيام لنا قصر
ترى الأرض مثل الأفق ، وهي نجومه … وإن حسدتها عزها الأنجم الزهر
ونحن الملوك البيض والسمر كالدمى … وضمتنا البيض الصوارم والسمر
سوابقنا حمر المضارب من دم … قوائمها من جودنا نضرة خضر
نسير الى الأعداء والطير فوقنا … لها القوت من أعدائنا ، ولنا النصر
فيا رب يذوب الصخر من حر ناره … وإطفاء له بالماء ينبجس الصخر
وجيش إذا لاقى العدو وخلتهم … أسود الشرى عنت لها الأدم والعفر
ترى كل شهم في الوغى مثل سهمه … نفوذاً ، فما يثنيه خوف ولا كثر
هم الأسد من بيض الصوارم والقنا … لهم في الوغى الناب الحديدة والظفر
يرون لهم في القتل خلداً فكيف بالقضـ … ـاء لقوم قبلهم عند هم عمر

(١) الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٦٤

اذا نُسبوا كانوا جميعاً بني أب ... فحاصلهم شزر ، وضربهم الهبر
يظنون أنّ الكفر عصيان أمرنا ... فما غدهم يوماً لإنسانها كفر
لنا منهمُ أتباعهم وولاؤهم ... ومنّا لهم إكرامهم والندى الغمر
بنا أيّد الاسلام ، وأزداد عزه ... وذلّ لنا من بعد عزّته الكفر
قتلنا البرنز ، حين سار بجهله ... تحفّ بها الفرسان والعسكر المجر
ولم يبق الا من أسرنا ، وكيف بالـــبقاء لمن أخنت عليه الظبا البتر
وفي سجننا ابن الفنش خيرُ ملوكهم ... وإن لم يكن خيرٌ لديهم ولا بر
أسرناه من حصن العريمة راغماً ... وقد قتلت فرسانه فهم جزر
وسل عنهم الوادي بإقليد إنه ... إلى اليوم فيه من دمائهم غدر
ثم أنتشروا فيه لرد رحيلنا ... لمن تربه يوم المعاد لهم نشر
ونحن أسرنا الجوسلين ولم يكن ... ليخشى من الايام نائبة تعرو
وكان يظن الغر أنا نبيعه ... بمال ، وكم ظنّ به يهلك الغر
فلما استبحنا ملكه وبلاده ... ولم يبق مال يستباح ولا ثغر
كحلناه ، نبغي الأجر في فعلنا به ... وفي مثل ما قد ناله يحرز الأجر
ونحن كسرنا البغدوين وما لمن ... كسرناه إبلال يرجّى ولا جبر
فمله اللعين الخائن الغادر الذي ... له الغدر دين فابه عنه الغدر
وقد ضاقت الدنيا عليه برحبها ... فلم ينجه برّ ، ولم يحمه بحر
أفي غدره بالخيل بعد يمينه ... بإنجيله بين الأنام له عذر
دعته الى نكث اليمين وغدره ... بذمته النفس الخسيسة والمكر
وقد كان لون الخيل شتى فأصبحت ... تعاد إلينا ، وهي من دمهم شقر
توهّم عجزاً حلمنا وأناتنا ... وما العجز الا ما أتى الجاهل الغمر
فلما تمادى غيّه وضلاله ... وليحثه عن جهله النهي والزجر
وسرنا اليه حين غاب لقاءنا ... وبان له من بأسنا البؤس والضر
تولّى يباري عائرات سهامنا ... وفي سمعه من وقع أسيافنا وقر
وخلّى لنا فرسانه وحماته ... فشطرٌ له قتل ، وشطرٌ له أسر
وما تنثني عنه أعنّة خيلنا ... ولو طار في أفق السماء بها النسر
الى أن يزور الجوسلين سمائنا ... له في دياج ، ما لليلتها فجر
ونرتجع القدس المطهّر منهم ... ويتلى بإذن الله في الصخرة الذكر
كأنما لنا في أرض من خان منهم ... فلم يبق منها في ممالكهم شبر
اذا استغلقت شمّ الحصون فعندنا ... مفاتحها : بيض ، مضاربها حمر
وان بلد عزّ الملوك مرامه ... ورمناه ، ذلّ الصعب واستسهل الوعر
واضحى على الصمّ والظباء ... ووقى المذاكي الرعد والبرق والقطر
بنا أسترجع الله البلاد وأمّن العـــباد ، فلا خوف عليهم ولا قهر
فتحنا الرها حين استباح عداتنا ... حماها ، وسنى ملكها لهم الدهر
جعلنا طلى الفرسان أغماد بيضنا ... وملّكنا أبكارها الفتكة البكر
ونحن فتحنا تلّ باشر بعدما ... وقد عجزت عنه الاكاسرة الغر

أتى ماكونها بالمفاتيح طاعة … إلينا ، ومسراهم الى بابنا شهر

وما كل ملك قادر ذو مهابة … ولا كل ساع يستتب له الأمر

وتل عزاز ، سبحته جيوشنا … غلوتحه عنا الرجال ولا الجدر

وملنا الى بين الرصاص وإنه … لكالسد ، لكن الرصاص له قطر

وأضحت لإنطاكية حارم شجى … وفيها لها والساكنين بها حصر

وحصن كفر لاثا وهاب تدانيا … لنا ، وذرادا للأنوق به وكر

وفي حصن باسوطا وقورس ذلت الصعاب … لنا والنصر يقدمه الصبر

وفامية وابارة استنقذتهما … لنا دلتة من دونها الفرغ والفقر

وحصن بسرفود وأنب سهلت … لنا واستطال النصر وهو لنا يسر

وفي تل عمار ، وفي تل خالد … وفي حصن سلقين لمملكة تصر

وما مثل راوندان حصن وإنه … لممتنع ، لو لم يسهل له القسر

وكم مثل هذا من قلاع ومن قرى … ومزدرعات لا يحيط بها الحصر

فلما استعدناها من الكفر عنوة … ولم يبق في إقطارها لهم أثر

رددنا على أهل الشام رباعهم … وأملاكهم ، فانزاح عنهم بها الفقر

وجاءتهم من بعد يأس وفاقة … وقد مسهم من فقدها البؤس والضر

ومر عليها الدهر ، والكفر حاكم … عليها ، وكم مر من بعده عمر

فنالهم من عودها الخير والغنى … كما نالنا من ردها الأجر والشكر

ونحن وهبنا الكفر من كل بلدة … فأصبح مسرورا بمتجرها السفر

وأصبحت الآفاق من عدلنا حمى … تكدر قطاها لا يروعها صقر

فكيف تساهينا الملوك الى العلا … وعزمهم سر ، ووقعاتنا جهر

وان وعدوا بالغزو نطلا ، فهذه … رؤوس أعاديهم بأسيافنا نثر

سنلقى العدا عنهم ببيض صقالها … هداياهم ، والبتر يرهقها البتر

. . . .

فقل لملوك الأرض : ما الفخر في الذي … تعدونه من فعلكم ، بل كذا الفخر (١)

وكتب الى صلاح الدين سنة ٥٧١ :

لا زلت يا ملك الإسلام في نعم … تزينها المسعدان : النصر والظفر

تردي الأعادي وتستصفي ممالكهم … وعونك الماضيان : السيف والقدر

فأنت إسكندر الدنيا ، بنورك تستضاء … تضاءل المظلمان : الظلم والضرر

أعدت للدهر أيام الشباب وقد … أظلها المهرمان : الشيب والكبر

وجاد غيث ندالك المسلمين فمن … سحابه المغنيان : الدر والبدر

وسرت سيرة عدل في الأنام كما … قضى به الصادقان : الشرع والسور

ففق بنصر على الكفار إنهم … يرديهم المهلكان : الغدر والأشر

---

(١) ديوانه ص ٢٠١ – ٢٠٦

تاهمُ إذْ رأوْا إقبال ملكهـــــمُ ... إليهم المزعجان : الخوفُ والحـــذرُ
وما الفرار بمنجيهم ، وخلفهـــم ... من بأسه المدركان : السمر والبتـــر
وسوف يعفو غداً منهم بصارمـــه ... وجيشه المخبران : الحين والاثـــر
ولو رقوا في ذرى شهلان أسلمهـــمْ ... لسيفه العاصمان : الحصنُ والـــوزر
تغني بتفضيله عمن تقدّمـــــه ... ما أستودع المخبران : الكتْبُ والسِيَرُ (١)

وقال في نصر بن الفضل :

وعمت البلاد بالسيف فاستصعـــب منها سهل ، وعزّ ذليـــل
وقسمت الفرنج بالغزو شطـــر ... ين : فهذا عانٍ وهذا قتيـــل
والذي لم يحن بسيفك من شـــو ... فك أمسى وعقله مخبـــول
مثل الخوف بين عينيه جيشـــا ... لك في عقر داره ما يـــزول
فالرّبى عنده جيوش، وموج البحـــر في كل لجة أسطـــول
وإذا ما غشى أقرّ بــــه الضــجيع في الحلم سيفك المسلـول
فابقَ للمسلمين كهفا ، ولاتفـــرق حتفا ، ما أعقب الجيلَ جيـلُ (٢)

وكتب اليه الملك الصالح :

أيها السائر المجدّ إلـــى الشا ... م تبارى ركابه والخيـــول

فرد عليه أسامة بقصيدة مطلعها :

أين سمعي عمّا يقول العـــذول ... أنا بالهجر والنوى مشغـــول

ومنهـا :

يا أمير الجيوش ، يا أعـدل الحكّـــام في فعله وفيما يقـــول
أنت تقضي بالحق لســـت وإنْ ... زال جبال الارضين ، عنه تـــزول
فبماذا قضيتَ ، يا سيـــّد الحكّـــام طراً على أني ملـــول
من يملّ الحياة أم من عليـــه ... من توالي أنعامه تثقيـــل
لا ترُعني بالعتب ، فهو على قطـــع رسوم التشريف عني دليـــل
لي رسوم ، منها مواصلة الكتـــب وأنت البرّ الكريم الوصـول .. (٣)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٤٥
(٢) ديوانه ص ١٩١
(٣) ديوانه ص ٤٠١ وانظر الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٦

واجاب على قصيدة طلائع بن رزّيك اللامية بقصيدة منها :

يا أشرف الوزراء أفعالاً وأكرمهم فعالا
وأعزّهم جاراً وأمنعهم حمىً وأجل آلا
فلذاك قد أضحى الأنـــام — على مكارمه عيالا
وحمى البلاد بسيفـــه — عن أن تذال وأن تدالا
وأحلّ بالإفرنج نــفـــي — بزّوفي بحر نكالا
نبّهت عبداً طالمـــا — نبّهته قدرا وحالا
وتبته فانلتـــــه — شرفا ومجدا لن ينالا
لكنّ ذاك المتسبّب يشمل في جوانبه اشتعالا
أسفا لجدّ حال عنه الى مساءته ومالا
أما السرايا حين تسر — جن بعد خفتها ثقالا
فكذاك عاد وثمود بما — بك مقتلين نشا ومالا
وصيرها في كل أرض — تبتغي منها المنالا
فكذاك فعلك مثل عقد — لك في الدنى سارا وجالا
فاسلم لنا حتى نرى — لك في بني الدنيا مثالا
واشدد يديك بعود نصر — الدين والق بها الرجالا
فهو المحامي عن بلا — د الشام جمعا أن ينالا
وميسد أملاك الفرنـج وجمعهم حالا فحالا
ملك يتيه الدهر والدنيا بدولته اختيالا
جمع الخلائق الداحـا — ت فلم يدع منهم خلالا
فاذا بدا المنشار بين راحتيه الكمالا
فبقيت للمسلمين حصنا وللدنيا جمالا (١)

وبعث الى معين الدين أنر من مصر قصيدة يبيّن له فيها الدسائس التي يحوكها ساسة دمشق أولهـا :

ولّوا ولما رجونا عدلهم ظلموا — فليتهم حكموا فينا بما علموا
ما مرّ يوما بفكري ما يريبهم — ولا سعت بي إلى ما ساءهم قدم
ولا أضعتُ لهم عهداً ولا أطلعت — على ودائعهم في صدريَ التهم
فليت شعري بم استوجبْتُ هجرهُم — ملّوا فصدّهم عن وصليَ السأم
حفظتُ ما ضيّعوا ، أغضيتُ حين جنوا — وفيتُ إذ غدروا ، واصلتُ اذ صرموا
حُرمتُ ما كنت أرجو من ودادهم — ما الرزقُ إلا الذي تجري بما القسم
محاسني ، منذ ملّوني باعينهم — قذىً ، وذكريَ في آذانهم صمم

(١) ديوانه ص ٢١٥ والروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٩٤

وبعدُ لو قيل لي ماذا تحبّ وما ... سواك من زينة الدنيا لقلت هم
هم مجال الكرى من مقلتيّ ومن ... قلبي محل الحشى جاروا أو احترموا
تبدّلوا بي ولا أبغي بهم بدلاً ... حسبي هم أنصفوا في الحكم أو ظلموا
يا راكباً تقطع البيداء همّته ... والعيس تعجز عما تدرك الهمم
بلّغ أميري معينَ الدين مألكةً ... من نازح الدار لكن ودّه أمم
وقل له : أنت خير الترك فضلك الـ ... ـحياء والدين والإقدام والكرم
وأنت أعدل مَنْ يُشكى إليه ولي ... شكيّة أنت فيها الخصم والحكم
هل في القضية يا من فضل دولته ... وعدل سيرته بين الورى علم
يضيع واجب حقي بعد ما شهدت ... بما النصيحة والإخلاص والخدم

• •

لكن ثقاتك ما زالوا بسعيهم ... حتى استوت عندك الأنوار والظلم
باعوك بالبخس يبغون الغنى ولهم ... لو أنهم عدموك الويل والعدم
والله ما نصحوا لما استشرتهم ... وكلهم ذو هوى في الرأي متّهم
كم حرّفوا من معان في سفارتهم ... وكم سعوا بفساد ضلّ سعيهم
أين الحميّة والنفس الأبيّة إذ ... ساموك خطّة خسف عارها يصم
هلاّ أنفت حياء أو محافظة ... من فعل ما أنكرته العُرْبُ والعجم

• •

أسلمتنا وسيوف الهند مغمدة ... ولم يروّ سنان السمهريّ دم

• •

هبنا جنينا ذنوباً لا يكفّرها ... عذر فماذا جنى الأطفال والحرم
ألقيتهم في يد الإفرنج متبعاً ... رضى عدى يسخط الرحمن فعلهم
هم الأعادي وقاك الله شرّهم ... وهم بزعمهم الأعوان والخدم
اذا نهضت الى مجد تؤثّله ... تقاعدوا فاذا شيّدته هدموا
وان عرتك من الأيام نائبة ... فكلهم للذي يبكيك مبتسم ... الخ (١)

ورد على قصيدة طلائع التي مطلعها :

ألا هكذا في الله تمضي العزائم ... وتمضي لدى الحرب السيوف الصوارم

قصيدة :

لك الفضل من دون الورى والمكارم ... فمن حاتم ما نال ذا الفخر حاتم

• •

رميت العدى بالأسد في أجم القنا ... على الجُرد تقتاد الردى وهو راغم
بمثل أتيّ السيل ضاق بها الفضا ... وضاق على الأعداء منه المخارم
يبارين شهب القذف يحملن مثلها ... من الحتف للباغي الرجيم رواجم

(١) ديوانه ص ١٤٦ ، الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٨٢ الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٣٤

سرايا كمون البحر ، في ليل عثير * به من عواليهم نجوم نواجم
تسير جيوش الطير فوق جيوشها * لها كل يوم من عداها ولائم
فان خفض الفرسان للطعن في الوغى * رماحهم انقضت عليها القشاعم
تخوض منها فوق غرة عارض * سحاب المنايا فوقه متراكم
فللنقع سحب والسيوف بوارق * وللدم وبل ، والنهات جماجم
بواكد منها الموت ، لا النبت يرتجى * أشائم ، لا يروى بها الدهر شائم
عليهم لراج غير عفو ملجأ * وليس لعاص لم ينب منك عاصم
تنزهت عن أموال من أنت قاتل * فقد جهلت بين الجيوش المقاسم
فنهبك أرواح تنقلها الظبى * وسمر العوالي ، والبلاد مغانم
. . . .
يشن أبو الغارات غارات جوده * على ماله ، وهو المدين المسالم
ويبشها شعث النواصي كأنها * ذئاب الفلا تردى عليها الضراغم
تلظ بأرض المشركين كأنها * صوادي الى ورد ، حوائم
فويح العدى من بأسها ، إنما سرى * اليها ، ولم تشعر ، ردى وأداهم
فهم جزر للبيض ، والبيض كالدمى * سبايا تهادى ، والبلاد مغانم
غزوتهم في أرضهم وبلادهم * وجحفلهم في أرضها متزاحم
فأفنيتهم قتلا وأسرا بأسرهم * فما بينهم مستسلم أو مسالم
فلما أبادتهم سيوفك ، وانجلت * عن الأرض منهم ظلمة ومظالم
غزوتهم في البحر حتى كأنما الأسـ * ـاطيل فيه موجه المتلاطم
بفرسان بحر ، فوق دهم كأنها * على الماء طير ما لهن قوادم
يمزقها فرسانها بأعنة * جرت ، حيث لم توصل بهن الشكائم
اذا دعوها تلت ، فرسان غارة * سروا بجياد ما لهن قوائم
يحوق أساطيل الفرنج اليهم * حمام ، وطير للفرنج أشائم
دماؤهم في البحر بحر سوائح * وما ثم في البر سحم جواثم
تلويحت في لج من الارض مارب * ولم يبق في لج من الماء عائم
وعاد الأسارى مردفين ، وسفنهم * تقاد ، كما قاد المهاري الخزائم
وقد شمر الملكان في الله ، طالبي * رضاه ، بحزم لم تعقه اللوائم
بجد ، هو العضب الحسام ، وحده * لعادية الأعداء والكفر حاسم
وقاما بنصر الدين ، والله قائم * بنصرهما ، ما دام للسيف قائم
وما دون أن يفنى الفرنج وتفتح البـ * ـلاد ، سوى أن يمضي العزم عازم
فيا ملكا ، قد أحمد الله سعيه * ونيته ، والله بالسر عالم
تهن ثناء ، طبق الارض نشره * هو المسك ، لا ما ضمنته اللطائم
ثناء به يحدو الحداة ، وينشد الـ * ـرواة ، وتشدو في الغصون الحمائم
يسير مع الركبان ، أنى تيمموا * على أنه في ساحة الحي خاتم ... (١)

(١) الروضتين ص ٢٢٤

وله في صلاح الدين قصيدة منها :

الناصر الملك الموفي بذمته ... ومن ندى كفه يغني عن الديم

ومن إذا جرد البيض الصوارم في الـ ... ـهيجاء أغمدها في البيض والقمم

ومن حوى الملك من بعد الطاعة في انـ ... ـتزاعه بشبا الهندية الخذم

ورد طاغية الإفرنج يحسب ما ... رجاه من ملك مصر كان في الحلم

ولى وراحته صفر وقد ملئت ... بعد الطماعة من يأس ومن ندم

يمتدون على ما فاتهم نفسا ... لو لامس البحر أضحى الدر كالحمم

وفي السلامة لولا جهلهم ظفر ... لمن أراد نزال الأسد في الأجم

وهم أسود الشرى لكن أن لهم ... ملكا لديه الأسود الغلب كالنعم (١)

وكتب الى ابن عمه الأمير ناصر الدين تاج الدولة ابي عبد الله محمد بن سلطان بن علي بن مقلد يحثه على تخليص أخيه من أسر الفرنج ، يقول :

يا ناصر الدين ، يا ابن الأكرمين ومن ... يغني ندى كفه عن وابل الديم

....

تولى الجميل بلا من تكدره ... لا كدر الله ما أولاك من نعم

هذا ابن عمك في أسر الفرنج له ... حول تجرم ، في الاغلال والظلم

يدعوك لا بل أنا الداعي نداك له ... يا خير من علقته كف معتصم

وأنت أكرم من تثنيه عاطفة القر ... بى ويرجوه للجلى ذوو الرحم

ومن تكن أنت مولاه وناصره ... فكيف تسطو عليه كف مهتضم ؟ ... (٢)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة مطلعها :

لهفي لشرخ شبيبتي وزماني ... وتروحي لفتوة وطعان

ومنها :

يا ناصر الاسلام حين تخاذلت ... عنه الملوك ومظهر الايمان

بك قد أعز الله حزب جنوده ... وأذل حزب الكفر والطغيان

لما رأيت الناس قد أغواهم الشيـ ... ـطان بالالحاد والعصيان

جردت سيفك في العدى لا رغبة ... في الملك بل لطاعة الرحمن

فضربتهم ضرب الغرائب وانثنيا ... بالسيف ما رفعوا من الصلبان

وغضبت لله الذي أعطاك فضـ ... ـل الحكم غضبة ثائر حران

فقتلت من صدق الوغى ووهبت من ... نجى الفرار بذلة وهوان

وبذلت أموال الخزائن بعد ما ... حرمت وراء خواتم الخزان

في جمع كل مجاهد ومجالد ... ومبارز ومنازل الاقران

من كل من يرد الحروب بأبيض ... عضب ويصدر وهو أحمر قان

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٩٥ (٢) ديوانه ١٤٩

وبنو نيرانَ الوغى ، وكأنه … ظمآن خاض موارد الغدران
قوم إذا شهدوا الوغى قال الورى … ماذا أتى بالأُسْد من غسّان؟
لو أنهم شدوا الجبال لزعزعوا … أركانها بالبيض والخرصان
فهمُ الذخيرة للوقائع بالعدى … والقمم ما استعصى من البلدان … (١)

---

(١) الخريدة قسم شعراء الشام ج ١ ص ٥٢٠

قال يمدح بعض ذرية صلاح الدين :

مليك من القوم الذين رماحهم … دعائم هذا الدين في كل مشهد

هم نصروا التوحيد نصرا مؤزرا … بمعز في الآفاق كل موحد

وهم قهروا غلب الفرنج بباسهم … فدانوا لهم بالرغم لا عن تودد

وردوا الى البيت المقدس نوره … وقد كان في ليل من الشرك أسود

وهم سهّلوا سبل الحجيج وآمنوا … بها الركب خوف الكافر المتشدد

وقد ركبت فرسانه بحر أيلة … يخوضون في بحر من الكيد مزبد

وهم رجعوا مصرا الى دعوة الهدى … بعزم ورأي في العظائم محصد

وهم شيّدوا ركن الخلافة بالندى … أعادوه من بعد طريف ومتلد

وهم شرّفوا قدر المنابر باسمها … وذكر منوط بالرسول محمد

وهم وهبوا عز الممالك ، واكتفوا … بحمد الموالي والمعالي المشيّد

فسل عن ظباهم يوم حطين كم مضت … بحد مراد الله في كل أصيد

وصحف حديث العدل والبأس والندى … اذا كان عن أيامهم غير مسند (١)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٩٧

قال يمدح صلاح الديـــــن :

دع مهجة المشتاق من أهوائهـــــــا ... يا لائمي ، ما أنت من نصحائهـــــا

ومنهـــا :

جاءتك أرض القدس تخطب ناكحـــــا ... يا كفأها ما العذر عن عذرائهـــــا
زُفّت اليك عروس خدر تجتلـــــــى ... ما بين أعبدها وبين إمائهـــــا
إيه ، صلاح الدين خذها غـــــادة ... بكرا ملوك الارض من رُقبائهـــــا
كم خاطب لجمالها تـــــــد ردّه ... عن نيلهـــا أن ليس من أكفائهـــا (١)

(١) الخريدة ، بدايتقسم شعراء الشام ص ٨٥ ــ ٨٦

قال في فتوحات صلاح الدين :

أترى مناما ما بعيني أبصر … القدس يفتح والفرنجة تكسر
وقمامة تمت من الرجس الذى … بزواله وزوالها يتطهر
ومليكهم في القيد مصفود ولم … ير قبل ذاك لهم مليك يؤسر
قد جاء نصر الله والفتح الذى … وعد الرسول فسبحوا واستغفروا
فتح الشآم وطهر القدس الذى … هو في القيامة للأنام المحشر
من كان هذا فتحه لمحمد … ماذا يقال له وماذا يذكر
يا يوسف الصديق أنت لفتحها … فاروقها عمر الامام الاطهر
ولأنت عثمان الشريعة بعده … ولأنت في نصر النبوة حيدر
ملك غدا الاسلام من عجب به … يختال والدنيا به تتبختر
نثر ونظم طعنه وضرابه … فالرمح ينظم والمهند ينثر
حيث الرقاب خواضع حيث السيو … ن خواشع حيث الجباه تعفر
غاراته جمس فان خطبت له … فيها السيوف فكل هام منبر
اذ لا ترى الا طلى بسنابك … تخدى فما لا أو دماء تهدر
وصوافنا تختار أرتحاً الثرى … فيصدّها عنه طلى وسنور
تمشي على جثث العدى عرجا ولا … عرج بها لكنها تتعثر (١)

(١) الروضتين ٢ / ١٠٥

قال يمدح نجم الدين أيوب والد صلاح الدين سنة ٥٦١ بقصيدة مطلعها :

يوم النوى ليس من عمري بمحسوب ... ولا الفراق إلى عيشي بمنسوب

ثم يقول :

أخوك وأبنك ، صدقاً منهما ، اعتصما ... بالله ، والنصر وعد غير مكذوب
هما حمامان في يومي وغى وقرى ... تسودا ضرب هام أو عراقيب
غدا يشبان في الكفار نار وغى ... بلفحها يصبح الشبان كالشيب
بملك مصر ونصر المؤمنين غدا ... تحظى النفوس بتأنيس وتطييب
ويستقر بمصر يوسف وبه ... تقر بعد التنائي عين يعقوب
ويلتقي يوسف فيها باخوته ... والله يجمعهم من غير تثريب (١)

وقال في تهنئة أسد الدين شيركوه ملك مصر سنة ٥٦٤ :

بالجد أدركت ما أدركت لا اللعب ... كم راحة جنيت من دوحة التعب
يا شيركوه بن شاذي الملك دعوة من ... نادى ، فعرف شير أبن بالعرب
جرى الملوك وما حازوا بركضهم ... من المدى في العلى ما حزت بالخبب
تمل من ملك مصر رتبة قصرت ... عنها الملوك فطالت سائر الرتب
فتحت مصر ، وأرجو أن تصير بها ... ميسراً فتح بيت القدس عن كثب
قد أمكنت أسد الدين الفريسة من ... فتح البلاد ، فبادر نحوها وثب
أنت الذي هو فرد من بسالته ... والدين من عرفه في جحفل لجب
في حلق ذي الشرك من عدوى سطاك شجى ... والقلب في شجن ، والنفس في شجب
زارت بني الأصفر البيض التي لقيت ... حمر المنايا بها مرفوعة الحجب
وإنها تقد من خلفها أسد ... أرى سلامتها من أعجب العجب
لقد رفعنا الى الرحمن أيدينا ... في شكرنا ما به الاسلام منك حبي
شكا اليك بنو الاسلام يتمهم ... فقمت فيهم مقام الوالد الحدب
في كل دار من الافرنج ناد بسنة ... بما دهاهم ، فقد باتوا على ندب
من شر شاور أنقذت العباد فكم ... وكم قضيت لحزب الله من أرب
هو الذي أطمع الافرنج في بلد الا ... سلام حتى سموا للقصد والطلب
وإن ذلك عند الله محتسب ... في الحشر من أفضل الطاعات والقرب
أن له الملك المنصور منتصراً ... لما دعا الشرك : هذا قد تحزب لي

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٦٩

وما غضبت لدين الله منتقماً ... إلّا لنيل رضا الرحمن بالغضب
وأنت من وتحتفي الكفر هيبته ... وفي ذويه وتوح النار في الحطب
وحين سرت الى الكفار فانهزموا ... نصرت نصر رسول الله بالرعب
يا محييَ الأمة الهادي بدعوته ... للرشد كل غويٍّ منهمُ وغبي
لمّا سعيت لوجه الله مرتقباً ... ثوابه ، نلت عفواً كل مرتقب
أعدت نقمة مصر نعمة ، غدت ... تقول : كم نكتةٍ لله في النكب
أركبت رأس سنان رأس ظالمها ... عدلاً ، وكنت لوزر غير مرتكب
ردّ الخلافة عباسيّة ، ودع الـ ... ـدعي فيها يصادفْ شر منقلب
لا تقطعنّ ذنب الأفعى وترسله ... فالحزم عندي قطع الرأس كالذنب (١)

وبعث الى الخليفة الناصر قصيدة يبشره بالفتوحات سنة ٥٨٣ :

أبشرْ بفتح أمير المؤمنين أتى ... وصيته في جميع الأرض جوّاب
ما كان يخطر في بال تصوّره ... واستصعب الفتح لما أغلق الباب
وخام عنه ملوك الاقدمون وقد ... فمستعلى الناصرين بلواه أحقاب
وجاء عصرك والأيام مقبلة ... فكان فيه لفيء الكفر انصباب
نصر أعاد صلاح الدين رونقه ... إيجازه ببليغ القول إسهاب
قرن الظبى بالظبى في الحرب يخطبه ... لا قينة تتغنّى باللحن مطراب
أحيا الهدى وأمات الشرك صارمه ... لقد تجلى الهدى والشرك منجاب
بفتحه القدس للإسلام قد فتحت ... في قمع طاغية الإشراك أبواب
في موافقة البيت المقدس للـ ... ـبيت الحرام لناتيه وإعجاب
والصخر والحجر الملثوم جانبه ... كلاهما لاعتمار الخلق محراب (٢)

وقال يرثي السلطان صلاح الدين بقصيدة عدد أبياتها مائتان واثنان وثلاثون بيتا أولها :

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشيّةً ... مرجوّة رغباته ورهباته
أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربّه طاعاته
بالله أين الناصر الملك الذي ... لله خالصة صفت نياته
أين الذي ما زال سلطاناً لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته
أين الذي شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته
أين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلاً ومنها أدركت ثاراته
أغلال أعناق العدا أسيافه ... أطواق أجياد الورى منّاته
لم يجدِ تدبير الطبيب وكم ... أجْدَتْ لطبّ الدهر تدبيراته
من في الجهاد صفاحه ما أغمدت ... بالنصر حتى أغمدت صفحاته

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٠٣ وانظر تاريخ ابن الفرات م ٤ ج ١ ص ٤٥ وعقد الجمان ج ١١ ق ٢ ورقة ٤٢٣ (٢) الروضتين ٢/١٠٢

من في صدور الكفر صدر قناته … حتى توارت بالصفاح قناته
لذ التاعب في الجهاد ولم تكن … مذ عاش قط لذاته لذاته
مسعودة غدواته محمودة … روحاته ميمونة ضحواته
في نصرة الاسلام يسهر دائما … ليطول في روض الجنان سناته
لا تحسبوه مات شخص واحد … فممات كل العالمين مماته
ملك عن الاسلام كان محاميا … أبدا اذا ما أسلمته حماته
قد أظلمت مذ غاب عنا دوره … لما خلت من بدره داراته
د من الصباح فليس ينبئ بعد ما … أودى الى يوم النشور رفاته
الدين بعد أبي المظفر يوسف … أقوت قواه وأقفرت عرصاته
جهل تضعضع من تضعضع ركنه … أركاننا وتهدنا هداته
ما كنت أعلم أن طودا شامخا … يهدى ولا تهوى بنا مهواته
ما كنت أعلم أن بحرا طاميا … فينا يطم وتنتهي زخراته
بحر خلا من وارديه ولم تزل … محفوفة بوفوده حفاته
من لليتامى والارامل راحم … متكلف مفروضة صدقاته
لو كان في عصر النبي لانزلت … في ذكره من ذكره آياته
فعلى صلاح الدين يوسف دائما … رضوان رب العرش بل صلواته
لضريحه سقيا السحاب فان يغب … تعتز لرحمة ربه سقياته
وكمادة البيت المقدس يحزن الـ … ـبيت الحرام عليه بل عرفاته
من للثغور وقد عداها حفظه … من للجهاد ولم تعد عاداته
بكت الصوارم والصواهل اذ خلت … من سبلها وركوبها غزواته
وبسيفه صدأ لحزن مصابه … اذ ليس يشفى بعده صدياته
يا وحشتا للبيض في أغمادها … لا تنتضيها للوغى عزماته
يا وحشة الاسلام يوم تمكنت … في كل قلب مؤمن روعاته
يا حسرتا من بأس راحته الذى … يقضي الزمان وما انقضت حسراته
ملأت مهابته البلاد فانه … أسد وإن بلاده غاباته
ما كان أسرع عصره لما انقضى … فكأنما سنواته ساعاته
لم أنس يوم السبت وهو لما به … يبدى الثبات وقد بدت شعياته
والبشر منبلجة أنواره … والوجه متلألئات سبحاته
ويقول لله المهيمن حكمة … في مرضة حصلت بها مرضاته
وقف الملوك على انتظار ركوبه … لهم فقيم تأخرت ركباته
كانوا وقوفا أمس تحت ركابه … واليوم هم حول السرير مشاته
وممالك الافاق ساعية له … فمتى تجيء بفتحهن سعاته
تدى مناشير الممالك تقتضي … توقيعه فيها فأين دواته
قد كان وعدك في الربيع بجمعها … هذا الربيع وقد دنا ميقاته
والجند في الديوان جدد عرضه … واذا أمرت تجددت نفقاته
والقدس طامحة اليه عيونه … عجل فقد طمحت اليه عداته

والغرب منتظر طلوعك نحــوه   حتى تفيء الى هداك بغاتــه
والشرق يرجو عزب عزمك ماضيــا   في ملكه حتى تطيع عصاتــه
مغرى بأسداء الجميل كأنمــا   فرضت عليه كالصلاة صلاتــه
هل للملوك مضاؤه في موقــف   شدت على أعدائه شداتــه
وإذا الملوك سعوا وقصر سعيهــم   رجحت وقد نجحت به مسعاتــه
كم جاء بالتوفيق في وقعاتــه   من كان بالتوفيق توقيعاته ... الخ (١)

وهنا نور الدين بفتح منبج سنة ٥٦٣ وحرضه على فتح القــدس :

بشرى الممالك فتح قلعة منبـــج   فليهن هذا النصر كل متــوج
أعطيت هذا الفتح مفتاحا به   في الملك يفتح كل باب مرتــج
وافى يبشر بالفتـــوح وراءه   فانهض إليها بالجيوش وعــرج
أبشر فبيت القدس يتلو منبجــا   ولتنبج لسواه كالأنمـــوذج
ما أعجزتك الشهب في أبراجهــا   طالبا فكيف حوان في أبـــرج
ولقد رمى يعسيك أحترا ان يســرى   أثر السبوس بوجهك المتبلـــج
لكن تهذب من عصاك سياســة   في ضمنها تقويم كل معـــوج
فانهد إلى البيت المقدس غازيــا   وعلى طرابلس وناملرس عـــرج
قد سرت في الإسلام أحسن سيرة   مأثورة وسلكت أوضح مسلـــك
وجمعت ما استقريت من سنن الهــدى   جددت منه كل رسم مهمـــج (٢)

وهنا العماد صلاح الدين بفتح الموصل وحثه على فتح القــدس :

فالحمد لله الذي أفضالــه   حلو الجنا وعلى السنا وغاشــه
عاد العدو بالمقر من ظلمـــه   في ليل ويل قد جنا صباحــه
وجنى عليه جهلــه بوقوعـــه   في قبضة البازي فهيض جناحــه
حمل السلاح الى القتال وصادرى   أن الذي يجني عليه سلاحــه
أضحى يريد مواصليه صـــدوده   وغدا يجيد رثاءه مداحــه
ان أفسد الدين الغلاة بحنقهــم   فالناصر الملك الصالح صلاحــه
قد كان عزمك بالإله مستقــا   فيهم فلاح كما رأيت فلاحــه
وكأنني بالساحل الأقصى وقــد   ماجت بنحر دم الفرنجة ساحــه
فاعبر الى القوم الفرات ليشربوا الـــموت الأجاج فقد طمى طفاحــه
لتفك من أيديهم رهن الرهــا   عجلا ويدرك ليلها أصباحــه
وابغوا لحران الخلاص فكم بهــا   حران قلب نحوكم ملتاحــه
نجوا البلاد من البلاء بعدلكــم   فالظلم باد في الجميع صراحــه
واستفتحوا ما كان من مستغلــق   فيها فعزكم لكم مفتاحــه

---

(١) الروضتين ج ١١٥/١١٦   (٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٨٠

أنتم رجال الدهر، بل فرسانه ... ولذي الحلوم الطائشات رجاحه
قتاكه، نساكه، ضراره ... نفاعه، مناعه، مناحه
وأبو المظفر يوسف مطعامه ... مطعانه، مقدامه، جحجاحه
وإذا اغتدى في محفل فحييه ... وإذا غدا في جحفل فوقاحه (١)

قال يمدح نور الدين ويصف الزلزلة سنة ٥٦٥ﻫ بقصيدة مطلعها :

هل لماني الهوى من الأسر فادي ... ولساري ليل الصبابة هادي

ثم يقول :

جل رزء الفرنج فاستبدلوا منه بلبس الحديد لبس الحداد
فرق الرعب منه في أنفس الكفار بين الأرواح والأجساد
سطوة زلزلت بسكانها الأر ... ض وهدت قواعد الأطواد
أخذتهم بالحق رجفة بأس ... تركتهم صرعى صروف العوادي
خلفت في تلاعها كل عال ... وأعادت تلاعها كالوهاد
أنفذ الله حكمه فهو ماض ... مظهر سر غيبه فهو بادي
آية أثرت ذوي الشرك بالهلاك وأهل التوحيد بالإرشاد
والأعادي جرى عليهم من التدمير ما قد جرى على قوم عاد
أشركت في الهلاك بين الفريقين : دعاة الإشراك والإلحاد
ولقد حاربوا القضاء، فأمضى ... حكمه فيهم بغير جلاد
والإله الرؤوف في الشام عنا ... دافع لطفه بلاء البلاد (٢)

ومن قدسياته قصيدة عدد أبياتها مائة واثنان وخمسون بيتاً أولها :

تصاريف دهر أعربت لمن اهتدى ... وسطلة أمر أغربت من تمردا
لسرعة فتح القدس سر مغيب ... وفي صرعة الافرنج معتبر بدا
أتوا كحبال أبرمت لانسارنا ... فسقناهم فيها قطينا مجددا
وساموا تجارا تشترينا غواليا ... فبعناهم بالرخص جهرا على الندى
وجروا جيوشا كالسيول على الصوى ... فآضت غثاء في البطاح مبددا
وقالوا ملوك الارض طوع قيادنا ... اذا الكل منهم في القيود مبددا
وقد أقطع الكند العراق موقعا ... فأودع سجنا وسط حلق موصدا
وأقسم أن يسقي بدجلة خيله ... فما ورد الأردن الا مصفدا
فكم واثق خجلان قهقه خصمه ... وكم سائق عجلان قهقر مقعدا
أتى الكند من إسبان يحمي قمامة ... فكان تقضي ملكه قبل يبتدى

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٥١
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٦٨ ـــ ٤٧٠ والخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ٤٦ ـــ ٥٠

فما عقد الرايات الا محلّلا ... ولا حلّل الرايات الا معقّدا
ووقعة يوم التل اذا قبضت بـه ... جبابرة الإفرنج شيزى وشيّردا
عليهمْ من البلوى سوادق ذلّة ... ومن ذلّ ماتت نفسه فتقيدا
ترى المنسر الديويّ يلقي سلاحه ... كشلة عصفور من الريش جُرّدا
فتلقى نصارى جلّق في مآتم ... يسرّونها الأشجى وتنهّدا
ألبرنز للسلطان صدّق نذره ... دم الغادر الإبرنز فأقتيد أربدا
وباشره بالقتل وسط جنابه ... وعاينه الأنذ المليك فارعدا
وضاقت بنفس القمّص الأرض مهربا ... فأدركه الموت المفاجيء مكمدا
وما طرق الاسماع من عهد آدم ... كملحمة التل التي تلت المدى
أتوا واديا ما زال ينفي خباثه ... ويمضي بعقبى الدار طائفة الهدى
به جشمت أصحاب ليكة وهي ... ذراه وذا فيه شعيب تأيدا
أرى الله فيه معجز النصر مخلصا ... لأمر صلاح الدين في الناس مخلدا
وأعدى جنود الرعب يردي عداته ... وسلّم جموع المسلمين مجنّدا
ومن عجب خمسون ألف مقاتل ... سبتهم جيوش لم يكن فيها من أرتدى (١)

وقال يمدح نور الدين بقصيدة مطلعها :

لو حفظت يوم النوى عهود ... ما مطلت بوصلكم وعود

ومنها :

ان الرعايا منه في رعاية ... ونعمة مستوجب مزيد
لنومها يسهر ، بل لأمنها ... يخاف ، بل يخصبها بجود
بالدين والملك له قيام ... وللملوك عنهما قعود
ودأبه ثلم ثغور الكفر ، لا ... لثم ثغور ناقص برود
قد أسبغ الله لنا بعدله ... ظلال أمن وارف مديد
غدا ملوك الروم في دولته ... وهم على رغمهم عبيد
لما أبت هاماتهم سجود ... لله ، أضحى للظبا سجود
إن خارقت سيوفه غمود ... فإنّ هاماتهمُ غمود
كم مغلقات ، من حصون عزه ... مفتاحها ، وسيفه إقليد
وقد ودّت الافرنج لو نجت ... منه ، ولكن رعبها يبيد
قهرتها حتى لودّ تيّها ... من ذلة لو أنها تقيد
أباتها رعبك في حصونها ... كأنما حصونها لحود
وإن مصرا لك تعنو بعد ما ... لسيفك المنتضب عنا صعيد
والملة الغرّاء خال بالها ... عال سناها ، بله حال جيدُ

---

(١) الروضتين ١/١١٧

مفترة ثغورها ، ممنوعــــــة ثغورها ، محفوظة حدود هـــا
وإن بغى جاورتها ضلالــــة كانت في امتلاكه داود هــــا
يا ابن قسيم الدولة الــــذي خرّت له من الملوك صيد هـــا
دع العدا بغيظها ، فإنمــــا يذيب أكباد العدى حقود هــــا
يا دولة نورية آمن الــــورى وعصبُها ، وَنَجُودُها ، وَجُودُ هـــا
ما تحلّ الدنيا لمن يجمعهــــا بالحرص إلا قرّة ودود هــــا
أنت الذي يرفضها عن قــــدرة فلا يشوب زهـــده زهيد هـــا
ثابتة لنا يا ملكا ، بقـــــاؤه في كل عام للرعايا عيد هــــا
في نعمة جديدة سعود هــــا ودولة سعيدة جدود هــــا (١)

وانشد أسد الدين شيركوه فـــي سنة ٥٦٣ :

دمت في الملك آمرا ذا نفـــاذ أسدَ الدين شيركوهُ بن شـــاذي
يا كريما عن كل شهر بخليفــا والى الخير دائم الاغـــذاذ
وملاذ الاسلام أنت ، فــــلازلـــت لأهل الإسلام خير مــــلاذ
في نفوس الكفار رعبك قـــد حــــل بصدع الأكباد والأفـــلاذ
لم تدع بالظبى ، رؤوساً وأصنــامــاً من المشركين غير جــذاذ
أنت من نازل الدعيّين فـــي مصــر لنصر الامام في بغـــداذ
وملاذ الاسلام أنقذتهـــا أنـــت من الشرك أيما انقـــاذ (٢)

قال يمدح أسد الدين شيركـــوه سنـــة ٥٦٢ :

بلغت بالجد ما لا يبلغ البشـــر ونلت ما عجزت عن نيله القـــدر
من يهتدي للذي أنت اهتديت لــه ومن له مثل ما أثرته أثـــر
أسرت أم بسراك الارض قد طويــت كانت اسكندر في السير أم خضـــر
أوردت خيلاً بأقصى النيل صادرة عن الفرات يقاضي وردها الصــدر
تناقلت ذكرك الدنيا ، فليس لهـــا الا حديثك ما بين الورى سمـــر
كانت من زانت الأيام سيرتـــه وزاد فوق الذي جاءت به السيـــر
لو في زمان رسول الله كنتَ ، أتَـــتْ في هذه السيرة المحمودة الســور
أصبحتَ بالعدل والإقدام منفــرداً فقل لنا : أعليّ أنت أم عـــمر
إسكندر ذكروا أخبار حكمتــــه ونحن فيك رأينا كل ما ذكــــرا
ورستم خبّرونا عن شجاعتـــه وصار فيك عيانا ذلك الخبـــر
افخر ، فإنّ ملوك الأرض إذ علمهـــم ما قد فعلتَ ، فكلٌّ فيك مفتكـــر
سهرتَ إذ رقدوا ، هجتَ إذ سكنــوا وصلتَ إذ جبنوا ، بل طلتَ إذ قصـــروا
بمثله ظنون الذي أدركته عجبـــاً وذاك في جنب ما نرجوه محتقـــر

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٧٧
(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٨٣

تنبي القضاء بما ترجوه عن كثـــــب	حتماً ، ووافقك التوفيق والقـــــدر
شكت خيولك إدمانَ السرى ، وشكـــــت	من قلبها البيض ، بل من حملها السمر
يسّرت فتح بلاد كان أيسرهـــــا	لغير رأيك فقلٌ فتحه عســـــر
قرنت بالحزم منك العزم ، فاتّسقـــــتْ	مآربٌ لك عنها أسفرَ السفـــــر
ومن يكون بنور الدين مقتديـــــاً	في أمره ، كيف لا يتوى له الظفــــر
يرى برأيك ما في الملك يبرمـــــه	فأنت منه بحيث السمع والبصـــــر
لقد بذت نفقة الإفرنج فانتصفـــــتْ	منها ، باقدامك ، الهندية البتـــــر
غرست في أرض مصر من جسومهـــــم	أشجار خطٍّ لها من هامهم ثمـــــر
وسال بحر نجيع في مقام وغـــــى	به الحديد غمام ، والدم المطـــــر
أنهرت منهم دماء بالصعيد جـــــرى	منها الى النيل في واديهم نهـــــر
رأوا اليك عبور النيل اذ عدمـــــوا	نصرا فما عبروا حتى قد اعتبـــــروا
تحت الصوارم هام المشركين ، كمـــــا	تحت الصوالج يوما خفّت الأكـــــر
أفنتْ سيوفك من لاقتْ ، فإن تركـــــت	قوماً فهم نفر من قبلها نفـــــروا
لم ينجُ الا الذي عاقته من خبـــــث	وخشي الفلا ، وهو للمحذور منتظـــــر
والساكنون القصور القاهرية قـــــد	نادى القصور عليهم أنهم قهـــــروا
وشاور شاوروه في مكائدهـــــم	فكاد ما الكيد لما خانه الحــــذر
كانوا من الرعب موتى في جلودهـــــم	وحين أمّنتهم من خوفهم نشـــــروا
وإنّ من شيركوه الشرك منخـــــزل	والكفر منخذل ، والدين منتصـــــر
عول على ثقة عند اللقاء وفـــــت	وعد عن تركمان قبله غـــــدروا
وكيف يُخذلُ جيشٌ أنت مالكـــــه	والقائدان له التأييد والظفـــــر
أجاب نيّ اله الحقّ دعوة مـــــن	يطيب بالليل من أنفاسه السحـــــر (١)

وقال في صلاح الدين ، وهي أول كلمة خدمه بهـــا :

كيف تلتم بقلتيه نفـــــور	وأراها بأن تجور تجـــــور

ومنها :

لاذ بالنيل شاورٌ مثل فرعـــــو	ن ، فذلّ اللاجي وعز المجـــــور
شارك المشركين بغيا ، وقد مـــــا	شاركتها قريظةٌ والنضـــــير
والذي يدّعي الإمامة بالقـــــا	هرة أرتاع إنه مقهـــــور
وغدا الملك خائفا من سناكـــــم	ذا ارتعاد كأنه مقـــــرور
وبنو المهتدي هانوا فغـــــروا	ومن الأسْد كل كلب فـــــرور
إنما كان للكلاب عـــــواء	حيث ما كان للأسود زئـــــير
وتليب عند الفرار مايـــــب	فهو بالرعب مطلق ماســـــور

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٧٠ ــ ٣٧٢

لم يبقوا سوى الأصاغر للسبي   فودّوا أنّ الكبير صغير
وحَمَتِ الإسكندرية عنهم   ورحى حربهم عليهم تدور
حاصروها وما الذى بان من ذبـ   ـك عنها وحفظها محصور
كحصار الأحزاب طيبة قد ما   ونبيّ الهدى بها منصور
فاشكر الله حين أولاك نصرا   فهو نعم المولى ونعم النصير
ولكم أرجف الاعادي فقلنا   ما لما تذكرونه تأثير
ورتبنا كالعيد عودك فاليو   م به للأنام عيد كبير
عاد من مصر يوسف والى يعـ   ـقوب بالتهنئات جاء البشير
فلأيوب من اياب صلاح الد   ين يوم به تُوفّى النذور
ولكم عودة الى مصر بالنصـ   ـر على ذكرها تمر العصور
فاستردوا حق الإمامة ممّن   خان فيها فإنه مستعير
وافترعها بكرا لها في مدى الدهـ   ـر رواح في مدحكم وبكور ... الخ(١)

وقال في وصف دمشق ومدح صلاح الدين :

مطلعها :

أجيران جيرون مالي مجير   سوى عدلكم فأعدلوا أو فجوروا

ومنها :

وكم قد غلت جنود الفرنج   بحد اعتزام شباه طرير
بضرب تحذف منه الرؤوس   وطعن تخسف منه النحور
وغادرت غادرهم بالعراء   ومن دمه كل قطار غدير
يجرد عليها رجال الهياج   كأنّ صقورا عليها صقور
من الترك عند بابيسها   صحاح الطلى والهوادي كسور
سهام كنائنها الطائرات   لهن قلوب الاعادي وكور
رعيتهم مثل صيد الصوار   اذا حاولوا الفتح صيدا وصور
بجيشك أزعجت جأش العدو   فما نفر منه الا نفور
تركت مصارع للمشركين   بطون القشاعم فيها قبور
تزاحم فرسانها الضاريات   فتصدر فيها النسور النسور
وان تولد بكر الفتوح   اذا ضربت بالذكور الذكور ... الخ(٢)

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٧٢ والخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ص ٣٦
(٢) الخريدة ، بداية قسم شعراء الشام ١٩ ــ ٢٩

وقال يمدح صلاح الدين ويهنّيه بمصر :

أيا يوسف الاحسان والحسن ، خير من … حوى الفضل والافضال والنهي والامرا
ومن للهدى وجه النجاح برأيه … تجلّى ، ونشر النصر من عزمه افترّا
حمى حوزة الدين الحنيف بحوزه … من الخالق الحسنى ومن خلقه الشكرا
أبوه أبي الآلاء ، وعمّه … بمعروفه عمّ الورى : البدو والحضرا
وطال الملوك شيركوه بطوله … وما شاركوه في العلا فحوى الفخرا
بنو الاصفر الافرنج لاقوا ببيضه … وسمر عواليه منايا همُ حمرا
وما أبيضّ يوم النصر واخضر روضه … من الخصب حتى اسودّ بالنقع واغبرا
رأى النصر في تقوى الإله ، وكل من … تقوّى بتقوى الله لا يعدم النصرا
ولما رأى الدنيا بعين ملالة … أغذّ من الاولى مسيرا الى الاخرى
وقام صلاح الدين بالملك كافلا … وكيف ترى شمس الضحى تخلف البدرا
ولما صبت مصر الى عصر يوسف … أعاد اليها الله يوسف والعصرا
فاجرى بها من راحتيه بجوده … بحارا ، فسماها الورى أغلا عشرا
هزمتم جنود المشركين برعبكم … فلم يلبثوا خوفا ولم يمكثوا ذعرا
وفرّقتمُ من حول مصر جموعهم … بكسر ، وقاد الكسر من أهلها جبرا
وأمنتم فيها الرعايا بعدلكم … وأطفأتمُ من شر شاورها الجمرا
بسفك دم حطتم دماء كثيرة … وحزتم بما أبديتم الحمد والشكرا
وما يرتوي الاسلام حتى تغادروا … لكم من دماء الغادرين بها غُدْرا
فصبوا على الإفرنج سوط عذابها … بأن تقسموا ما بينها القتل والاسرا
ولا تهملوا البيت المقدس ، واعزموا … على فتحه غازين ، وافترعوا البكرا
تديمون بالمعروف طيّب ذكركم … وما الملك الا أن تديموا لكم ذكرا
وانّ الذي أثرى من المال مقتر … وإنْ يغنه في كسب محمدةٍ أثرى (١)

وقال في إعلان الخلافة العباسية بمصر :

وأقمنا بها شعار بني العباس ، فاستبشرت وجوه النصر
وتركنا الدعيّ يدعو ثبورا … وهو بالذل تحت حجر وحصر
وتباهت منابر الدين بالخطبة للهاشميّ في أرض مصر
ولدينا تضاعفت نعم الله ، وجلّت عن كل عدّ وحصر
فاغتدى الدين ثابت الركن في مصر ، محوطَ الحمى ، مصونَ الثغر
واستنارت عزائم الملك العادل نور الدين الكريم الأغرّ
وبنو الأصفر التوامس منه … بوجوه من المخافة صفر
عرف الحق أهل مصر ، وكانوا … قبله بين منكر ومقرّ

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٥٤ وعقد الجمان جـ ١٢ ق ٢ ورقة ٤٣٩

قل لداعي الدعي : حسبك فاللـ … ـه أقرّ الحقوق خير مقرّ

هو فتح بكر ودون البرايا … خصّنا الله بافتراع البكر

وحصلنا بالحمد والأجر والنصـ … ـر وطيب الثنا وحسن الذكر

ونشرنا أعلامنا السودَ قهراً … للعدى الزرق بالمنايا الحمر

واستردنا من أدعياء حقوقا … تدّعي بينهم لزيدٍ وعمرو

والذي يدّعي الامامة بالقا … هرة انحطّ في حضيض القهر

خانه الدهر في مناه ولا يطـ … ـمع ذو اللب في وفاء الدهر

ما يقام الامام الا بحق … ما تُحاز الحسناء الا بمهر

خلفاء الهدى سراة بني العبـ … ـاس والطيبون أهل الطهر

بهم الدين ظاهر مستقيم … الأمر قوة قويّ الظهر

كشموس الضحى كمثل بدور التـ … ـمّ كالسحب كالنجوم الزهر

قد بلغنا بالصبر كل مراد … وبلوغ المراد عقبى الصبر

ليس تثرى الرجال من ملك الما … ل ولكنما أخو اللب مثري

ولهذا لم يقتنع صاحب القصـ … ـر وقد شارف الدثور بدثر

دام نصر الهدى بملك بني العبـ … ـاس حتى يقوم يوم الحشر (١) .

وقال في تهنئة نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح اسماعيل يوم عيد الفطر سنة ٥٦٦ :

عيدان : فطر وطهر … فتح قريب ونصر

كلاهما لك فيه … حقا هناء وأجر

ومنهـا :

يا أعظم الناس قدراً … وهل لغيرك قدر

وساهراً حين ناموا … وقائماً حين قرّوا

ما أنفقت الاوقاء … وعادة القوم غدر

وفعلك الدهر غزو … المشركين وقهر

وفعل غيرك ظلم … للمسلمين وقسر

يفترّ من كل ثغر … الى ابتسامك ثغر

فروم به وفرنج … في شغلهم لك وتر

حرب توان وتخيم … على مرادك بكر

بنصر الاصاغر من خشـ … ـية انتقامك صغر

لم يبق للكفر ظفر … لأكان للكفر ظفر

وما دجى ليل خطب … الاّ وعزمك فجر

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٠٢

أصبحت بالنصر عبتسا … وعنصره مالك عبير
أكسر كل يتيم … أسماك برّاه جبير
في كل قلب جسود … من حرّ باسه جير
تلك تطهير طالك … له الملوك تخرّ
يزهى سرير وتاج … به ود سمتا وصدر
وكيف يحل للطسا … در المطهّر طهر
هذا الظهور ظهور … على الزمان وأمر
وذا الفتان ختام … بمسكه طاب نشر
رزقت عمرا طويلا … ما دام لك دهر دهر (١)

وقال في فتوحات صلاح الدين سنة ٥٨٣ :

في باطن الغيب ما لا تدرك الفكرُ … فذو البصيرة في الأحداث يعتبر
مالي أرى ملك الافرنج في تنسٍ … أين القواضب والعسّالة السمر
والاستنار إلى الداوية التاسوا … كأنهم سد ياجوج إذا استجروا
والنفس مولعة عجبا بسيرتها … وفي المقادير ما تسلي به العبر
يا وقعة التل ما أبقيت من عجب … بحائل لم يفت من جمعها بشر
ويا فتوح السبت ما للقوم قد سبتوا … تهودوا أبكار الطعن قد سكروا
ويا صريع شعيب ما لهم جثموا … كمديَن أم لقوا رجفا بما كفروا
حلّوا بحطين ملكا كانوا عجبا … في ساعة زال ذاك الملك والقدر
أضحى اليوم صلاح الدين مفترسا … وهو المظفر أعدى ظفره الظفر
أملى عليهم فصاروا وسط كفته … كسرب طير حواها القانص الذكر
وأنجز الله السلطان موعده … ونفده في كفور دينه البطر
ونابن الملك الإبرنس في دمه … فمات حيا ونحيّ وهو يحتضر
رأى مليكا ملوك الأرض تتبعه … والنجم يخدمه والشمس والقمر
إذا بدا تبهر الأعيان هيبته … ويختفي وهو في الأذهان مشتهر
تقدم الجيل في أخرى الزمان به … على صدور على من قبلنا صدروا
أما رأيتم فتوح القادسية في … أكنان لوبية تجلى وذا عمر
والحق يصرع والطغيان منتصب … والكفر يطمس والايمان مزدهر
هذا المليك الذي بشرى النبيّ به … في فتنة البغي للاسلام ينتصر
أنسى ملاحم ذي القرنين واعترفت … له الرواة بما لم ينوه أثر
وصنع ذي المرش إبداع بلا سيف … فلا تقل : كيف هذا الحادث الخطر
بينا سباياه تجلى في دمشق إذا … ملك الفرنج من الاتراك متجر
ازاءه زعماء الساحلين معا … مصفدين بحبل القهر قد أسروا

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٥٧٩

يتلوهم صلبوت سيق منتكساً … وحوله كل قسّيس له زبر
ونحن في ذا وذا طير صحيفته … بفتح عكا التي سدّت بها الثغر
تغزو أساطيلنا منها صقلية … فتذعر الروم والصقلاب والخزر
من ذا يقول لمن القدس منفتح … اليك بل سفر يعقوب له السفر
أبو المظفر ينويها فخذ سفناً … من باب عكا الى طرطوس تنتشر
يسبي فرنجة من أقطارها ولـه … مع المجوس حروب قدحها سعر
ويمض ابنائه بالقدس منتدب … ويمضهم رومة الكبرى له وطر
براية تخرق الارض الكبيرة في … جمع تقول له الاحسام لا وزر
قالوا أطلت مديحا فيه قلت كما … بدأت فالصبّ للمحبوب مذكر (١)

وقال فيه بعد ان أخذ حصن غراز وقطع بين الحلبيين وبين الفرنج الجواز:

أعطاه رب العالمين دولـة … عزة أهل الدين في اعزازها
حاز العلا ببأسه وجوده … وهو أحقّ الخلق باحتيازها
بجدّه أفنى كنوزاً غنيَ المـلوك في الجدّ على اكتنازها
مهلك أهل الشرك طراً : رومها … أرضها ، افرنجها ، انجازها
تفاخر الاسلام من سلطانه … تفاخر الفرس بأبراوازها
تهنّ من فتح عزاز نصرة … أوقعت السداة في اعتزازها
واليوم قد لتّ حلب ، فانها … كانت تنال العز من عزازها
وحلب تنبي كمشتكينها … كما انتفت بغداد من قيمازها
برزت في نصر الهدى بحجة … وضوح نهج الحق في ابرازها
كم عاطل للرمح عاد مديها … عجز عجوز الحي عن عكازها
ارض خطوطي من حضيض نقصها … وعد عن شطازها لمازها
والشعر لا بد له من باعث … كحاجة الخيل الى مهمازها (٢)

وقال يمدح تقي الدين عمر سنة ٥٨٢ بقصيدة تشتمل على مائة وأربعين بيتاً مطلعها :

عفا الله عنكم عن ذوي الشوق نفّسوا … فقد تلفت منا قلوبٌ وأنفس

ومنها :

رددت كراديس الفرنج وكلهم … لدى الأسر في غلّ الصغار مكردس
وبيّضت وجه الدين يوم لقيتهم … وأبيضكم من أسود القصر أشوس
أباد دم الأنجاس طهر سيوفكم … وما يستفاد الطهر لولا التنجّس
شموس ظبى تغدو لها الهام سجّداً … فللنصرانيّة تتمجّس

---

(١) الروضتين ٢/١١٦

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٥٢

وكم كفيَ الاسلام سوءاً بملككم … كفيتم على رغم المعادين كل سو
ولا يفتح البيت المقدس غيركم … وبيتكم من كل عاب مقدس
لكم كل يوم في جهاد مثلث … اذا نصروا التوحيد في مخمس
اذا ما تقي الدين صال تساقطت … لأقدامه من عصبة الشرك أروس
وما عمر الاشبية سميه … شديد على الاعداء ثبت عمرس (١)

وقال في يوم حطين والقدس :

يا يوم حطين والأبطال عابسة … وبالعجاجة وجه الشمس قد عبسا
رأيت فيه عظيم الكفر محتقرا … معفرا خده والانف قد تعسا
يا طهر سيف برى رأس البرنس فقد … أصاب أعظم من بالشرك قد نجسا
وغاص اذ طار ذاك الرأس في دمه … كأنه ضفدع في الماء قد غطسا
ما زال يعطس مزكوما بغدرته … والقتل تشميت من بالغدر قد عطسا
عرّى ظباه من الأغماد مهرقة … دما من الشرك ردّاها به وكسا
من سيفه في دماء القوم منغمس … من كل من لم يزل في الكفر منغمسا
أفناهمُ قتلهم والأسر فانتكسوا … وبيت كفرهمُ من خبثهم كنسا

ومنها :

قل للمليك صلاح الدين أكرم من … يمشي على الارض أو من يركب الفرسا
من بعد فتحك بيت القدس ليس سوى … صور فإنْ فتحت فاقصد طرابلسا
أثر على يوم انطرسوس ذا لجب … وابعث الى ليل أنطاقية العسسا
وأخل ساحل هذا الشام أجمعه … من العداة ومن في دينه وكسا
ولا تدع منهمُ نفسا ولا نفسا … فانهم يأخذون النفس والنفسا
نزلت بالقدس فاستفتحته ومتى … تقصد طرابلسا فانزل على قدسا (٢)

وقال في تهنئة صلاح الدين بفتح القدس وغيرها سنة ٥٨٣ : مطلعها :

أطيبُ بأنفاس تطيب لكم نفسا … وتعتاض من ذكراكم وحشتي أنسا

ومنها :

رأيت صلاح الدين أفضل من غدا … وأشرف من أضحى وأكرم من أمسى
وقيل لنا في الارض سبعة أبحر … ولسنا نرى إلا أنامله الخمسا
سجيته الحسنى وشيمته الرضى … وبطشته الكبرى وعزمته القعسى

(١) الروضتين ٢ / ٧١
(٢) الروضتين ج ٢ ص ٨٣ ، ١٠٢

فلا عدمت أيامنا منه مشرقا ... ينير بما يولي ليالينا الدمسا
جنودك أملاك السماء وظنهم ... عداك جن الأرض في الفتك لا الإنسا
فلم يمتدح بالقدس غيرك في الورى ... **فأنت الذى من دونهم فتح القدسا**
ومن قبل فتح القدس كنت مقدسا ... فلا عدمت أخلاقك الطهر والقدسا
وطهرته من رجسهم بدمائهم ... فأذهبت بالرجس الذى ذهب الرجسا
نزعت لباس الكفر عن قدس أرضها ... وألبستها الدين **الذى كشف اللبسا**
وعادت ببيت الله أحكام دينه ... فلا بطركا أبقيت فيها ولا قسا
وقد شاع في الآفاق عنك بشارة ... بأن أذان القدس قد بطل القدسا
جرى بالذى تهوى القضاء وظاهرت ... ملائكة الرحمن أجنادك الحمسا

. . . .

وقد طاب ريانا على طبرية ... فيا طيبها مغنى ويا حسنها مرسى
وعكا وما عكا فقد كان فتحها ... لإجلائهم عن مدن ساحلهم كنسا
وصيدا وبيروت وتبنين كلها ... بسيفك ألقى أنفه الرغم والتعسا
ويافا وأرسوف وتبنى وغزة ... تخذت بها بين الطلى والظبى عرسا
وفي عسقلان الكفر ذل بملككم ... فمنظره بل أمره أربد وارجسا
وصار بصور عصبة يرقبونكم ... فلا تبطئوا عنها وحثوهم حسا
توكل على الله الذى لك أصبحت ... كلاءته ورعاً وعصمته ترسا
ودمر على الباقين واجتث أصلهم ... فإنك قد صيرت دينارهم فلسا
ولا تنس شرق الشرق غربك غربيا ... بماء الطلى من صاديات الظبى الخمسا
وإن بلاد الشرق مظلمة فخذ ... خراسان والنهرين والترك والفرسا
وبعد الفرنج الكرلي فاقصد بلادهم ... بعزمك واملأ من دمائهم الرمسا
أقامت بغاب الساحلين جنودكم ... وقد طردت عنه ذئابهم الطلسا

ومنها :

صحبت على الأردن ردنا من القنا ... ردينية ملدا وخطية ملسا
حططت على حطين قدر ملوكهم ... ولم تبق من أجناس كفرهم جنسا
ونعم مجال الخيل حطين لم تكن ... معاركها للجرد ضرسا ولا دهسا
غداة أسود الحرب معتقلوا القنا ... أساود تبغي من نحور العدى نهسا
أتوا عكس الآمال خشنا فلينت ... حدود الرقاق الخشن أخلاقها الشكسا
طردتهم في الملتقى وعكستهم ... مجيداً بحكم السيف طردك والعكسا
فكيف عكست المشركين رؤوسهم ... ودأبك في الإحسان أن تطلق العكسا
كسبتهم إذ صح عزمك فيهم ... ونكستهم إذ صار جمعهم نكسا
بواقعة رجت بها الأرض جيشهم ... دمارا كما بست جبالهم بسا
يظلون ذئاب الأرض صارت قبورهم ... ولم ترض أرض أن تكون لهم رمسا
وطارت على نار المواضي فراشهم ... ضلالا فزادت من خمودهم قبسا

وقد خشعت أصوات أبطالها فما ... يقي السمع إلا من صليل الظبى همسا
تقاد بدأماء الدماء ملوكهم ... أسارى كسفن اليم خطّت بها القلسا
سبايا بلاد الله مملوءة بهم ... وقد شُريت بخسا وقد عرضت نخسا
يُطاف بها الأسواق لا راغب لها ... لكثرتها كم كثرة توجب الوكسا
شكا يبسا رأس البرنس الذي بسه ... تندّى حسام حاسم ذلك اليبسا
حسا دمه ماضي الغرار لفقده ... وما كان لولا غدره دمه يحسى
فلله ما أهدى يدا فتكت به ... وأطهر سيفا بعدما رجسه النجسا
نسفتَ به رأس البرنس بضربة ... فأشبه راسي رأسه العهنَ والبرسا
تبوّغ في أوداجه دم بغيه ... فصال عليه السيف يلحسه لحسا
بعثت أمام أمة النار نحوها ... فزار أمام ارناطها ذلك الحبسا
ولله نصر النصر جاء لنصله ... فلا قونسا أبقى لرأس ولا قنسا
حكى عنق الداويّ صلّ بضربة ... طرير الشبا عودا لمضرابه حسّا
أيوم وغى تدعوه أم يوم نائل ... وأنت وهبت الغانمين به الخمسا (١)

وقال يمدح صلاح الدين :

سواك لمهم البلاد لن يريشا ... فنال ربّ البلاد أن تعيشا
من الناس بالبرّصدتَ الكرام ... وبالبأس في البرّصدتَ الوحوشا
وكسرتَ من مصر نحو العريش ... فهدّمت للمشركين العروشا
سرايا انبعثت قدّامها ... من الرعب نحو الأعادي جيوشا
ويوم حماة تركت العداة ... كما طيرتْ بالفلاة الريحُ ريشا (٢)

وقال في تهنئة صلاح الدين بالنصر في دمياط سنة ٥٦٥ :

يا يوسف الحسن والإحسان يا ملكا ... بجدّه صاعداً أعداؤه هبطوا
حللت من ومحل العلياء في شرف ... ومركز الشمس من أفلاكها الوسط
هنيت صونك دمياط التي اجتمعت ... لها الفرنج فما حلوا ولا ربطوا
مصر بيوسفها أضحت مشرّفة ... وكل أمر لها بالعدل منضبط
وحين وافى صلاح الدين أصلحها ... فللمصالح من أيامه نمط (٣)

---

(١) الروضتين ج٢ / ١٠١ ، ٨٣ وأنظر عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقه ٥٠ ــ ٥١
(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٤٣
(٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦١ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ٣ ورقه ٤٥٨

وقال في صلاح الدين قصيدة طويلة مطلعها :

عفا الله عنكم ، ما لكم أيها الرهط ... قسطتم ، ومن قلب المحب لكم قسط

ومنها :

لتبك دما عين العدو فقد جرى ... على الأرض من أوداجه دمه السبط
منعت حمى الاسلام للنصر محاميا ... غداة عوت من دونه الأذوب المعط
وصلت وكم فرجت عنا ملمة ... بسهم الرزايا في الكرام لها لغط
بعودك عاد الحق واتضح الهدى ... وهب نسيم النصر وانقرض الضغط
وأنت أجرت الشام من شؤم جاره ... ولم يكف رهط الكفر حتى بغى رهط
أجرت وقد جاروا ودنت وقد عدوا ... وصلت وقد خاروا ولنت وقد لطوا
فلا يحبأ المولى بمن ملء جاشه ... هوى وبقوم حشو جيشهم زط
كثير تعديهم ، قليل غناؤهم ... وهم لا أصابوا رشدهم رهط رهط
عدلت فلا ظلم ، وطلت فلا مدى ... وقلت فلا مين ، وجدت فلا قحط
....
فدم ظافرا أبا المظفر بالعدى ... حليف قبول لا يكون لها حبط
بقيت ولا زلت عداك خيدة ... سمودا ولا تضمر صمودا ولا هبط
ولو كنت جارا للمعري لم يقل ... لمن جيرة سيموا النوال فلم ينطوا (١)

وقال في تهنئة نور الدين بفتح تلمقجمبر سنة ٥٦٤ :

اسلم لبكر الفتوح مفترعا ... ودم لملك البلاد منتزعا
فإن أولى الورى بها ملك ... غدا بصبه الخطوب مضطلعا
ان ضاق أمر فغير همته ... لكشف ضيق الامور لن يسعا
يا محيي العدل بعد ميتته ... ورافع الحق بعد ما اتضعا
ونور دين الهدى الذي قمع الشـ ... ـهرك ، وعفى الضلال والبدعا
أنت سليمان في العفاف وفي الـ ... ـملك ، وتحكي بزهدك اليسعا
حزت البقا ، والحياء والكرم الـ ... ـمحض ، وحسن اليقين ، والورعا
.... الخ (٢)

وقال يمدح صلاح الدين سنة ٥٧٢ :

فديتك من ظالم منصف ... وناهيك من باخل مسرف
أيبلغ دهري تعدي وقد ... قصدت بمصر ذرا يوسف
ويوسف مصر بغير التقى ... وبذل الصنائع لم يوصف

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج ١ ص ٢٥ ـ ٣١ وانظر الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٦٣٦
(٢) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٣٨٧

فسر وافتح القدس واسفك بـــــــه دماؤمتى تجرها ينظـــــــف
وأعمد الى الإسبتار البتــــــا زوبـدّ السقوف على الأسقـــــف
وخلّص من الكفر تلـك البـــــلاد يخلّصك الله في الموقـــــف (١)

وقال يمدح صلاح الدين بقصيدة طويلة مطلعهـــا :

يروقني في المها مهفهفهـــــا ومن قدود الحســـان أهيفهـــا

ومنهـــا :

كم جحفـل بالعراء ذى لجـــــب بالصف منه يضيق صفصفـــها
كالبحر طامي العبـاب لاجبـــــة بوجهه للريـاح أعصفهـــا
كتيبة منتضى مهنّد ـــــــــا الى الردى مشرّ مثقفهـــا
غادرتها للنسور مأكلـــــــة حيث بأشلائها تضيّفهـــا
منتصفا من رؤوس طاغيـــــة بباترات الظبى تنصفهـــا
وحطت دمياط إذ أحاط بهـــا من برجوم البلاد يقذفهـــا
لاقت غواة الفرنج خيبتهـــا تزاد من حسرة تأسفهـــا
فرّ فريّقها وأزعجهـــا نداء داويّها تلهفهـــا
يمطر طارانها العذاب كمـــا يودى بهدّ السقوف أسقفهـــا
تكبرّ صلبانها وتنكسهـــا من القنا للدماء تنزفهـــا
وليتها سفكها فحاملهـــا عاملها والسنان مشرفهـــا
تمسكت نحوك الطريق فمـــا أجدى سوى ملكها تعسفهـــا
وحسبها في الحمى تهافتهـــا بل لسهام الردى تهدفهـــا
يمضي لك الله في قتالهــــم عزيمة للجهاد ترعفهـــا

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ١٩٦ ، وانظر مفرج الكروب ٢/٥٧

ان أظلمت سدفة أنزت لهـــا / أبهى ليالي البدور بعد فهمـــا
بشائر الدين في إزالتـــه / قواعد الله ليس يخلفها ... الخ (١)

وقال يمدح الملك الظاهر غـــازي :

هم الملوك ذوو بأس ومكرمـــة / إن سالموا أمنوا أو حاربوا خيفـــوا
أغناهم التدبير عن قول الورى فتحت / عكا وصيدا وبيروت وأرسـوف
جيش الفرنج إذا لاقى سوابقهم / كأنه جبل بالريح منسـوف (٢)

وله في صلاح الدين :

يا لملك الناصر استنـــارت / في عصرنا أوجهُ الفضائـل
عليّ من حقه فسـرورٌ / شكرا لما جاد من نوائـل
يوسف مصر الذي اليـه / تشدّ آمالنا الرواحـل
أجريت نيلين في ثراهـا : / نيل نجيع ونيـل نائـل

ومنهـا :

يا مخجل البحر بالأيـادي / قد آن أن تفتح السواحـل
فقدّس القدس من خبـائث / أرجاس كفر غثمٍ أراذل (٣)

وقال يمدح نور الدين ويهنئه بملك مصـر :

بملك مصر أهنّي مالك الأمـم / فاسعدْ وأبشرْ بنصر الله عن أمـم
أضحى بعدلك شمل الملك ملتئمـا / وهل يعدّ لك شيءٌ غير ملتئـم
يا فاعل الخير عن طبع بلا كلـف / وتوليَ العرف عن خلق بلا سـأم
رواقها ثلم ثغر الكفر تحجمـه / لا لثم ثغر شنيب واضح شبـم
لله درك نور الدين من ملـك / بالحزم مفتتح بالنصر مختتـم
آثار عزمك في الاسلام واضحـة / وسره لك باد غير مكتتـم
بما من العدل والإحسان تنشـره / تثنى ربك ذنوب المذنب الاثـم
أوردت مصر خيول النصر عاديـة / تثني الأعنّة إقداماً على اللجـم
فأقبلتْ في سحاب من ذوابلهـا / وقضبها بدماء الهام منسجـم

---

(١) الخريدة قسم شعراء مصر ج ١ ص ٩ ـ ١٢ وانظر الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٦١
(٢) الروضتين ٢ / ١٠٧
(٣) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٥٢

تمكّن الرعب في قلب العدوّ بها … تمكن النار بالإحراق في الفحم
سرت لتقطع ما للكفر من سبب … واه، وتوصل ما للدين من رحم
مستسهلات وعور الطرق في طلب العـ … ـلياء، مقتحمات أصعب القحم
وجاعلات من الإفرنج غلّهم … والقيد في موضع الأطواق والحزم
لقد شفت غلة الإسلام وانتقمت … من العدو بحدّ الصارم الحذم
أطاعها الله في إطفاء جمر أذى … من شر شاور في الإسلام مضطرم
وأصبحت بك مصر بعد خيفتها … للأمن والعز والإقبال كالحرم
والسنّة اتسقت، والبدعة انمحقت … وعاودت دولة الإحسان والكرم
ملوكها إذ صاروا أعبدا، وغدا … بها عبيدك أملاكا ذوي حشم
أنبت عنك بها قرما ينوب بها … في البأس عن عنترة في الجود عن هرم
لله درك نور الدين من ملك … عدل لحفظ أمور الدين ملتزم
كانت ولاية مصر قبل عزتها … بكشف دولتها لحما على وضم
فالنيل ملتطم، جار على خجل … جارا لبحر نوال منك ملتطم
أغز الفرنج، فهذا وقت غزوهم … واحطم جموعهم بالذابل الحطم
وطهّر القدس من رجس الصليب وشبْ … على البنيات وثوب الأجدل القطم
فملك مصر وملك الشام قد نظما … في عقد عزّ من الإسلام منتظم
محمود، الملك الغازي، يسوسهما … بالفضل، والعدل، والأفضال والنعم
بالشكر كل لسان ناطق أبدا … محمودٌ الملك محمود بكل فم
فاشك مصرَ وأظهرْ عز سنتها … كم تقتفي، وإلى كم تشتكي، وكم (١)

وقال حين علم بوفاة العاضد الفاطمي سنة ٥٦٧ :

توفّي العاضد الدعيّ، فما … يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى، وغدا … يوسفها في الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة، وقد … باخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئما … بها، وعقد السداد منتظما
لما غدا معلنا شعار بني العـ … ـباس حقا، والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد منتصرا … ومن دعاة الإشراك منتقما
وظل أهل الضلال في ظلل … داجية من غيابة وعمى
وارتبك الجاهلون في ظلم … لما أضاءت منابر العلما
وعاد بالمستضيء مجتهدا … بناء حق قد كان منهدما
واعتلت الدولة التي اضطهدت … وانتصر الدين بعد ما اهتضما
واهتز عطف الإسلام من جذل … وافترّ ثغر الإيمان وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحا … فليقرع الكفر سنّه ندما

---

(١) الروضتين ج ١ ق ٢ ص ٤٤٣

عاد حريم الاعداء منتهك الحمى ، وفيء الطغاة مقتسما

قصور أهل القصور أخربها ... عامر بيت من الكمال سما

أزعج بعد السكون ساكنها ... ومات ذلا وأنفه رغما (١)

وقال مهنئا السلطان صلاح الدين بفتح بعلبك :

بفتوح عصرك يفخر الإسلام ... وبنور نصرك تشرق الأيام

وبفتح قلعة بعلبك تهذبت ... هذي الممالك واستقام الشام

يبكي الحسود دما ، ويضحك الثغر ، من ... فرح بنصرك للهدى بسام

نفس تسنى في الصيام ، كأننا ... شكرا لما منح الإله صيام

من ذا رأى في الصوم عيد سعادة ... حلت لنا والفطر فيه حرام

أسدى صلاح الدين والدنيا يدا ... بنوا لها سوق الرجاء تقام

فتمم فتحك ، واقصد الفتح الذي ... بحصوله لفتوحك الإتمام

دم للعلا حتى يدوم نظامها ... وأسلم يعز بنصرك الاسلام (٢)

وقال يمدح السلطان سنة ٥٦٨ بقصيدة تنيف على مائة بيت منها :

أرى الراية الصفراء يرمي اصطفاقها ... بني أصفر بالراعفات اللهاذم

فتسبي فلسطينا وتجبي جزائرا ... وتملك من يونان أرض الاعاجم

وتصفو لها الاملاك شرقا ومغربا ... بذا حكمت حذاق أهل الملاحم (٣)

وقال يهنئه بالعافية سنة ٥٨٢ وهو على حمص :

فيا ملكا لم يبق للدين غيره ... وقد عمد الاسلام فاشد و لها دعما

تشوم فريق الشرك في الشام طائر ... فقص جناحيه بأقصى القوى قصما

تحصنت بتمكين تمت المدى ردى ... فأنهم يأجوج أفرزتها ردما

اذا صفرت من آل الاصفر ساحة الـ .... مقدس ضاهت فتح أم القرى قدما

فذا المسجد الاقصى وهمتك الملمى ... وعزمتك القصوى ورميتك الصما

فما هو إلا أن تهم وقد أتت ... فتوح كما فاض الخضم الذي طما

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٩٦ وأنظر البداية والنهاية ١٢/ ٢٦٥

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٦٣١

(٣) المصدر السابق ٢/ ١١٦

وأزارها الضلالة الضـل الـــــــذي   أهدى لهـــم شللا الى الأذهــــان
ولّى وجوهـهم سواد وجوههــــــم   نحو السواد ، وآذنوا بهـــــــوان

ومنها يذكـــر القـــادة :

حملتْ عليهم من جنودك فتيـــــــةٌ   لم تـــدرِ غير حمية الفتيـــــــان
زخرت بهم أمواج آجلهِ في الوغـــــى   غزوا وطمَّ بهم عباب " طمـــــان "
وتذ ممــوا من حرِّ بأس " محمـــــد "   وتهيوا الحملات مـــن " عثمـــان "
وسيف " جرديك " المجرد غـــودروا   بدماء أهل الغدر في غـــــدران
وحين دولتك الذى تدّمتـــــــه   فقئت عيون الكفر والكفـــــران
واليارقية أرتقتهمْ فـــي الدجـــــى   بسهام كل حنيـــة مرنـــــان
أجفانهم نفت الغرار كما انتفـــــى   ماضي الغرار بهم من الأجفــــان
بحلوا معسكر بحابك وأبصـــــروا   من جند بصرى بَشَرٌ كل جمـــران
وكأنما الأكـراد فوق جياد هـــــــا   عقبان ملحمة على عقبـــــان
ولطالما صبرت علـى نصر الهـــدى   أنصارك الابدال مـــن مهـــران
لـم يترك الاتراك فيهم غايـــــة   بالفتك والارهـاق والإثخـــان
من كل رامٍ سهمـه من وهمـــــه   أهدى الى أنسان عين الرانــــي
ولك المماليك الذين بهم غنـــت   أملاك مصر لمالكـــي بغـــدان
هم كالصحابة يـوم بـدر حاولـــوا   نصر النبـي ، ونبّتٌ عن حســـان
الحائزون من السباق خصالـــــه   في ملتقى حرب ، وفي ميــــدان
من كل مبسوط اليديـــن يمينـــه   ما تعتلي إلا بقبـــض يمـــــان

ومنها في تصيقمن حضــر من الفرنج الملاعـــين خذ لهم الله تعالى :

لمـا رأى الداوي راونــــــــداه   ولّى بطاعونٍ بخـــير طعــــان
طلب الفريري الفرارَ بطالهــــــــه   متباعدا من ملكه المتدانـــــي
والهنفرى مذ هان فرّ مؤمـــــــلا   لسلامةٍ ، والهون شأن الشانـــي
باروا نبارونيهم بفناثـــــــــه   مودٍ ، وسيوفهمْ أسيرُ عـــــان

ومنها وصف ما اعتمده نور الدين في ذلك اليوم ، حيث أنفذ سرية الى بلاد القـــوم فأحرقت ونهبت ،وكبست أهلها وكسبت ، وذلك من طريق مخاضة الاحزان :

أخلوا بلادهمُ فحلّ بأهلهـــــــا   منك الغداة طوارق الحدثـــان
أنهضت ، حين خلتْ ، اليها عسكـرا   أخلى قواعدها من البنيــــان
وشغلت جاشهم بجيشٍ هدّهـــــم   فجنى ثمار النصرة الجيشـــان

وملأت بالنيران أربع أهلها ... فتعجلوا الاحراق بالنيران
عادوا وحين رأوا خراب بيوتهم ... يئسوا من الأوطار والأوطان
باءوا بأحزان وخاضوا هولها ... مما لقوا بمخاضة الاحزان
وقد استفاد المشركون تمازيا ... والمسلمون تهاديا بتهان
لم تلقهم ثقة بقوة شوكة ... لكن وثقت بنصرة الرحمن

ومنها :

دانت لك الدنيا فقاصيها إذا ... حققته لنفاذ أمرك دان
من العراق الى الشام الى ذرى ... مصر الى قوص الى أسوان
لم تله عن باقي البلاد وانما ... ألهاك فرض الغزو عن همذان
أذعنت لله المهيمن إذ عنت ... لك أوجه الاملاك بالاذعان
أنت الذي دون الملوك وجدته ... ملآن من عرف ومن عرفان
عمران عدلك للبلاد كأنما ... قد عاش في أيامك العمران
خلدت في الآفاق ذكرا باقيا ... أبد الزمان بهذل مال فان (١)

وقال يمدح الملك المظفر تقي الدين عمر لما أبداه من شجاعة يوم معركة الرملة سنة ٥٧٣ منها :

بنو أيوب مثل قريش مجدا ... وأنت لها كأنزعها البطين
ويوم الرملة المرهوب بأسا ... تركت الشرك منزعج الوتين
وكنت لعسكر الاسلام كهفا ... أوى منه الى حصن حصين
وقد عرف الفرنج سطاك لما ... رأوا آثارها عين اليقين
وأنت ثبت دون الدين تحمي ... حماه أوان ولى كل دين (٢)

---

(١) الخريدة ، بداية قسم الشام ٥٣ ، والروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٥٢٩

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٧٠٣

قال يمدح الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة مطلعها :

أمن اللواحظ أن يفوّق أسهمــــــا   ريم برامةَ طارق حتى رمــــــى

ومنهــــا :

كم بلدة للمشركين بناؤهـــــــــا   بسطاه في يوم المنار تهدمــــــا
وشننتَ منتقماً بساحل بحرهـــــــا   جيشاً حكى البحر الخضم عرمرمـــــا
أسدلت في الآفاق من هبواتــــــه   ليلاً وأطلعتَ الأسنّةَ أنجمـــــــا
وحميت أرض طلا الكماة براحـــــة   بني العجاج لنجم صارمها سمـــــا
وشدا لترقيص الجماجم صـــــارم   بلسانه كم شق من كلم فمـــــا
سيف هو النهر الذي في سيفــــه   تضحى نفوس بني الأصفر عوّمـــا (١)

---

(١) مفرج الكروب ٣/١٤٩ ـ ١٥٠ .

قال يمدح صاحب حماه الملك المنصور بقصيدة مطلعها :

المجد يدرك بالبسالة الذبل ... والمشرفية لا بالوعد والأمل

ومنها :

أسهرت عينك في كسب العلا ولكم ... من بات يسهرها في اللهو والجذل
جاهدت في الله طوعا والملوك غدوا ... يستهترون بذات الحلي والحلل
أغمدت بيض المواضي في الرقاب وقد ... حليت عاطلها ضرباً من القُلل
عاجلتهم بالمنايا والحتوف فلا تترك ... لهم آجالا يبقى الى أجل
فاكسر صليبهم عن سلب حصنهم ... وارفع لمجدك اعلاما على جبل
صفدهم عاجلا واجعل حصونهم ... سجونهم فهم في غاية الفشل (١)

---

(١) مفرج الكروب ٣ / ١٤٤ وانظر تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج ٢ ص ٢٥٢

نشو الدولة أحمد بن نفـــاذة الدمشقي =٦٠١

قال يمدح صلاح الدين بعد فتح حصن بيت الأُحزان :

هلاكُ الفرنج أتى عاجـــــــلاً ... وقد آن تكسير صلبانهـــــــا
ولو لم يكن قد دنا حتفهُــــــا ... لما عمــرت بيت أحزانهـــا (١)

---

(١) الروضتين جـ ٢ ص ١١ وانظر الكامل ١١ / ٤٥٧

قال في فتح يافا ، وذكر الهدنة مع ملك الانجليز قصيدة أولها :

الوقت أضيق من مجال قصيدة … موسومة لصفات أغيد أهيف
الجد في هذا الزمان مبين … والهزل فيه مع الغواية مختف
بالناصر المهدي والهادي السنـ … ـي سبل الجهاد أبي المظفر يوسف
المستنين بربه والواثق الـمنصور والمستظهر البر الوفي
هدت قوى أركان ملة أحمد … وتجملت بجهاده في الموقف
ملك اذا أمّ الملوك جنابه … لاذوا بأكرم من يؤم وأشرف
واذا أتوا أسرى الى أبوابه … وثنوا بأعظم من يصول وأرأف
دولى ه غدا للدين أكرم والد … حدب على أبنائه مترفرف
عزل الفرنجة ثم ولى جيشه … أعظم به من سارف ومصرف
قد أنصف التوحيد من تثليثهم … وأتاهم في الابيض حد المصحف
مغرى بتجريح الرجال لأنه … يروي أحاديث العوالي المرهف
ملك له في الحرب بحر تفقه … وله غداة السلم زهد تصوف
وعليما نزل في الجهاد مفصل … فلذاك يقرأه بصنعة أحرف
عزم وحلم أنسيا ما كان من … عزم ابن مرداس وحلم الأحنف
يا أيها الملك الذي لطباعه … وسيوفه خلقا رضى وتعسف
لله يوم عروبة اذ درست … ساحاته عن نصرك المتعرف
سنت سيوفك في الرؤوس ختانة … ذ شبت بمهجة كل علج أقلف
آثاتهم وانت بأخذك منهم … يافا فكم من حسرة وتأسف
أوما رأى الاعلاج حين دعوتها … بلسان سيف في الكريهة ملحف
لم تستطع عصيان أمرك بل أتت … منقادة طوعا ولم تتخلف
فاستدع جارتها وثن باختها … وكذاك حتى الاربعين ونيف
ما للسواحل غير بحرك حافظ … بشبا سنان أو بصفحة مرهف
هذا الطراز الاخضر استفتحته … فزهى بثوب من علاك مسجف
احييت دين محمد وأقمته … وسترته من بعد طول تكشف
وضبطت ديوان الجهاد بعامل … من عادل وبمشرف من مشرفي
وبجهبذ العزم الذي لا ينثني … وبنافذ الرأي الذي لم يطرف
فخذ الخراج من البسيطة كلها … وأستأد فرضي جزية ومولّف
واقبض على الدنيا بكف زهادة … وابسط لرحمتها جناح تعطف
جاءت جنود الله تطلب ثأرها … وصدور عادل عن قليل تشتفي
فانهض بها وتقاض حقك موقنا … ان الإله بما تؤمله حفي
من فتية الاتراك كل مدجج … يغشى الكريهة فوق كل مجفف
قوم يخوضون الحمام شجاعة … لا ينظرون اليمن طرف تخوف

ان صبّحوا الاعداء في أوطانهــــــم ... تركوا ديارهم كقاع صفصـــــف
أنتا صطفيتهم لنصرة دينــــــا ... لله در المصطفى والمصطفــــــي

ومنهــــا :

يا صاح قل للانكتير الكلـــــب دع ... عنك الجنون وخذ مقالة منصـــــف
القدس ما فيه لسرجك مطمــــــع ... كلا ولا نور الاله بمنطـــــــف
والمسجد الاقصى فمنه تقصــــــن ... وقع الدبابيس الاليمة تصـــــرف
واستفت نفسك فهي أخبث ناصـــــح ... واترك متابعة اللجاج المتلـــــف
واعجب لرمح بالرؤوس مثقــــــم ... واطرب لسيف بالدماء مغلـــــف
قد قلت لما قيل صلح قد جــــرى ... هذا حديث مخرف ومحـــــرف
سلف تولى السيف عقد شروطـــــه ... أحببْ به من مسلم ومسلـــــف
ثمنوه سلما ودنو في أرواحهـــــم ... سلمًا الى أجل لهم متخلـــــف (١)

---

(١) الروضتين ٢ / ٢٠٣ و ٢٠٤

وله فيه أيضاً :

يا منقذ القدس من أيدي جبابرة ... قد أقسموا بذراع الرب تقتلـه
فأكذبوا كذبهم في وصف ربهم ... وصدّق الوعد فأتونا محولـه
أما رأيت ابن أيوب استقل بما ... يسبي الزمان وأهليه تحملـه
دان الفرنج وقد خاروا المقتنه ... فاستنفروا كل مرهوب تذللـه
لما سبى القدس قالوا : كيف نتركها ... والرب في حفرة منها تمثلـه
كم مليك لهم شق البحار سرى ... لينصروا القبر ، والأقدار تخذلـه
وكم ترحل منهم فيلق بغلا ... الى الشوام ألقاه ترحّلـه
استقرضوا الأهل والصدوى تنزلهم ... واستكثروا المال والهيجا تقللـه
دم الفراق لهيب الحرب تسرعـه ... وكلما لجّ حد ما جلّ تقتلـه
سيف أهل فلسطين يرى أمما ... خلف البحار لقد أبهاه صيقلـه
كم قد أعدوا وكم قد فل جمعهم ... من غير ضرب ولا طعن يزيلـه
وإنما اسم صلاح الدين يذكر في ... جيش العدو فيسبيهم تخيلـه (١)

---

(١) الروضتين جـ ٢/١٥١

قال يمدح صلاح الدين عند فتح القدس بقصيدة منها :

أبا المظفّر أنت المجتبى لهدى … أضحى الزمان على خير بخبرته
فلو رآه وقد حزت العلى عمر … في تلة التل تقضي كنه عبرته
ولو رآك وأهل القدس في ولـه … أبو عبيدة فدّى من مسرته
غداة جزّوا النواصي ثم قاموا … وأعولوا بالتباكي حول صخرته
دارت بك الملة الحسنى فنحن على … عهد الصحابة في استمرار ملته
وأنت كأسعد صدّيق وصاحبه المـ … ـلك المظفر سام في مبرته
وفي الثلاثة عثمان يؤيده … علا علي على ايثار نصرته
وكم لديك ذوو قربى رقوا شرفا … وكم بعيد رأى الزلفى بهجرته
يشبه الفتح ما بين البزاة لقى … ملك الفرنج أخيذا بين عترته
أما رأيت معالي يوسف نسقت … حتى رمت كل ذي ملك بحسرته
أضحى لنصر الهدى في فتح منهجه … وبات يطوي العدى في مد شرته
واستتبع الرجس منوا بمشهده … فاستفتح القدس محشوا بزمرته
اكن بأس صلاح الدين أذهلهم … بوقعة التل واستشراء سورته
يحيي الجوانح والفرسان وهو على … بدء النشاط عشيا مثل بكرته
يا فاتح المسجد الاقصى علوت بهم … وقائم البيت لا يحصى بقترته
أبشر بملك كظهر الشمس مطلع … على البسيطة فتاح بنشرته
حتى يكون لهذا الدين ملحمة … تحكي النبوة في أيام فترته (١)

وله فيه من قصيدة طويلـة :

أبو المظفر حاوي كل مفتخر … بحلمه ونداه يضرب المثل
مهما يحل جائر او عاثت نقمة … فعند عدل صلاح الدين يعتدل
أحيا بها الله مصرا فهي ناضرة … وافتكها من عدو ما بها قبل
كم للفرنج بها وردا ومنتجعا … ونارهم حولها تذكو وتشتعل
فأدنا الناصر المنصور جذوتهم … وأدبروا بقلوب شفها وجل
ملك تقلد ملك الملك منتظما … وقال للمال هذا منك لي بدل
تفرّق المال جمعا للقلوب به … وحسبه فيهم ادراك ما سألوا
ان الملوك الذين امتد أمرهم … لم يخزنوا المال ، بل مهما حووا بذلوا
كذا السياسة ، فالاجناد او علموا … بخل المليك وجاءت شدة خذلوا (٢)

(١) الروضتين ١٠٢/١
(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤١٥

قال يمدح صلاح الدين بعد هدنة سنة ٥٨٨ مع ملك الانجليز ، بقصيدة منها :

منعت علياء المنحنى بأسوده … وأشد ما أشكوه فيك ظباؤه
فسلت بنا ودعي الصديق لحاظها … كظبى صلاح الدين في أعدائه
سل عنه قلب الانكتير فان في … خفقانه ما شئت من أنبائه
لولاك أم البيت غير مدافع … وأسال سيل نداه في بطحائه
وبكت جفون القدس ثانية دما … لترنم الناقوس في أفنائه (١)

وقال يمدحه بقصيدة منها :

عصفت به ريح الخطوب زعازعا … فلقين طوداً لا تخف أناته
هو منقذ البيت المقدس بعد ما … دالت فما وجد الشفاء شكاته
بيت تأسس بالسكون وانما … عند الزحاف تحركت سكناته
أشفقت الاعداء وهي جحافل … عن شمل دين جمعت أشتاته
أوتيت عزما في الحروب مسددا … لا زينه يخشى ولا هفواته
أحصن بالبيت العتيق ويثرب … ولك الفضائل كثيرة حسناته
هذى سيوفك محرمات دونه … لبكائهن تبسمت حجراته (٢)

وقال يمدح الملك الظاهر وسيرها في رجب سنة ٥٩٤ أولها :

كم بين أكناف العذيب وحاجر … منا صريع نواظر ومحاجر

ومنها :

لا تفخرن أمامه بفضيلة … فهو المحقق بكل فضل فاخر
من رمحه الخطي أفصح ناطق … وحسامه الهندي أبلغ ناشر
بحر من الانعام يملك سمعه … شكرا المديد على نداه الوافر
هو خافض الاعداء ينصب نفسه … لبناء علياء ورفع محاجر
يعطي ويضحك في خلال عطائه … كالبرق يضحك في السحاب الماطر
ملك اذا نشرت ملاءة نقعه … بوقى فما وجه الصباح بسافر
نشرت حياة البيض بيض سيوفه … والخيل تسبح في النجيع المائر
وبنى مثقفة القنا معوجة … فسرى الردى منهن فوق قناطر
وكم أضرمت نار الحطام وغادرت … عمرا خرابا دون ملك عامر
درت مواهبه لاعدام الورى … حلب السماح لغائب ولحاضر

(١) الروضتين ج ٢ / ٢٠٤ تاريخ ابن الفرات مجلد ٤ ج٢ ص٨٦
(١) الروضتين ٢ / ١٠٦

أخلى الجسوم من النفوس حسامه ... فاليوم ساكنها كأمس الدابر
فمعاقل الكفر أي معاقل ... وجزائر للسيف أي جزائر
صدع يعز على الاعادي شعبه ... أبدا وكنز ما له من جابر
من معشر ورثوا ـ وان رغم العدى ... شم الممالك كابرا عن كابر
لبسوا من الغدران أي سوابغ ... وعلوا من الخلجان أي بواتر
وعلى الضمائر يقدمون شجاعة ... ما ذلك الادراك فوق ضمائر ... الخ (١)

وقال يمدح صلاح الدين بعد تخريبه حصن بيت الاحزان سنة ٥٧٥ هـ بقصيدة أولها :

بجدك أعطاف القنا تتعطف ... وطرف الاعادي دون مجدك يطرف
شهاب هدى في ظلمة الشك ثاقب ... وسيف هدى في طاعة الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه ... لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الارض بل حال دونه ... رجال كآساد الشرى وهي ترجف
وجرداء سلهوب ودرع مضاعف ... وأبيض هندي ولدن مثقف
وما رجعت أعلامك الصفر ساعة ... الى أن غدت أكبادها السود ترجف
كبا من أعاليه صليب وبيعة ... وشاد به دين حنيف ومصحف
صليب عباد الصليب ومنزل الـ ... ـنزال لقد غادرته وهو صفصف
أيسكن أوطان النبيين عصبة ... تمين لدى أيمانها وهي تحلف
نصحتكم والدين في النصح واجب ... ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف (٢)

وقال يحرض صلاح الدين على فتح حلب ، من قصيدة :

لولا مساعي صلاح الدين ما صلحت ... شم الممالك بعد الزيغ والميل
ولا اغتدت ألسن العلياء مفصحة ... من بعد ما كن رهن العي والخطل
فانهض الى حلب في كل سابغة ... سروجها قلل تغني عن القلل
ما فتحها غير اقليد الممالك والـ ... ـداعي اليه جميع الخلق والملل
وما عصت منعة لكنه غضب ... عاد أهملتها أهالي مبتذل
فارت وحقك من جاراتها فشكت ... ما باله فيصاحبي غير محتفل
. . . .
فليعلم القدس أن الفتح منتظر ... حلوله ، وعلى الآفاق فليطل (٣)

وقال يمدح صلاح الدين ويهنئه بالفتوحات :

أعيا ، وقد عاينتم الآية العظمى ... لأية حال نذخر النثر والنظما
وقد ساغ نتح القدس في كل منطق ... وشاع الى أن أسمع الاسل الصما
تحل به الاعداد ، واللفظ واحد ... فكم سر قلبا في الانام وكم غما
حباكة الحسنى ، وثنى بيثرب ... وأطرب ذيال الضريح ، وما ضما

---

(١) ديوانه ج ١ ص ١٧١
(٢) الروضتين ٢ / ١١ وانظر الكامل ١١ / ٤٥٧ وديوانه ج٢ ص ٤٠٩ والبداية والنهاية ١٢ / ٢٩
(٣) عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقه ٣ وانظر ديوان ابن الساعاتي ج٢ ص ٣٨٢ والروضتين ٢ / ٣

فليت فتى الخطاب شاهد فتحها   فيشهد أن السهم من يوسف أصمى
وقد أوتي الفتحين : مالا وبلدة   فلم يبق نصرا ما حواه ولا غنما
ففي لهوات الشرك أرسلها تجي   وفي جبهة الأيام غادرها وسما
وما كان الا الداء أعيا دواؤه   وغير الحسام العضب لا يحسن الحسما
وأصبح ثغر الدين جذلان باسما   وألسنة الاغماد توسعه لثما
سلوا الساحل المخشي عن سطواته   فما كان الا ساحلا صادف اليما
تجاوزت ما أعيا الجبال منالـه   فهل يقظة كانت مساعيك أم حلما (١)

وقال يمدح الملك المعز فتح الدين أسحق بن صلاح الدين ، بقصيدة أولها :

أن حجبتم أشباحكم والمناما   فابعثوا لي من النسيم السلاما

ومنها :

ما نداه طلا ولا جوده الفيـ   ـاض قطرا ولا السحاب جهاما
واهب المرهفات من عشقه الهـ   ـام نحافا والمرقفات جساما
ويرد الخميس طعنا فان لـ   ـج فضربا فان أبى فصداما
كاتبا بالسيوف في جبهات الصـ   ـيد لم يأل بالقنا أعجاما
شاعر ينظم القلوب ولا ينـ   ـثر الا نظم العلى والهاما
ويجر الارزاق أو يرفع الاقـ   ـدار منا أو ينصب الاعلاما
واذا صلت السيوف فللهـ   ـام سجود لهن كان اماما
في الوغى والندى حربا وسلما   شنف في ذا كلما وفي ذا كلاما
فاذا لم يكن مجال لسيف   سل آراءه وشام الحساما
لا يسام الخسوف بدر محياه   وبادى مجده لا يسامى
غناه كالمسك طاب شميما   وحجاه كالحلم طال شماما
حبذا عرفه النمو وما أحـ   ـبيت من قبل عرفه نماما
....
ملك فتح الدين الحنيف أذل السـ   ـيف عز الصليب والازلاما
ما شكا جفنه الجريح الى كفـ   ـك سهدا حتى أنمت الانا
خاف عن حولها ارمان ولولا المـ   ـأزق الضنك ما بعثت السهاما
فالتق زغفيك جنة وأصطبارا   وحسا بيك صارما واعتزاما
فلقد كلت الظبى الضرب والسمـ   ـر من الطعن والجياد الصداما
واستحال الهجير ظلا ونار الـ   ـكفر صارت بردا لنا وسلاما ... الخ (٢)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٠٦ ، ديوانه ١ / ٣٨٥ .
(٢) ديوانه جـ ١ ص ١٤١ ـ ١٤٦ .

وقال يمدح الملك المعظم عيسى بن العادل سنة ٦٠٠ بقصيدة أولها :

سقيت حيا جفني يا بانة الحمى ... وان كان ماء أنت صيرته دما

ومنها :

فتى أفصحت عنه مخايل مجده ... ففي مهده طفلاً بهن تكلما
يريك ربيعا كل وقت جنابه ... ويأبى نداه أن يكون محرما
سلوا السن الاعلام عن فتكاته ... وقب المذاكي والوشيج المقوما
حمى القدس من رق الاعادى بسمرها ... فما تجد الخطي الا تحطما
شكا أهلها دائي نحول وخيفة ... فأجرى على أعطافها الماء والدما
سقى ربها ماء النجيع سيوفه ... ففي غيرها لا يستجيز التيمما
فلم يبق في ساحاتها غير مسلم ... ولولاه لم تبق الفرنجة مسلما
وما صانها دارا تحل وأختها ... ولكنه صان الحطيم وزمزما
اذا سل ه بالبيض الحداد مرأ شمست ... وان كف ثوب الصبح بالنقع عتما
يضيء بحياه وللركض هبوة ... فتلقاه فيها سافرا متلثما
وما جلق في المدن الا كغيرها ... اذا لم يحطها ظاعنا ومخيما
سقى الله عهد النيربين عهاده ... وعيشا لنا بالغوطتين تصرما
فلم أر ظلا سابغا غير ظله ... ولم أر وردا غيرها ينقع الظما ... الخ (١)

وقال في فتح طبرية :

جلت عزماتك الفتح المبينا ... فقد قرت عيون المؤمنينا
رددت أخيذة الاسلام لما ... غدا صرف القضاء بها ضمينا
وهان بها الصليب وكان قدما ... يعز على العوالي أن يهونا
يقاتل كل ذى ملك رياء ... وأنت تقاتل الاعداء دينا
غدت في وجنة الايام خالا ... وفي جيد العلا عقدا ثمينا
فيا لله كم سرت قلوبا ... ويا لله كم أبكت عيونا
وما طبرية الا هدي ... ترفع عن أكف اللامسينا
حصان الذيل لم تقذف بسوء ... ولم عنها الليالي والسنينا
فضضت ختامها قسرا ومن ذا ... يصد الليث أن يلج العرينا
لقد أنكحتها صم العوالي ... فكان نتاجها الحرب الزبونا
هناك ندى أهل الارض طرا ... سواك ومعقل أعيا القرونا
قست حتى رأت كفؤا فلانت ... وغاية كل قاس أن يلينا
تخيت فريضة الاسلام منها ... وصدقت الاماني والظنونا
تهز معاطف القدس ابتهاجا ... وترضى عنك مكة والحجونا

---

(١) ديوانه جـ ١ ص ١٧٧ ـ ١٧٩

[illegible] ـــــــ

جملت عباد آملها ظلالا

تغال حماة جوزتها نساء

لبيضك في جماجمهم غناء

تميل الى المثقفة العوالي

يكاد النقع يذهلها فلولا

فكم حازت قدود قناك منها

وغيد كالجآذر آنسات

ولما باكرتها منك نعمى

أعدت بها الليالي وهي بيض

فليم بشام مرعى خصيبا

فلا عدم الشام وما كسوه

سهاد جفونها في كل فج

تألم بالسواحل فهي سور

تقلب السور سرور ولولا

أدرت على الفرنج وقد تلاقت

ففي بيسان ذاقوا منك بؤسا

لقد جاءتهم الأحداث جمعا

وخافهم الزمان فلا سلام

لقد جردت عزما ناصريا

فكنت كيوسف الصديق حقا

لقد أصبحت من طلب المعالي

وان تك آثرا وخلاك ذم

وأبدلت الزئير بها أنينا

يخوضون الحديد مقنعينا

اذ يذق علم الطير المتينا

فهل أمست رماحا أم حصونا

بروق القاضبات لها حدينا

قدودا كالقنا لونا ولينا

كغيد نداك أبكارا وعونا

بنان تفضح الغيث الهتونا

وقد كانت بها الأيام جونا

أشو سنب ولا ماء معينا

ابى تشفي بها الداء الدفينا

سهاد يمنع الغمض الجفونا

اليك وألجئ الهام المتونا

سطاك لكان مكتئبا حزينا

جموعهم عليك رحى طحونا

وفي صفد أتوك مصفدينا

كأن عروقها كانت كمينا

غلبت بمهتدى زمنا شؤونا

يحدث عن سناه طور سينا

له صوت الكواكب ساجدينا

وحاول أن يؤمر المسلمينا

فان محمدا في الاخرينا (١)

---

(١) الروضتين ١ / ٨٤ وانظر عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقه ٣٦ ــ ٣٧ وديوانه ج٢ ص ٤٠٦

قال يمدح صالح الدين :

طالت فروع المجد فيه كما زكت منه الاصول
راياته تحكي الاصيل فرأيه الرأي الاصيل
حيث الخيول على العدو وكماتها فيها الوعول
أما وقد قصد الغزاة ودنّت القرب النصول
وبكت به أم الصليب وشد صارمه الصليل
وبدت له أرض الشآم تهون اذ كانت تهول
فلسوف يفتح تغلها من قبل أن يقع القفول
ويعيد ما فض العدى بكرا تزف لها الفحول
يا أيها الملك الجلي الامر والملك الجليل
كم منة لك تستطير ومنة بل تستطيل
ولكم صفحت عن الفرور وقد تبطئه الفلول (١)

وقال يمدحه أيضا سنة ٥٧١ :

يا صالح الدين يا ملكا مذ براه الله للأمم
أضحت الكفار في نقم وغدا الاسلام في نعم (٢)

---

(١) الخريدة ، قسم شعراء مصر ١ / ١٠٨
(٢) الخريدة قسم شعراء مصر ١ / ١٠٦

قال يمدح الملك الناصر صلاح الدين ، ويهنئه بفتح حلب من عماد الدين زنكي بن مسعود ود سنة ٥٧٩ :

بدولة الترك عزت ملة العرب … وبابن أيوب ذلت شيعة الصلب
وفي زمان ابن أيوب غدت حلب … من أرض مصر وعادت مصر من حلب
ولابن أيوب دانت كل مملكة … بالصفح والصلح أو بالحرب والحرب
مظفر النصر منصوت بهمته … الى العزائم محمول على العزب
والدهر بالقدر المحتوم يخدمه … والأرض بالخلق والأفلاك بالشهب
ويجتلي الخلق من راياته أبدا … مبيضة النصر من مصفرة الذهب
ان العواصم كانت أي عاصمة … مصونة بتعاليها عن الرتب
ما دار قط عليها دور دائرة … كلا ولا واصلتها نوبة النوب
لو رامها الدهر لم يظفر ببغيته … ولو رماها بقوس الافق لم يصب
ولو أتى أسد الابراج مفترسا … خارت قوائمه عنها ولم يثب
جليتا النجم في أعلى منازلة … وطالما غاب عنها وهي لم تغب
تلقى اذا عطشت والبرق أرشية … كواكب الدلو في بئر من السحب
كل القلاع تروم السحب في صعد … الا العواصم تبغي السحب في صبب
حتى أتى من منال النجم مطلبه … يا طالب النجم قد أوغلت في الطلب
من لو أبى الفلك الدوار طاعته … لصير الرأس منه موضع الذنب
أتى اليها يقود البحر ملتطما … والبيض كالموج والبيضات كالحبب
مستلئمين ولولا أنهم حفظوا … عوائد الحرب لاستغنوا عن اليلب
جلالهم من مغيرهم اذا قفلوا … حمّالة السبي لا حمالة الحطب
فما ترى منها بركن لا يقبله … الا أسنة أطراف القنا السلب
وحل من حولها الاقصى على فلك … ودار من برجها الأعلى على قطب

. . . .

لو لم تجب يوسفا من قبل دعوته … لساد ظاهرها كالجوسق الخرب
خافت وخانت وغر المالكون بها … فالمدن في رهب والقوم في طرب
ثم استجابت فلا حصن بممتنع … منها عليه ولا ملك بمحتجب
وأصبحوا منه في همّ وشبحهم … وهم سكارى بكأس اللهو والطرب
تفرغوا لنعيم الصيف واشتغلوا … عن الثغور بلثم الثغر والشنب
أرض الجزيرة لم تظفر مالكها … بمالك فطن أو سائس درب
مالك لم يدبرها مدبرها … الا برأي خصي أو بعقل صبي
حتى أتاها صلاح الدين فانصلحت … من الفساد كما صحت من الوصب
واستحصل الجد فيها غير مكترث … بالجد حتى كأن الجد كاللعب ... (١)

---

(١) ديوانه ص ٩ ـ ١٦ والروضتين ٢ / ٤٢

وقال يمدح الملك المظفر تقي الدين وكان عازما على المضي الى أفتتاح المغرب سنة ٥٨٢ :

لنيراك حتى تيلك الغرب بالغلب   قد اجتمعت زهر الكواكب في الغرب
وما اجتمعت الا لتنجد عسكرا   بسعدك يغني عن مساعدة الشهب
وباسطك من قبل الوغى تهزم العدى   وبأسك قبل الحرب تنصر بالرعب
ولكن أرادت أن تفوز بخدمة   تشرفها من بعدها منك بالقرب
وتأوى الى حزب المظفر أنه   يظفر من يأوى الى ذلك الحزب
وتبذل فيه ما اقتضته طباعها   فتكشف عنه شمسها ظلمة الخطب
ويجلو لها البدر المنير مسالكا   فيسهل منها كل مستوعر صعب
ويسعد بالبرجيس في السلم مثلما   يساعده المريخ في حومة الحرب
. . . .
لك الجحفل الجرار للبيض والقنا   تخط خطوط النصر حتى على الترب
به كل وثاب الى الموت باسل   ومن ذا يرد الاسد عن عادة الوثب
يعفون عن كسب المغانم في الوغى   عليهم لهم غير الفوارس من كسب
ويشغلهم بسعي الاسود عن المهى   ويلهيهم نهب النفوس عن النهب
لهم معجز في الطعن والضرب باهر   فلا طعن في طعن ولا ضرب في ضرب
ويرهب من أسيافهم قبل سلها   ورب سيوف قطعت وهي في القرب
فمد من الاعادى غير متقد المتى   بهم وتراهم غير آمنة السرب
وكم ملك بالتاج يعصب رأسه   أتوه فحازوا ذلك العصب بالنصب
. . . .
هنيئا لك الملك الذى أنت ربه   ببذلك جهد النفس في طاعة الرب
وبحثك للكفار مادمة التبون   تسوق الى السلطان قاصمة الصلب
وبسطك كفا تشهد السحب أنها   وقد صدقت أندى بنانا من السحب
وإدناؤها للظمآن للجود والندى   من المنهل الفياض والمورد العذب
وتقريبك المظلوم من غير حجبة   وان كنت من نور الجلالة في حجب
وسيرك فينا سيرة عمرية   فروحت من قلب ومزجت من كرب
وردك فينا من سجيك سنة   فأظهرت ذاك الفرض من ذلك الندب
فيا مصر تيهي وأستطيلي بملكه   وقولي له حسبي بملكك من حسب
ولا غرو أن تاهت بملكك وازدهت   ولا عجبا أن أسرفت بك في العجب (١)

وقال يمدح الملك العزيز عثمان سنة ٥٩٤ حين رد الفرنج الالمانيين عن تبنين :

الشام للاسلام دار القرار   وكان من قبل طريق الفرار
وكان في ظلمة ليل دجت   فجاء عثمان منها والنهار
وجاء بالبر بعد الضنى   وجاءه بالامن بعد الحذار
فيا أمان الكفر لا تأمنوا   بمدار ما الشام لكفر بدار

---

(١) ديوانه ص ٢٦ ـ ٢٧

ويا عماد الدين يا من له — كل مهار في الأعادي مهار
وجئت لتهنين ومن حولها — قوم كأعداد الحصى للحصار
سدوا عليها الطرق حتى لقد — كادوا يسدون طريق القطار
يجوزها الطايف ولكن على الأخطار أو ما ليه الخطار
ساق إليها الكفر أجناسه الأخطار قادتها الملوك الكبار
من كل من يزار من غيظه — كأنه من مغرب الشمس نار
إنما على البر أتى راكضا — أو يجتاح القلع في البحر طار
وطبقوا البحر سفينا فما — بانوا وساروا فوقها في قفار
وأموا الثغر وطافوا به — وأحدقوا كالنمل لا كالسوار
واجتمعوا حولا ومن حوله — مدوا كسيل وأحاطوا كنار
وكان ذاك الثغر من أهله — وقبل أن يحصره في انحصار
وكان أهل الكفر في جسرة — فعند ما أظلمت طاروا شرار
وانهزموا للبحر إذ أبصروا — بحورش تغرق فيه البحار
وعذرهم إذ هربوا واضح — هل يثبت الليل أمام النهار
أتسم ما شدوا إزارا لهم — إلا لأن الليل مرخي الإزار
لولا سرى القوم وتعجيلهم — عجلت في القوم شقاء الشفار
وطالما السهر إذ تمهم — فليشكروا منه ليالي السرار
وكان للنيث يد عندهم — لأنه منك لهم قد أجار
لولم يحق سيفك ما سيم من — هام يطير سيم هام مطار
عجوا وطاحوا عن طريق الردى — فما خلوا من خور أو خوار
وبعضهم ينجيهم من خوفه — فما حديث القوم إلا سرار
وانقلبت بالذل أزياؤهم — فصار ذو المغفر ذات الخمار
أمنت ذاك الثغر من عقره — ومثل لم يقدر عليه تدار
ومن حصار الكفر خلصته — بالبأس بل من حلقات الأسار
وما سمعنا قط غنما جرى — ما فيه لا بل ما عليه غبار
غزوا ولا عار عليهم به — إن فرارا منك ما فيه عار
رأوا من الرأي اجتناب الوغى — وهو لهم قد أحسن الاختيار
يا ملك تهزم أعداؤه — بالرعب هذا وأبيك الفخار
تهنيت حتى الشام إذ زرته — منا مرا أمواه تلك النهار
وذل ملك الكفر فيه فقد — أضحى دم الجبار فيه جبار
فارجع إلى مصر فقد شفها — إليك شوق وشجاها ادكار
وانتظرت عودك مشتاقة — ما أصعب المشتاق بالانتظار
تشتاق منك البدر والليث والغيث ووهاب الألوف النضار
ومن إذا ما حل في موطن — حل بها العز وإن صار سار
والشام قد أوسعتها رحمة — وآن أن ترحم هذي الديار

ومصر أهل الملك وهي البيتي ... أجنت يد الإسلام تلك الثمار
نصد ولا زلت لنا عائدا ... بالفضل والبسطة والاقتدار
والدهر لا زلت به لابسا ... عمرا طويلا في ليال قصار
تبقى مدى الدنيا وأمثالها ... طولا وهذا القول مني اختصار (١)

وقال يمدح القاضي الفاضل ويهنئه بفتح عسقلان سنة ٥٨٣ بقصيدة مطلعها :

باتت معانقتي ولكن في الكرى ... أترى درى ذاك الرقيب بما جرى

ومنها :

بلغ السماء معالياً ومفاخرا ... ظهرت ويعلو فوق ذلك مظهرا
فضل الملوك فصار يُثنى فاضلا ... شكروا لديه فصار يدعى الأكبرا
ويحف ألوية الملوك وإنه ... متكبر عن أن يرى متبخترا
فيقوده حد الحسام مغلولا ... ويرأيه حد الهزبر معفرا
الرأي أبيض والبراع مسوّد ... فيقوم في حرب العدو مشهرا
جعلت براعته الكلام الفاضله ... عبدا ولكنا نراه محررا
وسقى الندى من راحتيه براعه ... فلذاك أزهر بالبيان وأثمرا
كسر الصليب صبيه من رأيه ... فسل العدى من كان أصلب كسرا
ولقد أقر الله عين نبيه ... بمطهر جعل الشآم مطهرا
ما زال أو جعل الكنيسة جامعا ... والإنجيل المخفوض منها منبرا
فتح الشآم به وقال زمانه ... أن كنت فاتحه فلن يتغيرا
الشام دارك لو أردت أخذته ... بالإرث عن آبائك الشم الذرى
منه بزغت وكنت بدرا نيّرا ... وبه طلعت وكنت صبحا مسفرا
وله ملكت فلا برحت مملكا ... وبمظفرت فلا برحت مظفرا
من مبلغ بيسان سيدة القرى ... أن الهناء أتاك من أم القرى
فلو استطاع البيت أرسل حجره ... وفدا وأرسل بالهناء المشعرا
ولقد أعدت لعسقلان روحه ... ورفعت شاهقه وكان مدمّرا
وأدمت راحته لدمت مخلدا ... وعمرت ساحته فعمّت معمّرا
كفر الشآم وعسقلان مؤمن ... حاشاه وهو عرينه أن يكفرا
ولكان مؤمن آل فرعون بهم ... إذ كان يضمر ضعف ما قد أظهرا
لأغرت مصر به وأيسر حقها ... أن لا تغار وحقها أن تعذرا ... (٢)

---

(١) ديوانه ص ٢٨٣ ــ ٢٨٩ (٢) ديوانه ص ٣٥١ ــ ٣٦١

وقال يمدح الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب ، بقصيدة مطلعها :

تنزه طرفي بين زاه وزاهر … على أن طرفي أي ساه وساهر

ومنها :

يؤم العدى في عسكر من جنوده … وقد سبقت أخباره في عساكر
يبادر للأقران قبل بدادهم … ولا يدرك العلياء من لم يبادر
وتسري الى النصر المبين رماحه … فتصبر من أجسادهم في مصابر
فضلاته لا تتقى بسوابغ … وفضلاته لا تتقى بالمغافر
له الله ما أمضاه حد عزيمة … وأثبته بين اختلاف البواتر
يطل بوجه ضاحك الثغر باسم … أمام نهار كالح الوجه باسر
تراه الى الهيجاء أول وارد … وعنها الى الأوطان آخر صادر
تخر الجبال الشم خوف خيوله … وتنداه رعباً قبل وقع الحوافر
سنابكها بين الصريح وغمزة … ويشبرها بين العذيب وحاجر
يزور الأعادي في حصون شوامخ … وينقل منها عن طلول دواثر
ملوك عداه ما لها من مساكن … وقتلاهم ما أن لها من مقابر
فكم من قلوب في صدور مغالب … وألسنة أفواهها من مناسر
اذا تغلت أجناده فجدالها … مغاني الغواني بل قصور القياصر
يبيتها منه بأحنق ثائر … ويصبح منه عند أكرم آسر
يلوذ بغفار الجرائر صافح الـ … ـسرائر غلاب المقادير قادر
كريم فما ينفك مصدر معدم … حليم فما ينفك عاذر عاثر ... (١)

وقال يمدح القاضي الفاضل ، بقصيدة مطلعها :

ألا فانتبه من أفقها طلع الفجر … وحاشاك نم من وجهها ضحك الثغر

ومنها :

أبانوا برفع الفاضل الندب فضلهم … وأعلوا له قدراً فصار لهم قدر
وما فاته إلا الجيوش يجرها … وقد جر منها ما يضيق به البر
ولا فرق لولا اللون بين سلاحهم … فآراؤه بيض وراياتهم صفر
وخاض بهم في البر بحرا من الردى … طرائقه سود وأمواجه حمر
وجاز طريقا يرهب النسر قطعها … على أنه نسر الكواكب لا النسر
ويطلع فيها الصبح والليل بعده … وفي قلب ذا خوف وفي صدر ذا ذعر
تهاب الرياح الهوج منه ترابها … فما ناله ذل السهاء ولا الأسر

(١) ديوانه ص ٣٦٢ ـ ٣٧٠

وجاز وانف الكفر في الترب راغـــــم ... وما زال من إيمانه يرغم الكفـــــر
تحف به من خلفه وأمامـــــه ... مهندة بيض وخطية سمـــــر
تحرسه من جنده البيض والقنـــا ... وتحرسها منه التلاوة والذكـــــر
وآب كأوب النصل للغمد سالمـــا ... على أن ذاك النصل ما فاته النصـــر
فأقرب شيء بعد رؤيته الغنـــى ... وأبعد شيء بعد رؤيته الفقـــر
وأنهض شيء من أنامله الهـــوى ... وأعجز شيء من مدائحه الفكـــر
فليس يوفي كنهه الوصف جاهـــدا ... وليس يؤدي حق نعمته الشكر... (١)

وقال يمدح الملك العادل بقصيدة مطلعها :

ما ضر من أهدى الي الخيـــال ... لو أنه أهدى الي الخيـــال

ومنهـــا :

آنسني القرب ويوم النـــوى ... دواهب العادل يوم النـــوال
الأغنى الاقران بعد الوغـــى ... والواهب الآلاف قبل الســـؤال
والطالب الاطلاب والسالب الاسـ ... ـلاب والقاتل يوم القتـــال
والواسع الصدر لدى موقـــف ... ضاق على الراجل فيه المجـــال
يسير سير السيل في موكـــب ... يريك أنموذج سير الجبـــال
أخلى ديار الكفر أو لم يـــدع ... فيها خلالا حين جاس الخـــلال
وأوثق الأسرى فقد أصبحـــت ... غدائر القتلى لهم كالحبـــال
سيف نضاه ذو العلى المعلـــى ... كما جلاه للمهدي ذو الجـــلال
أعلى بما الله هوادي الهـــدى ... كما به هد ظلال الضـــلال
فأنزل الشرك بدار الـــردى ... وصير الكفر بيال الوبـــال
فأصبح الاسلام في نضـــرة ... قد طال في غرته وأستطـــال
والخلق من نعماه في جنـــة ... ومن قضايا عدله في ظـــلال
أعطارهم بالخير منشـــورة ... منه كما الأحوال منه خـــوال
يا ملكا لا ينبغي ملكـــه ... إلا له أوتيت عين الكمـــال
.... (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ويذكر نزوله على الكرك وانصرافه عنه وفتحه بعد ذلك نابلس بقصيدة مطلعها :

ونعته والاعمى يمانه في العـــذل ... لكنت أبان زوركان أبا جهـــل

ومنهـــا :

أذا راسل الاعداء يوما فانمـــا ... كتائبه كالكتب والخيل كالرســـل

(١) ديوانه ص ٣٧٨ ــ ٣٨٥ .

(٢) ديوانه ص ٥٤٤ ــ ٥٤٨

له صارم يشفي به الدين صدره ... ويعجز وعد النصر منه بلا مطل
يشيب خنا لونه بنجيعه ... فما يتحلى سيفه حلة الصقل
فلا تحسبوا بالكف جرد نصله ... ولكنه قد جرد الكف بالنصل
ظباه كمثل البقل لونا وأنها ... لترعى الصدى رعي الظبى ورق البقل
حداد عداة للحديد تعده ... من البعد حتى كل غمد بلا نصل
تكاد تقد الهام من قبل ضربها ... وتخرج من سجن الغمود بلا سل
يجردها من يغمد الجور عدله ... ويثوي بها من يشتفي الفتر بالبذل
ويحملها من حمل الدين كله ... عليه وما يشكو سوى خفة الكل
هل الدراه الثكلى بأولادها أنتهت ... عن النسل مما جرعته من الثكل
وكانوا لها كالعقد لكنه وهى ... وأضحى لها جيش ابن أيوب كالشمل
أتاهم بمثل الرمل ينقل خيلهم ... الى الافق ما فوق الطريق من الرمل
عساكر أرواح العساكر شربها ... وليس لها غير الفوارس من أكل
وما طال دون الذمر منهم تحصنا ... ولكن ليبدوا دارقه منه في جحفل
إذا ما انحنوا للحمل حاكوا قسيهم ... على أنهم للموت أجرى من النبل
يكلفهم غزو الفرنج بدارهم ... ويسهل الا أنه ليس بالسهل
اذا كنت من تقلاقه تلا سبلها ... فكيف يسير الجيش فيها بلا سبل
جيادهم تخشى العثار من القنا الـ ... ـقسيف وتخشى في الدماء من الوحل
وما خالفتها الجرد قط وإنها ... لتلحق من عاديته وهي في الشكل
وأرجلها لو قطعت لسرت بمن ... عليها لهم والنمل يمشي بلا رجل
جنى أهل تلك القلعة الشر اذ رأوا ... سوادا بها كالباسقات من النخل
غدا يملها الابرنس يلعن عرسه ... بها وهي لا تنفك من لعنة البعل
يرى الخيل والفرسان يغشون روحه ... فيضطر لاستمساله غفلة الشغل
وقد رجمتها المنجنيقات اذ رمت ... لشيخ لعين كافر جاهل رذل
فبانت ه وما قد بات يغني ملكه ... مناقتها تبكي الفروع على الأصل
وصبحت أخرى صبحته بأهلها ... ومسته اذ أمسيت وهي بلا أهل
فنابلس لما نزلت بربعها ... أقامت بهم حق الضيافة والنزل
أحسوا بظل للشريف فجاءهم ... ربيع من النهل المسدد كالوبل
ولم أر أرضا جادها النبت قبلها ... وتصبح تشكو بعد مغلة المحل
وما شرقوا بالماء والريق اذ رأوا ... جيوشك لكن بالفوارس والرجل
شببت وقود الحرب بالبيض والقنا ... عليهم فقد أضحت دماؤهم تغلي
وما أغمدت عنهم سيوفك أو أتت ... على النحر والشيخ المغفل والكهل
بما نقي في تقلاقهم فيه عابدا ... صليبا بلا حب له عابد العجل
أبدت النصارى واليهود بحصرك ... وما جاء هذا قط في سالف النقل
وكانت بهم تلك البلاد تنجست ... فغاب دم منهم عن الماء في الغسل
ولم يبق الا من سبى الجيش منهم ... وأن كان يسبي الجيش بالحدق النجل
عذارى أسارى كبلت بشعورها ... فجرحها في الساق والمعصم المبسل

وقد شغلت عن أهلها بأسارها … وأنت بشكر الله في أشغل الشغل
تكبر فيها الله في الجامع الذي … جمعت به بين الفريضة والنفل
وصليت فيها جمعة بجماعة … تناديك للإسلام يا جامع الشمل
وعدت بفضل الله للخلق سالما … وأي زمان لم تعد فيه بالفضل
فقد شغل الأملاك عن شكر ربهم … سوى أنت بالريحان والراح والنقل
يقولون ما لا يفعلون أما استحوا … من الملك المغني عن القول بالفعل
لك الحكم في الدنيا وما هو بالهدى … من الجود بالدنيا وما هو بالهزل
فدياه مؤزر على كل مسلم … ويعلم هذا فيه بالعقل والنقل (١)

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين ، بانتصاره على الفرنج قرب بانياس ، بقصيدة أولها :

أبى صدها أن يجمع الحسن والحسنى … ووجدي بها أن أجمع الحزن والحزنا

ومنها :

أنام بني الإسلام في كهف أمنه … وأوسعهم عدلا سيسكنه عدنا
وعوضهم من بعد سخطهم رضى … وبدلهم من بعد خوفهم أمنا
وما شاقه صوت الحمام إذا شدا … ويطربه صوت الصفاح إذا غنى
له النصل يجلى والقناة بكفه … تقوم والقوس الشديد له يحنى
أقام بدار الكفر تجبى لها الجزا … وتودي له القتلى وتسبى لها الحسنى
يشن عليها غارة بعد غارة … فقد أصبحت من شن غاراته شنا
عفت وخلت من ساكنيها ديارهم … فلا معقل يغشى ولا منزل يغنى
زمان على تلك المعاهد قد مضى … ودهر على تلك المعاقل قد أخنى
أعاف وشتى بين عكا وعرفة … تطهيرها ساعة وهو قد أسنى
أتمت بها التوحيد لله وحده … وأنسيت فيها الروح والأب والابنا
ولما رأوه أدبروا حين عاينوا … أعنة خيل لا تعود ولا تثنى
وقد وثقوا لكن لأسر رقابهم … وقطف رؤوس منهم آن أن تجنى
ثبت لهم والسيف قد كره الطلى … وجالدتهم والقرن قد صمم القرنا
بضرب يذيب الشمس في الأفق حره … ويحرق ما بين القلوب من الشحنا
مضى ملكهم في أول الأمر هاربا … يحس ثقافه الطعن فيه ولا طعنا
عتيق عتاق ما نجا من نجابها … ولا فاز من كان الفرار له حصنا
وما زال أعمى العين والقلب فانثنى … وقرع العوالي قد أصم له الأذنا
وقد أنفت منه الدواهي لجبنه … فلما نجت حوباؤه شكر الجبنا
وليهنئ الناقوس بعد انهزامه … ولكنه من بعده ترك السفنا
وأضحى أسيرا بأدويل وغيره … قرون ملوك كم أبادوا لهم قرنا
أسارى جبارى لا يرجون فدية … ولا يأملون الدهر فكا ولا أمنا
وهل زادهم السجن ضيقا عليهم … وقد جعل الأرض الفضا لهم سجنا

---

(١) ديوانه ص ٥٥٦ ـ ٥٧

بكى الكند واليسكند لا وحشةً لهم … ولكن على نفسيهما أصبنا الجفنا
يروعه الصبح المنير اذا بدا … ويوحشه الليل البهيم اذا جنا
ويشرب لكن ان جرى دمعه دما … ويطرب لكن ان شدا تيده احتنا
وقد ربما زنت عليه تيسوده … فحنت وأنّت مثل ما حنّ وأنّا
وقد أصبح الاسلام والكفر كلما … بكيت لذا ركنا هدمت لذا ركنا
وقد أصبحت ما سرت مصر وأهلها … كمثنى بلا افتك ولفك بلا مثنى
غدت مثل يعقوب النبي وقد نساى … سميه عنه تشتكي البثّ والحزنا
وما انت الا الشمس أظلم بعدها البلاد … والا السحب قد أقلعت عنا (٣)
فهي لعين أبصرتها وبعدا … محله من مثوى ومثواه من مغنى
فلا زلت تبقى للنبي ودينه … وأيته يفني الزمان ولا تفنى (١).

وقال يمدح صلاح الدين ويهنئه بكسر الفرنج وملك بلاد الشام :

لست أدري بأي فتح تُهنى … يا منيل الاسلام ما قد تمنى
كل فتح يقول أني أولى … وهو أولى لانه كان أهنا
أنهنيك اذ تملكت شاما … أم نهنيك اذ تملكت عدنا
قد ملكت الجنان قصراً فقصرا … اذ فتحت الشام حصنا فحصنا
ان دين الاسلام من على الخلق … وانت الذي على الدين منا
أنت أحييته وقد كان ميتا … ثم أعتقته وقد كان قنا
فاشكر الله ما صنعت على العصر … شهوه في عرصة الملائك أثنى
لك مدح فوق السماوات ينشا … ومحل فوق الاثير يبنى
شاق جبريل بيته بيت جبريل … فوافى اليه شوقا وحنا
يخرج الساكنون منه ورب البيت … في بيته أحق بسكنى
شهد الناس أنهم شاهدوا جبريل … رد الاقران قرنا فقرنا
فلكم ضربة ولم تر ضربا … ولكم طعنة ولم تر طعنا
مله جنده بالائكة الله … فرادى جاءت اليه ومثنى
كم تأنى النصر العزيز عن الشام … ولما نهضت لم يتأنا
قد تمنيت حين أجبت وجه الله … بالحرب والحب معنى
ولعمري من حاز فتحا جليلا … وتمنى فانه ما تمنى
تمت في طلعة الكريمة كالبدر … سنا والبدر يطلع وسنا
لم تقف تدارك الممالك الا … كنت يا يوسف كيوسف حسنا
تجتني النصر من ظباك كأن القضب … قد صحّفوه أو صار غصنا
تمددت نحوك الاعادي فرد الله … ما أملوه عنك وعنا
حملوا كالجبال عظما ولكن … جعلتها حملات خيلك عهنا
جمعوا كيدهم وجاءوك أركانا … فمن قد فارسا هدّ ركنا
لم تلاق الجيوش منهم ولكنك … لاقيتهم بلادا ومدنا

(١) ديوانه ص ٧٥٤ ـ ٧٦١

كل من يجعل الحديد لـه ثـو   با وتاجا وطيلسانا وردنا
يدّعون الغنى من الناس لكن   أنت بالنصر كنت أغنى وأقنى
خانهم ذلك السلاح فلا الرمـ   ـح تثنى ولا المهند طنّا
واستحالت شقاشق الكفر صمتا   حين عادت تلك الشجاعة جبنا
أشجع القوم فيهم جاعل الصدر   ع هروبا والفرار مجنّا
ليحيقوا الهروب ضعفا وعجزا   هل يطيقوا الهروب عقرى وزمنى
وتعيد تهم بحالة سيد   تجمع الليث والغزال الاغنّا
وجرت منهم الدماء بحارا   فجرت فوقها الجزائر سفنا
صنعت منهم وليمة وحوش   رقص المشرفيّ فيها وغنى
ظل معبودهم لديك أسيرا   مستضاما فاجعل لها النار سجنا
صلبوا ربهم فلم يغن عنهم   من رأى بعد صلبه قط أغنى
وحوى الاسر كل ملك يد الدهـ   ـر يفني وملكه ايمن يفنى
والمليك المعظم فيهم أسير   يتثنى في أدهم يتثنى
يحسب النور يقظة ويظن الشمـ   ـس طودا ويبصر الشمس دجنا
كم تمنى اللقاء حتى رآه   فتمنى لو أنه ما تمنى
ظن ظنا وكنت أصدق نفسا اللـ   ـه يقينا وكان أكذب ظنا
رق من رحمة له القيد والغل   عليه فكلما أنّ أنا
واللعين الابرنس أصبح هو بعـ   ـدما تمنى لم يعد اليوم يمنى
أنت ذكيته فوفيت نذرا   كنت قد قته فوفيت حسنا
وتهادت عرائس المدن نحو الـ   وشار الآمال منهن تجنى
لا تخاف الغمام قبله التهاني   كل عقب وكل قطر تهنى
قد ملكت البلاد شرقا وغربا   وحويت الآفاق سهلا وحزنا
وتفردت بالذي هو أسنى   وتوحدت بالذي هو أسنى
وأخذت الوصف في علاك حسيرا   أي لفظ يقال أو أي معنى
وسمعنا الاله قال أطيعو   ه سمعنا لربنا وأطعنا (١)

---

(١) ديوانه ص ٨١٢ ـ ٨٢٠

قال يمدح صلاح الدين ويهنئه بالفتح :

هذا الذي كانت الآمال تنتظر … فليوف لله أقوام بما نذروا
بمثل ذا الفتح ، لا والله ما حكيت … في سالف الدهر أخبارٌ ولا سِيَرُ
حين به حان هلك المشركين فيا … لله طيب المشايا منه والبكر
مدوا كما مد فيض البحر ملتطم الامواج حتى اذا قابلتهم جزروا
لقد فتحت عصاها من ثغورهم … لولاك ما هدّ من أركانه حجر
تركت أرضهم من طول ما عمرت … منهم بلاقع لا أنثى ولا ذكر
نقضت ما أبرموا ، أبرمت ما نقضوا … عمرت ما هدموا ، هدمت ما عمروا
الآن قرت جنوب في مضاجعها … ونام من لم يزل حِلفاً له السهر
الآن طابت الى البيت المقدس كالبيت المحرم أحرام ومعتمر
يا بهجة القدس اذ أضحى به علم الاسلام من بعد طيٍّ وهو منتشر
يا نور مسجده الاقصى وقد رفعت … بعد الصليب بها الآيات والسور
شتان ما بين ناقوس يدان به … وبين ذي منطق يُصغي له الحجر
الله أكبر صوت تقشعر له … شمّ الذُرى وتكاد الارض تنفطر
يا ما لقا الارض مهدها فما أحد … سواك من قائم للمهد ينتظر
ما أخضر هذا الطراز الساحلي ثمرا … الا لتعلو به أعلامك الصفر
أضحى بنو الاصفر الانكاس موعظة … فيها لاعدائك الآيات والنذر
صاروا حديثا وكانوا قبل حادثة … على الورى يتقيها البدو والحضر
سلبتهم دولة الدنيا وعيشتها … حتى لقد ضجرت من وعدهم سقر
هذا الذي سلب الافرنج دولتهم … وملكهم يا ملوك الارض فاعتبروا
مراكز ما اختطاها الخوف مذ مائة … عاما ولا ريع أهلوها ولا ذعروا
ولا أسرع أسماء البلاد فقد … أسميت والقائل المنطيق ينحصر
ينثيك أجمال قولي عن مفصله … في لفظة البحر مغنى تحته الدرر (١)

وقال حين قصد الافرنج القدس سنة ٥٨٧ من جملة قصيدة له :

ويح الفرنجة بل ويل أمهم أوما … فيهم لبيب على الحالات يعتبر
فكم نثرتهم ضربا اذ انتظموا … وكم نظمتهم طعنا اذ انتثروا
كم قد سقيتهم ذلا فلا عجب … ان عربدوا سفها فالقوم قد سكروا
ان يحوك فلا بدع لجهلهم … تسعى الى الأسد في غاباتها الحُمُرَ
زاروا نسورا ولا تخفي وقاحتهم … اذا أسود الشرى أبطالهم زأروا
فحام عن حوزة البيت المقدس لا … خوف ، وحاشاك من خوف ولا ضرر
هو الشريف وقد ناداك معتصما … فما على مجده من بعدها حذر
وسوف تستغفر الايام هفوتها … وتحصد الفئة الاوغاد ما بذروا (٢)

---

(١) الروضتين ٢/١٠٨ ، عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقة ١٨٠ (٢) الروضتين ٢/١٩٤

وقال يمدح العادل حين حاصر كوكب سنة ٦٠٦ وخربها بقصيدة أولها :

وفيَّ لك المصعدان النصر والظفــــر   وطاع العاصيان الدهر والقـــــدر

ومنها :

خطب طرى وطغى حتى شهدت لــــه   فلان جامحه اذ أسهل الوعـــــر
وشامخان رئيما الاين يحسر عــــن   ان يستطيعهما التأميل والنظــــر
في ذروتي مشمخر العز دونهمـــــا   من أن ينالا تنال الانجم الزهـــر
أوردت حصنك من تلك الحصون منى   لولاك عز على وراّدها الصــــدر
وكان أهلاها قد أكدا حلفــــــا   أن ليس ينقاد من أمريهما المكـــر
يا ويحهم أو غرتهم بني شمخــــت   من اعتزالك واستغوتهم جـــــدر
ولو صدمت به السد الذى أطادت   قطراه لانداك منه القطر والزبـــر
أو رام شامخه الاحرام حل بهــــا   ما ليس تبقى غواديه ولا تــــذر
بل لو دعوت النجوم الزهر لابتــدرت   اليك من جنبات الافق تبتـــدر
لقد رأى كوكب في نفسه عجبــــا   وكاد كوكبه الدرى ينكـــــدر
أعيرت جذوة بأسك في جوانبـــه   أنفاسها في نفوس الشراك تزدفـــر
ولوته مجانيق يلين لهـــــــا   قلب الحديد ولا يستمسك الحجـــر
هوت عليه بمثل الشهب قاذفــــة   غداة بصعيد الارض منعفــــر
أضحت مخانيق في أعناق هضبتــه   عقود خيلك معدودا بها الثغـــر
بادرتهم برجال لا ينهنههـــــم   من رأيك الحزم أو من كفك الهـــذر
معودين قراع الموت قد ألفــــوا   أن لا يروعهم خوف ولا ذعـــــر
جيش اذا جاش طامي لجه غرقــت   في جنب تياره الافهـــام والفكـــر
لقد بطشتهم بطشا لو أنهــــم   صرف المقادير أو أحداثها خـــتروا
فاستشعروا الذل جلبابا وقادهــم   قسرا اليك سطى للاسد تنتســـر (١)

وقال يهنئ السلطان صلاح الدين بالفتح بقصيدة وأنشده أياها بمرج عكا ، أولها :

حدق الغانيات في القلب أنكــــى   من شفار الظبى وأعظم فتكـــــا

ومنها :

ما لجيش الفلاة في بحر دمـــــك   لا يحيلون الملجأ منه فكـــــا
صاح فيهم داعي البـــوار فللأقســـين أقذى ، وللمسامع سكـــا
فتراهم من التضاؤل كالوحـــــــم وكانوا تلك المناكب يمكـــا
يبيضون بيض يرون بهـــا الايــــام مسودة اللون حلكـــــا
بهم يا همام قد ضاقــــت الا   رض فأوسعتهم بوارا وهلكــــا

---

(١) عقد الجمان جـ ١٧ ق ١ ورقه ٢٣٨

أيقنوا بالبلاء منك وقـــد كـــان يقين الاوغاد من قبل شكـــا
وعدتهم بل أوعدتهم نفـــوس ... كان ميعادها غرورا وإفكـــا
ولبيض الهند الرقاق وسمـــر الـــخط آتت رؤوسهم دون عكـــا
فقتيـــل معفر ليـــس يـــودى ... وأسير مكبـــل لن يفكـــا
أنجاة وقد طرحت عليهـــم ... كلكلا يهدم الجبال ويركـــا
وتوخيتهم ببيض ظبـــاة ... كلها يهتك الضرايب هتكـــا (١)

---

(١) عقد الجمان ج ١٧ ق ١ ورقه ١٧٨ـ ١٧٩

يحث الى الخليفه العباسي حين نزل الفرنج بأرض الطور :

قل للخليفة لا زالت عساكـــــــــره | لها الى النصر إصدار وإيـــــــــراد
إن الفرنج بأرض الطور قد نزلـــــــوا | لا يغفلن فحصن الطور بغـــــداد (١)

(١)　الذيل على الروضتين ١٠٣

قال يمدح صلاح الدين ويهنئه بالفتوحات سنة ٥٨٣ :

أطلّت على أفقك الزاهـــر ... سعودٌ من الفلك الدائـــر
فأبشر فإن رقاب العـــدى ... تمد الى سيفك الباتـــر
وكم لك من فتكـــة فيهـــم ... حكت فتكة الاسد الخـــادر
كسرت صليبهم عنـــوة ... فلله درك من كاســـر
وغيرت آثارهم كلهـــا ... فليس لها الدهر من جابـــر
وأمضيت جدك في غزوهـــم ... فتعسا لجدهم العاثـــر
وأدبر ملكهم بالشـــآ ... م وولى كأمسهم الدابـــر
جنودك بالرعب منصـــورة ... فناجزْ متى شئت أو صابـــر
فكلهم غرق هالـــك ... بتيار عسكرك الزاخـــر
ثأرت لدين الهدى في العـــدى ... فآثرك الله من ثائـــر
وقمت بنصر اله الـــورى ... فسماك بالملك الناصـــر
وجاهدت مجتهدا صابـــرا ... فلله أجرك من صابـــر
تبيت الملوك على فرشهـــم ... وترفل في الزرد السابـــر
وتؤثر جاهد عيش البهـــا ... د على طيب عيشهم الناضـــر
وتسهر ليلك في حق مـــن ... سيرضيك في بعثك الساهـــر
فتحت المقدس من أرضـــه ... فعادت الى وصفها الطاهـــر
وجئت الى قدسه المرتضـــى ... فخلصته من يد الكافـــر
وأعليت فيه منار الهـــدى ... وأحييت من رسمه الداثـــر
لكم ذخر الله هذا الفتـــو ... ح من الزمن الاول الغابـــر
وخصك من بعد فاروقـــه ... بها لاصطفائك في الآخـــر
محبتكم ألقيت في النفـــو ... س بذكر لكم في الورى طائـــر
فكم لهم عند ذكر الملـــو ... ك لمثلك من مثل سائـــر (١)

(١) الروضتين ٢/١٠٥

قال حين أمر المعظم عيسى بتخريب القدس * :

مررت على القدس الشريف مسلّمـــا   على ما تبقى من ربوع وأنجـــم
ففاضت دموع العين مني صبابـــةً   على ما مضى من عصرنا المتقـــدم
وقد رام علج أن يعفّي رسومـــه   وشمّر عن كفي لئيم مذمـــم
فقلت له شلت يمينك خلهـــا   لمعتبر أو سائل أو مسلّـــم
فلو كان يُفدى بالنفوس فديتـــه   بنفسي وهذا الظن في كل مسلم (١)

---

(١) الذيل على الروضتين ص ١١٥ ـ ١١٦

(*) ذكر محمد زغلول سلام أنها قيلت بسبب تدمير التتار لها ، وهو غير صحيح ولا يستند الى رواية علمية (الادب المملوكي ج ٢ / ١١٣)

قال يمدح الوزير صفيّ الدين أبا عبد الله بن علي بقصيدة أولها :

ذكر الصبا منه لي هاجت صبابات ... سهامها في الحشا منها إصابات

ومنها :

ملك لصارمه والرمح في نحر الأ ... عداء بالثغر ضربات وطعنات
يرمي بأسهمه يوم النزال فما ... تردّهن الدروع السابريات
فالملك لا أودٌ فيه ولا خللٌ ... يوماً فدامت له ما شاء دولات
قل للفرنج الأُلى في عقر دارهمُ ... غزوا فجاست خلال الدار غارات
عودوا إلى حصركم فالسيف الذي زهقت ... به نفوسكم يدعو بأن تأتوا
قد أصبح ابن علي راقيا رتبا ... حسّاد من علي الباو السماوات
صوداً لفعال الخير قدّمه ... قدّامه غله في الخير عادات
للأولياء ولايات بها لبسوا الأيـ ... ـات منه وللأعداء ويلات
يا ناصر المذهب الميمون ناصره ... أبشر فبالفتح جاءتك البشارات (١)

وقال يمدح الملك الناصر صلاح الدين :

لله يوسف كم أغاث وغاثا ... وأباد من عبد الصليب وعاثا
يا أيها الملك الذي عزماته ... جعلت بزاة المشركين بغاثا
لما سبيت نساءهم وقتلتهم ... ودّ الذكور بأن تكون اناثا
أمدادهم التثليث للتوحيد يو ... م لقيتهم فقسمتهم أثلاثا
للسبي والبيض الرقاق والقنا ... ملك الممالك لا تزال تراثا
عزلتهم أطماعهم حتى إذا ... ما استيأسوا نقضتهم أنكاثا
حتتهم آجالهم فسقتهمُ ... بسلاكاسات المنون حثاثا
لم يحفروا تلك الخنادق حولهم ... الا لتجعلها لهم أجداثا (٢)

وقال يمدح صلاح الدين بفتح القدس سنة ٥٨٣ :

تبنى الممالك بالوشيج الأسمر ... والبيض تلمع في العجاج الأكدر
وبكل أجرد شيظم يعدو السـ ... ـهيجا بمقتحم المهالك أصعر

---

(١) ديوانه ص ٥٢

(٢) ديوانه ص ٥٩

والعدل والاحسان والمعروف مملوء الحياض لموسر ولمعسر
كفمال مولانا صلاح الدين ذي   المجد القدامى والعطاء الكوثر
أعيت وأعجزت البليغ صفاته   فالمسهب المنطيق مثل المقصر
خلعت عليه خلعة الملك التي   زيدت بهاء بالطراز الاخضر
أهدى صلاح الدين للإسلام اذ   أردى قبيل الكفر ما لم يكفر
رب الملاحم لم يهن مثلها   العلماء قدما في قديم الأعصر
من رام من كل الملوك مرامه   تخفق مساعيه ويكب ويعثر
من سنجر وأقل مملوك له   أعلى وأغلى قيمة من سنجر
يغزو الملوك الرعب قبل مسيره   في عسكر ما أغناه به من عسكر
هو كاسر كسرى ومتبع تبع   ذلا أحاط به وقاسر قيصر
فلجيشه ولعزمه متماثل   جيش الهرقل وعزمة الإسكندر
راياته صفرا تردن وتنثني   حمراً تمس نجيع آل الاصفر
لم لم تدن شوس الملوك له وقد   ملك السواحل في ثلاثة أشهر
واستنقذ البيت المقدس عنوة   من كل ذي نجس بكل مطهر
كم صابح من خيلهن رسغه   تاج لملك في التراب معفر
كم رد من ملك عزيز أصغر   يدعى بمملوك ذليل أصغر
ان الاقاليم التي هي سبعة   دانت لقسرا بسبعة أبحر
والسبعة الافلاك تخدم جده   حتى قوى كيوانها والمشترى
لم يأل مشتري الثناء بماله   حسنا فنعم المشترى والمشتري
تنهل يمناه بجدواه فخمس بنانه للخلق خمسة أنهر
كالنيل في مصر وسيحون وجيحون ودجلة والفرات الاكبر
فليهنه الفتح الذي سدت به   عن ملكه أبواب غدر الادهر
فتح تدانا كل فتح دونه   والشمس تكسف كل جسم نير
يا ناصر الاسلام فزت بمورد   حسن الثنا في العالمين ومصدر
البحر أنت لك السواحل بالشنا   سحب الحيا جودا وقاذف جوهر
انشأت ملحمة يقل بقاتل الفرسان بالعدو الذي لم يحصر
إعرابها ضرب السيار ونقطها   وقع النبال وخطها بالسمهرى
والحبر بحر دم تنقطت موجه   اذ ليس ثم سوى الثرى من دفتر
والبيض تنثر وهي غير خواطب   والسمر ناظمة وان لم تشعر
والخيل مطربة كأن صهيلها   شدو النحيلة في نسيب البحترى
نشوى تميد من السرور كأنما   صبحت كؤوسا من شراب مسكر
فلقد رأت الشراة يوم لقيتهم   وغدوت للاسلام عين المنشر
وأريتهم لما التقى الجمعان بالبيت المقدس هول يوم المحشر
وردت دين الله بعد قطوبه   بالمسجد الاقصى بوجه مسفر
وأعدت ما أبداه قبلك فاتحا   عمرو فأنت شريكه في المتجر
حتى جمعت لمعشر الاسلام بين الصخرة العظمى وبين المشعر

فلتفخرن البيت المقدس كفؤها … الحجر المفضل عند أفضل مشعر
فكأنه انسان عين صوره … يلقاك أسوده بمعنى أنور
جاءت جيوش الشرك يوم لقيتهم … يتداعون على متون الضمّر
وكأنهم بحر تدافع موجه … بلبس وزغف محكم ومسوّر
أوردت أطراف الرماح صدورهم … فولغن في علق النجيع الأحمر
فهناك لم ير غير نجم ثاقب … في أثر عفريت رجيم مدبر
ولوا وعقبان المنون مسفّة … والخيل تعثر بالقنا المتكسّر
لا ينظرون سوى حسام مشهر … ومن الدماء كأنه لم يشهر
رفعت سماء من سنابك خيلهم … مسودة أرجاؤها من عثّير
فالقوم نهب للسباع تنوشهم … من كل ذي ناب وصاحب منسر
فمن الذي من جيشهم لم يخترم … قتلا ومن من جمعهم لم يؤسر
حتى لقد بيعت عقائل أرهقت … بالسبي بالثمن الأخس الأحقر
من كل حوراء نحيل موشح … كالغصن ميادا ثقيل مؤزّر
وأوانس مثل الدمى سوافرا … من كاعب مثل الغزال ومعصر
آضت أسود هزبر ثعالب ذلة … منهم غرائر كل ليث قسور
ماتوا بغلتهم وأروى منهم … بيض الصوارم بالدم المتثعجر
صرعى كأنهم تماثيل من ال … كافور من دمهم ردعن بعنبر
ما قوبلوا بجحافل بل قوتلوا … بملائك حضرت بأيمن محضر
شكت الفيافي ثقل وطء جيوشه … فبناهم رصفا كبسط المرمر
فالخيل لا تمشي بها إلا على … هام مقدد توشحر أشقر
نهبت عفاة الطير من حدق بها … زرق فصوصا من نفيس الجوهر
كم أودعت دوية صحراء داوية … صرعوا بها في المعرك المتوعر
جعلت لها الثارات في آنافنا … أرج العرار وطيب عرق العنبر
بالسيف رد السيف بترا من دم … ينبوعه من هامة أو منحر
بحر صوارمه القنا وقلوعه … راياته والسفن من كل مضمر
حص الخوافي والقوادم من جنا … حيهم وشق القلب بالقلب الجري
حشدوا وكان الغدر بذرهم فقد … درسوا به وذروا بأوخم بيدر
ما إن ترى إلا مساكنهم وهم … صرعى الصوارم باليباب المقفر
سقت المماليك الكرام ملوكهم … كأسا به سقت اللئيم الهنثري
مضت الملوك ولم تنل عشر الذي … أوتيته من منجح أو مفخر
وبذاك أثنى الإله عليهم … يا مؤثرا أوزعت شكر المؤثر
أرسلت من خلل العجاج صواعقا … تهمي عليهم من فتوق كنهور
وعجمت عود صليبهم فكسرته … وسواك القاه صليب المكسر
أغلى الأداهم من أسرت وأرخصت … بيض الصوارم من نهاب العسكر
وجعلت شرق الأرض يحسد غربها … بل فهو داع دعوة لمستنصر
يرجو شفاء عليله ويؤمل الايـ … ـتاح فيه بمقتن ومقتر

فتَ الدائمُ يا صلاح الديـن فاعـ ـذرَ المبرز في الفصاحة فأعـذر

نجم العفاة يشبهونك في الندى ... والبأس جارت فكرة المتفكر

كم خازن لك مثل ألفي حاتم ... كرما وملوك كألفي عنتر

أفلاذ أكباد العباد طحا بها ... رب العباد الى سناك الأنور

واستعظم الاخبار عنك معاشر ... فاستصغروا ما استعظموا بالمخبر

ما كل ملك عند ما أوتيته ... الا قلامة بعض ظفر الخنصر

لا يَعْدُ مُلْكَ المسلمون فكم يد ... أوليتهم مسرفهام ينكر

أمنت سربهم ومنعت حريمهم ... ود رأت عنهم قاصمات الأظهر

لم تخل سمعا من دعاء مهنئ ... للمسلمين ومن سماع مبشر

ما إن رآك الله الا آمرا ... فيهم بمعروف ومنكر منكر

متواضعا لله جل جلاله ... وبه اضمحلت سطوة المتكبر

كم بالندى عان فككت وبالردى ... عات كففت بخوفه أمن البري

هل تعجزن صور مليكا ناصرا ... لله أين يسر يسر وينصر

حتى لخلنا أنه إن يلتمس ... نثراً لمنتظم الثريا ينثر

ما سور صور عاصم منه وهل ... سور المعاصم عاصم لمسور

فلينحلك البحر درة تاجه ... اذ رعته بخميسك الذ...

بحر زعاق ماؤه يتكدر ... يصنو لبحر ثاب غير مكدر

فانهد لصور فهي أحسن صورة ... في هيكل الدنيا بدت لمصور

لما ملكت حصون انطاكية ... يضربها الصليب وحزبه من مظهر

أرديت كل مثلث متكبر ... بموحد متواضع متكبر

برزت الى (نرزية) عزمك التي ... مدت يدا عن مطلب لم يقصر

فتناولته بأيديها ... بسامخ ... في الافق ذي مثل يروح مسير

عش عمر نوح يا ابن أيوب وكن ... ملكا سليمانا وجاهد وأظفر

ينبوك كالاسباط كل منهم ... في الملك يبلغ عمر سبعة أنسر

غازت تداعكم وكل ملوكها ... بدم ثليس مسرا للموسر

لا زال خالكم الضليل ولا خلت ... من ذكركم في الدهر ذروة منبر (١)

وقال أيضا يمدحه بقصيدة مطلعها :

لحاظ المهى لا بابل تنفث السحرا ... وخمر اللمى ينسي عريفين والخمرا

ومنها :

فجودك عم العالمين وخصهم ... ولم نر جودا قبله ملأ الدهرا

أبى لك الثم المسر اعالك السمرا ... ورشف ثغور البيض ان تملقا لثغرا

وخم الحصان البكر ركضك في الوغى ... حصانا عليه تفتك الفتكة البكرا

---

(١) ديوانه ص ١٤٠ والروضتين ج٢ ص ٨٤ ، ١١٨ ، ١٢٦

وحيّاك تطنيب الخيام مقوّضـــا ... خيام العدى بالقسر أن تألف القصـــرا
وإيرادك الرايات حمرا سواد يـــا ... وإصدارها ريّا تمجّ دما حمـــرا
فمثلك تمشي الروح شعثا ضوامـــرا ... شوازب قد عوّدتها الفتح والنصـــرا
ترى الحرب روضا والدروع بها أضـــى ... وسمر القنا دوحا وفرسانها زهـــرا
سنابكها عزت بإذلال العـــدى ... غداة غدودا كنّ من عزها صعـــرا
وكم قلعة أنكحتها السلم عاصمـــا ... وطلقت منها بعد عصمتها الكفـــرا
فغنى بها الاسلام رافع صوتـــه ... ينوّه والاعداء تنظرها شـــزرا
وما أنكحونا طائعين فتاتهـــم ... ولكنّ نكحناها بأسيافنا قســـرا
وجاءت جيوش الشرك تطلب ثارهـــا ... لديك فكانوا الهدي ينتظر النحـــرا
أتوك وأفواه المنايا فواغـــر ... لتطعمهم شزرا وتضربهم هبـــرا
ضربت الشنا في أخدعيه مجاهـــدا ... فغادرت سهلا منك ما لم يزل وعـــرا
فجيعك ما يتيقظ عن العـــدى ... ولا خائف من صقع ولا هاب حنبـــرا
صبور كأن الصبر أرسي بصـــوره ... اذا ما رأت أعداؤك الصبر الصبـــرا
قلوب الالى خلف الفرنجة كلهـــم ... وأنت بأرض الشام طائرة ذعـــرا
جزاك إله الناس خير جزائـــه ... وخوّلك الدنيا وأوزعك الشكـــرا
فلا يوم إلا فيه نقع مجـــدد ... تريد به بشرا وتهدي لنا بشـــرى (١)

وقال يمدح الملك موسى بن الملك العادل وكان نازلا على الطور للغزاة :

هنيئا لقد أوتيت سؤلك يا موســـى ... بجدّ وجدّ كلمه الدهر ما يوســـى
وجيش ظلام حلّق الطير فوقـــه ... ستضحي لكم أحشاؤهن نواويســـا
ورمي سهام عن قسيّ ينبضهـــا ... تغادر من رامته في الترب مرموســـا
كأن كماة الترك عند نزالهـــم ... ملائكة بالشهب ترمي الأباليســـا
وقد جالت الاكراد بالسمر والظبـــى ... تصيد الملوك الصيد والاسد الشوســـا
اذا الحرب الشم الانوف تنمـــروا ... به كان كلّ بالمقدّس ديســـا
وليس لموسى من عصا غير صـــارم ... تكبّ على الاذقان ضرباته الروســـا
وثعبانه الرمح الاصم لسانـــه ... ينضنض في سم المنية مغموســـا
ويزجي سحابا من سنابك خيلـــه ... بلمع الظبى والبيض تجلو الحناديســـا
فيرمي انكبارا بانكدار الى لظـــى ... ويركض في قعر المنية مركوســـا
اذا أشرقت للأشرف الليل رايـــة ... تنكّست الصلبان بالكسر تنكيســـا
وقد نطقت بالنصر بيض سيوفـــه ... كما أخرست رنّاتهن النواقيســـا
ثعالب أطراف الرماح بلدن فـــي ... أضى الزرد الضافي على الأسد ملبوســـا
هو البحر لولا البحر فيه ملوحـــة ... هو الليث لولا أن في الليث تعبيســـا
هو الخضر المشهور نشرا وســـؤددا ... ويوسف حسنا وأنا موسى تجد موســـى

---

(١) ديوانه ص ٢١٢

ويحمده عيسى على فتكاتـــه ... بجحفله في أمّة عبد عيسى
وما زال يرضي الله سرا وجهرة ... ويسخط في كل المواطن أبليسا
اذا قال لم يترك مقالا لقائل ... ولو كان تطبيقا يروح وتجنيسا
الى جود ما أشكو من الكرب التي ... أؤمل أن ألقى لها منه تنفيسا
فلا ترض في حكم الزمان فانني ... أرى حكمه أدلة صار محكوسا
ففيه الذنابى الرأس والرأس أصبح الـ ... ـذنابى من الطير الذي ليس طاووسا
هو الهازم الالاف في الروع وحده ... ومعطي ألوفا فضة تملأ الكيسا
فما جنده الا أسود خفية ... تخذن لها سمر القنا اللدن عريسا
فكلهم (أبن المرد بيش) شجاعة ... أجل وهم عند النوال ابن باديسا
فكم من رحى حرب أدار بها سقى ... بها السمر والبيض الرقاق الدبابيسا
هو الاسد الحامي الحقيقة قد مضى ... ومن ذا يرد الليث عن منعه الخيسا
على الطور ناجى الله موسى بنصره ... فيا لطور ثغر السلم أصبح محروسا
عمارته خربت أعمار تابدي الصـ ... ـليب وفيه أشهر النصر تأسيسا
فلا مشمخرا في السطائب ساوه ... يرد تسبيحا هناك وتقديسا
مظفّر دين الماجد الذي تدومه ... الى القدس أمنا لايزال وتأنيسا (١)

وقال يمدح الملك الأفضل نور الدين علي بقصيدة مطلعها :

أريقك أم صهباء في الكأس اسفنط ... وثغرك أم درّ تضمنه السمط

ومنها :

وهل عنه نهاد الصليب وخيله ... سواهم ومن تحت العجاج لها نحط
حكوا بلة الضأن المزق شملها ... سراحين من فرسانه في العضا شُمّط
فما عطفتهم عند ذلك رحمة ... ولا رحم لما استبيحوا لهم أط
فمنهم قتيل أو أسير ومنهزم ... جريح ومستول على جنبه الشحط
فإن بكرا العادون أغنامهم الرضى ... فمن بأسه العادون أغنامهم السخط (٢)

وقال يمدح صلاح الدين ، ويذكر نزول الفرنج على دمياط وهزيمتهم عنها : مطلعها :

لاجفانك المرضى الصحاح التواتل ... فواتك فينا وهي للسحر بابل

ومنها :

تخال ملوك الارض خاضعة له ... فكل عظيم عنده متضائل
جحافل أسد تزأر في الوغى ... وما غيلها الا القنا والقنابل

(١) ديوانه ص ١١٢   (٢) ديوانه ص ٢٥٥

يسير بجيش يرجف الارض باسه ... وتبدو لها في كل قطر زلازل
خميس له الرايات ظل وفوقه ... من الطير ظل يحجب الشمس سادل
تراطن فيها العجم من كل جانب ... وترتجز العرب الكرام البواسل
دروعهم سحب تلوح خلالها ... وجوههم فيها البدور الكوامل
هم الاسد الا أن غيلهم اذا ... سروا مشرفيات وسمر ذوابل
أسنتهم والليل تقضي نجومه ... رجوم بأكباد الاعادي أوافل
اذا ما اشتكت يوما أسنتهم صدى ... فليس لها الا الدماء مناهل
متى عاينته المشركون تقطعت ... لهيبته أكبادهم والمفاصل
ولا غرو أن عاد الفرنج هزيمة ... ولو لم تصد لم يبق للضرب ساحل
وقد علموا لو أنهم ثبتوا له ... اكانوا كما سروا رعته المناصل
وطارت رؤوس منهم وقوانس ... الى حيث صارت في الهياج القساطل
فقد ألفت أعداؤه أن حظهم ... لديه رماح أشرعت وسلاسل
ولما أتوا دمياط كالبحر طاميا ... وليس له من كثرة القوم ساحل
يزيد عن الاحصاء والعد جمعهم ... ألوف ألوف خيلهم والرواحل
رأوا دونها أسداً بأيديهم القنا ... وبيضا رقاقا احكمتها الصياقل
سيوفهم فيها نسور قشاعم ... ونيش لأشلاء الملوك أواكل
وداروا بها في البحر من كل جانب ... ومن دونها سد من الموت حائل
رجا الكلب ملك الروم اذ ذاك فتحها ... فخاب مناه الملك والروم خابل
فأضحى عقاب المؤذون مرامها ... وأنى ينال الحزم المتناول
فعادوا على الاعقاب منها هزيمة ... كأنهم فلا نعام جوافل
فلا رأي الاخيه بالضرب صارم ... ولا صدر الاخيه بالطعن عامل
اذا الله يوما كان ناصر معشر ... فليس لهم في سائر الخلق خاذل
وما أملوا أن يلحقوا ببلادهم ... لتعصمهم ما رأوه المعاقل
فيا أيها البحر الذي عم جوده ... وقام بما لم تستطعه الاوائل
وحارب حتى قيل أفنى عداته ... ونول حتى قيل لم يبق سائل
وطبق سهل الارض والحزن عدله ... بمصر فقالوا لم يكن قبل عادل
سحاب على الاعداء تمطر نقمة ... وفيه لمن والاه جود ونائل
فكل لسان دار في فم ناطق ... له بالدعا والشكر لله جاعل
فيوسف أيوب بمصر سماحة ... ليوسف يعقوب النبي مساجل
فما نيل مصر جاريا غير كفه ... وأحسانه ان ضنت السحب وابل
هو السيف لا تنبو له الدهر نبوة ... ولا مثله يوما يقلب ذابل
حليم عليم بالديانات صدره ... فقد زاديه أن تكلم باقل ... الخ (١)

---

(١) ديوانه ص٢١٥ وانظر عقد الجمان ج ١٢ ق ٢ ورقة ٤٥٧

وقال يمدح الملك الافضل علي بن صلاح الدين ، بقصيدة مطلعها :

أنا بالغزلان وبالغـــــــــــــزل	عن عذل العاذل في شغـــــــــل

ومنهـــا :

ورنى الاتيان على النهـــــــــوات	الى الاقتاب على الابـــــــــل
فالخيل تسير بالتجـــــــــا	ن وبالاشلاء وبالقلــــــــــل
أيروى بالساحل بحر دم	فالبحر لديه كالوشـــــــــل
وسطا التأييد بانتـــــــــار	حجن وبانيـــاب صـــــــل
فالفرا مقال منخـــــــذل	والسلم مدال ذو جدل ... الخ (١)

وقال يمدح الملك الأمجد مجد الدين صاحب بعلبك بقصيدة مطلعها :

أوضح البرق بعلياء منـــــــــين	مؤذنا بالنصر والفتح المبـــــــين

ومنهـــا :

كانت الافرنج أصناما وكـــــــم	من حنيف راغ ضربا باليمـــــــين
وفتاة دونها الشمس علـــــــى	خوط بان فوق تل الياسمـــــــين
دامة بل دمية في هيكـــــــل الـــــــ	بيعة الروم لديها ساجديـــــــن
يمسك الأسقف في تقريبهـــــــا	قلبه خوفا عليه أن يبـــــــين
ألزم التوحيد في حبي لهـــــــا	وترى في الحب رأي المشركـــــــين
وساعتدي عليها الملـــــــك الامـــــــ	جد المسعود في دنيا وديـــــــن
أسأل الباري أن يملكهـــــــا	ثم يحبوني بها ، قولوا آمـــــــين
فهو بالعدل وبالاحسان والجـــــــ	د وبالانصاف في الحكم قمين ... الخ (٢)

---

(١) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٣٢٧

(٢) الروضتين جـ ١ ق ٢ ص ٤٨٣ ، ديوانه ٤٨٥

كتب الى الملك الكامل الابيات التاليه وألقاها اليه بسهم نشاب لان الفرنج كانوا يحاصرون دمياط وهو فيهـــا :

يا مالكي ، دمياط ثغر دنّه متمـــت ... زفراته ، كادت تجتث أصولـــــه
تقريك من أزكى السلام تحيــــــة ... كالمسك طاب دقيقه وجليلــــــه
ويقول عن بعد وأنك سامــــــع ... حتى كأنك جاره ونزيلـــــــه
يا أيها الملك الذي ما ان يـــــرى ... بين الملوك شبيهه وعديلـــــه
هذا كتاب مؤنبي من حالـــــتي ... ما ليس يمكنني لديك أقولـــــه
أشكو إليك عدوّ سوء أحدقــــت ... بجميعه فرسانه وخيولـــــــه
فالبر قد منعت اليه طريقـــــه ... والبحر عز لنصره أسطولـــــه
مخضوعة بادٍ على أبراجــــــه ... وحنينه وبكاؤه وعويلــــــــه
ولو استطاع لأمّ بابك لائــــــذاً ... لكن سُدّت عليه سبيلـــــــه
ورسوله في أن تجيب دعـــــاءه ... دين الاله وخلقه ورسولـــــه
فقد انتهت أدواؤه وتحكمـــــت ... علاته ونحا عليه نحولـــــــه
وبقي له رمق يسير يُرْتَجـــــى ... أن يشتفي لمّا دهاك عليلـــــه
فاحزم حماك بعزمة تشفي بهـــا ... داءً لمثلك يرتجى تعليلـــــه
فالله أعطاك الكثير بفضلـــــه ... ورضاه من هذا الكثير قليلـــــه
فالعذر في نصر الاله ودينـــــه ... ما ساغ عند المسلمين قبولـــــه
والثغر ناظره اليك محـــــدّق ... ما ان يملّ من الدنو همولـــــه
ولئن قعدت عن القيام بنصـــره ... جمعت نضارته وبان ذبولـــــه
ووهت قوى القرآن فيه ورفعـــت ... صلبانه وتلى به أنجيلـــــــه
وعلا صدى الناقوس في أرجائـــه ... وخفي على سمع الورى تهليلـــه
هذا وحقك وصف صورة حالـــه ... حقا وجملته ، وذا تفصيلـــــه
وكفاك يا ابن الاكرمين بأنـــه ... أضحى عليك من الورى تعويلـــه
حقّق رجاءً فيك يا من لم يخـــب ... أبدا لراجي جوده تأميلـــــه
وأذخر ليوم البعث فعلاً صالحــاً ... الله ضامنٌ أجره وكفيلـــــه (١)

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ق ١ ص ١٩٩

قال في رثاء القدس سنة ٦١٦ هـ :

أعيني لا ترقي من العبرات   صلي في البكا الآصال بالبكرات
لعل سيول الدمع يطفي فيضها   توقد ما في القلب من جمرات
ويا قلب أسعر نار وجدك كلما   خبت بادكار يبعث الحسرات
ويا فم بح بالشجو منك لعله   يروي ما ألقى من الكربات
على المسجد الأقصى الذي جل قدره   على موطن الأخبات والصلوات
على منزل الأملاك والوحي والهدى   على مشهد الابدال والبدلات
على سلم المعراج والصخرة التي   أنافت بما في الارض من صخرات
على القبلة الاولى التي اتجهت لها   صلاة البرايا في اختلاف جهات
على خير معمور وأكرم عامر   وأشرف مبنية لخير بناة
وما زال فيه للنبيين متعبد   يوالون في أرجائه السجدات
هنا المسجد الاقصى المبارك حوله الـ   ـرفيع العماد العالي الشرفات
غدا بعد ما قد كان للخير موسما   وللبر والاحسان والقربات
يوافي اليه كل أشعث قانت   لمولاه برّ دائم الخلوات
خلا من صلاة لا يمل مقيمها   توشح بالآيات والسورات
خلا من حنين التائبين وحزنهم   فمن بين نواح وبين بكاة
لتبك على القدس البلاد بأسرها   وتعلن بالاحزان والترحمات
لتبك عليها مكة فهي أخته   وتشكو الذي لاقت الى عرفات
لتبك على ما حل بالقدس طيبة   وتشرحه في أكرم الحجرات
لقد أشمتوا عكا وصور بهدمها   ويا طالما غادتهما بشمات
لقد شتتوا عنها جماعة أهلها   وكل اجتماع مؤذن بشتات
وقد هدموا مجد الصلاح بهدمها   وقد كان مجدا بالغ الشرفات
وقد أخمدوا صوتا وصيتا أثاره   لهم عظم ما نالوا من الغزوات
أما علمت أبناء أيوب أنهم   بمسعاته عدوا من السروات
وأن افتتاح القدس زهرة ملكهم   وهل ثمر الا من الزهرات
فمن لي بنوّاح ينحن على الذي   شجاني بأصوات لهن شجاة
يرددن بيتا للخزاعي قاله   يؤبن فيه خيرة الخيرات
مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحي مقفر العرصات* (١)

---

(١) الروضتين ٢/ ٢٠٥ وانظر مفرج الكروب ٤/ ٢٤٦

(*) نسبها د. عبد اللطيف حمزه الى ابن الجوزي (الادب المصري ص ٦٢)

ست الفخر (مغنية الملك الاشرف)

قالت تمدح الملك الاشرف وتذكر كسرة الفرنج في يوم دمياط سنة ٦١٨ :

ولما طغى فرعون عكا وقومـــــــــــه — وجاء الى مصر ليفسد فـــــي الأرض
أتى نحوهم موسى وفي يده العصـــــا — فغرّقهم في اليمّ بعضاً على بعـــــض

فقامت مغنية الملك الكامل وغنت على العود :

أيا أهل دين الكفر قوموا لتنظـــــروا — لما قد جرى في وقتنا وتجـــــــددا
أعبّادَ عيسى إنّ عيسى وقومـــــــه — وموسى جميعاً ينصرون محمــــــدا (١)

(١) مفرج الكروب ج ٤ / ١٠٥ ، المقريزي ج ١ ق ١ ص ٢٠٩

قال يمدح السلطان موسى الأشرف :

للذة العيش والأفراح أوقات ... فانشر لواء له بالنصر عادات
أمام جيشك أنّى سار أربعة ... نصل ونصر وآراء ورايات
تحت قبل القنا آساد معركة ... لها ثبات وفي الهيجاء وثبات
أهلة في سماء من مناقبها ... لها الكتائب أفلاك وهالات
تهتز أعطافهم يوم الجلاد إذا ... غنت لهم من بنات القين قينات
صفائح هي ان دب المنون بها ... صحائف كتبت فيها المنيات
ان مس شمس الضحى من لمعها رمد ... كحلنها بالعجاج الأعوجيات
جرد كرائم تلقى عن فوارسها ... شبى الأسنة أعناق وليات
مستشرفات بآذان موكلة ... لها الى الثغر من دمياط حاجات
الويل للروم والأفرنج من ملك ... لمن النصر والتأييد عادات
أين المفر لسرب الروم من أسد ... ضار لهن رماح الخط غابات
دمياط طور ونار الحرب موقدة ... وأنت موسى وهذا اليوم ميقات
ألق العصى تتلقف كل ما صنعوا ... ولا تخف ما حبال القوم حيات
طاهم بجيشك لا تحفل بكثرتهم ... كأنهم لبنات الطير أقوات
أنت الصباح فمزق ليل كفرهم ... واصبر ورابط فللأعمال نيات
زلزل بغارتك الشعواء دارهم ... فشيمة النجب الغر الأغارات
أصبتهم بسهام الرأي من حلب ... وللمكائد من بعد إصابات
فطهر الله ذاك الثغر من قلح ... أصابه وانجلت تلك الثنيات
تذكروا يوم صفين وما لقيت ... من حد سيفك عرنا والقليعات
قتلا وسبيا وأسرا وانتهاب ثرى ... لله كم أحسنت تلك الاساءات
شننتها غارة كالنار محرقة ... للكفر وهي على الاسلام جنات
للمن ثغر دمياط وبرزخها ... فتح له تفتح السبع السموات
شرحت صدر رسول الله وانتصرت ... بنصرة الدين والدنيا غمامات
يوم على الروم ينشى ريحه سحبا ... أمطارهن مصيبات مصيبات
رأوا جيوش بني أيوب يقدمها ... ليث له في بيوت الشعر سجمات
فللرماح كلاهم أو صدورهم ... وللصوارم أعناق وهامات
تخلق البحر ذاك اليوم من دمهم ... والموت ترقصه تلك المسرات
تقاء لوا أن عيسى نصرة لهم ... فقلت بينهما فرق وأشتات
هذا تموت به أحياؤكم أبدا ... وذا تحيا به في الترب أموات
بوادر وهنوا من هن صدمتها ... فكيف لو قد أتت منها النهايات
تق يا أبا الفتح بالفتح المبين فلم ... تنسب لغير أبيهن الفتوحات
عكا وصور الى رؤيات عاطشة ... فانهض فقد أظمئت منهن فلوات

واستخبر الصريح عنها اذ تسيره ... اليك فهو سالمٌ أو تحيات

الله أكبر ان تنسى مزامره ... تتلى وتنسى من القرآن آيات

وان يخور على القربان عجله ... جهرا ويخفى آذان أو تصلوات

ما كل من طلب العلياء أدركها ... ورانقت سعيها سادات (١)

وقال يمدح الأشرف ويرثي الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين ويمدح ولده الملك العزيز ثم يعود الى مدح الاشرف ويهنيه بالعيد ويحرضه على قتال الفرنج ، بقصيدة مطلعها :

هويته رشأ الطرف والجيد ... بدر ما بين تصفيف وتجعيد

ومنها :

يا قاصد الأشرف أمسك عن سؤال فتى ... إلى المكارم صب القلب معمود

أغريلقاك بالاحسان معتذرا ... عذر المسيء على مطل ترديد

الماقد الرأي في أعلام عسكره ... فان نشرن فعن نصر وتأييد

القائد الجيش كالبحر الخضم ... أمواجه غير سيد أو صناديد

موى اذا اعتقلوا المران خلتهمو ... أسدا تأبطن أمثال الأساويد

تجلو لهم في ظلام النقع غرته ... مواقع الطعن من نحر وتوريد

وتستعير مواضيهم عزائمه ... فما يدعن وريدا غير مورود

يا مخلفا ظن كيكاووس حين أتى ... يغزو معاقل اسلام وتوحيد

في جحفل عذبات الكفر خافقة ... من جانبيه يمشي غير معدود

فاستقبلته من الاسلام شرف ... فبددت شمله في المهمه البيد

نجا وأسلم للغربان أسرته ... فسيد القوم رزق النسر والسيد

لو شاء شا * أرمن ما فاته د ... لكن عفا عن أسير القلب مطرود

ورد أسراه بعد السلب في نعم ... ولو أطاق لأحيا كل مفقود

هذا هو الجود لا قسبان من لبن ... والجود بالنفس أقصى غاية الجود (٢)

وقال يمدح الملك العادل ويذكر بناءه لقلعة الطور ، بقصيدة مطلعها :

تنقبت بالنّور والنّور ... واعتجرت لكن بديجور

ومنها :

يا ليلتا لوصل أستقرى ويا ... سيرة سلطان الورى سيري

الملك العادل من أمة ... فقد رأى موسى على الطور

---

(١) ديوانه ص ٥٥

(٢) ديوانه ص ٦٢

(*) في الديوان : شاه وينكسر الوزن بذلك

ان كان قد دك قديما فقد ... عمرته أحسن تعمير
كأنها على مفترق ... اذا استدارت شرف السور
يزاحم النجم له منكب ... كالنجم في الرفعة والنور
كأنما أوقفته حارسا ... ينظر من عكا الى صور
فكلما لاح له بارق ... يرتقب الصقر من الصدور
بني سليمان بأعوانه ... وأنت بالنصر الجماهير
تعاقب الاحجار أيديهم ... لا ترتضي لصرالدنانير
وانت لك الدنيا وسكانها ... ما بين آمار ومأمور
تجري المقادير بما تشتهي ... ما بين تعسير وتيسير
سعادة ليس لها آخر ... ولا ليوم النفخ في الصور
هل يقدر الأعداء أن يمسحوا ... ما خط في لوح المقادير؟
يا ملكا تنسخ أيامه ... ما خط من أفك الاساطير
أسهره الذب عن الدين لا ... عشق ربيبات المقاصير
مؤيد الرايات والرأي في ... حالة تدبير وتدمير
ان جنحوا للسلم فاجنح لها ... ما خدع الحرب بتقصير
كم لك في يافا وفي الرين من ... وقائع غر مشاهير
عشرون ألفا غير أتباعهم ... ما بين مقتول ومأسور
طهرت بيت القدس من رجسهم ... وكان مأوى للخنازير
يا ذاكراً لله يا ناسيا ... للصرف من كثرة تكرير
الى محل الأجر والشكر يا ... أكرم مأجور ومشكور (١)

---

(١) ديوانه ص ١٠ ـ ١٢ وانظر مفرج الكروب ٣/١١٦ ـ ١١٧ وتاريخ ابن الفرات مجلد ٥ ج ١ ص ١٢٤ ـ ١٢٥

راجح الحلـــي ـ٦٢٧

قال يهنئ أبناء العادل الذين اجتمعوا وطردوا الفرنج من دمياط سنة ٦١٨ :

هنيئا فان السعد راح مخلـــدا — وقد أنجز الرحمن بالنصر موعـــدا
حبانا اله الخلق فتحا بدا لنـــا — مبينا وإنعاما وعزا مؤيـــدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبـــه — وأصبح وجه الشرك بالظلم أســـودا
ولما طغى البحر الخضم بأهله الـــطغاة وأضحى بالمراكب مزبـــدا
أقام لهذا الدين من سل سيفـــه — صقيلا كما سل الحسام مجـــردا
فلم تر إلا كل شلو مجـــدل — ثوى منهم أو من تراه مقيـــدا
ونادى لسان الكون في الأرض رافعـــا — عقيرته في الخافقين ومنشـــدا
أعباد عيسى إن عيسى وحزبـــه — وموسى جميعا ينصران محمدا * (١)

---

(١) الذيل على الروضتين ١٢٩ ـ ١٣٠ وانظر النجوم الزاهرة ٦/ ٢٤١ وابن كثير البدايه والنهايه ١٣ / ٩٥

(*) نسبها المقريزى الى هبة الله بن محاسن (السلوك) جـ١ ق١ ص ٢٠٩

قال يمدح المعظم عيسى ويذكر يوم دمياط ، بقصيدة مطلعها :

عسى البارق الشامي يهمي سحابه فتخضرّ أثباج الحمى ورحابه

ومنها :

ومستخبر عنا وما من جهالة كشف الغطا عنه نزال ارتيابه
وأذكرته أيام دمياط بيننا وبين العدى ، والموت تهوى عقابه
وجيشا خلطناه رحاب صدوره بجيش من الأعداء غلب رقابه
وقد شرقت زرق الأسنة بالدما وأنكر حد المشرفي ترابه
وعرد إلا كل ذمر مناهض ونكب إلا كل زاك نصابه
تركناهم في البحر والبر لحمة تقاسمهم حيتانه وذئابه
ويوم على القيمون ما جت متونه بزرق أعاديه وغصت شعابه
نثرنا على الوادي رؤوسا أعزة لكل أخي بأس منيع جنابه
ورضنا ملوك الارض بالبيض والقنا فذل لنا من كل قطر صعابه
فكم أمرد خط الحسام عذاره وكم أشيب كان النجيع خضابه
وكم قد نزلنا ثغر قوم أعزة فلم نرتحل حتى تداعى خرابه
وكم يوم هول ضاق فيه مجالنا صبرنا له والموت يحرق نابه
يسير بنا تحت اللواء سميدع كريم السجايا طاهرات ثيابه
نجيب كصدر السمهري منجب الـ ـسرايا كريم الطبع صاف لبابه
من القوم وضاح الأسرة ماجد الى آل أيوب الكرام انتسابه
تفرج ضيق القوم عنا طعانه وشتت شمل الكفر عنا ضرابه
وأصبح وجه الدين بعد عبوسه طليقا ولولاه لطال اكتئابه
جهاد لوجه الله في نصر دينه وفي طاعة الله العزيز احتسابه
حميت حمى الاسلام فالدين آمن تذاد أقاصيه ويخشى جنابه
وما بغيتي الا بقاؤك سالما لذا الدين لا مال جزيل أثابه (١)

وقال يرثي الملك المعظم عيسى بن الملك العادل سنة ٦٢٤ بقصيدة مطلعها :

يا دهر ويحك ما عدا مما بدا أرسلت سهم الحادثات فأقصدا
أغمدت سيفا مرهفا شفراته قد كان في ذات الاله مجردا
فافعل بجهدك ما تشاء فانني بعد المعظم لا أبالي بالردى
ما خلته يفني وأبقى بعده يا بؤس عيشي ما أمر وأنكدا

---

(١) ديوانه ص ١٩ ـ ٢٢.

لهفي على بدر تغيب في ثـرى ... رمس وبحر من ضريح الحـدا
أبقيت لي يا دهر بعد فراقـه ... كبدا مقرحة وجفنا أرمـدا

ومنهـا :

لولا دفاعك بالصوارم والقنـا ... عن حوزة الاسلام عاد كما بـدا
وديار مصر لو ونت عزماتـه ... عن نصرها لتمكنت فيها العـدى
ولأمستا لبيض الحرائر أسهمـا ... فيها السبايا والموالي أعبـدا
ولأصبحت خيل الفرنج مغيـرة ... تجتاب ما بين البقيع الى كـدى
ويشن دماطفكم من بيعـة ... عبد الصليب بها وكانت مسجـدا
أنقذتها من خطة الخسف التـي ... كانت أحلتها الحضيض الأوهـدا
أجليت ليل الكفر عنها فانطـوى ... وأنرت في عرصاتها فجر الهـدى
ولقد شهدتك يوم تيماريسة ... والشمس قد نسج القتام لها ردا
والكفر معتصم بسور مشـرف الابـ ... ـراج أحكم بالصفيح وشيـدا
فجعلت عاليها لكان أساسهـا ... وألنت للأخشاب فيها الجلمـدا
قل للأعادي أن فقدنا سيـدا ... يحمي الذمار فقد رزقنا سيـدا
الناصر الملك الذي أضحـى بـرو ... ح القدس في كل الأمور مؤيـدا
أعلى الملوك محلة وأسدهـم ... رأيا وأشجعهم وأطولهم يـدا
ماضي العزيمة لا يرى في رأيـه ... يوم الكريهة حائرا مـترددا
يقظ يكاد يريه ثاقب فكـره ... في يومه ما سوف يأتيه غـدا (١)

وقال يمدح بني أيوب بمصر ويذم العجم بقصيدة مطلعها :

أرى شانيك شانهما أنجـاس ... تجنب هلتيك له النعـاس

ومنهـا :

ملوك دأبهم شرف ومجـد ... ودأب سواهم طرب وكـاس
فلولا آل أيوب بن شـاذي ... لكان لمعهد الجود اندراس
يداف بهم مما هم كل ذي مشـر ... له في غمرة الموت انغمـاس
هم تركوا صليب الكفر أرضـا ... يداس وكان معبودا يبـاس
وأرغم بأسهم آناف قـوم ... تجنبها لعزتها العطـاس
أولو عدل يموت الليث منـه ... طوى ويجنب مأواه الكنـاس
بأحلام موقرة اذا مـا ... تزعزع يذبل وهفا قسـاس
بنوا في ذروة العلياء بيتـا ... لمجد هم علوا فيه ارتجـاس
فمن سمر الرماح لهم عمـاد ... ومن بيض الصفاح لهم أسـاس (٢)

---

(١) ديوانه ص ٥٩ ـ ٦٢
(٢) ديوانه ص ٣٢ ـ ٣٤

وقال يمدح الملك الأشرف موسى :

تسما بمن ضمت أبا بلج مكة   ومن حواه من الحجيج الموقف
لو لم يقم موسى بنصر محمد   لسلا على دين الخطيب الأسقف
لولاه ما ذلّ الصليبُ وأهله   في ثغر دمياط وعز المصحف (١)

وقال يمدح الملك الأشرف موسى بن العادل بقصيدة أولها :

جنح الشباب الى الصدود توصلا   ريم رمى فأصاب مني مقتلا

ومنها :

ملكٌ غدا جيد الزمان بجوده   حالٍ ولولاه لكان معطلا
يا أيُّها الملكُ الذي إنعامه   لم يبقَ في الدنيا فقيرا مرملا
لقد اتقيت الله حق تُقاته   ونهجت للناس الطريق الأمثلا
وعدلت حتى لم تجد متظلما   وأخفت حتى صاحب الذئب الطلى
ورفعت للدين الحنيف مناره   فعلا وكنت بنصره متكفلا
لولاك لا نفصمت عرى الاسلام في   مصر وأخمل ذكرُه وتبدلا
وتحكمت فيها الفرنج وغادرت   أعلامُها محراب عمرو هيكلا
حاشا لدين أنت فيه بالفر   أن يستباح حماه أو أن يخذلا
أنت الذى أجليت عن حلب العدى   وحميت بالسمر اللدان الموصلا
كم موقف ضنك فرجت مضيقه   وطريقه لخفائه قد أشكلا
كم يوم هول قد وردت وطعمه   مر المذاق كريه نار المصطلى
ونثرت بالبيض المهندة الطلى   ونظمت بالسمر المثقفة الكلى
فالله يخرق في بقائك عادة الدنيا ويعطيك البقاء الاطولا (٢)

وقال يمدح الكامل ويذكر وقعة الفرنج على ثغر دمياط سنة ٦١٦ :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عنا   اذا جهلت آياتنا والقنا اللُّدنا
غداة لقينا دون دمياط جحفلا   من الروم لا يحصى يقينا ولا ظنا
قد اتفقوا رأيا وعزما وهمة   ودينا وان كانوا قد اختلفوا لسنا
تداعوا بأنصار الصليب فأقبلت   جموع كأن الموج كان لهم سفنا
عليهم من الماذي كل مفاضة   ولا من كقرن الشمس قد أحكمت وضنا
وأطمعهم فينا غرور فأرقلوا   الينا سراعا بالجياد وأرقلنا
فما برحت سمر الرماح تنوشهم   بأطرافها حتى أستجاروا بنا منا
سقيناهم كأسا نفت عنهم الكرى   وكيف ينام الليل من عدم الأمنا

---

(١) ديوانه ص ١٤ ـ ١٥
(٢) ديوانه ص ٩ ـ ١٢ وانظر مفرج الكروب ٤ / ٢٢٠ وعقد الجمان جـ٨ ق ١ ورقه ٥٨

لقد صبروا صبراً جميلاً ودافعوا ... طويلاً فما أجدى دفاع ولا أغنى

لقوا الموت من زرق الأسنة أحمرا ... فألقوا بأيديهم الينا فأحسنا

وما بين الاحسان منا سجية ... توارثها عن صيد آبائنا الابنا

منحنا بقاياهم حياة جديدة ... فعاشوا بأعناق مقلدة منا

ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا ... وُلوغاً ولكنا ملكنا فأسجحنا

وقد جربونا قبلها في وقائع ... تعلم غمر القوم منا بها الطعنا

فكم من مليك قد شددنا إساره ... وكم من أسير من شقا الاسر أطلقنا

أسود وغى لولا قراع سيوفنا ... لما ركبوا قيداً ولا سكنوا سجنا

وكم يوم حرب ما لقينا هجيرة ... بستر وتر ما طلبنا له كنا

كأن نسيم الملك في عطف القنا ... ينال وحلو النشر من عره يجنى

يسير بنا من آل أيوب ماجد ... أبى عزمُه أن يستقر به مغنى

كريم الثنا عار من العار باسل ... جميل المحيا كامل الحسن والحسنى

لسمراء ما آيات عيسى خفية ... هي الشمس للأقصى سناء وللأدنى

سرى نحو دمياط بكل سميذع ... نجيب يرى ورد الوغى المورد الأهنا

فأجلى علوج الروم عنها وأفرحت ... قلوب رجال حالفت بعدها الحزنا

وطهرها من رجسهم بحسامه ... همام يرى كسب الثنا المغنم الأسنى

مآثر مجد خلدتها سيوفه ... لها نبأ يفني الزمان ولا يفنى

وقد عرفت أسيافنا ورقابهم ... مواقعها فيها فان عادوا عدنا (١)

---

(١) ديوانه ص ٢٩ وأنظر مفرج الكروب ٤ / ١٠٠ والسلوك جـ ١ ق ١ ص ٢١١

أرسل الملك الكامل الى أخيه الاشرف موسى يستحثه على سرعة الحضور :

يا مسعدي إن كنت حقا مسعفي … فانهض بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أو موجفا … بتجشمي سهلا وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولا تنخ … إلا على باب المليك الأشرف
واقر السلام عليه من عبد له … متوقع لقدومه متشوف
وإذا وصلت الى حماه فقل له … عني بحسن توصل وتلطف
ان تأت عبدك عن قليل تلقه … ما بين كل مهند ومثقف
أو تبط عن إنجاده فلقاؤه … يوم القيامة في عراص الموقف (١)

(١) المقريزي جـ١ ق ١ ص ١٩٧

كتب الى العز بن عبد السلام وقد أغارت الفرنج على نابلس* :

ألا ليت أمي أيم طول عمرها ... فلم يقضها ربي لمولى ولا بعل
ويا ليتها لما قضاها لسيد ... لبيب أديب طيب الفرع والاصل
قضاها من اللاتي خلقن عواقرا ... فما بشرت يوما بأنثى ولا فحل
ويا ليتها لما غدت بي حاملا ... أصيبت بما أجننت عليه من الحمل
ويا ليتني لما ولدت وأصبحت ... تشد الي الشد قميات بالرحل
لحقت بأسلافي فكنت ضجيعهم ... ولم أر في الاسلام ما فيه من خل (١)

---

(١) الفوائد الجليه في الفرائد الناصرية ورقه ٩٥ وورقه ١٠٤ – ٢٠٥

(*) ينسبها ابن الوردى للعز بن عبد السلام وهو خطأ اذ ان القطعه للناصر داود كتبها الى العز بن عبد السلام (أنظر تاريخ ابن الوردى ج ٢ ص ١٩٩) .

قال يمدح ابن الناصر صلاح الدين من جملة قصيدة :

ملك بمواهبه يفتخر العلا ... ويفوق فخره ما السهى والفرقدا
ما يوسف ما يقاس بحاتم ... ( ) وقد وهب الحصون وأعقدا
أو أن يقال كأنه يوم الوغى ... والروع كالاسد الهصور اذا عدا
أو من يشبه جوده بغمامة ... أو من يقال لمثله عمر الندى
بل مالك الدنيا ومالك رحبها ... خيلا ورجالا ناصر دين الهدى
ومخلص البيت المقدس بعد ما ... رفع الصليب على ذراه ومجدا
ومن الملوك الصيد يلقاهم اذا ... رفع السرادق راكعين وسجدا
وبه أتى البيت الحرام وفوده ... من كل فج آمنين من العدى
من بعد ما درست معالم سبله ... دهرا وعز لخوفها أن يقصدا (١)

وقال في فتح دمياط سنة ٦١٨ يمدح الملك المعظم :

سرى الملك المولى المعظم في الدجى ... فأطلع نجم النصر بعد مغيبه
ورد على الاسلام بعد كآبة ... سرورا وآوى الدين بعد شحوبه
تجلى بعيسى غمها واغتدى بها ... فريدا وأضحى بحرها من نصيبه (٢)

---

(١) الروضتين ٢ / ١٠٧

(٢) الذيل على الروضتين ١٢٦

قال عندما أسر الملك الصالح أيوب بن الكامل بن العادل الفرنسيس واعتقله بدار فخر الدين بن لقمان وقيده بقيد من ذهب ووكل به خادما يسمى صبيحا :

قل للفرنسيس اذا جئته ... مقال صدق من قؤول نصيح
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
تد جئت مصرا تبتغي أخذها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين الى أدهم ... ضاق بمن ناظريك الفسيح
رحت وأصحابك أودعتهم ... بتبهم أفعالك بطن الضريح
خمسون ألفا لا يرى منهم ... الا قتيل أو أسير جريح
فردك الله الى مثلها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان باباكم بذا راضيا ... غوب غبن تد أتى من نصيح
فاتخذوه كاهنا انه ... أنصح من شق لكم أو سطيح
وقل لهم إن أضمروا عودة ... لأخذ ثار أو لقصد صحيح
دار ابن لقمان على عهدها ... والقيد باق والطواشي صبيح (١)

وقال حين استرد الملك الناصر داود القدس الشريف ثانية من الافرنج :

المسجد الاقصى له عادة ... سارت فصارت مثلا سائرا
اذا غدا للكفر مستوطنا ... أن يبعث الله له ناصرا
فناصر طهره أولا ... وناصر طهره آخرا (٢)

---

(١) ديوانه ١٨١ وأنظر المختصر في تاريخ البشر ٢/١٨٢ والالمام ١/١٧٥

(٢) ديوانه ١٨٢ والروضتين ٢/٢٠٦

قال يمدح الأمير أسد الدين أحمد بن عبد الله المهراني، ويذكر وقعته مع الفرنج على يافا، ويذكر له أن قوما قد ساءهم قربه منه ، وذلك سنة ٦٠٨ : مطلعها :

راح يخشى في حبه الرقبــــاء	ويسرّ الغرام والبرحــــاء
ويفيض الدموع حتى لقد أصبــ	ــح بين الاحباب منه عــزاء (١)

مقدمة غزلية فيها بكاء على فراق الأحبة ورحلة في طلب الممدوح ، عدد أبياتها (٢٢) بيتـــا ثم يقـــول :

وإذا ما سألت يافا أجابــــت	بلسان غادرته فأفصــــاء
شهدتْ منك موقفا صمّت منـــــ	ـــه وقد كان أن يهدّ البنـــاء
فاختلست النفوس حتى لقد غـــا	درتَ ربا بجوعهم أشـــ[illegible]ـاء
ظلتَ في مبرك تحطّ على الـــرو	م من الموت صخرة صمـــاء
ترفع الغداة الدين فيهـــا	بطوال المثقفـــات لــــواء
وأقمت الصلاة في ذلك المسجد	ب وقد كانت الصلاة بكـــاء
وتلوت القرآن فيها فظــل الـــسرّ	وم حتى تخيلوه غنـــاء
وجعلت الصليب منحرفا فيــ	ـهم وقد كان عزّته عـــزّة ...ـــاء ...

وقال يمدح الملك الكامل بن العادل ، ويذكر نزول الفرنج على دمياطه وتقاعد الملوك عن النجده ، وقد كان أتصل بخدمته سنة ٦١٤ مطلعها :

لهم حب قلبي إن تدانوا وان صـــدوا	وإن قربوا والحال دونهم البعـــد (٢)

وبعد مقدمة غزلية استغرقت أربعة عشر بيتا يتخلص الى المدح فيقـــول :

وركب تداعوا للسرى ثمت أنـــبرى	ليبني القرى بعد الهدى ذلك الوفـــد
فقلت لهم والليل ملق جرانـــه	وقد ستر الآفاق من جنحه بــــرد
قفوا حيث أنوار الهدى كامليـــة	ونار الوغى والمشركون لها وقـــد
فثم ترى الاسلام يسفر وجهــــه	سرورا ونجم الحق في أفقه يبـــدو
فلولا سمي المصطفى ووليــــه	وشمس الدين ، بل كادت قوى الحق تنهـد

---

(١) ديوانه : ورقة ٢٠
(٢) ديوانه : ورقة ٢

فما صافحت يمنى الصفاح ككفه … ولا حملت ذاك المطهمة الجرد
ورى زند ذا الدين الحنيف برأيه … ورايته من بعد ما قد كبا الزند
وجده أثواب المنى فانثنى الغنى … يروي على قصاد مثل ما يندو
تجمّعن فيه أربع نبوية … تأثل منها عنده الفخر والمجد
جلال سليمان ، وبهجة يوسف … وأخلاق داود ومن أحمدَ الحمد
اذا منعت أجفان ملك رقادها … عن الملك أضحى حشو أجفانه السهد
وان وهبوا المافي طريفا وتالدا … فجود هم في بحر احسانه ثمد
فلو جاز في الدنيا خلود لخالد … على حسن ما يأتي لحقّ لها الخلد
خصائصُ أيوبية عادلية … شددت بها الدين فوق الذي شدوا
فروع زكت في المكرمات وانما … سمت بهم الاحلام والحسب العد
فلولاهم لم ينبت الحظ للوغى … وشيبا ولم تطبق صوارمها الهند
فقل لملوك الخائفين اليكم … عن الملك أو سدوا من الامر ما سدوا
مليك الورى : أين الملوك عن الذي … تصديت فيه للعدى حين ما صدوا ؟
أيطمع أقوام بنعمة عيشة … متى عطشوا ، فالموت دونهم ورد
إلا بالتعادي والفرنج بجمعهم … على جيد دمياط كما انتظم العقد
فو الله ثم الله حلفة صادق … حشا حشايا ملؤها الغيظ والحقد
لما طاب سكنى طيبة ولقد نبا … بجنب النبي المصطفى ذلك اللحد
واقسم لولا طود بأسك ما علا … منار الهدى حقا ولا سعد الجد
ولا قام يحمي نصرة الحق قائم … من الناس لولا سيف عزك والحد
أيا ملكا أجهدتُ نفسي بمدحه … اليه رجاءً أن سينفعني الجهد
قصدتك لا ألوي على الناس كلهم … سواك عسى يرعى لنا ذلك القصد
أؤمل أن أبقى بقية مدتي … لديك وعيشي ناعم عندكم رغد
ولست أرجي غير خدمتك التي … يتم بها بين الورى عندي السعد
تركت بلادي وارتحلت أريدكم … غدونك فضلا حال عن جزره المد
فخذ واستمح مدحا تمد لسواه … يد الدهر يرويه لرونقه الشهد
فها أنا يا ملك الملوك وأنتم … وها مصر لكن النصيب لكم عبد
فمن ذا يرجى بعد ان جاء نحوكم … مليكا ومن ذا يستطاع له رد ؟

وقال فيه (الكامل) عقيب الهزيمة عن دمياط ، واختلاف العساكر ، ووصول المعظم وغيها يحث الاجناد والامراء على القتال :

أتيموا عمود الدين لله تسعدوا … فقد جاءكم عيسى وهذا محمد
فريق الهدى والله يظهر دينه … على دين من قد أشركوا وتمردوا
فلله ألطاف عليكم خفية … فان تنجدوه من لظى النار تنجدوا

---

(١) ديوانه : ورقة ٢ – ٣

أرى الآية الكبرى من النصر قد جـــرى   بها الفـال فالافراح فيها تجـــددٰ د
وما يبيد المشركين بأنـــــه   تجمع للاسلام عيسى وأحمـــــد
عسى اللمان يأتي بموسى فانـــني   أرى كبدي شوقا اليه توقـــد
ليظهر ان الحق حق محمـــــد   وكل نبي بالذي قلت يشهـــد
فلا تجزعوا من حادث جاءقاد . جــيـا   فذا الدين للرحمن في نصره يـــد
فبينوا الدين الكفر غارات مبشــــر   لهم في الهدى فرع زكي ومحتـــد
وشبوا لهم نار الجهاد فانكــــم   متى تتركوها آن للنار تخمـــد
فذا الدين ما أرسى قواعد حقــــه   لدى الناس الا ذابل ومهنـــد
فحزبكم حزب الالهواتهــــم   دم النالهون الشرك ، والمدد أحمـــد
هل الدين ملهوس جهل وشهـــــة   ينيلكموها اليوم أو يصف النــــد
وهل فر من نار القتال أخو حجـــى   ليبقى ، وفي نار الجحيم يخلـــد
أذلهموا مليكا يشترى الحمد بالنـــدى   ويرقد في جفن الردى وهو أرمـــد
لم عزمات الدهر ان دلم بالعـــدى   وكالليث يحمي صوبه وهو موصـــد
له دوحتهم بها عاد ليتــــة   وللمجد منها كل وقت مجـــدد
فللحق منه خير ركن وملجـــا   وللعدل والاسلام سيف مهنـــد
اذا جئته تلقى السماح مجســـدا   يكف طوال الدهر يعطي ويرتـــد
وان قرى الصافي اذا أم للـــــه   جداول تجرى والسديف المرشـــد
لقد سطرت من يسره ونوالـــــه   أحاديث جود عنه تروى وتسنـــد
فيغني ولم يسبق عطاياه موعـــد   ويغني ولم يسبق رداه التوعـــد
ومن وهب الأموال أو قتل العـــدى   لبشرى بذاك الشكر والحمد ، يحمـــد
وكان عليه أن يحوز مدى العلـــى   ألية مبرور وحلف مؤكــــد
أقام عمود الدين حقا محمـــــدٌ   كما بدأ الدين الحنيف محمـــد
فأشرق بدر الحق في أفق الهـــدى   وقد غاله قطع من الكفر أســــود
نزلت وحاجاتي بباب محمـــــد   فاذ هلعني زمان منكــــد
وقد كان ظني أنني اقطع الــــردى   به ، فهو سيف في الرزايا مجــــرد
تجاوزت أقوما على أعـــــزة   اليمنى بوسي بنعما منقـــــد
فلم يك لي في الله ذا عنايـــــة   فيهــــرف فضلي ثم يثني ويحمـــد (١)

ثم يختمها بشكوى الزمان وطلب الرعاية بخمسة أبيـــــات :

---

(١) ديوانه : ورقة ٤ ـ ٥

وقال في المعظم ، وقد اجتمع هو وأخوه الملك الاشرف ، وجمعا العساكر من البلاد كلهـا لنصرة الكامل وتخليص دمياط من الفرنج ، فعجل الله لهم افتتاحها ، وكسر المشركين ، يقـول :

ها قد بلغت الذي قد كان ينتظـر ... الله أكبر ، هذا النصر والظفـر
قد صح الخُبْر منك اليوم عن خبـر ... قد كان أنظرَ فيه نفسه النظـر
أكذبت ظن الاعادي بالذي كملـت ... بما الصادقون واستعلى بك الخطـر
غالت ظنونهم في الفـال وابتدلـت ... من بارح سانح الطير الذي زجـروا
أعدت عود الهدى غضا وقد يبسـت ... أغصانه وهو لا ظل ولا ثمـر
هذا هو الفتح فتح لا يقومـه ... نظم المديح ولا نثر فيبتكـر
فتح مبين وقي من كل موبقـة ... لهيبة من بعد ما نبا غيثه مـر
يا يوم دمياط قد راحت مسـودة ... منك الطروس وقد سارت بك السيـر
تهلل الدين والدنيا به فرحـا ... واستبشرت مكة والحِجْرُ والحَجَـر
لم تخش يثرب تثريبا لفادحـة ... من بعده اذ سرت في ذكره السـور
أنفقت خوف الاماني وهي هادمـه ... ورضت صعب الاماني فهي تبتـدر
أليست أهل الهدى من نصرة حللا ... والشراك قد حل ... الازر والازر
في يوم ذي رهج لا وصف يدركـه ... يكاد منه فؤاد الدهـر ينفطـر
يوم تدين له الايام إذ خرسـت ... عن فخرها وهو طول الدهر يفتخـر
في حالة جمع الندين في قـرن ... فالشراك منخذل والحق منتصـر
قد عاد صبحهم ليلا تضيء بـه ... زرق الأسنة فهي الانجم الزهـر
والصمر طالعة فيه وغاربـة ... لكنها بظلام النقع تستتـر
والدين قد تليت اياته فرحـا ... بنصره ، وصليب الشراك منكسـر
يا دين عيسى ، بعيسى قد خذلت وذا ... كسر مدى الدهر منكم ليس ينجبـر
واتاك في جحفل ضاق الفضاء بـه ... ذرعا ، فانت لديه بل له جـزر

أتى بجيش وغى ، في الارض عسكـره ... وفي السماء قضاء الله والقـدر
فالبحر من تحتهم آذيه وعلـى ... رؤوسهم منك نار الحرب تستعـر
وزعتهم بين بيض الهند مصلتـة ... وبين سمر القنا ، والموت مستكـر
فللرماح قلوب منهـم أبـدا ... وللسيوف الطلى والهام والقصـر
أتوا الجسور الى دمياط تحصنهم ... وما دروا أنه عبر به العبـر
راموا بحيث أطلتهم الامر سلمهم ... وقد رأوا غارة دانت لها الغيـر
ليطلبوا السلم الا بعد علمهـم ... بأن سيفك لا يبقي ولا يـذر
أضحى لرومية الكبرى بما شهـدوا ... ويل طويل وقد وافاهم الخبـر
إن لم يكن حوصروا فيها فانهـم ... من يوم ... حصرا لهم ينحصـر
يمشون همسا وإيماء حديثهـم ... فيها لخوفك ، إن قالوا وإن ذكـروا
نهاهم الرعب عن عود فمنقصـة ... إن قيل عودوا نعد بالسيف ننتصـر

ما يوم بدر بأعلى منه أو أحد ... ولا حنين وان عدوا وان شهروا
لا يوم أحسن منه منظرا وبه ... سمر القنا وسيوف الهند تشتجر
جنيت فيه رؤوس القوم يانعة ... لكن ذوت بعدها الاغصان والشجر
فلتشكرنك بنو العباس بعدهم ... لا بل قريش تؤدي الشكر بل مضر
أليستهم عزتهم ... من بعد ما قد طووا ما كان قد نشروا
كم آية لك يا عيسى ومعجزة ... يقل هزمهم فيها وان كثروا
أنت المليك الذي لو عيب في ملأ ... ما عابه الناس الا انه بشر
أحييت ميت العلى والمكرمات بما ... أوليت اذ لا يوازي بعضه المطر
مناقب حسنت أخبارها وزهت ... حتى لقد صار مهجورا بها السمر
يا معدن الفضل والاحسان هأنذا ... ومن ورائي يقينا كلنا صبر
الله يعلم أني في انتظاركم ... قد مسني الضر بل اودى بي الضرر
يكفيك مني أدنى ما أشير به ... انه ليس من عاد في الاكثار والهذر
خذها تا حبيبا لو يروم لها ... وزنا لحاصره في فكره الحصر
ولا تضع لاستماع بعدها أبدا ... ما كل مختلف الوانه زهر (١)

وقال أيضا بمدحه ويعاتبه ، وكان جماعة قد تكلموا فيه عنده ، فأثر ذلك (فيه) ويذكر فيها وقعة :

ان العرين الذي يحتله الاسد ... دار المليك وفيها العيشة الرغد
سرادق المجد مضروب على ملك ... لا لأواء في عراص العز مقتعد
رب من الملك معمور وأفنية ... بها العلى والندى والبأس والجسد
يا حسن ذلك روض الله قد كملت ... به السعادة واستعلى له الامد
هو الهمام المرجى صوب عارضه ... والصارم المنتضى والفارس النجد
عضب العزيمة ماضي الوهم مختلس ... شواعر الحزم بالآراء منفرد
يمضي حوزته للحرب فاخرة ... في حين لا حيف يغني ولا زرد
ما حل ارضا ولم ينهد الى بلد ... الا تضم روضا ذلك البلد
صافي نيه على أعدائه كدر ... والغيث منه يكون الماء والزبد
يا رائع القلب ان السيف مطلع ... على القلوب فكذا ما للذي تجد
هذا هو الأسد الرامي براثنه ... عليه من زعف ما ذقته لبد
التي على أفق الدنيا كلاكله ... فالقرب في الرفض يان والبعد
الله أكبر جاء الحق يقدمه ... نصر المليك فلا وانون ولا جحد
يا أيها الملك المرسي بعزمته ... طود الخلافة لما مسه الأود

---

(١) ديوانه : ورقة ١٤ ــ ١٥

كم موقف لك ليس الناس يشهده ... والدين مهتضم والملك مضطهد
جلوت وجه العلى فيه بذي شطب ... ماء المنية في متنيه مطرد
يهتز في وجه فرند تخاله ... كأنه حية في متنها رشد
فكان مجدك موجودا لطالبه ... والمجد في الروع موجود ومفتقد
أججت للكفر من خيلك ملحمة ... أضحى بها الموت في حوبائه يضطهد
نشرت راياتك الصفر التي وسمت ... بالنصر فهو لها تحت الوغى صدد
لاقيتهم ووجوه الخيل عابسة ... والبيض ضاحكة والموت محتشد
في فتية من نتاج الحرب قد خضبت ... أسيافهم للمنايا انها تسرد
حييتهم بنات الخط يفرسها ... رزء منزلها في القلب والكبد
من كل أسمر تستقي المنون به ... من القلوب دما ما إن له قود
وقد تيقن أن لا صبر يسعدهم ... وان صبرك لا تحصى له المدد
خانوا بأنفسهم لما ألم بهم ... فهم يظنون رعبا أنها رصد (١)

ثم يختمها بمدحه ويطلب منه أن يعينه على نوائب الدهر (وذلك في ثلاثة عشر بيتا (٢) .

وقال في الأشرف موسى بن العادل عند منصرفه من الجزيرة والشام الى الديار المصرية لنصرة الكامل ، ويذكر له وقائعه بالفرنج والروم : مطلعها :

أرأيت ما صنعت لحاظ الغيد ... ما بين منعرج اللوى فزرود (٣)

وتبدأ بمقدمة غزلية عدد أبياتها (٢٣) بيتا ثم يمدحه بالكرم وحسن السيرة بعشرة أبيات ثم يقول :

وطريدة الاسلام أنت أعدتها ... من بعد طول تشرد ونـدود
أيام صافينا يقصر دونها ... وصف البليغ بخطبة وقصيد
بددت جمع الكفر وهو مؤثل ... فيهم بحزم في الامور رشيد
ونهضت اذ عجز الانام بأرعن ... ملء الملا عددا بغير عديد
ثاروا من الاسلام يهدا قسوة ... فأعدته من حنظل وهبيد
وسقيتهم كأس المنية بعدما ... شربوا بكأس النصر والتأييد
والروم راموا نصرة فجعلتهم ... ما بين مقتول الى مصفود
أغناك بأسك عن تراكم كتيبة ... او نشر رايات وخفق بنود
علموا بأنك كالدجى لا مهرب ... منه ، ويدرك شأو كل شريد

(١) ديوانه : ورقة ١٦ - ١٧
(٢) ديوانه : ورقة ١٨
(٣) ديوانه : ورقة ١٨

فاستعلوا أسوار الأبراج بعد ممـــا ... أسكنت أكثرهم بطون لحـــود
وفتحت ما افتتحوا بعزم قاهـــر ... قاعدت عدوها الى موجـــود
وأتيت الى دمياط بدال ربعهـــا ... كفرا عن الايمان والتوحيـــد
تلقى جيوش المشركين بعزمـــة ... عظمت عن التكييـف والتحديـــد
فرعون كفرهم طغى فأتاهـــم ... موسى لاغراق ببحر جنـــود
جاءت غواربه بموج مزبـــد ... متلاطم آذيه بحد يـــد
موسى وعيسى أرسلا لمحمـــد ... ومحمد بالنصر والتأيـــيد
فالله يشكر منكم السعي الـــذي ... يرضيه بين إقامة ونهـــود
يا أيها الملك الذي أخلاقـــه ... رصفت وقد وصفت نظام عقـــودي
يا كعبة إن كان تقبل حجتـــي ... فلها ركوعي دائما وسجـــودي
ما بال مثلي خاملا من بعد مـــا ... قد كان في قلل العلاء صعـــودي
أيجوز لي خوض الخضم وأنثـــني ... عن مائة دهيمها بصعيـــد
ان كان قل النيل يجدد ربعـــه ... فالمستنيل لذاك غير حميـــد
كانت تمنى النفس ذلك جهد شـــا ... لا ظل زنكي ولا مسعـــود
والاشرف المنصور أشرف نعمـــة ... من ان أراني ليس يورق عـــودي
خذ واستمع مني نظام غريبـــة ... جاءتك بالتعظيم والتمجيـــد
حليت بمدحك التي سمع عصـــا ... تنقلك بين ترنم ونشيـــد
ولئن تأخر عصرها غلدا السـا ... هزئت بنظمي جرول ولبيـــد
عذبت على الأفواه حتى أطربـــت ... بحدائها بزل المطايا القـــود
لله أنت غريبة وحيـــدة ... في مغرب في بأسو الجـــود
كفل الإله له بطول بقائهـــا ... لرضى محب او لكبت حســـود (١)

وقال فيه أيضا بعد فتح دمياط وهزيمة الفرنسيس :

نصر من الله وأتانا به الخبـــر ... فلتهنك العزة القعساء والظفـــر
فتح قريب وماله قد خصصت بـــه ... جرى به قبل تكوين الورى القـــدر
هذا الرجاء الذي كنا نؤملـــه ... قد وفيت لك في تيسيره النـــذر
قد صمت لله شكرا اذ سمعت بـــه ... واستبشرت بالذي حدثته البشـــر
احرزته وسيوف الهند جائلـــة ... من دونه والقنا الخطي مشتجـــر
فما خلا الدهر من يومي نـــدى وردى ... جود يسيل لديه أو دم هـــدر
لله بأسك يوم الروع شقيـــت ... منك الجماجم بالهندي والقصـــر
فتحت فتحا عظيم الخطب كم ملـــك ... قد رام إحرازه دهرا فما قـــدروا
رام افتتاحك بين الورى مثـــلا ... وسيرت الخلق تيسيرها السيـــر

---

(١) ديوانه : ٢٠ ـ ٢١

نهضت للدين بالهندي منصلتا   والله عونك والأملاك والقدر
أبديت في ظلمات الدهر نورَ هدى   لقصّرتْ عن مداك الشمس والقمر
أتيت دمياطَ إذْ أعيتْ رياضتها   كل الورى وتناءى البدو والحضر
فكنتَ إذْ زرتها مفتاح مقفلها   فالحق منتصر والشرك مندثر
صدمتهم صدمة لو صدمْتَ به   وجهَ البسيطة كادتْ منه تنفطر
من بعد ما كان في آمالهم طولٌ   يوم الكفاح وفي أعمارهم قصر
أوردت أنفسهم حوض الردى فغدا   ورود هم بارتواءٍ ما له صدر
أنزلت أفئدة منهم رسا في ردى   زرق الأسنة في أطرافها زهَر
ما أنبت الخط طول الدهر من أسل   غادرته وله من هامهم ثمر
لما أتيتهم قالوا بأجمعهم   هذا القضاء فلا يُبقي ولا يذر
عاد النهار لهم ليلا بقسطلة   دجت ووجهك في ظلمائها قمر

. . .

جاءوا وراءك يا موسى فصمّهمُ   بحر بأمرك مهما شئت يأتمر
يوم غدا دونه يوم الكلاب فلا   عمرو رأى مثله يوما ولا عُمَر
كلا ولا يوم ذات الدوم يشبهه   أو يوم تغلب إن قالوا وإن فخروا
حفظتَ ملك بني السباء وانحفظت   بك الشريعة إذ غيرتْ بك الغير (١)

ثم يمدحه بتسعة عشر بيتا ويختمها بشكره ، يقول :

كم قد شكرتك في الدنيا لدى ملك   شكرا تنشّر منه للورى حبر
وقلتَ ان ذكروا موسى فليس يُرى   لغيره في العلى ناب ولا ظفر
وحسن رأيك تغنيني بوادره   عن شرح حالي فأستغني وأختصر

وقال في الملك الناصر قلج ارسلان بن الملك المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه الايوبي ويذكره انه كاتبا لأبيه وأهله ويحرضه على قتال الفرنج ونصرة الاسلام والجهاد، مطلعها :

بما بجفنيك من غنْج ومن كَحَل   صِلْ مغرما ليس يصغي فيك للعذَل (٢)

تبدأ بمقدمة غزلية عدد أبياتها ستة عشر بيتا ، ثم ينتقل الى مدح قلج ارسلان فيقول :

ملك له عزمةٌ ذلّ الزمان لها   وجحفلٌ باسٌ يريك الناس في رجل
مؤيد الرأي إلا انّ همته   أمضى من البيض والخطية الذُبل

---

(١) ديوانه : ٢١ ـ ٢٣
(٢) ديوانه : ٢٣

طوفان راحته بالجود لا أحد   إنْ ثمة قائل آوى الى جبل
كلا ولا عاصمٌ من بأسه أبدا   يوم الوغى بظبى الهندية القصل
ما أعمل الفكر في يومي ندى وردى   إلا لتعجيل رزق منه أو أجل
كأننا من قريش جاهليتنا   في الجود عاكفة منه على هبل
أكذبت ظنا السحاب الجون من نعم   رويت منها الورى بالعل والنهل
جود يعم البرايا منك متصل   وما طل الغيث حينا غير متصل
فانهض الى نصر دين الله في جذل   في جحفل شرق بالخيل ذي زجل
جيش بجيش بأبطال اذا برزوا   قال الردى للعدى موتوا على عجل
من كل أغلب في عرنينه شمم   ضخم الدسيعة مرد غير محتفل
وكل مدرع للصبر مؤتزر   بالحزم ملتحف بالعزم مشتمل
أبناء حرب غدوا فيها ومنشأهم   بها ولم يعكدوا قولا بلا عمل
فالله جارك والأفلاك دائرة   بما تؤمله في أوضح السبل
قد سدت كل ملوك الأرض قاطبة   وشدتها دولة تسمو على الدول
يا أيها الملك الميمون طائره   وابن الملوك ونجل السادة الأول
سمعا لشكواي من دهر حواد ثه   لا تنقضي بصنوف المكر والحيل
ما زلت عند بني أيوب في نعم   موفورة ونوال غير منخزل
أرعى رياض الندى من فيض نعمهم   وأسحب الذيل بين الخيل والخول
وعشت في عزة قعساء عندهم   موفر الحظ في الأفراح والجذل
أرعى التفضل وما حصلت من أدب   ومن علوم ولا أرعى من الهمل
وكان لي الملك المنصور أعظم من   يعلي محلي ويدني مسرعا أملي
فخانني الدهر في حظي وأعدمني   من كان أضحى عليه الدهر متكلي
فكنت لي عوضا عن كل من ذهبت   عيني وجئتك أسعى جد مختتل
قصدت بابك والآمال تلعب بي   واعتضت بالجم عن نزر من الوشل
فاسلك مسالك أهليك الكرام معي   ولا تكن عن قضاء الحق في شغل
فإن جودك يكفي كل حادثة   وحسن رأيك لا يؤتى من الزلل
قد صان كفيك رب العرش عن قدر   للمشرفية والتوقيع والقبل
وإن بابك يولي قاصديك علىً   كأنما الشمس منك الدهر في الحمل(١)

وقال في الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين وهي من أشعاره في الصبو، وكان قد اجتمع به في القاهرة سنة ٥٩٤ هـ مطلعها :

إن كان أضمر قلبي عنك سلوانا   لا كنت من مغرم صبٍّ ولا كانا (٢)

---

(١) ديوانه : ٢٤ ـ ٢٦
(٢) ديوانه : ٣٨

تبدأ بمقدمة غزلية من ١٨ بيتا ، ثم ينتقل الى مدح العزيز عثمان بالكرهشانية أبيــــــات ثم يقـــــول :

كم موقف لك والخطيّ مشتجـــــــر	والبيض تكسي نجيــع الهام أجفانـــــا
يرضى به الله والاسلام مبتهـــــــج	منه وعاد نبيّ الله جذلانـــــــــا
للمشركين على الايام نكمــــــــدة	كما حَطَمتَ اناجيلاً وصلبانــــــــا
شرعت للسيف شرعا في رقابهـــــم	كما لاكبادهم أشرعت خرصانـــــــا
اني واياك والامثال أضـربهـــــــا	ذكر كما قال رب العرش تبيانـــــــا
نصر وفتح قريب باجتماعهمـــــــا	نبغي من الله رضوانا وغفرانـــــا (١)

وقال يمدح الملك المعظم كوكبري بن علي بن بكتكين ويذكر وقائعه ويعرض بكسر العجـــم ، مطلعها :

أشاقتك من أطلال ليلى معالـــــم	فأبدت شؤون الدمع ما أنت كاتـــــم
أم القلب إثر الظاعنين صبابـــــة	دعي فأجابته الدموع السواجـــم (٢)

تبدأ بمقدمة غزلية عدد أبياتها (١٨) بيتا ، ثم ينتقل الى المدح فيقـــول :

مليك به وجه الخطوب مقطّـــب	وثغر الندى والدين والعدل باســـم
حسام أمير المؤمنين وما ســـوى	بذلك الا وهو للخطب حاســـــــم
به نُصر الاسلام في كل موطـــن	وحلت بأهل الزيغ منه القواصــــم
لئن عجزت وُطفُ الغوادي بجـــوده	لقد خجلت منه البحار والخضــــارم
فمن مجده حوض المدائح متـــرع	ومن جوده بحر المدائح راســـــم
مليك له الاقدار تجري على الســـوى	فليس قضاء غير ما هو حاكـــــم
تجليبت منه الدهر ثوبا من السلـــى	ففي عصره كل الزمان مواســـــم
اذا عجز الوصاف عن حصر مدحـــه	وأوصافه أثنت عليه المكــــارم
وما أنصفوه بالمعظم اذ غـــــدا	عظيما ، وقد هانت لديه العظائـــم
ومن أين يلقى للمظفر شبهـــــه	اذا اشتد بالدارعين الملاحـــــم
وكم سوق حرب للأعادي أقمتـــه	وموت لهم أيقظتهم وهو حالـــــم
وكم شهدت منك الفرنج مواقفـــا	وبحر المنايا موجه متلاطـــــم
دعوت بها بيض السيوف فأقنعـــت	تجيبك في هام الكماة الصـــوارم
لدى معرك لم يلف في جنباتـــه	اذا الروع الأصـــارم أو ضــــارم

(١) ديوانه : ٤٠
(٢) ديوانه : ٥٦

وما زالت في جيشين : جيش مقاتـــل ... ويمشي على القتلى من الطير حائـــم
ولو سئلت أرض الفرنج شهـــادة ... أجابتكم صيدا ويافا وحـــارم
فكم خلعت فيها لدى الحرب أنفـــس ... وكم قسمت اذ ذاك منها الغنائـــم
وكم من صريع من مخافة بأسكـــم ... وما نفعت فيه الرقى والعزائـــم (١)

ثم يختمها بالمدح بالكرم ويطلب منه أن يتخذه كاتبا لـــه (في ٦٦ بيتـــا) .

---

(١) ديوانه : ٥٦ ــ ٥٧

البهاء زهير ـ ٦٥٦ هـ

قال يمدح السلطان الكامل محمد بن العادل ، ويذكر انتزاعه ثغر دمياط من الفرنج :

بك اهتز عطف الدين في حلل النصر   وردّت على أعقابها ملة الكفر

ومنها :

وما فرحت مصر بذا الفتح وحدها   لقد فرحت بغداد أكثر من مصر
ولو لم يقم بالله حق قيامه   لما سلمت دار السلام من الذعر
وأقسم لولا همة كاملية   لخافت رجال بالمقام وبالحجر
فمن مبلغ هذا الهناء لمكة   ويثرب تنهيه الى صاحب القبر
فقل لرسول الله ان سميه   حمى بيضة الاسلام من نوب الدهر
هو الكامل المولى الذي أن ذكرته   فيا طرب الدنيا ويا فرح العصر
به ارتجعت دمياط قهرا من العدى   وطهرها بالسيف والملة الطهر
ورد على المحراب منها صلاته   وكم بات مشتاقا الى الشفع والوتر
وأقسم ان ذاقت بنو الاصفر الكرى   فلا حلمت الا باعلامه الصفر
عجبت لبحر جاء فيه سفينهم   ألسنا نراه عندنا ملك البحر
ألا انها من فضلة لكبيرة   سيطلب منها عفو حلمك واليسر
ثلاثة أعوام أقمت وأشهرا   تجاهد فيهم لا بزيد ولا عمرو
صبرت الى أن أنزل الله نصره   لذلك قد أحمدت عاقبة الصبر
وليلة غزو للعدو كأنها   بكثرة من أرديته ليلة النحر
فيا ليلة قد شرف الله قدرها   ولا غرو ان سميتها ليلة القدر
سددت سبيل البر والبحر عنهم   بسابحة دهم وسابحة غبر
أساطيل ليست في أساطير من مضى   بكل غراب راح أفتك من صقر
وجيش كمثل الليل هولا وهيبة   وان زانه ما فيه من أنجم زهر
وكل جواد لم يكن قط مثله   لآل زهير لا ولا لبني بدر
وباتت جنود الله فوق ضوامر   بأوضاحها تغني السراة عن الفجر
فما زلت حتى أيد الله حزبه   وأشرق وجه الأرض جذلان بالنصر
فرويت منهم ظامئ البيض والقنا   وأشبعت منهم طاوي الذئب والنسر
وجاء ملوك الروم نحوك خضعا   تجرر أذيال المهانة والصغر
أتوا ملكا فوق السماك محله   فمن جوده ذاك السحاب الذي يسري
فمنّ عليهم بالامان تكرما   على الرغم من بيض الصوارم والسمر
كفى الله دمياط المخافة انها   لمن قبلة الاسلام من موضع الحصر
وما طاب ماء النيل الا لانه   يحل محل الريق في ذلك الثغر
فلله يوم الفتح يوم دخولها   وقد طارت الاعلام منها على وكر
لقد فاق أيام الزمان بأسرها   وأنسى حديثا عن حنين وعن بدر (١)

---

(١) ديوانه ص ١١١ ، وانظر مفرج الكروب ٤ / ١٠٣

قال يمدح الملك المنصور (صاحب حماة) ويصف ما يعانيه في الصيد ، بقصيدة مطلعها :

أكملت كل المناقـــــــب   يا خير ماش وراكـــــــب

ومنهــا :

أتدمت بالسيف طلتــــــا   والسيف أكرم صاحـــــب
حتى قهرت الاعـــــادي   بشامنا غير عائـــــب
فالقوم بين قتيـــــل   وبين عان وهـــــارب . (١)

وقال يمدح الملك المظفر صاحب حماة ويهنيه بالظفر على الافرنـج :

بمجدك فقت أملاك البــــلاد   فأذعن حاضروهم والبــــاد
وبالبيض القواضـــب مخلصـــات   لوتك ، أخلصت زرق الاعــــادى
علوتهم بسوط من عــــذاب   أعاد أبيهم سهل القيـــــاد
وجئتهم سيوفك حين صلـــت   فالجمهم جدالك في الجـــلاد
عرضت لهم بخيل عوضتهـــم   بقبح الطرد عن حسن الطـــراد
رعاك الله ، يا محمود ، ليثــــا   وبحر ندى يفيض ، وبدر نـــاد
أعد للبرق حمصا ما ، فنيطـــت   حمائله على القمر الفـــراد
ليفداك بالاكارم من بنيـــه   زمان رائح ، برضاك ، غــــاد
فيا لنعص يصافي من تصافـــي   وبالبوءس يعادي من تعـــادي
اليك زففتها بكرا تحلـــت   بدر من صفاتك ، مستفاد ... (٢)

وقال فيه أيضــا :

أبشر بما شئت من نصر وتأييـــد   فعنك يروى حديث البأس والجـــود
وأنت أيت وفى تدمى مخالبـــه   في نحر كل طويل الباع صنديـــد
. . . .
ملك اذا سرى الاملاك في قنـــص   فصيده غلب آل الاصفر الصيـــد
وان سبتهم ذوات الحسن مال بـــه   قطع الدالي عن وصال الخرد الغيـــد
وان تلذذوا بشرب الراح قال دمــا   بني الحروب ولا بنت العناقيـــد
. . . .
كم عزة لك لاتنفك عن ظفـــر   فالجد منك لجد منك مسعـــود

(١) ديوانه ص ٩٥ ـ ٩٨   (٢) ديوانه ١٧٨

وكم سطلي أعربت عنها العروبة مـــن ... مقول أبطالك النحر المناجيـــد
كانوا الجلاميد في بأسوفي جلـــد ... فوق الجلاميد ترمى بالجلاميـــد
كتائب خدمت في كل مملكـــة ... حتى لقد خلقها كتبا بتقليـــد
نكم جبان غدته بأس ذي لبـــد ... وكم شبان كسته ثوب رعديـــد
أما الفرنج فقد أخمدت نارهـــم ... ولم تزل ذات إضرام وتوقيـــد
من بعد ما جاد أملاك الطوائف عـن ... حفظ البلاد وألقوا بالمقاليـــد
رجا بنو الاحد الكفار عود دمـــم ... بالفوز عن رب أشلاء وتوحيـــد
تباكروا في كثيف الحشد ذي لجـب ... تبيد في ساحتيه ساحة البيـــد
مستشعرين سحب نقع من عالمـــة ... ونقعة ذات أبراق وترعيـــد
فما جنحت الى سلم على غبـــن ... ولا تنمت بأرغاب وتهديـــد
أتيلقهم رحب صدر ليس يحرجـــه ... ضيق الميدان وقلبا غير مـــزءود
وسابحا سلمت بالنصر عزتـــه ... ما سار في الحرب أقداما بتشريـــد
وحد خضب عليهم منه صاعقـــة ... كنفخة الصور كل عند ها مـــرد
وزعتهم بضربة الى جمعهـــم ... بعد رب وطعن كالاشداق يمـــد
تشردوا بين مجروح ومنتبـــل ... يبكي على ما له منهم ومفقـــود
ان يخبروا عنك بالبأس الفظيع لقـــد ... قام البيان بتصديق الاسانيـــد
ساروا قدماً اذ راموا القطائع للقـــــوا على البيض في حجب الوغى الســـود
فلا تدع غزوهم في عقر دارهـــم ... مضوا الى الزود من نوم وتنفيـــد
وأسلم فلك الملك يقصوا عليك ولا ... زال الورى تحت ظل منك ممدود (١)

وقال يمدح الملك المظفر الثاني (تقي الدين محمود بن الملك المنصور صاحب حماه) ويهنيه بعيد النحر بقصيدة أولها :

أرقت لدايت المالكية اذ ســـرى ... ولولاه ما ساعدت عيني بالكـــرى

ومنهـــا :

وكم عاد من كسر الفرنج مسلمـــا ... سوى ثلم عضب أو وشيج تكســـرا
تلقاهم شهم الجنان يمـــده ... بوان رضرغام اذا ما تنمـــروا
ندى لك يا محمود كل مذمـــم ... بغيض السجايا يحسب المرء منكرا (٢)

---

(١) نفح الكروب ٤/٣٠٢ وانظر عقد الجمان جـ ١٨ ق ٢ ورقة ١١٧
ديوانه ص ١٥٦-١٥٨
(٢) ديوانه ص ١٩٥

وقال يمدح الملك المظفر الثاني ويهنئه بقدوم من غزاة بقصيدة أولها :

ثُرِبت يداك ، وذمت يا خير الـــورى ... ملكا على كل الملوك مظفـــرا
وقدمت أغنم قادم ضمنت لــــه ... عز العزائم أن يفوز وينصـــرا
من بعد ما جاشت جيوش الروم فـــي ... أرباض خرشنة القديمة والقـــرى
وتأشبت بفوارس لو أنهـــا ... عرضت لطيف أبي فراس ما ســـرى
أغناك عن فتكات جيشك فيهـــم ... جيش كثرت به العديد الاكثـــرا
غررت حتى ظن أنك موقـــن ... أن الحتوف تحيد عمن غـــررا
وهززت من أعطاف رمحك بينهـــم ... غصنا بها مات الفوارس مثمـــرا
يوم تضمن كل يوم قبلـــه ... مجدا " وكل الصيد في جوف الفـــرا "
صاد منهم طودا ، ورعتهـــم ردى ... ومضيت مصما ، وصلت غضنفـــرا
وغدا مليك الروم منك لهدنـــة ... حقنت دماء كماته أن تهـــدرا
قابلت عسكره قتالك واحـــدا ... ولقيته فردا فظنك عسكـــرا
ورآك في سلم فاقبل مقبـــلا ... ولو أنه في الحرب أسرع مدبـــرا
ما زال يسمع عنك أمرا هائـــلا ... حتى رآك ، فهاله ما أبصـــرا
أخجلته علما وعزما ماضيـــا ... فأصاب منك الخضر والاسكنـــدرا
وفضلت مشكور الصنائع في النـــدى ... والاقربين ، وحقها أن تشكـــرا
همم بعثت ، فكلفتك عظائمـــا ... كلفتهن المقربات الضمـــرا
تختار منها كل بحر مابـــح ... ليشق بحرا من نجيع أحمـــرا
لولا غرامك بالحروب وخوضهـــا ... بارت ، ورب نفيسة لا تشـــترى
فصل الوغى ، أو صد عنها ، انـــه ... باد هواك ، صبرت ، أو لم تصبـــرا
وأراك أشجع ذا الانام وليس في الاقـــوام الا من يراك كما أرى ... الخ (١)

وقال يمدح الملك المنصور الاول بقصيدة مطلعها :

أيروم قلبي من هواك تخلصـــا ... ان زاد لومي لائمي ، أو نقَّصـــا ؟

ومنهـــا :

رعت الفرنج بجحفل متقاعـــد ... يأبى الملا لكماته أن تنكصـــا
لم تغزهم الا وأنك رائـــدا ... رعب يصد عن الفرار القومصـــا
فاذا بدوت لليل باطله صنـــا ... واذا بدا لنهار حقك حصحصـــا
تغزوه بدنا وعيده ، نـــاذا رأى ... طمعا كذوبا سامه فتلصصـــا
حتى اذا وافاك فرَّكانـــه ... كلب ، اذا زأرت ليوثك بصبصـــا

(١) ديوانه ص ٢١٧ ـ ٢١٩

دم للعلا ، يا خير من نشر الرجا　　سار له وعلى علاه نشصا
واستجلها بكرا نتيجة ايلة　　توحيّ بناظم سمطها كل الرصا
أحكمت مبدأ نسجها وختامها　　ونسيبها ومديحها والمخلصا (١)

وقال يمدح الملك الامجد بهرام شاه ، ويهنئه بكسر الفرنج بقصيدة مطلعها :

اهلا باقبال سعدي بعد اعراض　　وبرء جسمي بها من بعد أمراض

ومنها :

تجاهل الناس في مصر وجارتها　　قدر القروم ، فلم تخفض باخفاض
حتى غزا الكفر " دمياطا " بطاغية　　أمد ظهر الهدى منها بانقاض
فكاد يقضي على الاسلام جاهلهم　　ما ليس يطمع ، في أبطاله ، قاض
فاسرع ابن معز الدين عزمته　　من بعد أحكام تدبير وامضاء
بكل ضرب ربيط الجاش مشتمل　　بكل عضب مضيء في الوغى ماض
وكل أجرد يخطير تعرفه　　يسارُ ليث الى الهيجاء ركاض
وكل أسمر عسال يسيل من المـ　　ـاذى بحر دم للحقد رحاض
وكل صفراء مرنان مفسترة　　تبدي العروق ، اذا ثارت لانباض
فسلموا ثغر دمياط بلا عوض　　وطالما خودعوا عنه باعراض
أجلاهم عن حماها بأس ذى لبد　　في السلم والحرب رفاع وخفاض
أعاد للدين ما غيظ العدو به　　وعاد ، والله عن أفعاله راض
شكرا لدهر تلافاني بأوبته　　من التلاف وأغنى بعد انفاض
قد كان ينحني داورا ويمنعني　　فاليوم قد نلت منه كل أغراضي (٢)

وقال يمدح المظفر الثاني بقصيد أولها :

صحبت هواكم في أمان من العذل　　ومن ذا الذى يلحى على مثلكم مثلي

ومنها :

ورعت ملوك المشركين بسطوة　　سقتهم سمام الموت علاّ على نهل
فاكرم بيوم فيه زاحفت آمدا　　فكل الورى عما تحملت من كل
وقد مطرت سحب العجاج صواعقا　　من الصخر مزجاة بوبل من النبل
وصابرتها يوما أمد بليلة　　تكابد فيها ما يمر لما يحلي
الى أن حباك النصر حد مهند　　تكفل قدما فتح ما شئت من قفل
فرويت من أوداجهم يا بن الثرى　　واوضحت من أسلابهم غاية السبل
وعدت ، وقد حزت الفخار بفعلة　　ترغب في الهيجاء من ظنها تسلي

---

(١) ديوانه ص ٢٧٦　　(٢) ديوانه ص ٢٨٣

فيا قاطع الاقران ، دامت لك العلا   قرينة ملك غير منقطع الحبل
فأنت جواد لا يشق غباره   سوى نجلك المنصور قدّس من نجل
تبارك من أنشاه شبهك في العلا   فبورك من فرع ، وبوركت من أصل (١)

وقال يمدح سيف الدين بن أبي علي الامدى بقصيدة طويلة أولها :

أقسمت : ما خده القاني من الخجل   أرق من دمعي الجاري ، ولا غزلي

ومنها :

أما الفرنج فقد مزقت شملهم   بجد محترم بالحزم مشتمل
وجحفل شاب منهم طفلهم فرقا   وعاد فيه الضحى فالنقع كالطفل
فكم كشفت خفايا من مكايدهم   رفلت من أجره والشكر في حلل
وكم أحلت الى دون اباءهم   الله أكبر لولا أنت لم يحل
وكم خصيم به لم تبق من أحد   منهم سليما من البأساء والنيل
تقاذ وأسرا وصرنا رد سائلهم   في قبضة اليتم والتأتيم والثكل
يحز جيشك والهيجاء جائشة   رعبا ، وتأمن والالباب في وجل
أنت الفتى لم يرعه الغي عن رشد   ولا شريت علوم الملك بالجدل ...(٢)

وقال يمدح الملك الامجد بهرام شاه بقصيدة مطلعهما :

هوىً هو البرء من سقمي به لاما   يهدى اليه من السلوان من لاما

ومنها :

ورب أمة شرك حين أمهم   شروه أنفسهم من قبل أن ساما
وجحفل جذل الاعلام جذ لمه   بجحفل يحبس الاعلام أعلاما
تساقطوا فأطفتهم قواضبه   عن التساقم أجلالا وأعظاما
كأنما قسمت للثم هامهم   بين السنابك والاقدام أقساما
فللسنابك منها ما تبادله   سيل الدماء وللاقدام ما حاما
كأن ما جهلت من عرفه طاعته   فلق القلوب وعته الهام الهاما
فأعتده ذل من عز ترفعها   على رؤوس القنا عزا واكراما
مهابة وجمالا صوراه لنا   في السلم بدرا وفي الهيجاء ضرغاما
أباد أعداءنا سداوا ، وكان لنا   هدى ، فأتيتنا ظلما واظلاما
ما دام الناس دام الناس في دعة   فدام حرزا لاهل الدهر ما داما
وحيء العام نسناه وأبلغ من   هناه بالعام من هنا به العاما (٣)

---

(١)   ديوانه ص ٣٩٦
(٢)   ديوانه ص ٣٩٩ ـ ٤٠٣
(٣)   ديوانه ص ٤٢٩

وقال يمدح الملك المظفر الثاني بقصيدة أولهـا :

لمن المنازل ؟ عنَّ لي من عينهـا   رَغْدٌ ضَنيتُ صبابة بضنينهـا

ومنهـا :

وممالك أنزلت صيد ملوكهـا   بالقهر عن صهوات حصن حصونهـا
وحماة لو لم يسر طالب وصلهـا   سارت اليك ربوعها بقطينهـا
ولقد دلفت لفتح آمد بعد مـا   راع الورى ما شاد من تحصينهـا
زاحمتها سميا كأنك ضيغـم   قصد الغزالة آخذا بقرونهـا
عجز الملوك عن القرار بوعدهـا   وعلوت مستويا على عرنينهـا
أمكنت منها ثم عدت مشرفـا   مغنى حماة غزدت في تكينهـا
نصرت ودان له الزمان وأهلـه   بسطى مظفرها ابن ناصر دينها (١)

وقال يمدح سيف الدين بن أبي علي بقصيدة أولهـا :

غزال والاسود له رعايـا   وملك والملوك له رعايـا

ومنهـا :

متى تغز الفرنج تصد بضنـم   وان وافوا رددتهم خزايـا
حدوتهم بحد السيف لمـا   أتوك باكبد الابل البلايـا
وقفت عليك يا ابن أبي علـي   تنائي بالندايا والسجايـا
وجودك عم كل الناس لكـن   لي المرباع منه والصفايـا
وان كان الذي أهديت نـزرا   فان مدائحي أسنى الهدايا (٢)

---

(١) ديوانه ص ٤٦٧
(٢) ديوانه ص ٥٢٣

قال يمدح السلطان الملك الكامل ، ويذكر أيام دمياط ، وقصد الفرنج لها ، وظفره بهم :

كم منة لأبي المعالي الكامل السلطـــــان في عنق الهدى لا تجحد
أيام قال الشرك بغيا للهدى ... دمياط لي ولك الغداة الموعد
وأتى بملء البسيطة كثرة ... والله ربك شاهد ما شيدوا
جيش إذا مسحت يداه بقعة ... جف المياه بها وذاب الجلمد
كالسيل إلا أنه لا ينثني ... والليل إلا أنه يتوقد
وأتى بك الإسلام وعداه موقنا ... أن سوف تهزم جمعهم وتبدد
حتى إذا التقيا دلمت عليهما ... بالنصر تشقي من تشاء وتسعد
فرددت شخص الشرك وهو مرمل ... خزيا ، ودين المصطفى مؤيد
حكمت بأسك فيهم فكلهم ... ومجدل ومشرد ومصفد (١)

---

(١) ديوانه ص ١٥

قال في فتح طرابلس يمدح الملك المنصور قلاوون :

أدركت بالجد أقصى غاية الطلـب ... ونلت بالجد أعلى منتهى الرتـب
أبا المظفر لا زالت مظفـرة ... ملك الجيوش على الأعداء بالرعـب
فالله جارك أنى صرت من ملـك ... وناصر لك من ناء ومقـترب
للهول مرتكب للحق منتصـر ... للغزو محتسب للأجر مكتسـب
بالسيد الملك المنصور شيـد علا لا ... سلام وانهد دين الشرك والصُّلُـب
أحرزت ما فات قدماً من طرابلـس ... جمع الملوك ذوي الإرهاب والرّهـب
أتعبت نفسك في ذات الإله بهـا ... فيا لها راحة وافت من التعـب
فتح يتيه على كل الفتوح بـه ... عصر غدا منتشي الأعطاف من طـرب
فكم لها في حبال الكفر من حقـب ... مرت ولم ترجُ تخليصا على حقـب
أغنت على الذل أحيانا وما بـرزت ... بالوجه طالبة بعداً من الحجـب
حتى اذا ما رأت كفءاً لخطبتهـا ... دعت فلبيتها في جحفل لجـب
أصدقتها كل ثبت القلب ترعد مـن ... أقدامه أُسْدُ الآجام من رعـب
آساد معركة ، عقبان ملتحـمة ... فرسان ملحمة للموت لم تهـب
من كل قطر أحاطوا محدقين بهـا ... كما أحيط على الأحداق بالهـدب
لو كنت شاهدهم والشمس طالعـة ... من شقة النقع يوم الزحف في نقـب
خلت الأسنة شُهُباً لُحْنَ في غسـق ... والمشرفيات بَرْقاً شيم في سحـب
قل للملوك التي أعيتهم فتضـوا ... عمرا وكلٌّ إليها الدهـر ذو أرب
تهدى العرايس من شم الحصون الى ... من بات يخطبها بالسمر والقضـب
غادرتها بمناجيق نصبن لهـا ... وفي أبراجها خفض بمنتصـب
فأصبحت ذات أصحاب وكم جَنَبَـتْ ... على مرادك من جار لها جنـب
أجريت فيها بحارا من نجيعهـم ... فكل سابحة سبحا الى اللبـب
لم تخل الشمس فيها بعد ذاك علـى ... غير الشفيا من القتلى ولم تغـب

. . . .

أذقتهم بعد عزٍّ مرَّ ذلهـم ... وبعد أمن كؤوس الخوف والوصـب
يا راشا علم الدين الحنيف ومـن ... أصاب بالخفض دين الرجس والصلـب
تهنلت ما أعجزت صيد الملوك بمـا ... أدركته من فتحها الميمون عن كثـب
غاية السيف كم من آية نسخـت ... وطلعة الشمس كم أخفت من الشهـب
جزاك ربك عن كل بها لحسنـة ... وكفّ عنك أكفّ الخلق في النُّـوب (١)

(١) عقد الجمان ج ٢٠ ق ٤ ورقه ٧١١

وقال يمدح الأشرف خليل بن قلاوون :

بلغت في الملك أقصى غاية الأمل ... وفت شأو ملوك الأعصر الأول
وحزت رق العلى بالجد مجتهداً ... وجزت غاياتها (جهراً) على مهل
ونلت بالحول دون الناس منفرداً ... ما لم تنله ملوك الأرض بالحيل
فطل بدولتك الميمون طائرها ... كأنها غرة في أوجه الدول
فكم بلغت مراداً بت تأمله ... بعزمك الباتر الماضي من الفلل
وكم فتحت حصوناً طال ما رجعت ... لليأس عنها الملوك الصيد في خجل
أنت الذي لم تدع للكفر من بلد ... يأوي اليه ، ولا للدين من أمل
حررت من عكة الخضراء ما عجزت ... عنه الملوك بعزم غير منتقل
عقيلة المدن أمست من حصانتها ... وصونها من ليالي الدهر في عقل
كم قد دعتها ملوك الأرض راغبة ... وعطفها عنهم بالتيه في شغل
صدت عن الصيد لا تلوي فلم تدل الا ... ودام منها الى وصل ولم تصل
حتى أمرت فأمست وهي طائعة ... بعد الاباء لأمر منك ممتثل
ما زال غيرك فيها طامعاً وعلى ... يديك قد كان هذا الفتح في الازل
فتح تطاول عن نثر يحوط به ... وصفاً وعن نظم شعر مقصد طول
تصدتها فأتيت بعد ما فجعت ... في أهلها من أسود النيل بالنيل
في جحفل لجب كالليل أنجمه ... تبدو لرائيه من قضب ومن أسل
تم المهابة من وقرن أكم ... وطبق الأرض من سهل ومن جبل
تخالهم وجبال الذين تعتهم ... للبأس في الروع آساداً على قلل
لا تنظر العين منهم إن هم لبسوا ... لأمات حربهم يوماً سوى المقل
تقدمتها بجيوش لو تقدمت بها ... شم الجبال أزالتها ولم تزل
فأصبحت بعد عز الملك خاضعة ... من ذل له الملك طول الدهر في مهل
أمست خراباً وأضحى أهلها رمماً ... وسطرتها يد الأيام في المثل
تسلبت بزتها عنها وقد عطلت ... ألذ للطرف من حلي ومن حلل
ومحو آثارها منها وقد خربت ... أشهى إلى النفس من روض الربى الخضل
بالأشرف السيد السلطان زال عنا ... التثليث وابتهج التوحيد بالجذل
تدبير ذي حلم في عز منتقم ... وعزم مقتبل في رأي مكتهل
راحت وقد سلبت أرواحهم لشبا ... الهندي أموالهم من حملة النفل
هدمت ما شيدوا فرقت ما جمعوا ... نقضت ما أبرموه غير محتفل
وعندما أصبحت قفراً بلادهم ... من السواحل بعد الأهل في عطل
رحلت عنها ولكن كم أتمت بها ... من خوف بأسك جيشاً غير مرتحل
لا زلت ذا رتب في المجد سامية ... وسؤدد بنواحي الشهب متصل (١)

---

(١) تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ / ١١٤

قال في فتح عكــــا :

يا أشرف الدّنيا تهنّ فإنــه … فتحٌ سواك بمثله لم يحلم
أشبهْتَ معتصم الخلائف همّةً … فالروم منك ديارهم لم تُعْصَم
فأريْتَ عكا ما بعمّوريةٍ … ذات الفوارس بالزمان الأقدم
فأبلْتَ بُلقَ جيوشه بسوابق … غرّ عليها الريحُ لم يتقدم
ولأنْتَ من شُهْبٍ وليلٍ لم تزلْ … تُردي الكماةَ بأشْهَبٍ وبأدهم
كم رُعْتَها بسوادِ ليلٍ أليَلٍ … فصدَمْتَها ببياضِ يومٍ أيْوَمِ
وأعَدْتَها للمسلمين ولم يكن … منهمْ ترى التطهير إلّا بالدم
ولئنْ صلاح الدين بكراً نالها … فالبكر في التّجْريب غير الأيِّم
بالجُمْعة الغرّاء كان صباحُها … وَجْهُ الزمان بمثله لم يُرْقَم
لم تمْلُ خندقها وقد داروا به … طعنًا بغير شظى القنا المتحطم
وغدَتْ وعن غيها بما أوليتَها … خبراً يُقَصّ المجدِ أوتهم* (١)

---

(١) جواهر السلوك ورقة ٤٨
(*) نسبها محمود سليم الى ابن الصائغ (عصر سلاطين المماليك ٨/ ٥٧)

قال في فتح حصن المرقب زمن المنصور قلاوون :

كم له فتح غير هذا خبي ... فاستتر بفتح الأرض واستوعب
يا فاتح الحصن الذي فتحه ... يأتي به شكرك من يشرب
حصن عظيم القدر في سيرة ... ابن مضى قبلك لم يكتب
اذا بدا والغيم من حوله ... تقول نجم لاح في غيهب
وان تلى للعين أبراجه ... يقال هذا موكب الكوكب
أشبت حربا فيه كم رامها ... قبلك سلطان فلم تنشب
قد رحت منه تعتلي صهوة ... لم يبق حصن ثم لم يجنب
أخذت حق الدين من بعدما ... مضت سنون وهو لم يطلب
وذات خطوكم لها وثبة ... عظيمة المسرى إلى المسرب
قد سقتها غابا وآسادها ... تحملها في ضيق المذهب
كم نصب الاعداء من هول ما ... رأوه منها وشي لم تنصب
وكم لها قالوا وقد ركبت ... أي حصين بقي لم يخرب
كأنها الأعناق أمست لها ... مناسب الأملد والأرطب
وكم ثقوب فيه عبرتها ... مما لكا تأتيه بالمطلب
أبكارها ما افتضها معسول ... الا انثنت كالحابل المقرب
فاهنأ بفخر منه قد حزته ... أخبارهمن طيبها تجتبى
وليس حصن بعدها مانع ... في الأبعد النائي وفي الأقرب
واعلم بأن السعد قد قال ذا ... وقال نصر الله بالموكب (١)

وقال في فتح حصن عكار سنة ٦٦٩ هـ :

يا مليك الأرض بشرا ... لك فقد نلت الإراده
إن عكار يقينا ... هو عكا وزياده (٢)

وقال في انتصار المنصور قلاوون على الفرنج والتتار والارمن سنة ٦٨١ :

ألله أعطاك ، لا زيد وعمرو ... هذا العطاء ، وهذا الفتح والنصر
هذا المقام الذي لو لم تحل به ... لم يبق ، والله ، لا شام ولا مصر
. . . .
يا عزة ما رأى الراؤون شبهها ... ووقعة سار في الدنيا لها ذكر
لما بنى جيش أيقا في تجاسره ... ولن يعد لملا القنا جسر
واستجمع الخيل والتكفور واتفقوا ... مع الفرنج ومن أودى به الكفر

---

(١) تشريف الأيام والعصور ص ٨٠
(٢) تاريخ ابن الوردي ١ /٢٠٧ وانظر المختصر في تاريخ البشر ج٣ /٦

جاءت ثمانون ألفا من بحوثهـــم ... لأرضهم حمر فكان البعث والنشـــر
وانى النيصان في يوم الخميس ضحى ... وامتدت الحرب حتى آذن السبـــر
والسيف يركن والأعلام رافعـــة ... والروس تسجد لا عجب ولا كبـــر
والخيل لا تغتدي إلا على جثث ... والسهل من أروس القتلى به وعـــر
والبيض تغمد في الأجفان من مهج ... والسمر ناهيك يا ما تفعل السمـــر
فجاء في رجب عيدان من عجـــب ... للسيف والرمح هذا الفطر والنحر (١)

ومما كتب في جواب البشارة عن المولى السلطان الملك الاشرف (بفتح حصن المرقب)

يا ملك الأرض الذى جيشـــه ... يملأ من غرب الى مشـــرق
هنئت بالحصن العظيم الـــذى ... لفتحه غيرك لم يسبـــق
حصن بما التتار قالوا تـــرى ... من بعد هذا أى شئ بقـــي
وقال كل منهم ليتنـــا ... لمثل هذا اليوم لم نخلـــق
فاهنأ به فتحا فكم لبلـــه ... في باب عكا بكم يلتقـــي (٢)

وقال في طرد الفرنج من عكـــا سنة ٦٩٠ :

يا بني الأصفر قد حل بكـــم ... نقمة الله التي لا تنفصـــل
نزل الأشرف في ساحلكـــم ... فأبشروا منه بصفع متصـــل (٣)

وقال يرثي الظاهر بيبرس من قصيدة :

تقرا • عليك تحية وســـلام ... يا قبر من فجعت به الانـــام
الظاهر السلطان من بمصابـــه ... هد الهدى وتأثر الإســـلام
قبر الذى لو أنصفته قلوبنـــا ... ما أصبحت بحسرة تشتـــام
• •
هذا الذى قال الملوك لربـــه ... قل يا رسول وما عليك مـــلام
هذا الذى هزم التتار فأصبحـــوا ... تغتالهم عند الكرى الأحـــلام
هذا الذى قهر الفرنج فكلهـــم ... ترديهم من رعبه الأوهـــام (٤)

وقال يمدح الظاهر بيبرس سنة ٦٦٤ :

اى يوم بنصره قد حبينـــا ... وبه الله قد أقر العيونـــا
يوم جزنا ببلاد سيس وقلنـــا ... أي نصر من ربنا قد جزينـــا

ومنهـــا :

كم أنلوا القـــوم نهبا وأســـرا ... في انتصار وكم أعزوا القرونـــا

---

(١) عقد الجمان جـ٢٠ ، ق٤ ورقة ٦٧٧ (٢) تشريف الايام والعصور ص ٨٢
(٣) تاريخ ابن الفرات مجلد ٨ص ١١٤ ، والسلوك لمعرفة دول الملوك جـ ١ ق ٣ ص٧٦٦
(٤) تاريخ ابن الفرات مجلد ٧ ص ١٤٣

فتحوا المدن والحصون وكنوا ... كافريها وسلّموا المسلمينا
بسطى سيد الملوك ومن قد ... صار حصنا للمسلمين حصينا
ركن دين الله بيبرس الظاهر ... خير الملوك دنيا ودينا
أسد الله في الوجود أتاها ... بالسطى منه أخذل الظالمينا
وتولى ليفون منه حسيرا ... خائبا خائفا لسينا مهينا
وكذاك التتار خوفا ورعبا ... قد تولوا من بأسه هاربينا
آه لو أنهم أتاموا فقالوا ... أي يوم لشره قد حيينا
أنذروا بالجيوش أبغا فولى ... هاربا لا يكذب الناقلينا (١)

---

(١) السلوك لمعرفة دول الملوك ١ ص ٥

يقول في الرد على النصارى واليهود :

خبرونا أهل الكتابين من أين أتاكم تثليثكم والبداء
ما أتى بالعقيدتين كتاب واعتقاد لا نص فيه ادعاء
والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها ادعياء
ليت شعرى ذكر الثلاثة والوا حد نقص في عدكم أم نماء
كيف وحدتم إلها نفى التو حيد عنه الآباء والأبناء
أإله مركب ما سمعنا بإله لذاته أجزاء
ألكل منهم نصيب من الملك فهلا تميز الأنصباء
أم هم حللوا بها شركة الأبدان أم هم لبعضهم كفلاء
أتراهم لحاجة واضطرار خلطوها وما بغى الخلطاء
أم جميع على الحمار لقد جل حمار بجمعهم مشاء
أم أردتم بها الصفات فلم خصت ثلاث بوصفه وثناء
أم هو ابن الله ما شاركته في معاني النبوة الأنبياء
قتلته اليهود فيما زعمتم ولأمواتكم به إحياء
إن تولا القتو على الله تعالى ذكرا لقول هراء (١)

ويذكر أقوال اليهود وقبلها يصف الاسلامية :

وأخوا الضلالة قال عيسى ربه ونبيه فأخو الضلال مكذب
ويقول خالقه أبوه وإنه رب وإنما ما ألا فتعجبوا
أبهذه التوراة جاءت كتبهم أم حرفوا منها الصواب وبدلوا
فاعوج منها ما استقام طلوعه فكأنها بين النجوم العقرب
عجبا لهم ما باهلوه ولم أبت أحبار نجران الذين ترهبوا
ولقد تحدى بالبيان لقومه واليهم يعزى البيان وينسب (٢)

واتفق أن الشيخ شرف الدين البوصيري رأى في منامه قبل أن يخرج الاشرف الى عكا قائلا ينشد :

قد أخذ المسلمون عكا وأشبعوا الكافرين صكا
وساق سلطاننا إليهم خيلا تدك الجبال دكا
واقسم الترك منذ سارت لا تركوا للفرنج ملكا (٣)

---

(١) ديوانه ص ١٥
(٢) ديوانه ص ٤٦
(٣) ديوانه ص ٢٣١

وقال يمدح أيدمر عزّ الدين والي القاهرة ويعزيه في سيف الدين :

فطهّر الأرض من أهل الفساد فــلا ... عين لهم بقيت فيها ولا أثــر
ودبّر الملك تدبيرًا يقصّر عـــن ... إدراك أيسره الأفهام والفكــر
وحين طارت الى الاعداء سمعتــه ... ماتت الفرنج بداء الخوف والتتــر
فما يبالي بأعدائه قلوبهــم ... فيها تمكّن منه الخوف والذعــر
وكلّ أرض ذكرناه بها غنيــت ... عن أن يجرّد فيها الصارم الذكر (١)

وقال في مدح الملك المنصور قلاوون بمناسبة بنائه المارستان المنصوري الكبير سنة ٦٨٤ منها :

لقد جهلت داويّة الكفر بأســه ... وغرّهم بالمسلمين غــرور
فلا بوركوا من اخوة إنّ أمهــم ... وإن كثرت منها البنون نــزور
يظنون خيل المسلمين يصدّهــا ... عن العدو في أرض العدوّ دجــور
أما زلزلت بالعاديات وجاءهــا ... من الترك جيش لا يعدّ غفــير
أتوا بحليّات من الجرد سيّــرت ... ورجل لهم مثل الجراد طمــور
فلم يرتبوا من صوبها ماطر مرتبــا ... بهاماته برد السحاب تكســور
وصب عليهم عارض من حجــارة ... ونبل وكلّ بالعذاب مطيــر
وساموه خسفًا من نقوب كأنهــا ... أثافي لها تلك البروج قــدور
فذاقوا به مرّ الحصار فأصبحــوا ... لهم ذلك الحصن الحصين حصيــر
يصيحون أعلى السور خوفا كما فــي ... نقى عنه نوم المقلتين صفيــر
وماذا يرد السور عنهم وخلفــه ... من الخيل سور والصوارم ســور
وليس لهم إلا إلى الأسر ملجــأ ... وإلا إلى ضرب الرقاب مصيــر
فلما أحسّوا بأس أغلب همــة ... غدوّ إليهم بالردى وبكــور
دعوه وشمل النصر منهم ممــزّق ... أمانًا وجلباب الحياة بقصــير
أطارهم افرنسيس تلك وسيلــة ... رأى مستجيرا عيّها وسعيــر
فدى نفسه بالمال والآن وانثنــى ... تطير به من حيث جاء طيــور
فلا تذكروا ما كان بالأمس منهــم ... فذاك لأحقاد السيوف مثيــر
فلو شاء سلطان البسيطة ساقهــم ... لمصر وتحت الفارسين أسيــر
تبشّر مصر دائما بقدومهــم ... اذا فصلت منهم لغزة عيــر
تسرّهم عند القفول بضاعــة ... وتحفظ منهم إخوة وتميــر
ولو شاء مد النيل سيل دمائهــم ... ورنّت نحور ماءه وسحــور
بسيد كسيد النحر يا حسن ما يــرى ... به من علوج كالعجول جــزور
فولوا وسوء الظن يلوي وجوههــم ... فتحسبها صورا وما هــي صــور
وقد شغرت منهم حصون أواهــل ... وما راعها من قبل ذاك شغــور
فلله سلطان البسيطة إنــه ... مليك يسير النصر حيث يســير

---

(١) ديوانه ص ٨٨

ويغمد في هام الملوك حسامه ... ويرهب من هام الملوك غفير
ويجني من أشلائهم متفرقا ... بصارمه جمّ الهشيم شطير
فأخلق بأن يبقى ويبقى لملكه ... ثناءٌ حكاه عنبر وعبير . . . (١)

ويقول عن ستور النصارى : من قصيدة يمدح بها الصاحب شمس الدين بن الصاحب برهان الدين :

إن النصارى بالمحلة وُدُّهم ... لو كان جامعها يكون كنيسا
أترى النصارى يحكمون بأنه ... من باشر الأحبار صار حبيسا
إن عاد إسحقُ اليها ثانيا ... ضربوا على أبوابها الناقوسا
صرف الإله السوء عنك بصرفه ... فاصرفه عنا واصفع القسيسا (٢)

وقال قصيدة سماها المخرج والمردود على النصارى واليهود :

جاء المسيح من الإله رسولا ... فأبى أقلُّ العالمين عقولا
قومٌ رأوا بشرًا كريمًا فادّعوا ... من جهلهم لله فيه حلولا
وعصابة ما صدّقته وأكثرت ... بالإفك والبهتان فيه القيلا
لم يأتِ فيه مُفرِط ومُفرِّط ... بالحق تجريحا ولا تعديلا
فكأنما جاء المسيح إليهمُ ... ليكذّبوا التوراة والإنجيلا
فاعجبْ لأمّتِهِ التي قد صيّرت ... تنزيهها لإلهها التنكيلا
أسمعتمُ أنّ الإله لحاجة ... يتناول المشروبَ والمأكولا
وينام من تعب ويدعو ربه ... ويروم من حرّ الهجير مقيلا
ويمسّه الألم الذي لم يستطع ... صرفا له عنه ولا تحويلا
ياليت شعري حين مات بزعمهم ... من كان بالتدبير عنه كفيلا
هل كان هذا الكون دبّر نفسه ... من بعده أم آثر التعطيلا (٣)

وله قصيدة أخرى تسمى " ذخر المعاد في وزن بانت سعاد " منها :

فأخسر الناس من كانت عقيدته ... في طيها للشرور المخلق تحصيل
وأمة تعبد الأوثان قد نصبت ... لها التصاوير يوما والتماثيل
وأمة ذهبت للعجل عابدة ... فنالها من عذاب الله تعجيل
وأمة زعمت أنّ المسيح لها ... ربٌّ غدا وهو مطلوب ومقتول
فثلّثت واحدًا فردًا نوحده ... وللبصائر كالإبصار تخييل
تبارك الله عما قال جاحده ... وجاحد الحق عند الله مخذول (٤)

---

(١) ديوانه ص ٩٦ ــ ٩٨
(٢) ديوانه ص ١١٤
(٣) ديوانه ص ١٢٧ ــ ١٢١
(٤) ديوانه ص ١٧٣

قال في فتح عكا سنة ٦٩٠ هـ

الحمد لله زالت دولة الصلب … وعز بالترك دين المصطفى العربي
هذا الذي كانت الآمال لو طلبت … رؤياه في النوم لاستحيت من الطلب
ما بعد عكا وقد هُدّت قواعدها … في البحر للشرك عند البر من أرب
عقيلة ذهبت أيدي الخطوب بها … دهراً وشدّت عليها كفّ مغتصب
لم يبق من بعدها للكفر إذ خربت … في البر والبحر ما يُنجي سوى الهرب
كانت تخيلها آمالنا فترى … أن التفكّر فيها أعجب العجب
أمّ الحروب فكم قد أنشأت فتنا … شاب الوليد بها هولاً ولم تَشِب
سوران: بر وبحر حول ساحتها … داراً وأدناهما أنأى من القطب
مصفح بصفاح حولها أكم … من الرماح وأبراج من اليلب
مثل الغمائم تُهدي من صواعقها … بالنبل أضعاف ما تهدي من السحب
كأنما كل برج حوله فلك … من المجانيق يرمي الأرض بالشهب
ففاجأتها جنودُ الله يقدمها … غضبان لله لا للملك والنشب
ليثٌ أبى أن يردّ الوجه عن أُمَم … يَدْعون ربّ الورى ـ سبحانه ـ بأب
كم رامها ورماها قبله ملك … جَمّ الجيوش فلم يَظْفَر ولم يُصِب
لم يلهه ملكه بل في أوائله … نال الذي لم ينله الناس في الحقب
لم تُرْضِ همته إلا التي قعدت … للعجْز عنها ملوك العجم والعرب
فأصبحت وهي في بحرين مائلة … ما بين مضطّرم ناراً ومضطرب
جيش من الترك تَرْكُ الحرب عندهم … عار وراحتهم ضَرْبٌ من الوصب
تسنّموها فلم يترك ثباتهم … في ذلك الأفق برجاً غير منقلب
أتوا حماها فلم تمنع وقد وثبوا … عنها مجانيقنا شيئاً ولم تثب
يا يوم عكا لقد أنسيْت ما سبقت … به الفتوح وما قد خُطّ في الكتب
لم يبلغ النطق حد الشكر فيك فما … عسى يقوم به ذو الشعر والخُطَب
كانت تمنى بك الأيام عن أمم … والحمد لله شاهدناك عن كثب
أغضبت عُبّاد عيسى إذ أبدتهم … لله أيّ رضى في ذلك الغضب
وأطلع الله جيش النصر فابتكرت … طلائع الفتح بين السمر والقضب
وأشرف المصطفى الهادي البشير على … ما أسلف الأشرف السلطان من قرب
فقر عينا بهذا الفتح وابتهجت … بنشره الكعبة الغراء في الحجب
وسار في الأرض سير الريح سمعته … فالبرّ في طَرَبٍ والبحر في حرب
وخاضت البيض في بحر الدماء وما … أبدتْ من البيض إلا ساقَ مختضب
وقاء زُرْقُ القنا في زُرْق أعينهم … كأنها شطنٌ تهوي إلى قلب
توقدت وهي تروى في نحورهم … يزاد منها الريّ في الإشراق واللهب
أجرت إلى البحر بحراً من دمائهم … فراء كالراي إذ غرقاه كالحبب

وذاب من حرها عنهم حديدهم ... فقيدتهم به ذعراً يد الرهب
تحكمت فسطت فيهم قواضبها ... قتلاً وعفت لحاويها عن السلب
كم أبرزت بطلاً كالطود قد بطلت ... حواسه فغدا كالمنزل الخرب
كأنه وسنان الرمح يطلبه ... بين ذوي ووراءه كوكب الذنب
بشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت ... بك الممالك واستعلت على الرتب
ما بعد عكا وقد لانت عريكتها ... لديك شيء تلاقيه على تعب
فانهض الى الارض فالدنيا بأجمعها ... مدت اليك نواصيها بلا نصب
كم قد دعت وهي في أسر العدى زمناً ... صيد الملوك فلم تسمع ولم تجب
لبيتها يا صلاح الدين معتقداً ... بأن ظن صلاح الدين لم يخب
أسلت فيها كما سالت دماؤهم ... من قبل أجرارها بحراً من الذهب
أدركت ثار صلاح الدين اذ غضبت ... منه لسر طواه الله في اللقب
وجئتها بجيوش كالسيول على ... أمثالها بين آجام من القضب
وحطتها بالمجانيق التي وقفت ... أمام أسوارها في جحفل لجب
مرفوعة نصبوا أضيافها فغدا ... للجزم والكسر منها كل منتصب
ورضتها بنقوب ذللت شمماً ... منها وأبدت محياها بلا نقب
وبعد صبحتها بالزحف فاضطربت ... رعباً وأهوت بخديها الى الترب
وغنت البيض في الاعناق فارتقصت ... أبراجها لعباً منها مع اللعب
وخلقت بالدم الاسوار فابتهجت ... طيباً ولولا دماء القوم لم تطب
وأبرزت كل خود كاعب نشرت ... لها الرؤوس وقد زفت بلا طرب
بانت وقد جاورتنا ناشزاً وغدت ... طوع الهوى في يدي جيرانها الجنب
ظنوا بروج البيوت الشم تعقلهم ... فاستثقلتهم ولم تطلق ولم تهب
فأحرزتهم ولكن للسيوف لكي ... لا يلتجي أحد منهم الى هرب
وجالت النار في أرجائها وعلت ... فأطفأت ما بصدر الدين من كرب
أضحت أبا لهب تلك البروج وقد ... كانت بتصليبها حمالة الحطب
وأثلت البحر منهم من يخبر من ... يلقاه من قومه بالويل والحرب
وتمت النعمة العظمى وقد كملت ... بفتح صور بلا حصر ولا نصب
أختان في أن كلا منهما جمعت ... صليبية الكفر لا أختان في النسب
لما رأت أختها بالامس قد خربت ... كان الخراب لها أعدى من الجرب
فالله أعطاك ملك البر وابتدأت ... لك السعادة ملك البحر فارتقب
من كان مبدأه عكا وصور معاً ... فالصين أدنى الى كفيه من حلب
علا بك الملك حتى أن قبته ... على الثريا غدت ممدودة الطنب
فلا برحت عزيز النصر مبتهجاً ... بكل فتح قريب المنح مرتقب (١)

---

(١) جواهر السلوك ورقة ٥٩ ــ ٦٢ ، ابن كثير البداية والنهاية ١٣ / ٣١٣
درة الاسلاك جـ ١ ورقة ١٥٤ ، تاريخ ابن الفرات ٨/١١٧ ــ ١١٨

وقال في فتح حصن المرقب من قصيدة :

ولقد ذكرتك والحياة كريهة ... والموت يرقب تحت حصن المرقب
والبيض من خلل السهام كأنها ... برق تألق في غمام صيب
والحصن من شفق الحديد كأنه ... عذراء ترفل في رداء مذهب
سامي السماء فمن تطاول نحوه ... للسمع مسترقا رماه بكوكب
والمنجنيق كأنه من رميه ... حيث استدارت مركب في لولب
والموت يلعب بالنفوس وخاطري ... يلهو بخمرة ذلك المستعذب (١)

وقال في فتح عكا وما معها من الحصون أولها :

الشرك أجلى وانجلى ظلماته ... والدين قرّ وأشرقت قسماته
والنصر آلوت بالفرنج رياحه ... من بعد ما فتكت بهم نسماته

ومنها :

طمع العدو بأن عكا معقل ... تبلى الدهور ولا تلين قناته
فرماهم بالرعب وهو الصدمة الأولـ ... ـى فزلزل أرضهم صدماته
وتحكم السيف الصقيل فأحرزت ... بالقتل أسراب الظباء ظباته
ونمى الى صور الحديث بحربهم ... إذ خلقت بدمائهم صفحاته
نوهت عزيمة من بها وتفرقوا ... عن حصنهم ونفتهم أبياته
وسرت الى صيدا الجيوش وربهم ... تنفي طارق جنده ظلماته
فخلوا منازلهم وكان نحوسها ... قد عبرت عن حزنه عبراته
وأتوا على البترون وهو محصر ... بمراكب صفت بها صافاته
فغدوتم أسرى وهل ينجو امرؤ ... قد قيدت بسكونه حركاته
وأتى على بيروت يوم مثلهم ... تربو على أعوانه ساعاته
أرداهم ما أضمروا من غلهم ... والمرء يتبعه الردى تبعاته
وبحصن عثليث المنى كملت وما ... كانت بغير الوهم تدرك ذاته
وكذاك انطرطوس أسلمها العدى ... ومضت تميل بعنقه لفتاته
وجبيل ولى أهلها فرقاً وكـ ... ـل للفراق ترددت حسراته
غضب الإله لدينه فأتتهم ... من حيث لم يتوهموا سطواته
وتفرقوا أيدي سبا وسباؤهم ... جمعت برغمهم إلينا أشتاته (٢)

---

(١) درة الأسلاك ورقة ١٢٥
(٢) جواهر السلوك ورقة ٦١ ودرة الأسلاك في دولة الأتراك ورقة ١٥٨

وقال في فتح حصن المرقب :

الله أكبر هذا النصر والظفر   هذا هو الفتح لا ما تزعم السير
هذا الذي كانت الآمال إن طمحت   الى الكواكب ترجوه وتنتظر
فانهض وسر وأملك الدنيا فقد نحلت   شوقاً منا بروجنا وارتاحت السور
كم رام قبلك هذا الحصن من ملك   فطال عنه وما في باعه قصر
وكيف تمنحه الايام مملكة   كانت لدولتك الغراء تدخر
عز العدى منه حلم تحته همم   لا أشقر البرق من تحجيلها غرر
لها وإن أشبهت لطفا النسيم سرى   مثنى السواصف لا تبقي ولا تذر
أوردتها المرقب العالي وليس سوى   ماء المجرة في أرجائها نهر
كأنه وكأن الجو يكنفه   وهم تمثله في طيها الفكر
يختال كالغادة العذراء قد نظمت   منه مكان اللآلي الانجم الزهر
لها الهلال سوار والسها شنف   والقلب قلب ومسود الدجى طرر
تعلو الرياح اليه كي تحيط به   خبرا وتدنو وما في ضمنها خبر
ويوم البرق يهفو نحوه ليرى   أدنى رباه ويأتي وهو معتذر
وليس يروى بماء السحب معهده   اليه منها لا وهو منحدر
فجاءته جنود الله يقدمها   من بأسك المنذران : الخوف والحذر
وأضرمت حوله نارا لها لهب   من السيوف ومن نبل الوغى شرر
والجأته سهام الحتف   فاغتاله القاتلان : الحصر والحصر
وأمطرته المجانيق التي نشأت   ولم يكن قبلها يهمي به المطر
كأنها ومجانيق الفرنج لها   غرائب الأسد في أظفارها الظفر
وكم شكا الحصن ما يلقى فما أثرت   يا قلبها أحديد انت أم حجر
وللنقوب دبيب في مفاصله   تثير سقما ولا يبدو له أثر
أضحى به مثل صب لا تبين به   نار الهوى وهي في الاحشاء تستعر
قد زال وتجلى قواه عن قواعده   وخر أعلاه نحو الارض يبتدر
وساخ وانكشفت أقباؤه وبدا   لديك من مضمرات النصر ما ستروا
فمال يهدى اليهم كل ليث وغى   له من البيض ناب والقنا ظفر
وقد تقلد من إشراق ملكك ما   به على أنجم الجوزاء يفتخر
رفعت أعلامه أعلاما مسودة   ان لا يزال بها الاسلام ينتصر
تبدو بها غرر الظلمات فالحمد   من كل ناحية في وجهها قمر
ان لم يوف الورى بالشكر ما فتحت   يداك فالله والاملاك قد شكروا (١)

وقال في فتح طرابلس :

علينا لمن أولاك نعمته الشكر   لانك للاسلام يا سيفه ذخر
ومنا لك الاخلاص في عالم الدعا   الى من له في أمر نصرتك النصر

---

(١) درة الاسلاك جـ ١ ورقة ١٢٥ ، النجوم الزاهرة ٧ / ٣٠١٧ ـ ٣١٨

ولله في اعلاء ملكك في الـــورى ... مرادٌ وفي التأييد يوم الوغى ســـر
الا هكذا يا وارث الملك فليكــن ... جهاد العلا مما توالى به الدهــر
نهضت الى عليا طرابلس التـــي ... أتى عنا منا أن خندقها البحـــر
وقد ضمها كالطوق الا بقيـــة ... كنحر وأنت السيف لاح له نحـــر
منعة بكر وهل في جهوســـا ... تملكته الا منعة بكــــر ؟
وكانت بدار العلم تعرف قبلهـا ... فمن أجل ذا للسيف في نظمها نثر
ولما غدتْ لا فخر مثل افتتاحهـا ... أبى الله إلا أن يكون لك الفخـر
فكم مرّ من دهر وما مسّهـا أذىً ... وكم رام من عصر وما راعها حصـر
وكم ليثُ غاب رامها في جيوشـه ... وغابَ ولم يحرز له ظفرا ظفـر
فجاءتها بالجيش كالموج فانثنت ... تميد وقد أربى على بحرها البحـر
وظلتْ لدى بحرين أنكاهما لهـا ... وأقتله البحر الذي جرّه مصـر
كأن المجانيق التي أوترتْ ضحى ... عليها لها في سلم أبراجها وتـر
تحلق في جو السماء وترتمـي ... اليهم كما ينقضّ في حالقٍ نســر
وليست بحسناء السرانين أن بدت ... لناظرها يوما وفي قلبها صخـر
لها شرر كالقصر ترمي به العدى ... فما برح يستعصي عليه ولا قصـر
ومن تحتها تلك الثقوب كأنمـا ... اذا ما تمشّت في ضمير الثرى سـر
فزلزلتَها بالركض فانهدّ ركنهـا ... ولم يبق من دون المنايا لها ستـر
تصدّعتمُ شمارين غير فريقهـم ... فللسيف شطر والقيود لها شطـر (١)

وقال يمدح الاشرف خليل على فتحه قلعة الروم بقصيدة أولها :

لك الراية الصفراء يقدمها النصـر ... فمَن كيقباذ ان رآها وكيخسـرو
اذا خفقت في الارض هدّت بنودها ... هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر
وان نشرت مثل الاصائل في وضحى ... جلا النقع من لالاء طلعتها البـدر
وان يممتْ زرق العدى سار تحتهـا ... كتائب خضر تحتها البيض والسمـر
كأن مثار النقع ليلٌ وخفقهــا ... بروقٌ وأنت البدر والفلك البحـر
لها كل يوم أين سار لواؤهـا ... شديدُ تأييد يقدّمها الدهــر
وفتح بدا في اثر فتح كأنمـا ... سماءٌ بدت تترى كواكبها الزهـر
فان رمت حصنا سابقتك كتائـب ... من الرعب أو جيش تقدّمه النصـر
ففي كل قطر للعدى وحصونهـم ... من الخوف أسياف تجرّد أو حصـر
فلا حصن الا وهو حصن لأهلـه ... ولا شعب الا لارواحهم قبـر

. . . .

وما قلعة الروم التي حزت فتحهـا ... وإن عظمت الا الى غيرها جسـر
طليعة ما يأتي من الفتح بعدهـا ... كما لاح قبل الشمس في الافق الفجر
تسبّحتها بالجيش كالروض بهجـة ... صوارمه انهارة والقنا الزهـر

(١) درة الاسلاك ورقه ١٤٥ والنجوم الزاهرة ٧/٣٢٢ ـ ٣٢٤

أداروا بها سورًا فاضحتْ كخاتـــم
وأرخوا اليها من أكفٍّ بحارهــــم
كأن المجانيق التي قمن حولهــا

. . . .

وشبت بها النيران حتى تمزقــت
فلاذوا بذيل العفو منك فلم تُجِبْ
فاحرزتها بالسيف قهرا وهكـذا
فيا أشرف الاملاك فزت بغــزوة
وبشرات أرضيتَ المسيح وأحمــدا
فسر حيث ما تختار فالارض كلهــا
ودُمْ وابقَ للدنيا ليحيا بك الهــدى

وقال يرثي الملك المنصور بقصيدة أولها :

مَلِكٌ مضى لسبيله ، وسبيلــه
الملك المنصور أكرم من جفــا
سل يوم حمص عن الألوف وقد سطــا
وانظر تجد تسعين ألفا منهــم
وغدوا وطاءً للورى فلكم تــرى
والمرقب العالي الذي سامى السمــا
وافى اليه بعزمةٍ جاءت بــه
وكذا طرابلس التي لم يرجُهــا
وكم أباد عدىً وكم أبدى يــدا
وأقال معتذرا وأغنى راجيــا
طوبى له حازت يداه وقد مضــى
فتلقت الأملاك مقدم روحــه

لدى عنصر أوتحت منجنيق عنصــر
سحابَ ردىً لم يخلُ من قطره قطــر
رواعدَ سخطٍ وبلها النار والصخــر

. . . .

وباحت بما أخفته وانهتك الستــر
رجاءهمُ لو لم يشُبْ قصدهم مكــر
فتوحاتك فيما قد مضى كله قســر
تحصَّل منها الفتح :
وإن غضب المغفور من ذاك والكفــر
تطيعك والأمصار أجمعها مصــر
ويزهي على ماضي العصور بك العصر (١)

في نصرة الاسلام حكمٌ يقتفــى
طيب الرقاد الى الجهاد وأوجفــا
في هل بعد ذاك تألفــا
ذهبوا كما حكمت صوارمه جفــا
من جائرٍ قد دام خدًّا معترفــا
فغدا على نهر المجرة مشرفــا
يوم الإباء مُسلَّما مُستسلمــا
ملكٌ سواه اذا تنبَّهَ أو غفــا
وندى وجدَّدَ رسمَ مكرمةٍ عفــا
وأعان ملتجئا وسامح مسرفــا
ما اقترفا في طاعة أو أسلفــا
بأجلّ ما كان فيه وأشرفــا (١)

---

(١) البداية والنهاية ١٣ / ٣٢٣ فوات الوفيات ١ / ١٥٥
(٢) درة الاسلاك ١ ورقة ١٥٠

أشعار لم يعرف قائلوها

قيل في هزيمة الفرنج سنة ٥٥١ ويذكر أحد قادة نور الدين :

ما رأينا فيما تقدم يوما | كان للحسن غاية في البهاء
مثل يوم الفرنج حين علتهم | ذلة الأسر والبلا والفناء
وبراياتهم على السمر زفوا | بين ذل وحسرة وعناء
بعد عزلهم وهيبة ذكر | في مصاف الحروب والهيجاء
هكذا هكذا هلاك الأعادي | عند شن الإغارة الشعواء
نقضوا هدنة الصلاح بجهل | بعد تأكيدها بحسن الوفاء
فلقوا بغيهم بما كان فيه | من فساد يجلهم واعتداء
لا عدمنا اللهم من شتات | بمواض تفوق حد المضاء
فجزاء الكفور قتل وأسر | وجزاء الشكور خير الجزاء (١)

وقال آخر في سقوط القدس سنة ٤٩٢ :

أحل الكفر بالإسلام ضيما | يطول عليه للدين النحيب
فحق ضائع وحمى مباح | وسيف قاطع ودم صبيب
وكم من مسلم أمسى سليبا | ومسلمة لها حرم سليب
وكم من مسجد جعلوه ديرا | على محرابه نصب الصليب
دم الخنزير فيه لهم خلوق | وتحريق المصاحف فيه طيب
أمور لو تأملهن طفل | لطفل في عوارضه المشيب
أتسبى المسلمات بكل ثغر | وعيش المسلمين إذن يطيب
أما لله والإسلام حق | يدافع عنه شبان وشيب
فقل لذوي البصائر حيث كانوا | أجيبوا الله ويحكم أجيبوا (٢)

وجد على عضادة محراب مسجد الرحبة :

أصبحت صفراً من بني الأصفر | أختال بالأعلام والمنبر
دان من المعروف عان به | ناء عن الفحشاء والمنكر
مطهر الرحب على أنني | لولا جمال الدين لم أطهر (٣)

---

(١) تاريخ ابن القلانسي ٣٤٣ ، عقد الجمان جـ١٢ ق ٢ ورقة ٢٨٣

(٢) النجوم الزاهرة ٥/١٥١

(٣) زبدة الحلب من تاريخ حلب جـ ٢ ص ٢٧٣

مدح بعض الحلبيين أسد الدين :

إن كان آل الفرنج أدركو فلحــــا ... في يوم يغرا ونالوا منية الظفــــر
ففي الخطيم خلقت الكفر منصلتـــا ... أبا المظفر بالصمصامة الذكـــر
نالوا بيغرا نهاباً وانتهبت لنـــا ... على الخطيم نفوس المعشر الأشـــر
واستقودوا الخيل عريا واستقدت لنـــا ... قواعد الكفر في ذل وفي صغـــر (١)

وسمع نائم قولا يقول قبل فتوحات صلاح الدين الكبرى :

ملك العياصي والنواصي ناصـــر ... للدين بعد إياسه أن ينصـــرا
وسيفتح البيت المقدس بعد مـــا ... يطوى الطراز له ويقتل قيصـــرا (٢)

وقال آخر بعد هزيمة لويس التاسع عن دمياط :

قل للفرنسيس إن كــــلا ... له من المسلمين شاكـــر
لأنه محسن اليهــــا ... بقوده نحونا العساكـــر
ساق الى مصر ما اقتنـــاه ... آية عيسى من الذخائـــر
وأورد الجمع بحر حـــرب ... صدره بالمنون آخـــر
أركبهم أدهما خضمـــا ... ورابع الشر فهو خاســـر
ورام بابا هم أمـــورا ... فأخلفت ظنه المقـــادر
وأذهل القوم هول حـــرب ... تشخص من خوفه النواظـــر
لم تشف أبصارهم ولكــن ... قد عميت منهم البصائـــر
ولم يفد وقف فيلســوف ... علمه كاهن وساحـــر
فان يعد طالبا لثـــار ... من أرض دمياط غير غـــادر
فذلك البحر تعرفـــوه ... والسيف ماض والجيش حاضـــر
أعاده الله عن قريـــب ... لمثلها انه لقـــادر
بحيث لم يبق للنصـــارى ... من بعد كسر الصليب جابـــر
ويستريح الصميم منهـــم ... من كل علج وكل كافـــر (٣)

وقال بعضهم في أخذ عكـــا :

مررت بعكا بعد تحليق سورهـــا ... وزند أوار النار في وسطهـــا وار
وعاينتها بعد التنصر قد غـــدت ... مجوسية الابراج تسجد للنـــار (٤)

---

(١) الروضتين ١ / ٥٨ ، عقد الجمان جـ١٢ ق ١ ورقة ١٦٩

(٢) الروضتين ١ / ١٠٤

(٣) فوات الوفيات ١ / ١٥٧

(٤) تاريخ ابن الفرات ٨ / ١١٥ وجواهر السلوك ٤٨

ثانيا ـ معاني المصطلحات (مرتبة حسب حروف المعجم)

(*) أتابك : وتكتب أطابك ، أيضا ومعناها : الاب الامير ، وأول من لقب بذلك عماد الدين زنكي صاحل الموصل . (صبح الاعشى ١٦٧/١)

(*) أيبك : لفظة تركية معناها الامير القمر ، (أى : القمر ، بك الامير ، (احمد العبادى ، قيام دولة المماليك الاولى ١٠٩)

(*) البركوس : جمعها : براكيس : نوع من السفن التي كانت تستعمل في الحروب بين الشرق والغرب في مياه البحر الابيض المتوسط في العصور الوسطى وهي أصغر حجما من البطسة ، وحمولة البركوس الواحد حوالي خمسة وعشرين رجلا وهي ماخوذة عن الايطالية Barcoro (ابن شداد ، النوادر السلطانية ،نشر الشيال ص ١٤٤)

(*) الباشورة : جمعها بواشير : الحائط الظاهري من الحصن يختفي وراءه الجند عند القتال (ابن شداد ، النوادر السلطانيه ، نشر الشيال ص ١٠٣)

(*) البطسة : أو البطسة ، ويقال أحيانا بطشة أو بطشة ، وقد تحرف الى بسطة وبسطة والجمع بطس وبطسات ،وبطشات وبطش ، مأخوذه عن الاسبانيه ومعناها السفينة الكبيرة ،تستخدم أصلا للحرب ، وقد تستخدم لنقل التجاره، تتسع في العادة الى ما بين ٣٠٠ ـ ٧٠٠ مقاتل (أبن شداد ، النوادر السلطانية ،نشر الشيال ص ٤٨)

(*) البيضه : جمعها البيض ،وهي الخوذة من الحديد تلبس على الرأس لوقايتها (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٥٣)

(*) تركبلي : لفظة يونانية معناها سلالة الترك (مفرج الكروب نشر الشيال جـ٢ ص ١٤٨)

(*) الجرخ : مأخوذة عن الفارسية ، والجمع جروخ ، وهو نوع من القوس الرامي الذى ترمى عنه النشاب أو النفط ، وهناك أربعة أنواع للقوس الرامي الذى يشبه المنجنيق ، وهي قوس الزياد ، والقوس العقاد ، والجرخ ، وهو يصنع من القرن ، وقوس الرجل ويقال للذى يرمي عن قوسه السهام أو النفط (الجرخي) (النوادر السلطانية ص ٤٢ ، الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٣٦)

(*) الجريدة : الفرقة من العساكر الخيالة لا راجل فيها ، وخرج الجند جريدة أي مسرعين من غير أثقال (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ١٧٢)

(*) الجاليش : في الاصل معناها الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ، ثم أطلق اللفظ على مقدمة القلب في الجيش أو على الطليعه (النوادر السلطانيه ٦٢)

(*) الجنائب : في الاصل الخيول التي كانت تسير وراء السلطان أو الامير في الحروب استعدادا لاحتمال الحاجة (الروضتين جـ ١ ق ١ ص ٢٤٥)

(*) الاحداث: جماعات مسلحة من أهل المدن ، عظم شأنهم في بلاد الشام ، وخاصة في دمشق وحلب ، وأصبحوا ذوي الكلمة الاولى في الدفاع عن دمشق في عهد آل طغتكين ، كما أصبح لهم مسؤول يدعى رئيس الاحداث أو رئيس البلد ، يقر أختياره حاكم المدينة (عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ١٢٨)

(*) الحمالة : الجمع: حمالات ، وهي نوع من السفن المخصصة لنقل مؤونة الجيش وأزواده ، والصناع ، والخدم الملحقين بالجيش والاسطول ، كما تستعمل في نقل الخيول (النوادر السلطانية ١٤٠)

(*) الحركاة : الجمع الحركاوات ـ لفظ فارسي ، وهي نوع من الخيام تتكون من قطع من الخشب معقود بينها على شكل قبة ، وتغطيها قطع من اللبد (النوادر السلطانية ١٤٠)

(*) دبابة : جاء في اللسان : الدبابة : آلة تتخذ من جلود وخشب ، يدخل فيها الرجال ، ويقربونها من الحصن لينقبوه ، وتقيهم ما يرمون به من فوقهم سميت بذلك لانها تدفع فتدب ، ومن حديث عمر ، قال : كيف تصنعون بالحصون ، قالوا : نتخذ دبابات يدخل فيها الرجال ، وجاء في وصفها ، بأنها آلة سائرة تتخذ من الخشب الثخين المتلزز ، وتغلف باللبود والجلود المنقعة في الخل لدفع النار ، وتركب على عجل مستدير وتحرك وتحرك فتنجر ، وربما جعلت برجا من الخشب .. وقد يدفعها الرجال فتندفع على البكر (النوادر السلطانيه ص ٤٢)

(*) الدبوس : آلة من حديد ذات أضلاع (عماد الدين خليل ، عماد الدين زنكي ص ٢٠٥)

(*) الرباط : في الاصل مكان تجمع المجاهدين المتطوعين لقتال العدو على الحدود ثم صار في أيام الايوبيين مكانا يتفرغ فيه للعبادة (الروضتين ج ١ ق ١ ص ٢٢)

(*) الزراق : والجمع زراقون ـ وهو الذي يرمي النفط من الزراقه ، وهي أنبوبة خاصة يزرق بها النفط ، وتنبعث منها نار النفط بارعاد ودخان شديد فتحرق السفن (النوادر السلطانيه ١١٨)

(*) الزنبورك : الجمع زنبوركات ـ قد تعني نوعا من القسي التي تُرمى عنها السهام ، وقد تعني نوعا من السهام ذاتها ، ويكون في سمك الابهام ، وفي طول الذراع ، وله أربعة أوجه ، وطرفه من الحديد ، وهو مريش ليكون في انطلاقه أكثر ثباتا وحيثما سقط فانه مؤكد الاصابة ، وقد يخترق الزنبورك أحيانا ـ في رمية واحدة ـ جسمي رجلين أثنين وقف أحدهما خلف الآخر ، وأخترق في الوقت نفسه درع الجندي وملبسه ، ثم نفذ بعد ذلك وأستقر في الارض ، وقد يصيب أحجار الاسوار ... (النوادر السلطانيه ص ١٤٨ ـ ١٤٩)

(*) الستائر: من أهم المعدات عند المسلمين في العصور الوسطى ، تتخذ من الجلود واللبود المبلولة بالخل ، لوقاية الحصون والقلاع من قذائف النفط (مفرج الكروب ٢/ ٣٠٣)

(*) الأسطول : وقد يرسم في المراجع العربية أصطول أو سطول - والجمع أساطيل كلمة يونانية الاصل ، وتطلق في المراجع العربية على السفن الحربية أو السفينة الواحدة ، ويقال للجندي الذي يعمل في الاسطول (أسطولي) . (النوادر السلطانيه ص ٨٤)

(*) الشحنة : الاصل فيها تطلق على مجموعة الخيل التي تحفظ البلد ، ولكنها أطلقت على رياسة الشرطة أو الامير المشرف على حراستها ، ويقال الشحنكية والجمع على شحن ، وشحاني . (النوادر السلطانية ص ٧٣)

(*) الشيني : أو الشاني أو الشينية أو الشونه . . والجمع شواني - السفينة الحربية الكبيرة ، وهي أهم القطع الكبيرة التي كان يتكون منها الاسطول في الدولة الاسلامية ، وتتسع لمائة وخمسين جنديا بأسلحتهم ، وقيل أنها تسير بمائة وأربعين مجدافا (النوادر السلطانية ص ٤٨)

(*) الطريدة : ويقال الطراد أو الطرادة أو التطريدة . والجمع طرائد ، وهي سفينة برسم حمل الخيل ، وأكثر ما يحمل فيها أربعون فارسا (النوادر السلطانيه ص ٤٨) .

(*) الطوارق ، والطارقيات جمع طارقة ، وهو يطلق على نوعين من السلاح :
الاول : نوع من الترس يحمله الجندي لحماية نفسه أثناء القتال
الثاني : آلة حربية مكونه من جملة من الالواح الخشبية تستخدم كمتراس يختفي الجنود الرماة والصخور خلفها (النوادر السلطانيه ١٢٨)

(*) الطلب : لفظ كردي معناه الامير الذي يقود مائتي فارس في ميدان القتال ، ويطلق كذلك على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول ما استعمل اللفظ بمصر والشام أيام صلاح الدين (النوادر السلطانيه ص ٢٤ ، ٦٢ جب/صلاح الدين الايوبي ص ١٦١)

(*) الكباش : آلة حربية متصلة بالدبابة لها رأس ضخم وقرنان ، تدفعها الجنود نحو الاسوار لتهدمها ، والجمع كباش ، وكبوش وأكبش (الروضتين ج ٢ ق ١ ص ٣)

(*) الكوسات : صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدهما على الاخر بايقاع مخصوص ، ومن يتولى ذلك يسمى الكوسي وكانت تسمى أيضا بالطبلخانة (النوادر السلطانية ٢٠)

(*) القنطاريات : نوع من الرماح وهي لفظ من أصل يوناني ، سميت هكذا لانها تصنع من الخشب الذي يحمل هذا الاسم باليونانية (مفرج الكروب ١/ ٨٣)

(*) القومص: تعريب حرفي للفظة اللاتينية (Comes) أي الامير ، ومعناها الاصلي في اللاتينية (الرفيق) لانه كان في بداية الامر يرافق الملك في حروبه وتنقلاته ، وتعريبها ، كند ، كد ، وتجمع على كنود (النوادر السلطانية ٧٧ والباهر ص ٤١)

(*) اللامة : الدرع ، وقيل السلاح ، وقيل الدرع الحصينة ، سميت لامة لاحكامها وجودة حلقاتها ، وقيل السلاح كله ، ولامة الحرب : أداته وجمعها لام ولوم (النوادر السلطانية ص ٨٨)

(*) المنجنيق : بفتح الميم وكسرها ـ أو المنجنون ، والجمع مجانيق ، ومناجيق ومنجنيقات ، لفظ أعجمي معرب ، وهو آلة الحصار في العصور الوسطى يقوم مقام المدفع الحالي ، وان كانت قذائفه من الحجارة ، ويصفه القلقشندي بأنه : آلة من خشب له دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل رأسه ثقيل ، وذنبه خفيف ، وفيه تجعل كفة المنجنيق التي يجعل فيها الحجر ، يجذب حتى ترفع أسافله على أعاليه ، ثم يرسل فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئا الا أهلكه . (صبح الاعشى ٢ / ١٤٤ والنوادر السلطانية ٢٦)

(*) النبل أو السهام : واحدته نشابة ، والناشبة والنشابة قوم يرمون بالنشاب ، ويشترط فيها ان تكون صحيحة الاعتدال والاستدارة والفتل والثقل والخفة ، وأما طوله وقصره فحسب مقادير الرامي (النوادر السلطانية ٦٣)

(*) النمجاه : بالهاء ، خنجر مقوس يشبه السيف القصير ، وهو معرب اللفظ الفارسي (نيمجه) ، ويقال أيضا : نمجا ، ونمجه ، ونمشا ، ونمشه (النوادر السلطانية ص ٧٩)

(*) الوطاق : لفظ معرب عن التركية ومعناه الخيمة ، أو مجموعة الخيام ، أو المعسكر أو الفرقة (النوادر السلطانية ١٢٩)

(*) اليزك : لفظ فارسي معناه طلائع الجيش (الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٤٢ ، النوادر السلطانيه ص ١٠)

(*) اليلب : الترس ، أو الدروع من الجلود أو جلود يخرز بعضها الى بعض لتلبس على الرؤوس خاصة (الروضتين ج ١ ق ١ ص ١٥٣)

ثالثا : جدول بتحويل السنوات الهجرية الى ميلادية

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٤٥٠	٢٨	٢	١٠٥٨
٤٥١	١٧	٢	١٠٥٩
٤٥٢	٦	٢	١٠٦٠
٤٥٣	٢٦	١	١٠٦١
٤٥٤	١٥	١	١٠٦٢
٤٥٥	٤	١	١٠٦٣
٤٥٦	٢٥	١٢	١٠٦٣
٤٥٧	١٣	١٢	١٠٦٤
٤٥٨	٣	١٢	١٠٦٥
٤٥٩	٢٢	١١	١٠٦٦
٤٦٠	١١	١١	١٠٦٧
٤٦١	٣١	١٠	١٠٦٨
٤٦٢	٢٠	١٠	١٠٦٩
٤٦٣	٩	١٠	١٠٧٠
٤٦٤	٢٩	٩	١٠٧١
٤٦٥	١٧	٩	١٠٧٢
٤٦٦	٦	٩	١٠٧٣
٤٦٧	٢٧	٨	١٠٧٤
٤٦٨	١٦	٨	١٠٧٥
٤٦٩	٥	٨	١٠٧٦
٤٧٠	٢٥	٧	١٠٧٧
٤٧١	١٤	٧	١٠٧٨
٤٧٢	٤	٧	١٠٧٩
٤٧٣	٢٢	٦	١٠٨٠
٤٧٤	١١	٦	١٠٨١
٤٧٥	١	٦	١٠٨٢
٤٧٦	٢١	٥	١٠٨٣
٤٧٧	١٠	٥	١٠٨٤
٤٧٨	٢٩	٤	١٠٨٥
٤٧٩	١٨	٤	١٠٨٦
٤٨٠	٨	٤	١٠٨٧
٤٨١	٢٧	٣	١٠٨٨
٤٨٢	١٦	٣	١٠٨٩

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٤٨٣	٦	٣	١٠٩٠
٤٨٤	٢٣	٢	١٠٩١
٤٨٥	١٢	٢	١٠٩٢
٤٨٦	١	٢	١٠٩٣
٤٨٧	٢١	١	١٠٩٤
٤٨٨	١١	١	١٠٩٥
٤٨٩	٣١	١٢	١٠٩٥
٤٩٠	١٩	١٢	١٠٩٦
٤٩١	٩	١٢	١٠٩٧
٤٩٢	٢٨	١١	١٠٩٨
٤٩٣	١٧	١١	١٠٩٩
٤٩٤	٦	١١	١١٠٠
٤٩٥	٢٦	١٠	١١٠١
٤٩٦	١٥	١٠	١١٠٢
٤٩٧	٥	١٠	١١٠٣
٤٩٨	٢٣	٩	١١٠٤
٤٩٩	١٣	٩	١١٠٥
٥٠٠	٢	٩	١١٠٦
٥٠١	٢٢	٨	١١٠٧
٥٠٢	١١	٨	١١٠٨
٥٠٣	٣١	٧	١١٠٩
٥٠٤	٢٠	٧	١١١٠
٥٠٥	١٠	٧	١١١١
٥٠٦	٢٨	٦	١١١٢
٥٠٧	١٨	٦	١١١٣
٥٠٨	٧	٦	١١١٤
٥٠٩	٢٧	٥	١١١٥
٥١٠	١٦	٥	١١١٦
٥١١	٥	٥	١١١٧
٥١٢	٢٤	٤	١١١٨
٥١٣	١٤	٤	١١١٩
٥١٤	٢	٤	١١٢٠
٥١٥	٢٢	٣	١١٢١
٥١٦	١٢	٣	١١٢٢
٥١٧	١	٣	١١٢٣

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٥١٨	١٩	٢	١١٢٤
٥١٩	٧	٢	١١٢٥
٥٢٠	٢٧	١	١١٢٦
٥٢١	١٧	١	١١٢٧
٥٢٢	٦	١	١١٢٨
٥٢٣	٢٥	١٢	١١٢٨
٥٢٤	١٥	١٢	١١٢٩
٥٢٥	٤	١٢	١١٣٠
٥٢٦	٢٣	١١	١١٣١
٥٢٧	١٢	١١	١١٣٢
٥٢٨	١	١١	١١٣٣
٥٢٩	٢٢	١٠	١١٣٤
٥٣٠	١١	١٠	١١٣٥
٥٣١	٢٩	٩	١١٣٦
٥٣٢	١٩	٩	١١٣٧
٥٣٣	٨	٩	١١٣٨
٥٣٤	٢٨	٨	١١٣٩
٥٣٥	١٧	٨	١١٤٠
٥٣٦	٦	٨	١١٤١
٥٣٧	٢٧	٧	١١٤٢
٥٣٨	١٦	٧	١١٤٣
٥٣٩	٤	٧	١١٤٤
٥٤٠	٢٤	٦	١١٤٥
٥٤١	١٣	٦	١١٤٦
٥٤٢	٢	٦	١١٤٧
٥٤٣	٢٢	٥	١١٤٨
٥٤٤	١١	٥	١١٤٩
٥٤٥	٣٠	٤	١١٥٠
٥٤٦	٢٠	٤	١١٥١
٥٤٧	٨	٤	١١٥٢
٥٤٨	٢٩	٣	١١٥٣
٥٤٩	١٨	٣	١١٥٤
٥٥٠	٧	٣	١١٥٥
٥٥١	٢٥	٢	١١٥٦
٥٥٢	١٣	٢	١١٥٧

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٥٥٣	٢	٢	١١٥٨
٥٥٤	٢٣	١	١١٥٩
٥٥٥	١٢	١	١١٦٠
٥٥٦	٣١	١٢	١١٦٠
٥٥٧	٢١	١٢	١١٦١
٥٥٨	١٠	١٢	١١٦٢
٥٥٩	٣٠	١١	١١٦٣
٥٦٠	١٨	١١	١١٦٤
٥٦١	٧	١١	١١٦٥
٥٦٢	٢٨	١٠	١١٦٦
٥٦٣	١٧	١٠	١١٦٧
٥٦٤	٥	١٠	١١٦٨
٥٦٥	٢٥	٩	١١٦٩
٥٦٦	١٤	٩	١١٧٠
٥٦٧	٤	٩	١١٧١
٥٦٨	٢٣	٨	١١٧٢
٥٦٩	١٢	٨	١١٧٣
٥٧٠	٢	٨	١١٧٤
٥٧١	٢٢	٧	١١٧٥
٥٧٢	١٠	٧	١١٧٦
٥٧٣	٣٠	٦	١١٧٧
٥٧٤	١٩	٦	١١٧٨
٥٧٥	٨	٦	١١٧٩
٥٧٦	٢٨	٥	١١٨٠
٥٧٧	١٧	٥	١١٨١
٥٧٨	٧	٥	١١٨٢
٥٧٩	٢٦	٤	١١٨٣
٥٨٠	١٤	٤	١١٨٤
٥٨١	٤	٤	١١٨٥
٥٨٢	٢٤	٣	١١٨٦
٥٨٣	١٣	٣	١١٨٧
٥٨٤	٢	٣	١١٨٨
٥٨٥	١٩	٢	١١٨٩
٥٨٦	٨	٢	١١٩٠
٥٨٧	٢٩	١	١١٩١

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٥٨٨	١٨	١	١١٩٢
٥٨٩	٧	١	١١٩٣
٥٩٠	٢٧	١٢	١١٩٣
٥٩١	١٦	١٢	١١٩٤
٥٩٢	٦	١٢	١١٩٥
٥٩٣	٢٤	١١	١١٩٦
٥٩٤	١٣	١١	١١٩٧
٥٩٥	٣	١١	١١٩٨
٥٩٦	٢٣	١٠	١١٩٩
٥٩٧	١٢	١٠	١٢٠٠
٥٩٨	١	١٠	١٢٠١
٥٩٩	٢٠	٩	١٢٠٢
٦٠٠	١٠	٩	١٢٠٣
٦٠١	٢٩	٨	١٢٠٤
٦٠٢	١٨	٨	١٢٠٥
٦٠٣	٨	٨	١٢٠٦
٦٠٤	٢٨	٧	١٢٠٧
٦٠٥	١٦	٧	١٢٠٨
٦٠٦	٦	٧	١٢٠٩
٦٠٧	٢٥	٦	١٢١٠
٦٠٨	١٥	٦	١٢١١
٦٠٩	٣	٦	١٢١٢
٦١٠	٢٣	٥	١٢١٣
٦١١	١٣	٥	١٢١٤
٦١٢	٢	٥	١٢١٥
٦١٣	٢٠	٤	١٢١٦
٦١٤	١٠	٤	١٢١٧
٦١٥	٣٠	٣	١٢١٨
٦١٦	١٩	٣	١٢١٩
٦١٧	٨	٣	١٢٢٠
٦١٨	٢٥	٢	١٢٢١
٦١٩	١٥	٢	١٢٢٢
٦٢٠	٤	٢	١٢٢٣
٦٢١	٢٤	١	١٢٢٤
٦٢٢	١٣	١	١٢٢٥

السنة الهجريه	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٦٢٣	٢	١	١٢٢٦
٦٢٤	٢٢	١٢	١٢٢٦
٦٢٥	١٢	١٢	١٢٢٧
٦٢٦	٣٠	١١	١٢٢٨
٦٢٧	٢٠	١١	١٢٢٩
٦٢٨	٩	١١	١٢٣٠
٦٢٩	٢٩	١٠	١٢٣١
٦٣٠	١٨	١٠	١٢٣٢
٦٣١	٧	١٠	١٢٣٣
٦٣٢	٢٦	٩	١٢٣٤
٦٣٣	١٦	٩	١٢٣٥
٦٣٤	٤	٩	١٢٣٦
٦٣٥	٢٤	٨	١٢٣٧
٦٣٦	١٤	٨	١٢٣٨
٦٣٧	٣	٨	١٢٣٩
٦٣٨	٢٣	٧	١٢٤٠
٦٣٩	١٢	٧	١٢٤١
٦٤٠	١	٧	١٢٤٢
٦٤١	٢١	٦	١٢٤٣
٦٤٢	٩	٦	١٢٤٤
٦٤٣	٢٩	٥	١٢٤٥
٦٤٤	١٩	٥	١٢٤٦
٦٤٥	٨	٥	١٢٤٧
٦٤٦	٢٦	٤	١٢٤٨
٦٤٧	١٦	٤	١٢٤٩
٦٤٨	٥	٤	١٢٥٠
٦٤٩	٢٦	٣	١٢٥١
٦٥٠	١٤	٣	١٢٥٢
٦٥١	٣	٣	١٢٥٣
٦٥٢	٢١	٢	١٢٥٤
٦٥٣	١٠	٢	١٢٥٥
٦٥٤	٣٠	١	١٢٥٦
٦٥٥	١٩	١	١٢٥٧
٦٥٦	٨	١	١٢٥٨
٦٥٧	٢٩	١٢	١٢٥٨

السنة الهجرية	تبدأ يوم	شهر	من السنة الميلادية
٦٥٨	١٨	١٢	١٢٥٩
٦٥٩	٦	١٢	١٢٦٠
٦٦٠	٢٦	١١	١٢٦١
٦٦١	١٥	١١	١٢٦٢
٦٦٢	٤	١١	١٢٦٣
٦٦٣	٢٤	١٠	١٢٦٤
٦٦٤	١٣	١٠	١٢٦٥
٦٦٥	٢	١٠	١٢٦٦
٦٦٦	٢٢	٩	١٢٦٧
٦٦٧	١٠	٩	١٢٦٨
٦٦٨	٣١	٨	١٢٦٩
٦٦٩	٢٠	٨	١٢٧٠
٦٧٠	٩	٨	١٢٧١
٦٧١	٢٩	٧	١٢٧٢
٦٧٢	١٨	٧	١٢٧٣
٦٧٣	٧	٧	١٢٧٤
٦٧٤	٢٧	٦	١٢٧٥
٦٧٥	١٥	٦	١٢٧٦
٦٧٦	٤	٦	١٢٧٧
٦٧٧	٢٥	٥	١٢٧٨
٦٧٨	١٤	٥	١٢٧٩
٦٧٩	٣	٥	١٢٨٠
٦٨٠	٢٢	٤	١٢٨١
٦٨١	١١	٤	١٢٨٢
٦٨٢	١	٤	١٢٨٣
٦٨٣	٢٠	٣	١٢٨٤
٦٨٤	٩	٣	١٢٨٥
٦٨٥	٢٧	٢	١٢٨٦
٦٨٦	١٦	٢	١٢٨٧
٦٨٧	٦	٢	١٢٨٨
٦٨٨	٢٥	١	١٢٨٩
٦٨٩	١٤	١	١٢٩٠
٦٩٠	٤	١	١٢٩١

رابعا – جداول بأسماء الحكام المسلمين

١ – السلاجقة

(أ) سلاطين السلاجقه العظام

طغرلبك	١٠٣٧ – ١٠٦٣	بركيارق بن ملكشاه	١٠٩٤ – ١١٠٤
ألب أرسلان	١٠٦٣ – ١٠٧٢	محمد بن ملكشاه	١١٠٤ – ١١١٨
ملكشاه بن ألب أرسلان	١٠٧٢ – ١٠٩٢	احمد سنجر بن ملكشاه	١٠٩٦ – ١١٥٧
محمود بن ملكشاه	١٠٩٢ – ١٠٩٤		

(ب) سلاجقة العراق

محمود بن محمد بن ملكشاه	١١١٨ – ١١٣١	محمد بن محمود	١١٥٣ – ١١٥٩
داود بن محمود	١١٣١	سليمان شاه بن محمد	١١٥٩ – ١١٦١
طغرل الاول بن محمد	١١٣٢ – ١١٣٣	أرسلان شاه بن طغرل	١١٦١ – ١١٧٧
مسعود بن محمد	١١٣٣ – ١١٥٢	طغرل الثاني بن أرسلان شاه	١١٧٧ – ١١٩٤
ملكشاه بن محمود	١١٥٢		

(ج) سلاجقة الشام

تتش بن ألب أرسلان	١٠٩٤	ألب أرسلان بن رضوان (بحلب)	١١١٣ – ١١١٤
رضوان بن تتش (بحلب)	١٠٩٥ – ١١١٣	سلطان شاه بن رضوان (بحلب)	١١١٤ – ١١١٧
دقاق بن تتش (بدمشق)	١٠٩٥ – ١١٠٣		

(د) سلاجقة الروم بآسيا الصغرى

سليمان بن قتلمش	١٠٨١ – ١٠٨٦	كيخسرو الاول (مرة ثانيه)	١٢٠٤ – ١٢١٠
قلج أرسلان الاول	١٠٩٢ – ١١٠٧	كيكاوس الاول بن كيخسرو الاول	١٢١٠ – ١٢١٩
ملكشاه الاول بن قلج ارسلان	١١٠٧ – ١١١٦	كيقباد الاول بن كيخسرو الاول	١٢١٩ – ١٢٣٦
مسعود الاول بن قلج أرسلان	١١١٦ – ١١٥٦	كيخسرو الثاني بن كيقباد الاول	١٢٣٦ – ١٢٤٥
قلج أرسلان الثاني	١١٥٦ – ١١٨٨	كيكاوس الثاني بن كيخسرو الثاني	١٢٤٥ – ١٢٥٧
ملكشاه الثاني	١١٨٨ – ١١٩٢	قلج أرسلان الرابع بن كيخسرو الثاني	١٢٥٧ – ١٢٦٧
كيخسرو الاول	١١٩٢ – ١٢٠٠	كيخسرو الثالث بن قلج أرسلان الرابع	١٢٦٧ – ١٢٨٣
سليمان شاه الثاني بن قلج أرسلان	١٢٠٠ – ١٢٠٣	مسعود الثاني بن كيكاوس الثاني	١٢٨٣ – ١٢٩٦
قلج أرسلان الثالث بن سليمان شاه	١٢٠٣ – ١٢٠٤	كيقباد الثالث	١٢٩٦ – ١٣٠٠

(٢) بنو أرتـــق

(أ) الاراتقه في حصن كيفا ثم في آمد

سقمان الاول بن أرتق	١١٠١ ـ ١١٠٤	محمد بن قرا أرسلان	١١٧٤ ـ ١١٨٥
ابراهيم بن سقمان	١١٠٤ ـ ١١٠٨	سقمان الثاني بن محمد	١١٨٥ ـ ١٢٠٠
داود بن سقمان	١١٠٨ ـ ١١٤٨	محمود بن محمد	١٢٠٠ ـ ١٢٢٢
قرا أرسلان بن داود	١١٤٨ ـ ١١٧٤	مودود بن محمود	١٢٢٢ ـ ١٢٣١

(ب) الاراتقه في ماردين

ايلغازى الاول بن أرتق	١١٠٨ ـ ١١٢٢	يولق أرسلان بن ايلغازى الثاني	١١٨٤ ـ ١٢٠٠
تمرتاش بن ايلغازى	١١٢٢ ـ ١١٥٢	ارتق أرسلان بن ايلغازى الثاني	١٢٠٠ ـ ١٢٣٩
ألبي بن تمرتاش	١١٥٢ ـ ١١٧٦	غازى الاول بن أرتق أرسلان	١٢٢٩ ـ [illegible]
ايلغازى الثاني بن ألبي	١١٧٦ ـ ١١٨٤	قرا أرسلان بن غازى الاول	١٢٥٩ ـ [illegible]

(٣) بنو زنكـــي

(أ) أتابكة الموصـــل

عماد الدين زنكي بن آقسنقر	١١٢٧ ـ ١١٤٦	نورالدين أرسلان شاه الاول بن مسعود	١١٩٣ ـ ١٢١٠
سيف الدين غازى الاول بن زنكي	١١٤٦ ـ ١١٤٩	عزالدين مسعود الثاني بن أرسلان شاه	١٢١٠ ـ ١٢١٨
قطب الدين مودود بن زنكي	١١٤٩ ـ ١١٧٠	نورالدين أرسلان شاه الثاني بن مسعود الثاني	١٢١٨ ـ [illegible]
سيف الدين غازى الثاني بن مودود	١١٧٠ ـ ١١٧٦		
عزالدين مسعود الاول بن مودود	١١٧٦ ـ ١١٩٣	ناصرالدين محمود بن عزالدين مسعود الثاني	١٢١٩ ـ [illegible]
		بدرالدين لؤلؤ وابنه ركن الدين اسماعيل	١٢٣٣ ـ ١٢٥٩

(ب) أتابكة الشـــام

العادل نورالدين محمود بن زنكي	في حلب ١١٤٦ ـ ١١٧٤ في دمشق ١١٥٤ ـ ١١٧٤	الصالح نورالدين محمود بن اسماعيل في حلب ضم حلب الى أتابكية الموصل وسنجار	١١٧٤ ـ ١١٨١ ١١٨١ ـ ١١٨[illegible]

(٤) بنـو ايـوب

(أ) الايوبيـون فـي مصـر

الناصر صلاح الدين يوسف	١١٧٤ ـ ١١٩٣	الكامل (الاول) محمد	١٢١٨ ـ ١٢٣٨
العزيـز عثمـان	١١٩٣ ـ ١١٩٨	العادل (الثاني) ابو بكر	١١٣٨ ـ ١١٤٠
المنصور محمـد	١١٩٨ ـ ١١٩٩	الصالح ايـوب	١٢٤٠ ـ ١٢٤٦
العادل (الاول) لمحمد	١١٩٩ ـ ١١١٨	المعظم توران شاه	١٢٩٠ ـ ١٢٥٠

(ب) الايوبيون في دمشـق

الافضل نور الدين علي	١١٩٣ ـ ١١٩٦	الكامل الاول محمد	١١٣٨
العادل(الاول) احمد	١١٩٦	العادل الثاني ابو بكر	١١٣٨ ـ ١١٣٦
المعظم عيسى	١١١٨ ـ ١٢٢٧	الصالح نجم الدين ايوب (المره الاولى)	١١٣٩
الناصر داود	١٢١٧ ـ ١٢١٩	الصالح اسماعيل (المرهالثاني)	١١٢٩ ـ ٢٤٥
الاشرف موسى	١٢١٩ ـ ١٢٣٧	الصالح نجم الدين ايوب (المره الثانيه)	١٢٤٥ ـ ٢٤٦
الصالح اسماعيل (المره الاولى)	١٢٣٧ ـ	المعظم توران شاه (صاحب مصر)	١١٤٩ ـ ١٥٠

(ج) الايوبيون في حلـب

العادل الاول احمد	١١٨٣ ـ ١١٨٦	العزيز محمـد	١١١٦ ـ ٢٣٦
الظاهر غازي الاول	١١٨٦ ـ ١١١٦	الناصـر (الثاني) يوسف	١١٣٦ ـ ٢٦٠

(د) الايوبيون في حمص

الناصر محمد بن شيركوه	١١٧٨ ـ ١١٨٦	المنصور ابراهيم	١١٤٠ ـ ٢٤٦
المجاهد شيركوه الثاني	١١٨٦ ـ ١٢٤٠	الاشرف موسى الثاني	١٢٤٦ ـ ٢٦٣

(هـ) الايوبيون في حمـاه

المظفر الاول عمـر	١١٧٨ ـ ١١٩١	المظفر الثاني محمود	١٢٢٩ ـ ٢٤٤
المنصور الاول محمد	١١٩١ ـ ١٢١٠	المنصور الثاني محمد	١١٤٤ ـ ٢٨٤
الناصر قلج ارسلان	١٢٢٠ ـ ١٢١٩		

(ز) الايوبيون في ميافارقين

الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب	١١٨٥	الاشرف الاول موسى	١٢١٠ ـ ١٢٢٠
العادل سيف الدين أبو بكر	١١٩٤ ـ ١١٩٩	المظفر شهاب الدين غازى	١٢٢١ ـ ١٢٤٤
الاوحد نجم الدين أيوب	١١٩٩ ـ ١٢١٠	الكامل الثاني ناصر الدين محمد	١٢٤٤ ـ ١٢٦٠

(٥) سلاطين المماليك في مصر

(أ) دولة المماليك البحريه

شجرة الدر	١٢٥٠	السعيد ناصر الدين محمد بن بركه	١٢٧٧
المعز عز الدين أيبك	١٢٥٠	خان	
المنصور نور الدين علي بن أيبك	١٢٥٧	العادل بدر الدين سلامش	١٢٧٩
المظفر سيف الدين قطز	١٢٥٩	المنصور سيف الدين قلاون	١٢٨٩
الظاهر ركن الدين بيبرس (الاول)	١٢٦٠	الاشرف صلاح الدين خليل	١٢٩٠

(٦) ملوك مملكة بيت المقدس الصليبية

جودفرى دى بوايون (وصي على الدوله)	١٠٩٩ ـ ١١٠٠	هنرى دى شامبني	١١٩٢ ـ ١١٩٧
بلدوين الاول (اول ملك متوج)	١١٠٠ ـ ١١١٨	عمورى الثاني	١١٩٧ ـ ١٢٠٥
بلدوين الثاني	١١١٨ ـ ١١٣١	مارى (ابنه كونراد تحت الوصايه)	١٢٠٥ ـ ١٢١٠
فولك الانجوى	١١٣١ ـ ١١٤٤	حنا دى برين	١٢١٠ ـ ١٢٢٥
بلدوين الثالث	١١٤٤ ـ ١١٦٢	الامبراطور فردريك الثاني	١٢٢٥ ـ ١٢٥٠
عمورى الاول	١١٦٢ ـ ١١٧٣	كونراد الرابع ملك المانيا (ملك اسمي)	١٢٥٠ ـ ١٢٥٤
بلدوين الرابع	١١٧٣ ـ ١١٨٥	كونرادين (ملك أسمي)	١٢٥٤ ـ ١٢٦٨
بلدوين الخامس	١١٨٥ ـ ١١٨٦	هيو الثالث ملك قبرص (الثاني)	١٢٦٩ ـ ١٢٨٤
جاى لوزجنان	١١٨٦ ـ ١١٩٢	حنا الاول ملك بيت المقدس	١٢٨٤ ـ ١٢٨٥
كونراد دى مونتفرات	١١٩٢	هنرى الثالث ملك قبرص (الثاني)	١٢٨٦ ـ ١٢٩١

(٧) أمراء أنطاكية النورمان

بوهيموند الاول	١٠٩٨ ـ ١١٠٤	بوهيموند الثالث	١١٦٣ ـ ١٢٠١
تنكرد	١١٠٤ ـ ١١١٢	بوهيموند الرابع	١٢٠١ ـ ١٢١٦
روجر دى سالرنو	١١١٢ ـ ١١١٩	ريموند روبان	١٢١٦ ـ ١٢١٩
بوهيموند الثاني	١١٢٦ ـ ١١٣٠	بوهيموند الرابع (مرة ثانيه)	١٢١٩ ـ ١٢٣٣
ريموند دى بواتييه	١١٣٦ ـ ١١٤٩	بوهيموند الخامس	١٢٣٣ ـ ١٢٥١
ريجنالد دى شاتيون (أرناط)	١١٥٣ ـ ١١٦٠	بوهيموند السادس	١٢٥١ ـ ١٢٦٨

(٨) أمراء طرابلـــس

ريموند الاول (الصنجيل)	١١٠٢ـ١١٠٥	ريموند الثالث	١١٥٢ـ١١٨٧
وليم جوردان	١١٠٥ـ١١٠٨	بوهيموند الرابع (+أنطاكية)	١١٨٧ـ١٢٠٣
برتراند	١١٠٨ـ١١١٣	بوهيموند الخامس (+انطاكيه)	١٢٣٣ـ١٢٥١
بونز	١١١٣ـ١١٣٧	بوهيموند السادس (+انطاكيه)	١٢٥١ـ١٢٧٥
ريموند الثاني	١١٣٧ـ١١٥٢	بوهيموند السابع	١٢٧٥ـ١٢٨٧

(٩) أمراء أرمينية الصغرى

روبان الاول	+ ١٠٩٠	ملح	١١٧٠ـ١١٧٥
قسطنطين الاول	+ ١١٠٠	روبان الثالث	١١٧٥ـ١١٨٧
ثوروس الاول	١١٠٠ـ١١٢٩	ليون الثاني	١١٨٧ـ١٢١٩
ليون الاول	١١٢٩ـ١١٣٦	(تزوجت ايزابيل ابنة ليون الثاني عن هيثوم صبرون	
ثوروس الثاني	١١٤٤ـ١١٦٧	الذى أصبح ملكا على أرمينية الصغرى) .	
روبان الثاني (تحت الوصايه)	+ ١١٧٠		

(١٠) ملوك أرمينية الصغرى

هيثوم الاول	١٢٢٦ـ١٢٦٩
ليون الثالث	١٢٧٠ـ١٢٨٩
هيثوم الثاني	١٢٨٩ـ١٢٩٣
ثوروس الثالث	١٢٩٣ـ١٢٩٤
هيثوم الثاني (مرة أخرى	١٢٩٤ـ١٢٩٦
سمباد	١٢٩٧ـ١٢٩٨
قسطنطين الاول	١٢٩٨ـ١٢٩٩

(١١) أباطرة الدولة البيزنطية

ألكسيوس الاول كومنين	١٠٨١ـ١١١٨	اسحق الثاني +الكسيوس الرابع	١٢٠٣ـ١٢٠٤
حنا الثاني كومنين	١١١٨ـ١١٤٣	الكسيوس الخامس	١٢٠٤
مانويل الاول كومنين	١١٤٣ـ١١٨٠	تيودور الاول لاسكارس	١٢٠٤ـ١٢٢٢
ألكسيوس الثاني كومنين	١١٨٠ـ١١٨٣	حنا الثالث دوقاس	١٢٢٢ـ١٢٥٤
اندرونيق الاول كومنين	١١٨٣ـ١١٨٥	تيودور الثاني لاسكارس	١٢٥٤ـ١٢٥٨
اسحق الثاني أنجيلوس	١١٨٥ـ١١٩٥	حنا الرابع لاسكارس	١٢٥٨ـ١٢٦١
ألكسيوس الثالث أنجيلوس	١١٩٥ـ١٢٠٣	ميخائيل الثامن باليولوجس	١٢٥٩ـ١٢٨٢

د • سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ٢ ص ١٢٦٧ ـ ١٢٠٧.

المصـــادر والمراجـــــع

أ • المخطوطـــــات :

١• الملك الأمجد الحسن بن الناصر داود بن عيسى بن نجم الدين أيـوب، الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية ، مخطوط رقم ٢٢٩٣ أدب ، دار الكتب المصرية ، القاهرة.

٢• ابن الجزري ، محمد بن ابراهيم الجزري ، جواهر السلوك في الخلفـاء والملوك ، مخطوط رقم ٤٧٥٧٥ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة

٣• ابن حبيب ، الحسن بن عمر بن حبيب ابو محمد بدر الديــــن ، درة الاسلاك في دولة الاتراك ، ميكرو فلم رقم ٥٢٩ ، الجامعــــة الاردنية ، عمان •

٤• ابن دنيفير ، ابراهيم بن محمد بن ابراهيم بن علي اللخمي النابوسـي ، ديوانه ، مخطوط رقم ٨٧٤٤ ، المكتبه الظاهرية ، دمشق•

٥• العيني ، محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد أبو محمد بدر الديــن العيني ، عقد الجمان من تاريخ أهل الزمان ، مخطوط رقم ١٥٨٤ ، تاريخ ، دار الكتب المصرية ، القاهرة •

٦• ابن قاضي شهبة ، بدر الدين أبو الفضل محمود بن أبي بكـــر ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ، ميكرو فلم عن مخطوطة دار الكتب المصرية رقمها ١٢٦٧ تاريخ •

٧• ابن القيسراني ، محمد بن نصر بن صغير ، ديوانه ، مخطوط رقــم ١٤٨٤ أدب ، دار الكتب المصرية ، القاهرة•

٨• ابن نباتة ، محمد بن محمد بن محمد بن الحسن ، الجـزا ئي الفارقي المصري جمال الدين بن نباتة ، الفاضل من كلام القاضي الفاضـل ، مخطوط رقم ٢٨٨٢ أدب دار الكتب المصرية ، القاهرة •

٩• النويري ، أحمد بن عبد الوهاب بن عبد الدائم القرشي التميمي البكـري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، مخطوط رقم ٥٤٩ ، معارف عامـــة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة •

ب• على الالة الكاتبة :

١٠• عبد الحفيظ محمد علي ، الحياة السياسية والاجتماعية عند الصليبيين ، رسالة ماجستير ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥

١١ ـ عادى نمر ، معارك نور الدين في شعر الحروب الصليبية ، رسالة ماجستير ، جامعة القاهرة رقم ٩٠٢ ، القاهرة

ج ـ الكتب المطبوعة :

١٢ ـ ابن الاثير ، نصر الله بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري أبو الفتح ضياء الدين ، رسائل ابن الاثير ، تأنيس المقدسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، سنة ١٩٥٩

١٣ ـ ابن الاثير ، نصر الله بن محمد ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، القاهره ، سنة ١٩٣٩

١٤ ـ ابن الاثير ، عز الدين أبو الحسين علي بن أبي الكرم بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد ، الكامل في التاريخ ، ط دار صادر ودار بيروت ، ١٩٦٦

١٥ ـ ابن الاثير ، عز الدين ابو الحسين ، التاريخ الباهر في الدولة الاتابكية ، بالموصل ، تحقيق عبد القادر أحمد طليمات ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣

١٦ ـ أحمد أحمد بدوي ، الحياة الادبية في عصر الحروب الصليبية بمصر والشام ، ط مكتبة نهضة مصر ، مصر ، سنة ١٩٥٤

١٧ ـ أحمد أحمد بدوي ، صلاح الدين الايوبي بين شعراء عصره وكتابه ، دار القلم ، مصر ، سنة ١٩٦٠

١٨ ـ أحمد أحمد بدوي ، مأمون بني أيوب المعظم عيسى ، مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ، سنة ١٩٥٣

١٩ ـ أحمد بيلي المصري ، حياة صلاح الدين ، مط السعادة ، مصر ، سنة ١٩٢٢

٢٠ ـ أحمد الشايب ، أصول النقد الادبي ، ط ٥ ، مكتبة النهضة المصرية ، سنة ١٩٥٥

٢١ ـ أحمد عبد المجيد الدومي ، صلاح الدين الأيوبي ، ط ٢ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، صيدا ، سنة ؟

٢٢ ـ أحمد مختار العبادي ، قيام دولة المماليك الاولى في مصر والشام ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ، سنة ١٩٦٩

٢٣• أسامة بن منقذ ، مؤيد الدولة أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانــــي الشيزري ، الاعتبار ، حرره فيليب حتي ، ط جامعة برنستـــــــون الولايات المتحدة ،سنة ١٩٣٠

٢٤• أسامة بن منقذ ،البديع في نقد الشعر ، ت أحمد احمد بدوي وحامد عبد المجيد ، ط مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، سنة ١٩٦٠

٢٥• أسامة بن منقذ ، ديوانه ، ت احمد بدوي وحامد عبد المجيد ، المطبعة الاميركية ، سنة ١٩٥٣

٢٦• ألف ليلة وليلة ، ت أنطون صالحاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، سنة ١٩٧٥

٢٧• ابن اياس ، محمد بن أحمد ابن أياس الحنفي ، بدائع الزهور في وقائع الامور ،المكتبة الشعبية ،بيروت ، سنة ١٩٧٠

٢٨• بدري محمد فهد ، تاريخ العراق في العصر العباسي الأخيـــــر ، مطبعة الارشاد ، بغداد ، سنة ١٩٧٣

٢٩• ابن بطوطة ، محمد عبد الله بن محمد بن ابراهيم ، رحلته ، دار صادر ودار بيروت ،سنة ١٣٨٤/ ١٩٦٤

٣٠• البنداري ، الفتح بن علي بن محمد البنداري الاصفهاني ، مختصر تاريخ دولة آل سلجوق ، مطبعة الموسوعات ،مصر ،سنة ١٣١٨/ ١٩٠٠

٣١• بهاء الدين زهير بن محمد بن علي المهلبي العتكي ، ديوانــــه ، دار صادر ودار بيروت ، بيروت ،سنة ١٣٨٣/ ١٩٦٤

٣٢• البوصيري ، محمد بن سعيد بن حماد بن عبد الله بـــن صنهــاج بن هلال الصنهاجي ، ديوانه ، ت محمد سيد كيلاني ، مطبعـــة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، سنة ١٣٧٤/ ١٩٥٥

٣٣• تامارا تالبوت رايس ، السلاجقة ، تاريخهم وحضارتهم ، ترجمــــة لطفي الخوري وابراهيم الداقوقي ، مطبعة الارشاد ، بغـــداد ، سنة ١٩٦٨

٣٤• ابن تغري بردي ، جمال الدين ابو المحاسن يوسف ، النجـــوم الزاهرة في اخبار ملوك مصر والقاهرة ، طبعة مصورة عن دار الكتب ؟

٣٥• الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن اسماعيل الثعالبـــــي النيسابوري ، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر ، ت محمـــــد محي الدين عبد الحميد ، ط القاهرة سنة ١٩٥٦

٣٦• جب ، السير هاملتون جب ، صلاح الدين : دراسات في التاريخ الاسلامي ، حررها يوسف أنيس ، المؤسسة العربية للدراسات ، بيروت ، سنة ١٩٧٣

٣٧• جب ، السير هاملتون جب ، المدخل في الادب العربي ، ترجمة كاظم سعد الدين ، العراق ، سنة ١٩٦٩

٣٨• جوانفيل ، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة حسن حبشي ، ط ، دار المعارف ، ط مصر ، سنة ١٩٦٨

٣٩• ابن جبير ، ابو الحسين محمد بن احمد بن جبير الكناني الاندلسي الشاطبي البلنسي ، رحلة ابن جبير ، دار صادر ، دار بيروت ، سنة ١٣٨٤/١٩٦٤

٤٠• جودت الركابي ، الأدب العربي من الاغدار الى الازدهار ، ط ١ ، مطبعة زيد بن ثابت ، نشر دار الفكر ، دمشق ، سنة ١٣٩٤/١٩٧٤

٤١• حامد غنيم ، الجبهة الاسلامية في عصر الحروب الصليبية ، مكتبة الشباب القاهرة ، سنة ١٩٧١

٤٢• حسن حبشي ، الحروب الصليبية الاولى ، القاهرة ، سنة ١٩٤٧

٤٣• حسن حبشي ، نور الدين والصليبيون ، القاهرة ، سنة ١٩٦٣

٤٤• حسين عطوان ، مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٧٠

٤٥• الحسيني ، صدر الدين ابو الحسن علي بن السيد الامام ابو الفوارس ناصر بن علي الحسيني ، اخبار الدولة السلجوقية ، ت محمد اقبال ، لاهور ، سنة ١٩٣٣

٤٦ الحنبلي ، ابن العماد ابو الفلاح عبد الحي بن احمد بن محمد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المكتب التجاري ، بيروت ،

٤٧ الحنبلي ، مجير الدين عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد العليمي المقدسي ، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، دار الجيل بيروت ، سنة ١٩٧٣

٤٨• ابن خلكان احمد بن محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن خلكان ، وفيات الاعيان ، ت احسان عباس ، دار الثقافة ، بيروت

٤٩ • ابن الخياط ، أبو عبد الله احمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي ، ديوان ابن الخياط ، ت خليل مردم بك ، مطبعة المجمع العلمي العربي بدمشق سنة ١٣٧٧/ ١٩٥٨

٥٠ • ابن الدهان ، ابو الفرج الموصلي ، ديوان ابن الدهان ، ت عبد الله الجبوري ط ١ ، مطبعة المعارف ، بغداد سنة ١٣٨٨/ ١٩٦٨

٥١ • ابن دقماق ، ابراهيم بن محمد ، الانتصار لواسطة عقد الامصار ، مطبعة بولاق سنة ١٣١٠/ ١٨٩٣ •

٥٢ • رشيد الجميلي ، دولة الاتابكة في الموصل بعد عماد الدين زنكي ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٠ •

٥٣ • رئيف التميمي ، الحروب الصليبية ، مطبعة اللواء ، القدس ، سنة ١٩٤٥

٥٤ • الزركلي ، خير الدين الزركلي ، كتاب الاعلام ط ٣ ، بيروت ، ١٩٦٩

٥٥ • زكي مبارك ، النثر الفني في القرن الرابع الهجري ط ٢ ، مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٩٥٧

٥٦ • زكي المحاسني ، شعر الحرب في أدب العرب ط ٢ ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٧٠

٥٧ • زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والاقتصادية بين العرب والفرنج خلال الحروب الصليبية ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، سنة ١٩٥٨

٥٨ • ابن الساعي ، علي بن أنجب ، الجامع المختصر ، نشر مصطفى جواد مطبعة السريانية الكاثوليكية ، بغداد ، سنة ١٣٥٣/ ١٩٣٤ •

٥٩ • ابن الساعاتي ، ابو الحسن علي بن رستم بن هردوز ، ديوان ابن الساعاتي ، ت أنيس المقدسي ، المطبعة الاميركانية ، بيروت ، سنة ١٩٣٨ والجزء الثاني سنة ١٩٣٩

٦٠ • سبط بن التعاويذي محمد بن عبد الله ، ديوان سبط بن التعاويذي ، ت • د • س • مرجليوث ، مطبعة المقتطف ، مصر ، سنة ١٩٠٣

٦١ • سبط بن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد ، سنة ١٩٥١

٦٢ • ستيفن رنسيمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، نقله السيد الباز العريني ، دار الثقافة ، بيروت ، سنة ١٩٦٧ ، ١٩٦٨ ، ١٩٦٩ •

٦٣٠ سعيد عبد الفتاح عاشور ، الحركة الصليبية ، مكتبة الانجلو مصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٧٥

٦٤٠ سعيد عاشور ، حضارة ونظم أوروبا ، دار النهضة العربية ، بيروت ، سنة ١٩٧٦

٦٥٠ ابن سناء الملك ، هبة الدين بن جعفر ، ديوان ابن سناء الملك ، ت محمد عبد الحق ، ط ١ دائرة المعارف العثمانية ، حيد أباد الدكن ، الهند ، سنة ١٣٧٧ / ١٩٥٨

٦٦٠ سيد قطب ، النقد الادبي ، بيروت

٦٧٠ سهيل زكار ، مدخل الى تاريخ الحروب الصليبية ، دار الامانة ، بيروت ط ١ ، سنة ١٣٩١/١٩٧٢

٦٨٠ السيوطي ، عبد الرحمن بن أبو بكر ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، ط ادارة الوطن ، مصر ، سنة ١٢٩٩

٦٩٠ شاكر أحمد أبو بدر ، الحروب الصليبية والاسرة الزنكية ، الجامعة اللبنانية ، بيروت ، سنة ١٩٧٢

٧٠٠ ابن شاكر الكتبي ، محمد بن شاكر الكتبي ، فوات الوفيات ، ت محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٩٥١

٧١٠ أبو شامة المقدسي ، شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي ، كتاب الروضتين في أخبار الدولتين : النورية والصلاحية ، ت محمد حلمي أحمد ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، مصر ، سنة ١٩٥٦ ، ١٩٦٢

٧٢٠ ابو شامة المقدسي ، كتاب الروضتين ، مطبعة دار الجيل ، ط ٢ ، بيروت ، سنة ١٩٧٤

٧٣٠ أبو شامة المقدسي ، كتاب الذيل على الروضتين ، مطبعة دار الجيل ط ٢ ، بيروت ، سنة ١٩٧٤

٧٤٠ ابن شاهين الظاهري ، غرس الدين خليل ، كتاب زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تبولس راويس ، مطبعة الجمهورية باريس ، ١٨٩٤

٧٥٠ ابن شاهنشاه الايوبي ، محمد بن تقي الدين عمر ، مضمار الحقائق وسر الخلائق ، ت حسن حبشي ، دار الهناء ، القاهرة ، سنة ١٩٦٨

٧٦• ابن شداد ، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ت جمال الدين الشيال ، مطبعة الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، سنة ١٩٦٤

٧٧• شرف الدين الانصاري ، ديوانه ، ت عمر موسى باشا ، مطبعة الهاشمية دمشق ، سنة ١٣٨٧/١٩٦٧

٧٨• شهاب الدين محمود بن سلمان بن فهد بن محمود الحنبلي الحلبي ، حسن التوسل الى صناعة الترسل ، مطبعة أمين أفندي ، مصر ، ١٣١٥

٧٩• شوقي ضيف ، الفن ومذاهبه ط ٧ ، دار المعارف ، مصر ، ١٩٦٩

٨٠• صلاح الدين المنجد ، ولاة دمشق في العهد السلجوقي ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، سنة ١٩٧٥

٨١• ابن طباطبا ، محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقا ، الفخري في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، دار صادر ، دار بيروت ، بيروت ، سنة ١٣٨٦/١٩٦٦

٨٢• طلائع بن رزيك ، ديوانه ، جمع محمد هادي الأميني ، ط مطبعة النعمان ، النجف الاشرف ، العراق ، سنة ١٣٨٣/١٩٦٤

٨٣• ظافر الحداد ، ديوانه ، ت حسين نصار ، دار مصر للطباعة ، ١٩٦٩

٨٤• عارف العارف ، تاريخ القدس ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٥١

٨٥• ابن الظاهر ، عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي محيي الدين ، الدر النظيم من ترسل عبد الرحيم ، ت أحمد بدوي ، مطبعة الرسالة ، مصر ، سنة ١٩٥٩

٨٦• ابن عبد الظاهر ، تشريف الايام والعصور في سيرة الملك المنصور ، ت مراد كامل ، وزارة الثقافة ، مصر ، سنة ١٩٦١

٨٧• عبد العزيز الاهواني ، ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر ، مكتبة الانجلو مصرية ، سنة ١٩٦٢

٨٨• عبد القادر اليوسف ، علاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر ، منشورات المكتبة العصرية ، صيدا ، سنة ١٩٦٩

٨٩• عبد الكريم توفيق العبود ، الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ، وزارة الاعلام ، بغداد ، سنة ١٩٧٦

٩٠• عبد اللطيف حمزة ، أدب الحروب الصليبية ، مطبعة الاعتماد ، نشر دار الفكر العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

٩١ ـ عبد اللطيف حمزة ، الأدب المصري من قيام الدولة الأيوبية إلى مجيء الحملة الفرنسية ، مكتبة نهضة مصر

٩٢ ـ عبد المنعم ماجد ، الناصر صلاح الدين يوسف ، مكتبة الانجلو مصرية ، مصر ١٩٦٧

٩٣ ـ ابن العبري ، عمر يوحنا بن توما الملطي ، تاريخ مختصر الدول ، وقف على طبعه أنطون صالحاني ، المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، سنة ١٩٥٨

٩٤ ـ ابن العديم ، عمر بن أحمد ، زبدة الحلب من تاريخ حلب ، ت سامي الدهان ، الكاثوليكية ، بيروت ، سنة ١٩٥٤ ، ١٩٦٨

٩٥ ـ عرقلة الكلبي ، ديوانه ، ت احمد الجندي ، مطبعة دار الحياة ، دمشق ، سنة ١٣٩٠ / ١٩٧٠

٩٦ ـ علم الدين أيدمر المحيوي ، ديوانه ، ت أحمد نسيم ، ط دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٣٥٠ / ١٩٣١

٩٧ ـ العماد الاصفهاني ، أبو عبد الله محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن هبة الله ، تاريخ دولة آل سلجوق ، القاهرة ، سنة ١٣١٩ هـ

٩٨ ـ العماد الاصفهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر ، قسم شعراء الشام ، ت شكري فيصل ، المطبعة الهاشمية ، ج ١/١٩٥٥ ، ج ٢/١٩٥٩ ، ٣/١٩٦٤

٩٩ ـ العماد الاصفهاني ، الخريدة قسم شعراء مصر ، ت أحمد أمين وشوقي ضيف واحسان عباس ، لجنة الترجمة والتأليف والنشر القاهرة ، ١٩٥١

١٠٠ ـ العماد الاصفهاني ، الخريدة القسم العراقي ، محمد بهجة الاثري ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، سنة ١٩٦٤

١٠١ ـ العماد الاصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي ، ت محمد محمود صبح الدار القومية للطباعة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٦٥

١٠٢ ـ عمارة اليمني ، النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية ، ت درتويغ درنبرغ ، مطبعة مرسو في مدينة شالون ، سنة ١٨٩٧

١٠٣ ـ عمر كمال توفيق ، مقدمات العدوان الصليبي ، جامعة الاسكندرية سنة ١٩٦٦

١٠٤ ـ عمر موسى باشا : الأدب في بلاد الشام عصور الزنكيين والايوبيين والمماليك ، دار الفكر الحديث ، دمشق ، سنة ١٩٧٢

١٠٥ ـ عمر موسى باشا : أمير شعراء المشرق ، ابن نباته المصري ، دار المعارف القاهرة ، سنة ١٩٦٣

١٠٦ • ابن عنين ، ديوانه ، ت خليل مردم بك ط ٢ ، دار صادر ، بيروت ،

١٠٧ • غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، نقل عادل زعيتر ط ٣ ، دار احياء الكتب العربية ، مطبعة عيسى البابي الحلبي ، القاهرة ، ١٩٥٦

١٠٨ • الفارقي ، أحمد بن يوسف بن علي بن الازرق الفارقي ، تاريخ الفارقي ، ت بدوي عبد اللطيف عوض ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية ، القاهرة ، سنة ١٣٧٦/١٩٥٩

١٠٩ • فاروق جرار ، محمد بن نصر القيسراني ، حياته وشعره ، المطابع التعاونية ، عمان ، سنة ١٩٧٤

١١٠ • فتيان الشاغوري ، ديوانه ، ت أحمد الجندي ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، دمشق ، سنة ١٩٦٧

١١١ • ابو الفداء ، اسماعيل بن علي ، المختصر في أخبار البشر ، المطبعة الحسينية ، مصر

١١٢ • ابن الفرات ، محمد حسين عبد الرحيم ، تاريخ ابن الفرات ، ت حسن الشماع ، مطبعة حداد ، البصرة ، سنة ١٣٨٦ / ١٩٦٧

١١٣ • ابن الفرات ، تاريخ ابن الفرات ، جـ٧ جـ٨ ت قسطنطين زريق ونجلاء عز الدين ط الاميركانية ، بيروت ، سنة ١٩٣٩ / ١٩٤٢

١١٤ • فيشر ، تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، نقل محمد مصطفى زيادة والباز العريني ط ٥ ، دار المعارف ، مصر ، سنة ١٩٦٩

١١٥ • القرآن الكريم .

١١٦ • القزويني ، زكريا بن محمد بن محمود ، آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ودار بيروت ، سنة ١٣٨٠ / ١٩٦٠

١١٧ • ابن القلانسي ، أبو يعلى حمزة ، ذيل تاريخ دمشق ، ط الآباء اليسوعيين ، بيروت ، سنة ١٩٠٨

١١٨ • القلقشندي ، أبو العباس أحمد ، صبح الاعشى ، مصورة عن الطبعة الاميرية ، القاهرة .

١١٩ • ابن كثير ، ابو الفداء اسماعيل بن عمر ، البداية والنهاية ، مطبعة السعادة ، مصر ، سنة ١٣٤٨

١٢٠ • مجهول ، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، تحقيق حسن حبشي ، دار الفكر العربي ، القاهرة ، سنة ١٩٥٨

١٢١ • محمد راغب الطباخ الحلبي ، أعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، مطبعة العلمية ، حلب ، سنة ١٣٤٢ / ١٩٢٤

١٢٢ • محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر الأيوبي ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٦٨

١٢٣ • محمد زغلول سلام ، الأدب في العصر المملوكي ، دار المعارف ، مصر سنة ١٩٧٠

١٢٤ • محمد زغلول سلام ، ضياء الدين بن الاثير ، دار المعارف ، مصر ،

١٢٥ • محمد زغلول سلام ، تاريخ النقد العربي من ق ٥ ـ ١٠ ، دار المعارف مصر ، ؟

١٢٦ • محمد سيد كيلاني ، الحروب الصليبية وأثرها في الادب العربي في مصر والشام ، دار الكتاب العربي ، مصر ، سنة ١٩٤٩

١٢٧ • محمد كامل حسين ، في أدب مصر الفاطمية ، دار الفكر العربي مصر ، سنة ١٩٥٠

١٢٨ • محمد كامل حسين ، دراسات في الشعر في عصر الأيوبيين ، دار الكتاب العربي ، مصر ، سنة ١٩٥٧

١٢٩ • محمود ابراهيم ، صدى الغزو الصليبي في شعر ابن القيسراني ، المكتب الاسلامي ، ومكتبة الاقصى ، دمشق ، عمان ، سنة ١٩٧١

١٣٠ • محمود رزق سليم ، عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والادبي ، مطبعة الاداب ، مصر ، سنة ١٩٦٥

١٣١ • محمود صداقي ، الأدب العربي في مصر من الفتح الاسلامي الى نهاية العصر الايوبي ، المؤسسة العامة للتأليف والترجمة ، سنة ١٩٦٧

١٣٢ • ابن مطروح ، الصاحب جمال الدين ، ديوانه ط ١ ، مطبعة الجوائب قسطنطينية ، سنة ١٢٩٨ هـ

١٣٣ • المقّري ، أحمد بن محمد المقري ، نفح الطيب ، احسان عباس ، دار صادر بيروت ، سنة ١٣٨٨ / ١٩٦٨

١٣٤ • المقريزي ، تقي الدين أحمد بن علي ، السلوك لمعرفة دول الملوك ، ت محمد مصطفى زيادة ، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٣٤

١٣٥ • المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والاثار ، ط بولاق ، مصر سنة ١٢٧٠ هـ

١٣٦ ـ مكسيموس مونروند ، من تاريخ الحروب المقدسة في الشرق ، المدعوة حرب الصليب ، ترجمة مكسيموس مظلوم ط ، دير الرهبان الفرنسيان القدس ، سنة ١٨٦٥

١٣٧ ـ ابن منظور ، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الافريقي المصري ، لسان العرب ، دار صادر ودار بيروت ، سنة ١٩٥٦

١٣٨ ـ ابن ميسر ، محمد بن علي بن يوسف ، أخبار مصر ، تصحيح هنري ماسين ، مطبعة المعهد الفرنسي ، القاهره ، سنة ١٩١٩

١٣٩ ـ المؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام ، بيروت ، الدار المتحده للنشر ، سنة ١٩٧٤

١٤٠ ـ ناصر خسرو علوى ، سفرنامه ، ترجمة وتعليق يحيى الخشاب ، ط ١ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، سنة ١٩٤٥

١٤١ ـ ابن النبيه ، علي بن محمد ، ديوانه ، المطبعة العلمية ، القاهره ، ١٣١٣هـ

١٤٢ ـ النويري ، نهاية الارب في فنون الادب ، المؤسسة المصرية العامة ، دار الكتب ، القاهرة ، سنة ١٩٢٥ ـ ١٩٥٥

١٤٣ ـ النويري ، محمد بن قاسم الاسكندري ، الإلمام بالأعلام فيما جرت به الاحكام والامور المقضية في وقعة الاسكندرية ، اتين كومب وعزيز عطية ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر اباد ، الدكن ، سنة ١٩٦٨

١٤٤ ـ ابن واصل ، جمال الدين محمد بن سالم بن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني ايوب ، ت جمال الدين الشيال ، الأميرية ١٩٥٣/١ ، ١٩٥٧/٢ ، ١٩٦٠/٣

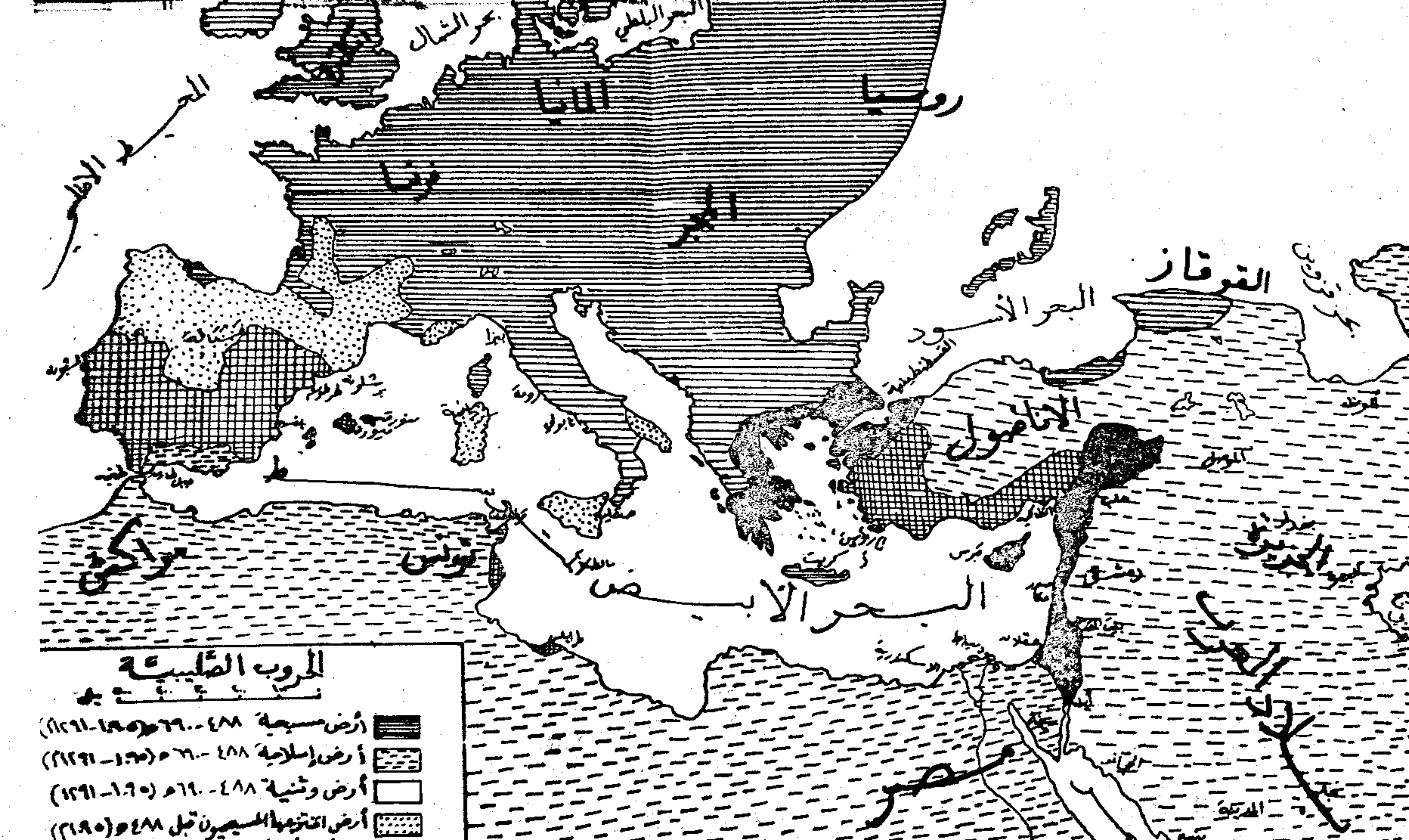
١٤٥ ـ ابن واصل ، مفرج الكروب ٤ ، ت حسين محمد ربيع وسعيد عاشور ، مطبعة الكتب ، سنة ١٩٧٢

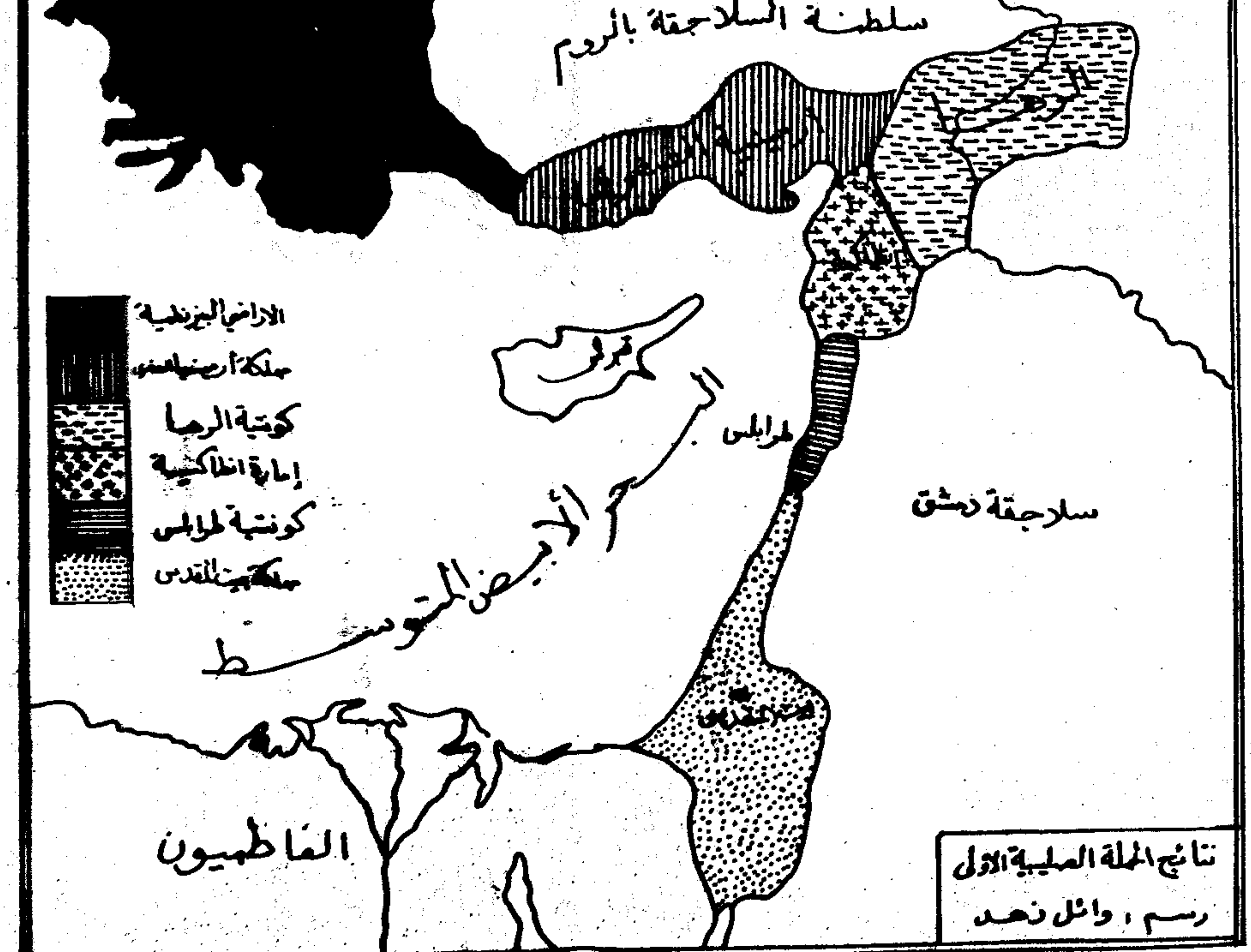
١٤٦ ـ ابن الوردى ، ابو حفص زين الدين عمر ، تاريخ ابن الوردى ، المطبعة الوهبية ، القاهرة ، سنة ١٢٨٥ / ١٨٦٨

١٤٧ ـ اليافعي ، عبدالله بن سلامه بن علي بن سليمان ، مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، مطبعة المعارف النظامية ، حيدر اباد والدكه ، ١٣٣٨

١٤٨ ـ ياقوت الحموي ، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ، سنة ١٩٥٥

المحتوى


الحروب الصليبية
أرض مسيحية ٤٨٨-٦٩٠هـ (١٠٩٥-١٢٩١م)
أرض إسلامية ٤٨٨-٦٩٠هـ (١٠٩٥-١٢٩١م)
أرض وثنية ٤٨٨-٦٩٠هـ (١٠٩٥-١٢٩١م)
أرض انتزعها المسيحيون قبل ٤٨٨هـ (١٠٩٥م)
المحيط الأطلسي
بحر الشمال
البحر البلطي
ألمانيا
روسيا
فرنسا
المجر
القوقاز
بحر قزوين
البحر الأسود
القسطنطينية
الأناضول
البحر الأبيض
تونس
مراكش
مصر
بلاد العرب
قبرص
كريت
دمشق
القدس
الإسكندرية
دمياط
عسقلان
المدينة
روما
بيزا
طليطلة
قشتالة
برشلونة
بغداد

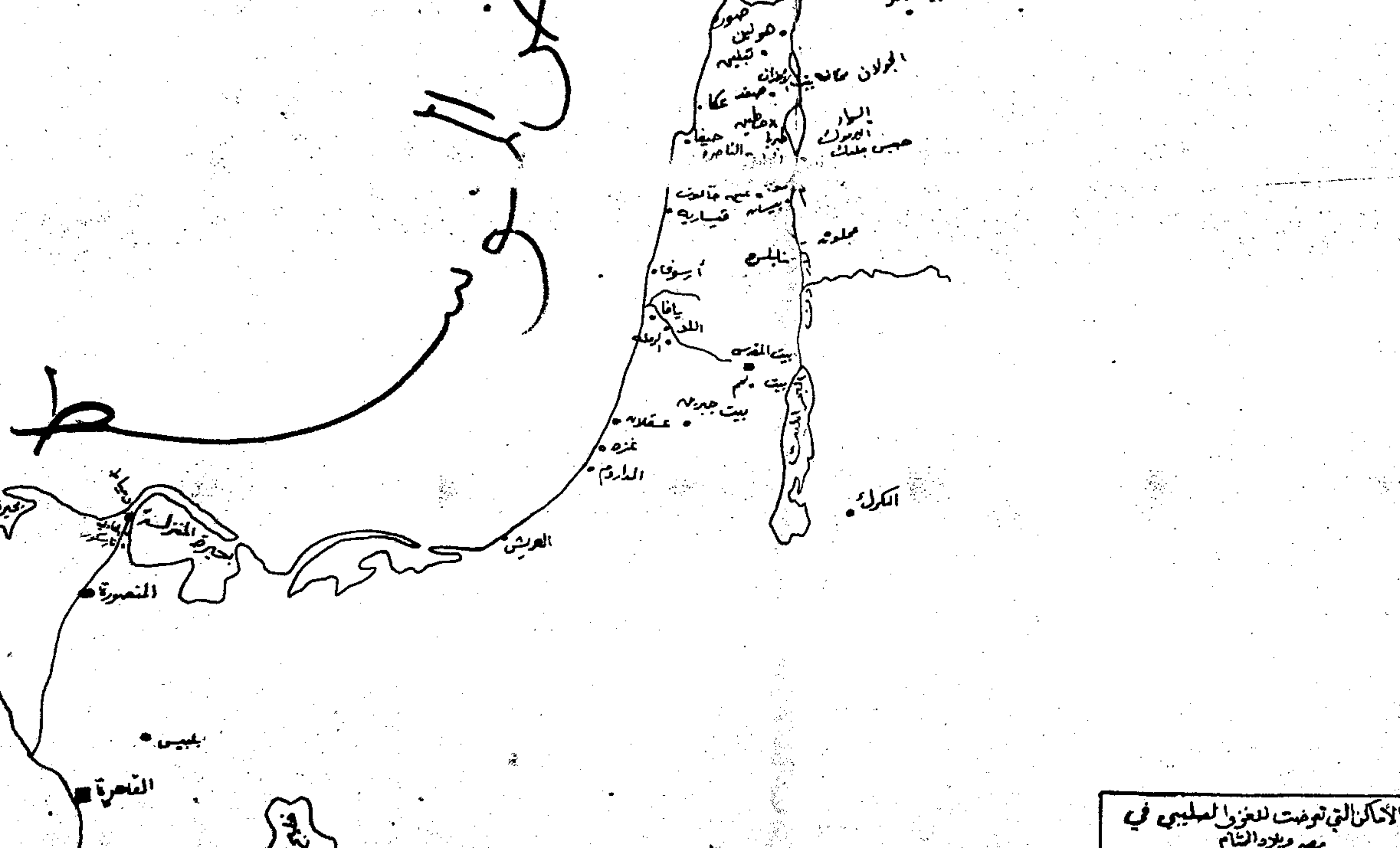


نتائج الحملة الصليبية الأولى
رسم : وائل نحد
سلطنة السلاجقة بالروم
سلاجقة دمشق
الفاطميون
البحر الأبيض المتوسط
قبرص
طرابلس
الاراضي البيزنطية
كونتية الرها
إمارة انطاكية
كونتية طرابلس


نتائج الحملة الصليبية الثالثة
سلطنة السلاجقة بالروم
الامبراطورية البيزنطية
مملكة أرمينيا الصغرى
إمارة انطاكية
قبرص
كونتية طرابلس
البحر الأبيض المتوسط
عكا
مملكة بيت المقدس
امبراطورية صلاح الدين
بقايا الدول الصليبية



الامبراطورية البيزنطية
مملكة أرمينية الصغرى
سيس
قليقيه
الأسكندرونة
بغراس
انطاكيه
السويدية
قبرص
حلب
اللاذقية
جبله
بانياس
المرقب
حماه
سلمية
حمص
شيزر
أفامية
كفرطاب
معرة النعمان
البارة
مصياف
قنسرين
دانيت
ارتاح
حارم
عزازه
منبج
قلعة الروم
عين تاب
تل باشر
راوندان
البيرة
بالس
عرقة
عكار
البقاع
القليعة
الكهف
الخوابي
انطرطوس
رفنيه
بعرين
العليقة
العليقة
قلعة نجم
قلعة جعبر



الأماكن التي تعرضت للغزو الصليبي في مصر وبلاد الشام

وقال أسير على لسان القدس وأرسلها الى صلاح الدين :

يا أيها الملك الـــــــــذي ... لمعالم الصلبان نكـــــــس
جاءت اليك ظلامـــــــــة ... تسعى من البيت المقـــدس
كلّ المساجد طهـــــرتْ ... وأنا على شرفي منجـــس (١)

وحكيَ أن فقيراً بات بالقدس فسمع قائلا يقول في الليل :

إن يكن بالشآم قل نصـــيري ... وتهدّمتُ ثم دام هلوكـــي
فلقد أصبح الغداة خرابـــي ... سمة العار في حياة الملـــوك (٢)

وكتب على أبواب كنيسة في عكا بعد طرد الفرنج عنها سنة ٦٩٠ :

أدمى الكنائس أن يكن عبثت بكـــم ... أيدي الحوادث أو تغيَّر حـــالُ
فلطال ما سجدت على أبوابكـــم ... شم الانوف جحاجحٌ أبطـــال
صبرا على هذا المصاب فإنـــه ... يوم بيوم والحروب سجـــال (٣)

وقال بعض شعراء المشرق في صلاح الدين :

الله أكبر جاء القدس هاديهـــا ... ورام أسهم دين الله راميهـــا
فكم لمصر على الامصار من شـــرف ... بيوسفين وهل أرضٌ تدانيهـــا
فبابن يعقوبَ هزّتْ جيدها طربـــا ... وبابن أيوب هزت عطفها تيهـــا
قل للملوك تخلي عن ممالكهـــا ... فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها (٤)

وقال بعض شعراء دمشق سنة ٦٥٧ :-

هلك الكفـــر في الشآم جميعـــا ... واستجدّ الاسلام بعد دحوضـــه
بالمليك المظفر الملـــك الارْ ... وَع سيف الاسلام عند نهوضـــه
ملك جاءنا بعزم وحـــزْم ... فاعتززنا بسمره وبيضـــه (٥)

---

(١) الانس الجليل ٣١٨ وزبدة كشف الممالك ص ٦٠
(٢) نهاية الارب جـ ٢٧ ورقه ٣٩
(٣) جواهر السلوك ورقة ٤٨ ، درة الاسلاك ورقة ١٦١
(٤) مرآة الجنان جـ ٣ / ٤٦٥
(٥) النجوم الزاهرة ٧/ ٧٧

د • المجـــــــــلات :

١٤٩ • مجلة الهلال ج ٩ ، السنة الحادية والثلاثون ، سنة ١٩٧٦

١٥٠ • مجلة المعرفة ع ١٥٥ ، كانون ثاني ، سنة ١٩٧٥

ه • الكتب الأجنبية :

١٥١ • Mahmud Ibrahim, Martial poetry under the Hamdanide of Aleppo. ph.D., 1965.

١٥٢ • Stanley Lane-poole, A History of Egypt in the Middle Ages, Frank Cass and Co. L.T.D., 1968.

١٥٣ • The Encyclopedia of Islam, Leiden-London, 1936.

البـاب الثالـــث

التقويم الفـني

(١٩٩ ـ ٢٩٢)

المــلاحــق:

The study I have chosen: " Crusaders' picture in Arabic Literature" is ustified on the basis that a more comprehensive study would be a difficult task, due to the fact that the poetry and prose written during the Crusades involve a wide range of variety.

This study contains three chapters. The first is the historical framework which deals with the conditions of the Islamic East in Iraq, Syria and Egypt before the Crusades. A special section about the European status before the war is added to clarify the motives behind the war. Then a survey of the wars from beginning to end. follows.

The second chapter is about the forms of struggle between Muslims and invaders. The most important aspect of this struggle was basically religious. This struggle was mainly characterised by the ruthless treatment Muslims received by Christian Europeans.

In the course of cultural struggle Europeans are to be shown backward in their sciences, administration and law, but progressive in war affairs such as in matters relevant to inventing and developing means of fighting, attacking and defence.

Literature has presented a detailed picture of the military struggle, displaying an accurate description of the Crusades army: regarding its construction, supplies, weapons and plans; and it shed light on the Europeans' castles and forts. Literature has also shown that Europeans got their needs for living from overseas supplies

On the other hand, Arabic literature presented a picture of those invaders during armistices and war breaks describing them as playing, cultivating the land gathering the crops, trading and leading different life altogether, presenting this picture of the crusaders.

The writers intended to arouse the feelings of the rulers against the invaders hoping that they would succeed in putting an end to their presence. Research into the literary texts of this period reveals productive literary achievement,

This phenomena was promoted by some eminent characters in the fields of war, politics, administration and literature such as Nour id-deen Zinki, and Saladin and some of his sons, who faced the challenge with courage and strong conviction.

The third chapter is about technical performance in poetic texts, which was to some degree an extension of its equivalent at the end of the fourth and the beginning of the fifth Hegiran centuries. It combines tradition and innoration. This appears in the form and the content of the poem. Some poems were drawn upon old poetry as seen from the beginning of the poem and their decorative pictures. Meanwhile, some of them were produced in a new method especially in Introducing and overdecorating their diction.

It has been noticed that metaphors formed a popular aspect in the poetry of that era, but that was not a new

phenomenon in the 5th Hegiran century. The phenomenon existed before that time, particularly during that period when it reached the excess.

As for prose texts, they were also characterized by the decorative aspect especially in literature in the books that combined history and literature, decorative style, however, varied between excess and moderation.

The letters of AL-Qadi AL-Fadil were compared with those of Al-Imad Al-Asfahani and Ibn-AL-Athir, and it was found out that there were no differences between them.

This finding makes one suspect the view of those who said that Al-Qadi had a special literary school characterized by certain techniques.

When prose and poetry relevant to the crusaders' existence in the Islamic East were compared, a difference in the way of expressing the same subject was noticed, regarding the handling, the treatment and the literary style. As for poetry, it seldom committed itself to logical sequence for it recorded plain truth and analysis of details. It described the psychological movement of the poet and his social environment. In portraying this, poetry might use exaggeration to emit certain effects, and to arouse the emotions. It also colours the events in a way that reflects the poet's identity.

As for prose, it presents the factual incidents and uses sequences and details- Whatever motivation there is in prose it depends on the events themselves. However, the

gap between prose and poetry was sometimes so narrow that prose is changed, in some cases, into poetry which lacks musical.

The three chapters are followed by five appendices. The first contains poems related to the crusades; the second an explanation of some war idioms; the third a table transforming.

Hegiran years to Christian years; the Fourth, the names of Muslim and Crusaders' leaders; the fifth, maps showing places of battles. Some of the maps show the districts occupied by crusaders in the first ninety years of the war, and how their property began to decrease year by year, until, at last, the four emirates ended.